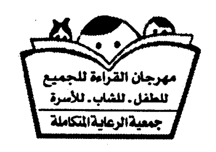
نهضة مصر

تكوّن الفكر والأيديولوجية فى نهضة مصر الوطنية

(١٨٠٥ - ١٨٩٢)

تأليف : د. أنور عبد الملك
ترجمة : د. حمادة ابراهيم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

نهضـة مصـر
(١٨٠٥ ـ ١٨٩٢)
تأليف: د. أنور عبد الملك
ترجمة : د. حمادة ابراهيم

الغـلاف
والإشراف الفنى:
الفنـان : **محمود الهندى**

المشرف العام :
د . سـمير سرحـان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

نهضة مصر
(١٨٠٥-١٨٩٢)

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: **تمثال نهضة مصر**
التقنية: **جرانيت وردى**

محمود مختار (١٨٩١ ـ ١٩٣٤)

فنان ومثال مصرى، ولد فى طنبارة من قرى المحلة الكبرى، ثم رحل فى صحبة أمه إلى قرية نشا بالدقهلية، وأقام بعدها بالقاهرة، تخرج فى مدرسة الفنون بدرب الجماميز ١٩١٠، ثم فى مدرسة الفنون الجميلة العليا بباريس، وتوالى التقدير العلمى له بعد أن صار رائد النحت المصرى الحديث وباعث روحه تأثر بالفن المعاصر وأحيا التراث العريق لمصر القديمة فى أعمال رائعة تمتاز بالبساطة والشاعرية والرقة، وقد رسم الكاريكاتير لبعض المجلات المصرية، هذا إلى جانب عبقريته فى تعامله النحتى مع خامة الجرانيت والبازلت والرخام ومعدن البرونز ويتميز أسلوبه بالأصالة وصدق التعبير، وله متحف خاص يضم أعماله فى الطرف الغربى من حديقة الحرية بأرض الجزيرة منذ ١٩٦٢.

محمود الهندى

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخًا تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

هذا الكتاب يمثل الطبعة العربية - المنقحة ، المجددة - للرسـالة الرئيسية لدكتوراه الدولة فى الآداب من جامعة السوربون -باريس :

«La Formation de l'Idéologie dans la Renaissance Nationale de l'Egypte»
(1805-1892)

التى نالت درجة الامتياز بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٦٩ ، ثم صـدرت فى طبعتها الأولى باللغة الفرنسية :

«Idéologie et Renaissance Nationale : l'Egypte moderne», Anthropos, Paris, 1969.

الى شعب مصر
وباسمه

● الى الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) رائد النهضة الفكرية والثقافية

« وليكن الوطن مكان سعادتنا أجمعين ، نبنيه بالحرية ، والفكر ، والمصنع . »

● الى ابراهيم باشا (١٧٨٩ - ١٨٤٨)

سارى عسكر جيوش مصر

« انى اصبو الى تحقيق هدفين : أولا ، صيانة شرف مصر الخالدة ، ثم اعادة مجدها التليد اليها (...) علينا أن نسعى الى الاستقلال بوصفه الطريقة الوحيدة لنجاتنا ... »

● الى عبد الله النديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦)

باعث الثورة الوطنية الشعبية

« وما خلقت الرجال الا لمصابرة الأهوال ، ومصادمة النوائب ... »

« وبالجملة فان آخر الدواء الكى ، وقد بلغ السيل الزبى . فان رفانا هذا الحزن وشددنا أزر بعضنا ، وجمعنا الكلمة الشرقية مصرية وشامية وعربية وتركية ، امكننا أن نقول لأوربا : نحن نحن وانتم انتم .. »

البحث عن مصر

مسيرة طويلة ، تندرج على مرحلتين رئيسيتين : اعادة بناء دولـة مصر الوطنية المستقلة ، ابتداء من انتخاب محمـــد على واليا للبلاد عام ١٨٠٥ ، حتى ثورة مصر الوطنية حول « الضباط الأحرار » ابتداء من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة جمال عبد الناصر .

المرحلة الأولى من نهضة مصر تنكسر فى ١٨٤٠ بفضل معاهدة لندن الأوربية الشاملة ، تمهيدا لتوغل الموجة الغربية واحتلال أرض الوطن عام ١٨٨٢ . تنكسر ـ أو تكاد : والا ، فكيف نفسر تحرك الوطنية المصريـة الجديد حول اسماعيل ، ثم ثورة عرابى ؟ ومن بعدها تكون الحزب الوطنى، ثم الوفد ، ثم الحركة الثورية الحديثة ؟ المرحلة الثـانية لنهضة مصر تنكسر أيام حرب يونيو ١٩٦٧ السوداء . تنكسر أو تكاد : يتحرك شعبنا العظيم فى ٩ و ١٠ يونيـو لحماية قائد الثـورة والباعث المطعون لمصر الناهضة ، ويعاد صياغـة الارادة والقوة المصريـة العربية ، حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وعبور القنال ، بحيث يصبح التحرك المصرى العربى أحد العاملين الرئيسيين اللذين يستقطبان حقا عملية تغير العالم فى عصرنا ، انطلاقا من ثورات شعوب الشرق ، وتبديل اشكالية العلاقات الاقتصادية . وفوق هذا وذاك ، عبر التساؤل الحضارى الكبير : حول المشروع الحضارى وصـلاحيته ، وحول المشاريع الحضـــارية المختلفة ، ومن ثم ، حـول الاستراتيجية الحضارية المواكبة لكل منها فى قلب تبدل ميزان القوى ـ فى جميع قطاعات الحياة الانسانية ـ تحت أنظارنا .

نهضة مصر ، مرة تلو المرة . هكذا استشعرنا حيـــاتنا على أرض الوطن ، وفى قلب أمتنا العربية . هكذا كانت الأيام والليالى ، رســـالة المسيرة المصرية والعربية المتشابكة التى عاشها ذلك « الجيل الذى كان على موعد مع القدر » على حد تعبير القائد الراحل العظيم .

يرتفع الستار ، اذن ، مرتين على نهضة مصر الوطنية · تتكرر موجات الكسر والحصار ، والاجهاض · لكنها ، رغم ضراوتها واستمراريتها . تبدو وكأنها أقل فاعلية من التحرك النهضوى الجذرى العميق · وفي هذه اللحظة ، فى هذه اللحظة بالذات ، أى بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بقيادة جمال عبد الناصر وصحبه رجال « مجلس قيادة الثورة » ، وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ بقيادة أنور السادات وأحمد اسماعيل . ترتفع شيئا فشيئا ، من زوايا تبدو أول وهلة أنها متباينة . نغمة الاستهزاء ، والتشكك ، ثم التنكر لفكرة « النهضة » والتنديد بها وبرجالها ومفكريها : فكيف ترى تستطيع مصر الهامشية ، وأمتنا العربية المتخلفة ، كيف تستطيع مصر العربية أن تدعى لنفسها النهضة ؟ أليست النهضة مقصورة على أوربا ، حيث تمت بالفعل «النهضة الأوربية» أثناء صعود البرجوازيات الأوربية الى السلطة . على أنقاض النظام الاقطاعى الملكى ، وبفضل فائض القيمة التاريخى المتراكم لديها على حساب الشرق . على حساب القارات الثلاث المضروبة آنذاك ؟ وهل من نهضة . ترى ما لم ترتفع شعارات العلمانية ، ومنطق الانتاج والاستهلاك ، والفلسفة المادية ، وقيم المجتمع الصناعى ، أى ، فى كلمة ، أيديولوجية التقدم بمفهومها المتنكر للتعالى الفلسفى ، للبعد الروحى ، الدينى ، الحضارى للجدلية الاجتماعية ؟ فهل من نهضة اذن دون تقليد الغرب ، والاندماج فى قالبه بشكل طيع مسالم ؟ ثم : ما الحاجة الى نهضة ، ترى ؟ أفلا تكفينا عملية نقل المعلومات ، نقل العلم والتكنولوجيا ، والاكتفاء من ناحيتنا بدور التلميذ الطيع النبيه ، على أرض أراد لها العملاء الحضاريون أن تكون أرض السياحة والتوغل ، بينما رسالتها دوما مركزا للابداع الفكرى . والتحرك الحضارى ، والريادة السياسية عبر الأجيال ؟

والذى يهمنا الآن ، فى هذه البدايات ، هو أن ندقق النظر فى توقيت هذه الموجة المضادة · لا لأنها بداية مطلقة : فقد كانت هناك تيارات وجذور هامة بين ١٨٠٥ و ١٩٥٢ ترى هذا الرأى ، ولكنها لم تحتل مكانة الصدارة الا أثناء الاحتلال الأجنبى ، وفى القطاعات السياسية والاجتماعية والفكرية المنكسرة ، أو العميلة · فمنذ حروب محمد على ودولته العظيمة التى اقامها على أساس يجمع بين المصنع والسلاح ، بين العلم والحرية ، فى اطار مشروع حضارى عظيم ، ألا وهو بعث الدولة الاسلامية العصرية القوية ونقل صولجانها من القسطنطينية الى القاهرة ، كاد الغرب أن يستقر على أن شعبنا الوادع الوديع لن يعود الى طريق المجد والنهضة الحضارية · فالثمن باهظ ، والحصار محكم ، والقوى الداخلية منقسمة ، أو تكاد · هكذا كان تفكير الغرب المستعمر المهيمن بين معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وصباح ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، رغم ثورات أحمد عرابى وصحبه ، والوفد المصرى ، وبدايات الثورة الوطنية والاجتماعية بعد حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ·

« ارفع رأسك يا أخي ، فقد انتهى عهد الاستعمار » ، شعار يرتفع في سماء مصر في نهاية يوليو ١٩٥٢ ، فسرعان ما يتجاوب معه الحركات الوطنية والقومية والثورية في أركان الأمة ، فتبـــدأ مسيرة ثورة مصر الوطنية في قلب عملية الوحدة العربية في اطار التحرك الافريقي الآسيوي ، أي تحرك الشرق الحضاري حول باندونج بين ١٩٥٠ و ١٩٧٣ · ومرة أخرى ، بدت مؤامرات الكسر والحصار الاجهاض · ومرة أخرى حققت نجاحا مؤلما ، ولكنه محصور ، ومرحلي ·

هنا تبدأ المرحلة الثالثة لنهضة مصر الوطنية في قلب أمتنا العربية · مرحلة جديدة ، ترتكز على المرحلتين الســـابقتين ، وان كانت مناهجها وتشكيلاتها في مرحلة التكوين · مرحلة جديدة ، سوف يتناولها بعدنا جيل جديد من رجال الفكر والعمل · ولكنها بيت القصيد ، أو نهاية المطاف للمرحلتين الأولى والثانية في نهضة مصر الوطنية لتصفية هذا الجو الواجم ، المتنكر لمجموع الايجابيات ، للريادة الاجتماعية ــ السياسية والفكرية ، للتجديد والابداع ، لكل ما يؤكد دور مصر الريادي في تغيير العالم ، في تشكيل مصير الحضارة ــ كلما كان حكم مصر بين أيدي القوى الوطنية الرئيسية ، العازمة على تأكيد مكانة الوطن وسيادة أبنائه · موضوع جديد ، كبير ، ربما حاولنا أن نسهم فيه اسهاما متواضعا ، لو سمحت ظروف الدنيا بذلك بعد طول غياب ·

ما العلاقة بين هذه المقدمات . والبحث الذي نقدمه للقارىء المصري العربي اليوم ، وقد صدر للمرء الأولى عام ١٩٦٩ خارج الوطن ؟

نعود الى اشكالية المرحلة الثانية لنهضة مصر الوطنية المواكبـــة لبدايات تحقق الوحدة العربية ، ابتداء من ثورة يوليو ١٩٥٢ · الوثبة عظيمة ، وعملية الدفاع جبارة ، والانجازات ، رغم تناقضاتها ، شامخة · وفي نفس الوقت ، جاءت الموجة المضادة الشرسة المتصلة ·

تاريخ الثورة المصرية ، وقد أفردنا له دراسة ريادية ، جاءت الأولى من نوعها في آنها ، وبالنسبة لظاهرة الثـورة المصرية ، وكذا بالنســـبة لظاهرة الثورات الوطنية والوطنيـــة الراديكالية التقـــدمية في العـــالم اللا ــ غربي (١)

(١) صدر هذا المؤلف أولا في باريس ، عام ١٩٦٢ ، ثم في طبعة كاملة تحت عنوانه الأصلي : **المجتمع المصري والجيش** (١٩٥٢ ــ ١٩٧٠) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٤ · وقد صدرت أيضا طبعات باللغات الأسبانية ، والايطالية ، والانجليزية ، والألمانية ·

وسرعان ما ظهر تناقض غير مألوف ، فى قلب القوى الســـياسية المتحركة لدفع ثورتنا الى الامام ، اتخذ شكل « الحرب فى الظلام » : بين الاسلام السياسى والضباط الأحرار من ناحية ، ثم بين اليسار الوطنى والدولة من ناحية أخرى · وقد شاءت الظروف أن تصيب الضربات معظم القوى التى منها تشكل هذا الجيل الذى كان على موعد مع القدر · وشاءت، بينما شاءت ، فى أن تجتمع نخبة الطليعة التقدمية المصرية آنذاك فى معتقل أبى زعبل على مراحل ، بين ١٩٥٤ و ١٩٦٤ · شاءت الظروف ، والظروف تشاء ، أن يكون كاتب هذه السطور مع اخوانه وزملائه فى هذا المقام ، والمكان ، من أبريل ١٩٥٥ الى مايو ١٩٥٦ فى عالم غريب ، حيث كان الامتحان والعود الى الجذور ·

وكان السؤال ، السؤال الملح ، هو : كيف نفسر هذه الظاهرة ؟

اذا كان التفسير اقتصادى ــ اجتماعى ، أى من خــلال التحليـــل الطبقى المعهود ، فكيف يفسر أن القوى التى أمرت بهذا الوضع هى فى الواقع وبشكل أساسى من نفس الشريحة الاجتماعية ــ أى الرأسمالية الوطنية المصرية ، الرأسمالية الصغيرة فى الريف والمدن وصغار الملاك ، والموظفين ، وكذا المثقفين ، والفنيين ، والضباط ــ التى منها تتكـــون فصائل التقدميين ، باضـــافة قطاع هام من ممثلى الطبقة العاملة وبعض مناطق الريف بالنسبة للقوى التقدمية · كيف نفسر هذا الوضع الغريب، لو لجأنا الى التحليل السياسى ؟ ألم نكن جميعا نهدف الى استئصـــال الحصار الاستعمارى الذى جاءنا بعد جلاء القوات البريطانية ، وكان سوف يتخذ بعد شهور شكل حرب السويس ؟ ألم نجمع على انهـــاء النظام الملكى ، واقامة الجمهورية ، واعطائها مضمونا اجتماعيا متقدما اتخـذ فيما بعد صورة نسبة ٥٠٪ للعمال والفلاحين ؟ ألم نسع جميعا الى الربط بين حركتنا الوطنية الثورية المصرية من ناحية وبين قوى التقدم العربى فى اطار الوحدة العربية عبر تجربة الجمهورية العربية المتحدة الأولى مع سورية الشقيقة ؟ ألم نعمل بدأب وتبصر على صياغة السياسة الثقافية وكذا أركان الثقافة الوطنية المصرية العربية ؟ ألم نتجه الى التجاوب بل والتحالف مع عموم حركات التحرر فى العالم والقوى الاشتراكية ودولها، فى مواجهة الاستعمار والصهيونية ؟ اذن : من أين هذه « الحرب فى الظلام » ؟ من أين هذه المصادمات الأهليـــة المفتعلة ، المصطنعة ، غير المفهومة ، وكأنها بدون معقولية ولا منهج ولا تفسير ؟ من أين اذن عملية استنزاف القوى الوطنية فى مصر ؟ كيف تم هذا ؟ من نحن ، ان كنا على خصام ، رغم الوئام ؟ ·

سؤال ملح ، سؤال مؤرق ، يرفرف حول المعارك الداخلية السياسية فى هذه المرحلة المؤلمة ·

من هنا ، من هذا السؤال ، من هذه الاشكالية الحياتية لحركتنا الوطنية المصرية ، من هنا ، اذن ، بدأ البحث الذى انتهى ، مؤقتا ، الى رسالة ١٩٦٩ ، التى نقدمها مع بعض التنقيح البسيط الى اخواننا فى الوطن والأمة اليوم ٠

ان كانت التفسيرات الاقتصادية ــ الاجتماعية ، والسياسية البحتة لا تكفى ، فأين يكون البحث اذن عن عامل التمايز الذى يمكن أن يفسر هذه « الحرب فى الظلام » ؟ وهنا بدأنا فى عملية تنقيب القطاع الأوسع ، الأعم ، أى الثقافى ــ الفكرى ــ الأيديولوجى ، على أساس أن مصر ، أم الدنيا ، تتمتع بعمق للمجال التاريخى لابد وأن يكون قد أعطى لمكوناتها صيغا من الخصوصية علينا أن نتكشفها ٠ والصيغة الأولى ، صيغة العروة الوثقى ، صيغة الجبهة الوطنية المتحدة ، صيغة التلاحم بين رجال الفكر والسلاح ، عرفناها من تجارب المرحلة السابقة وذلك بفضل نفر قليل من المفكرين والمناضلين الرواد حول الراحل الكبير شهدى عطية الشافعى ٠ فهل ترى هناك نوعية أخرى ، عامل آخر تكوينى ، للخصوصية المصرية يمكن أن يهدينا الى مفتاح التناقض المصطنع ؟

وقد رأينا أن نتجه بالبحث والتنقيب الى الفكر المصرى المعاصر ، بغية تحليل التمايز بين مختلف المدارس ، المدارس الفكرية ، داخل هذا الفكر ، وقد حددنا القاسم المشترك بينها بأنه كونها المدارس الفكرية الوطنية التكوينية ، دون الدخيل منها بفضل الهيمنة الأجنبية ٠ بدأت هذه المرحلة ببحث مطول عن « أزمة الفكر فى مصر » ، بحث بدأناه ولكنه لم ينته ، وذلك لادراكنا أن المسألة أعوق من مجرد الفكر « المعاصر » (٢) ٠ ثم انتقلنا بعد ذلك ، فى نهاية عام ١٩٥٧ الى محاولة الربط بين هذا الفكر المعاصر ، الذى يكاد يكون مباشرا من ناحية ، وبين بدايات ذلك الفكر ، أولا ابتداء من ثورة ١٩١٩ ــ ١٩٢٣ ، ثم بعد شهور ، ابتداء من ثورة أحمد عرابى ورفاقه عام ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ ٠ وكلما تقدمنا فى هذا البحث ، كلما ازداد لدينا الشعور بأن الموضوع أعمق بكثير ، أو ، بشكل أدق ، أن جذور تكون هذه المدارس التكوينية للفكر والعمل فى مصر فى عصر نهضتها ، عبر المرحلتين ، يعود الى نهاية مرحلة الانحدار والعزلة التاريخية ، أى على وجه التحديد يعود الى وثبة مصر الشعبية ضد حملة الغزو الفرنسية بقيادة بونابرت بين ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، بحيث تجمعت على أرض مصر وبين يدى طلائع أبنائها معانى اعادة تكوين الدولة الوطنية المستقلة حول محمد على فى قاهرة المعز عام ١٨٠٥ ٠

(٢) صدر هنا النص ضمن كتابنا : **دراسات فى الثقافة الوطنية** ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٣٢٧ ــ ٤٠٩ ٠

كان لابد اذن من أن نذهب الى هذا الحد ـ وان كان تطور حركة البحث والفكر فى هذا المجال تؤكد الآن أن دراسة القرن الثامن عشر فى مصر لا تقل أهمية عن بدايات المرحلة الأولى لعصر نهضتنا الوطنية ، من الناحيتين السياسية والفكرية على حد سواء ·

هكذا بدأ العمل ، بعد تكون اشكالية التساؤل ، من ١٩٥٦ على وجه التحديد ، حتى انجاز البحث ونشره للمرة الأولى فى ١٩٦٩ ·

هذه اذن وجهة البحث ، منبعه ، جذوره ، المناخ السياسى والفكرى والانسانى الذى فى اطاره تم الانصهار ، مناخ ثورة مصر الوطنية فى قلب وعبر تغيير النظام العالمى لأول مرة منذ استقراره بين أيدى الهيمنة الغربية فى القرن الخامس عشر ·

كانت خلاصة البحث هى الاهتداء الى مفاتيح التمايز بين المدارس التكوينية للفكر والعمل فى قلب نهضة مصر الوطنية فى اطارها العربى والشرقى ، بحيث أمكن تكملة التصور المتواجد قبل الستينات ، وهو الذى قام ، كما ذكرنا ، على الفرضين الاقتصادى ـ الاجتماعى والسياسى البحت. فقد بدا التمايز الذى أردنا البحث فى جذوره على مرحلتين ، وفي اتجاهين. أما الاتجاهان فهما اتجاه التحديث الليبرالى ، واتجاه الأصولية الاسلامية ، أو باختصار شديد اتجاه التحديث والاتجاه الاسلامى ، أو بعبارة أخرى اتجاه التغريب واتجاه التأصل ـ وان كان تعبيرا « التحديث الليبرالى » ، من ناحية ، و « الأصولية الاسلامية » من ناحية أخرى « مازالا أدق وصف وتعبير لهذين الاتجاهين الرئيسيين التكوينيين للفكر والعمل المصرى والعربى على حد سواء ·

كان السؤال المشترك ، النابع من واقع الحياة المصرية ، فى مطلع عصر نهضتنا ، هو فى الحق تساؤل مزدوج : لم الانحدار ؟ وكيف النهضة؟ كانت الاجابة الأولى : أن الانحدار من جراء فوات الأوان والفرصة ، أى نتيجة لأن مصر لم تقلد عصر الثورات الأوربية ، الصناعية ، والبرجوازية الديمقراطية ، والعلمانية العلمية على السواء · وبالتالى ، فكان لابد على مصر أن تتحرك للحاق بركب العصر الحديث ، وان كان رواد هذا الاتجاه الرئيسى التكوينى قد التزموا بضبط عملية المحاكاة هذه على أساس الخصوصية المصرية الحضارية ؛ أى أنهم ، وقبل الأوان ، أدركوا أن التحديث ، أو العصرية لابد وأن ينضبط فى مستوى واطار المعاصرة أو التحديث الوطنى النقدى على وجه التحديد · وفى رأى الاتجاه الرئيسى التكوينى الثانى ، كانت الاجابة : أن انحدار مصر وكذا العرب والاسلام · جاء نتيجة لابتعاد الفكر المصرى والثقافة المصرية عن أصول الاسلام من خلال

الاضافات الزائفة التى أورثها الاستعمار العثمانى للوجدان المصرى وفرضها فرضا عليه أثناء عصور الانحدار والضعف · وبالتالى أصبح لزاما على مصر، أن أرادت تحقيق نهضتها ، أن تعود الى الأصول الأصيلة للاسلام ، بوصفه الاطار الأعم لثقافتنا الوطنية ، لبدء الطريق بشكل مبدئى من جديد · والملاحظ هنا أيضا أن رواد هـــذا الاتجاه الرئيسى التكوينى حرصـــوا كل الحرص على تأكيد ضرورة مواكبة هذا التأصيل الاسلامى الحضـــارى لعملية الافادة من تقدم الحضارات الأخرى ، على وجه يكاد يلتقى تماما مع دعوة المعاصرة أو التحديث الوطنى النقدى ·

ولكنما الاختلاف عميق فى جذوره ، خاصة وأنه نبع من بيئات اجتماعية متمايزة : فاتجاه التحديث الليبرالى كان بطبيعة الأمر من شأن أوساط التصنيع والسلاح ، المحيطة بالحكم ، فى القاهرة والاسكندرية وبعض عواصم الأقاليم التى دخلت عصر التصنيع ، وكـذا فئة المثقفين العائدين من بعثات مصر العلمية فى الخارج ، وكانوا آنذاك وبشكل مباشر اطارات جهاز الدولة فى قطاعاته المختلفة · أما الاتجاه الرئيسى الثانى فقد نبع ، فى الأساس ، فى بيئات الثقافة التقليدية ، حول مدن الريف ، وكذا بين ذلك القطاع عظيم الشأن فى حياة مصر المتخرج من شــبكة الكتاتيب فى الريف والمدن ، حول الأزهر الشريف · وقد اجتمع رجال هذين الاتجاهين الرئيسيين التكوينيين فى اطار الدولة ، أيام محمد على واسماعيل ، ولكنهما أيضا احتفظا بنسبة هامة من التمايز خارج منطقة التمازج حول الدولة المركزية آنذاك ·

ولا نود هنا أن نصادر على المرحلة الثانية التى تلت مرحلة التمايز الأساسية هذه ، وقد تمت على موجتين ، فى عصر انطلاق القوة المصرية بزعامة محمد على وابراهيم ، ثم فى بداية عصر التوغل الأجنبى وتقلص مصر ، بين ١٨٥٦ ــ ١٨٦٣ ، حتى الاحتلال · وسوف تتخذ المرحلة الثانية لهذا التمايز ، مرحلة التمايز داخل التمايز ، شكل تفرع كل من هذين الاتجاهين التكوينيين الرئيسيين الى فرعين : فرع محافظ ، وفرع جذرى راديكالى ، بحيث تتشابك عملية التفاعل الجدلى بين الاتجاهين الرئيسيين من ناحية مع مستوى أكثر تركيبا وتعقيدا بكثير ، ألا وهو التفاعل الجدلى بين الفروع الأربع التى سوف تتواجد ، وذلك ابتداء من تأزم القيـــادة التقليدية قيادة الرأسمالية الوطنية ، فى العقد الثالث من جيلنا حـول الأزمة الاقتصادية العالمية وبدايات الحرب العالمية الكبرى ، أى بين ١٩٢٩ ــ ١٩٣٩ على وجه التحديد · ولكنما نكتفى هنا بذكر نتائج بحوث موازية لهذا البحث الأساسى الذى نقدمه اليوم ، ومؤداها أن اتجاه التحـديث أو التحديث الليبرالى ، تفرع فى مرحلته الثانية الى : فرع محافظ ، تمثله فكرية وسياسة قطاع الرأسمالية التقليدية وأحزابها التى بدت عاجزة

عن حل المشاكل الحياتية الجذرية لجماهير الشعب فى الريف والمـــدن على السواء ، وابتعدت عن الربط بين تحرير الوطن والثورة الاجتماعية؛ والفرع الجذرى ، الذى رأى على العكس تماما أن يجمع بين هذين المطلبين ، وهو فرع القوى الاشتراكية والتقدمية الثورية فى مصر التى مدت جذورها الى الشعب العامل فى المدن والريف ٠ وكذا ، فقد تفرع الاتجاه الثانى ،اتجاه الأصولية الاسلامية ، على هذا النحو أيضا ، وتقريبا في نفس هذه المرحلة : شعبة محافظة اتجهت الى السلفية باسم الأصولية تؤمن باختصار شديد بأنه كلما تقدم الزمن قلت فيه جوانب الخير ، وقد ظن البعض ، خطأ ، أن جماعة الاخوان المسلمين من هذا القطاع ، حتى تأكدوا من عمق جذورها الوطنية والشعبية على السواء ؛ وفرع جذرى راديكالى ، رأى العود الى معانى « العروة الوثقى » الى تأكيد وحدة رجال الفكر والسلاح ، والجمع بين القوى التصنيعية والسلاحية من ناحية والثقافة الشعبية الوطنيـة من ناحية أخرى ، وهو ما يكون فى مجموعه الاسلام السياسى فى عصرنا حول حركة « الضباط الأحرار » و « و مصر الفتاة » و « الحزب الوطنى »٠ هذه ــ على وجه التحديد ، الاشكالية التى ورثناها فى المرحلة الثانيـة من نهضة مصر الوطنية ، بشكل مغاير تماما لما أكدته الدراسات المنمقة ظاهرا المزيفة المسممـة فى جوهرهـــا ، للمستشرقين الغربيين ، ورثة الحروب الصليبية ، وأبواق الاستعمار وأنصار الصهيونية ٠

كان علينا أن نتدبر ، وهنا ، مرة أخرى ، الجو العام لاشكالية هذا البحث ، وكذا تحديد مدلول نتائجه الفكرية الرئيسية بالنسبة لجيلنا ، والجيل الذى يتولى الآن مقاليد الحركة الوطنية فى مرحلة أكثر تعقيدا بشكل ملحوظ عن المراحل السابقة ٠ كانت هذه ، اذن ، النتيجة الرئيسية ، من الناحية الفكرية ، للبحث ٠

ولكنها سرعان ما تشابكت مع نتيجة ثانية ، تشابكت مع اشـــكالية النهضة تشابكا بدا ، على التوالى ، وبشكل مستمر ، جذريا وتكوينيـا ، أى غير قابل للعزل ، ألا وهو اشـــكالية الثورة ٠ والثورة هنا ، الثورة المصرية على مراحلها ، هى المحرك ، الفيصل ، عبر مسيرة تكون الفكـر والأيديولوجية المصرية فى المرحلة الأولى لنهضتنا الوطنية ٠ ثورة شعب مصر والاسكندرية والأقاليم ضد الحملة الفرنسية ــ وهى التى أدت الى تولية محمد على لرئاسة مصر ، ومن ثم كانت ايذانا بانطلاق النهضة كلها٠ ثورة الحركة الوطنية حول جيش الوطن آنذاك ، وبدعم جبار من الريف قبل المدن فى ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ حول أحمـــد عرابى وصحبه ــ وكانت ايذانا بانتهاء المرحلة الأولى لنهضتنا الوطنية بدايات التحرك الوطنى الجديد فى ليل الاحتلال الحالك ، حول عام ١٨٩٢ ، وكانت ايذانا ببدء المرحلة الثانية ، مرحلة البحث عن مناهج الألباب المصرية فى عصر الاحتـــلال

والامبريالية • ولكن الواجب يقضى هنا أن نؤكد أن بعد الثورة المصرية لعب الدور الثـــانى ، وان لم يـكن ثانويا بالمعنى المتعـــارف عليه ، أثناء المرحلة الأولى لنهضتنا الوطنية ، أى بين ١٨٠٥ و ١٨٩٢ • فقد كان جوهر التحرك فى هذه المرحلة تمثله العمليات الكبرى التى حركتها الدولة فى مجالات الصناعة ، والسلاح والتعليم ، وتحـديد مكانة مصر بين الأمم • وكذا العادات والتقاليد اليومية : أى ، على وجه التحديد ، « مناهـــج الألباب المصرية » على حد تعبير الشـيخ رفاعه • وقد بدأ البعد الثـورى يلعب دورا رئيسيا فى تحريك الحياة العامة فى مصر ، ايذانا ببدء البحث عن مفاتيح المرحلة الثانية ، بفضل باعث الثورة الشعبية الهيامية ، عبد الله النديم • أى أن العلاقة بين بعدى النهضة الوطنية من ناحية ، والثورة من ناحية أخرى ، بدأ يتشكل على نوع جديد ، أكثر تكافؤا ، ابتداء من ١٨٦٩ ــ ١٨٧٣ • مرحلة جديدة تتحدى اطار هذا البحث ،ولكنما وجب الالتفات اليها •

وعبر تشـابك هذين الخطين الاتجاهين ، ظهرت أيضـــا بالتدريج أعداد من النتائج الأخرى التى لم تكن واضحة فى البداية وخاصة تلك التى تتعلق بخصوصية السلطة الاجتماعية فى مصر • ولعل أنصار الليبرالية، والتحديث المتغرب ، وما أكثرهم فى أيام سيادة السراب الثقافى ، لعلهم سوف يستغربون على رائد اتجاه التحديث الليبرالى أن يكون هو الذى صاغ مفهوم الدولة ،وجهازها على نحو لا علاقة له من قريب أو بعيد ، أو هكذا يتصورون ، بمفهوم التحديث على أنه تحديث وطنى جـذرى ، أى معاصرة بمعنى الكلمة • ذلك أن من أساطير الفكر الليبرالى المتسبب ذلك الانفصام بين رجال الفكر والسلاح ، بين الجيش والمثقفين ، بين السلطة والفكر ، وهو الانفصام الذى لعبت عليه بذكاء أجهزة الاستعمار والصهيونية لعزل قطاع هام من المثقفين المصريين والعرب فى عصرنا عن العمل السياسى الوطنى والقومى ، بمقتضيات ، لمواجهته كماشات الاســـتعمار والهيمنة والعنصرية • الحديث هنا طويل ، وقد طرقناه فى كتابات عديدة مواكبة، ظهرت أو ستظهر تباعا على أرضنا المصرية • وانما المهم ، فى هذه المرحلة ، أن ندرك ، مرة أخرى حقيقة الريادة الفكرية ، الابداع الفكـــرى بمعنى الكلمة ، الذى أتته طلائع المرحلة الأولى لنهضتنا الوطنية على أرض مصر ، مما جعل من نهضتنا المثــل الذى سعت اليه حركة الاصلاح فى تركيا ، بل وبشكل مذهل حركة تجديد الامبراطور « ميجى » فى اليـابان بعد ١٨٦٨ أن تحذو حذوها •

الكلام هنا ، طويل بعيد المدى • ولكننا أردنا الاشـــــارة فقط الى أن الابداع دون التقليد كان سمة العصر آنذاك أيام رفعة مصر ومجدها ورغم انكسارها الأول •

ثم كانت مشكلة المنهج ،ولعلها بوجه عام فى المقام الثانى من الأهمية ، وان كانت عندنا تحتل مكانة مركزية ، وهنا أيضا من وجهة النظر الحضارية ·

المنهج ـ لا أدوات العمل ؛ أى المنهجية · المنهج بمعنى المفهوم المتخصص لتناول دراسة الظاهرة موضع الدرس ، ألا وهى ، فى هذا المقام ؛ تكون الفكر المصرى فى المرحلة الاولى لنهضة مصر الوطنية فى القرن التاسع عشر · أما المنهجية ، أدوات العمل ، فهى لا تغاير المنهجيات الأخرى : الوثائق ، الدراسات المنشورة من كتب ومقالات ، رسائل وأطروحات البحث المتقدم فى مستوى الماجستير والدكتوراه ، الدوريات والصحف ، المراجع الثانوية الأجنبية ، المذكرات الخاصة ، الخ ···

كيف يمكن ، اذن ، أن يتحدد منهج دراسة نهضة حضارية ، وكذا حركات تحرك التحرير والاستقلال والثورات والثورة الوطنية والاجتماعية ؟ فسنقول : عندنا أن دراسة أية ظاهرة محددة يجب أن تتم فى اطارها الموضوعى التاريخى ـ الواقعى ؛ أى فى اطار المجتمع الأوسع : الوطن ؛ الأمة أو الوطن ـ الأمة ؛ الدائرة الثقافية ؛ الاطار الحضارى · ولعل هذه القاعدة المبدئية البسيطة تتسم بأهمية خاصة اذ نتصدى لدراسة عمليات تاريخية لوحدات اجتماعية لها علاقة خاصة مع الزمن ، أى الاستمرارية الزمنية : ومصر ، فى هذا المقام ، أعمق هذه الظواهر قاطبة ، والوحيدة دون غيرها من حيث استمراريتها كوحدة اجتماعية قومية ثابتة ممركزة تتلوها ظاهرتى ايران (فارس) ؛ والصين ·

ومن هنا رأينا لزاما علينا ، بادىء ذى بدء ، أن نبدأ من الداخل ، من الذات الوطنية ، من المنظور والمفهوم والرؤية الذاتية ، من الارادة والتحرك والانجاز الوطنى ، من التفسير الذاتى المصرى للذات المصرية بما فيه من صواب وخطأ ؛ من نقوص ورؤية ؛ ولذا واتباعا لهذه القاعدة المبدئية ؛ كان تبويب الدراسة : ليس بين ١٧٩٨ و ١٨٨٢) أى ليس بين تاريخ بدء غزوة الحملة الفرنسية من ناحية ثم الاحتلال العسكرى البريطانى من ناحية أخرى ـ وكأن مصر لا تاريخ لها الا كما يحدد سلاح السيطرة الاجنبية وارادتها ؛ وانما ابتداء من ١٨٠٥ ؛ أى منذ انتخاب محمد على واليا لمصر واعادة تكوين أول دولة حديثة على أرض الكنانة ، و ١٨٩٢ أى عشر سنوات بعد الاحتلال البريطانى ، وهى السنة التى اتفق عليها الرأى على اعتبارها بداية لتحرك الحزب الوطنى والحركة الوطنية الجديدة ، ايذانا بفتح مرحلة تاريخية ثانية ، وعلى وجه التحديد المرحلة الثانية لنهضة مصر الوطنية ، رغم الانكسارين الضاربين فى قلب العملية فى ١٨٤٠ و ١٩٦٧ ·

ومعنى ذلك أن تحرك المجتمع والفكر المصريين تحرك يبدأ لا بصفته رد فعل لمواجهة الغير ، أى أوربا البرجوازية الاستعمارية آنذاك ، وانما ابتداء من المنطق الموضوعى للمجتمع المصرى وشخصية الانسان المصرى · ولا شك أن السنوات الأولى من هذه المرحلة ، أى بين ١٨٠٥ و ١٨٢٦ ، وهو تاريخ انهاء تنظيم الدولة المصرية الجديدة ، لا شك أن هذه المرحلة شهدت سلسلة من ردود الفعل ضــد الغزوة والهيمنة الأوربية تفاديا لسيطرتها ، ومحاكاة لايجابية عدد غير قليل من أساليبها بغية اقامة الوجود السياسى والفكرى والحضارى المصرى ، تحت حماية ســلاحه الوطنى ، وجها لوجه مع الكيانات السياسية الأخرى ومن بينها أعظم دول هذه المرحلة ، وهى مجموع دول أوربا الوطنية الذى اتفقت عام ١٨٤٠ ، دون استثناء ، على كسر شوكة مصر وفتح الثغرات فى اقتصادها المحمى وضبط تحركها العسكرى والسياسى عبر المنطقة الافريقية — الآسيوية لأمتنا العربية والدائرة الاسلامية توطئة لاحتلالها بالسلاح وازالتها من خريطة التحرك السياسى فى العصر الحديث · ورد الفعل هنا أداة لكى يصبح الأضعف فى مقام الأقوى ، أى أنه أداة لاعادة تشكيل طرح الاشكالية كلها : فالتحرك الذاتى ، الوطنى ، والارادة الوطنية ، والوعى الوطنى هو الأساس — وليس العكس ·

ولكن السؤال يصبح عندئذ : أساس ماذا ؟ أو أساس لماذا ؟

قلنا أن هدفنا هو اقامة القوة الذاتية · واذا كان الأمر كذلك ، واذا كان التحرك أصلا من الداخل ، وعائده الى الداخل ، عبر التفاعل المستمر غير المتردد مع العالم الخارجى ، الأوربى آنذاك ، ثم الأمريكى ، فان هــذا الداخل ، وتلك الذات الوطنية ، تعنى أولا وقبل كل شىء تحــديد الخصوصية المصرية المتميزة ؛ وهى بيت القصيد فى جميع صراعات تاريخنا الألفى · مجتمع ثابت ، وأقدم المجتمعات المائية التى عرفها التاريخ على أرض ســهلة ، تحت ســماء صفو ، محوره النيل العظيم ، وحدوده آسيا وافريقيا ؛ ثم فى الشمال أوربا الغازية عبر البحر الابيض المتوسط· أرض طيبة خصبة ، الى درجة خيالية ، تقع من حيث جغرافيتها السياسية بين الغرب والشرق ؛ وعلى مفترق القارات الثلاث ؛ آسيا أفريقيا وأوربا · أرض الكنانة ، عبر حضاراتها الثلاث ، الفرعونية ، والقبطية ، والاسلامية العربية ، فى بوتقة شــــهدت ظهور الديانات التوحيدية الثلاث ، وأقدم الفلسفات ؛ فى تواز مع فلسفة الصين فى القطب الثانى للدائرة الحضارية الشرقية ؛ التى كانت مصر ؛ ولا تزال ؛ قطبها الأول ·

ومن ثم تحددت عبر السبعين قرنا خصوصية مصر المتميزة الاتجاه الى الوحدة التوحيدية ، الى وحدة الوطن ، وحدة المجتمع ، وحدة العمــل

والفكر ، وحدة السلطة • وحدة قد توجتها الفلسفات والديانات التوحيدية عبر مسـيرتنا • أقدم المجتمعات الموحدة كافة ، واتصالا واسـتمرارية ، وأكثرها تجانسا ، من جميع النواحى ، البشرية والفكرية والوجدانية معا • وكذا أقدم المجتمعات التى أثارت الشهوات والغزو ، لا للسـلب والنهب فقط ، وانما لتخريب هذا المفتاح الفريد للمبـادرة التاريخية والابداع الحضارى • هكذا ، ومن خلال صياغة دوائر الضرورة التاريخية ، تكونت الخصوصية المصرية المتميزة المتجهة دائمـا الى التركيب والتوحيد والتجانس والألفة والوحدة ــ الى العروة الوثقى والتوحيد فى آن واحد• خصوصية تندرج عبر تاريخ الفى ، ومن ثم تتسم بمفهوم خاص للزمان بوصفه الأكثر شمولا : عبره نمر ، تسير مسيرتنا ، ومن خلاله ، ومن خلال هـذا العبور ، تتحقق معالم الشخصية ، تتأكد رسـالتها ، ويتعمق أداؤها رغم جميع الأحزان ، رغم جميع الانكسارات • « مصر المحروسة » حقيقة ، « أم الدنيا » التى تغنى بها ابن خلدون •

من هذه الخصوصية المصرية ، اذن ، يبدأ كل بحث جاد عن مصر فى مسيرتهـا • من هذه النقطة اذن ، بدأنا فى بحثنا عن تكون الفكـر فى نهضة مصر الوطنية ، عن نهضة مصر •

نعود بالذاكرة الى مسيرة هذا البحث • فقد بدأ فى أحلك الظروف وأصعبها ، عام ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ ، ثم جاءت الكتابات الأولى على شـكل محاولات بين ١٩٥٦ و ١٩٥٩ ، حيث اضطرتنا الظروف الى التواجـد خارج مصر ، فاستمر العمل بين نهاية ١٩٥٩ و ١٩٦٩ فى فرنسـا ، فى اطار « المركز القومى للبحث العـلمى » بباريس ، حيث أصبحت أستاذا للأبحاث • كان موضوع المصادر ولا شك غاية فى الأهمية ، ولكن الأهم منه بكثير كان دوما موضوع الاتصال المستمر ، دون توقف ، بالتحرك المصرى ، والوجدان المصرى ، والفكر المصرى ، والأهل والصحب ، يوما بعد يوم ، كى تأتى هذه الدراسة صـادقة ، وقد خضبتهـا آلام ودماء المسيرة وجلاء الانجازات الشـعبية والوطنيـة ، وصدى التسـاؤلات والتناقضـات ، وأسى الانكسـار والهزيمـة ، والاصرار على الايجابيـة التاريخية • هكذا تكونت شـيئا فشيئا مكتبة من المطبوعات والوثائق والمذكرات كانت بمثابة المعين المرجعى الحى لعشرات من طلائع شـبابنا الجامعى والعلمى خارج أرض الوطن فى بعثات أو رحلات دراسية •

سنوات العمل الدائب ، وقد احتل هذا البحث جانبا هاما من ناحيته الفكرية ، بينا كان التركيز الأسـاسى على مواكبـة التحرك المصرى ، بين

السويس وأكتوبر ، وعبر يونيو الأســـود • ويصعب على هنا أن أقدم قائمة كاملة بكل من تفضل بالاعانة والمعونة والنصح ، ولكننى أذكر أول ما أذكر ، أصـــدقاء العمر ــ على الشـــلقانى ، وفقيد مصر الدكتــور محمد الخفيف ــ نيابة عنى ورمزا لجيل من أعز الاخوة الذين وأكبوا هذا العمل الشاق وأمدوه بكافة ألوان العون والتشجيع والنصح والارشاد • ولا يفوتنى أن أذكر سنوات البحث فى مكتبات انكلترا وخاصـــة فى قاعة « المتحف البريطـــانى » بلنــــدن ، وما يحيط به من مكتبــــات وثائقية من كل نوع • ولعــل قصة هـــذه الســـنوات يحين موعـــدها فى الوقت المناسب ، وهى تمثل حقا صفحة ناصعة من تآخى المصريين فى ســـبيل مصر ، فى ظروف أراد لنا فيهـا السراب الثقافى الذى نسجه العدو الحضارى الفرقة ، والتطاحن ، والاســتنزاف الداخلى • ويسرنى ويشرفنى أن أتوجه بخالص الشكر الى رجلين من أرض مصر تحمـــلا على التوالى مشقة تنقيح هذا الكتـــاب واعداده للنشر ، الدكتورين حمـادة ابراهيم ووجيه سمعان عبد المسيح • وقد عكف الأول على النص بينما تولى الثانى الوثائق وترتيب الهوامش ، كما شارك الدكتور بدر الدين عرودتى فى طبع المخطوط • وقد امتد هذا العمل على فترات ، بين ١٩٧٣ و ١٩٨٠ عبر حرب أكتوبر ١٩٧٣ • لولاه لما كان لهذا الكتاب أن يتواجد اليوم بين أيدى القارىء العربى فى مصر وأمتنا العربية ، انطلاقا من قاهرة المعز وفى رحابها ، بفضل الصديق الوفى الكريم شاعرنا الكبير صلاح عبد الصبور ، رئيس مجلس ادارة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وبعد وفاته التى أدمت قلوبنا ، بفضل الأديب الناقد الكبير الأستاذ الدكتور عز الدين اسماعيل ، زميل أيام بجامعة عين شمس الفتية ، وقد تفضل الكاتب الصديق الأستاذ لمعى المطيعى بدفع العمل باصرار ووقاء نادرين • وقد أحاطت والدتى الفاضلة هذا العمل ــ وكذا كل ما أتيناه منذ ١٩٤٠ ، وخاصة بعد ١٩٥٩ ــ بقلبها الكبير ، ودعمته بالتشجيع والعون ، وتحملت المشاق والمتاعب ، حبا ووفاء للوطن • فلها الفضل ، الفضل الأول ، فى استمرار جهدنا وأدائنا ، باسم مصر وفى سبيلها •

قلنا : ان هـذا البحث ، شأنه فى ذلك شأن أى بحث جـدى جاد متعمق عن مصر ، يبدأ من التربة المصرية واليها يعود • ومعنى هـــذا ، على وجه التحديد ، أنه يتعين على كل باحث مصرى اذ يتصدى الى تقديم نتاج عمله الى اخوانه على أرض الوطن وفى ساحة الأمة ــ وخاصة اخواننا أعضاء البعثات العلمية فى الخارج ، أسوة بجيل الشيخ رفاعة ــ وأن يحدد رؤيته لمقـام بحثه فى مســـيرة الوطن والأمة الفكريـة والسياسية والحضارية •

ان « **نهضة مصر** » جزء من سلسلة من **الأعمال الفكرية التكوينية** المصرية ، التى صيغت من أجل مصر وفى سبيلها ، على مستوى رفيع ومتعمق : « **فى أصول المسألة المصرية** » للرائد الراحل الدكتور صبحى وحيدة ؛ « **شخصية مصر ــ دراسة فى عبقرية المكان** » للمفكر العلم الدكتور جمال حمدان ؛ وبينهما ، « **سندباد مصرى** » للدكتور حسين فوزى ــ وكلها أعمال تندرج بين ١٩٥٢ و ١٩٧٠ أى **فى اللحظة** التاريخية التى احتلتها ثورة مصر الوطنية بقيادة جمال **عبد الناصر** وصحبه أقول هذا لكى لا يضيع الخيط ، وتتشعب التفسيرات ، بل وتتفرد الأعمال ، وكأنها بلا ماض ولا حاضر ، وبالتالى بلا وجهة ٠

وجهتنا دوما مصر ٠ شعب مصر ، ورفعة مقامها ، وسعادة أبنائها ، اخوتنا واخواننا ، وشرف كلمتها ، وأصالة اسهامها الفكرى والحضارى فى أوسع المعانى وارفع المستويات ٠ وقد شاءت روح مصر أن تحمى هذا العمل حتى انهائه ، ووضعه بين أيدى أصحابه الأصليين ، اسهاما متواضعا ، أتيناه بصدق وأمانة : حجرا بين أحجار بناء الوطن ، بحثا عن مصر ، واستمرار مسيرتها ، وتحقيق رسالتها الحضارية فى قلب أمتنا العربية وريح الشرق ٠ فالحمد لله والله ولى التوفيق ٠

انور عبد الملك

القاهرة ، يوليو ١٩٨٠ ــ يناير ١٩٨١

الباب الأول

المجتمع المصرى

منذ عهد محمد على حتى الاحتلال البريطانى

الفصل الأول

التطور الاقتصادى

القسم الأول ـ الاقتصاد المصرى فى عهد محمد على

فى أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، بلغت الامبراطورية المصرية بقيادة محمد على أوجها سواء فى مجال البناء الداخلى والنشاط الاقتصادى للدولة ، أو فيما يتعلق باتساع مصر الهائل خارج حدودها التقليدية · فقد قامت مصر ببسط سلطانها على معظم الأقطار الخاضعة للسلطان محمود الثانى مع استمرار تمتعه بالسيادة الاسمية : السودان ، وجزء كبير من شبه الجزيرة العربية وسوريا الكبرى حتى حدود تركيا · كان الرجل والنظام اللذان يهددان الباب العالى على هذا النحو يملكان أسبابا عظيمة للنجاح جندت لذلك خلال جيل كامل من الزمان · وقيام قائد على غرار محمد على فى الاستانة (اسطنبول) لا يمكن الا أن يمثل تهديدا لوفاق الدول الكبرى المتكفلة بتصفية امبراطورية نابليون منذ معاهدة فينا (١٨١٥) · ومن هذه القوى « بريطانيا العظمى وهى تقوم بالدور الذى كانت تقوم به فرنسا فى الشئون التركية فى القرن الثامن عشر » ، وقد فرضت على تركيا ، بموجب المعاهدة التجارية فى عام ١٨٣٨ « الغاء كافة الاجراءات المتحفظة أى : حماية السوق الداخلية ، واقامة سياسة تجارية تعتمد على التبادل الحر (١) · »

وفى ١٥ يوليو ١٨٤٠ تم عقد معاهدة لندن بين كل من بريطانيا العظمى وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ، تلك المعاهدة التى عمدت الى جعل البنود الاقتصادية المعمول بها فى تركيا تطبق على مصر أيضا وذلك بموجب المادة الرابعة من المعاهدة التى اعترفت بسيادة محمد على طول حياته على الأقطار المجاورة لمصر ، وكذلك باستمرار أسرة محمد على فى حكم مصر داخل حدودها التقليدية ، وأخيرا أكدت المعاهدة سيادة

(١) Niyazi Berkes : The development of secularism in Turkey, McGill P.P., Montréal, 1964, 139 sqq.

الدولة العثمانية على كافة المجالات وبخاصة الاقتصادية والحربية والسياسية والادارية (٢) • وبذلك بدأ القضاء على النظام الاقتصادى القائم على الاكتفاء الذاتى الذى وضعه الوالى (٣) • ولقد اتفق وقوع هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ، كما سنرى ، مع عصر النهضة المصرية • لذلك فمن الانصاف أن نتوقف عندها لكى نستخلص أهم خصائص الاقتصاد فى تلك الفترة التى يصفها التاريخ بأنها فاصلة بين عهدين هامين : عهد سيادة مصر وبعث قوتها ، وعهد التدخل الأوربى الذى أدى الى الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ •

لقد كان محمد على من بين جميع رؤساء الدول فى الشرق الاسلامى فى ذلك العصر القائد الوحيد الذى يعتبر الاقتصاد أساس السياسة — ومن ثم كان هذا الضابط الألبانى الواعى المدرك رجل دولة • والدولة التى كان بصدد اقامتها تتمثل ، بادىء ذى بدء عام ١٨٠٥ ، فى دولة قديمة عريقة ترتكز على جيش قوى فعال وتعتمد على نظام اقتصادى قوى حديث يقوم على الاكتفاء الذاتى •

ومن الطبيعى أن تأتى الزراعة فى المكان الأول فى اطار الاصلاحات الاقتصادية •

ومن المعلوم أن جميع الأراضى ، باستثناء أراضى الوقف ، كانت فى أواخر القرن الثامن عشر موزعة على الملتزمين • وكانت مهمة الملتزم الأساسية تتمثل فى « جباية الضرائب الواجبة على قريته أو مجموعة القرى الخاضعة لالتزامه ، ونقل هذه الضرائب الى الخزانة المركزية أو الاقليمية » ومع ذلك فقد لاحظ كل من « جيب » و « باون » أن حقوق الانتفاع التى حصل عليها الملتزمون بالتدريج تنتقل فى أغلب الأحيان

---

(٢) عبد الرحمن الرافعى : « **عصر محمد على** » ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ٣٣٤ — ٣٣٥ •

(٣) نال هذا الجانب تركيزا شديدا من جانب المؤرخين والاقتصاديين والماركسيين والاشتراكيين فى مصر • أنظر بوجه خاص : راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : « **التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث** » مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ٤٨ ؛ فوزى جرجس : « **دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى** » ، الدار المصرية للكتب ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ٤٤ ، ٦٣ ؛ أنور عبد الملك : «**المجتمع المصرى والجيش**» ، الطبعة الفرنسية، ١٩٦٢ ، ١٨ — ١٩ ، ٦٣ ، الطبعة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ٣٧ — ٤١ حسين خلاف : « **التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث** » عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ٤١٣ ، الخ • وكذلك يقول شارل عيسوى بانصاف « يبين انهيار خطط محمد على بوضوح احدى العقبات الكبرى التى واجهت التنمية الاقتصادية فى مصر ، وهى عقبة لم يمكن ازالتها الا خلال سنوات ١٩٣٠ تلك هى افتقاد الاستقلال السياسى »
(Egypt in revolution, an economic analysis, Oxford U.P., London, 1963, 24).

لصالح عائلاتهم (٤) ، بحيث أن « ملكية الدولة أصبحت أشبه بقطعة من اللحم المفتت » (جابريل باير) (٥) تحول دون اقامة الدولة الحديثة المركزية التى يحلم بها محمد على • ومن ثم فقد عمد محمد على الى القضاء على التناثر ، وتشتت ايرادات الأراضى ، والفوضى • والواقع أن الأراضى الزراعية فى مصر عام ١٨٠٥ والتى كانت تبلغ مساحتها مليونى فدان كانت مقسمة الى ست فئات : أراضى الأبعاديات أو الشفالك وتضم مائتى ألف فدان كان محمد على قد وزعها على أفراد أسرته ورجال الدولة وقواد الجيش ، وهى أراض معفاة من الضرائب ؛ ثم أراضى الالتزام التى حولها — بعد مذبحة المماليك فى القلعة (١٨١١) ، وتصفيتهم فى مصر العليا (١٨١٢) — الى أراضى أو سيه ، وتشمل مائة ألف فدان منحها محمد على كتعويض للمماليك حتى لا تحرم عائلاتهم من كل مصدر للعيش ؛ ثم أراضى المشايخ أو مسموح المشايخ ، والمصاطب وهى تمثل ٤٪ من الأراضى الزراعية فى كل قرية بمجموع ١٥٤ ألف فدان ، سلمت للعلماء الذين كانوا فى نفس الوقت يقومون بعمل الملتزمين (٦) ؛ ثم أراضى الرزقة وهى ستة آلاف فدان معفاة من الضرائب ، منحت هدايا أو عطايا للخبراء الأجانب العاملين فى مصر ؛ ثم أراضى الأثر التى بقيت خالية وأعطيت للفلاحين ؛ وأخيرا أراضى العربان التى أراد محمد على أن يستقر فيها البدو (٧) • وبذلك ظهر الوالى فى نظر معاصريه بمظهر « المخرب » للبيوت العامرة ، القاطع لارزاق العباد »

ومع ذلك فان شفيق غربال يستطرد قائلا :

« كان لابد من أن يتسم العمل فى أوله بهذه المظاهر ، ولكنه كان فى حقيقته غير ذلك ، كان وسيلة الخروج من الفوضى والفقر والضعف الى النظام واليسر والقوة — واذا شئنا أن نجمل وصف مراحل انشاء السلطة العامة مستخدمين لغة ذلك العصر قلنا ان المراحل الأولى كانت مراحل الضبط والكشف والتحقيق والتصفية وبخاصة فى أمور الالتزامات والغاء ما لا يستند منها الى سند شرعى أو تحول الى منفعة » (٨) •

---

(٤) Hamilton A. R. Gibb et Harold Bowen : Islamic society and the West, Oxford U.P., Vol. i, Part I, London. 1963, 259-60.

(٥) Gabriel Baer : A History of landownership in modern Egypt 1800-1950, Oxford U.P., London, 1962, 1.

(٦) وهو ما يؤكده جابريل باير فى كتابه السابق ، ٢ •

(٧) ابراهيم عامر : **الأرض والفلاح : المسألة الزراعية فى مصر** ، الدار المصرية للكتب ، القاهرة ١٩٥٨ ، ٧٨ — ٧٩

ان الوضع ، اذا نظرنا اليه من ناحية الملكية العقارية وحدها ، يبدو أكثر تعقيدا • لقد كان الاتجـــاه العام حقا يستهدف النظام بـ نظـــام الاقتصاد المصرى القائم ، فى ذلك الوقت ، وبصـــفة عامة ، على هيمنة الدولة والاكتفاء الذاتى (٩) • ومع ذلك ، فاذا كان من المبالغة أن نقول ، كمـا يرى محمد كامل مرسى ، أن الأرض كانت حينئذ مسـجلة باسـم الفلاحين بصفة فردية (١٠) ، واذا كان الوضع فى جوهره لا يخرج عن كونه ملكية للدولة ، فان ابراهيم عامر كان أقرب الى الانصاف حينمارأى فى هذا النظام شكلا من أشكال الانتقال :

« ان ملكية الأرض الزراعية فى مصر ، والنظام الذى كان مؤسسا عليها قبل عصر محمد على • لم تكن ملكية اقطاعية ، ولم يكن النظام نظاما اقطاعيا ، بالمعنى الأوربى • وانما كانت ملكية « اقطاعية شرقية » ، تقوم على أسس تختلف عن أسس الاقطاعية الغربيـــة • وتلك الأسس مستمدة من انعدام الملكية الفردية ، ومركزية سلطة الدولة فى الزراعة • وتتشابه بعض مظاهرها مع مظاهر الاقطاعية الغربية ، وهى تلك المظاهر الصادرة عن نظام السخرة ونظام الاقتصاد الطبيعى فى الريف » •

وبعد أن حلل الاختلافات بين أنواع ملكية الأرض الزراعية خلص الى أن « نظام الاستغلال الزراعى فى عهد محمد على كان نظامـا مـــؤقتا انتقاليا بين الاقطاعية والرأسمالية (١١) • »

---

(٨) محمد شفيق غربال : **محمد على الكبير** ، دار احياء الكتب العربية ، **القـــاهرة** ، ١٩٤٤ ، ٤٨/٤٩ •

(٩) محمد فهمى لهيطه : **تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة** ، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ١٩٤٤ حيث يشير الى « الاشتراكية الحكومية » (١٠٠ ـ ١٠٤) ويؤكد باير هيمنة الدولة فى كتابه الســـابق (ص ٧) ويبدو لنا أن ادخال فكرة « **الاكتفـاء** الذاتى » أكثر دقة • وتعى كتابات عديدة فى ذلك العصر أو بعده بقليل الضرورات الملحة التى يفرضها المجتمع الهيدروليكى • ولا سيما تعليقات بونابرت وفقا لما قاله :

Duc de Raguse, in G. Michailidis : "Le désert et la civilisation égyptienne, cahiers d'Histoire Egyptienne ii (1950), 347-46; Henri Thiers : L'Egypte anaciinne et moderne à l'Exposition Universelle, Dramaard-Baudry, Paris, 1867, 8-14; etc.

(١٠) Mohamed Kamel Moursy : De l'étendue du droit de propriété, étude historique, juridique et comparée, Paris 1914.

(١١) **ابراهيـم عـامر** : **الأرض** ٦٩ ، ٨١ ـ ٨٢ ، ويرى فوزى جرجس أن المجتمع المصرى **كان** مجتمعا اقطاعيا شبه استعمارى فى وقت وفاة محمد على (**تاريخ مصر السياسى** ، ص ٤٢) • ويبدو أن محمد كامل مرسى يسير فى هذا الاتجاه (أنظر كتابه السابق ، **٩٧** وما بعدها) • أما من جهتنا فقد أخذنا بصياغة ابراهيم عامر (انظر **المجتمع المصرى والجيش**، الطبعة الفرنسية) ٥٩ ـ ٦٣ والطبعة العربية ـ القسم الأول ، ٣٧ ـ ٧٣ •

وتأتى هيلين ريفلين وتركز على هذا المظهر الثانى فتقول : « **ان تطور الملكيات الكبيرة الخاصة الذى تتسم به مصر الحديثة ، يعود الى عصر محمد على** · **ولكن الأساسى فى تكوينها لم يكن الرغبة فى خلق طبقة جديدة من ملاك الأراضى ، وانما كان تسهيل الادارة وجباية الضرائب لصالح الحكومة والطبقة الحاكمة الجديدة (١٢)** » وسنعود الى ذلك فيما بعد ·

وهناك أمور أخرى تستحق التنويه · ان محمد على هو الذى نوع المحصولات ، وأهم من ذلك فانه هو الذى كثف زراعة القطن منذ عام ١٨٢١ **أخذا بنصيحة جوميل Jumel الذى أطلق اسمه على نوع القطن طويل** التيلة ، والذى حقق للدولة ــ صاحبة الاحتكار فى مجال التجارة الخارجية ــ بالاضافة الى القطن الأمريكى See Island ، دخولا هائلة ،ففى عام ١٨٤٥ بلغ المحصول ٤٢٤ر٩٩٥ من القنطار ، وهو ناتج ٢١٢ر٤٧٣ من الفدان أى بزيادة قدرها ٤٠٠٪ خلال عشرين عاما ، وكان يدخل مصانع **الغزل المصرية من هذا المحصول ٨٠ر٠٠٠ قنطار كحد أقصى ، ويبقى حوالى ٣٤٤ر٩٩٥ قنطار للتصدير (١٣)** · **ولقد أجمع الخبراء على** الثناء على سياسة الوالى فى الأخذ بأساليب الزراعة الحديثة : « **وفوق ذلك** ، فقد وفرت رأس المال اللازم لتحويل الاقتصاد الزراعى المصرى من اقتصاد غذائى الى اقتصاد يقوم على محصول نقدى (١٤) ، وذلك دون التضحية بانتاج الحبوب التى كان يقوم عليها الاقتصاد الزراعى المصرى منذ البداية (١٥) · »

ان الوالى يعترف بأنه « مزارع وتاجر » · **ولكن يجب أن ندرك** ما وراء هذه العبارة التى يخاطب بها حاكم مصر المراقبين الأجانب · فهو مزارع بالمعنى المعروف عند الفراعنة ، سادة هذا « المجتمع المائى » الذى تعتبر مصر أوضح وأقوى مثل له على مر عصور التاريخ (١٦) ·. فقد **أمر ، عن طريق السخرة ، بحفر ثلاث وثلاثين ترعة وبخاصة ترعة**

---

(١٢) Helen Anne B. Rivlin : The agricultural policy of Muhammad Ali in Egypt, Harvard U.P. Cambridge, Mass., 1961, 60.

وسنتعرض فيما بعد لتحليل تصور أو مفهوم « الطبقة » ·

(١٣) عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على** : ٥٨٢ ــ ٥٨٦ ، وهـ · ريفلن **المرجع السابق** ١٣٧ ــ ١٤٤ ·

(١٤) « اقتصاد المحصول النقدى » تعبير مستمد من مفردات الاقتصاد الرأسمالى الأمريكى النقدى · ونحن نفضل تعبير « اقتصاد السوق » ·

(١٥) H.A.B. Rivlin : Agric. Policy, p. 169-70.

(١٦) Karl A. Wittfogel : Oriental despotism, a comparative study of total power. Yale U.P. New Haven and London, 1957.

وقد ورد هذا المفهوم فى كتاب ابراهيم عامر « **الأرض والفلاح** » ، وكذا فى كتابنا « **المجتمع المصرى والجيش** » ·

المحمودية الشهيرة ، كما عمل على ردم الفرعونية التى لم تعد تستعمل واقام خمسة عشر جسرا ، وثلاثة وعشرين سدا فوق النيل منها سد الدلتا الكبير المعروف بالقناطر الخيرية ، وبالاضافة الى عمليات ترميم واصلاح كثيرة (١٧) ٠ كانت المجهودات فى جوهرها منصبة على مصر السفلى ، ومع ذلك فقد مالت عمليات التنفيذ الى التناقض والتقلص فى أواخر عهده ، فى حين ان اللجنة المشكلة عام ١٨٣٨ تشير ، فى تقريرها فى شهر يوليو من نفس العام ، الى أن الهدف ، الهائل بالقياس للعصر ، هو الوصول الى رى ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ فدان ٠ فقد تردد محمد على فى اقامة سدود جديدة ، أى فى تكريس جانب كبير من القوة البشرية والمواد الأولية لتنفيذ مشروعات داخلية فى الوقت الذى اتضح فيه العدوان الاقتصادى والسياسى والحربى من جانب الدول الأوربية ٠ ان الدكتور كلوت بك وحده هو الذى أدرك هذه ، فى حين أن جميع المعاصرين لتلك الفترة وسائر الباحثين اليوم ــ وخاصة بورنج Rivlin Bowring يقتصرون على الجانب التقنى وحده ولا يفسرون هذه الظاهرة ٠ ولم يكن من قبيل المصادفة أن يوكل الى المهندسين البريطانيين تنفيذ مشروع محمد على الهائل بعد الاحتلال البريطانى لمصر (١٨) ٠ واذا نظرنا الى الموضوع من الجانب التقنى فان الخلاصة تقول : « ان انجازات محمد على فى مجال الرى تبدو أقل ضخامة اذ قيست بمثيلاتها فى المراحل الهامة من تاريخ مصر » ٠ (ريفلن) (١٩) ٠

ومع ذلك فان المراقبين الأذكياء فى ذلك العصر لم يخطئوا التقدير فقد أدركوا أن الأمر لم يكن مجرد العمل فى الأخذ بالأساليب العصرية وتنظيم الدولة ، انما يتعداه الى تأكيد استقلال مصر فى مواجهة الدول

---

(١٧) عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على** ، ص ٥٧٢ ــ ٥٨٠ ،
H.A.B. Rivlin : Agric, policy, 213-19.
وتذكر ريفلن ارقاما شديدة الاختلاف قدمها كلوت بك ولنيان دى بيلفون ، ويشير كلوت بك الى حفر ١٦٩٢٠٠ متر من الترع واقامة ١٨٣٣٩٠ مترا من السدود وهو ما يبلغ ٤٢٠٢٠٥٤٧ م٣ ، فى حين يتمسك لينان برقم ٢٩٦١٦٧٣٥

(١٨) **H.A.B. Rivlin : Agric. policy 237, 356**
وهى تستشهد بما كتبه :
Robert Hanbury Brown : History of the Barrage on the head of the Delta of Egypt, Le Cairo, 1896, 37, 41-52.

(١٩) ترى ريفلن أنه وجد فى عصر محمد على ١٢٠٠ ميل من الترع الكبرى فى مقابل ١٨٠٠ ميل فى عهد الخلفاء الأوائل ، ومن بين ١٢٠٠ ميل هذه فان نائب الوالى لم ينجز غير ٦٨٦ ميلا ٠
(Agric policy, 248-9)

الاخرى » ، كما يرى ، بحق ، جون بورنج ممثل انجلترا فى مصر (٢٠) هل من الممكن تصور مثل هذا الاتجاه داخل الاطار الاقتصادى الزراعى وحده ؟ ان محمد على كرجل حرب ورجل سلطة ، كان يدرك احتياجات الجيش والدولة • فاتجه بعزم واصرار نحو الصناعة آخذا بنصيحة الأجانب الذين كان يستميلهم الى بلاطه أمثال : كلوت وجوميل وبوكتى والكولونيل سيف (٢١) •

لقد مر تصنيع مصر بمراحل ثلاث • تقع الأولى بين عامى ١٨١٦ و ١٨١٨ ، وفيها جنى الوالى نتائج الاحتكار الذى بدأه عام ١٨١٦ : « حافظ الانتاج الصناعى على طابعه الحرفى • فقد استمر نفس الحرفيين بمهنهم البدائية فى عملهم ، لكن محمد على كان يزودهم بالمواد الأولية التى يعيدونها اليه بعد تصنيعها مقابل أجور تدفع لهم (٢٢) » • أما عبد الرحمن الجبرتى ، ذلك المؤرخ النابه ثاقب النظرة ، فقط لاحظ أن هذا النظام ، المفتقر الى الضبط والتنظيم والذى لا يفى بأغراضه ، يتحول الى الصناعة الكبيرة ، حيث يقول (ما معناه) : « أقام محمد على فابريقات للقطن والحرير وغير ذلك من الفابريقات وبما أن الأنوال الصغيرة توقفت عن العمل فان محمد على عين اصحابها فى فابريقاته » •

ثم يقول عن الاحتكار « لقد جلب هذا التجديد أكثر المساوىء ، وترك آثاره على الاغنياء والفقراء وامتدت الى المجتمع الراقى وكذلك الى مجتمع السفلة » (٢٣)

أما المرحلة الثانية (١٨١٨ — ١٨٣٠)فهى مرحلة الصناعة الكبرى

---

(٢٠) John Bowring : Report on Egypt and Candia, Cmd. Paper London, 1840, 29-30. •

وانظر أيضا ما كتبه عنه كل من :

Jacques Tagher "John Bowring économiste et diplomate», **Cahiers d'histoire égyptienne**, ii (1949), 520-4, et M.S. Ghorbal : «Doctor Bowring and Mohammad Ali», **Bulletin de l'Institut d'Egypt**, xxiv (avril 1942). 107-12.

(٢١) وهو ما سجله جميع المؤرخين • انظر بصفة خاصة

Moustafa Fahmy : La révolution de l'industrie en Egypte et ses conséquences sociales au XIX siècle (1800-1850), E.J. Brill, Leiden, 1954. 14-5.

(٢٢) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ١٣ •

(٢٣) وفق ترجمة مصطفى فهمى فى **المرجع السابق** ، ١٤/٩٣ • وكما يؤكد الدكتور على سليمان فى رسالته فانه لا يتضح أن الوالى « بذل أقصى ما يستطيع من جهود لحماية وتشجيع الصناعات الصغيرة التى لم تخضع للاحتكار » أنظر :

L'industrialisation de l'Egypte, Bose et Rion, Lyon, 1932, p. 36.

وبخاصة صناعة النسيج ومصانع التسليح (٢٤) . ويبدو أن القنصل السويدى بوكتى قد قام بدور حاسم فى العمل على « الأخذ بالأسلوب الجديد فى الصناعة » ، الذى يقوم على احتكار المواد الأولية وانشاء المصانع التى تستخدم البخار كمصدر للطاقة (٢٥) ، الأمر الذى أدى بالتدريج الى خنق المشروعات الحرفية الصغيرة المنتشرة فى القرى والأحياء الشعبية بالمدن . وكان أسلوب القسوة الذى أمر الوالى باتباعه فى معاملة الحرفيين التقليديين يتناقض تناقضا صارخا مع ما أولاه من رعاية واهتمام للأيدى العاملة فى الصناعات الكبيرة التى تتولاها الدولة (٢٦) . حينئذ تكونت الوحدات الصناعية الكبيرة : مصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة ، التى بلغت أوجها عام ١٨٢٨ فى عهد عزام بك ، مصنع المدافع بالترسانة ، مصنع البنادق فى الحوض المرصود (١٨٢١) ، مصانع البارود الخمسة التى بلغ انتاجها ١٥٫٨٧٤ قنطار عام ١٨٣٣ ، الترسانة البحرية بالاسكندرية التى أنشأها لوفيبور دى سيريزى عام ١٨٢٩ ، والتى تطورت على يدى رئيس عمالها العبقرى الحاج عمر ، ثم حوض الصيانة الذى أنشأه موجيل فى عام ١٨٤٤ . ولقد أثارت هذه الانجازات اعجاب كل من المارشال مارمون وكلوت بك فيما كتبا عنها بعد ذلك معبرين عن

---

(٢٤) ويعكس م. فهمى الترتيب الذى سارت عليه الأمور الى حد ما فهو يدرس الصناعات المدنية ثم الجيش . ومع ذلك فانه يقول « ان الأسواق التى تمكنت مصر من فتحها قدمت خدمة كبرى لصناعتها . وما كانت الصناعة الكبرى لتحرز نجاحا ما لم يتوفر لها أسطول قوى قادر على ضمان نقل منتجاتها المصنعة الى شتى الأسواق الخارجية . وهكذا كان الأسطول من بين أقوى العناصر التى عملت على نهضة الصناعة المصرية »
(Révol. ind. Eg., 43)

(٢٥) A.E. Crouchley : The economic development of modern Egypt, Longmans, Green and Co., London, 1938; 67.

(٢٦) أما فيما يتعلق بالحرفيين ، فاننا نورد هنا نص الأمر الذى أرسله الوالى الى مندوبه فى جرجا عام ١٨٢٣ : « نظرا لأمر المنع المتعلق بانتاج الأقمشة والخيوط ، أما بالتصنيع المباشر ، أو بالبيع ، أو بالشراء تكون العقوبات هى الجلد بالسياط ، والموت أو العمل الاجبارى فى مصنع بولاق . عليكم أن تحددوا القرية التى يوجد فيها الشخص المذنب وكذا اسمه وشهرته ، ثم سلموه الى رجالكم لارساله الى مصنع الحديد » . وفيما يتعلق بالفئة الثانية فهذا كتاب دورى الى رؤساء المصانع فى ابريل سنة ١٨٣٦ : « النشاط ، وحب العمل ، والتفانى فى سبيل المصلحة الوطنية ، والانضباط ، والالتزام بالمواعيد ـ تلك هى الشروط التى أطلبها لتحقيق مهمتنا حتى غايتها ، ألا وهى المصلحة الوطنية » ، وكذا أيضا رسالته المؤرخة عام ١٨٢٦ الى مفتش عام النبارك والمصانع ، : « أفلم أردد دائما أن أمرين يحققان سعدى : السلطان محمود والفلاح ؟ يجب ألا نعامل الفلاح كعدو . فاذا كنا ندين لأحد برفاهيتنا ، فانما يعود ذلك الى الفلاح . اذن ، احرصوا على راحته وارفعوا أجره حتى يمضى الى العمل راضى البال تماما »
(M. Fahmy Revol. ind. Eg., 17, 19).

دهشتهما الكبيرة (٢٧) . وفي مجال الصناعات «المدنية» فقد تم انشاء ثلاثين مصنعا لغزل القطن ونسجه في الوجه القبلي والوجه البحرى ، وكانت مصانع القاهرة تزود مصانع الأقاليم بالآلات والعدد وقطع الغيار ومواد الانشاء والفنيين لتجديد المنشآت ، ولقد كان الانتاج يسد حاجات البلاد ويحقق فى نفس الوقت فائضا قليلا للتصدير وأرباحا لخزانة الدولة تبلغ ١٠٠٪ . كذلك فقد تم انشاء ثلاثة مصانع لنسج الصوف فى بولاق ودمنهور وفوه ، ومصنع كبير للحرير فى الخرنفش (١٨١٦) ، ومصانع عديدة للكتان فى أنحاء البلاد ، وثلاثة مصانع للسكر ، وسبعة عشر مصنعا للنيلة ، ومصنعين كبيرين للزجاج ، ومدبغة رشيد (١٨٢٧) ، ومصنع الورق بالقاهرة (١٨٣٤) ، وستة مصانع لنترات البوتاسيوم أنشأها فرنسى يدعى حاييم Haïm . ان نقطة الضعف ، وهى التى سوف تعوق حركة التصنيع بعد قرن من الزمان ، كانت نقص المعادن الأساسية ، الحديد والفحم ، وصعوبة توفير القوة المحركة الكافية : الحيوانات والرياح

---

(٢٧) راجع المعلومات التى جمعها عبد الرحمن الرافعى فى « **محمد على** » ، ٣٩٢ – ٤٦٣ وكذا محمد فهمى **Révol and Eg. 34-43.** وكتب دوق راجوزا « لا يستطيع المرء أن يبالغ فى استحسان مانيفاتورة (أى مصنع صغير يدوى) متنقلة تنتج أكثر المنتجات اتقانا . وهنالك ثلاث وحدات منها فى مصر . وقد زرت بعناية كبرى وحدة القلعة ، فشاهدت أن الأسلحة التى تنتجها فى مستوى الكمال الذى بلغته الأسلحة التى تنتجها مصانعنا . انه النموذج الفرنسى ، اذ انهم يتخذون نفس الاحتياطات التى نشترطها لضمان جودة الأسلحة ، كما أنهم ينهجون على نظامنا فى تقسيم العمل وكذا فيما يتعلق بالاشراف والضبط . ان كل شىء ينتج بالوحدة ، وداخل المؤسسة ، وحسب تعريفة محددة . وأخيرا فان هذه المانيفاتورة فى مستوى جمال وجودة ووفرة التكلفة كأحسن مثيلا عندنا فى فرنسا » .

(A.B. Clot bey : Aperçu général sur l'Egypte 2 vol. Fonsin, Masson, Paris 1840; ii 296).

ثم كلمات كلوت بك نفسه : « مما لا ريب فيه أن ايجاد ترسانة وانشاء أسطول على ذلك الوجه من السرعة مما يقضى بالعجب ، ويدل على قوة العبقرية ، فقد كان شاطىء البحر بالاسكندرية كالصحراء الخالية من كل أثر لكائن فلم تمض سنوات أربع حتى عمر بترسانة كاملة الأدوات مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات ، فمن قواعد منحدرة لانشاء السفن عليها وتزليجها الى البحر ، وورش ومخازن ومصنع للحبال تمتد بنايته طولا ألفا وأربعين قدما أى كطول مصنع الحبال فى ثغر طولون ، وأنشئت خلال تلك المدة دونمة (أسطول) مؤلفة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعتاد والرجال ، وجربت للمرة الأولى من انشائها فى مطاردة أحد الأساطير العثمانية .

– وما هى الا فترة قصيرة من الزمن حتى ادهشت البحرية المصرية أساطين علم البحر وثقاته سواء بدقة حركات السفن وضبطها أو بدربة البحارة وحسن قيامهم على الأعمال المنوطة بهم وقد أصبح المصريون وهم شعب مفطور على الامتثال ومحامد الخصال ، كأنهم قد خلقوا لممارسة البحر » (نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ج : ٢٥٠ – ٢٥١)

والمياه ـ وكذلك ، ابتداء من عام ١٨٣٠ ، البخار الذى كانت آلاته تشغل ستة مصانع وعدة بواخر لأعالى البحار ، وذلك بفضل المهندس الانجليزى توماس جالواى T. Galloway • وقد أصاب مصطفى فهمى حينما قال : « كان مجهود محمد على فى هـذا الميدان محدودا ، حيث لم يتجاوز ثلث مصانع القطن ، فـلا ينبغى أن ننسى أن انجلترا كانت البلد الأوربى الوحيد الذى اسـتخدم البخار كقوة محركة على نطاق واسـع ولم تكن فرنسا حتى ذلك الحين قد توسعت فى استخدام المحركات البخارية فى مصانع النسيج ، ولم تبدأ فى ذلك الا بصورة بطيئة وبالتدريج ، أما فى ألمانيا ، فقد استمرت فى استخدام القوى المحركة التقليدية وحتى عام ١٨٤٦ كان فى بروسيا ١٣٦ مصنعا للقطن يتم تشـغيلها بالأيدى مع الاستعانة بالجياد أو المياه ، ولم تكن تستخدم البخار الا نادرا (٢٨) » •

لقد شدد محمد على من سيطرة الدولة على الصناعات • وفى البداية ، كان يمهد ل « وضع الحرف اليدوية تحت نظام الاحتكار » فقد صدر عام ١٨١٧ مرسوم يقضى بوجوب بحث كل مشروع عن طريق مجلس وتكون الموافقة عليه بأغلبية الأصوات ، وللوالى اتخـاذ القرار الأخير (٢٩) ، وظهرت الادارات التالية : الحرير ، الطباعة ، المبيعات ، المشتروات ، الجلود والمجازر ، الذخيرة ، الملاحة ، الزيوت ومعاصر الزيت ، ثم ظهرت فى عام ١٨٣٠ المجالس التالية : طباعة الأقمشة ، الذخيرة ، الترسانات ، المعادن ، الدواب ، المبيعات ـ وكلها مستقلة ، وأخيرا فى عام ١٨٣٧ صـدر قرار بتركيز النشـاط الاقتصـادى على المستوى الحكومى وذلك بتكليف سبع وزارات رئيسـية ، عموم ديوان ، بالاشراف على هـذا النشـاط ، وهى وزارات : المالية ، الحرب ، الملاحة (البحرية) المعارف العمومية ، الشئون الأوربية والتجارية ، الداخلية ، والصناعة (٣٠) •

أما المرحلة الثالثة والتى بدأت عام ١٨٣٠ ، فهى مرحلة انهيار الاقتصاد المصرى ، وبصفة خاصة فى أكثر قطاعاته تطورا وتقدما وهو قطاع الزراعة ، وذلك تحت وطأة التدخل الأوربى الذى سندرسه فى القسم التالى •

---

(٢٨) M. Fahmy : Révol ind. Eg., 21-54. 122. ومن الغريب أنه يتجاهل رسالة الدكتور على سليمان رغم أنها اجيزت فى فرنسا قبله باثنين وعشرين عاما •

(٢٩) Jean Deny : Sommaire des archives turques du Caire, Le Caire, 1930, 126.

(٣٠) M. Fahmy; Révol, ind Eg., 55-61; J. Deny : Arch Turques, 105.

وفى سبيل اقامة هذه القاعدة الاقتصادية الهائلة بالنسبة لذلك العصر ، لجأ محمد على الى اسلوب الاحتكار الذى سمح له بتمويل الصناعات الجديدة ، والى الضرائب والى القروض الاجبارية ، والى التلاعب بالعملة ، والى السخرة · ويضيف على الجريتلى : « كان تحطيم القوات المسلحة [المصرية] فى العهد التركى عاملا هاما فى نقص الطلب على المنتجات الصناعية ، فى حين كان نقل صفوة العمال الى عاصمة الأمبراطورية العثمانية عاملا هاما فى تقليص حجم القوة العاملة بطريقة مدمرة (٣١) » · ومرة أخرى نستطيع أن نقدر السياسة الاقتصادية التى اتبعها محمد على وأهميتها فى نهضة مصر ، لقد قال محمد على لبورنج وهو بصدد ثنائه على مصر كدولة زراعية : « ان هدفنا ليس تحقيق الأرباح وانما صبغ الشعب بالصبغة الصناعية (٣٢) » · ان عملية التأريخ لمصر الحديثة بدأت تدرك ضخامة الأعمال التى قام بها مؤسس الأسرة التى ألغى حكمها فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (٣٣) ·

---

(٣١) 31. Ali A.A. al-Gritly : The structure of modern industry in Egypt, Ph. D., London, in L'Egypte Contemporaine, nov-déc. 1947, no 241-2, Le Caire, 1948, 363.

(٣٢) J. Bowring : Egypt and Canadia, 29-30. · وحول العلاقات بين السياسة العامة للاحتكار والزراعة ، أنظر الدراسة الدقيقة التى قدمها أحمد الحته : « دراسات تاريخية اقتصادية فى عصر محمد على — ١ — الاحتكار والنظام الزراعى » مجلة كلية آداب القاهرة ، ٣ (١٩٣٥) ، ١١٣ — ١٦٦ · وحول الدور الذى لعبته التجارة فى هذه السياسة أنظر :

A.E. Crouchley : «The development of commerce in the reign of Mohamed Ali». Eg. Contemp., xxviii (1937), 305-68.

(٣٣) وعلى سبيل المثال فان الرافعى ؛ رغم كونه عضوا للحزب الوطنى الذى كان معارضا بصفة تقليدية للأسرة الملكية السابقة ، يحدد الأعمال التى انجزها محمد على باعتبارها « تحقيق الاستقلال الوطنى » (عصر محمد على ، الفصل الخامس ، ١٢٢ ومابعدها والفصل السادس ، ٣٧٢ وما بعدها)

القسم الثاني — من الغاء الاحتكار الى الامبريالية

ابتداء من معاهدة لندن حتى هزيمة التل الكبير يدخل تاريخ المجتمع المصرى فى اطار الاستعمار ، ثم الامبريالية ٠

كانت الحكومة البريطانية هى التى تحرك خيوط المؤامرة ، فى نطاق التقارب بين انجلترا وروسيا ، ذلك التقارب الذى كان يرجوه ميترنيخ Metternich كانت فرنسا على عهد لويس فيليب تعتبر المؤامرة المحاكمة ضد مصر من « الشئون الداخلية » بين السلطان والوالى التابع له ويقول محمد صبرى : « لما كان [لورد بونسنبى Lord Ponsonby] يرى أن احتكارات الوالى تمثل حجر الزاوية فى قوته الاقتصادية ، فقد عقد مع رشيد باشا فى ١٦ أغسطس ١٨٣٨ المعاهدة التجارية الشهيرة والتى بموجبها يتعهد الباب العالى بالغاء الاحتكارات فى مقابل زيادة الرسوم الجمركية بنسبة تتراوح بين ٣ر١٢٪ ، وذلك كخطوة أولى ٠ فى انتظار حرب كان يعد لها فى الخفاء ٠ (١) »

وبموجب المادة الخامسة من البند المنفصل والملحق بالاتفاقية المعقودة بلندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ بين النمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا من ناحية ، وجناب الباب العالى من ناحية أخرى ، « ينوى جناب السلطان أن يحيط محمد على علما بشروط التسوية اللاحقة [٠٠٠٠] : ٥ — ان جميع المعاهدات والقوانين الخاصة بالامبراطورية العثمانية يسرى تطبيقها على مصر وولاية عكا (٢) » ثم جاء المرسوم السلطانى الذى أصدره فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ السلطان عبد المجيد ليؤكد هذه التبعية (٣) ٠

---

(١) Mohammed Sabry : L'Empire égyptien sous Mohamed-Ali et la question d'Orient (1811-1849), Libr. Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1930, 427.

(٢) النص الفرنسى فى Documents diplomatiques concernant l'Egypte de Méhemet-Ali jusqu'en 1920.

حيث قامت بجمعه «L'Association égyptienne de Paris», Ed. Ernest Leroux, Paris, 1920, 3-6.

(٣) المرجع السابق ، ١١

هذا ، « وحتى عام ١٨٣٨ ، لم تكن تركيا قد انضمت الى الشبكة الاقتصادية والسياسية للحضارة الأوربية ، فلم يكن الغرب آكثر من مصدر لاستيحاء الأفكار والمناهج » · وزيادة على ذلك ، وهو اختلاف هام مع مصر ، فقد كانت احتكارات التجارة ممنوحة لبعض الأفراد ، كما كانت تمارسها الدولة أيضا (ن · بيركيس) (٤) · ان تدخل القوى الأوربية لاجبار مصر الصناعية بقيادة محمد على ــ حيث الدولة هى صاحبة جميع الاحتكارات ــ على تطبيق نظم تركيا الضعيفة التى يقوم اقتصادها على النظام الاقطاعى والحرفى ، هذا التدخل كان يستهدف صراحة اخماد انطلاقة النهضة الشرقية (٥) فى الوقت الذى كانت الثورة الصناعية فى أوربا تتحرك لفتح أسواق جديدة لها ·

وفضلا عن ذلك ، أليست « أوروبا » التى تنسق مجهوداتها هى التى اتفقت فى مؤتمر فيينا على القضاء على امبراطورية نابليون ، وليدة الثورة الفرنسية ؟ ان لويس فيليب وتيير Thiers لا يقومان بشىء فعلى غير الكلام ، والواقع ، « أن نقطة الضعف فى السياسة الفرنسية حيال المسألة الشرقية كلها منذ عام ١٨٣٢ واضحة كل الوضوح : السعى الى هدفين فى ذات الوقت ، اضعاف قوة مصر وزيادتها (القوة الفرنسية) (٦). وأمام هذه المخادعة ، « كان يشغل السياسة الانجليزية شاغلان : أولهما أن اندماج مصر وسوريا ، وراثيا ، فى قوة واحدة فى أسرة محمد على ، من شأنه أن يجعل الوالى وخلفاءه من القوة بحيث يعلنون استقلالهم ؛ والشاغل الثانى ، الخوف من أن تقع مصر وسوريا ، على أثر موت محمد على أو أحد خلفائه ، فى يدى فرنسا التى فى نظرهم ، تملك أسبابا كثيرة للقيام باحتلال محتمل (٧) · »

---

(٤) N. Berkes : Turkey, 143, 138; Vernon J. Puryear : International economics and diplomacy in the Near East : a study of British commercial policy in the Levant 1843-1853, Stanford, 1935, 118;

وهو اختلاف اكده :

M. Sabry : Empire égyptien, 428.

(٥) يصور تعبير « المسألة الشرقية » الجو الذى كان سائدا فى ذلك العصر ·

(٦) « غير أن مسيو تيير ، الذى دفع مصر الى معارضة الدول والتماس حماية فرنسا ، تجنب أن يكفل له (أى محمد على) تقديم قرض أو أن يرسل له ضبطا لبحريته · وقال تيير نفسه : « ان سياستنا هى الأنتظار المسلح والبالغ التسليح » ، « وبعد ان توقف بجيشه عند نصيبين ودعا الوالى أن يظل فى الموقف الدفاعى وأن يطلب حماية فرنسا التى اهتمت به ، كان فى استطاعة حكومة تيير على الأقل ·· ارسال المال وأميرال مع أركان حربه كما طلب محمد على » ·

(M. Sabry : Empire égyptien, 537, 508-9, 521)

(٧) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٤٥٣

وسوف نعود ـ فى الفصل الثالث ـ الى الجانب السياسى التنظيمى بمعنى الكلمة للمسألة الشرقية ، فيما يتعلق منها بمصر . ومن الأوفق أن نتوقف هنا عند الوسائل التى اتبعت لانجـــاح عملية القضـــاء على الاقتصاد المصرى . ولا شك أن الاحتكارات كانت فى عام ١٨٤٠ تمثل « حجر الزاوية » فى قوة الوالى الاقتصادية ، وتلك القوة يجب وضعها فى الاطار العام لانجازات محمد على : كان التصـــنيع وهيمنة الدولة على مختلف النشاطات الاقتصادية ـ الاحتكارات ـ فى خدمة الجيش الرابض على حدود الامبراطورية ، تلك الامبراطورية التى تقرع أبواب تركيا من اليمن الى السودان . لذلك فأمام معاهدة لندن ـ التى لم تحدد قوة الجيش المصرى ـ ضحك محمد على بينه وبين نفسه من الغاء الاحتكارات ، لأنه لا يرى فيها الا خسارة للسلطان . » ذلك السلطان الذى يتمنى أن يقدم له ، على حد قول ميترنيخ ، « ولآخر باشا فى بغداد ، قصرا جميلا فى الأستانة مع راحة فائقة (٨) . » ولكن الموقف تغير تماما بصدور مرسوم ١٣ فبراير ١٨٤١ الذى استهدف الجيش المصرى ، مبـــاشرة ، فقضى بتقليصه الى ١٨ ألف رجل ، بالاضافة الى ٢ر٠٠٠ منتدبين فى تركيا (٩) : والآن ، وقد قضى على الاحتكارات لم يبق أمام الوالى من وسيلة الا أن يوقف هذا الزحف . وهذا ما قام به فعلا وبنجاح الى حد ما : ففى مارس ١٨٤٢ أوضـــح محمد على لقناصل الـدول الأوربية أن تجـارة جميع المنتجات حرة ، باســتثناء القطن ، وألح على ضرورة الانتقـال التـــدريجى وفى مايو ١٨٤٢ أوضح وزيره بوغوص أن محصـــول القطن لعام ١٨٤٣ سيكون بدوره حرا : ولكن فى ديسمبر ١٨٤٣ احتج كريهمر Krehmer مبينا أنه ما دامت الأراضى ملكا للوالى وأسرته وأشياعه فانهم يفرضون على الفلاحين أسعار القطن ، الأمر الذى يجعل نظام الاحتكار سائدا من الوجهة العملية (١٠) . وفى نفس الوقت ، حاول محمد على أن يتقرب من الباب العالى بهدف ايقاف الضغط الأوربى (١١) ، وفتحت مصر أبوابها للبضائع الأوربية وسرعان ما قلت قدرة الصناعات المحلية على مواجهة

---

(٨) Staats-Kanzlei : Gesandischfts-archiv, Konstantinopel, 1838 in M. Sabry : Empire égyptien, 428-9.

(٩) Doc. dipl. Egypte, 10-4.

(١٠) راشد البراوى وم.م . علش : **التطور الاقتصادى** ، ٦٣ ،
René Cattaui : Le règne de Mohamed Ali d'après les Archives russes en Egypte, Société Royale de Géographie, Le Caire-Rome, 1931-6, iii : 641-6, 749-55.
محمد فهمى لهيطة : **الاقتصاد الصناعى والبنك المركزى** ، القاهرة ، ١٩٤٤

(١١) صبحى وحيدة : **فى اصول المسألة المصرية** ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ١٥٦ .

هذه المنافسة ، التى لم تكن منتظرة قبل عام ١٨٣٨ ، ولم تستطع هذه الصناعات المحلية الاستمرار بعد وفاة محمد على عام ١٨٤٩ (١٢) ٠

وهكذا ، أصبح الباب مفتوحا أمام التدخل الأجنبى ٠

ووجـد هذا التدخل فى شق قناة السويس وسيلته المفضلة ٠ ولقد كرست لهذا الموضوع دراسات كثيرة ، سنعرض لها من زاوية تأثيرها فى التدخل الأوربى فى مصر (١٣) ٠ ومن الناحية التاريخية فى انجاز هذه المهمة الضخمة (١٤) نذكر الدور الذى عينته حكومة «الديركتوار» لنابليون وذلك فى القرارات التى اتخذها بخصوص الحملة على مصر (١٥) ، كذلك التأثير الذى مارسه أنصار سان سيمون خصوصا تأثير بروسبير انفنتان Prosper Enfanti الذى زار مصر لهذا الهدف عام ١٨٣٢ (١٦) :

---

(١٢) C. Issawi : Egypt in revolution, 24.

(١٣) أنظر القائمة السلبوجرافية المنتظمة التى قدمهـــا رينيه مونييه حتى ١٩١٦ ٠
René Maunier :Bibliographie (cf. Bibl. générale), 177-212.

وأهم المؤلفات التى صدرت بعد ذلك فهى كالآتى :
Charles W. Haltberg : The Suez Canal, its history and diplomatic importance, Columbia, 1931; Arnold T. Wilson : The Suez Canal, its past present and future, Oxford U.P., London, 1933; Pierre Crabités : The spoliation of Suez, Routledge, London, 1940; Moustapha el-Ḥefnaoui : Les problèmes contemporains posés par le Canal de Suez, Impr. Guillemot, Paris, 951; John Marlowe : The making of the Suez Canal, The Cresset Press, London, 1964.

بالاضافة الى الكثير من المؤلفـات والكتيبات والوثائق والمقالات ٠٠ الخ ، التى نشرت فى مصر منذ ١٩٥٦ ٠

(١٤) يرد تلخيص جيد لمقدمات هذا الحدث فى
Anglo Sammarco : Précis de l'histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues, Tome IV : Les règnes de Abbâs, de sa'īd et d'Isma'īl (1848-1879). Instituto Poligrafico dello Stato, Roma, 1935, ch. iii et iv, 33-63.

(١٥) قال نابليون « انه سيطرد الانجليز من جميع ممتلكاتهم فى الشرق التى يتمكن من الوصول اليها وسيدمر بوجه خاص جميع **الوكالات التجارية** فى البحر الأحمر ٠٠ وبما أن الخيانة الشائنة التى تمكنت بفضلها انجلترا من الســـيطرة على رأس الرجاء الصالح جعلت من الصعوبة البالغة وصـــول بوارج الجمهورية الى الهند عبر الطريق المألوف فمن المهم شق طريق آخر أمام القوات الجمهورية للوصول اليها ٠٠ » (فى)
(A. Sammarco : Ibid., 46-7.

(١٦) « لقد طال الزمن على شق برزخ السويس الذى كان مزمعا منذ زمن طويل ٠ ويتعين بدء العمل فيه وسيتم بمعرفتنا أو عن طريقنا ٠٠ ويتعين أن يكون هذا العمل الجليل، العالمى بحق ، عملا من أعمال الحماسة والاخلاص كما كانت الحرب ، وليجلل المجد هؤلاء الجنود السلاميين » ٠
(Oiivres de Saaint-Simon et d'Enfaantin, Dentu, Paris, 1865-78, IX. 84.
وقد ذكره
A. Sammarco : Sa'id et Isma'il, 51.

ولسوف نتعرض لدراسة هذا التأثير ، على المستوى الفكرى ، فى الفصل الخامس .

لقد اصطدم هذا المشروع ، بادئ ذى بدء ، بأحد احتكارات محمد على ، ألا وهو احتكار النقل بين القاهرة والسويس . فلكى تتحكم بريطانيا العظمى فى الطريق الى الهند ، يجب أن تضمن اشرافها على المواصلات الداخلية فى مصر نفسها ، خصوصا وأن استخدام البخار زاد عدد البواخر التى تصل الى الاسكندرية (١٧) . ولقد بدأ الوالى بمنح شركة Peninsular and Oriental Co. حق ادارة هذا المرفق (الترانزيت) : ثلاث وكالات خاصة فى كل من الأسكندرية والقاهرة والسويس عام ١٨٣٨ ، وفى العام التالى منح الشركة عقدا لمدة عشر سنوات ، وأخيرا التصريح ببناء سفينتين تجاريتين فى النيل هما « لوتس » و « القاهرة » متصلتين بسلسلة من بواخر السحب فى قناة المحمودية وذلك عام ١٨٤١ - ١٨٤٢ .

فى ذلك الوقت بالذات ظهر تخوف محمد على من السيطرة البريطانية - خصوصا أن عدد الجيش كان قد نقص وتقلصت رقعة الدولة : ومن ثم كان اشراف مصر على وسائل النقل البحرى الأجنبية واجبارها على رفع علم البلاد (سبتمبر ١٨٤١) ، وتعهد جميع الأوربيين

---

(١٧) 17. M. Sabry : Empire égyptien, 559.

« لقد أقامت فرنسا فى عام ١٨٣٧ أول خدماتها للبواخر بين مارسيليا والاسكندرية . وقد بدأت المراكب البخارية الانجليزية تقوم برحلاتها بين سوثهامبتن ومصر فى عام ١٨٤٠ ، وانشئت فى فبراير ١٨٤٥ شركة Peninsular and Oriental Co. المسماة (571-2) وفى يوليو ١٨٤٥ بدأت بواخر الشركة النمساوية Lloyd القيام برحلاتها مرتين فى الشهر بين الاسكندرية وتريستا : وغادرت أول مركب لها مدينة تريستا يوم العاشر من يوليو ووصلت الاسكندرية فى السادس عشر من يوليو »

« ولقد اتسع نطاق التجارة الانجليزية مع مصر اتساعا هائلا بين ١٨٤٠ و ١٨٤٦ ، بفضل الملاحة عن طريق البخار والتطور الهائل الذى حققته مصر فى ظل ادارة محمد على . فحتى عام ١٨٢٠ لم تصل أية باخرة انجليزية مباشرة من انجلترا الى مصر وكانت الملاحة التجارية الانجليزية فى عام ١٨٤٥ ضعف ملاحة أى بلد أوروبى آخر وكذلك صادراتها ووارداتها .. وفى عام ١٨٤٥ بلغ عدد المراكب الانجليزية التى وصلت الى الاسكندرية (عدا البواخر) ١٨٧ (حمولتها ٤٦٢٢٠ طنا) ، وبلغ عدد المراكب الفرنسية ٦٨ (حمولتها ١١٧١٩ طنا) ، وبلغ اجمالى الصادرات والواردات الانجليزية ٨٦٩٤٧ جنيها مقابل اجمالى الصادرات والواردات الفرنسية الذى بلغ ٣٦٤٨٩٨ جنيها . وقد جعلت شبكة الاتصالات المقامة عبر مصر بريطانيا العظمى على صلات مع عدن والامبراطورية الهندية وسيلان واستراليا ، الخ . ومع سكان بلغ عددهم ١٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فى حين أن عدد السكان فى Rondichery والمستعمرات الفرنسية الذين خدمتهم هذه الاتصالات لم يتجاوز ١٦٠٫٠٠٠ نسمة » .

هذه الأرقام مستمدة من
F.O., 78 Vol. 663, 29-5-1846; Vol., 667 B. 29-8-1846.

العاملين فى البلاد بالكف نهائيا عن اللجوء الى سلطات القناصل التابعين لها ، وانشاء شركتين للملاحة فى البحر المتوسط عام ١٨٤٥ ـ « بولاق » و « رشيد » ـ وفى النيل نفسه ، ورفض الشروع فى اقامة خط السكة الحديدية عبر البرزخ (مايو ١٨٤٥) ٠ أما المعركة الحقيقية فقد كانت معركة مشروع القناة الذى كان يؤيده الفرنسيون ، بينما كان محمد على يرى أنه يمكن السيطرة البريطانية فى مصر ٠ وقد كشفت المجادلات التى دارت بينه وبين القنصل الفرنسى بينيدتى Benedetti عن حصافة رأى محمد على الذى كان حريصا على ضمان حياد مصر فى المجال السياسى عن طريق عمل دولى ، فى حين كان رأيه تحقيق المشروع ، عند الضرورة ، بواسطة مصادر مصرية فقط ، « ودون الاستعانة برؤوس الأموال الأجنبية » ، ووضع الخبراء والفنيين الأجانب تحت اشراف الدولة (١٨)٠ كذلك فان المفاوضات التى تمت مع النمسا تشير الى نفس التحفظات (١٩).

(١٨) ترد التفاصيل فى محمد صبرى M. Sabry : Empire égyptien, 564-8 « لقد سعى مسيو بينيدتى ، قنصل فرنسا ، فى مذكرته المؤرخة أول مارس ١٨٤٣ ، الى شرح معارضة الوالى : «يرتاب فى استدعاء الأوروبيين الى مصر ، ويظن انه حالما يفتح البرزخ فسوف يتعاظم اشتهاء انجلترا فى تملك امبراطوريته ، ويأبى أن يفتح البحر الأحمر ، البحر المقدس ، للملاحة لغير المؤمنين ، وحالما يفتتح هذا البحر ، فان سيطرته ستصبح أقل مما هى اليوم على تجارة الحبشة والجزيرة العربية وحتى أفريقيا الوسطى ٠ وفى ختام الأمر فانه يرتاب فى عدم كفاية قواته العسكرية للدفاع عن موضع هام للغاية ، وكذلك موارده المالية لتنفيذ مشروعات جد كبيرة ٠٠ » وكتب بينيدتى فى ١٧ يناير ١٨٤٥ : « والباشا مرتاب على الدوام تجاه أى عمل من أعمال حكومته يسفر عن تثبيت المصالح الأجنبية فى مصر ٠ » ثم كتب فى ٤ فبراير : « ويبغى بدءا أن يكفل لأسرته وراثه حكومة مصر ٠٠٠ ويعتقد محقا أن هذا العمل يضفى أهمية ضخمة على تملك مصر ويخلص خاطئا الى أن أية دولة عظمى يمكنها أن تفيد من أول أزمة تنشب فى أوروبا لاستبعاد أبنائه والاستيلاء عليها ٠٠ » ٠ وكتب فى ١٦ ابريل سنة ١٩٤٧ الى جيزو Guizot : « قال لى : ليتم الاتفاق فيما بين الدول الأوربية على ضرورة القناة ، ولتتفاهم مع الباب العالى ، مادام يجب ذلك ، على الجانب السياسى فى هذا المشروع ٠٠ الا أنه حالما تسوى المسألة من الناحية السياسية فاننى أبغى أن يعهد الى صراحة تنفيذ المشروع ، وعندما تشق القناة فاننى أعتقد أنه فى وسعى أن أتقدم طالبا أن يكون شرطة الملاحة وجباية الرسوم تابعين لى وحدى أو لخلفائى » ٠ ويختتم محمد صبرى بحق : « فى هذه المناقشة التى لم تنقصها العظمة ولا اثارة العواطف فان محمد على اهتم بدءا بضمان حقوق البلاد ومصالحها » ٠

(١٩) A. Sammarco : Sa'id et Ismail, 54-9. ويبين نفس الموقف عند ايضاحه المفاوضات مع ميترنيخ الذى يثنى على « نفاذ البصيرة الرائع » الذى يتمتع به الوالى فى :

In Aus Metternich's nachgelassenen papieren, vol, ivii, Vienn, 1883. 581-3,

والحقيقة أن تخوف الوالى المتزايد حيال اقامة « الطريق البرى » بواسطة شركة (P. and O) جعله يقبل فى عام ١٨٤٧ البعثـــة التحضيرية المكونة من ثلاثة هم نيجريلى Negrelli وستيفنسون Stephenson وتالابوت Talabot الموفدين من قبل « شركة دراسات قناة السويس » التى الفها انفنتان فى ٢٧ سبتمبر عام ١٨٤٦ ، بمساعدة كبرى البيوت التجارية فى فرنسا والنمسا وألمانيا وبريطانيا العظمى وتريســـتا ٠ غير أن الموقف الأساسى لم يتغير (٢٠) ، وعند وفاة محمد على (٢ أغسطس ١٨٤٩) لم يكن قد تم التنازل عن أى شىء من التراث القومى لمصر الحديثة فى ذلك الحين ٠ وقبيل ذلك ، سار ابنه ابراهيم الذى خلفه لفترة قصيرة (من أبريـــل الى نوفمبر سنة ١٩٤٨) فى نفس الطريق حتى وفاته فى ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ ٠

هل كان عهد عباس الأول (١٨٤٩ ــ ١٨٥٤) حقا ، أو فقط ، عهد « الصمت والارهاب » ، كما يصفه انجيلو ساماركو Angelo Sammarco صحيح أننا نلاحظ تقلصا واضحا للنفوذ الفرنسى الذى لم يكن يكف عن مساندة حركة النهضة التى بدأها محمد على ، « ويؤكد البعض أن المصالح الانجليزية قد أصبحت فى وضع أفضل مما كانت عليه قبل ذلك » ٠ والسبب هنا يعود الى نفوذ نوبار (٢١) ، الذى ظل يلعب دورا هاما فى المجالس والمشاورات منذ عهد محمد على حتى انكسار اسماعيل ٠ ومع ذلك فان محمد صبرى ــ الذى يصف عباس الأول بأنه « عقلية خاملة ، طائش ، متطير ، شكاك ، مداهن ، بارد ، قاس ، متسلط ، رجعى ، عدو للتجديد ، مسرف ، مولع بالترف والملذات ، غريب الأطوار ومتقلب » ــ يورد حكما صائبا : « ان القضاء على منشآت محمد على بغرض الاستغناء عن العون الأوربى ، كان باختصار ، بمثابة القضاء على الجانب الصـــحى والمفيد من النفوذ الأوربى فى مصر ٠ كان عليه أن يحارب العناصر الضارة وغير المشروعة التى كانت تؤلف أساس نشاط الأجانب فى مصر والتى لم يستطع أن يغلق أمامها أبواب الدلتا ٠ ومع ذلك لابد أن نعترف أن سياسة اليقظة والشدة التى كان ينهجها الوالى قد وقفت حائـــلا دون

أنظر مذكرة

du comte de Fiquelmont Metternich, du 2 mars 1843, sub.
«Considérations sur l'établissement d'un canal de navigation qui réunirait la Mer Rouge à la Méditerranée,» in Hussein Husny : Le Canal de Suez et la politique égyptienne, Montpellier, 1923, 310-21,

المؤيد دوليسيبس à Lessens.

(٢٠) A. Sammarco : Sa'îd et Isma'îl, 60-3.

(٢١) Louis Jourdan : Des intérêts de la France en Egypte, Amyot, Paris, 1851, 29-38; A. Sammarco : Sa'îd et Isma'îl, 10-1;

عبد الرحمن الرافعى ، عصر اســماعيل ، مطبعة النهضـة المصرية ، القــاهرة ، ط ٢ ، ١٩٤٨ ، ١٣ ٠

التدفق الأوربى في مصر وأنها خصوصا ، بفضل اللوائح التى صدرت بهدف تحديد حرية التجارة الداخلية ، قد منعت الأوربيين ومعظمهم من اليونانيين من التسلل الى داخل البلاد ، وترك المدينتين الكبيرتين ، القاهرة والأسكندرية ، والانتشار في القرى والاتجار مع الفلاحين الجهلة . وبذلك نجح عباس فى ايقاف زحف الخطر الذى استشرى كبقعة الزيت فى عهد خليفته ، ولكن لم يمح ذلك من وجود الخطر (٢٢) . » « والخطر » هو « عهد القناصل » الذى بدأ فى عهد عباس . عملية ايقاف من نوع سلبى للتدخل الاقتصادى الأوربى : تلك كانت ايجابية عباس الأول على أثر اختفاء محمد على .

ان الامتياز الذى منحه سعيد لصديق طفولته فرديناند دى ليسبس Ferdinand de Lesseps بحفر قناة السويس فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ ، والذى أعلن رسميا بالفرمان الصادر فى ١٩ مايو ١٨٥٥ ، يمثل بداية تدخل رأس المال الأوربى فى مصر ، وهو فى قمة توسعه الاستعمارى . كان الدافع الى ذلك هو نابليون الثالث بنفسه ، الذى أسرع بتحويل « شركة دراسات قناة السويس » المؤسسة فى ٢٧ نوفمبر ١٨٤٦ من ثلاث مجموعات كل منها يتألف من عشرة أعضاء تمثل بريطانيا العظمى وفرنسا والنمسا — الى « هيئة ادارة الشركة العالمية لقناة السويس » ، المؤلفة فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ ، « حتى يكون تكوينها من رجال الأعمال عونا لرجال الدولة فى مفاوضاتهم الدبلوماسية » كما يوضح نابليون الثالث لانفنتان (٢٣) . وقد أبعد هذا الأخير ، سريعا ، عن المشروع لصالح ديلسبس وحده (٢٤) ، الذى ما برح ، منذ ذلك الحين ، يضغط على سعيد للحصول على جميع الامتيازات باسم الصداقة .

وقد بدأ الوالى الجديد بالمطالبة « بعدم الأخذ بالرأى القائل بربط القناة بالنيل ، وانما بشق طريق مباشر يربط بين البحرين ويكون على الحدود المصرية (٢٥) » . ومع ذلك ، فان سعيدا ، الذى كان ضعفه يتجلى

(٢٢) Mohamed Sabry : L'Empire égyptien sous Ismaîl et l'ingérence Anglo-française (1363-1879), Libr, Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1933, 14-7.

(٢٣) A. Sammarco : Sa'îd et Ismaêîl, 60-75; محمد فهمى لهيطة : تطور مصر ، ٢٤٩ وما بعدها . وحول صداقة سعيد وديليسبس انظر محمد طلعت حرب : قنال السويس ، القاهرة . د. ت. ، ٢٤ وما بعدها .

(٢٤) Louis Bréhier : L'Egypte de 1798 à 1900, Courbet and Co., Paris, s.d., 161.

(٢٥) A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 78.

بين وقت وآخر ، سرعان ما خضع لديليسبس الذى كان يتمتع بالتأييد السياسى والمالى الكبير فى أوربا. ففى حين كان النص التركى للفرمان الأول يمنح ديلسيبس « تصريحا خاصا » فقد عمد هذا الأخير الى تغيير ذلك فى النص الفرنسى الى « سلطة قاصرة » عليه (٢٦) . » وفى ٥ يناير ١٨٥٦ صدر فرمان آخر ، فى انتظار تصديق الباب العالى ، كانت بنوده ــ وهى فى مجموعها تعتبر « امتيازا » وليس « انتدابا » ــ أكثر قسوة وجورا ، ففى المـــادة العاشرة ضمن ديليسبس للشركة ملكية الأراضى الواقعـة على طول القناة وكذلك تلك الواقعة على طول قناة التغذية المتفرعة من النيل . وفى ٢٠ يوليو ١٨٥٦ صدر قرار تكميلى يعطى الشركة حق استخدام من ٢٠ الى ٣٠ ألف رجل كل شهر على سبيل السخرة في أعمال القناة (٢٧). والنقطة الثانية الرئيسية هى : كيف يمول شق القناة ؟ من طريق طرح ٤٠٠ر٠٠٠ سهم قيمة كل منها ٥٠٠ فرنك اشـــترت منها فرنســـا ٢٠٧ر١١١ ، أما بريطانيا العظمى والنمسا وروسيا والولايات المتحـــدة فقد رفضت الـ ٨٥ر٥٠٦ أسهم التى خصصت لها ، ولم تأخذ أسبانيا وهولندا الا ٣٪ ، ومنذ ذلك الحين أصبح الهدف الأساسى من مناورات ديليسبس هو أن يدفع سعيدا الى قبول الـ ٩٦ر٥١٧ ســـهما المخصصة لتركيا ، وكذلك الباقى (٢٨) . وعلى ذلك فان « تحميل خزانة والى مصر ٤٤٪ من رأس مال شركة مســـماه « عالمية » كان من المفروض أن تتألف من رؤوس الأموال الحرة فى أوربا » ، كان بمثابة دفع سعيد الى حافة هاوية القروض والمشكلات المالية المعقدة والتعجيل بالافلاس (٢٩) . »

أخذ ديليسبس يدفع البلاد ، بلا هوادة ، فى طـــريق القروض الأجنبية . وكان أول عناصر هذا « الغزو الرهنى » كما أسماه بحق محمد صبرى ، يتمثل فى اصدار سندات الخزانة ابتداء من عام ١٨٥٨ ، وقد وجدت البنوك ، التى بدأت تتكاثر ، فى هـــذه العملية ربحا يصل الى ١٨٪ ، وعارضت بريطانيا العظمى كما عارضت شق البرزخ ، وكذلـك

---

(٢٦) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٨٢ ــ ٨٣ ،
M. Sabry : Ismail et ingérence, 55-79; Hussein Mo'nes : «Les we forget — a record from history» in The Suez Canal, facts and documents, The Selected Studies Committee, no 5, Le Caire, s.d. (c. 1958), 8-62; etc.

(٢٧) A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 146-7, وهو يلاحظ بانصـــاف ، بعد أوديلون بارو ، أن « عمل هؤلاء الرجال الذين كانوا يتقاضون أجرا ضئيلا للغاية أصبح أرخص بكثير من العمل الذى تؤديه الآلات » .

(٢٨) François Charles-Roux : "Le capital français en Egypte," Eg. Cont., ii (1911), no 8, 466-7.

(٢٩) M. Sabry; Ismail et ingérence, 70.

فعلت تركيا ، ولكن دون جدوى : فقد كان ديليسبس يتحرك بسرعة دافعا بعجلة الأمور الى الأمام · وفى سرعة فائقة صدرت سندات تعيين الحصص بمعدل خصم ٢٦٪ وكان بنك Comptoir d'Escompte **فى باريس** يقوم بمساندة المشروع (٣٠) · وأخيرا ، فان الضغوط التى كانت تمارس ضد الباب العالى جعلته يوافق على أول قرض انجليزى ألمانى فى ١٨ مارس ١٨٦٢ وقيمته ٣٫٢٩٢٫٨٠٠ جنيه استرلينى بربح ٨٪ [٣٫٢١٠٫٤٨٠ جنيه مصرى] (٣١) ·

عندما توفى سعيد فى ١٨ يناير ١٨٦٣ كان العجز فى الميزانية المصرية قد ارتفع الى ٣٦٧٫٠٠٠٫٠٠ فرنك [١٤٫٣١٣٫٠٠٠ ج · م] طبقا لأكثر التقديرات شيوعا (٣٢) فى حين أن م· ف· لهيطة كان يقدره بـ ١٦٫٣٠٨٫٠٧٥ ج م (٣٣) · وفضلا عن ذلك ، فقد تنازل سعيد في مقابل ثمن بخس عن ضيعة الوادى ــ ١٠٫٠٠٠ هكتار بما فى ذلك التل الكبير ، مفتاح مصر ــ وأربع قنوات داخلية بين النيل وبحيرة التمساح وثلاث عمارات وملحقاتها ، ومحلات تقوم على مساحة مقدارها ١٠٫٠٠٠ م٢ فى بولاق ، الخ (٣٤) · واذا كان امتياز قناة السويس « قد فتح باب الدلتا على مصراعيه أمام الأوربيين وأصحاب الحكم المطلق بضربة لم يقم

---

(٣٠) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ولا سيما مشروع الاتفاقية التى يجرى توقيعها بين الحكومة المصرية من جهة ، والسيد شارل لافيت « الكونتوار ديكونت » من جهة أخرى ، فى اكتوبر ١٨٦١ (٩٤ ــ ٩٥ ، رقم ٢)

(٣١) David S. Landes : Bankers and pashas, Heinemann, London 1958, 339. ويقدر محمد صبرى هذا المبلغ بحوالى ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى (٢٫٣٤٠٫٠٠٠ جنيه مصرى) (Ismail et ingérence, 99). ويقدره محمد فهمى **لهيطه** بـ ٢٫٣٤٠٫٠٠٠ جنيه مصرى (**تطور مصر** ، ٢٤٤) · ويتعين أن نتذكر أن الجنيه الاسترلينى كان يساوى فى ذلك العصر ٢٥ فرنكا فرنسيا **أى** ٠٫٩٧٥ من الجنيه الذهب المصرى الذى أوجده محمد على فى ١٨٣٤ **أنظر** :
Jean Ducruet : Les capitaux européens au Proche-Orient, P.U.F., Paris, 1964, (26, no 2).

(٣٢) M. Sabry : Ismail et ingérence, 106; Gamil K. Osman Ghaleb : Les capitaux étrangers en Egypte, thèse de Droit, ex. dact., Paris, 1954, 241.

(٣٣) ترد التفاصيل الكاملة فى كتاب محمد فهمى لهيطه (**تطور مصر** ، ٢٤٤) ، ويتحدث عبد المقصود حمزة عن ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه مصرى من بينها مبلغ ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه مصرى ورثه من عباس
(The Public debt of Egypt 1854-1867, Le Caire, 1944, 61-4.
ود· س· لا ندس عن ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى (٣٫٢١٧٫٠٠٠ جنيه مصرى)
(Bankers and Pashas, 128).

(٣٤) أنظر تقرير ديليسبس الى الجمعية العامة بتاريخ أول مايو ١٨٦٢ فى :
M. Sabry : Ismail et ingérence, 78-80.

بعدها (٣٥) » • فان ما أوجزناه هنا يعطى صورة عن استسلام مصر العام أمام الغزو الاقتصادى الاستعمارى •

منذ الكلمة التى ألقاها اسماعيل فى ٢٠ يناير ١٨٦٣ فى القلعة بالقاهرة أمام أعضاء السلك القنصلى ، أعلن عزمه على القضاء على السخرة (٣٦) • ثم قال بعد ذلك : « ليس هناك من هو أكثر منى نصرة لمشروع القناة ، لكنى اريد أن تكون القناة تابعة لمصر لا ان تكون مصر تابعة للقناة (٣٧) • » ولتحقيق ذلك ، أراد الوالى أن يرجع عن التنازل عن الأراضى لشركة القناة (مادة ــ ٧ من الفرمان الأول ، مادة ١٠ من الفرمان الثانى) ، التى تهدد بخلق دولة داخل الدولة ، والغاء السخرة • كانت سياسة اسماعيل الاقتصادية فى مجملها تهدف الى اقامة قاعدة اقتصادية حديثة لمصر وزيادة الانتاج الزراعى ، وخصوصا القطن • فى ذلك الوقت كان عدد السكان حوالى خمسة ملايين نسمة ، استقطع منهم ديليسبس « جيشا من العمال » لحفر القناة حرم مصر من عدد يتراوح بين ٥٠ و ٨٠ ألف عامل فى العام (٣٨) ، كانوا « يموتون كالذباب تحت الشمس المحرقة » بسبب سوء التغذية وانعدام العناية والماء (٣٩) • هذا وقد أسفرت حرب الاستقلال الأمريكية عن الزيادة المفاجئةفى أسعار القطن عام ١٨٦٣ ــ ١٨٦٤ : حينئذ وجدت الأفكار الانسانية سندا قويا وذريعة فى مصالح الوالى بوصفه المالك الرئيسى للأراضى المصرية • وأثار ديليسبس المشاكل : « ان الذى يجدر بالاعتبار ليس أن يكون العمل بأجر أو بغير أجر ، وانما هو ما اذا كان العمل يؤدى عن طيب خاطر

---

(٣٥) ذلك ما كتبه ج• كلودى الذى اتخذ اسما مستعارا فى كتابه :
L'histoire financière de l'Egypte depuis Saîd pacha (1854-1976), Paris, s.d., (M. Sabry : Ismail et ingérence, 56, n. 1); M. Sabry : Ismaîl et ingérence, 119 sqq. ; D.S. Bankers and pashas, 116, sqq; etc.

(٣٦) ويرد نصها فى : A. Sammarco : Sa'îd et Isma'îl, 127-8.

(٣٧) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ١٤٤ •

(٣٨) عبد العزيز محمد الشناوى : « **ما تكلفته مصر فى انشاء قناة السويس** » **المجلة التاريخية المصرية** ، ٦ (١٩٥٧) ، ١٣٥ ــ ١٥٥ (١٤٥) ، ويذكر أن أكبر عدد تراوح ما بين ٧٠ر٠٠٠ الى ٨٠ر٠٠٠ وفقا لتصريحات م• لازارد وكيل الوزارة بالخارجية البريطانية فى مجلس العموم فى أول أغسطس ١٨٦٢ • ويتحدث لاندس عن ٥٠ر٠٠٠ الى ٦٠ر٠٠٠ فى ١٨٦٣ ، عام الارتفاع المفاجىء فى أسعار القطن ، والأوبئة الحيوانية والفيضان : من ٢٠ر٠٠٠ الى ٢٥ر٠٠٠ فى العمل ، والآخرون فى الطرق
(Bankers, and pashas; 181, n. 2).

(٣٩) M. Sabry : Ismail et ingérence, 265 sqq. : A. Sammarco: Sa'îd et Ismâ'îl, 147 sqq.;
وتدل هذه اللوحة القاتمة عن الخسارة الفادحة التى أصابت السكان •

أو عن طريق القهر والارغام » كما يقول أحد المراقبين النمساويين (٤٠) · وتآمر مع نوبار ، ثم جر اسماعيل الى طلب تحكيم نابليون الثالث ·

ولقد أسفرت هذه المؤامرة الزائفة عن استعباد مصر اقتصاديا · فالواقع أن نابليون الثالث ، مع مساندته للشركة فى الحفاظ على جوهر حقوقها بالاضافة الى ١٩٫٨٦٤ هكتـــار من الأراضى – فى حين كان فى حوزتها ٦٠٫٠٠٠ هكتار – قد أجبر الوالى على دفع ٨٤ مليـــون فرنـك (٣٫٢٧٦٫٠٠٠ ج · م ·) كتعويض عن تكاليف التسويات التى تمت له والتى لم تكن فى الواقع الا استردادا لحقوق مصر كما وردت فى روح الفرمانين الخاصين بالامتيـــاز (٤١) · وقد كان ديليسبس ، وهو يعـد لذلك منـذ زمن طويـل ، يتمنى أن تؤول أراضى القنـــاة الى الأمـــير عبد القادر الجزائرى مع موافقة الامبراطور (٤٢) · وفى ١٩ مارس ١٨٦٦ صدر عن الباب العالى فرمان بالموافقة على أن يبدأ شق القناة ·

من أين يمكن الحصول على ال ١٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك [٥٨٫٥٠٠ ج·م] كل شهر ، بالاضافة الى ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك [٢٥٤٫٥٠٠ ج·م] ســـنويا تدفع للشركة ؟ ان الاتفاقيات تمنع المساس بالممتلكات الأجنبية فى البلاد ، بينما مازال التشريـــع الضريبى فى أول عهــــده · بقى طريق القروض الخارجية · ويجب أن نشير الى أنه ، اذا كان اسماعيل قد لجأ اليها فى النهاية ، بعد تردد طويل ، فان مسئولية ذلك تقع على القوى التى كانت تضغط عليه وتحكم الحصار ومن حوله ، بغير رحمة ، كما يشهد بذلك المراقبـــون والخبراء الأجانب ، وعلى وجه الخصـــوص ســـتيفن كيف Stephen Cave واميل أوليفييه Emile Ollivier ومكوان T.C. Mccoan وفارمان E.E. Farman (٤٣) · نضيف الى ذلك المشروعات

---

(٤٠) تقرير شراير الى وشبرج ، الاسكندرية ، ٩ يونيو ١٨٦٣ ، بالاضافة الى نصوص اخرى فى سماركو ، **المرجع السابق** ، ١٤٨ – ١٤٩ ·

(٤١) وهى كالتالى : ٣٨ مليون للخسارة الناجمة عن الغاء السخرة ، ٣٠ مليون للأراضى التى أعيدت الى مصر ، ١٠ مليـون للعمل الـذى يجرى أو يتعين القيـام به فى قناة الميـاه العذبة ، ٧ ملايين للرسوم التى يتعين تحصيلها عن هذه القناة فى حالة عدم اعادتهـــا الى مصر :

Landes : Bankers and pashas, 188, n. 2; M. Sabry : Ismail et ingérence, 277-311; A. Samamrco : Sâ'îd et Ismâ'îl, 160-8).

(٤٢) M. Sabry : Ismail et ingdrence, 289-95.

(٤٣) « ان ضرورة دفع مبالغ ضخمة الى شركة قناة السويس اجبرت الحكومة المصرية على اللجوء الى القروض للمرة الأولى فيما بين ١٨٦٤ و ١٨٦٨ »

(Mr. Cave's report on the financial condition of Egypt, in T.C. McCoan : Egypt as it is, Cassell, London, 1877, app. G. 896);

الكبرى للتنمية الاقتصادية فى الداخل ، والبعثات الدبلوماسية والعمليات الحربية فى الخارج (المكسيك ، كريت ، أفريقيا) ، لحساب الباب العالى وارساء قواعد الامبراطورية المصرية فى أفريقيا فى ذات الوقت ، كل ذلك كان له دوره الكبير فى تضخيم رقم القروض الذى كان بليغا فى التعبير عن الوضع : فكلما كانت مصر تتورط ، كلما أصبحت الشروط أكثـــر قسوة • كانت هناك ثمانية قروض ، بما فى ذلك قروض سعيد ، موزعة بين عامى ١٨٦٢ و ١٨٧٣ ، وبينما كان معدل الاصـــدار عام ١٨٦٣ هو ٨٣٪ والربح الحقيقى هو ٩٪ ، فان قرض عام ١٨٧٣ ـ وهو أكبرها جميعا ، اذ يبلغ ٣٢ مليون جنيه استرلينى أى حوالى نصـــف الدين الرسمى ـ صدر بمعدل ٧٠٪ بربح حقيقى ١١٪ ، أى أنه يبلغ فعـــلا ١٩ر٩٧٤ر٠٠٠ جنيه اســـترلينى [١٩ر٤٧٤ر٦٥٠ ج • م •] بســـداد سنوى يبلغ ٢ر٥٦٦ر٠٠٠ جنيه استرلينى [٢ر٥٠١ر٨٥٠ ج • م •]• وبصفـــة عامة ، كانت مصر فى عام ١٨٧٣ تحمل على كاهلها دينا يبلـــغ ٦٨ر٤٨٧ر٠٠٠ جنيه استرلينى [٦٦ر٧٧٤ر٨٢٥ ج • م •] مع انتاج فعلى يبلغ ٤٦ر٦٢١ر٠٠٠ جنيه استرلينى [٤٥ر٤٥٥ر٤٧٥ ج • م •] فقط ، وســـداد ســـنوى يبـــلغ ٦ر٤٠٩ر٠٠٠ جنيـــه اســـترلينى [٦ر٢٤٨ر٧٧٥ ج•م•] • وباستثناء قرض سعيد ، فان القرضين اللذين أبرمهما اسماعيل باسم مصر كانا ممهورين بتصديق الباب العالى (١٨٦٤ و ١٨٧٣ ـ ١٨٧٤) ، أما قرض عام ١٨٦٥ فيهدف الى تأكيد وضـــع يد اسماعيل على الأراضى التى أصبحت معروفة بالدائرة ، وفى عام ١٨٦٧ اشـــترى من جديد الأراضى الخاصة بأميرين كانا يتطلعان الى العرش هما الأمير مصطفى فاضل والأمير محمد عبد الحليم ، وهناك قرضان لتمويـــل خطوط السكك الحديدية وصناعة السكر (١٨٦٦ ـ ١٨٧٠) ، أما قرض عام ١٨٦٨ فكان بغرض دفع الدين العائم بايعاذ من اسماعيل صديق باشا المفتش • وكانت البنوك التى قدمت الأموال هى :

Imperial Ottoman Bank, Anglo Egyptian Bank, Fruhling and Goschen Bischoffsheim, Oppenheing.

« واثقلت هذه الملايين الـ ٨٤ كاهل مالية مصر الضعيفة ومهدت الطريق لمتاعبهـا المالية فى المستقبل »

(E. Ollivier : L'Empire libéral, Garnier Fr., Paris 1902, vi, 508); T.C. McCoan : Egypt;

« وقد تم التعاقد على أول قرض لمصر بغية الحصول على المال اللازم لشركة قناة السويس • وقامت مصر بدفع فوائد ذات معدل مرتفع للغاية بوجه عـام ، منذ ما يقرب من أربعين عاما ويتعين عليها الاستمرار فى الدفع لفترة طويلة وغير محددة •• ومع ذلك فقد كان من المتفق عليه بكيفية صريحة أن الشركة سوف تقوم بانشـــاء القناة كلهـا دون أن تتحمل مصر أية تكلفة • ذلك هو قدر الأمم الضعيفة » •

(E. E. Farman : Egypt and its betrayal, New York, 1908, 212);

والحقيقة أن أهم الأموال المستخدمة كانت فرنسية ، فى غمرة المضاربات الكبرى فى عهد الامبراطورية الثانية (٤٥) ٠

والواقع أن قرض عام ١٨٦٨ لم يسمح بدفع الدين العائم وتحول الى مصروفات نشاطات منها الاحتفال بافتتاح قناة الســـويس (٤٦) ٠ وتفتق ذهن اسماعيل صديق عن القانون المعروف باسم قانون المقابلة (١٨٧١) : وهو يقضى بأن يدفع المالك ما يساوى ستة أقساط سنوية من الضريبة العقارية فى مقابل تأكيـــد حق المالك فيما يملك وتمتعه بتخفيض دائم يبلغ ٥٠٪ من الضريبة ٠ ان ال ١٣٫٥٠٠٫٠٠٠ ج٠ م لم تكد تكفى لدفع أرباح الدين العام بين عامى ١٨٧١ و١٨٧٧ ــ ٢٣ مليون جنيه عام ١٨٧٦ ــ وحرمت الدولة من تحصيل فارق الضريبة العقارية ٠ وأخيرا ، فى عام ١٨٧٤ ، وجدت مدخرات خزانة المعاشات ــ الرزنامة ــ نفسها مضطرة لتحويل حصيلتها الى سندات ٩٪ ، ولم تحصل الدولـة سوى ٨٧٨٫٠٠٠ ج.م. من مجموع الخمسة ملايين التى كانت منتظرة (٤٧). هـذا ، وفى عـام ١٨٧٤ اذا بالافلاس الذى كان يهدد تركيـا يقلص من حجم مساعى اسماعيل ٠ ولكى يواجه حلول موعد الدفع فى أول ديسمبر ١٨٧٥ ، تفاوض على التنازل عن أسهم القناة البالغة ١٧٧٫٦٤٢ (٤٨) مع دائنيه الفرنسيين أولا ثم مع بريطانيا ، وفى ٢٥ نوفمبر قام دزرائيلى ، يؤازره روتشيلد ، بالاستيلاء على حصة مصر كلها فى شركة قناة السويس ــ نظير مائة مليون فرنك [٣٫٩٧٦٫٥٨٠ جنيها استرلينيا ٣٫٩٠٠٫٠٠٠

---

(٤٤) التفاصيل فى :

D., Landes : Bankers and pashas; Abdel-Maksud Hamza ; Public debt ولا سيما الجدول الاجمالى ، ٣٣٩ ــ ٤٠ ــ « لقد اقترضت مصر فى جميع الأعوام ما يزيد عما تحتاجه من أجل الوفاء بخدمة الدين » (The Economist, 2 August 1973).

(٤٥) حول تدفق رءوس الأموال الى مصر ، انظر

Jacque Bel : La dette publique égyptienne, Rousseau and Co., Paris, 1939, 9 sqq.

ويكشف لاندس عن طبيعة العلاقات العائلة وعلاقات الأعمال التى وجدت بين مختلف البيوتات ويلقى الأضواء عليها فى كتابه الذى يعد بمثابة تحليل متعمق للمجموعة الفرنسية ، لا سيما ديرفيو : Bankers and pashas, 64-5, n. 2.

(٤٦) محمد فهمى لهيطه : **تطور مصر** ، ٣٢٠ ــ ٣٢١

(٤٧) نفس المؤلف : **المرجع السابق**

(٤٨) لا يوجد فى الواقع غير ١٧٦٫٦٠٢ سهم أى ينقص ١٠٤٠ سهما (A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 323, n. 1).

ج· م·] (٤٩) وكما يشير الى ذلك محمد صبرى : «لم يكن ذلك» صفقة بقدر ما كان « رمزا » · كان اشارة الاعلان عن حرب صليبية جديدة كان الاستعمار البريطانى يعد للقيام بها تحت مسوح رجال المال والمبشرين · فبعد عام ١٨٦٩ ، كان عام ١٨٧٦ يمثل تحولا جديدا اذ أصبح الدبلوماسى والمرابى شريكين فى مصلحة واحدة » (٥٠) ·والحقيقة أن هذه العمليـة قد وضعت حدا لعهد السيطرة الفرنسية ، وأصبح احتلال بريطانيا لمصر مطروحا على جدول الأعمال ·

أما مقدمات هذا الاحتلال ، فقد جاءت فى شكل بعثة ستيفن كيف التى كان نوبار « المؤلف الأدبى » لها · ومنذ ديسـمبر ١٨٧٥ حتى فبراير ١٨٧٦ ، قام الخبير البريطانى وأعضاء بعثته بالتحقق من منجزات البناء الاقتصادى ووضع الديون المصرية فى هذا الاطار · ومع ذلـك فان التقرير المرفوع الى الحكومة الانجليزية فى ٢٣ مارس ١٨٧٦ يقترح وضع مصر تحت الاشراف المالى المباشر لبريطانيا العظمى التى تتولى الاشراف على ادارة دين موحد قيمته ٧٢ مليون جنيه استرلينى [٧٠ر٢٠٠ر٠٠٠ ج م·] بربح ٧٪ على ٥٠ سنة (٥١) · ولكن اسماعيل رفض الخضوع · فوجدت بريطانيا العظمى نفسها مضطرة الى أن تؤلف مع فرنسا بعثـة Gorchen-Joubert (أكتوبر – نوفمبر ١٨٧٦) التى طالبت أولا بابعاد

---

(٤٩) وسوف يحقق هذا الاسـتثمار لبريطانيا العظمى فى الفترة من ١٨٧٦ الى ١٩٢٣ مبلغ ٤٣ر٢٠٦ر٦٨٣ جنيها استرلينيا (٤٢ر١٢٦ر٥١٥ جنيها مصريا) ، كما أن الحق فى ال ١٥٪ التى اشتراها البنك العقارى بمبلغ ٢٢ مليون فرنك (٨٥٨ر٠٠٠ جنيه مصرى) سوف تحقق لـه مبلـغ ١ر٢٣٢ مليـون فرنك (٤٨ر٠٤٨ر٠٠٠ جنيـه مصرى) فى نفس الفترة سماركو : المرجع السابق ، ٣٢٦ ، وهو يذكر

E. Théry : L'Egypte nouvelle au point de vue économique et financier, Paris, 1907, 20£,, A.T. Wilson : The Suez Canal, its past present and future, London, 1933 58, 133-4).

تيودور روزتشتين : خراب مصر ١٨٧٥ – ١٩١٠ ، ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ٦ – ١٤ ·

(٥٠) M. Sabry : Ismail et ingérence, 166.

(٥١) حول ستيفن كيف انظر

M. Sabry : Ibid., 167-79; A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 327-38.

ت· روزشتين : خراب مصر ، ١٨ – ٢٦ · وفى حين يعتبر محمد صبرى نوبار « بطل المعارضة فى مواجهة التدخل الأجنبى (Ismail et ingérence, 169). فان سماركو ، بالاستناد الى محفوظات الدولة النمساوية والألمانية ، يحدد أنه عندما زار نوبار لندن فى ابريل ١٨٧٧ « اتصل بممثل المانيا وبلغه أن الغرض من اقامته فى لنـدن هو الأعداد لفرض الحمايـة البريطانية على مصر · » وفى الواقع كان كل شىء معدا فى وقت عمليـة دزرائيلى : « فشراء أسهم قناة السويس يرسى الأساس للاحتلال الانجليزى لمصر من أجل ضمان المواصلات مع الهند » . كما تقول بحق ولفجانج ونديلباند : فى

Wolfgang Windelband : Die auswartige Politik der Grossmachte in der Neuzeit, Stuttgart-Berlin, 1922 3; A. Sammorco : Sâ'îd et Ismâ'îl, 326, n.1.

اسماعيل صديق ، الذى قتل (٥٢) ، وكونت دينا موحدا قيمته ٥٩ مليون استرليني [٥٧ر٥٢٥ر٠٠٠ ج ٠ م ٠] بربح ٦٪ ودينا ممتازا قيمته ١٧ مليون جنيه استرليني [١٦ر٤٧٥ر٠٠٠ ج ٠ م ٠] بربح ٥٪ باقساط سداد سنوية أكثر من ٦ مليون جنيه استرليني [٥ر٨٥ر٠٠٠ ج ٠ م ٠] لتحقيق دخل سنوى اجمالى قدرته البعثتان بـ ١٠ مليون جنيه استرليني [٩ر٧٥ر٠٠٠ ج ٠ م ٠] وكلا الدينين يتم سدادهما حتى عام ١٨٤١ ٠ كل ذلك تحت اشراف صندوق الدين برئاسة المبعوثين الانجليزين وثلاثة آخرين ، فرنسي وايطالى ونمساوى ، وهم يتمتعون بسلطات عليا فيما يتصل بالاقتصاد والمالية والنقل ٠ وقد بدأ نظام الحكم الثنائى هذا فى الوقت الذى كانت فيه مصر تحتضر (٥٣) ٠ وقامت لجنة التحقيق

(٥٢) وسوف يكلف اسماعيل نفسه بتنظيم هذه العملية عن طريق استدعاء وزيره الى قصره بالجيزه : وهناك يقوم ابنا الخديوى حسين وحسن باحتجاز اسماعيل صديق الذى قتله مصطفى فهمى بك الذى كان عندئذ ياورا للخديوى ، وأصبح فيما بعد رئيس مجلس النظار حيث عينته وساندته باصرار بريطانيا العظمى ٠ وتعزى هذه الرواية الى سير رفيرز ويلسون وقد وردت فى

Wilfrid Scaven Blunt : Secret history of the English occupation of Egypt, T. Fisher Unwin, London, 2 ed., 1907, 38-42.

وقد أخذها مع بعض التفاوت فى التفاصيل محمد صبرى الذى يستشهد بفارمان Farman قنصل الولايات المتحدة :
Sabry : Ismail et ingérence 183-4,

(٥٣) Blue Book, Egypt, no. 2 (1879), 72-3, 97, 113, 136, 146; 149; 198-9;

ان المجاعة الكبرى التى اجتاحت صعيد مصر فى خريف ١٨٧٧ لم تمنع الحكومة البريطانية مع ذلك من أن تطالب بدفع قسائم شهر مايو على الفور ثم قسائم شهر يوليو ١٨٧٨ ، « ولقد دمرت مديريات باكملها وغدت مهجورة لزمن طويل »
(Th. Rothstein : Egypts ruin, 54-6).

ويؤكد كرومر نفسه هذه الوقائع ويتحدث عن « ان اثنين من الباشوات ، من بين الرجال الأشداء ، قد أرسلوا الى المديريات » ٠

ويستشهد بتقرير السير الكسندر ببرد الى وزير المالية الذى تضمن نفس المعنى وكذلك الجهود الانسانية التى بذلها القنصل لورد فيفيان : « ٠٠ أخشى أن تقر الادارة الأوروبية بلا قصد الخراب التام للفلاحين الذين يخلقون ثروة البلاد وان الانجليز يتحملون ، فى رأيى ، أعظم المسئوليات الحظرة » ٠
(The Earl of Cromer : Modern-Egypt, Macmilland and Co., London, 1908, ch. III, 29-45).

وقد رأى بودكر قنصل السويد فى مارس ١٨٧٨ انه « تذرعا بان قروض مصر يجب ان تاتى قبل كل شيء فقد رأينا الأحكام الصادرة ضد الحكومة ظلت بلا تنفيذ وأصبح الموظفون فى حالة من البؤس وتوقف كل عمل انتاجي ونافع وأصبحت الادارة فى البلاد فى حالة من العجز (فى M. Sabry : Ismail et ingérence. 198-9 وكذلك Id. : Ibid, 193-206
وقال سامارکو بحق عن مجموع هذه الشهادات « ويتضح أن الشعب المصرى حتى فى ظل حكامه لم يستغل فى أى وقت مضى كما استغل من هذه الفترة بناء على أمر غير مباشر من الموظفين الانجليز والفرنسيين وبالموافقة الضمنية للدول الأوروبية »

(٢٧ يناير ١٨٧٨) بتمهيد الطريق لوزارة نوبار الأجنبية (٢٨ أغسطس ١٨٧٨) ، حيث شغل ريفرز ويلسون Rivers Wilson وبلينير Bilgnière أهم المناصب . وقد قرر الأول عمل قرض جديد مع روتشلد لتسوية عجز الميزانية عن طريق دخل الدائرة السنية (٣١ أكتوبر ١٨٧٨) (٥٤) واستسلم اسماعيل ، وتنازل عن أملاكه ، لكى يحافظ على استقلال مصر . أما الضربة القاضية فقد جاءت على يد المانيا ، ثم ما لبثت أن تبعتها النمسا وروسيا وايطاليا (٥٥) . ففى ٢٥ يناير ١٨٧٩ ، تم عزل الخديوى اسماعيل . ثم قامت « لجنة التصفية » التى ألفتها الدول الكبرى ، بوضع القانون الذى يحمل نفس الاسم وذلك فى ١٧ يوليو ١٨٨٠ والذى يقضى بأن الجزء الأعظم من الميزانية المصرية التى تحددت ظلما ب ٥ر٠٢٣ر٤٧٥ جنيها استرلينيا [٤ر٨٩٧ر٨٨٨ ج.م.] يجب أن يخصص لاستهلاك الديون الموجدة التى تتجاوز المائة مليون استرلينى ، وهذا الرقم يتضمن مبلغ ال ١٦ر٠٨٥ر١١٩ ج.م. (من مجموع ال ١٧ر٣١٤ر٣١٥ ج.م.) الذى يمثل المصروفات التى أنفقتها مصر على شق القناة (٥٦) .

والجدير بالذكر أنه ، اذا كانت مصر من ١٨٨٢ حتى ثورة ١٩١٩ مستقلة على المستوى القانونى ، فقد كانت فى الواقع مستعمرة بريطانية . وعلى ذلك ، فمن الطبيعى أن نقوم بدراسة السياسة الاقتصادية والمالية

---

(٥٤) ويعتبر المؤلف المجهول الاسم لكتاب ،
L'Egypte et l'Europe par un ancien juge mixte, E.J. Brill, Leiden, I, 1881.
وهو فى الواقع بيترفان بميلين Pieter Van Bemmelen. ، هذا القرض ، « من أكثر المصائب التى شهدتها الفترة التى انقضت منذ مرسوم جوشن حتى بداية ١٨٨٠ » (١٨٢ — ١٨٩) . ويؤيد قانون التصفية الذى يعزى الى بلينير (١٨٩ ، وما بعدها) .

(٥٥) P. Van Bemmelen : Eg. et Eur., i : 178; وما يفسر تاخير المانيا هو ان « بسمارك قد أنشأ رايخ صغيرا »
(W. O. Henderson : «German economic penetration in the Middle East 1870-1914», The Economic History Review, xviii, (1948-50), no. 1-2, 54-64).
وقد كان هدف المناورة الألمانية اثارة النزاع بين فرنسا وبريطانيا العظمى
(Lowel J. Ragatz : The question of Egypt in Anglo-Franch relations, Fletcher Pembroke Edinburgh, 1922. 72.

(٥٦) ع.م الشناوى : **ما تكلفته مصر** ، ١٥٥ ، واكد تقرير كيف هذه الأرقام . ويقدم ادوار ديرفيو ، فى ١٨٧١ ، رقم ٣٥٢ر٨٢٧ر٠٩٧ فرنك فرنسى ، كما يعطى جون نينيه John Ninet المؤلف الذى وقع باسم « سيدى لقمان الحكيم »
Mille pertuis des finances du Khédive, Wien, 1873.
رقم ٤٠٠ مليون من الفرنكات (١٥ر٦٠٠ر٠٠٠ جنيه مصرى) . وكل هذا دون الحديث عن الخسارة البشرية فى الفلاحين المسخرين !

الخاصة بالمحتل ككل ، لم ، وفى هــذا الاطــار ، نقــوم بدراســة تدخل رؤوس الأموال الأوربية ٠

جاء دفاع كرومر عن السياسة التى بدأها وقام على تنفيذها من ١٨٨٢ حتى ١٩٠٧ فى اسلوب مؤثر : « ان بريطانيا العظمى ،وقد ألغت السخرة وخففت الضرائب التى تثقل كاهل جماهير الشعب ، تأخذ على عاتقها تطوير الزراعة المصرية باستخدام الأســاليب الحديثة خصوصا فى مجال الرى وتحقيق الرخاء لمصر (٥٧) » ٠ من هذه الصفحات لم يحفظ التاريخ الا القليل ٠ فالواقع أن تطوير الاقتصاد المصرى كان امتــدادا للأسلوب الذى نهجه محمد على واستأنفه اسماعيل قبل التورط فى الديون فى السنوات الأخيرة ٠ لقد كان الهدف المقصود هو جعل مصر مستعمرة ذات ربح مرتفع ٠ ان دراسة المعطيات الواقعية تؤكد ذلك ٠ ان توازن الميزانية ـ الذى كان لابد من تنفيذه بأى ثمن خلال السنوات الثلاث الأولى من الاحتلال (١٨٨٢ ـ ١٨٨٥) ـ كان مجالا لمناورات بارعة : عقد قرض قيمته ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ ج٠م٠ بربح ٣٫٥٪ فى ١٨ مارس ١٨٨٥ لتعويض الخسائر الناتجة عن أعمال التمرد فى الاسكندرية (٣٫٩٠٠٫٠٠٠ ج٠م٠) ، وتكاليف الحرب فى السودان ، وتكاليف جيش الاحتلال وبعض نواحى العجز الأخرى ٠ وقد سمح ذلك بتحقيق توازن فى ميزانية الســنوات الأولى ٠ وكان نفس القرار يقضى بتخفيض الضريبة العقارية بمقــدار ٤٥٠٫٠٠٠ ج٠م٠، منها ٢٠٠٫٠٠٠ لم يتم تحصيلها فعلا ٠ .غير أن كرومر دافع بأن المبلغ استخدم فى رفع أجور بعض الفلاحين المسخرين ، وبالتالى فى تخفيف السخرة (٥٨) وبشكل وقتى « تم تحصيل الضريبة العقارية

---

(٥٧) Cromer : Modern Egypt, vol. ii, Ch, xlix-liv, 397-465.

(٥٨) تبرز هذه المعطيات وما يتلوها سمات استغلال الدول الأوروبية لمصر ، وقد وردت فى ت٠ روزشتين : **خراب مصر** ، ٢٤١ ـ ٣١٠ ، حيث يعرض جوانب هذا الاستغلال بدقة ٠ وبصدد الضرائب « تعد مصر من أكثر بلاد الأرض التى ترزح تحت عبء الضرائب ٠ ويدفع كل مواطن فى سويسرا ١١٫١٠ فرنكا ، وفى المانيا ١٣٫١٥ فرنكا ، وفى النمسا ٢٨٫٧٠ ، وفى الدانمارك ٣٦٫٧٩ ، وفى ايطاليا ٤٨٫٩٣ ، وفى بريطانيا العظمى ٥٨٫٤٦ ، وفى فرنسا ٧٠٫٤٠ وفى مصر ٧٥ فرنكا »

(E. Rossi bey : La population et les finances question égyptienne, Musée des Antiquités, Le Caire, 1878, 6);

ويسجل الخبير العقارى الذى عينه لورد نورتبروك أن الضرائب فى مصر أكثر ارتفاعا منها فى الهند

(Roger Owen : The influence of Lord Cromer's Indian experience on Middle Eastern Affairs, IV., Albert Hourani, ed, Oxford, U.P. London, 1965 189-39, 116).

عن طريق الضغط الشـــديد » (٥٩) نفس الضغط المتبع فى « النظام الظالم شبه البربرى » الذى أدانه الحاكم البريطانى ٠ وقد تم بيع أراضى الدومين والدائرة الســنية عام ١٨٨٥ مقابل ٤٣٧٫٠٠٠ ج ٠ م ٠ وقــد كانت تحقق دخــلا فعليــا يبلغ ١١٨٫٠٠٠ ج ٠ م ٠ واثقلت الضريبــة العقارية كاهل الفلاحين الفقراء (٦٠) ٠ وفى عام ١٨٨٦ بدأ تطبيق نظام بدل الخدمة العسكرية وتحدد هذا البدل بأربعين جنيها مصريا ؛ ثم هبط الى عشرين جنيها عام ١٨٨٨ بغرض اغراء المواطنين ذوى الدخل المنخفض: فكانت الخزانة تحصل ١٥٩٫٠٠٠ ج ٠ م ٠ ، بالاضافة الى ٨٨٫٠٠٠ ج٠م كبدل للسخرة ٠ ثم ارتفعت الضريبة على فدان التبغ من ٢٫٥ جنيــه اســـترلينى الى ٣٠ (٢٫٤٣٧ ج ٠ م ٠ الى ٢٩٫٢٥٠ ٠ ج ٠ م ٠) : فهبطت قيمة المحصول الى ١٠٫٠٠٠ ج٠م عام ١٨٨٨ ، وفى نفس العــام كانت الواردات من التبغ تمد الخزانة بـ ٣٣٣٫٠٠٠ ج٠م٠ وكانت الفترة بين ١٨٨٠ و ١٨٩٠ فترة الاستقرار ويقول تيودور روزشتين : « كان بوسع اسماعيل أن ينجح بسهولة ، لو أنهم سمحوا له على الأقل باستخدام نصف الوسائل التى استخدمها كرومر ٠ » وماذا عن الغاء السخرة والسوط ؟ لقد انخفض عدد الفلاحين المسخرين من ٣٤٫١٥٣ عام ١٨٨٦ الى ١١٫٢٤٤ عام ١٩٠٣ (٦١) ، لكن فى عام ١٩٠٩ جمع الدن جورست بالقوة ١١٠٫٠٠٠ طفل لمقاومة دودة القطن ٠ والواقع أن تعميم نظــام الرى الدائم قد حرم الراحة على هــذه الجماهير من الفلاحين التى كتب عليهـــا أن تعمل فى الأرض : وكما يقول و٠ ويلكوكس : « كانت عملية صرف احدى القنوات الرئيسية بواسطة الفلاحين المسخرين أكثر تكلفة من استخدام المصارف الآلية بمقدار عشرين ضعفا (٦٢) » ٠ أما عن الغاء السوط ، فان تقرير

---

(٥٩) **Egypt, 1886, no 4.179; cité in Th. Rothstein; Egypt's ruin, 263.**

(٦٠) اذا كان الملاك الأثرياء يدفعون ٩٥٫٠٠٠ جنيه مصرى فى ١٨٨٦ ، فان الفلاحين المحرومين كانوا يدفعون ٦٠٫٠٠٠ جنيه مصرى (نفس المؤلف :**المرجع السابق** ، ٢٤٦ ــ ٢٦٥)

(٦١) يبدو المؤكد أن رقم ٢٤١٫٥٢٧ فلاحا فى عام ١٩٠٤ خطأ ٠ وبالنسبة لعام ١٩٠٩ انظر **Egypt, 1010, no. 1, 18.** وحول هذه المشكلة فى مجموعها انظر : ت٠ روزشـــتين : **خراب مصر** ، ٢٧٤ ــ ٢٨٩

(٦٢) **Robert L. Tignor «British agricultural and hydraulic policy in** Egypt 1882-1892», Agricultural History, xxxvii (1963), no. 2, 63-74; ويذكر شهادة Julien Barois : L'irrigation en Egypte, in "**Bulletin de la direction de l'hydraulique agricole**», 2 vol., Paris vol., Paris 1887 وخاصة شهادة **W. Wilcocks** : «Egypt during the 40 years of British occupation», Bull. Inst. Eg., viii (1926), 185-203.

كرومر لعام ١٨٩١ يواصل ذكر وجود « وسائل التعذيب » ، والمعاملة التى تلقاها فيما بعد الفلاحون المتهمون فى قضية دنشواى (١٩٠٦) تؤكد هذا الموقف • والواقع أن رياض باشا ، فى عهد اسماعيل كان قد شرع فى وضع حد لهذه الأساليب ، كذلك فان نوبار يرى أن تحول العلاقات الاجتماعية فى القرى قد أفقدها جدواها شيئا فشيئا •

ولكنما جوهر الأمر كان محوره « عمل اللازم حتى تصبح مصالح حملة سندات [الدين] ومصالح المصريين واحدة (٦٣) • » ان فكرة كرومر مستوحاة من خبرته فى الهند : أولا ، ضبط المصاريف الادارية على الثروة فى البلاد ، وتنظيم تحصيل الضريبة فى نفس موسم الحصاد، والالتجاء الى القروض والاستثمارات الخارجية ، الذى لم يعد مناص منه بسبب هذا « المفهوم السلبى للميزانية » ، وأخيرا ، وعلى وجه الخصوص، الأعمال العامة الكبرى • وكان المستشارون وأهم موظفى الادارة البريطانية قادمين من الهند : لورد نوثبروك ، لورد زيبون ، لورد سالزبورى ، كرومر نفسه ، السير كولن سكوت مونكريف ، السير ويليامز جارستن ، السيرجون سكوت ، و • ويلكوكس (٦٤) • وفى الفترة بين ١٨٨٥ و ١٨٩١ خصص ١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى [١٫٧٥٥٫٠٠٠ ج • م •] للرى ، وكان الهدف هو تحويل رى الحياض الى الرى الدائم فى جميع الأراضى القابلة للزراعة فى مصر • وهنا تظهر أهمية السدود : تجديد قناطر الدلتا (١٨٩١) ، انشاء سد أسوان وقناطر أسيوط (١٩٠٢) وقناطر زفتى (١٩٠٢) وقناطر اسنا (١٩٠٩) وتعلية سد أسوان (١٩١٢) (٦٥) • وكانت النتائج باهرة : ففى حين زادت المساحة القابلة للزراعة من ٤٫٧٦٤٫٠٠٠ فدان عام ١٨٨١ الى ٥٫٥٠٣٫٠٠٠ فدان عام ١٩١٣ ، فان المساحة المنزرعة ، بفضل نظام المحاصيل الثلاثة السنوية ، ارتفعت من ٤٫٧٦٢٫١٧٨ فدانا عام ١٨٧٩ الى ٧٫٧١٢٫٤١٢ فدانا عام ١٩١٣ • وبذلك أصبحت مصر حقا « مزرعة القطن لمصانع لانكشير » ، كان القطن يشغل ٢٢٫٤٪ من المساحة المنزرعة عام ١٩١٣ مقابل ١١٫٥٪ عام ١٨٧٩ ، وزاد محصول القطن من ١٫٨١٨٫٠٠٠ الى ٦٫٢٥٠٫٠٠٠ قنطار بين عامى ١٨٨٤ و ١٩٠٨ ، وارتفعت قيمة الصادرات القطنية من ٦٫٢٤٤٫٠٠٠ ج•م• الى ١٧٫٠٩١٫٠٠٠ خلال نفس الفترة ـ أى ٦٧٪ من

---

(٦٣) هذه العبارة قالها كرومر التى تذكر بـ « المبدأ الراسخ » الذى تبناه منذ أن كان مفوضا للدين (١٨٧٧) وقد وردت فى : ت روزشتين • خراب مصر ، ٣٠١ وفى Egypt, 1902, no 1, 3.

(٦٤) R. Owen : Cromer's Indian experience.

(٦٥) A. E. Crouchley . Eon. dev. mod, Eg:, 145-52;

مجمـــوع الصـــادرات · عام ١٨٨٤ و ٨٣٪ عام ١٩٠٦ ، أما بالنسبة للمحاصيل الأخرى ، فان الذرة وحدها هى التى حققت تقدما (من ١٤٪ الى ٢٤٪ من المساحة المنزرعة بين عامى ١٨٧٩ و ١٩١٣) ، أما القمـح فقد هبط من ٦ر٢٠الى ٩ر١٦٪ ، وكذلك قصب السكرمن ١ر١ ٪ الى ٦و٠٪ الخ · وعلى ذلك فقد أصبحت مصر مضطرة الى اسـتيراد المحصـــولات الغذائية بنسبة لم تتوقف عن الارتفاع (٦٦) · وسرعان ما ظهرت جلية مساوىء نظام الاعتماد على المحصول الواحد والزراعة المكثفة : ان عام ١٩٠٣ يشير الى بداية انخفاض انتاجية التربة بسبب الارتفـــاع الخطير لمنسوب المياه تحت الأرض ، وانتشار دودة القطن وغيرها من الحشرات الضارة ، وعدم جدوى الصرف (٦٧) · وتلقت الصناعة الناشئة ضربـة قاضية من كرومر : ففى عام ١٩٠٤ أصبح المصنم يعرف بأنه « محـــل مقلق للراحة أو مضر بالصحة أو خطر » (٦٨) · كذلك فان صناعة التبغ

---

(٦٦) ت· روزشتين : خراب مصر ،

François Charles-Roux : «La production du coton en Egypte», Revue Economique Internationale, i, 1909, 303-39 (330),

وقد أورده

R.L. Tignor : Agric and hydraulic policy, 72.

(٦٧) وســـوف يذكر أول وزير مفوض للولايات فيما بعد : « كان المحتلون الأجانب يرغبون فى الحصول على القطن ، وكانت خبرتهم الماضية تعلمهم أنه على الرغم من العـــدد المذهل فى الوفيات ، وعلى الرغم من العواقب الوخيمة لشتى الأوبئة والأمراض المعدية مثل الدفتريا والحمى القرمزية والرمد الحبيبى التى تصاحبها ، فان صفوف الشغيله سوف تمتلىء من جديد بفضل تزايد عدد السكان » ·

(J. Morton Howell : Egypt, past, present and future, Dayton, Ohio, 1929, 155).

« ولم يعمل البريطانيون على اعادة تشـــغيل مصلحة الزراعة ، بعد ١٨٧٩ ، تاركين الفلاحين يستخدمون طرقهم فى الزراعة فى الأساس حتى العقد الأول من القرن العشرين وكانت مصر تحتاج بوجه خاص الى برنامج مستمر للبحوث الزراعية »

(R. L. Tignor : Agric, and hydraulic policy, 72-3).

أما أستاذ الجغرافيا الدكتور عز الدين أحمد فريد فعلى الرغم من أنه يســجل الأضرار التي حدثت فهو لا يظن أنها ترجع الى الرى الدائم

The introduction of perennial irrigation in Egypt and its effects on the rural economy and population problems of the country, th. London, 1937.

(٦٨) وردت هذه العبارة فى : سلامة موسى : تربية سلامة موسى ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ٢٠٣ وأيضا فى ٥٠ ـ ٦١ ، ٢٠٠ ـ ٢٠٩ ، شهدى عطية الشافعى : تطور الحركة الوطنية المصرية (١٨٨٢ ـ ١٩٥٦) ، الدار المصرية للكتب ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ٥ ـ ١٠ ، فوزى جرجس : تاريخ مصر السـياسى ، ١٠٨ ـ ١١٧ ويمر كروشلى مرور الكرام علىّ هذه المسألة ولا يذكرها فى كتابه :

Econ. dev. mod. Eg.

قد خنقت بسبب الاجراءات التى أشرنا اليها سـابقا ، وأصبح لزاما على صناعة النسيج أن تدفع ٨٪ كضرائب خاصـة لكى تتسـاوى بالواردات الأوربية ، وحدث نفس الشىء بالنسبة للفحم المستورد وغيره من مواد الاحتراق والطاقة ٠

وجاءت الحرب لتضرب بلا رحمة الطبقات الشـعبية التى كانت تنقصها الحبوب الزراعية بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ : كان معدل تكاليف الحياة عام ١٩٢٠ هو ٢٣٧ (١٩١٤ = ١٠٠) ، وارتفعت الواردات من الفحم والبترول بنسبة عالية ٠ كانت أخطر نتيجة لحرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨، فى المجال الذى يهمنا هنا ، هى ربط قيمة الجنيه المصرى ــ الذى كان حتى ذلك الحين مغطى بالذهب ــ بقيمة الجنيه الاسـترلينى : فقد انتهـزت بريطانيا فرصة الحرب وأجبرت مصر على الاكتفاء بتغطية تتألف فى جوهرها من سندات مسحوبة على الخزانة البريطانية ٠ وبتخلى مصر عن الغطاء الذهبى تحملت هبوطا فى قيمة الجنيه المصرى بلغ ٣٠٪ عام ١٩١٠ مادام الجنيه الاسترلينى كان قد لقى نفس المصير (٦٩) ٠

حتى وقوع الاحتلال البريطانى ، كانت معظم رؤوس الأموال موجهة نحو سـندات الدولة ٠ كذلك كانت الفترة بين ١٨٦٠ و ١٨٧٠ تعتبر « العصر الذهبى » للبنوك الخاصة ، فى الوقت الذى ارتفع فيه سعر قنطار القطن من ٢٠ ريالا عام ١٨٦٠ الى ٥٢ ريالا عام ١٨٦٤ ، كان الهدف هو تمويل الصادرات التى ارتفعت من نصف مليون قنطار الى ١ر٨ مليـون قنطار خلال نفس الفترة ٠ ويرى على الجريتلى أن هناك أربعة عوامل عجلت باقامة النظـام المصرفى : اقامة المحاكم المختلطة عام ١٨٧٥ ، واعادة تنظيـم المحـاكم الوطنية عـام ١٨٨٣ ، انتهـاء فوضى العملة عن طريق تثبيت قيمة الجنيه المصرى عام ١٨٨٥ ، على أساس الذهب ، تحصـيل الضرائب بالنقود وزيادة الايرادات الحكومية ، وأخيرا انتشـار العقلية الاقتصادية الحديثة ، خصوصا فى مجال أدوات الائتمان (٧٠) ٠ وكان من

---

(٦٩) A.E. Crouchley : Ibid., 201-8.

(٧٠) على الجريتلى : **تطور النظام المصرفى فى مصر** » ، فى « **بحوث العيد الخمسينى** ١٩٠٩ ــ ١٩٥٩ ، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع ، مطبعة الشركة الشرقية للاعلانات ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ٢٠٤ ــ ٢٠٦ ، وهو ينظر الى هذه العوامل فى علاقتها بتطور النظام المصرفى بطريقة أكثر تحديدا ٠ أما جميل عثمان غالب فانه يرى أن العاملين الأساسيين هما انشاء « صندوق الدين » وانشاء المحاكم المختلطة .(Cap. étr. Eg, 292) ويستعيد ج دوكرويه تحليل جميل عثمان غالب ، مضيفا اليه الرى Cap. europ.. Proche-Orient, 287-8. ونشير عابرا الى أن تعلية خزان أسوان ترجع الى عام ١٩١٢ وليس عام ١٩٠٢ كما ذكر

الطبيعي أن يشجع تقدم الري والزراعة عمليات المضاربة ٠ ان البيانات الرسمية لا تفسر ذلك : بعد القانون الصادر فى ٢٨ أبريل ١٩٠٨ بخصوص جنسية الشركات المساهمة ، وجد أن عددها ١٠٤ تحمل الجنسية المصرية من بين مجموع ١٦٥ (٣٨ انجليزية و١٦ بلجيكية و٦ فرنسية) ٠ وقبيل الحرب ، كان مجموع رأس المال المتداول للشركات المساهمة فى مصر يبلغ ١٠٠ر١٥٢ر٠٠٠ جنيه مصرى بخلاف شركة قناة السويس وفروع الشركات والبنوك الاجنبية فى الخارج (٧١) ٠ وارتفعت قيمة الأرباح والفوائد المدفوعة فى الخارج على سندات الشركات المساهمة والدين العمومي من ٤ر٨٤١ر٠٠٠ ج٠م٠ فى الفترة بين ١٨٨٤ و ١٨٩٢ الى ٨ر٩١٨ر٠٠٠ ج٠م٠ في الفترة بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧ ، ثم الى ٧ر١٨٣ر٠٠٠ ج٠م٠ فى الفترة بين ١٩٠٨ و ١٩١٤ (٧٢) ٠ وكان تركيز رؤوس الأموال الأجنبية موجها نحو البنك العقارى — حوالى ٦٠ مليون جنيه — وهو أكثر دخلا من فروع الاقتصاد الأخرى (٧٣) ؛ وكانت نتيجة هذه العمليات هى الافلاس الذى حل عام ١٩٠٧ وفى عام ١٩١٤ — بدون حساب شركة القناة — كانت قيمة الممتلكات الأجنبية فى الشركات العاملة فى مصر ، بالاضافة الى الدين العمومي وفروع الشركات الأوربية قد قاربت على ٢٠٠ مليون جنيه مصرى ، تدفع عنها مصر ٩ مليون جنيه مصرى كل عام (٧٤) ٠

كانت هناك ثلاث دول تتقاسم معظم الاستثمارات الأجنبية : فرنسا بريطانيا العظمى وبلجيكا ٠

وطبقا لتقديرات فرنسوا شارل رو ، بلغ مجموع رؤوس الأموال الفرنسية ٣ مليار فرنك عام ١٩١١ ، بما فى ذلك ديون ورؤوس أموال

---

(٧١) A.E. Crouchley : The investment of foreign capital in Egyptian companies and public debt, Ministry of Finance, Technical paper no 12, Le Caire 1936. 45, 72, 156-95. ولنفس المؤلف فى Econ. dev. mod. Eg., 179-80 وكذلك تحليل تفصيلى فى Cap. étr. Eg. وتلخيص جيد فى J. Ducruet : Cap. europ. Proche-Orient, 297-93.

(٧٢) A.E. Crouchley : Foreign capital, 170.

(٧٣) فى ١٩١١ ، كان متوسط ارباح الأسهم كما يلى : الائتمان العقارى والنقل ٩٪ ، البنوك ٤ر٧٪ ، الشركات التجارية ٨٣ر٥٪ ، الأنواع الأخرى من الشركات ٢٪ ويعتبر هذا (R. Maunier : «Les sociétés anonymes en Egypte», Eg. Cont., mars 1914, 179-87).
المؤلف وكذلك كروشلى هذه الاوضاع مسؤولة بصفة مباشرة عن افلاس عام ١٩٠٧ (A.E. Crouchley Econ. dev. mad. Eg. 180):

(٧٤) A.E. Crouchley : Ibid., 180.

شركة القناة (٧٥) ٠ وكان جزء كبير منها موجها نحو « المشروعات البلدية» الماء والغاز ٠ ويجب أن تشير هنا الى اقامة بعض الصـناعات ، خصوصا صناعة السكر ، قبل عملية التعويق عام ١٩٠٥ ، وأخيرا فان الفترة بين ١٩٠٤و١٩٠٥ تسجل الدخول الفعلية في مجال شركات القروض العقارية ، رغم أن « البنك العقارى المصرى » كان يتمتع بنصيب الأسد منها ابتداء من عام ١٨٨٠ ٠

أما رؤوس الأموال البريطانية فقد كانت متجهة ، فى معظمهـا ، نحو القطاع المصرفى ، خصوصا بانشاء « البنك الأهلى المصرى » عـام ١٨٩٨ بهدف الاشراف على السياسة المالية للبلاد وهو تقليد متبع : فقد حدث أن أقام عملاء شركة الهند الشرقية بنكا هو «بنك مصر Bank of Egypt الذى مهد لمؤسسة عام ١٨٩٨ ، ولكن بهدف أكثر تواضعا وهو تغذية الطرق التجارية والادارية التى بدأت تتكاثر بسبب تطور وسـائل النقل الى الهند عبر الأراضى المصرية ٠ وكانت بعض الاستثمارات تتم فى بعض الشركات المساهمة الزراعية والصناعية حيث يقوم البترول بدور كبير ٠ وطبقا لأقوال السير جورج بيش George Paish ، فان بريطانيا العظمى تسـتثمر ٤٤ر٩ مليون جنيه اسـترلينى عـام ١٩١٣ ، منها ٢٩ر٧ فى الشركات المساهمة بما فيها شركة قناة السويس ٠

أما رجال الأعمـال البلجيكيون ــ ابتداء من ليـون ماسكنس Léon Maskens حتى ادوارد امبان Edauard Empain ــ فقد وجهوا ٥٠٪ من أموالهم نحو الشركا تالزراعية والعقارية ، واستخدام الباقى فى اقامة مشاريع خطوط الترام والسكك الحديدية ومدينة مصر الجديدة (٧٦) ٠

تلك كانت الحالة عام ١٩١٩ ، وقت الثورة : الاقتصـاد المصرى مشبع فى سائر قطاعاته برءوس الأموال الأوربيـة ، سـلطة الحسم فى يد المحتل ، وهو مهتم ، قبل كل شىء بالقضاء على عمليـة بناء الصرح

(٧٥) «Le capital français en Egypte», Eg. Cont., ii (1911), no 8, 465-502.

(٧٦) تفاصيل هذه الاستثمارات واستثمارات البلاد الأوروبية وغيرها التى كانت تقوم بدور ثانوى فى :

Foreign capital ; G.K.O. Ghaleb : Cap. étr., Eg,; F, Charles-Roux : Capital français Eg.; Georges Paish : "Great Britain's investment in other lands», Journal of the Royal Statistical Society, Sept, 1909 and Jan, '911 وكذلك **«Statistical supplement», 14. 2, 1914); H. de Saint-Omer : Les entreprises belges en Egypte, Bruxelles, 1907; J. Erman : art, in Revue d'Egypte économique et financière, 15 avril 1950; J. Ducruet : Cap, europ. Proche-Orient. 293-9;**

على الجريتلى : تطور النظام المصرفى ، ٢٤٠ ــ ٢٥٧ ٠ وحول « بنك مصر » أنظر **A.E. Crouchley: «The : "The Charter of the Bank of xgypt (1851)», Bulletin de l'Institut d'5gypte, xxi «1939 31-41».**

الاقتصادى الوطنى التى كانت قد بدأت ، لكى يجعل من مصر مورده الأول من القطن ·

ان أهم من نقد أعمال بريطانيا العظمى فى مصر ، تيودور روزشتين ، قد صدق حينما قال عام ١٩١٠ « ان البريطانيين ، خلال فترة سيطرتهم التى دامت ثمانية وعشرين عاما ، لم يكونوا فقط عاجزين عن اقامة صناعة كبرى ، ولكنهم قتلوا تماما جميع الامكانيات التى كانت موجودة لخلق مثل هذه الصناعة (٧٧) » ·

وليس هناك من دليل على ذلك أفضل من هذه السطور التى نسوقها مستخلصة من تقرير كرومر لعام ١٩٠٥ ، تقرير الوداع ، بعد تخريب مصر ·

« ان أى انسان يعود بذاكرته عشر سنوات أو خمس عشرة سنة الى الوراء ، يجد الاختلاف جليا واضحا · فالأحياء التى كانت فيما مضى خلايا عمالية حقيقية حافلة بمختلف الصناعات : الغزل والنسيج والجدل والأوشحة وصناعة الخيام والتطريز والاحذية الوطنية والمجوهرات وطحن التوابل والحفر على النحاس وصناعة القرب الجلدية وصناعة الملح والمناخل والمتاريس الخشبية والأقفال ·· الخ ، اضطرت الى التضاؤل أو الى الاختفاء التام · ان المقاهى وحوانيت العاديات الصغيرة الأوربية أصبحت اليوم تشغل الأماكن التى كانت تشغلها فى الماضى المعامل المنتجة (٧٨) » ·

سطور مضيئة · تأثر صادق ، أم وخز ضمير ؟ لقد ولى الرجل بمجرد أن أتم مهمته · تلك المهمة التى ستصبح المصدر المباشر للثورة التى اندلعت عام ١٩١٩ وانتهت يوم الأربعاء الموافق ١٣ يونيو عام ١٩٥٦ حينما غادر أرض مصر آخر جنود صاحبة الجلالة ·

ومع ذلك ، فان مصر ظلت تبنى وتتقدم فى صعوبة وعسر · ولننظر عن كثب ·

ولجد نظرة شاملة عند Ahmed el-Emary : «Les relations économiques entre l'Egypte et l'Europe de 1850 à 1882 d'après les rapports inédits des consuls de France», Ibid., xxxiv (1953), 57-71.

(٧٧) خراب مصر ٣٠٧ ·

(٧٨)
Rapport de Lord Cromer sur l'Egypte et le Soudan pour l'année 1905, trad. fr., Impr. Nationale, Le Caire, 1906, 117.

وبعد أن يلاحظ ل· بريهييه L. Bréhier أن مصر تمثل بالنسبة للاستعماريين « مزرعة من أجمل مزارع الامبراطورية البريطانية » ، يواصل قوله « وقد لاحظ المرء باندهاش أن مصر التى احتلت مكانة مرموقة للغاية فى المعرضين العالميين فى عامى ١٨٦٧ و ١٨٧٨ لم يمثلها فى معرض ١٩٨٠ غير بازار واحد وتلك مفارقة مطلوبة بلا ريب » ·
(L'Egypte de 1798 à 1900, 271). وتوصل الى نفس النتائج أ·ج· ليفى :
IG. Lévi : L'industrie égyptienne et l'avenir économique de l'Egypte», Eg. Cont., xviii (1927), no. 100, 359-82.

القسم الثالث : المجهود الوطنى الأصيل فى بناء الاقتصاد :

من الممكن بل ومن الواجب أن يعتبر الاحتلال فاصلا فى أى عملية منهجية تقسيم تاريخنـــا السياسى • وفى مجال التطـــور الاقتصادى فان الاحتلال العسكرى يمكن للفصل والانكسار وينظم نفاذ الاستعمار الى قلب الوطن • ومن المنطق الســليم أن نعتبر عام ١٨٧٩ حدا لنهاية الاستقلال المصرى • وحينئذ ، ولكى نعرض للجمهور الوطنى الأصيل فى سبيل البناء الاقتصادى ، نرى من المفيد أن نقسمه الى مرحلتين : من ١٨٤٠ الى ١٨٧٩ ــ ١٨٨٢ ، ثم تحت الاحتلال البريطانى ابتداء من ١٨٨٢ • أما الفصل الذى سيحدث حتى عام ١٨٧٩ فانه يعطينا صورة مبتورة لهذا التطور الذى ينبغى أن ننظر اليه ، بدقة ، وهو يتحرك •

المرحلة الأولى (١٨٤٠ ــ ١٨٧٩) هى مرحلة الانتقال من الاقتصاد الذى يغلب عليه الى درجة كبيرة طابع « الاقطاع الشرقى » الى الاقتصاد الرأسمالى المتخلف ذى الطابع الاستعمارى والقائم أساسا على الزراعـة وتسيطر عليه الدولة والذى يستأنف ويوسع حركة محمد على فى التطوير والأخذ بالأساليب الحديثة •

والواقع أن سياسة الاحتكار التى وجهت ضربة قوية هى امتيازات الاقطاع القديم ، وتركز الأرض ، مع غيرها من الأشياء ، فى يدى الوالى ، قد مهدت الطريق أمام الملكية الخاصة للأرض ، وذلك على أســاس حق الانتفاع (١) • فى عام ١٨٤٦ ، صدر مرسوم يسمح برهن الأرض التى فى حوزة المنتفعين • وفى عام ١٨٥٤ أصبح نقل الأرض لملكية المنتفع يتم أمام المحاكم • ومع ذلك فان قانون ٥ أغسطس ١٨٥٨ ، والذى أصدره سعيد ، هو الذى سن صراحة حق الملكية الخاصـــة للأرض طبقا لأساليب مختلفة (مادة ٢٥) ، أما قانون الوراثة فقد تم الاعتراف به عام ١٨٥٨ • وهناك اجراءات عديدة تمت بين عامى ١٨٥٨ و ١٨٧١ بغرض اعتبار أراضى الرزقة والأوسية والأبعدية مثل أراضى الخراج ، التى نالتها الاصلاحات • وفى عام ١٨٨٠ أصبح معظم أصحاب الأواضى يملكون أراضيهم فعلا ملكية

---

(١) G. Baer : Landownersihp, 7.

كاملة (٢) وزادت مساحة الأراضى المنزرعة من ٣٫٨٥٦٫٢٢٦ فدانا عام ١٨٤٠ الى ٤٫٧٥٨٫٤٧٤ فدانا عام ١٨٨٢ (٣) ، بفضل الاصلاحات الكبرى فى عهد اسماعيل بالذات ٠

وسنرى ، عما قليل ، كيف أن اسماعيل استفاد كثيرا من القروض الأجنبية . ومن قبله ، بدأ عباس هذا الطريق حينما منح جورج ستيفنسون عام ١٨٥١ العقد الخاص باقامة أول خط للسكك الحديدية يربط بين الاسكندرية والقاهرة ٠ وفى عهد سعيد تم ربط كل من كفر الزيات وطنطا والسويس بالعاصمة ، كذلك فاليه يعود الفضل فى انشاء حوض السفن بالسويس بحجمه الكبير ، وتطهير قناة المحمودية ٠ وبذلك عادت مصر من جديد نقطة الاتصال بين البحر المتوسط والبحر الأحمر (٤) ٠ ان كروشلى ، مستندا على تقرير بيردسلى (٥) ، يقدر مجموع المصروفات التى أنفقها اسماعيل على المشاريع الكبرى ب ٥١٫٣٩٤٫٠٠٠ ج٠م٠ : ١١٢ قناة تمتد لمسافة ٨٫٤٠٠ ميل – وهى عمليات حفر اذا ما قيست فى مجموعها بحفر القناة تكون نسبتها ١٦٥: ١٠٠ – ، وتصريف قنوات يبلغ طولها عدة آلاف من الأميال ، وبناء ٣٤٠ جسرا ، وتحويل الاسكندرية الى أحسن ميناء على البحر المتوسط ، وانشاء ١٥ فنارة فى البحرين ، وخطوط للسكك الحديدية تبلغ ٩١٠ ميل (١٫٨٨١ كم) ، وكذا ٥٫٢٠٠ كم من خطوط البرق ، بالاضافة الى ٢٫٠٠٠ كم فى السودان ، و٦٤ مصنعا للسكر (٦) ٠ كذلك فقد نظم الخدمة البريدية بعد فترة من الفوضى فى عهد سعيد (٧) ، وفى عام ١٨٧٤ ، وقعت مصر اتفاقيات أول

(٢) حول هذا التطور أنظر : م٠ف٠ لهيطه : تاريخ مصر الاقتصادى ، ٢٢١ – ٦ ٢٩٠ – ٢٩٥ ، ابراهيم عامر : الأرض ، ٧٠ – ٩٢ ٠ G. Baer : Landownership, 7-12; A.E. Crouchley : Econ. dev. mos. Eg: ويبرز ابراهيم عامر و ج٠ باير الفروق الدقيقة بأكثر مما فى العمل الكلاسيكى الذى قدمه كروشلى

(٣) م٠ فهمى لهيطه : تاريخ مصر الاقتصادى ، ٢٩٠ ، حيث يعرض نتائج الأعمال التى انجزت فى المرحلة السابقة ٠

(٤) A. Linant de Bellefonds : Mémoires sur les principaux travaux d'utilité publique exécutés en Egypte, depuis la plus haute antiquité jusqu'à nos jours, Paris, 1872-3.

(٥) وهو التقرير التجارى والسياسى الذى ارسله بيردسلى وكيل الولايات المتحدة وقنصلها العام فى مصر الى وزيره فى واشنطون ، ويتعلق بالانجازات الكبرى التى أحرزت فى عصر اسماعيل ، مودع بمحفوظات قصر عابدين ، ملف ٥/٣٨ ٠

(٦) A.E. Crouchley : Econ. dev. mod. Eg., 116-7. حيث يقدم الأرقام بالاميال ثم بالكيلومترات فى ص ١٤١ ٠ وكذلك ، Eg., v. (1953), no 4, 259-65.

(٧) Jacques Tagher : «La création du service postal égyptien au XIX. siècle», Cah. Hist. Eg., iii (1951) no 3, 263-80.

مؤتمر دولى للبريد فى برن . تضيف الى ذلك ادخال نظام المجـــارى . وتحسين شوارع القاهرة والاسكندرية ، وتزويد عدة أحياء بالمياه والنور ، وتطوير القاهرة على غرار باريس ، وكثير من المشروعات البلدية والعمرانية التى تكمل المشروعات الكبرى الخاصة بقاعدة البناء الاقتصادى (٨) ٠

كان الهدف الأساسى للصناعة يتضمن ، كما قلنا ، اقامة صناعة السكر التى ترتبط مباشرة باهتمامات اسماعيل ، فالانتـــاج يفيض عن حاجات الاستهلاك المحلى ـ ٦٦١ر٠٠ قنطار من السكر تم تصديرها عام ١٨٨٠ ـ ، وكذا تم انشاء عدد كبير من المخابز ، ومصــنعين للملابس بالقاهرة ، ومصنع للطرابيش ، ومدبغة للجلود فى الاسكندرية ، ومصنع للطوب فى قليوب ، والمطبعة الأميرية ومصنع للورق فى بولاق ٠ وابتداء من عام ١٨٥٢ تمت اقامة عدة صناعات خاصة برؤوس أموال أوربية فى العاصمتين : مخابز ومطـــاحن ، وأخرى لتزويد الماء والغاز ، وانشـــاء الترام بوجه خاص (٩) ٠

ان النمو الصاعد للاقتصاد المصرى يتضح من معدلات التجارة الخارجية من ١٨٤٩ الى ١٨٦٢ : بلغت قيمة الصادرات ٣٦ر٣٣٩ر٥٤٣ استرلينى [٣٥ر٤٣١ر٠٥٤جم] ، مقابل واردات قيمتها ٢٩ر٦٤١ر١٥١ استرلينى [٢٨ر٩٠٠ر١٢٢جم٠] أى بزيادة ٦ر٦٩٨ر٥٨٨ استرلينى [٦ر٥٣١ر١٢٣ جم٠] ، وفى عهد اســماعيل اصــبحت هذه الارقام على النحــو التــالى ١٤٥ر٩٣٩ر٢٧٣ استرلينيا [١٤٢ر٢٩٠ر٧٩١ ج٠م] و ٦١ر٩٣٩ر٧٣٦ استرلينيا [٦٠ر٣٩١ر٢٤٣ ج٠م] أى بزيادة ٨٣ر٩٩٩ر٥٣٦ استرلينيا [٨١ر٨٩٩ر٥٤٨جم٠] وهذا يعنى تقدمــا بنســبة ١ر١٥٤٪ على الفترة السابقة (١٠) ٠ والواقع أنه ، على الرغم من أن الارتفاع الكبير الذى يعود الى حرب الاستقلال الأمريكية قد ســبب قفزة هائلة من الصــادرات بين ١٨٦٣ر١٨٦٠ ، الا أن هذه الصادرات ظلت زائدة طوال هذه الفترة (١١). ففى خلال ثلاث عشرة سنة من الحكم ، ضــاعف اســماعيل الدخل القومى المصرى الذى ارتفع من أقل من ٤ر٥ مليون استرلينى [٤ر٣٨٧ر٥٠٠جم٠]

---

(٨) A. Sammarco : Sa'îd et Isma'îl ch. xii, 223-40.

(٩) التفاصيل فى : عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، ج ٢ ، الفصل العاشر ، ٢٤ ـ ٤ ، ثم A.E. Crouchley : Econ. dev. mod. Eg., 135-6:

(١٠) محفوظات قصر عابدين ، المالية ، ٥/٣٨ فى Sammarco : Sa'îd et Ismai'îl, 223; Beadsley ; Rapp. comm. polit., J.C. CcCoan : Egypt as it is, 282. الفصل الخاص بالتجارة والسكان

(١١) الجداول التفصيلية فى A.E. Crouchley : Econ. dev. mod. Eg., 196-3.

الى ٩ مليون استرلينى [٨٫٧٧٥٫٠٠٠ ج٠م٠] (١٢) ٠ وهذه التقديرات يؤكدها بعثـــة كيف عام ١٨٧٦ ٠ أما المصروفات التى بدون عائد ، والاخطاء فيمكن مقارنتها بشبيهاتها فى الولايات المتحدة وكندا ؛ فالواقع أن مصر كانت أقل تبذيرا فى مجال سككها الحديدية من بريطانيا العظمى ؛ أما صناعة السكر فقد كانت قياسية تتحدى مثيلاتها ؛ وكان الدخل يزداد بانتظام ، وكان ميزان التجارة الخارجية فى ارتفاع دائم لصـــالح مصر ؛ وظهرت فاعلية الادارة الضريبية ؛ والمصروفات السنوية ، بصرف النظر عن سداد الديون ، كانت تشمل « تكاليف عـــدد كبير من الاشياء هى ، فى بلادنا ، من عمل المشـــاريع الخاصـــة ، مثل السكك الحديدية ، والقنوات والثغور ، واحواض السفن ، الخ (١٣) ٠ » وتشير « التايمز » الى ذلك فتقول : « ان السكك الحديدية وادارة البريد والجمارك وميناء الاسكندرية ظلت فى يد الاجانب ؛ ولكن المالية والمشـــاريع العامـــة وجميع الوزارات والادارات العامة انتقلت الى الاشراف القومى البحت ــ وباختصـــار فان عبارة مصر للمصريين لم تعد حلما ، وانما هى الحقيقة الواقعة (١٤) ٠ » وقد كتب دى ليون E. de Leon يقول : « الحقيقة أن المشاريع العامة التى بدأت وتمت فى مصر خلال الاثنتى عشرة سنة الأخيرة تمثل تقدما مذهلا لا مثيل له فى أى بلد آخر ، حتى ولو كان هذا البلد يفوق مصر بأربعة أضعافها مساحة وسكانا (١٥) ٠ »

واذا كان فى استطاعتنا أن نسوق الأدلة الكثيرة ، الا أن الأسطورة التى أشاعها كرومر قائمة : فهو يرى أن « القروض مجموعها قد بددت ، باستثناء مبلغ الـ١٦ مليون استرلينى الذى أنفق على القناة (١٦) » ٠

---

(١٢) A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl 234; وهو ما يؤكد تقرير بعثة ستيفان كيف بالأرقام التالية : ٥٥٫٠٠٠ جنيه اســـــترلينى فى ١٨٠٤ ، ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ فى ١٨٣٠ ، ٤٫٩٣٧٫٤٠٥ فى ١٨٦٤ ، ٧٫٣٧٧٫٩١٢ فى ١٨٧١ ، قبل عام من قانون المقابلة ٠ (J. C. McCoan : Egypt as it is, 390).

(١٣) فى J.C. McCoan : Ibid., 384-92.

(١٤) «Latest intelligence», The Times, 26 april 1879.

(١٥) E. de Leon : The Khedive's Egypt; or, the old house of bondage under new masters, Sampson, Marston, Searle and Rivingstone, London, 1877 362-3.

(١٦) Cromer :Mod. Egypt vol. 1, 1'.

وينكر هذا الزعم جميع الخبراء وشهاد العصر ولا سيما Stephen Cave. Samuel Baker Beauty-Kingston, L. Wiener, Linant de Bellefonds, E.F. Farman, E. de Leon, K. Vollers. J.C. CcCoan, Th. Th. Rothstein, G. Douin G. Zananiri, A. Sammarco, عبد الرحمن الرافعى ، الخ ٠ وتجمعت شهادات وفيرة فى A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl 223-40.

وكما رأينا ، فان الوقائع تثبت زيف حكمه · ومع ذلك فمن الواجب أن نوضح الفرق بين التنمية الاقتصادية التى قام بها محمد على وبين مثيلتها فى الفترة بين ١٨٤٠ و ١٨٧٩ · ففى الحالة الأولى كان الهدف ــ انطلاقا من حاجات الجيش والامبراطورية ــ اقامة صناعة قوية بمصر من الطراز الحديث المتقدم مع العمل على تنمية وسائل الرى والزراعة · أما فى الفترة بين ١٨٤٠ و ١٨٧٩ ، فان المجهودات كانت أكثر تقييدا بسبب التدخل الأوربى الى حد ما : وكان الهدف هو اقامة قاعدة للبناء الاقتصــــادى من الطراز الحديث المتقدم بغرض تنمية الانتاج الزراعى الى أقصى حد ممكن · والواقع أن عملية التعويق التى حدثت عام ١٨٤٠ قد آتت ثمارها : فلم تعد مصر قادرة على منافسة أوربا ، بل أصبح عليها أن تكتفى بالاستعداد للاندماج فى السوق الاقتصـــادية الدولية ، خاضـــعة لشروط الدول الصناعية وبيوت المال · ان البلاد ، وقد أقام فيها اسماعيل قاعدة البناء الاقتصادى المتطور بالنسة للعصر ، أصبحت قادرة على أن تقدم للمحتــل أرضا صالحة لسياسة المحصول الواحد · لقد كان الخلل العام فى الاقتصاد المصرى شيئا منطقيا نتيجة لطبيعة الأحداث ·

ومن المهم أن نسوق هنا التحليل الذى جاء على لسان روزا لوكسمبورج عام ١٩١٣ بخصوص هذا الموضوع من وجهــة النظر الماركســـية ومن خــلال مناخ ثقافى لمنطقة وسط أوربا وشرقها لم تكن فى ذلك الوقت قد دخلت دخولا مباشرا فى توغل الاستعمار والامبريالية : « تبدو هذه العمليات المالية ، لأول وهلة ، وكأنها قمة العبث · فقرض يتلو قرضا، وفوائد القروض تغطيها قروض جديدة ، وتدفع أثمان الطلبيات الصناعية الضخمة المنفذة برؤوس أموال انجليزية وفرنسية · ولكن الواقــع هو أنه اذا كان الجميع فى أوربا ينعون تصرفات اسماعيل الحمقاء ، فان رأس المال الأوربى قد حقق فى مصر أرباحا لم يسبق لها نظير ــ صورة جديدة من أسطورة السبع بقرات التى جاءت فى التوراة ، صــورة فريــدة فى تاريخ رأس المال فى العالم · خصوصا وأن كل قرض كان فرصة لعملية ربوية تغل على أصحاب الأموال الأوربيين من الفوائد ما يعادل خمس بل وثلث قيمة المبلغ المقروض أو أكثر · ان هذه الفوائد الربوية كان يجب أن تدفع بشكل أو آخر · فما هو السبيل ؟ ان مصر هى التى يجب أن تدفعها ، والمصدر كان الفلاح المصرى · كان الاقتصاد الريفى هو الذى يقدم كل عناصر المشروعات الرأسـمالية الهــائلة · كان يقــــدم الأرض مادامت الأرض المسماة ضيعات الخديوى والتى حصلها من القرى بالسلب والتهديد قد زادت زيادات هائلة منذ فترة من الزمن ، فكان يقوم عليها خطط شق القنوات ، وزراعة القطن والقصب . وكان الاقتصاد الريفى يقدم أيضا وبالمجان الأيدى العاملة ، التى كان عليهــا أيضــا أن تتحمل

مصاريف قوتها طول فترة استغلالها • ان المعجزات التقنية التى حققها المهندسون الأوربيون والآلات الأوربية فى قطاع شق القنوات والنقل والزراعة والصناعة المصرية قد تمت بفضل العمل الاجبارى للفلاحين المسخرين • كانت جماهير غفيرة من الفلاحين تعمل فى قناطر قليوب وفى قناة السويس وفى اقامة السكك الحديدية ، والسدود ، وزراعة القطن ، ومصانع السكر ، وكان استغلالها بلا حدود طبقا لحاجات الوقت وكانوا ينتقلون من عمل لآخر • ومع أنه كان يتجلى فى كل لحظة القصور التقنى لاستخدام العمل الاجبارى فى تحقيق أهداف رأس المال الحديث ، فان السيطرة المطلقة على الأيدى العاملة كانت تعوض هذا النقص : كان حجم القوى العاملة ، وطول فترة الاستغلال ، وظروف الحياة والعمل ، كان ذلك كله وبالكامل يتمدد حسب ارادة رأس المال •

« وفضلا عن ذلك فان الاقتصاد الريفى لم يكن يكتفى بتقديم الأرض والأيدى العاملة ، ولكنه كان يقدم المال أيضا عن طريق النظام الضريبى وبتأثير الاقتصاد الرأسمالى ، كانت الضرائب التى تحصل من صغار الفلاحين تزداد يوما بعد يوم • كانت الضريبة العقارية فى ارتفاع مستمر : ففى أواخر عام ١٨٦٠ ارتفعت الى ٥٥ ماركا للهكتار فى حين كانت الضريبة على الملكيات الكبيرة لا تتجاوز ١٨ ماركا للهكتار ، ولم تكن الأسرة الملكية تدفع أية ضرائب عن ضياعها الواسعة • هذا بالاضافة الى بعض الضرائب الخاصة ، فمثلا الضرائب المخصصة لتنفيذ مشروعات شق القنوات التى لا تستخدم الا فى ضياع الوالى : وكانت هذه الضرائب تصل الى ٢٥ر٢ مارك للهكتار • وكان على الفلاح أن يدفع عن كل نخلة يمتلكها ضريبة قيمتها ٣٥ر١ مارك ، وعن الكوخ الذى يسكنه ٧٥ بفننج (٧٥ر٠ مارك) • كذلك كانت هناك ضريبة شخصية تبلغ ٥ر٦ مارك عن كل فرد ذكر تجاوز العاشرة • كان الفلاحون على عهد محمد على يدفعون من الضرائب ما مجموعه ٥٠ مليونا من الماركات ، وتحت حكم سعيد ١٠٠ مليون ، وتحت حكم اسماعيل ١٦٣ مليون • وكلما كان الدين الأوربى يزيد كلما زادت الحاجة الى ابتزاز المال من الفلاح • وفى عام ١٨٦٩ زادت جميع الضرائب بنسبة ١٠٪ وتم تحصيلها مقدما عن عام ١٨٧٠ • وفى عام ١٨٧٠ زادت الضريبة العقارية ١٠ ماركات لكل هكتار • وبدأت قرى الصعيد تخلو من سكانها ، وكان الناس يهدمون الأكواخ ويتركون الأرض بورا (بلا زراعة) تفاديا لدفع الضرائب • وفى عام ١٨٧٥ ارتفعت الضريبة على النخيل بمعدل ٥٠ بفننج • وكان الناس يخرجون من القرى ويقطعون نخيلهم مما اضطر الحكومة الى منعهم بقوة السلاح • ويحكى أنه فى عام ١٨٧٩ مات عشرة آلاف فلاح جوعا فى شمال أسيوط لأنهم لم يتمكنوا من الحصول على المال اللازم لدفع ضريبة رى حقولهم ، وأنهم قتلوا مواشيهم لكى

يتجنبوا دفع الضريبة • لقد تم استنزاف الفلاح • وقامت الحكومة المصرية بتأدية دورها كمحصل للمال في خدمة رأس المال الأوربى ، فلم تعد هناك حاجة اليها • وعزل الخديوى اسماعيل وأصبح بامكان رأس المال الآن أن يصفى عملياته • » والخلاصة : « ان المصالحة التى تبدو غريبة بين رأس المال المقروض عن طريق البنوك الأوربية ورأس المال الصناعى الأوربى كانت تقوم على علاقة معقولة جدا وسليمة جدا من وجهة نظر التراكـم الرأسـمالى ، مع أن الطلبيات المصرية كانت تدفع بواسـطة رأس المال المقروض وأن فوائد أحد القروض كانت تغطى برأس مال القرض الآخر • واذا صرفنا النظر عن كل ما يمكن أن يحجب الحقيقة ، يمكننا أن نلخص هذه العلاقة فى أن رأس المال الأوربى قد ابتلع الاقتصاد المصرى الى حد كبير : فمساحات شاسعة من الأرض ، وقوى عاملة هائلة ، وقدر كبير من النتائج يعـود الى الدولة فى شكل ضرائب ، كل هذا قد تحـول فى النهاية الى رأس مال أوربى ، محققا تراكما • ومن البديهى أن هذه المصالحة التى أسـفرت ، فى خلال عشرين أو ثلاثين سـنة ، عن تطور تاريخى كان يلزمه عدة قرون عديدة فى ظل ظروف عادية ، لم يكن من الممكن أن يتم بغير السوط • أن بدائية التنظيم الاجتماعى المصرى ، بالذات، هى التى قدمت لرأس المال الأوربى هذه القاعدة الفريدة ليمارس عليها عملياته ليحقق تراكمه • وبجانب النمو الهائل لرأس المال ، كانت النتيجة الاقتصادية هى : انهيار الاقتصاد الريفى وفى نفس الوقت نمو المبادلات التجارية الناتج عن الاستقلال الشديد للقوى المنتجة فى البلاد (١٧) • »

كانت مرحلة الاحتلال كما اشرنا ـ هى مرحلة المشروعات الكبرى فى سبيل زيادة حجم وغلة الانتاج فى مصر الزراعية • وكانت الأجهزة الادارية فى الدولة هى التى تتولى معظم المهام فى ظل المستشارين والخبراء والمفتشين والمسئولين البريطانيين ، وكان كبار الملاك العقاريين يقدمون العون ، فقد كانت مصالحهم المباشرة تتفق وآراء المحتل • وعلى ذلك فمن العسير أن نتعرف على جانب المبادرة الوطنيـة بمعنى الكلمة فى غمرة الأحداث التى يوجهها المحتل • ومع ذلك فمن الممكن أن نستخلص بعض العناصر • وسنعرض ذلك فى عجالة تمتد من ١٨٨٢ الى ١٩١٩ •

ارتفعت رقعة الأرض المنزرعة من ٤٫٧٤٣٫٠٠٠ الى ٥٫٤٦٩٫٠٠ فدان من ١٨٧٧ حتى ١٩١٧ ، وارتفعت رقعة المحصولات من ٤٫٧٦٢٫٠٠٠ فدان الى ٧٫٦٨٦٫٠٠٠ فدان أى بزيادة من ١٥٥ الى ١٧٧ ومن ١٣٠ الى

(١٧) Rosa Luxembourg ; L'accumulation du capital. trad. Irène Petit, François Maspéro, Paris, 1967. ii ; 104-8.

وترد دراسة غير مستوفاة تماما لتكوين الطبقات الوسطى فى
R. Patal : «The dynamics of Westernization in the Middle East», The Middle East Journal, ix, (1955), no. 1, 1-16.

٢١٠ [١٨١٣ = ١٠٠] (١٨) • وزاد الانتاج الزراعى « بمعدل سريع ٦ر١ ٪ فى السنة مساويا معدل النمو السكانى فى الريف (١٩) • »

أما القطاع غير الزراعى – والذى تتقاسمه الدولة ورأس المال الأجنبى – فقد سار بسرعة عامة أقل تشجيعا • وزادت الشركات المساهمة بسرعة : فقد ارتفعت من ٧٨ عام ١٨٩٨ – ١٩٠٢ الى ٣٠٠ عام ١٩٠٧ ، فى وقت الأزمة ؛ وفى عام ١٩١١ ، وبعد التصفيات الاجبارية ، بقى منها ١٦٤ • « ٩٣ شركة من ١٦٤ ، أى بنسبة ٥٧٪ من مجموع الشركات كانت تملك رأس مال أقل من ٢٠٠ر٠٠٠ استرلينى [١٩٥ر٠٠٠ ج•م•] • ومع ذلك فان درجة تركيز المشروعات فى مجموعها ظل يفوق بكثير درجة تركيز المشروعات الفرنسية » ، كما يشير سعيد ذو الفقار (٢٠) . ان التحليل النوعى لهذه الشركات في اطار مجموعات يبين طبيعة السياسة الاقتصادية القائمة فى ظل الاحتلال البريطانى • فمجموعة شركات الائتمان والبنوك والشركات المالية – ٢٢ شركة فى عام ١٩٠٧ – كانت تضم أكثر من نصف الأموال : قاعدة البناء الاقتصادى الزراعى ، انشاء وصيانة الضياع الكبرى ، تصدير الفوائد للخارج • وقد قدر سعيد ذو الفقار رؤوس الأموال هذه، بدون أرقام يمكن مراجعتها، بحد أدنى ١٥٢ مليون جنيه مصرى من أموال خاصة ، أى بمجموع قدره ٣٠٠ مليون جنيه مصرى بين ١٨٨٣ و ١٨١٤ ، فى حين أن الاستثمارات الأجنبية لم تكن تتجاوز ١٠٠ مليون جنيه مصرى (٢١) ، ومن ناحية أخرى فان حسن رياض يرى أن ثلثى هذا المبلغ الأخير ناتج عن اعادة استثمار الفوائد فى نفس المكان • والواقع « انه اذا كان مجموع هذه المدخرات قد تم استثماره فى نفس المكان ، فان معدل نمو الناتج الصافى يجب أن يكون ٧ر٣٪ بدلا من ٧ر١٪ (٢٢) » •

أما المجموعة الثانية – مشروعات الاصلاح العقارى والزراعى

---

(١٨) اللجنة العليا للتخطيط فى الجمهورية العربية المتحدة : **مجموعة الاحصائيات** ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، الجدول ٢١ •

(١٩) **Hassan Riad L')gypte nassérienne, Editions de Minuit, Paris, 1964, 140** وترد خلاصة وافية ممتازة فى **Patrick O'Brien : The long-term growth of agricultural production in Egypt 1821-1962 — P. M. Holt, ed. : Political and social change in modern Egypt historical studes from the Ottoman conquest to the United Arab Republic, Oxford U. P., London, 1968, 162-95.**

(٢٠) Sa'îd Zulficar : **L'impéralisme britannique en Egypte 1882-1914**, thèse **Paris, 1966, 120-6.**

(٢١) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٣٤٤ – ٣٤٥

(٢٢) H. Riad : Eg. **nassérienne, 185-6.**

والمشروعات الصناعية فهى تساند ، فى جوهرها ، عمل المجموعة الأولى. فقد بلغت رؤوس أموال الشركات الصناعية ⅖ مجموع رؤوس أموال الشركات المساهمة . والضريبة التى فرضها كرومر على المنتجات الصناعية المصرية ، باسم مبادىء التبادل الحر ، حولت الاستثمارات الأجنبية عن هذا القطاع . وبذلك فان البناء الشامخ الذى أسسه محمد على ، واستأنف بناءه ، على نحو ما ، اسماعيل لم يبق منه الا الشىء القليل عام ١٩١٤ : ٣٠ مصنعا لتكرير السكر ، ٥ مصانع زيت وصابون ، مصنعان لغزل ونسج القطن ، مصنعان للبيرة ، مصنعان للملح ، عدة مصانع لحلج القطن ، وبعض طواحين الدقيق الآلية ، وبعض مصانع السجاير (٢٣) ، وبعض المدابغ ، وبعض مصانع الأخشاب ، وبعض وحدات انتاج مواد البناء والأسمنت (٢٤) . ومع ذلك ، فمنذ عام ١٨٨٤ ، فان قوات الاحتلال قد أخذت على عاتقها تقليص القدرة الصناعية المصرية بصورة حاسمة : « فقد بيعت عام ١٨٨٧ آلات ومعدات مصانع غزل القطن التى أقامها محمد على . كذلك فان المصانع والآلات والبواخر وأحواض السفن الخاصة بالشركة الخديوية للملاحة قد بيعت عام ١٨٨٩ للشركة الانجليزية بمبلغ بخس هو ١٣٠٫٠٠٠ ج . م . ولقى الأسطول النهرى وترسانات بولاق نفس المصير . وبالمثل فان بعض المؤسسات الأقل أهمية كمعمل الورق فى بولاق (١٨٨٥) ، ودار صك النقود (١٨٨٥) ، ومصانع الأسلحة والذخيرة (١٨٨٤) قد أغفلت وبيعت معداتها لمقاولين أغلبهم من الانجليز (٢٥) . » ان المشروعات التى قاومت كانت امتدادا طبيعيا للزراعة المصرية ، وكان أكثر القطاعات نشاطا هو قطاع النسيج وذلك « يرجع الى تخصصهما فى صنع أصناف معينة من الأقمشة يطلبها غالبية السكان ولا تصنعها البلدان الأجنبية » (٢٦) .

بقى القليل من الصناعة الكبيرة ، أو لم يبق منها شىء ـ ١٧ مصنعا تستخدم أكثر من ١٠٠ عامل وأدوات بدائية من النوع التقليدى (٢٧)،

(٢٣) Charles Issawi : Egypt at mid-century, an economic survey, R.I.I.A., Oxford U.P. London, 1954, 37; S. Zulficar : Impér, brit. Eg., 353.

(٢٤) ترد هذه الاضافات فى ر. البراوى و م.ح. عليش : **التطور الاقتصادى فى مصر** ، ١٥٠ ـ ١٦٦

(٢٥) S. Zulficar : Impér. brit. Eg., 352-3. ويشير سعيد ذو الفقار الى مؤلفات ع. الجريتلى و ش.ع. الشافعى و ج.م. أحمد وع. ر. الرافعى ، وكذلك الى أعمال « المؤتمر الوطنى المصرى » الذى عقد فى ١٩١٠ .

(٢٦) ر. البراوى وم.ح . عليش : **التطور الاقتصادى فى مصر** ، ١٥٥ .

(٢٧) René Maunier : «L'exposition des industries égyptiennes», Eg. Cont., 1919, no. 433-4; 437-41.

تعمل للسوق المحلى ، باستثناء مصـــانع حلج القطن . وقد أدت نفس السياسة الى احباط الهمم وصرفها عن التنقيب عن المعادن مع ما كان فى المناجم من منجنيز وفوسفات وبترول بل وحديد أيضـا (٢٨) . وفى عام ١٩١٤ قدر م. م. حمدى الاستثمارات الصـــناعية الأجنبيـة والمصرية ب ٤٦٦ر٠٠٠ ج.م . أى بنسـبة ٩٪ من مجمـوع الاستثمارات البالغة ١١٦ر٣٧٠ر٠٠٠ ج . م . (٢٩) .

أما المجموعـة الثـالثة ـ وهى مجموعـة شركات مشروعات النقل والمواصلات ـ فانها تمثل خمس رأس المال الاجمالى للشركات المساهمة . علما بأن شركة قناة السويس جزء منها . وأخيرا هناك مجموعة رابعة ـ وهى مجموعة شركات التجارة والمشروعات العقارية فى المدن ـ وهذه المجموعة لا تمثل أكثر من واحد من ثلاثين من رؤوس الأموال المستثمرة (٣٠) .

وفى مجال النقل ، فان شـبكة خطوط السـكك الحديدية بلغت ٣٠ر٢٠٠ كم فى عام ١٩١٤ ، أما شبكة خطوط الترام فبلغت ١٣٠ كم ، وكانت مصر فى ذلـك الوقت تملك ١٠ر٠٠٠ كـم مـن خطـوط البرق و ١٠٥ر٠٠٠ جهاز تليفون و ٥ر٥٠٠ مكتب بريد وحوالى ٥ر٠٠٠ كم من الطرق وحوضا نهريا يقدر بخمسة ملايين من الجنيهات المصرية (٣١) .

وانعكس النمو الاقتصادى على التجارة الخارجية : فارتفعت الصادرات مـن ١٢ر٩٣٨ر٠٠٠ ج . م الى ٣١ر٦٦٢ر٠٠٠ بين ١٨٨٠ و ١٩١٤ ، وارتفعت الواردات بنسبة أكبر فمن ٧ر٤٢٦ر٠٠٠ ج.م الى ٢٧ر٨٦٥ر٠٠٠ ج.م . (٣٢) . وقد سبق أن بينا الخلل الذى طرأ على كلا الخطين البيانيين بسبب سياسة الاقتصاد على زراعة القطن وحده .

وكان تاريخ البنوك فى تلك الفترة يرتبط ارتباطا مباشرا بتاريخ المسـتعمرات الأجنبيـة وبسـياسة الدول الكبرى الأوروبية . فبين عامى ١٨٦٥ و ١٩١٣ كان هناك حوالى ثلاثين بنكا ، منها الصغير ومنهـا الكبير ، والتى كانت بعض فروعها فى الخارج تساعد فى تسديد الدين

---

(٢٨) Max Ismalun : "La situation minière de l'Egypte», Eg., Cont., III (1912), no 10, 161-214.

(٢٩) M. M. Hamdi : A statistical survey of the development of capital investment in Egypt since 1880, th. Ph. D. Econ., London, 1943, 264-6.

(٣٠) S. Zulficar : Imp. brit. Eg., 134-5.

(٣١) C. Issawi : Eg mid-century, 22, 36, 180-93; H. Riad : Eg. nassérienne, 172-5.

(٣٢) A.E. Crouchey : Econ. dev. mod Eg:, 169-71:

العمومى ، تروج لبيع القطن وتغذى المضاربات · ثم ان تاسيس « البنك الأهلى المصرى » عام ١٨٩٨ بواسطة مجموعة من رجال المال الأجانب فى مصر ـ أ · كاسيل ، س · · سلفاجو ، ر · سوارس ـ المرتبطين مباشرة بالمالية البريطانية ، أصبح يستخدم كبنك مركزى وبنك اصدار ، غير أن ربطه بمصير الغطاء الذهبى ، ثم بالجنيه الاسترلينى حرم مصر من وسيلة الائتمان الوطنى التى كانت فى مسيس الحاجة اليها (٣٣) ·

وأخيرا ، فان أرقام الدخل القومى فى ذلك الوقت تعكس قـدرا كبيرا من عدم اليقين : فحسن رياض يقدر الدخل القومى بمبلغ ١٢٠ مليون جنيه مصرى فى عام ١٩١٤ و٢٠٠ مليون جنيه مصرى فى عام ١٩٢٢ ، وحسين خلاف يقدره بمبلغ ٢٠٠ مليون جنيه مصرى فى عام ١٩١٣ ، وفى مقابل ذلك أ·ج ليفى I. G. lévy من جهة وباكستر Baxter وكريج Craig من جهة أخرى يقدرونه بمبلغ يتراوح مابين ٢٧٠ و ٣٠٠ مليون جنيـه مصرى فى عام ١٩٢٢ (٣٤) ·

ان المقارنة بين المنحنيين ـ منحنى التـــدخل الأوربى من ناحية ، ومنحنى مجهود البناء الوطنى الأصيل من ناحيـــة أخرى ـ تظهر قوة الانطلاقة المصرية وعنادها ، أولا عن طريق صـــناعة تقوم على الجيش ، وكلاهما على قدر هائل من التأثير ، ثم عبر عن تحديث الزراعة والنقل والبناء الاقتصادى الذى لم يهمل الصناعة ولا التمويل أيضا · ولما كان من المستحيل على مصر أن تنعزل عن العالم الخارجى ، كما فعلت اليابان ، فانه لم يكن فى استطاعتها أن تفعل أكثر مما فعلت أو غير ما فعلت بصـــورة جذرية فى مجال الايجابية الاقتصادية · ان الثمن الذى دفع ، وكذا صنوف الاستبعاد التى فرضت لا يمكن مقارنتها بالمقاومة الذاتية الداخلية · ومن ثم كان تصدع عملية البناء كلها ·

---

(٣٣) فوزى جرجس : **تاريخ مصر السياسى** ، ٩٨ ـ ١٠٣ ، على الجريتلى : **تطور النظام المصرفى** ، ٢٢٠ ـ ٢٤٧ ؛ على عبد الرسول : **البنوك التجارية فى مصر** ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ٦ ـ ٦٣ ·

(٣٤) H. Riad : Eg. nassérienne, 163-4. ، ح· خلاف : **تجديد الاقتصاد** ·· ٢٨١ ·



الفصل الثانى

تغير المجتمع

القسم الأول : التطور السكانى

ليس غريبا أن تغرز الأرقام فى هذا المجال • كما أن تفسيرها سيؤدى الى بعض المشكلات ، أولا فيما يختص منهـا بطريقة تحديد عناصر السكان العاملين والذين هم على قيد الحياة •

لقد وضع محمد على سجلات المواليد والوفيات وعهد بها الى «الصرافين» ، بالاضافة الى الشئون المالية الخاصة بدوائرهم وكذلك التطعيم بأنواعه • ولم يكن هناك أى نوع من الرقابة فى ذلك العصر : فكانت النتيجة « الأهمال المطلق والفوضى الكاملة فى التسجيل » • وظل الوضع على تلك الصورة حتى كانت عملية اعادة التنظيم الادارى على عهد « كرومر » • ففى ٩ يونيه ١٨٩١ صدر قرار بضرورة عمل شهادات مضبوطة للميلاد والوفاة بل شهادات للاعتراف بالأبناء الطبيعين أيضا (مادة ٧ و ٩ و ١٠ و ١٤ و ١٦ و ١٧) وصدر قرار آخر فى ١٢ مارس ١٨٩٨ بالغاء شهادات الميلاد والوفاة والاكتفاء باثباتها فى سجل خاص • فهل يعتبر ذلك من نتائج الازدهار الذى ساد فى ذلك العصر ؟ ان القانون الصادر فى يناير ١٩٠٧ يهدف الى التحديد الدقيق لحالة السكان وزيادة القيود القانونية على الأجانب ، ويبدو أن أزمة ١٩٠٧ ، وخصوصا تصاعد الحركة الوطنية ، كانا وراء هذا الاهتمام والتدقيق • كذلك الحال فيما يختص بأجراءات الزواج : أما بالنسبة للمسلمين ، فان قانون ١٧ يونية ١٨٨٠ قد وضع نظام المأذونين ، وهم وكلاء عن القاضى ، ويتولون تحرير عقود الزواج والطلاق ؛ ثم ان القرار الصادر عام ١٨٩٧ ، ومن بعده القانون رقم ٣١ لعام ١٩١٠ يلزم بضرورة تحرير عقد الزواج للتحقق من صحته ؛ أما بالنسبة لغير المسلمين ، فان الكنيسة هى التى تقوم بهذه المهام ، فالزواج يكون دائما

مسبوقا بالخطوبة عند الأقباط (١) ٠

ان الخط البيـــانى للســـكان ، خـلال الفترة موضوع دراستنا ، يسجل صعودا ملحوظا ، والاحصاءات المتقدمة ، والتى جاءت فى البداية نتيجة بعض الدراسات الفردية ، وفيما بعد عن طريق الاحصاءات الرسمية ، تقدم لنا صورة عامة عن الحالة وفى بعض الأحيان تقدم لنا التفاصيل ٠ ففى بداية عهد محمد على كان الأمر جلل حقيقة ٠ فبعد مجموع يتراوح بين خمسة الى خمسة عشر مليونا أيام الفتح العربى ، وهو وضع كان ثابتا على ما يقال منذ الفراعنة ، يهبط عدد السكان الى ٥ر٢ مليون مع بداية الحملة الفرنسية ، وذلك بعد أربعة قرون من الحكم التركى ٠ أما خلال الفترة بين ١٧٩٨ حتى منتصف القرن التاسع عشر فان التقديرات تسجل ارتفاعا فى المواليد يواكب النهضة المصرية :٥ر٢ مليون بالاضافة الى ٠٠٠ر١٣٠ من البدو على عهد الحملة الفرنسية (جومار Jomard) ، ٥ر٢ مليون عام ١٨٢٢ طبقا لتقدير «مينجان» Mengin ، ٤ مليون عام ١٨٣٠ طبقا لتقدير محمد على ، ٢ مليون ، ٠٠٠ر٢١٣ر٢ ، ٥ر٢ مليون ، ٣ مليون بين عامى ١٨٣٥ و ١٨٤٠ (طبقا ل «مادين» Madden و «كادولفين» Cadalvène و «باورنج» Bowring و«دوهاميل » Duhamel وكلوت بك) ، ٥ر٤ مليون بالاضافة الى ٠٠٠ر١٨٠ من البــدو و ٠٠٠ر٦٠ من الأجانب عام ١٨٤٦ (« دى رينى » de Régny ، وهو نفس الرقم تقريبا الذى أعطاه « لين » Lane (٢) ، وان كان « شيفير » Sheffer قد أعطى رقما أقل بقليل (٣)٠ أما فى عهد سعيد ، وبالذات فى عام ١٨٥٩ ، فان J.C. McCoan يقدر العدد ب ٠٠ر١٢٥ر٥ (٤) ٠ وقد قام دى رينى de Regny بتكليف من اسماعيل صديق المفتش ، بوضع احصاء لمصر عام ١٨٧٠، ثم عام ١٨٧٣، استنادا الى

(١) Joseph Cassis : «De la nécessité d'établir en Egypte une véritaple organisation de l'état-civil» Eg. Cont., (19813. no 39. 277-310.

(٢) تجمع هذه التقديرات فى : على الجريتلى : **السكان والموارد الاقتصادية فى مصر** ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ١٠ — ١٥ و

A.E. Crouchley : «A century of economic development,» Eg. Cont., xxx (1939), no. 182-3, 133-55.

ويقدم الكتاب الأول تقديرات احتمالية للسكان فى مصر الفرعونية — ٤٠ مليون — فى حين ان شامبليون يقدر عدد السكان ب ٤ — ٨ ملايين ، وتعداد سكان مصر فى عهد البطالسة ، وفقا لهيرودوت ، ٣ مليون نسمة ، انظر أيضا :

Lefter Mboria : La population de l'Egypte, Paris, 1938, 25, n. 2.

(٣) Eliezer Sheffer : Population growth and economic development in Egypt, th. Ph. D., London, 1959, 6.

(٤) J.C. McCoan : Egypt as it is, 21 .4 ، ويشير الكاتب الى « تعداد تقريبى »

تقديرات عامة ، وجاء الاحصاء ، على التوالى ، كالآتى ٥٫٢١٥٫٠٠٠ ثم ٥٫٢٥٠٫٠٠٠ (٥) ٠

أما أول تعداد رسمى فكان عام ١٨٨٢ ، قبل التل الكبير ، ولم يلق معارضة من الجمهور ، غير أن نقل السكان بسبب العمليات الحربية (الاسكندرية واقليم الشرقية والقناة) جعل نتيجة التعداد وهى ٦٫٨١٣٫٩١٩ ، عرضة للشك (٦) ٠

وسرعان ما ألغت سلطة الاحتلال ادارة الاحصاء ، فكان لزاما الانتظار حتى تعداد عام ١٨٩٧ الجديد ثم عام ١٩٠٧ وعام ١٩١٧ ، لكى نجد بيانات أدق وأصدق ٠ كان عدد السكان كما ورد فى هذه الاحصاءات الثلاثة هو ، على التوالى: ٩٫٧٣٤٫٤٠٥ ، ١١٫٢٨٧٫٣٥٩ ، ١٢٫٧١٨٫٢٥٥ ، وقد هبط عدد البدو الرحل خلال السنتين الأخيرتين من ٩٧٫٣٨١ الى ١٫٥١٣ ، ومن الصعب التسليم بهذا الرقم الأخير ، خصوصا وأن تعداد عام ١٨١٧ يحدد عدد من لا عمل لهم بـ ٢٫٦٧٦٫٠٠٠ والأرجح أن بعضهم من البدو الرحل (٧) ٠

أما الاحصاءات الهامة التى جاءت بعد انشاء ادارة الأحوال المدنية عام ١٨٩١ وتعميم تسجيل المواليد عام ١٩١٢ ، فانها تدخل فى نطاق الفترة الأخيرة من المرحلة موضوع الدراسة ٠ لقد ارتفع عدد المواليد من ٣٥٫٠٠٠ عام ١٨٧٥ (رقم غير محقق) ومن ٣٦٠٫٠٠٠ عام ١٨٩٧ الى

---

(٥) E. de Régny : Statistique de l'Egypte, Ire année 1870, Alexandrie, 1870, 12; Ministère de l'Intérieur : Statistique de Wgypte, année 1873, préface de Ism'îl Saddiq pasha, introduction par E. de Régny bey, Le Caire, 1873, xii.

(٦) Government of Egypt : Statistical returns 1881-1897, Imprimerie Nationale, Le Caire, 9.

وانتقد هذا التقدير كل من الجريتلى : السكان ٠٠٠ ، الذى يتحدث عن السجلات المحروقة ، الخ ٠ ، وحسن رياض الذى يجند رقم ٧٫٢ مليون ٠ وأول مكتب مصرى للاحصاء انشىء فى ١٨٧٠ وكان مديره دى٠ رينى (L. Mboria : Popul. Eg., 27). وعلى صعيد الأعمال التى قدمها المؤرخون فان ما يسترعى الاهتمام هو عمل I.G. Lévi : «La statistique officielle en Egypte : ses travaux, son développement, son organisation présente et à venir», 5g. Cont., iii, 1912), no 11, 317-40, ثم العمل الذى قدمه Jacques Fresco : «Histoire et organisation de la statistque officielle en Egypte,» Eg. Cont., xxxi (1940), no. 191-2, 339-91.

(٧) Statistical returns 1881-1897. 9; Ministry of Finance, Egypt : The census of Egypt taken in 1907. Le Cairo, 1909, 3; Egyptian Government, Statistical Department : The census of of Egypt taken in 1917, Cairi, 1921, vol. ii, 547, 364-79.

٥٨٠ر٠٠٠ عام ١٩٢٠ ٠ وجدير بالذكر أن هنـاك ١٠٪ زيادة فى التسجيل فى المدن عن الريف ، وهذا بلا شك راجع الى أن التنظيم فى المدن أفضل منه فى القرى (٨) ٠ ومنذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى عام ١٨٧٣ أصيبت البلاد بالكوليرا والتيفوس اللذين قضيا على اعـداد هائلة من السكان وخاصة المواليد (أوبئة ١٨٠١ ، ١٨١٣ ، ١٨٢٥ ، ١٨٢٧ ، ١٨٣٠ ، ١٨٣٥ ، ١٨٤٨ ، ١٨٥٠ ، ١٨٥٥ ، ١٨٦٥ ، ١٨٨٣) ٠ وقد تسبب وباء ١٨٣٥ فى وفاة ما يقرب من ٢٠٠ر٠٠٠ شـخص منهم بين ٤٠ الى ٨٠ ألف فى العاصمة وحدها ٠ وفى منتصف حكم محمد على ، يذكر كلوت بك « وباورنج » ٧٠ر٠٠٠ ضـحية فى الاسـكندرية خلال الأوبئة الشديدة ، وفى بعض الأحيان كانت الوفيات بين الأطفال حتى الشهر الثانى عشر تبلغ نصف عددهم (٩) ، ويتحدث روسى بك Rossi عن عام قياسى لقى فيه ١٣٩ر٠٠٠ طفل حتفهم من بين المواليـد البـالغ عددهم ١٨٨ر٠٠٠ (١٠) ٠ وقد كان من نتيجة المشروعات الكبرى التى قام بها محمد على زيادة عدد المصابين بالأمراض التى يسببها الفقـر : كالبلهارسيا والصفراء والانكلستوما وفقر الدم الناتج عن سوء التغذية والدوسنتاريا والتهـاب العيون والجـدرى الخ ٠ ، ويذكر أطبـاء تلك الفترة ـ وخصوصا كلوت بك و « ييتس » W. H. Yates و « لوتور » J. B. Lautour و « ساندوتش » F.H. Sandwich أن ٨٠٪ من الفـلاحين كانوا مصـابين بالأمراض ، وقد تسـبب شـق ترعة المحمـودية وحدها فى وفاة ٣١٣ر٠٠٠ شـخص خلال ١٨ شـهرا ٠ والجدير بالذكر أن مدرسـة الطب التى أنشئت بأبى زعبـل عام ١٨٢٧ قد خرجت ٤٠٠ طبيب غير مؤهلـين خـلال السـنوات العشر التى تلت انشاءها ، كما أن الأخذ بنظـام التطعيم ضـد الجدرى حوالى ١٨٦٤ قد انقص وفيات الأطفـال بمقـدار الثلث ، وفى عـام ١٨٦٤ أثبتت لجنة طبية وجود علاقة بين الكوليرا وموسم رياح الخماسين ٠ كذلك فقد أرسلت من أوربا بعثات وهيئات خيرية ، وأقيمت مدرسـة للصـيدلة ، وانشئت بعض العيادات فى االأقاليم ٠ ومع انصرام القرن الماضى ظهـر

---

(٨) على الجرتيلى : **السكان** ٠٠ ، ٤٣ ـ ٤٤ ، الجدول رقم ٧ ، ١٩٣ ٠ ومع ذلك فان محمد السيد عزمى يشير الى هبوط معدل زيادة السكان من ٢٨ر٥٪ بين ١٨٨٢ و ١٨٩٧ الى ١٦ر٣٣٪ عام ١٩١٧ فى « نمو سكان القطر المصرى وعلاقته ببعض النواحى الاقتصادية) ٠ **مصر المعاصرة** ، ٢٨ (١٩٣٧) ، العدد ١٦٨ ـ ١٦٩ ، ٢٧٣ ـ ٣٠٣ (٢٨٩) ٠

(٩) على الجريتلى : **السكان** ٠٠ ، ٣٥ ـ ٣٦ ٠

(١٠) **E. Rossi bey : Popul. et finances, 26.** ويسجل كذلك أن نسبة المواليد مصر هى ٣ر٥٧ لكل مائة نسمة فى ١٨٧٨ ، مقابل ٣ر٥٤ فى بريطانيا العظمى ، ٣ر٢١ فى بلجيكا ، ٢ر٦٦ فى فرنسا **(25, n. 1)**

نوع من التحسن فلم يسفر الوباء الشديد الأخير (١٩٠٤) عن أكثر من ٣٥٫٠٠٠ ضحية ، واذا بمعدل الوفيات ، الذى كان بين ٣٥ و ٤٠ في الألف في أواخر القرن التاسع عشر ، يهبط الى ما بين ٢٤و ٢٨ فى الألف ابتداء من عام ١٩٠٠ ، كذلك فان معدل الوفيات بين المواليد هبط من ٢٩٠ فى الألف عام ١٩٠٦ الى ٢١٢ فى الألف عام ١٩٢٣ ، ومع ذلك فان نسبة الوفيــات ارتفعت من ٢٤ فى الألف عــام ١٩٠٦ الى ٢٨ فى الألف عــام ١٩٢٠ (١٢) ٠ ومن المفيد اعطاء بعض الايضاحات والتفصيلات عن هــذه النسب المسرفة فى العمومية : تحدثنا عن الحصاد البشرى الذى نتج عن شق قناة السويس ، ويجب أن نشير هنا الى المذبحة الثانية والتى تتمثل فى تجنيد الفلاحين للعمل فى « فيلق العمل المصرى » Egyptian Labour Corps و«فيلق النقل بالجمال» Camel Transport Corps خلال حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ٠ ولدينا بعض المعلومات الضئيلة عن هاتين الهيئتين اللتين أرغم الفلاحون على العمــل فيها لصالح المجهــود الحربى البريطانى ، على الرغم من الوعد الرسمى الذى أعلنه القائد الأعلى للقوات البريطانية فى ٧ نوفمبر ١٩١٤ وجاء فيه أن مصر والمصريين لن يطالبوا بالمشاركة فى المجهود الحربى ضد تركيا ٠ وفى أغسطس عام ١٩١٥ تكون الفوج الأول من ٥٠٠ فلاح من صعيد مصر ، وبين خريف ١٩١٥ حتى ربيع ١٩١٦ رحل ٨ر٥٠٠ فلاح الى بلاد ما بين النهرين ، و ١٠ر٥٠٠ الى فرنسا ، وابتداء من مايو ١٩١٧ كانت القيادة البريطانية تستخدم ١٧ر٠٠٠ شــهريا ، ثم ٢٦ر٠٠٠ ابتداء من يونيــو ١٩١٨ ، وفى أواخر الحرب كان يوجد ١٣٥ر٠٠٠ فلاح يعملون فى ســوريا ٠ وجند فى « فيلق النقل بالجمال » Camel Transport Corps ١٧٠ر٠٠٠ رجل واستخدمت ٧٢ر٠٠٠ جمل ، والمعروف أن خسائر هذا الفوج وحده بلغت ٤ر٢٢٠ حالة وفاة و ١ر٤٠٠ جريح (١٣) ٠ وسرعان ما ارتفــع المعــدل

---

(١٢) على الجريتلى : **السكان** ، ٣٤ــ ٣٧ ، والجدول رقم ٤ ، ١٩٠ ،
Kamal el-Din Shawky : Studies in poverty and health during the nineteenth century in Britain and Egypt, th. Ph D., London, 1953, vol. ii.

ومن الغريب أن يتجاهل كرومر تجاهلا تاما المشــكلات المتعلقة بالصحة العامة فى حين أنه يستعرض جوانب عديدة من أعماله فى مصر
(Mod. Egypt. ii, part vi 397-554, et index.

(١٣) Lt.-Col. P.C. Elgood : Egypt and the army, Oxford U.P., London, 1924, 234-45, 316-22; Major E. W. Polson Newman : Great-Britain and Egypt, Cassel and Co. London, 1928, 211-4.

« ومما لا ريب فيه أنه لن تنشر أبدا الحقيقة فيما يتعلق بالعدد أو العدد الكلى لعدد الوفيات من الفلاحين المجندين ومن تعرضوا للمرض والعمل اجبارى ، غير أن هــذا العــدد مرتفع للغاية
"Our Interest in Egypt», The Times, 6 nov. 1919.

السنوى للوفيات من ٣٠٠٠٠٠ قبل ١٩١٤ الى ٥١٠٠٠٠ عام ١٩١٨ (١٤) .

ومن الممكن أن نأخذ بمعدلات النمو السكانى الآتية : ١٫٦٪ بين عامى ١٨٨٢ و ١٩٠٧ ، ١٫٣٪ بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ ، ٠٫٣٪ بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ (١٥) : لقد عصفت الحرب بالفلاح المصرى .

من هم هؤلاء الرجال والنساء الذين يشكلون سكان مصر؟ فى عام ١٩١٧ كان ٧٩٫٢٪ فهم يسكنون الريف (١٦) . واذا أردنا معرفة نسبة السكان من فلاحين وغيرهم ، الى الأرض المنزرعة ، نجد النتائج التالية : ٩٩٪ شخص لكل فدان عام ١٨٤٦ مقابل ٢٫٤٢ عام ١٩١٧ (١٧) . وكان العمران فى المدن ينمو على نحو منتظم : ففى عام ١٨٦٩ كان سكان القاهرة لا يتجاوزون ٣١٣٫٣٨٣ نسمة ، وسكان الاسكندرية ٢٣٨٫٨٨٨ نسمة (١٨) ، أما فى عام ١٩٠٧ فقد كانت هناك مدينتان يزيد سكان كل منهما عن ١٠٠٫٠٠٠ نسمة و ٤٣ يزيد سكان كل منها عن ١٠٫٠٠٠ نسمة فى مقابل ٣٫٥٨١ قرية (١٩) ، وفى عام ١٩١٤ كان ٢٫٣ مليون نسمة يسكنون المدن أى بنسبة ١٨٪ من مجموع السكان (٢٠) . وهناك نسب أخرى خاصة بتحديد الجنس ومتوسط العمر : بين عامى

(رسالة من D. A Cameron بتاريخ ٥ نوفمبر ١٩١٩) : وبخصوص العمل الاجبارى والظروف الصحية الرهيبة انظر
«The Egyptian Labour Corps», The Times, 13 nov. 1919.
(رسالة من E. M. Forster. بتاريخ ١١ نوفمبر ١٩١٩) .

(١٤) C. Issawi : Egypt at mid-century, 41.

(١٥) H. Riad : Eg. nassérienne. 134-5. وهو يؤكد التحليل العام الذى قدمه الدكتور حسين خلاف في : **تجديد الاقتصاد** ، الفصل الأول ، ١٣ ــ ٨٩ ، ويخالف هذا الاتجاه « شيفر » E. Sheffer ، الذى يقدم المؤشرات التالية لنمو السكان لسنوات ١٨٨٢ و ١٨٩٧ و ١٩٠٧ و ١٩١٧ : ١٫٦٪ ، ١٫٨٪ ، ١٫٦٪ ، (Population Growth 6). ولعل أفضل ما كتب من ناحية التفاصيل والدقة فيما يختص بعدد السكان فى مصر المعاصرة هو العمل الذى قدمه عبد المجيد مصطفى فراج :
Abdelmagid Moustafa Farrag : Demographic development in Egypt during the present century, th. Ph. D., London, 1957.

(١٦) **مجموعة البيانات الاحصائية الأساسية ، اقليم مصر** ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ٢٤ .

(١٧) Gilbert H. Thomas : Changing values in Egyptian agriculture from 1800 A.D. to the present time, th. M.A., London, 1939, app. F., 262 وقد أكد هذا الاتجاه Wendell Cleland : «Egypt's population p oblem», Eg. Cont. xxviii 1937), no. 167. 67-87 (67-9):

(١٨) E. de Régny : Statistique 1870, 12-3.

(١٩) The Census 1907 28.

(٢٠) H. Riad : Eg. nassérienne, 127:

١٨٩٧ و ١٩٠٧ ارتفعت نسبة الاناث من ٩٦٧ الى ٩٩٢ فى الألف ، ومتوسط العمر من ٢١٫٨ سنة الى ٢٣٫٢٥ سنة (٢١) · كما أن الغالبية العظمى من السكان مسلمون : ١٠٫٢٦٩٫٤٤٥ عام ١٩٠٧ و١١٫٦٢٣٫٧٤٥ عام ١٩١٧ ، أما الأقبـاط فقد ارتفع عددهم من ٥٠٠٫٠٠٠ عـــام ١٨٧٧ (٢٢) الى ٧٠٦٫٣٢٢ عام ١٩٠٧و٨٣٤٫٤٧٤ عام ١٩١٧ (من بين المجموع الكلى للمســـيحيين بما فيهم البروتســـتانت والكاثوليك المصريين وهو ١٫٠٢٦٫١١٥) ، أما اليهود فقد كان عـــددهم ٣٩٫٦٣٥ عـــام ١٩٠٧ و ٥٩٫٥٨١ عام ١٩١٧ ، وأخيرا فان احصاء عام ١٩٠٧ يشــير الى وجود ١٧٥٫٥٧٦ من ذوى الديانات الأخرى (٢٣) ·

وسوف ندرس مشكلة الأقليات الأجنبية فى القسم التالى من هذا الفصل · وسكان مصر بصفة عامة يجمعهم تلاحم شديد · ان المراقبين الأجانب المهتمين بمشكلة تمييز ما هو عربى فى مصر الحديثة يلاحظون ذلك : ان « لين » Lane ، رغم بعض الأخطاء فى التحليل التاريخى ، يرى أن هناك مصريين مسلمين ومصريين مسيحيين، و «فون كريمر» A. Von Kremer يرى أن « من الخطأ تسمية المصريين بالعرب » ، ويخلص « فان بيملن » Van Bemmelen الى النتيجة الآتية : « هناك اذن أمة مصرية على وعى بقوميتها وتتكون من غالبية مسلمة وأقلية ضعيفة مسيحية (٢٤) » · ذلك هو موقف الاحصاءات الرســمية وســنرى موقف الحركات الفكرية والأحزاب السياسية فى ذلك العصر ·

ان الاحصاءات الرسمية الحديثة الخاصة بمعدل سير العمران فى المدن تسمح بتحليل مختلف العناصر المكونة للسكان العاملين بالنسبة لمجموع السكان بين عامى ١٨٩٧ و ١٩١٧ على النحو التالى (٢٥) :

---

(٢١) The Census 1907, 91-2.

(٢٢) J.C. McCoan : Egypt as it is, 25.

(٢٣) The Census 1907, 93; The Census 1917, 548. ويقدر أحد المراقبين ، مرراى Murray ، عدد الأقباط فى العاصــمة وحدها بـ ٦٠٫٠٠٠ من بين مجموع ســكانها البالغين حوالى ٢٤٠٫٠٠٠ نسمة ، ويقول N.C. Burt الذى يروى ذلك أنه « لا يمكن تصديقه » :

The Far East or letters from Egypt, Palestine and other lands of the Orient, Cincinatti, 1868, 23.

(٢٤) Eg. et Eur., i : 26-7.

(٢٥) أ· سـعيد : **تخطيط القوى العـاملة** : الجمهورية العربية المتحدة ، رئاســة الجمهورية لجنة التخطيط الوطنى ، معهد التخطيط القومى ، استقصاء التخطيط القومى ، ٦٥ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ١١ ·

قطاع النشاط الاقتصادى	١٨٩٧	١٩٠٧	١٩١٦
الزراعة ، صيد الحيوانات ، صيد السمك (بالمليون)	٢ر٠٤	٢ر٤٤	٢ر٩٤
النسبة المئوية (٪)	٦٨	٥ر٧٠	٥ر٦٨
الصناعة :			
العدد	٣٥ر٠	٣٨ر٠	٤٩ر٠
النسبة المئوية (٪)	٥ر١١	١١	٥ر١١
التجارة ، النقل والمواصلات			
العدد	٢٤ر٠	٢٦ر٠	٤٣ر٠
النسبة المئوية (٪)	٨	٦ر٧	١٠
الخدمات وأوجه النشاط الحكومى			
العدد	٣٨ر٠	٣٨ر٠	٤٤ر٠
النسبة المئوية (٪)	٩ر٨	٩ر١٠	١٠
معدلات القوى العاملة	٠١ر٣	٤٦ر٣	٣٠ر٤
النسبة المئوية بالمقارنة مجموع السكان	٣١	٣١	٣٤
النسبة المئوية لنمو السكان الكلى	٦ر٢٨	٢ر١٦	١٣
النسبة المئوية لنمو القوى العاملة	١٥	٣ر٢٤	٦ر٢٢

بقيت مشكلة توطين البدو . والأرقام الخاصة بها ، كما قلنا ، تفتقر كثيرا الى الدقة ان «ماك كوان» J.C. Cc Coan يذكر ٣٠٠ر٠٠٠ عام ١٨٧٧ و «مارسيل» J.J. Marcel و «ورايم» Ryme يذكران ٧٠ر٠٠٠ فى نفس العام ، واحصاء ١٩٠٧ يقدر البدو ب ٣٨١ر٩٧ فى حين أن احصاء ١٩١٧ يقدرهم ب ٥١٣ر١ مع أنه يقدر من لا عمل لهم ب ٦٧٦ر٢٠٠٠ ، كذلك فان « باير » G. Baer الذى يذكر رقم « كرومر » ــ ٢٢٠ر٠٠٠ ــ لعام ١٨٩٢ ، يقدرهم ب ٨٠ أو ١٠٠ الف فى مطلع القرن و ب ٥٠ر٠٠٠ عام ١٩٢٧ (٢٦) . ان الاتجاه نحو التوطين واضح جدا ، بالرغم من أن تضارب الأرقام يبين أن الظاهرة لم تلق الدراسة المناسبة . وعلى العكس من ذلك ، فان الأساليب واضحة : قيام نظام حكم

(٢٦) J.C. McCoan : Egypt as it is, 23; J. J. Marcel, A. Ryme et autres : L'universers pittoresque : l'Egypte sous la domination de Mohamed-Aly, Firmin Didot, Paris, 1848, 1877, 103; Gabriel Baer : Population and society in the Arab East, Routledge and Kegan Paul, London, 1964, 127.

ثابت وقوى ، انشاء سجلات المساحة ، تطور وسائل النقل والمواصلات الآلية (٢٧) ، وبصفة أعم ، جهود الحركة الوطنية لتطوير الدولة ، والاقتصاد ، والحياة الاجتماعية والثقافة والتحديث فى مختلف هذه المجالات واقامة الدولة المستقلة الديمقراطية كغاية ورمز ووسيلة فى ذات الوقت للنهضة الوطنية ٠

(٢٧) G. Baer : Ibid., 128-33.

القسم الثاني : الجاليات الأجنبية

كل ما فعلناه حتى الآن هو أننا أشرنا الى وجود جاليات اجنبيه في مصر ٠ ان المكانة التي كانت تشغلها هذه الجاليات في حياة البلاد ، خلال فترة التغلغل الأجنبي ، وهي اطار بحثنا ، تستحق التوضيح ٠

وسنبدأ بالنمو العددى ، طبقا للبيانات الرسمية التي أصبحت أقرب الى الصواب بعد انشاء مكتب الاحصاء (١) :

١٨٣٦	٣ر٠٠٠
١٨٤١	٦ر١٥٠
١٨٤٦	٦٠ر٠٠٠
١٨٧١	٧٩ر٦٩٦
١٨٨١	٩٠ر٨٨٦
١٨٩٧	١١٢ر٥٦٨
١٩٠٧	٢١٦ر٥٧٦
١٩١٧	٢٦٠ر٢٩٤

لقد توافقت الاقامة المكثفة للأجانب مع الغاء الاحتكار ــ حيث تضاعف عددهم عشرين مرة عام ١٨٤٦ بالنسة لعام ١٨٣٦ ــ وزادوا أكثر من أربعة أضعاف بين ١٨٤٦ و ١٩١٧ ٠

والجانب الانساني وراء هذه الجاليات هو الذى أجمع عليه ، أو كاد ، المراقبون والمختصون في ذلك الوقت ٠ ففي عام ١٨٦٥ ، اعترف « ساكريه » A. Sacré و « اوتريبون L. Outrebon ــ وهما يريان أن حالة مصر في عهد اسماعيل تبعث على التهكم والسخرية ــ اعترافا بأن جزءا من الأجانب البالغ عددهم ٩٠ر٠٠٠ ، « بعد ارتكابهم بعض الأخطاء التي غالى الوطن الأم في تقديرها ، أرادو أن يبدءوا أعمالهم من جديد على أرض جديدة » ، أما أفضلهم « فقد جاءوا ليجربوا حظهم (٢) » ٠ وخلال سرده

---

(١) اعدت هذه الأرقام بالاستناد الى :

E. de Rémy : Satistique 1870, 10-11 : Statistique 1873, xii; Statistical returns 1886-1897 9; The Census 1917 576-7; L. Mboria : Popul. Eg., 107; S. Zulficar : Imper. brit. Eg. 327.

(٢) Amédée Sacré et Louis Outrebon : L'Egypte et Ismaîl pacha, J. Hetzel, Paris, 1865. 213 sqq.

لأحداث السنوات العشر التى تلت ذلك، فيقول مراقب يحتقر أهل البلاد الى أقصى درجة، ولكنه مع ذلك لايجامل الأوربيين: «كلهم تقريبا [٠٠٠] جاءوا اليها بغرض تكوين الثروة «بالعدل والظلم» per fasetpernefas ،

وخصوصا بالظلم [٠٠٠] وهم يعملون بالتجارة وبالبنوك وكل ما يمكن أن يندرج تحت عبارة : الأعمال ٠ أغلبهم قوم بلا ثقافة ، بلا مهنة ، بلا أخلاق ، مستعدون لكافة المهن ، باختصار فانهم حثـــالة أوروبا (٣) » « هذه الجماعة التى تتألف أساسا من مرتكبى الجنح ، والمزيفين ، وأصحاب السوابق ، والأوربيين الذين كونوا ثروات فى الهند ، والمغامرين بمختلف أنواعهم ، » كما يصفهم محمد صبرى ، هذا الخليط « من خير وأســـوأ خلق الله فى أوروبا والبحر المتوسط : من رجال البنوك والمرابين ، التجار واللصوص ، تجار العملات الانجليز النزهاء والمهربين الشرقيين ، والموظفين المهرة فى شركة ، المومســـات المتبرجـات فى ميـــدان القناصـــل بالاسكندرية ، والعلماء المخلصـين لمعابد ابيدوس والكـرنك ، القتلة ورجال الثقة لحوارى القاهرة » د٠ س٠ لاندز ـ هذا العالم كله تدفق على مصر ٠ وبين عامى ١٨٥٧ و ١٨٦١ دخل مصر كل عام أكثر من ٣٠ر٠٠٠ أجنبى ، وفي عام ١٨٦٢ بلغوا ٣٣ر٠٠٠ ، وفي عام ١٨٦٣ كان عدد الداخلين ٤٣ر٠٠٠ ، وفى عام ١٨٦٤ ارتفع الى ٥٦ر٥٠٠ ، ثم ٨٠ر٠٠٠ عام ١٨٦٥ ـ « ومنذ عام ١٨٦٥ اتخذت حركة الهجرة الأوربية شكل الغزو » (محمد صبرى) ـ ثم بلغ عددهم عام ١٨٦٦ بعد هبوط أسعار القطن ٥٠ر٠٠٠ وأصبحت الاسكندرية مركز « المجتمـع الأوربى » فى مصر ـ فقد بلـغ عددهم بين ٥٠ الى ٦٠ ألف عام ١٨٦٤ ، أى ثلث سكان المدينة ، مقابل ما بين ٥ الى ٦ آلاف فى القاهرة : « بلا أدنى اعتبار للعائلة أو الوسط ، بلا أدنى احترام للخلق أو الأخلاق ، بلا أدنى اهتمام لأمور مثل : من ؟ ومن أين ؟ لكن الاهتمام انحصر فقط فى الثمن : بكم ؟ وفى أى وسط محترم ، كان القليل منهم على استعداد للتحدث عن ماضيه ، وفى أوساط الاسكندرية لم يكن أحد منهم يتردد عن فعل ذلك ٠ واذا كانت العناصر الأكثر قبولا من بين المجتمع الأوربى فى مصر ذات طبيعة مشكوك فيها ، فان الغالبية العظمى من المهاجرين كانوا يمثلون حثالة البحر المتوسط ٠ كانت الموانى والقرى فى مالطـة وصـــقلية والمشرق ترسل فائضها البشرى من الفقراء والعاطلين والساخطين الى أرض الثراء الجديدة ٠ لقد اندفعوا الى الاسكندرية حيث راحوا يراقبون أعمال الأهالى ، ويقدمون الخدمات والمتع والمفاسد التى تترتب على الثراء الفاحش المفاجىء [٠٠٠] ٠ » والاسكندرية فى هذا تشارك موانىء الشرق المستعمر مصيرها ، وهو مصير أسوء كثيرا من ظهور الوحوش

(٣) Eugène Gellion-Danglar : Lettres sur l'Egypte contemporaine 1865-75 Sandoz and Fischbach Paris, 1876, 70-1.

المفترسة في أنتروبن Antwerpen وفى مرسيليا ونابولى ، على حد قول «لاندز» D. S. lands الذى ننقل عنه هذه الصورة الموجزة · ان هذه العصابة قد وجدت كبار مغامريها فى شخص رجال من أمثال «بيسون» Bisson ـ الذى حاول اثارة حرب بين مصر واثيوبيا عام ١٨٦٣ لكى يملأ حافظته ـ و « برافى » Bravay الذى ظهر بين عـامى ١٨٥٨ و ١٨٦٨ ، واتخـذه «ألفونس دوريه» نموذجا فى روايته « ثرى الهند » Nabab ، وغيرهم · لقد تم اقامة سبع عشرة قنصلية بالتدريج كان القائمون بادارتها فى الغالب من رجال الأعمال مثل ساباتييه Sabatir و «دى ليون» Deleon الذى كان قنصلا للولايات المتحدة ، وفى عام ١٨٤١ فقط عهدت بريطانيا العظمى الى دبلوماسى محترف ليمثلها فى القاهرة ، وانتظرت الولايات المتحدة حتى عام ١٨٤٩ لكى تقلدها ، وكانت أضعف الدول تلجأ الى رجال الأعمال الذين أدخلوا الى البلاد (٤) ·

الواقع أن الجاليات الأجنبية استفادت من مبدأ عدم التبعية الذى كان يشكل لائحة القوانين الخاصة بهم · ويتضمن هذا المبدأ أربع نقاط هامة : (أ) الحصانة المتعلقة بالحرية الفردية ، وهذه تستتبع حرمة المسكن وحرية الاقامة ، (ب) الحصانة القضائية التى بموجبها لا يجوز للمحاكم المصرية محاكمة الأجانب الذين كانوا لا يمثلون الا أمام محاكمهم القنصلية حتى عام ١٨٧٦ حيث أنشئت المحاكم المختلفة ، والتى لا يدخل فى اختصاصها الحالات الجنائية (جـ) الحصانة التشريعية عن طريق رجال القضاء الأجانب القائمين فى محكمة الاستئناف بالأسكندرية والذين كانوا يشرفون على القوانين التشريعية للحكومة المصرية ، (د) وأخيرا ، الحصانة الضريبية التى كانت تعفى الأجانب من دفع الضرائب المصرية ، الا اذا كان هناك اتفاق سابق مع الحكومات الأجنبية المعنية (٥) · لقد أدرك بعض الدبلوماسيين

---

(٤) الصورة العامة لهذا الوضع فى : M. Sabry : Ismail et ingérence, ch. vi, 207-55; Bankers and pashas, ch. iii, 69-101 :

ويؤكد « فان بميلن » Van Bemmelen هـذا الحكم : « يتعين القول أن الجاليـة الأوروبية فى مجموعها ـ ماعدا فى حالات اسـتثنائية ·· تتمثل فى مبشرين ورجال دين وعلماء وأشخاص دخلوا فى خدمة الحكومة بغرض واحد فقط هو الحصول على أجر ثابت مرتفع نسبيا ورؤية الشرق وقد كان الكثير منهم على درجة كبيرة من الجدارة ـ هذه الجالية بعيدة عن أن تثير الاحترام سواء من ناحية العادات والحياة العائلية أو من ناحية الثقافة العقلية أو على الأخص من زاوية النزاهـة المالية ·· والسـبب الحقيقى للحـالة المعنويـة المؤسفة التى سادت فى الجالية الأوروبية يتمثل فى أصل أغلبية المستوطنين : فالكثير منهم ينحدر حتى من حثالة أوروبا ومن أوباش الأمم · وان أكثر ما هو بغيض فى الجاليـات الأوروبية هو تواطؤها من أجل الثراء على حساب البلد والفلاحين ·· » (Eg. et Eur., i : 112-5),

(٥) G. K. O. Ghaleb : Cap. étrang. Eg., 15; S: Zulficar : Impér brif. Eg., 325.

الاوربيين الاخطار الناجمة عن هذا الوضع الذى ما برح يتفاقم ، فقد تدخل القنصل الفرنسى فى القاهرة «بوجاد» Poujade وأيد الاعتراضات التى أبداها اسماعيل ، كذلك فان السفير البريطانى فى القسطنطينية ، السير هنرى بولوير Bulwer تدخل بشكل حماسى ، فى عدة مناسبات، الى جانب المنطق والصواب (٦) ٠

والحقيقة أننا نستطيع أن نذكر بعض الاختلافات فى سلوك مختلف الجاليات الأجنبية ٠ وقبل ذلك يحسن أن نقوم بتحليل التكوين النوعى والاجتماعى لهذه الطوائف ٠ أول تمييز — أورده القاضى الهولندى فى المحاكم المختلطة « فان بيميلن » Van Bemmelen عام ١٨٨١ — يفرق بين الأجانب الشرقيين والغربيين ٠ الفئة الأولى تنقسم ، فى رأيه ، الى ثلاث مجموعات : الشرقيين المسلمين (الأتراك ، المغاربة ، البربر أو النوبيين، الايرانيين) ، المسيحيين (الشرقيين من آسيا الصغرى والسوريين ، الأرمن ، اليونانيين من اليونان وتركيا الأوربية) ، اليهود وخاصة يهود الاسكندرية ٠ أما الاجانب الغربيون فهم الذين ينتمون الى ١٤ دولة فى أوروبا وأمريكا وكانوا يعيشون فى مصر عام ١٨٧٩ (٧) ٠ وهؤلاء الأخيرون وحدهم هم مثار الاهتمام بالاضافة الى اليونانين الذين أدرجهم « فان بيميلين» فى الطائفة الأولى ٠ وتختلف التقديرات نظرا الى استقلال القناصل وعدم

---

(٦) وكتب القنصل العام الفرنسى « بوجار » فى ١٨ مارس ١٨٦٩ قائلا :

« يوجد ما يقرب من ٢٥٫٠٠٠ فرنسى فى مصر ، ومن ثم يجد الوكيل الفرنسى نفسه القاضى الأساسى لعدد كبير من السكان من البالغين الذين وفدوا الى مصر للثراء واضطر عدد كبير منهم الى تغيير اسمه لكى يخفى ماضيه الاجرامى ٠٠ وغالبا ما تكون مطامعهم ٠ ويجد المرء ، اذا ما التزم بحدود العدل والقانون ، احقاد وضغائن ، ويحدث أحيانا أن تخدمهم كما هو الحال الآن صحافة سرية دنيئة » ٠ وكتب « السير هنرى بولوير » Bulwer الى القنصل العام لبريطانيا العظمى فى القاهرة فى ٩ أغسطس ١٨٦٤ :

« لا نعتقد كما قلت لك من قبل ، أنه ثمة ميزة فى أضعاف الحكومة المصرية ٠ محكومة هذا البلد قد أصبحت ضعيفة للغاية فى مقاومة العملاء والمغامرين الأجانب الذين تمكنوا فى ظل النظام الرعديد الفاسد الذى ساد فى عهد سعيد باشا من تولى زمام القانون وحصلوا على مكافآت عن مفاسدهم ٠ وتتجه سياستنا بالأحرى الى أن تقيم فى مصر حكومة قوية وجريئة لكى تتمكن من مواجهة هذا الاغتصاب ٠٠ أين هى القوة التى يتعين أن تحافظ على النظام وتضمن لنا ألا يقع هذا البلد ، الذى يعد ضروريا للغاية لنا والذى يتعين أن يكون فى أيد صديقة لنا ويحكم بصورة منتظمة ، تحت حكم غير منتظم وارهابى لعصابة من العملاء الأجانب وتابعيهم ؟ ٠٠ » (وردت هذه الوثيقة فى M. Sabry : Ismail et ingérence, 209, 223)

(٧) P. Van Bemmelen : Eg. et Eur., i : ch. ii : 28-50.

وجود الرقابة من جانب الدولة ، وهذه هى الأرقام الخاصة باهم الجاليات الأجنبية (٨) :

		١٨٧٩	١٨٨٢	١٨٩٧	١٩١٧
يونانيون	٣٠و٠٠٠	٣٧ر٣٠١	٣٨ر٢٠٨	٦٢ر٩٧٣	٥٦ر٧٣١
ايطاليون	١٤ر٥٢٤	١٨ر٦٦٥	٢٤ر٤٦٧	٣٤ر٩٢٦	٥٠ر١٩٨
فرنسيون	١٤ر٣١٠	١٥ر٧١٦	١٤ر١٧٢	١٤ر٥٩١	٢١ر٢٧٠
انجليز	٣ر٧٩٥	٦ر١١٨	١٩ر٥٦٣	٢٠ر٦٥٣	٢٤ر٣٥٦
استراليون ومجريون	٢ر٤٨٠	٨ر٠٢٢	٧ر١١٥	٧ر٧٠٤	٢ر٧٨٩
ألمـان	٨٧٩	٩٤٨	١ر٢٨١	١ر٨٤٧	١٥٧

وقد ظلت نسبة الأجانب الى مجموع عدد السكان ضئيلة : ٢٪ عام عام ١٩٠٧ و ٧ر١٪ عام ١٩١٧ ٠ ولكن أهمتهم تأتى من درجة تركزهم الشديدة في المدن حيث كان ٩٠٪ منهم يقيمون فيها عام ١٩١٧ ، أى ٢٠٪ من سكان الاسكندرية وبورسعيد والاسماعيلية ، ١٤٪ من سكان السويس ٩٪ من سكان القاهرة (٩) ــ كذلك فان أهميتهم ترجع الى نوع النشاط الاقتصادى الذى كانوا يمارسونه فقد كان هذا النشاط مرتبطا في جوهره بالقطاع الحديث للاقتصاد المصرى الذى يتصل بطريق مباشر أو غير مباشر بالتغلغل الاقتصادى الأوربى ثم بالاستعمار ٠ والدراسات الحديثة التى قام بها كل من على الجريتلى وحسن رياض وسعيد ذو الفقار تعطى صورة عامة للوضع : أن تجارة الجملة ، الاستيراد والتصدير ، كانت كلها تقريبا تحت سيطرة الأجانب، خاصة الانجليز واليونانيين والايطاليين والألمان (ستة أو سبعة من المصريين فقط من بين مئات المستوردين عام ١٩٠٨) (١٠)، وتجارة نصف الجملة والقطاعى كانت أيضا فى أيدى الأجانب ومعظمهم من اليونانيين والمشرقيين واليهود (١١) ٠ وكانت الأعمال المالية والبنـوك

(٨) أعدت هذه الأرقام اعتمادا على :
P. Van Bemmelen : Ibid., i : 31-3 ; S. Zulficar : Impér, brif, Eg,. 328,
ويستفيد سعيد ذو الفقار فى رسالته من مراسلات كتشنر ــ جراى ، وأعمال
C. Issawi, J. Heyworth-Dunne, I. G. Lévi, E. Théry, et A. Métin:

(٩) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٣٢٧

(١٠) F. Legrand : Les fluctuations des prix et les crises de 1907 et 1908 en Egypte, th, sc. écon., Nancy, 1909, 68.

(١١) أنظر الوصف النموذجى للمشرقيين الـذى قدمه « كرومر » مسـتبقا روايات لورنس داريل » « ومن بين الأوروبيين الذين اكتسبوا ما يشبه الطابع الشرقى ٠٠ يوجد أفراد يتميزون بجرعة هامة من الرياء ٠ اولئك هم المشرقيون الذين يعتبرون المصريين فريسة لهم سواء أكانوا من الأمراء أو الفلاحين ٠٠ وتلك هى الطبقة التى جعلت الحضارة الأوروبية مثيرة للاشمئزاز الى حد ما بالنسبة للمصريين ٠ » (Mod. Egypt, ii : 245-50). =

المحلية فى جوهرها فى أيدى اليهود المتعاونين أو المشتركين فى البنوك الأوربية ، « المفترسون الجدد » ـ عائلات قطاوى ، منشه ، سوارس ، سرسق ، اده ، هرارى ، سلفاجو و أغيون و سينادينو و اسمالون ، وكانوا يعملون جنبا الى جنب مع اليونانيين والايطاليين والسوريين وبعد ذلك مع المصريين : صعب ، صيدناوى ، ظريفة ، نحاس ، جوهر ، شديد ، حكيم ، فينا ، جليمو نوبولو ، سكارا مانجا ، ستورمارا توسيجا أنطونيادس ، أناستاسى ، زيرفوراكى ، بيناشى وجاناكليس وبيراكوس و توما يدس و ألساندرينى و الخ (١٢) · أما أهل البحر المتوسط والمشرقيون فكانوا يمارسون المهن الصغيرة ، والنشاط التجارى ، والأشغال الحرفية ، الخ · أما الرعايا البريطانيون ـ وكان نصفهم قد أتى من قبرص ومالطة والمستعمرات الأخرى ـ فقد كانوا اما عسكريين أو موظفين واما

= ثم يقول عن اليونانيين هذه الكلمات « وفى الواقع » ، أينما تتوفر أقل امكانية للشراء بثمن رخيص والبيع بثمن مرتفع ستجد التاجر اليونانى الصغير » ، ويستشهد بحالة سراس التى تقع على بعد ٣٠ ميلا جنوب وادى حلفا ، فى ١٨٨٩ « لقد ادمن القرويون المصريون الشراب تحت تأثير اليونانيين ومن واقع أفعالهم » · نفس المؤلف **المرجع السابق** : ٢٥٠ ـ ٥٢

(١٢) على الجريتلى : **تطور النظام المصرفى** ، ٢١٢ ـ ٢١٩ ، الذى يعتمد على الأعمال التالية :

A. Politis : Histoire de l'hellenisme égyptien 1798-1927, Alcan, Paris, 1979, ثم **Contribution de l'hellénisme à l'Egypte moderne, Alcan, Paris 1930,** وكذلك كتاب **M. Forgeon : Les juifs de l'Egypte,** وكتاب **Balborisy : L'Italia** nella civilia egiziana

وقد استفاد عدد من المؤلفين من الوثائق العديدة التى وجدت فى تلك الفترة ، من بينهم

P. Van Bemmelen : Eg. et Europe, i; Cromer : Mod. Eg., ii; 245-59; etc.

وقد أعدت فيما بعد قوائم مؤقتة استنادا الى مصادر مختلفة ، ولا سيما قوانين التمصير والتأميم والحراسة فى :

أنور عبد الملك : **المجتمع المصرى والجيش** ، الطبعة الفرنسية ١٥٣ ـ ١٦٨ ، الطبعة العربية ١٦٣ ـ ١٧٧ **H. Riad : Eg. nassérienne** الذى يقدم عرضا تاريخيا جيدا العربية ١٦٣ ـ ١٧٧ ؛ **S. Zulficar : Impér. brit. Eg., 325-35,** · وفيما يتعلق بيهود مصر انظر الدراسة الايضاحية الحديثة التى قدمها « جاكوب لانداو » اعتمادا على استقصاءات ودراسات أجريت فى اسرائيل :

The Jews in nineteenth-century Egypt, some socio-economic aspects in P.M. Holit, ed, Political and social change mod. Egypt, 1961208:

« فى ١٨٩٧ ، فان ما يقرب من نصف اليهود فى مصر كانوا ·· الرعايا الأجانب ·· واستمر هذا الوضع حتى ١٩٢٧ ·· بما يشير الى بعض التحفظ من جانبهم بصدد اندماجهم التام فى مصر » ·

تجار قطن (١٣) • وفى عام١٨٩٧ ، كان قطـــاع الزراعة يضم ٦٤٪ من سكان البلاد الأصليين العاملين ، مقابل ٧ر٠٪ من الأجانب ، أما فى الصناعة والتجارة فقد كان يعمل بها ٥٪ من الأجانب العـــاملين مقابل ١٧٪ من المصريين ، وكان الأجانب يشـــكلون أكثر من ثلث العـــاملين فى المهن الحرة وحوالى ربع رجال الأمن والشرطـــة (١٤) • وكان كثير من الاتراك والمشرقيين والسوريين والأرمن يشغلون المناصب الرئيسية فى الادارة الحكومية المصرية فى ظل الاحتلال •

وقد حاول سعيد ذو الفقار مستندا الى حســابات ك • ملش وم• صالح أن يقدم تقديرا تقريبيا للحصة التى كانت تؤول الى الأجانب من الدخل القومى الزراعى • ففى ١٩١٩ كان هناك ٤٨٨ر١ مالك أجنبى يملك كل منهم أكثر من ٥٠ فدانا أى بمجموع ٥٨٣ر٤٦٣ فدانا ، فيكون متوسط ما يملكه الفرد ٤٠٠ فدان مقابل ١٥٠ فدانا متوسط ما يملكه الفرد من كبار الملاك المصريين ، « ان الأجانب الذين كانوا يمثلون ٥ر٤٪ من مجموع الملاك في مصر كانوا يحصلون على ثلث الدخل الصافي لهذه الفئة» ، وبحساب متوسط دخل كبار الملاك هؤلاء ودخل الـ ٥ر٩٢٠ صغار الملاك الأجانب ، نصل الى متوسط دخل سنوى ٣٢٠ جنيها مصريا للأجنبى مقابل سبعة جنيهات للمواطن المصرى ، أى ٤٥ ضعفا • كذلك الحال بالنسبة لحصة الأجانب من الدخل القومى غير الزراعى : فقد لاحظ حسن رياض أن الطبقات البورجوازية ـ ونصفها من الأجانب ـ كانت تمثل ٣٪ من السكان عام ١٩١٤ ، وكانت تحصل على ٢١٪ من انتاج النشاطات غير الزراعية ، أى ٥ر١٠ مليون جنيه مصرى ، فيكون متوسط دخل الأجنبى سنويا ١٦٠ جنيها مصريا ، ومتوسط دخل الـ١٥٠ر٠٠٠ أجنبى من صغار البورجوازيين والعمال ، يتراوح بين ٢٠ ، ٣٠ ج • م •• ويخلص سعيد ذو الفقار الى

(١٣) Cromer : Mod. Egypt, ii : 252-6; S. Zulficar : Impér. brif. Eg., 329-30.

وبلغ عدد قوات الاحتلال التى كان عددها ٥٧٢٦ رجلا فى ١٩٠٧ (نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ٣٢٩ ، م ٤) ـ فى ١٩١٦ فى جبهة السويس : ٢٤ كتيبة مشـــاة ، لواء من الفرسان ، فيلق من الجمـــال ، ١٢ بطارية لمدفعية الجبـــال ، فصيلة من « كتيبة الطيران الملكية » ، بعض قطع من المدفعية المصرية ، سرب من الطائرات المائية الفرنسية ، وكانت القاهرة والدلتا محمية بالفرقة الثانية والأربعين للانكشير ونصف دستة من كتائب الرديف تدعمها وحدات هامة من استراليا ونيوزيلندا • ويتحدث القائد العام التركى جمال باشا فى مذكراته عن ٣٥ر٠٠٠ رجل فى المقدمة على القنال و ١٥٠ر٠٠٠ من الاحتياطى فى داخل مصر (P. G. Elgood; Eg. and the army, 114-3).

(١٤) Edmond Théry : L'Egypte nouvelle au point de vue économique et financier, Economiste européen, Paris, 1907, 97.

هذه النتيجة : « طبقا لهذه الحسابات ، يكون مجموع الدخل القومى الذى كان يؤول الى الأقلية الأجنبية عـام ١٩١٤ من ١٧ الى ١٨ مليـون جنيه مصرى أى ٨٥ ج ٠ م ٠ للفرد ، فى حين كان متوسط الدخل القومى العام ٥ر٩ ج ٠ م ٠ للفرد ٠ وعلى ذلك فان الأقلية الأجنبية التى تمثل أقل من ٢٪ من مجموع السكان تحصل على أكثر من ١٥٪ من الدخل القومى الصافى، وبذلك يكون متوسط دخل الفرد منها تسعة أضعاف متوسط دخل الفرد من مجموع السكان (١٥) ٠ » والجدير بالذكر أن هذه التقديرات تتعلق بالأجانب المقيمين فى مصر وليس بالشركات الأجنبية العاملة ، ولا بالقروض المبرمة مع الخارج والتى سبق أن تحدثنا عنها ٠

واذا كانت الجاليات الأجنبية فى مجموعها تكونت بصفة عامة حتى اواخر القرن التاسع عشر من المغامرين والمضاربين الذين كان أجسرهم ينتزعون « الامتيـــــازات » والتنازلات من ســـــادة مصر ، ويتصرفون كالكومبرادورين Comfradores باسم بيوت الأعمال الأوربية ووراء واجهاتها ، فلا يفوتنا أن نشير الى تطور الحركة الاقتصادية لبعض الجماعات المختارة قبل انصرام القرن ٠ ونقصد بذلك بعض الرجال ذوى الخبرة فى الأعمال ، والكفاءة العلمية والادارية والتكنيكية اللازمة ، والذين يعملون فى سبيل تحديث الاقتصاد فى اطار الامتيازات وفى الاطار العام للسياسة الاقتصادية سلطات الاحتلال ٠ واذا كان صحيحا أن بعض التقدم فى مجال التنظيم الاقتصادى يرجع الى بعض مبادراتهم ، فان مجرد فكرة الاقتصاد القومى

---

(١٥) س٠ ذو الفقار : نفس المرجع ، ٣٣١ ـ ٣٣٥ حيث يلخص الدراسة المتخصصة الأجنبية والمصرية ٠ أما المؤلف المجهول فقال « الجاليات الأجنبية **Les colones Etrangères** فى مجلد شبه رسـمى صدر عام ١٩٢٦ ـ فانه يرسـم صورة مزيفة للوضع الذى كان سائدا : « ان جميع هذه الجاليات دون اســتثناء ، شرقية كانت أم غربية ، حازت شرفا واضطلعت بمهمة فى جميع الأوقات ، وذلك باعترافها بالضيافة التى نالتها والمشاركة فى تطور مصر الفكرى والاقتصادى والاسهام فى احراز التقدم الشامل بما تتميز به أجناسها المعنية من عبقريات وقدرات ٠ ولقد برز الأثر السعيد للنشاط الأجنبى فى مصر فى وسط الجاليات الأجنبية بصفة أساسية ٠٠ وتبدى تعاون كافة الجاليات فى المهن الحرة (المحاماة ، الطب ، الهندسة المدنية ، التعليم) وقد شغلت فيها مركزا مرموقا ، وكذلك فى المشروعات الكبرى والصغرى (البناء ، النقل ، الصناعة ، التجارة ، المال) وأبرز الشـخصيات فى هـذه الجاليات تكون الجزء الأكبر من قضاء المحاكم المختلطة ، الذين يشكلون سندا قويا للغايه لسمعة مصر ٠ ولا تقتصر هذه الجاليات على ممارسة نشاطها حيث توجد مصلحتها فحسب ، بل ان المدن الكبرى تفتخر بكثير من أعمال التضامن التى يرجع اليها الفضل فيها ٠٠ » وهكذا ٠

(L'Egypte, aperçu historique et géographique, gouvernement et institutions, vie écolomique et sociale, impr. Inst. Fr. Archéol. Orient. Le Caire, 1926. 379-82).

والصناعى والمستقل كانت غريبة عنهم • ان الدولة هى التى ستتولى تنفيذها ، ثم تكملها البرجوازية المحلية على مدار القرنين التاسع عشر والعشرين •

ان تصرف الجاليات الأوربية المختلفة تجاه المصريين من ناحية ، وتجاه بعضهم البعض من ناحية أخرى يستحق دراسة نفسية مفصلة • ففى المقام الأول ، هناك الكثير من الأدلة على احتقار الأجانب للشعب المصرى ، والغريب ان الاحتقار الذى كان يبديه المشرقيون وسكان حوض البحر المتوسط كان يفوق ما يصدر عن القادمين من دول أبعد (١٦) ، ان الشعب المصرى فى نظر هؤلاء الأجانب عاجز ، جبان ، كذاب ، فاسد ، جاهل • ويستخلص محمد صبرى من المحفوظات الفرنسية موقف المغامرين الذين كانوا يتفاخرون بكونهم فرنسيين ويستحوذون على المراكز ويهينون بكل الوسائل الممكنة السلطة المصرية، مما حدا باسماعيل «ابتداء من عام ١٨٧٠ الى [أن يحاول] أن يحل محل الفرنسيين فى ادارته المدنية والعسكرية، أمريكيون أو انجليز • » « لقد وقف العصر الذهبى للقناصل » عشرة لمدة ثمانى سنوات فى سبيل انشاء المحاكم المختلطة ، بايحاء من فرنسا (١٧)• وقد أتبع قناصل الدول الأخرى الأوربية والامريكية نفس الأسلوب لكى يتستروا على مواطنيهم (١٨) •

ومع الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، بعد ثمانى سنوات ، حد انشاء المحاكم المختلطة من الفوضى المالية والادارية ، فلم يحاول الرعايا البريطانيون احتكار النشاط الاقتصادى مع استحواذهم فيه على مكانة

---

(١٦) P. Van Bemmelen : Eg. et Eur., i : 111-2.

(١٧) M. Sabry : *Ismail et ingérence*, ch. VI, 207-255.

ولا سيما رسالة الكونت « برنييه دى مونتموران » ، بتاريخ ٨ يونيو ١٨٧٠ : « يزعم سموه (اسماعيل) انه تم السعى الى اذلاله بلا موقف ، وكذلك الأمر مع رئيس الحكومة والوزراء والمديرين والموظفين • ويضيف الوالى أنه فى جميع الأحوال التى أراد أن يكون فيها نافعا للفرنسيين ويمنحهم امتيازات أو وظائف ، فانه صادف مضايقات وتهجمات وعلاقات غير ودية من قبل وكلاء فرنسا • وفى خاتمة الأمر فان سموه يشكو من الطرق التى تستخدمها قنصلياتنا تجاه موظفيه وما توليه من اهمية عظمى لاتفه الأمور •• » ، وتصريحات اسماعيل الى م • كنجستون المحرر بصحيفة « **الديلى تلغراف** » ، بتاريخ ١٦ فبراير ١٨٧٦ : « وكما تعلمون فان الأمر استلزم منى ثمانى سنوات على الأقل ، كنت فيها دائما ملحا ومستعجلا ولم أترك وسيلة فى السماوات وعلى الأرض الا ولجأت اليها ، كى أحصل على محاكم مثل التى حصلت عليها فى خاتمة المطاف • ولقد صادفت جميع ضروب المعارضة ووضعت جميع العقبات بصورة دائمة فى وجه المساعى التى بذلتها •• » •

(١٨) Van Bemelen : Eg. et Eur., I : ch. IV et V 89-150.

ويقدم هذا القاضى المختلط القديم قائمة اتهام مفصلة وقاسية ، معتمدة على محفوظات المحاكم ومحفوظات دبلوماسية ووثائق سرية عن تلك الحقبة •

مرموقة ، لأن الاشراف الادارى والعسكرى كان مجالهم المفضل (١٩) ٠ وقد ترتب على ذلك نوع من الفتور من جانب الأقليات الأجنبية ــ المشرقية والأوربية ــ حيال السياسة البريطانية ، وهو ما أشار اليه « كرومر » بمرارة (٢٠) ٠ وقد ركز « ملنر » Milner فيما بعد على تعويق السياسة الفرنسية الناتج بصفة خاصة عن نشاط المواطنين الفرنسيين المقيمين فى مصر (٢١) ٠ ان بريطانيا العظمى التى كانت تريد أن تتصرف باسم أوروبا المسيحية والمتحضرة ، لم تلق فهما لموقفها ولا مساندة ٠ ولا شك أن أسلوب عمل الكمبرادوريين وعقليتهم لم يتفق بدرجة كبيرة مع ارادة النظام التى تميز الادارة البريطانية التى كانت حريصة على أن تعيد لمصر أقصى ما يمكن، وبالتالى كانت عدوة للفوضى التى تسم تصرفات المتطرفين ٠ ويكفى للتأكد من ذلك الاطلاع على سجل الأحقاد المتبادلة بين هذه الجاليات الأجنبية المختلفة والذى عرضه « فان بيميلين » عام ١٨٨١ (٢٢) ٠ فمن أجل ادماج مصر في السوق الاقتصادية العالمية ، يجب البدء طبعا باكراهها، ومنعها من ممارسة حرية التصرف ــ وسيكون هذا هو دور الاحتلال العسكرى ــ ، ولكن لابد ، وتفاديا للافلاس ، من اعادة الحالة الطبيعية الى نشاط الأجهزة الادارية والقضائية والاقتصادية والمالية أى باختصار ، لابد من استئناف عمل الولاة العظام ــ مع صبغه بالتشويه الامبريالى الذى أشرنا اليه ــ وتهيئة الظروف لتحديث المجتمع ــ ذلك المجتمع المصرى المتماسك المنتج فى ذات الوقت ٠

---

(١٩) S. Zulficar : Impér. brit. Eg. 329-30.

(٢٠) Cromer : Mod. Egypt, ii : 255-7.

(٢١) Viscount Milner : England in Egypt, Edward Arnold, 1892; 13 ed., 1926, London ch. xiii. 334-48.

(٢٢) P. Van Bemmelen Eg. et Eur., i : ch. ii, 28-50.

القسم الثالث : الطبقات الاجتماعية فى الريف

تحدثنا فيما سبق وبصورة مختصرة عن التطور القانونى لقيام الملكية الخاصة للأرض ، عن طريق الحاكم ، كما أشرنا الى العوامل الاجتماعية التى لا تلقى دائما الاهتمام الكافى (١) • ويحسن الآن أن تقوم بتحليل تطور التركيبات الاجتماعية فى الريف خلال الفترة التى ندرسها • ان مصـــادر الدراسة وفيرة للغاية ، ومتباينة فى قيمتها ، على الأقل حتى نهاية القرن ـ حتى عام ١٨٩٦ ، بصورة أدق (٢) • وبامكاننا أن نعرض لهذه التركيبات صورة دقيقة نسبيا •

ان أول مجموعة اجتماعية ريفية يمكن أن تشكل طبقة هى فئة كبار الملاك العقاريين • وسنبدأ بالفترة من ٢٣ مارس ١٨٤٠ حتى ٢٤ ديسمبر ١٨٦٦ حيث كان نظام العهدة سائدا ، وهو يشمل الأراضى المعفاة من

---

(١) يقول عالم المصريات سامى جبره : « بينما كان حق الملكية فى أوروبا انتصارا شعبيا تحقق بصورة بطيئة وعلى نحو تدريجى ، فان هذا الحق فى مصر جاء منحة من الحاكم أثر احتياجاته المالية »

Sami Gabra : Esquisse de l'histoire économique et politique de la propriété foncière en Egypte, Impr. Nouvelle F. Pech and C. Bordeaux, 1919, 101.

ومنذ ذلك الحين قام الاشتراكيون المصريون فى أعقاب ما كتبه ابراهيم عامر بتعميق التحليل وتوسيع نطاقه بحيث تجاوز نطاق الزراعة لكى يستوعب مجموع الحياة الاجتماعية والسياسية المصرية • انظر مجموعات مجلتى **الطليعة والكاتب** ، ولا سيما منذ ١٩٦٥ ثم أنـور عبـــد الملك : **المجتمع المصرى والجيش** ، الطبعـــة الفرنســـية ٥٥ ـ ٩٢ ٣٣٥ ـ ٣٦٧ ، الطبعة العربية ٧٧ ـ ١٠٩ ثم ٣٣٧ ـ ٣٦١ ، وكذلك

A. Abdel-Malek : «La réforme agraire en Egypte (R.A.U.) : problèmes lt perspectives», Développment et Civilisations, no. 22, juin 1965, 19-27; Sociology and economic history : an essay on mediation, Conference on the Economic History of the Middle East Univ of London (4-6 juillet 1967). 16 pages. polyc; **La révolution nationale égyptienne et le problème de la terre (1952-1967), rapport au Colloque «Futuribles» sur Structures agraires, systèmes politiques et politiques agraires. Venise (15-18 octobre 1967),**

بالاضافة الى المناقشات الكثيفة والمستمرة فى الصـــحافة المصرية ، والدراسات الجديدة منذ ١٩٦٩ •

(٢) G. Baer : Landownership, 71.

ويقدم هذا الكتاب عرضا ممتازا لعلاقات الملكية من الناحية القانونية •

الضرائب والتى أعطيت لبعضهم حسب نظام المستفيد (المنتفم) ، وأصبحت بالتدريج ملكية بالفعل ، وقد سرى هذا النظام على أسرة محمد على وكبار رجال الدولة : فمن بين مجموع هذه الأراضى الذى قدره «بارنيت» Barnett بـ ٢٠٠٫٠٠٠ر١ فدان ، كان ٣٠٫٠٠٠ فدان فى حوزة أسرة الوالى ٠ أما الباقى فقد شكل فيما بعد نواة الملكيات الكبيرة : فسالم السلحدار باشا حصل على قريتى البليانه وفظاره ، وأسرة الشواربى امتلكت ٤٫٠٠٠ فدان (من ٧٫٠٠٠) فى قليوب فى أواخر القرن ، ونال السيد أباظة باشا حوالى عشرين قرية فى الشرقية وعندما توفى فى ١٨٧٦ كان لا يزال فى حوزته منها ٦٫٠٠٠ فدان ، وكانت سمنود نصيب بدراوى باشا أى حوالى ١٫١٤٠٠ فدان ٠ ولم يكن الانتقال الى الملكية الخاصة موضوع أى دراسة دقيقة ، ويبدو أن خلفاء محمد على قد أقروا هذه الحالة مقابل دفع الضرائب الواجبة على الفلاحين الذين كانوا يعملون فى هذه الأراضى (٣) ٠ وهناك مجموعة أخرى من الملاك أعطيت الأراضى البور على شكل أبعدية (٤)، التى كانت مساحتها تتراوح بين ٧٥٠٫٠٠٠ ومليون فدان فى أواخر حكم محمد على ، وبشكل خاص فى مديريتى الغربية والبحيرة : وكان محمد شريف باشا والدرمللى باشا وكلاهما قد أصبح مديرا أو وزيرا ، المنتفعين الرئيسيين من هذه الأراضى (٥) ٠ أما ج٠ باير فيشير الى أن أراضى الجفالك (٦) ـ وهى الأراضى « المعطاة » من الحاكم ـ والتى تتكون أساسا من القرى المهجورة بسبب ارتفاع الضريبة فانتقلت بذلك الى الأسرة المالكة ـ يشير الى أن هذه الأراضى هى التى كانت تشكل جوهر الملكية العقارية الكبيرة ، فمن بين المليون فدان التى كانت تشكل ملكية الأسرة الخديوية عام ١٨٧٨ ، كانت أراضى الجفالك تحتل المكانة الأولى ، وكان اسماعيل هو الذى يوزع أكبر قدر من الهبات بين عامى ١٨٦٧ و ١٨٧٦ (٧) ٠ وكان

---

(٣) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ١٣ ـ ١٦ ٠

(٤) « جرى فى عام ١٢٢٨ (١٨١٣) مسح عام للأراضى وتقسيم لها ، وجميع الأراضى التى كانت مزروعة أو يمكن زراعتها تم تسجيلها باسم القرى الواقعة فى نطاقها وفرضت عليها الضرائب بما يتفق وجودتها ٠ واستبعدت من المسح الأراضى غير المزروعة واعتبرت أبعدية (أراضى مستبعدة) »
(La législation en matière immobilière en Egypte, Le Caire, 1901. 10)

(٥) على مبارك باشا : **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة** ، ٢٠ جزءا فى ٥ مجلدات ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٨٨٩ ، جـ ٩ : ٧٩ ، جـ ١٠ : ٣٢ ، جـ ١٢ : ٦٢ ، ١٤٥ ، جـ ١٣ : ٣٤ ، جـ ١٤ : ٥٣ ، جـ ١٥ : ٣٤ ، جـ١٦ : ٦٩ ، جـ ١٩ : ٥٥ ، ٨٨ ، الخ ٠

(٦) انظر تعريفها بالرجوع الى الفارسية والتركية فى
Baer : Landownership, 17-8.

(٧) Yacoub Artn : La propriété foncière en Egypte, Institut Egyptien, Le Caire, 1883, 296-9; G. Baer : Lan-downership, 17-9, 44.

سعيد قد أصدر فى ٣٠ سبتمبر و١١ أكتوبر ١٨٥٤ قرارين يجمع سائر الأراضى فى فئتين : عشورية (وهى تضم الأنواع الثلاثة التى سبق ذكرها بالاضافة الى أراضى الأوسية ، وهى أقل شأنا) ، وخراجيه ، أى الأراضى التى تظل خارج اطار ألوان الاستغلال العقارى الكبير ، والواقع أن يعقوب أرتين و «كرومر» ضما الأراضى العشورية الى الملكية الكبيرة ، وقد زادت من ٦٣٦ر١٧٧ فدانا عام ١٨٦٣ الى ٠٨٧ر٤٢٣ر١ فدانا عام ١٨٩١ ، أى بزيادة تتراوح بين ٥ر١٤٪ و ٨ر٢٨٪ من الأراضى المنزرعة فى حين كانت الأراضى الخراجية تتراوح بين ١٢٥ر٧٥٩ر٣ و ٥٢٩ر٥٤٣ر٣ فدانا ـ أى بهبوط يتراوح بين ٥ر٨٥ و ٢ر٧١٪ ـ خلال نفس الفترة «٨» ٠

ويشير أول احصاء عن الملكية العقارية فى عام ١٨٩٤ الى أن ٩٠٠ر١١ من كبار الملاك (أكثر من خمسين فدانا) كانوا يملكون ٥٠٠ر٢٤٣ر٢ فدان أى ٤٤٪ من مجموع الأراضى (٩) ٠ وتزيد المليون فدان التى كانت فى حوزة الأسرة الخديوية عام ١٨٧٨ زيادة واضحة عن ال ٠٠٠ر٦٦٤ التى كانت تملكها عام ١٨٤٤ ، فقد استولى اسماعيل على أراض جديدة ، وقسمها الى أراضى الدايرة السنية ٦٩٩ر٥٠٣ فدانا عام ١٨٨٠) وأراضى دومين الدولة (٧٢٩ر٤٢٥ فدانا عام ١٨٧٨) ٠ والمعروف أن اسماعيل تنازل عن أراضى الدومين عام ١٨٧٨ لتغطية دين روتشيلد ، غير أن الخديو احتاط للأمر وقام بتوزيع جزء كبير من هذه الأراضى على اقربائه قبل التنازل ، وقد وضعت فيما بعد تدابير جديدة تسمح لهذه المجموعة بشراء أراضى الدولة ٠ ومن ثم ، « اذا كان دور الحاكم المصرى المزدوج كمالك لأراضى الدولة وأراضيه الخاصة قد ولى فى أواخر حكم اسماعيل [٠٠٠] ، فان الحاكم من هذه الأسرة (خديوى أو سلطان أو ملك) ظل على الدوام تقريبا أكبر مالك عقارى لكنه لم يعد يتصرف من الناحية النظرية ـ والى حد كبير من الناحية العملية ـ فى مساحة كبيرة من أراضى الدولة لكى يزيد من ممتلكاته الخاصة [٠٠٠] ٠ كذلك ، فان الأسرة المالكة بصفتها كل ومجموع ، وبفضل أوقافها ، وثرائها العريض الذى يسمح لها بشراء المزيد من الأراضى ، ظلت تحتل مكانتها العليا بين ملاك الأراضى فى مصر فى القرن التاسع عشر » ٠ وكان كبار الملاك هؤلاء بطبيعة الحال من كبار رجال الدولة ، والضباط ، وأعيان القرى ، وبعض زعماء البدو ، والعلماء (الدينيين) والأقباط ٠ وبالنسبة لكبار رجال الدولة ، فقد تم توزيع

---

(٨) 8, Y. Artin : Ibid., 178, 336 ; Cromer : Mod. Egypt, ii : 115;
وبالنسبة لأراضى الأوسية انظر ابراهيم عامر : **الأرض** ، ٧٨ ٠

(٩) ابراهيم عامر : **المرجع السابق** ، ٨٩ ـ ٩١ ، ويشير « جابريل باير » الى ان النسبة هى ٥ر٤٢٪ (Landownership, 22).

٣٠٠٠ر٣ فدان فى عهد عباس على كل من ابراهيم أدهم باشا وصالح باشا وخورشيد باشا وحمزة باشا ، وفى عهد اسماعيل وزع ١٠٠٠ر١ على كل من رئيس أول مجلس الشورى ، وحاكم القاهرة ، والسكرتير الخاص للخديو ، ومدير الأراضى فى الدلتا ، وبعض الوزراء ، واحد حكام السودان ، وقد نال بعض الموظفين المتوسطين (١٠) مساحات تتراوح بين ٤٠٠ر٥٠ فدان ، وقد كون اسماعيل صديق باشا ثروة ضخمة ، ومن الأعيان ، الذوات ، محمد شريف باشا الكبير ، وما هو بك ، ومصطفى بهجت باشا ، وثاقب باشا ، وحسن المانسترلى باشا ، وأحمد المنكلى باشا ، والهامى باشا ، وابراهيم النبراوى ، وحامد أبو ستيت ، وحتى رفاعة رافع الطهطاوى (٧٠٠ فدان كمنح ، بالاضافة الى ٩٠٠ عن طريق الزوجة) ٠ ومن بين كبار الضباط وغالبيتهم من أصل تركى ، نذكر ابراهيم الفريق باشا ، وعثمان باشا ، وراتب باشا ، ويذكر أحمد عرابى فى مذكراته العطايا التى منحها اسماعيل لكبار الضباط عند ارتفاعه العرش (١١) ٠ ومن بين أعيان القرى ـ العمد أو شيوخ البلد ـ تحول عدد صغير الى طبقة كبار الملاك باستيلائهم على أراضى الفلاحين ، ومن كان يملك منهم بين ٨٠٠ و ٥٠٠ر٢ فدان نذكر على محمود ، أحمد الشريف ، حبيب سالم ، أحمد سعادة ، عبد العال الدروى ، محمود منسى، الشندويلى، محمد بن سهلى ، الشيخ بدراوى عاشور ، حسن شعراوى ٠ ومنح قليل من زعماء البدو الأراضى بغرض تقليصهم : حسن أغا أباظة زعيم البيت الذى يحمل نفس الاسم فى الشرقية ، محمد الشواربى فى القليوبية ، الشيخ حسين عبد الله بياض شمال الفيوم ، عائلة الجبالى فى الفيوم ، قبيلة الفوائد التى خلفتها قبيلة الملوم فى شمال صعيد مصر ٠ كما نجد من بين علماء الدين ، الملتزمين سابقا ، قلة من كبار الملاك : على القوصى ، شيخ الأزهر ، الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، سلالة الشيخ محمد السادات ، الشيخ

---

(١٠) أنظر جابريل باير : **المرجع السابق** ، ٣٩ ـ ٤٥ الذى يستند الى أعمال
Y. Artin, N. x. Senior, D. Mackenzie xallace J:C. McCoan, Cromer, P. Gelat, A. Chélu, Hekekyan papers,, X

وعلى مبارك وكذلك **الأهرام والمصرى** ٠ وكان صديق باشا يملك عند وفاته ٠٠٠ر٣٠ فدان وأربع قصور وأكثر من مليون جنيه من المجوهرات والأسهم والسندات (راشد البراوى وحمزة عليش : **التطور الاقتصادى** ، ٩٩ ـ ١٠٠ هامش (٣) ٠ ويتحدث عبد الرحمن الرافعى عن امتلاكه ثروة خرافية (**عصر اسماعيل** ، جـ ٢ : ٣٢ ـ ٣٣)

(١١) G. Baer : Landownership, 56-60; وكذلك مقالته "Some aspects of Beduin sedentarization in 19th. century Egypt», Die Welt des Islams, v (1957), no. 1-2, 84-98.

محمد العباسى المالطى الحفنى (١٢) · ويذكر بعض كتاب القرن التاسع عشر ظهور بعض الأغنياء الاقباط باسيليوس بك ، بطرس أغا ، جرجس سطفانوس ، وقد ناب عنهم فى مطلع هذا القرن بشرى حنا ، لطف الله ، بطرس غالى باشا ، عائلات الخياط ودوس وويصا وبشارة اندراوس وكامل بولس وصالح ـ وأغلبهم من صعيد مصر (١٣) ·

والغريب فى دينامية هذه الطبقة من كبار العقاريين ـ أو بالأصح الارستقراطية العقارية حتى أواخر القرن التاسع عشر أنها غيرت طريقة تكوين أفرادها · فمنذ عام ١٨٤٠ حتى عهد اسماعيل ، كانت أرض مصر فى أيدى أسرة الوالى وكبار رجال الدولة ومن دار فى فلكهم من المخططين بالاضافة الى علماء الدين وأعيان الريف · غير أن نشأة قطاع رأسمالى فى ظل نفوذ التغلغل الأوربى ثم الاحتلال البريطانى ، وتحول مصر الى مزرعة هائلة للقطن بشكل أساسى ، واندماج مصر السريع فى السوق الاقتصادية العالمية ـ كل هذه العوامل غيرت توازن القوى بين المالكين · واذا باغنياء المدن يتوجهون نحو الأرض ، المصدر الأساسى للثروة ، فمن التجار الأثرياء عائلات مصطفى الهجين وحسن الطرزى ومحمد سلطان ، وعدد كبير من الأسر القبطية من صعيد مصر، ومنها على مبارك (١٤)ـ كذلك شركات الرهن العقارى والشركات الزراعية التى بدأت نشاطها عام ١٨٨٨ (كوم الأخضر ، شركة أبى قير ، الشركة المساهمة للرى فى البحيرة ، شركة البحيرة المساهمة ، الشركة العقارية المصرية ، شركة مصر المساهمه الزراعيه والصناعية ، شركة الدائرة السنية ، الشركة المصرية الجديدة ، شركة مصر للأراضى والرهونات ، صندوق الرهن المصرى ، بنك مصر للأراضى ، بنك مصر الزراعى ، البنك العقارى المصرى ، وشركات أخرى أقل أهمية (١٥)، وأخيرا ، الرأسماليون الأجانب الذين كانوا يملكون ٦٢٧ر٥٨٦ فدان عام

(١٢) G. Baer : Landownership, 60-3.

(١٣) G. Baer : Ibid 63-4, 96, 137.

(١٤) على مبارك : **الخطط** ، جـ٣ : ٥٤ ـ ٥٥ ، جـ٧ : ٦٣ ، جـ ٩ : ٣ ، ٩٨ ـ ١٠٠ ، جـ ١١ : ٨٢ ، جـ ١٢ : ٤٠ ، جـ١٣ · ٢٧ ، جـ ١٤ : ٧٧ ، جـ ١٥ : ٤٦ ، ٧٠ ، ٩٦ ، جـ ١٦ ، ٥٥ ، الخ ·

وأيضا G. Baer : Landownership, 23-5. وبالنسبة للأقباط يجدر الرجوع الى الملاحظة السابقة · وقد قام « جابريل باير » بدراسة نقدية للاسهام التاريخى الذى قدمه على مبارك :

Gabriel Baer : Ali Mubârak's «Khitat» as a source for the history of modern Egypt. in P.M. Holt ed : Polit, and soc. change mcd :

ثم « جاك بيرك » ـ بالاستناد أساسا الى عمل على مبارك الكبير ـ فى كتابه

Egypte, impérialisme et révolution, gallimard, Paris, 1966.

(١٥) ابراهيم عامر : **الأرض** ، ٩٦ ـ ١٠٥ ،

G. Baer : Landownership, 64-70, 99-106.

١٩١٩ ، و ٦ر٢٥٪ من الملكيات التى تتجاوز ٥٠ فدانا (١٦) · ولقد جاء المثل من أعلى ، فقد كان اسماعيل نفسه ، كما ذكرنا مرارا أهم من عمل على تحديث الزراعة وأكبر مالك عقارى (١٧) · ومن الآن فصاعدا أصبح أغنياء المدن هم الذين يملكون الضياع الكبيرة · انهم بتحولهم نحو التصدير وفيما بعد نحو الصناعة ، أصبحوا يشكلون طبقة كبار الملاك العقاريين ، وهى الطبقة التى اقترحنا أن نطلق عليها « القطاع الزراعى للبرجوازية المصرية الكبيرة » الوليدة (١٨) بدلا من تسمية حسن رياض المفضلة طبقة « ما قبل الرأسمالية » (١٩) ·ويوضح « ج· باير » الفرق بين الاقتصاد الزراعى ومثيله فى بلاد الهلال الخصيب الأخرى وتركيا الاقطاعية : ان ادخال محمد على نظام مسح الأراضى مهد الطريق أمام الملكية الخاصة (٢٠)، ثم يضيف الى ذلك عوامل شكلية ـ اختلافات التشريع بالنسبة للأرض ، زراعة القطن ، ارتفاع ثمن الأرض ، اغراء أكبر للرأسماليين الأجانب ، الاحتلال البريطانى (٢١) ـ دون أن يوضح العمل الهائل فى سبيل البناء والتحديث الاقتصادى والذى باشرته الدولة بصفة أساسية، بغرض تقليد الغرب أولا ، ثم مقاومته ؛ وسوف يكون لنا عودة الى هذا الموضوع مرارا وتكرارا ·

---

(١٦) انظر القسم الثانى من هذا الفصل ، وأيضا « ج ، باير » : **المرجع السابق** ـ ١١٧ ·

(١٧) وتعترف بذلك أكثر الشهادات سوء نية : « لم يتعلم اسماعيل أبدا كيف يحكم ·· وقد اصبح من أكبر الملاك الأثرياء فى مصر ، وربما أمكن القول أنه أغنى الأغنياء · وقد وهب على نحو طبيعى الادراك السليم العملى والعقلية الاقتصادية وهو ما يكون الثروة لدى رئيس الاستغلال الريفى ، وقد عرف كيف يدير بمهارة فائقة ممتلكاته ويستخدم بورع بالغ دخله لكى يحصل على أملاك جديدة مما ضاعف ثروته أضعافا ·· وقد استشهد به باعتباره المزارع النموذجى » ، (A. Sacré et L. Outrebon : L'Eg. et Ismail, 11).

(١٨) أنظر دراستنا : **المجتمع المصرى والجيش** ، ١٧ ـ ٩١ ، الطبعة الفرنسية ، الطبعة العربية ، ٣٧ ـ ١٠٩ التى تعتبر امتدادا لأعمال ابراهيم عامر ، شهدى عطية الشافعى ، فوزى جرجس ، بوجه خاص ·

(١٩) وهو يقدم المبررات التالية : عدم وجود « الاستخدام الكثيف للأيدى العاملة الأجيرة » ، « نمو استعمال رأس المال كان ضعيفا للغاية » ، و « الاقتصادى الريفى للاقطاعات ثم الضياع شبه مغلق » ومع ذلك فهو يقر بحق أن » وصف هذا النظام قبل الرأسمالى بأنه نظام اقطاعى يبدو مع ذلك محفوف بالمخاطر اذا ما أردنا الاحتفاظ بالمعنى الدقيق لمفهوم الاقطاع » (H. Riad : Eg. nassérienne, 29).

(٢٠) G. Baer : Population and society in the Arab East, 139-40.

(٢١) G. Baer : Landownership. 70.

ولتقدير مكانة الطبقات الاجتماعية الأخرى في الريف يحسن تصنيف الملاك على النحو التالى (٢٢) :

العـام	كبار المــلاك (أكثر من ٥٠ فدانا)			
	العدد	٪	المساحة	٪
١٨٩٤	١١٫٩٠٠	١٫٣	٢٫٢٤٣٫٥٠٠	٤٤
١٩١٤	١٢٫٤٨٠	٠٫٨	٢٫٣٩٦٫٩٤٠	٤٣٫٩
	متوسطو الملاك (٥ ــ ٥٠ فدانا)			
١٨٩٤	١٤١٫٠٧٠	١٥٫٤	١٫٧٥٦٫١٠٠	٣٤٫٣
١٩١٤	١٣٢٫٦٠٠	٨٫٥	١٫٦٣٨٫٠٠٠	٣٠
	صغار المــلاك (أقل من ٥ أفدنة)			
١٨٩٤	٧٦١٫٣٠٠	٨٣٫٣	١٫١١٣٫٠٠٠	٢١٫٧
١٩١٤	١٫٤١٤٫٩٢٠	٩١٫٧	١٫٤٢٥٫٠٦٠	٢٦٫١

ان أظهر سمة هي تفتت الملكية مع نهاية القرن • وأسـباب ذلك كثـيرة : آثار أحـكام الشريعـة فى المـيراث ، النمــو السـكانى الكثيف (٢٣) ، قانون عدم الاسـتيلاء على الخمسـة أفدنة (ديسـمبر ١٩١٢ (٢٤) ، والواقع أن الملكيات الصغيرة نتجت عن التفتت النسبى للملكيات الكبيرة والمتوسطة أيضا • والبيانات التى جمعت عن الحالـة الاجتماعية ــ الاقتصادية لعمد ومشايخ القرى ذات قيمة كبيرة فى هـذا الشأن • ان نهاية عهد الاحتكار ، ثم ظهور الملكية الخاصة للأرض على عهد سعيد قلص بشكل ملموس من حجم هذه الشريحة من أعيان القرى ، الذين كانوا فيما مضى ملتزمين ، وكانوا يمثلون دائما السلطة المركزية فى مواجهة الفلاح • أما اسماعيل فقد زاد من سلطتهم وقد كتب « ماكينزى والاس »

(٢٢) أعد هذا الجدول بالاستعانة بالبيانات الواردة عند ابراهيم عامر : **الأرض والفلاح** : ٨٩ ــ ٩٠ •

G. Baer : Landownership, 71-7.

(٢٣) « ج • باير » : **المرجع السـابق** • م•ف• لهيطه : **تجديـد الاقتصـاد** •• ، ١١٢ ــ ١١٥ •

(٢٤) وقد القت الأضواء على هذا القانون دراستان صدرتا فى تلك الفترة :

G. Blanchard : «Le pien de famille et la loi égyptienne sur l'insaisissabilité des cinq feddans,» Eg. Cont., iv (1913), no. 15, 337-55· L. Polier : "Notes à propos de la loi des cinq feddans», Eg. Cont, iv (1913), no. 16, 501-17.

D. Mackenzie Wallace مراسل « التايمس » يقول : « هذا المركز يعود الى أكبر مالك للأرض » (٢٥) ، وموسوعة على مبارك باشا تؤكد وتقدم أسماء عائلات العمد (الشريف ، الهوارى ، الجيار ، عبد الحق ، شعير ، العقالى ، صباغ ، الوكيل ، الأتربى ، الشريعى الخ) • انهم كولاك Koulaks مصر الذين سيخشى «كرومر» أن يؤسس على أكتافهم سلطانه فى الريف • وقد نتجت أهمية ثقلهم النوعى والنسبى فى الريف ، أمام احصاء ١٨٩٤ ، عن المكاسب التى حققوها فى عهد اسماعيل : تأجير الأراضى ، السلفيات التى تعطى للفلاحين الفقراء ، تأجير أراضيهم الخاصة ، معاملات تجارية مع المدينة بشكل خاص • فى حين كان عباس الأول يخادع البدو خوفا من اتحاد محتمل بين المشايخ والفلاحين (٢٦) ، وبينما حاول سعيد أن يقلص السلطة السياسية لأعيان الريف ، فان اسماعيل ، على النقيض من ذلك ، قد اعتمد عليهم اعتماد كبيرا ، وأول مجلس شورى للنواب عام ١٨٦٦ كان معظمه من المشايخ ، ومن بين النواب الـ٧٤ ـ ٧٥ الذين شكلوا مجالس عام ١٨٦٦ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧٦ ، يقدر الرافعى عدد العمد ب ٥٨ ـ ٦٤ (٢٧) ، وفضلا عن ذلك ، فقد عين اسماعيل عددا منهم كمديرين فى مواجهة الارستقراطية التركية الألبانية • ومن الطبيعى أن يساند هؤلاء الرجال ثورة عرابى فى عام ١٨٨١ وأن يجمعوا الفلاحين حول القضية الوطنية • حينئذ يمكن أن نفهم السبب الذى سعى البريطانيون من أجله لتقليص النفوذ المقلق لأعيان الريف ، الذين أصبحوا مرهقين بالمهام الادارية من كل نوع تحت رقابة المديرين المتحالفين مع المحتل والمفتشين البريطانيين بموجب قانون ١٨٩٥ (٢٨) •

وقد هاجر عدد كبير منهم الى المدن ، حيث اندمجوا فى الحياة السياسية الجديدة بعد تأجير أراضيهم الى شركاء أقل ثروة • وجدير بالذكر أن أبناء هؤلاء الأعيان الريفيين هم الذين سيقدمون للحركة الوطنية وللدولة

---

(٢٥) D. Mackenzie Wallace : Egypt and the Egyptian question, Russel and Russel, New-York, 1883 (1967), 208, 211.

(٢٦) Hekekyan Papers, vi B. M Add. 37453, ff. 29-20a (1er juin 1854), G. Baer : «The village shaykh in modern Egypt,» in U. Heyd (ed.) : Studies in Islamic history and civilization, Scrpta Hierosolymitana. ix (1961) Jerusalem, 121-53 (146).

(٢٧) عبد الرحمن الرافعى : **عصر اسماعيل** ، جـ ٢ : ٧٩ ، ٨٢ ـ ٨٤ ، ١٠٩ ـ ١١١ ، ١٤٩ ـ ١٥١ •

(٢٨) Cromer : Mod. Egypt, ii : 189-92.

وللمجتمع المصرى ، الغالبية العظمى من الموظفين والمثقفين (٢٩) • وخلال الحرب العالمية الأولى ، طولب العمد الذين بقوا فى الريف بتجنيد الفلاحين للعمل فى «فيلق العمل المصرى» ، ومن ثم عاد اليهم بعض نفوذهم (٣٠) •

وماذا عن الفلاح ؟ ان ظاهرة نمو جماعة صغار الملاك تسترعى النظر وتدفع الى عدة ملاحظات • فالتحليل يبين أن حجم ملاك أقل من خمسة أفدنة يدل على أن الغالبية العظمى من الفلاحين كانوا يعيشون تحت مستوى الكفاف (٣ أفدنة للأسرة) أى أن ٠٠٠ر٠٠٦ر١ فلاح كانوا يملكون أقل من فدان واحد عام ١٩١٦ (٣١) هذا من ناحية • ومن ناحية أخرى يجب النظر الى الفلاحين المعدمين ، الذين لا يملكون أرضا •

والمعلومات الدقيقة المتوفرة عنهم قليلة : فطبقا لاحصاء ١٩٠٧ كان هناك ١٤٩ر٣١٥ر٢ شخص يعملون فى الزراعة ، فى حين كان هناك ٠٧٦ر٣٧٨ر٥ بلا مهنة (٣٢) • ونحن نقف حائرين أمام هذين الرقمين ، خصوصا أن مجموع الملاك عام ١٨٩٧ كان ٢٧٠ر٩١٤ شخص و ٠٠٠ر٥٦٠ر١ شخص عام ١٩١٧ ، وعلى ذلك يرجح أنه فى عام ١٩٠٧ ، وهو عام وسط ، كان يوجد بين ١٤٩ر٧٥٥ شخص و ٨٧٩ر٤٠٠ر١ شخص يعملون فى الزراعة ولا يملكون أرضا • ولكن من هم اذن الخمسة ملايين « بلا عمل » ؟ هناك مجال للاعتقاد بأن غالبيتهم لم يغادروا القرى مادام رقم الخدم (فى المدينة) كان مرتفعا للغاية ، كما سنرى ، وهذا ما أكده « مبوريا » L. Mbria فى تقديره لسكان الريف ب ٦٦٣ر٧٣٤ر٥ نسمة فى عام ١٨٨٢ (٣٣) • ويذكر احصاء عام ١٩١٧ أن عدد المزارعين هو ٩٠٠ر٠٠٨ر٤ مزارع منهم ٧٣٥ر٤١٦ عامل أجير و ٠٠٠ر٦٧٦ر٢ « غير

---

(٢٩) انظر : ابراهيم عامر : الأرض ، ١٢٠ ـ ١٢٢ ،
J. Berque : Histore sociale d'un village égyptien au XXe siècle, Mouton and Co; La Haye-Paris, 1957, 47-87.
وقد اضطر « ميلنر » قبلهم أن يثنى فى « شيخ البلد ، ووتاره الميرى ، بلباسه الريفى غير المالوف ، وتصرفاته حسب الأصول اللائقة » فى مقابل الباشا « ذلك التقليد المسكين للجنتلمان الأوروبى • » (England in Egypt, 322-3).

(٣٠)
Sir Valentine Chirol : The Egyptian problem, Macmillan, London, 1920, 138, 161-2; Lord Lloyd : Eg. Since Cromer, i : 240.
من بين مؤلفين إخرين

(٣١) R. Raid : Eg. nasser ienne 27. الرقم الاجمالى للملاك يقل بعض الشىء عن الرقم الذى قدمه ابراهيم عامر لعام ١٩١٤ وهو ٠٠٠ر٥٩٠ر١ •

(٣٢) The Census, 1907, 279-83.

(٣٣) L. Mboria : Population Eg., 141.

مصنفين بلا عمـــل » (٣٤) ؛ هذا ، وفى عام ١٩١٧ ، كما رأينـــا ، لم يكن يوجد غير ١٫٥٦٠٫٠٠٠؛ فاذا طرحنا هذا الرقم من رقم المزارعين لعام ١٩١٧ تكون النتيجة ٢٫٤٤٨٫٩٠٠ مزارع ، غير مالكين وغير اجراء ، اى بزيادة مليون عن تقدير عـام ١٩١٧ ؛ ومع ذلك فان هـذه المجموعة لم توصف بأنها من «الاجراء» • هناك اذن ما يدعو الى الاعتقاد فى وجود نمو سريع جدا لعدد الفلاحين بلا أرض ، بلا عمل بأجر منتظم ، يمكن أن نميزهم عن فئة « غير المصنفين بلا عمل » ــ وهم العمال الموسميون الذين لا يملكون أرضا ، وباختصار ، هم الذين كانوا يعيشون فريسة للجوع والأوبئة والفقر ، وتعتبر الدراسة النفيسة التى قام بها الأب هنرى حبيب عيروط عن هذه الفئة بعد جيل من الزمان أدق وأبلغ من الدراسة السريعة التى قام بها حديثا حسن رياض (٣٥) •

ويقول ابراهيم عامر بحق ، محلقا فوق قرن من التـاريخ الزراعى « لم ير العمال الزراعيون فى الواقع أية مصلحة فى اثارة مسألة التمليك الصغير للأرض ، وانما كانت المشكلة الأساسية التى تعنيهم دائما هى مشكلة البطالة » ، (٣٦) تلك البطالة التى حرمت العمال الموسيميين ــ عمال التراحيل ، الذين كانوا يؤدون كل أنواع السخرة ــ حرمتهم من كل شىء ، ثم أهلكتهم • ويكمن فى هؤلاء العمال احتياطى ثورى هائل ، سوف نمس بايجاز تباشيره الأولى فى نطاق هذه الدراسة (٣٧) •

---

(٣٤) The Census, 1917, 364-79.

(٣٥) H. H. Ayrout : Moeurs et coutumes des fellâhs Payot, Paris, 1938.

ويقول حسن رياض :

« يبدو أن التكوين فى البدء كان ثنائيا : جمهور من المزارعين الذين يعيشون فى ظل ظروف حياة متساوية وأقلية من المحظيين من كبار الملاك (وتوجد على هامشهم نسبة كبيرة من صغار الملاك) • واذا أردنا ابراز وضع صغار الملاك بمقابلة وضعهم بوضع المزارعين (اذا كانت هذه المقابلة ذات معنى) ، نحصل على التقسيم الثلاثى التالى : جمهور من المزارعين الذين يعيشون فى ظل ظروف متساوية ، فئات وسيطة من صغار الملاك ، أقلية محظية من كبار الملاك » (Eg. nassérienne, 28).

(٣٦) ابراهيم عامر ، **الأرض والفلاح** ، ١٢٤

(٣٧) وقد تنبأ بذلك كرومر على طريقته : « ثم قد يكون ممكنا أن (الفلاحين) وقد تذوقوا الثمار المترتبة على ادارة حسنة وتشجعوا بفضل الحرية التى منحها لهم البريطانيون ، يستطيعون الالتفات الى الباشوات والأخذ بتلابيبهم » (Mod, Egypt, ii : 195)

ونجد نفس التوقع عند : V. Chirol : Eg. problem : 163.

وانظر كذلك :

G. Bear : «The submissiveness of the Egyptian peasant». New Outlook, v. (1962), no. 9, 15-25.

وعلى هامش هؤلاء السكان القرويون الذين يمثلون سكان مصر من آلاف السنين ، يشكل البدو مشكلة هى فى الواقع أقل حدة من مثيلاتها فى بلدان المنطقة ٠ والتقديرات التى تشير الى حجم هؤلاء البدو ليست دقيقة : ١٩٦ر٩٨ أو ٠٠٠ر٢٠٠ حسب تقدير كرومر عام ١٨٨٢ (٣٨) ، ٨١ر٩٧ عام ١٩٠٧ ، ٥١٣ر١ فقط عام ١٩١٧ (٣٩) ، وبعد ذلك ٠ وابتداء من عام ١٩٢٧ يرتفع هذا الرقم الى ما بين ٣٠ و ٥٠ الف ، وعلى ذلك فالمرجح أن احصاء عام ١٩١٧ قليل القيمة ، اذا أخذنا فى الاعتبار أن متوسط عددهم خلال الربع الأول من القرن كان يتراوح بين ٥٠ و ٨٠ ألف ٠ وعلى النقيض من ذلك ، فان معلوماتنا أكثر فيما يتعلق بمعدل توطينهم واستقرارهم الذى باشره محمد على عن طريق سلطة مركزية هى سلطة القاهرة ، « القلعة القديمة لمركزية الدولة » على حد التعبير اللطيف الذى أورده جاك بيرك (٤٠) ٠ فقد منح البدو الأراضى التى يعيشون عليها وتملكوها ملكية خاصة ، وبموجب اشتراطات مختلفة ـ أراضى خراجية أو أبعدية ٠ وجعل الولاة يجتذبون زعماء البدو الى المدن (٤١) ٠ وهناك

ونلاحظ أن تعبير نزعة الخنوع Submissvieness قد أطلقه كرومر فى حديثه عن مشايخ القرى ٠ (Mod. Egypt., ii : 186).

وفيما يتعلق بالحياة اليومية فى الريف نجد هذه الصورة : « وعندما يتسلل المرء الى الأكواخ الطينية) ماذا يجد ! العرى ، داء الفيل ، الرمد العمى ، البرص ٠٠ أين أنت يا مدن أحمس العشرين ألف ؟ يا مصر العتيقة ، يا أم الدنيا ، كما يسميك أطفالك فى لغتهم الرنانة ، أنت التى وهبت العالم الكثير ، القوانين ، الفنون الجميلة ، العلوم ، الصناعة ، ألم تحتفظى بأى شىء اذن لنفسك ؟ »

(Lucien Davesiès de Pontès : Etudes sur l'Orien et l'Egypte Michel Lévy Fr., Paris 1864.

« **حالة الفلاح المصرى** » ، **الهلال** ، السنة الثالثة (١٩٠٠) العدد ٩ ، ٣٣٤ ـ ٣٣٨ ؛ الخ ٠

أما فيما يتعلق بتكوين طبقة العمال الزراعيين انطلاقا من السخرة انظر : عبد المنعم الغزالى : « مسيرة العمال الزراعيين فى تاريخ مصر من ١٨٨٢ الى ١٩٦٦ » ، الطليعة ، السنة الثانية ، العدد ٩ ، ٨٤ ـ ٩٠ ٠ وانصب قدر هام من الجهد السياسى الذى بذلته ثورة يوليو ١٩٥٢ فى الريف على تغيير الأحوال الانسانية لهؤلاء البشر ، ولا سيما منذ ١٩٦٢ ٠

(٣٨) يذكر الرقم الأول
L. Mboria : Popul. Eg., 144; G. Baer : Population and society, 127.
أما الرقم الذى يعزى الى كرومر فقد أورده

(٣٩) The Census 1907, 279-83; The Census 1917 364-79.

(٤٠) Jacques Berque : Les Arabes d'hier à demain, Le Seuil, Paris, 1960, 153.

(٤١) راجع G. Baer : Beduin sedentarization;
وترد دراسة جيدة لحالة محددة عند
A. M. Abou-Zeid : Migrant labour and social structure in Kharga Oasis, in Julian pitt-Rivers ed. : Mediterranean countrymen, Mouton and Co. La Haye-Paris, 1963, 41-53.

أربعة عوامل ساعدت على الاستقرار بالاضافة الى عنصر تفوق المدن : قيام دولة ثابتة وقوية ، تسجيل الأراضي الذى شجع البدو على الاحتفاظ قانونيا بما كان في الماضى مجرد أمر واقع ، ظهور السكك الحديدية ثم السيارات والطائرات التى قلصت دور القوافل الى حد بعيد ، وأخيرا شدة بأس القوات المسلحة للدولة في مواجهة محاولات الانفصال من جانب سكان الصحراء (٤٢) . وقد أشرنا الى أن بعض زعماء قبائل البدو قد انضموا الى طبقة كبار ملاك الارض ، كذلك فان فئة أخرى من الشيوخ عينت في مراكز حكومية ابتداء من عام ١٨٣٣ ، ولم يكن كرومر يقلق من نفوذهم ، وأخيرا فان القانون الصادر في عام ١٩٠٥ يدمج القبائل في النظام الادارى العام للدولة ، وفي ذات الوقت ، على مستوى التمثيل القانونى وذلك بتعيين المشايخ وبعض صغار الأعيان في جميع أنواع الوظائف ، في حين تتابع اندماج العائلات الكبرى في المدن ، بعيدا عن البؤس القابع في الريف . ومع ذلك فقد بقيت قبيلة أولاد على ، وهى من نسل قبائل سعدى من شمال أفريقيا ، وكانت تمثل الأغلبية في الصحراء الغربية ، خصوصا بعض البطون القليلة من المرابطين ، الذين كانوا يعملون جميعا في تربية الحيوانات والرعى وبعض الزراعات الصحراوية وبعض المهن الحرفية التقليدية وهم يقيمون وزنا لكلمة الشرف أكثر من القانون المكتوب ، والفكرة المحورية هى فكرة التدرج بين مختلف العناصر السكانية ، هذا التنظيم الذى يعقده أسلوب المحالفات الحساس الدقيق (٤٣) .

هل شجع ادماج الريف المصرى في القطاع الرأسمالى ، بسبب التشويهات التى يخلقها ، على زيادة العنف أو النزوع الى الجريمة ؟ لقد أشار المراقبون بين عامى ١٨٤٦ و ١٨٨٢ الى عدة حالات تمرد من جانب الفلاحين : رفض التجنيد والسخرة (الشرقية والجيزة) ، التمرد على الأجور المنخفضة التى فرضها اسماعيل على أراضيه (أبو تيج) ، وبعد ذلك جاءت الانتفاضات والأعمال الاجرامية ضد ممثلى السلطة المركزية خلال

---

(٤٢) Mohmamad Awad : «Settlement of nrmadic and semi-nomadic tribal groups in the Middle East», International Labour Review, janv. 1959, وكذلك في Bull, Fac. Arts Alexandria, 14 (1960), 3-38.
الذى يذكر عاملين اضافيين بالنسبة للشرق الأوسط . وعن مسألة البدو في مجملها انظر

(٤٣) Ahmed Abou-Zeid : Honour and shame among the Bedouins of Egypt, in J G. Peristiany, ed, ; Honour and shahme, the values of Mediterranean society, Weidenfeld and Nicolson London, 1965, 243-59.

سنوات المجاعة والأوبئة والمحصول الضـــعيف (١٨٧٧ – ١٨٨١) فى سوهاج وجرجا ، وضد أملاك الخديوى فى زنكلون · ان ثورة ١٨٨٢ تدخل فى اطار التمرد العام ، الذى أشـار اليه المعتمدون البريطانيون فى ذلك العصر ، والذى زاد من حدته وجود الدوافع الوطنية (٤٤) · وابتداء من الاحتلال ، غيرت الحركة من نغمتها : فقد بدأ الحديث عن عصابات السرقة، ويكاد يجمع المراقبون على أنها ترجع الى البؤس وسوء توجيه العدالة ، والسجون التى كان الناس يموتون فيها (٤٥) · وبعد اللجان التى أنشأها نوبار للتحقيق فى أعمال قطاع الطرق ، تشكلت لجان تحقيق عام ١٨٨٤ و ١٨٨٥ ، وقد اعترف « كرومر » عام ١٨٩١ بأن التعذيب والسـوط لم يختفيا (٤٦) ، كذلك فان قانون حمل السـلاح الصـادر عام ١٩٠٤ ، باستثناء الطبقات الممتازة ، كان قليل الجدوى ، وفى ٤٠ يوليو عام ١٩٠٩ صدر قانون جديد باستبعاد الأشخاص « الخطيرين على الأمن العام » فى الواحات الداخلة ، ومع ذلك فقد زادت الجرائم فى عهد حكم « كتشنر » ، استمر التعذيب شديدا عاما ولينا آخر ، ولدينا عليه أدلة رهيبة (٤٧) ·

---

(٤٤) G. Baer : Submissiveness, 19-21.

(٤٥) يذكر كرومر شهادة « م· بيامان » عن الوضع قبل ١٨٨٢ :

« لا يستطيع أى تقرير ان يقدم أو هى انطباع عن البؤس الذى لا سبيل الى التخلص منه للمسجونين الذين يعيشون الشهور مثل الحيوانات المتوحشة بلا تغيير للملابس ، نصف جوعى ، جاهلين مصير أسرهم ، متباكين على مصيرهم »
(Cromer : Mod. Egypt i : 493).

ويتناول كرومر العدالة والسجون فى الاطار العام للاصلاحات الادارية
وكذلك الفهرس مادة . «administration» (Ibid., ii : ch. lvii-ivii);

ويقول «ملنر» منصفا « لقد هجر تماما المبدأ الأساسى للفصل بين السلطتين القضائية والتنفيذية ·· وفيما يتعلق بجرائم العنف فان القانون الجنائى بكل نصوصه المعقدة الرامية الى حماية المتهم ، أصبح حبرا على ورق فى بعض الفترات »
(Viscount Milner : England in Eg., 279).

وعلى الرغم من ذلك فان جابريل باير لم يشر الى ذلك ، بل على العكس فانه يترك الانطباع بأن الجرائم وعمليات قمعها اختفت أو كادت تختفى فى الفترة ما بين ١٨٨٢ و ١٩١٤

(٤٦) ان التحقيق الذى أجراه « م ·· لوجريل » وغيره من الخبراء القضائيين ، عن عمل « اللجان الخاصة لقطاع الطرق » ، التى كانت لها سلطات المحاكم العرفية ، يكشف عن أن « التعذيب استخدم بصراحة للحصول على اعترافات وأن عددا كبيرا من الأشخاص سـجنوا لسنوات مستمرة دون صدور حكم عليهم · »
(Milner : England in Eg. 278-80).

(٤٧) تقضى التعديلات التى اقترح أعضاء الجمعية التشريعية ادخالها على القانون الخاص بقطاع الطرق ، فى ١٨٩٠ ، بأن يجلد كل قاطع طريق يضبط فى حالة تلبس بالجريمة ثم يوضع فى السجن حتى الموت أو التوبة ، ويجب توقيع العقاب على أعمال القتل سواء ببتر

لقد أصاب القرية المصرية قليل من التغييرات خلال تلك الفترة • وفى عام ١٩٥٥ استطاع جاك بيرك أن يردنا الى الوراء قرنا من التاريخ القروى، حينما أوجز في براعة هذه الصورة التى حاولنا حتى الآن اعطاء فكـرة عنها • كتب يقول : « على المستوى الاجتماعى ، آلية تقسيم المهام والتضامن التى تنتظم عددا غفيرا من الأفراد حول قلة من المنتجين الزراعيين ، وعلى المستوى المعنوى ، آثار فيض الأيدى العاملة ، والبطالة طويلة الأمد ، وعدم التمييز الدائم بين الفراغ والعمل [•••] • ان الطاقة والأحكام والدقة التى فرضها [الرى الدائم] لا شك أنها دفعت هذه الطبيعة القروية خطوات واسعة على طريق التحديث ، ومن شأنها أن تيسر ، على المدى الطويل ، تطورها ، الجزئى على الأقل ، نحو المصنع • وعلى نقيض ذلك ، فان الكثرة المفرطة فى العامل البشرى قد شتت المهام ، وأخطر من ذلك ، ألغت كل فاصل واضح بين العمل والاستخدام المحدود للقوة العاملة [•••] • ان كل شىء يجرى وكأن « الدفعـــة الأفقية » على حد تعبير « سســـوفى التى انتابت هذا المجتمع ، قد فرضت عليه ، فى الاتجاه « الرأسى » تحويلا للنشاط نحو القطاعات المتفرعة : التجارة البسيطة ، المهن الصغيرة الخدمات المنزلية • طرق التحايل على العيش وحتى الصعلكة ، هذه الظاهرة التى تعتبر مورفولوجية قبل كل شىء ، قد اقترنت بنوع من الاضـطراب فى العلاقات بين المهن وفى حياة الجماعة نفسها • وافتقار لتقسيم حقيقى للعمل يمكن وحده أن يحقق اتزانا اقتصاديا جديـدا ، نجد انطلاقة معوضـة للتضامن بين الأفراد [•••] (٤٨) • » مدخل الى سوسيولوجية الثقافة التى تمثل صلب عملنا •

وقبل ذلك ، ولكى نستكمل هذه اللوحة الاجتماعية العامة ، آن الأوان لكى نيمم شطر المدن •

اليد اليمنى والساق اليسرى قبل الاعدام أو بالبتر الذى يعقبه التعذيب ، أو بالبتر الذى يعقبه الصلب ، أو بالبتر وبعده الصلب ثم الأعدام ، أو الاعدام أو الصلب فقط • وعمليات التعذيب جرى وصفها بكثير من التفاصيل وتنص بصفة خاصة على أنه يتعين ادخال رمح فى الرئة اليسرى ثم اعادته الى مكان الجرح حتى الموت (Milner : Ibid., 310-1).
تلك هى اذن العقلية التى كانت سائدة •

(٤٨) Jacques Berque : «Sur la structure sociale de quelques villages égyptiens,» Annales, 2 (1955), 199-215.

القسم الرابع ـ الطبقات الاجتماعية فى المدن

ان معرفتنا بالطبقات والمجموعات التى تسكن المدن تعتبر معرفة ناقصة وغير دقيقة : فما أكثر البيانات والشواهد ، لكن ما أندر الاحصاءات الدقيقة ، والدراسات التفصيلية لم تكد تبدأ • ومع ذلك فان المدن تعتبر المركز الذى يستقطب المشروعات التى تستهدف التحديث على المستوى القومى والأجنبى ، كما تعتبر مركز الحياة الثقافية ؛ وعلى ذلك فمن الواجب القيام بتحليل المواد المبعثرة بغية تنظيمها والاستفادة منها •

نحن نعرف أن سكان القاهرة عام ١٨٧٠ كانوا ٣١٣ر٣٨٣ نسمة وسكان الاسكندرية ٢٣٨ر٨٨٨ نسمة (١) • وقدم احصاء ١٩٠٧ واحصاء ١٩١٧ بعض عناصر المقارنة ، وقبل ذلك نذكر أن الاحصاء الأول يشير الى وجود مدينتين يزيد سكان كل منهما على ١٠٠ر٠٠٠ نسمة و ٤٣ مركزا يزيد سكان كل منها عن ١٠ر٠٠٠ نسمة • وهذا جدول ببيان الأعمال التى كان يقوم بها سكان المدن بصفة عامة (٢) :

	١٩٠٧	١٩١٧
صيد الأسماك	٢٧ر٥٠٠	٣٤ر٠٤٥
المناجم	٤ر١١٢	٢ر٦٩٣
الصناعة	٣٧٦ر٣٤١	٤٨٩ر٦٩٥
النقل	١٠١ر١٣٦	١٥٠ر٦٣٣
التجارة	١٦١ر٢١٠	٢٨٠ر٥٦٢
قوات الشرطة والجيش	٥٧ر٠٣٤	٤٣ر٠٣٥
الادارة العمومية	٤٨ر٨٨٧	٤٣ر٣٦١
المهن الحرة	١٤٤ر٠٧٩	١٤٢ر٩٧١
ذوو الدخول	١١٢ر٦٢٣	١٣٦ر٣٢٧
خدم	٢ر٣٥٨ر٥٠٨	٢ر٥٧٨ر٧٤٤
أعمال أخرى	١٠٥ر٣٢٥	٣٧٢ر٢٨٩

يضاف الى ذلك من هم « بلا مهنة » ، والرقمان الخاصان بهم هما على التوالى ٥ر٣٧٨ر٠٧٦ ، ٢ر٦٧٦ر١٠٠ ـ ومن الانسب تقسيمهم بين المدن والريف •

---

(١) E. de Régny : Statist. de l'Eg., Ire année 1870, 12-3.

(٢) The Census 1907, 279-83; The Census 1917, 364-79.

وتتضمن هذه الأرقام الطوائف الأجنبية ، التى سبق أن عرضنا لها فى القسم الثانى ، بالاضافة الى عدد كبير من كبار الملاك العقاريين ، وأعيان القرى ، وزعماء البدو الذين أقاموا فى المدن فى أواخر القرن ، وقد انعكس هذا العامل الأخير فى زيادة حجم « ذوى الدخول » وفى حدود ضيقة ، على التجار . كذلك فقد أدى هذا بطبيعة الحال الى تضخم حجم « الخدم » ٠

وتوجد فى القمة طبقة الباشوات ٠ ومع أنهم جميعا لا يحملون هذا اللقب الا أنهم تعارفوا على ذلك ٠ وهذه الطبقة تألفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من أفراد أسرة الوالى وكبار رجال الدولة ، وكبار رجالات الجيش — وجميعهم من أصل تركى أو شرقى ، باختصار كانت هذه الطبقة تتألف من كبار مستخدمى هذه الولاية المستقلة فى الامبراطورية العثمانية ، ألا وهى مصر ٠ وقد ركز جاك تاجر على « الحياة الصارمة فى قصر محمد على » التى تتعارض مع تحرر واستهتار الأوربيين (٣) ٠ ولم يجد « ملنر » كلمات أقسى لكى يصف « الغرور » و « الفساد » الذين كانا ينخران فى الاوليجاركية التركية ، ويقول « لقد انفصلت فكرة السلطة عن فكرة اداء الواجب قرونا عدة [٠٠٠] ٠ وان عدم كفاءة طبقة الباشوات فى القيام بالمهام التى آلت اليهم طبيعيا ، كان يمثل أحدى العقبات فى سبيل تحقيق المثل الأعلى لصورة مصر التى تحكم نفسها بنفسها (٤) » ان دور هؤلاء الرجال يندرج فى اطار الحكم السديد المستنير الذى أصدره كل من صبحى وحيده وحسين فوزى عن قرون الانحطاط الأربعة فى تاريخ مصر تحت نير الحكم العثمانى (٥) ٠

ومع الاستقرار التدريجى للملكية الخاصة للأرض ، بدأ كبار الملاك

---

(٣) Jacques Tagher : "La vie au Caire et à Alexandrie il y a cent ans," Cah. Hist. Eg., ii (1950), no 4, 409-27 (316-25».

(٤) Milner : England in Eg., 320-2. وبطبيعة الحال فانه يغفى الطرف عن الدور السياسى الذى قام به الاحتلال البريطانى ٠

(٥) يلخص صبحى وحيدة التقاء العوامل : « ان الأمر فيما عليه حالتنا الراهنة هو قبل كل شىء أمر فقر الدم الذى أصاب أطراف مصر جميعا بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ، فحد من نشاطها الاقتصادى ، وهبط بحياتها الاجتماعية الى الحضيض ، ودفع بفكرها الى الجمود الأزهرى ٠ أمر مجتمع يخرج من أقصى ما يستطيع أن يتردى فيه شعب من دمار الى أحدث ما انتهت اليه البشرية المتحدثة [٠٠] (**فى اصول** ٠٠ ، ٢٢٤ ، والفصل الرابع بأسره ١٦٧ — ٢٣٥ الذى وضع له عنوانا محقا « **اعراض المراهقة** ») ٠ ويرسم حسين فوزى لوحة مؤثرة فى الجزء الأول — تحت عنوان **الظلام** — من كتابه **سندباد مصرى** ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦١ ، ١٧ — ١٠٩ ٠

يستقرون فى المدن مثل عائلتى حسن الهجين وحسن الطرزى (٦) ـ واندمجوا فى فئة كبار الموظفين والوجهاء • والواقع أنه بين ١٨٣٨ و ١٨٨٢ ، ظل الأتراك ـ أو الأتراك المصريون كما يحلو لبعضهم أن يقول ذلك ـ يحتكرون هذه الفئة (٧) ، « وظل كبار الملاك يعيشون حياة أصحاب ريع الابعاديات فى الأحياء الجميلة فى القاهرة والاسكندرية (٨) • »

وقد أسهمت المراتب الدينية فى تقوية مركزية الطبقات الحاكمة والنخبة الحاكمة • وكان على رأس رجال الدين المفتى ، وشيخ جامعة الأزهر ، وقاضى القضاة • وقد كان الكثير منهم ينتمى الى أكثر الجماعات ثراء ـ أمثال كل من الشيخ السادات وعبد الخالق ومحمد بيرم والبكرى ، وكان البعض الآخر ينتمى الى طبقة متوسطى الملاك مثل محمد عبده (٩) •

أما القواد العسكريون ـ من أتراك وشركس ، لأنه لم يكن فى مقدور أى مصرى أن يتجاوز رتبة اليوزباشى (نقيب) حتى عهد سعيد ، ثم رتبة قائمقام (عقيد) حتى ثورة ١٨٨٢ ـ فقد كانوا يعيشون فى المدن محوطين بأركان حربهم وكذلك كانت الحال بالنسبة لمديرى (أو محافظى) الأقاليم والنظار (الوزراء) والمديرين العموميين وموظفى الدرجة الأولى • وقد عمد الاحتلال البريطانى الى تقليص النفوذ المصرى مع العمل تدريجيا على استبعاد الأوربيين والاتراك • وفى عام ١٨٩١ تحدث « كرومر » عن ٣٩ موظفا كبيرا باعتبارهم « العمود الفقرى للادارة المدنية المصرية » • وفى عام ١٨٩٢

---

(٦) على مبارك : **الخطط** ، ج ٣ : ٥٤ ـ ٥٥ ، ج ١٥ : ٩٦ •

(٧) **John Bowring : Report on Egypt and Canadia, H.M. S.O., London, 1840, 6-7 :William Nassau Sr. : Conversations and Journals in Egypt and Malta, 2 vol, Sampson Low, Marston, Searls and Rivington, London 1882, i : 251-2, 48; ii : 140; Morroe Berger : Bureauiracy and Society inm odern Egypt a study of the higher civil service, Princeton Univ. Press, Princeton, 1957, 23.**

(٨) « عندما يهبط الظلام تشعل المصابيح الصغيرة المعلقة فى أبواب المساجد ، وتعكس الفوانيس الضخمة التى توجد في كل حانوت أنوارا متلألئة شديدة الكثافة فى الحوارى المعتمة الضيقة ، وعلى ضوء الوميض المنبعث منها يبدو هؤلاء الدهماء أكثر فضولا ولهوا • »
(Louis Malosse : Impressions d'Egypte, Paris, 1865, 28).

وعن القاهرين : « وهم لا يرون كل شىء أسود وانما يسعون الى ان ينتزعوا من جميع الأشياء أفضل مافيها •• ، سرعة التبدل مثل دوارة الهواء ، حب المتع •• ، تلك طريقتهم غير المكترثة بل يمكن القول العابثة فى النظر الى الأمس وادراك العالم •• »
(Georges Ebers : L'Egypte, Alexandrie et Le Caire, trad G. Maspéro, Firmin-Didot, Paris 1880, 348; وفيما يتعلق بالمتم انظر الوصف السطحى بقلم **Emmeline Lott : Aights in the harem, or the Mohaddetyn in the palace of Ghezire, 2 vol., London, 1867.**

(٩) **Cromer : Mod. Egypt, ii : 173-84.**

انشأ بيروقراطية التعليم العام المرتبط ارتباطا مباشرا باعادة تنظيم الوظائف العمومية • كان حاملو البكالوريا (اتمام الدراسة الثانوية) فقط يصلون الى ال « الفئة العليا » ؛ أما « الفئة الدنيا » فقد كانت مفتوحة أمام حامل شهادة اتمام الدراسة الابتدائية • وبين عامى ١٨٨٢و١٨٨٦ قلل «كرومر» عدد الموظفين المستخدمين سنويا فى حدود ٢٠٠ فى المتوسط مقابل ٣٠٠ بين عامى ١٨٦٣ و ١٨٧٩ و ٦٠٠ بين عامى ١٨٨٠ و ١٨٨٢ • وفى عام ١٨٨٢ قدر لورد «دوفرين» عدد الموظفين بـ ٢٠ر٠٠٠٠ شخص منهم ٥٪ أوروبيـون • وبين عامى ١٨٨٦ و ١٨٩٨ ، ارتفع عــدد كبار الموظفين البريطانيين من ٢٩٩ الى ٣٥٥ ، ومن بين ال ١٠ر٦٠٠ موظف مصرى فى عام ١٨٩٨ كان ٤٥ فقط يتقاضون مرتبا يتجاوز ال ٧٠ جنيها مصريا ، فى حين كان عدد أمثالهم من البريطانيين ٤٧ من بين مجموع ٤٥٥ • وفى عام ١٩٢٠ لاحظت بعثة « ملنر » أن نسبة الموظفين المصريين بين عامى ١٩٠٥ و ١٩٢٠ ازدادت من ٤٥ الى ٥١٪ ؛ فى حين أن العدد قد انخفض بالنسبة للموظفين من الفئة العليا من ٨ ، ١٢ الى ٢٣٪ بينما ارتفع مقابلهم من البريطانيين من ٤٢ الى ٥٩٪ (١٠) •

ويقول « وليـام ويلكوكس » : « لقد عمد « كرومر » خلال فترة انتدابه الطويل للسلطة الى القضاء بالدرس والمخادعة على كل مصرى مستقل والابقاء عليه فى الدرك الأسفل من السلم الوظيفى ، والعهد بالمراكز الكبرى الى أشخاص لا قيمة لهم ، فكانت النتيجة أن الزعماء الطبيعيين للشعب لم تتح لهم الفرصة لقيادة الشعب (١١) • »

ان هذه الطبقة ، أو هذه الطبقات - المتميزة قد حظيت بتسميات مختلفة فى الدراسات الحديثة • ويرى حسن رياض أنها تتألف من « الفئات المحظية فى المهن الحرة ، والوظائف الكبرى فى مجال الاقتصاد وفى الدولة وكبار المقاولين وكبار الملاك العقاريين وذوى الدخول » (١٢) ، وباختصار نفس الفئات التى سبق وصفها ما عدا الرتب العسكرية ، وبالاضافة الى رؤساء المشروعات الحديثة وكبار المقاولين الذين ظهروا فى غضون الحرب العالمية الأولى • ويتحدث C.A.O. Van Nieuweehuijze عن « نخبة خاصة اضافية فى المدن » وهى ليست سوى « النتـاج الناجح من نخبة السلطة

---

(١٠) In. M. Berger Bureaucracy. 24-33. وقد سبق أن قدم « كرومر » صورة لاذعة لكبار الموظفين من « الأتراك المصريين » الذين كانوا يتولون الوظائف الرئيسية فى ١٨٨٢ • (Mod. Egypt. ii : 171-3).

(١١) William Willcocks : Sixty years in the East, Blackwood and Sons, London, 1935 269; Georges Young : Egypt, Scribner, N. Y., 1927, 166-7.

(١٢) H. Riad : Eg. nassérienne, 39.

في المجتمع البـــدوى ونخبـــة ملاك الأرض فى الريف ، حيث كانت كل منهما فعالة غيابيا فى القطاع الذى غرست فيه جذورها ، وكانت الاثنتان فعالتين ، بالدرجة الأولى ، فى فلك يضم المدينة والقرية والصحراء ككل ، ثم ، وبصـــورة ثانوية ، فى المدينة بمعناها الحقيقى · وهذا معناه تشبيه مصر الحديثة بالمناطق الصحراوية الكبرى فى العالم العربى ـ هذا النص الذى يرجع الى عام ١٩٦٥ لا يتفق والحقيقة ـ وبالتالى ، يتغاضى عن ذكر الخصوصية المصرية · ومع ذلك فان نفس الكاتب يحالفه الصواب حينما يذكر أن هذه النخبة التى « لها علاقات وطيدة بالعسكريين والبيروقراطية تمثل فى الواقع الدرجة العليا [لهاتين] المجموعتين (١٣) · » ولا شك أن جهاز الدولة ، بيروقراطية المدن الكبرى المصرية ، قد تجدد عن طريق بعض الاسهامات الدائرية ، ومع ذلك فقد ظل يحافظ على استمرارية كبيرة نسبيا ، كجماعة حضرية متخصصة فى التوجيه والادارة منذ آلاف السنين ، كما يرى ذلك « م · بيرجر » (١٤) · والواقع أن الجماعة الرئيسية التى كانت تمسك زمام السلطة ، خلال المرحلة التى ندرسها ، هى كبار ملاك الأرض التى قبعت فى مراكز الجيش العليا والادارة · ونرى من المهم التمييز بوضوح بين الجماعة أو النخبة التى تمسك زمام السلطة والجماعات التى تتصرف باسمها فى قمة السلم · ومن الجدير بالذكر ، من ناحيـــة أخرى ، أن نلاحظ أن البيروقراطية لم تكن تتقـاضى الا جزءا صـــغيرا نسبيا من الميزانية خلال العشرين سنة الأولى من الاحتلال البريطانى (١٨٨٢ ـ ١٩٠١) : ٨٠ مليون للادارة ، منها ٢٠ مليون لمرتبات الموظفين من بين المجموع الكلى البالغ ٣٢٤ مليون (١٥) ·

لقد شهدت حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ظهور تباين ، سوف يشتد ، بين جناحى البرجوازية المصرية · فقد بدأ جزء من كبار الملاك ومن الطبقـات المتوسطة فى المدن ، وخاصة المثقفين ، ينمو ويتطور بديناميكية خاصة ، على علاقة طبعا بالامبريالية ، ولكنها علاقة الاستقلال والمواجهة ، التى ستؤدى بهذه الجماعات بطبيعة الحال الى تغذية الحركة الوطنية واذكائها · ويجب أن نفصل بعض الشىء فى هذا التحليل فنشير الى أن التفوق الذى

---

(١٣) C. A. O. van Nieuwenhuijze : Social stratification and the Middle East, an interpretation. E. J. Brill Leiden, 1965, ch. v: 52-68. 63-4.

تتعلق التسمية بالامبراطورية العثمانية أما التفسير فقد تاثر « بماكس فيبر »

(١٤) M. Berger : Bureacuracy and Soc., 14,

حيث يقارنه بجهاز الحكومة الفرنسى ، بالاستناد الى «Democracy and its discontents ii : Encounter, ii (1954). no. 5 23-4.

(١٥) Charles Issawy : Egypt at mid-century, Oxford Univ. Press, London, 1954, 33.

تمارسه أوربا ، وفي المقام الأول بريطانيا العظمى ، على كبار الملاك عن طريق التجارة الخارجية واحتكار شراء القطن ، يربط كبار الملاك بالمحتمل ويوجههم ضده في ذات الوقت · أما الجناح الآخر ـ كما يقول فوزى جرجس الـذى يرجع اليه الفضل في التحليل الأول لهـذا التباين ـ فهو يتكون من جماعات تقوم باستثمار أموالها فى البنوك والصناعة والتجارة والائتمان العقارى ، ذلك ما أسميناه فيما بعد « الجناح الحديث الصناعى والتكنوقراطى للبرجوازية المصرية » ، ويقوم على اندماج جدلى أيضا مع رأس المال الكبير الأجنبى · وعلى ذلك « فالأصيل » النابع من البلاد سيسمى بورجوازية «وطنية » ـ أى البورجوازية المحلية التى تقوم بدور وطنى ـ فى حين أن البرجوازية الحديثة التى نشـأت تحت التأثير الخارجى ، ستقوم بـدور سياسى رجعى (١٦) ·

ولنتقتصر الآن ، مؤقتا ، على الاشارة الى بداية هذا التباين الذى كان أوضح مظهر له هو ، بالتحديد ، انشاء « لجنة التجارة والصناعة » عام ١٩١٦ · كذلك يجب أن نتنبه الى أنه حتى ثورة ١٩١٩ ، لم تكن الفئة العليا فى المجتمع المصرى قد انقسمت الى جماعتين متعارضتين ، على المستوى الاقتصادى ، ويهمنا هنا أن نشير الى أن العامل الأيدولوجى سيقوم خلال هذه العملية التى ندرس أولى مراحلها ، بدور هام للغاية لا يفطن اليه تحليل يقتصر على مستوى الحتمية الاقتصادية التعميمية المسطحة ·

---

(١٦) فوزى جرجس : **تاريخ مصر السياسى** ، ١٣٨ ـ ١٤٨ ، أنور عبد الملك :**المجتمع المصرى والجيش** ، الطبعة الفرنسية ٢٢ ـ ٢٤ ، الطبعة العربية ٣٧ر٤ ·

وقد أبرزنا فكرة البرجوازية المحلية فى مقابل البرجوازية « الوطنية » فى دراسـات عديدة ، ولا سيما !

«La problematica del socialismo nel mondo arabo,» Nuovi Argomenti, no. 61-66 (mars 1963-fév. 1964), 141-83; ونشرت الترجمة الفرنسية المعدلة «Problématique du socialisme dans le monde arabe», L'Homme et la Societe, no. 2, oct.-déc. 1966 125-18; "Sociologie du développement national : problèmes de conceptualisation». Revue de l'Institut de Sociologie, Brixelles no 2-3, 1967, 249-64; «Introduction à la pensée arabe contemporaine», الذى سبق Anthologie de la littérature a-abe contemporaine — vol. ii : les Essais, Le Seuil, 1965 9-33 (11-13); etc.

وحول العملية « الخارجية » التى أسهمت فى تكوين هذه البرجوازية المحلية ، انظ Maxime Rodinson : Islam et capitalisme, Le Seuil, Paris 1966, ch. v. 131-93 (134-48). وينكر حسن رياض بشدة فكرة تباين البرجوازية المصرية (Eg. nassérienne, 203-11).

وحول عملية الاثراء ، انظر : «Great Egyptian prosperity» The Times, 26 march 1918, 5 : Field-Marshal Allenby : Report of H.E. High Commissioned on the finances, administration and condition of Egypt and the Sudan for the period 1914-1919, Egypt, no ! (1920), H.M.S.O. London, 2-6.

وماذا عن الطبقات المتوسطة، ماذا عن الفئات الاجتماعية الوسيطة فى المدن ؟ لقد كان عنصرها الأساسى يتألف خلال تلك الفترة من صغار الموظفين ومستخدمى المنشآت الخاصة بمختلف أنواعها ، ولم يكن ذلك بسبب عددهم ، بقدر ما كان بسبب تضامنهم وهيبتهم الألفية منذ عهد « الكاتب المصرى » ٠

أما ضباط الجيش ، حتى بعد الاحتلال ، فقد كانوا يخرجون من هذه الطبقات الوسطى ، لكنهم كانوا يتطلعون نحو مركز السلطة ، لقد كانت عملية التطهير الكبرى فى الجيش بعد هزيمة عرابى أشبه بتحذير لجميع العسكريين الذين قد يفكرون فى التخلى عن امتيازاتهم للانحياز الى جانب الشعب ٠ ومع تأسيس ملكية الأرض ، أضيف اليها عدد من متوسطى الملاك والميسورين القادمين الى المدن ومن حولهم أعضاء المهن الحرة ــ الفنيين والمهندسين ، على عهد محمد على ، ثم الأساتذة والمعلمين والمحامين والموظفين والمحاسبين والأطباء والتجار ٠ وهؤلاء الأخيرون الذين كانوا يمثلون مجموعة عددية ضخمة ، كانوا فى ذات الوقت الوسطاء بين المدن والقرى من ناحية وبين البلاد والخارج من ناحية أخرى ــ فى حين كان الموظفون يقومون بالدور الأول فقط ٠

وبعد ذلك هنــاك الجماعات التقليدية : الحرفيون ، أصحاب المهن الصغيرة ، وتجار العاديات، ورجال الدين بمختلف أنواعهم ــ الأئمة ، وصغار القضاة ، وعلماء الدين الذين يقيمون فى المدن والمراكز ــ وجيش الوسطاء بلا مهنة محددة الذين كانت تقدم لهم المدن العون وبعض العمل (١٧) ٠ أما وضع رؤساء الطوائف (النقابات) المهنية المختلفة فقد كان شديد التعقيد وقد يتبادر الى الذهن أنهم ينتمون الى الطبقة الميسورة ، غير أن « جابريل باير » يرى أنهم ليسوا كذلك : « ان الوضع الاقتصادى للشيخ تحــدده طبيعة عمل طائفة أكثر مما يحدده كونه شيخا ٠ وبصفة عامة فان طوائف التجارة وشيوخها كانوا على الأرجح أكثر ثراء ٠ ومن الجدير بالذكر أننا لم نجد بين من أصبحوا كبار ملاك للأرض فى القرن التاسع عشر شيخا واحدا لطائفة (١٨) » ٠

---

(١٧) Cromer : Mod. Egypt ii : 173-92 ; Milner : England in Eg., 324-33;

ح٠ خلاف : تجديد الاقتصاد ، ٧٦ ــ ٨٦ ، ١٧٩ ــ ١٨٩

G Baer : Population and society.

ولا يعتقد « باير » أن مصر كانت تعانى من زيادة الكثافة السكانية فى المدن

(١٨) Gabriel Baer : Egyptian guilds in modern times, The Israel Oriental Society, Jerusalem, 1964, 74.

أما مجموعة المقاولين وأصحاب المشروعات فقد ظهرت مع الحرب العالمية الأولى ، وقد وجدت زعامتها فى شخص محمد طلعت حرب وبالنسبة لمصادر التمويل التى درسها على الجريتلى فهى عديدة : أرباح التجارة والبنوك الخاصة والتسليف بالفائدة (منشه وقطاوى وسوارس)، ارباح تجارة القطن « الخيالية » (يحيى ، فرغلى ، بشيجرلى ، سلفاجو ولاسكاريس ، رولو ، بنتو ، رينهارت ، كارفر ، بيل ، روسانو الخ) ، الأرباح الناتجة عن بعض الأعمال المشتركة مع بعض بيوت المال والشركات الميكانيكية البريطانية ، ارتفاع أسعار قطن سكلاريدس ، أرباح مصانع السجاير (لاباس ، جاناكليس ، الخ) معامل التقطير (كوتسيكا) ، اصلاح أراضى مدينة مصر الجديدة (أمبان) ، تعويض المصانع الموقوفة (بهرند) الخ (١٩) • وقد استخدم جانب من هذه الأموال فى تغذية القطاع الصناعى الخاص بكبار البورجوازيين المصريين والأوربيين ، غير أن الجزء الأكبر استثمر فى عدد كبير من المشروعات الصناعية الصغيرة ، والمعامل ، التى كانت تؤدى عدة وظائف : استبدال المهمات الأجنبية وقت الحرب ، استحالة بيع المواد الخام للخارج ، ضرورة ايجاد عمل للسكان الذين يتزايدون بصورة هائلة ، ابدال أسلوب زراعة المحصول الواحد ، أو على الأقل تنويع الحاصلات ، وأخيرا الحاجة الى قوات عسكرية مرابطة فى البلاد أثناء الحرب (٢٠) • لقد حل المقاول الصغير تدريجيا محل الحرفى فى انتظار قيام الصناعة الكبيرة •

وأخيرا ، المثقفون • المثقفون التقليديون فى كتاتيب القرية والأزهر • مثقفون محدثون – أو بمعنى أبسط – ذو تكوين حديث • .وهم فى مجموعهم ينتمون الى مختلف الفئات التى سبق ذكرها – وخاصة الادارة والمهن الحرة والتعليم – أكثر من انتمائهم الى مجموعة اجتماعية متميزة ومتماسكة • ومع ذلك فيبدو ممكنا تشبيههم بالصفوة ، بسبب الهيبة التى كانت ترتبط بالعلم فى ذلك العصر بشكل أكبر منه فى الوقت الحاضر • الم تكن البكالوريا (شهادة الثانوية العامة) ، ولا نقول الشهادات العليا طريقا أكيدا للدرجات العليا فى الادارة (٢١) ؟ سنعود الى المثقفين واشكالياتهم فى الفصول التالية • أما الآن فيكفى بتحديد مكانتهم فى السلم الاجتماعى فى المدينة •

---

(١٩) A. al-Gritly : Struc. mod. ind. 374-5,

(٢٠) Kurt Grunwald and Joachim O Ronall : Industrialization in the Middle East, Council for Middle Eastern affairs, New-York, 1960, 111-4.

(٢١) C.A.O. van Nieuwenhiijze : Social stratification 65-7.

ويعتقد أن المثقفين ، بالاضافة الى البيروقراطية والعسكريين ، كانوا يتنافسون بغية السيطرة على نخبة السلطة •

ان مجموع هذه المجموعات والشرائح لا يمثل طبقة متميزة : تنظيم ضعيف ، ترابط قليل ، وعى أوضح نسبيا ، لكنه متحقق بصورة غير كاملة ـ ترابط اجتماعى ضعيف يضاف الى ذلك قلة عددهم • بقى أن دور هذه الفئات الاجتماعية الوسيطة بدأ ينمو فى المدن ، وانتشر من هذه الزاوية فى القرى •

هكذا أصبح العلم ، المكلل فى حد ذاته بكل أنواع التبجيل ، يقترن بالانتماء الى جهاز الدولة ، الوسطاء بين مختلف قطاعات الاقتصـــاد ، والوسطاء بين البلاد والخارج ، مستخدمو الدولة الذين خرجوا من صفوف الشعب والذين يتميزون مع ذلك بانتمائهم الى الحياة الحديثة • وعلى الرغم مما قيل منذ عدة سنوات عن الوزن الضعيف للطبقات المتوسطة ، فنرى أنها قامت بدور يختلف عما نشر عنها •

ولنعد الى الشـــعب فى المدن • أولا ، العمال التقليديـون الذين تضمهم النقابات والطوائف المهنية وأرقامهم تفتقر الى التأكيد • فقد ذكر بعضهم ١٦٤ نقابة طائفة مهنية فى القاهرة عام ١٨٤٠ و ٦٤ عام ١٨٧١ • وفى عام ١٧٨٠ كان بالاسكندرية ١٤٢ نقابة طائفية مهنية وفى السويس ٥٥ (٢٢) • وكانت هذه الهيئات الحرفية تضم ٦٣ر٤٨٧ شخص عام ١٨٧٠ طبقا لتقدير على مبارك ، وبعض المصـــادر الأخرى تذكر أن العـــدد فى الاسكندرية كان ٣٥ر٩٤٠ وفى السويس ١ر٥٢٧ • وعلى ذلك فان متوسط أعضاء كل نقابة مهنية أو كل طائفة كان ضعيفا ، وأكثرها عـددا كانت نقابة طائفة الحمارين فى القاهرة والاســكندرية (٢ر٨٠٧) ، والبنائين (١ر٦١٠ فى القاهرة) والخدم النوبيين (١ر٧٦١ فى الاسكندرية) ، وعمال جمرك ميناء الاسكندرية (١ر٤٦٦) (٢٣) • وفى أغلب الأحيان كان أعضاء الطائفة يقيمون فى نفس الحى ، وجميعهم ، باســتثناء حالات نادرة ، كانوا ينتمون الى دين واحد أو جماعة عرقية واحدة • وابتداء من القرن السابع عشر يمكن أن نستخلص المثال المشترك فى هـــذا النظام التقسيمى الذى كان ينتظم المدن المصرية ، آلا وهو « الاعتبارات الادارية والضرائبية » : فقد كانت النقابات أو الطوائف التى تهيمن عليها السلطة

---

(٢٢) G. Baer : Egn. Guilds, 23-4,
وهو يعتمد على أعمال عبد الرحمن الجبرتى ، على مبارك
J. Bowring, E. de Régny, J.C. McCoan, André Raymond, (Egypt as it is 298-9).
ويحصى « ماك كون » عدد الطوائف من ١٨٧٧ بأربعين طائفة ، والقائمة التى يقدمها ينقصها الكثير

(٢٣) وفقا للأعمال التى قدمها على مبارك ، G. Baer : Egn. Guilds, 24-5,
E. de Régny, C. Prufer, امين سامى Celebi Evliyâ.

المركزية تتقاسم المدن ، وتحصل الضرائب بطريقة فعالة ، ومرة أخرى نجد هنا الخصوصية التمركزية لمصر كدولة · ولا يدخل فى نطاق دراسـتنا تصنيف النقابات المهنية (الطوائف) ومع ذلك فيمكن القول أنها تنقسم الى ثلاثة أقسام : نقابات أو طوائف الحرفيين ، والتجار ، وأخيرا تلك التى تضم العاملين فى النقل والخدمات · ويسمح تحليل الاحصاءات المختلفة المصادر بالقول أن الحرفيين يملـكون حوالى نصف عدد النقـابات المهنية (الطوائف) فى القرن التاسع عشر ، وأن نقابات (طوائف) التجار كانت تتراوح بين ثلث وربع المجموع الكلى ؛ وكذلك نقابات (طوائف) النقل والخدمات ، وأن حوالى ٣٠٪ من أعضاء النقابات (الطوائف) كانوا من الحرفيين ، فى حين أن عدد الحرفيين فى الاسكندرية والسويس كان أقل من العاملين فى النقل والخدمات · والخلاصة أن « نظام النقـابات المهنية (الطوائف) المصرية فى القرن التاسع عشر لم يكن نظام نقابات أو طوائف مهنية بالمعنى الدقيق للعبارة . وانما هو تنظيم عام يضم تقريبا جميع سكان المدن العاملين المقيمين فى مصر بصفة دائمة ، بما فيهم الشرائح الدنيا من الموظفين الحكوميين ، أمثال الكتبة ومحصلى الضرائب · كذلك فان العلماء لم يكونوا يندرجون فى اطار (الطوائف) على الرغم من أن تنظيمهم الخاص بهم لم يكن يختلف كثيرا عن تنظيم النقابات المهنية [···] ومع ذلك ، فان الوظيفة الرئيسية ، وهى جمع الضرائب ، كانت مفتقدة لدى العلماء الذين لا يدفعون شيئا للدولة (٢٤) كما يقول « ج· باير » ·

كيف تم الانتقال من هذه الهيئات التقليدية الى الطبقة العاملة ؟ يرى البعض ، خاصة مصطفى فهمى ، أن اقامة الصناعة على عهد محمد على يعتبر العامل الحاسم (٢٥) ، ويرجعه آخرون ، ابتداء من « جيرمان مارتان » ، الى عهد الحملة الفرنسية (٢٦) · أما الدراسة الدقيقـــة التى قام بها « ج· باير » فتوضح خلاف ذلك · فالصناعة التى أقامها محمد على لم تؤثر

---

(٢٤) G. Baer : Egn. Guilds ch. ii, 16-48.
وحول حياة الضرائب انظر سيد الباز العرينى : « الحسـبة والمحتسـبون فى مصر » **المجلة التاريخية المصرية** ، السنة الثالثة (١٩٥٠) العدد ، ١٥٧ ـ ١٧٠ ، ويرى أن هذه الطائفة اختفت فى عهد سعيد ·

(٢٥) M. Fahmy : Révol. ind. Eg., 15.
ويبدى « جابريل باير » دهشته لتبنى « ن· توميش » هذه النظرية ، « برمتها » دون ابداء اى شكل من أشكال التقييم فى
N. Tomiche : «La situation des artisans et petits commerçants en Egypte de la fin du XVII siècle jusqu'au milieu du XIX siècle», Studia Islamica, xii (1960) 79-98.

(٢٦) Germain Martin : Les bazars du Caire et les petits méiiers arabes, Le Caire-Paris, 1910, 40-6.

على النقابات المهنية (الطوائف) ، اللهم الا الغزل الذى أصبح بعد مرسوم ١٣ مارس ١٨٢١ محظورا خارج المؤسسات الحكومية ، وفى نفس الوقت كان يقدر عدد أعضـــاء النقابات المهنية (الطوائف) المختلفة فى عهده بـ ٠٠٠ر٤٠ عضو . لقد كان الوالى يراقب عن كثب «جهاز» (الطوائف) التى كانت تزوده بقاعدة ادارية ومالية لا غنى عنها ، تحت مسئولية شيوخها . وفضلا عن ذلك فان الاحتكار كان موجها للتجارة الخارجية وليس للريف . كذلك فقد تشكل عدد من النقابات المهنية (الطوائف) الجديدة خلال القرن التاسع عشر للنوبيين وحمـــالى الفحم ، وبحـــارة المينـــاء ، ومرشـــدى الأهرامات . وتحول قلة من الشـــيوخ الى مقاولين خصوصا بين التجار . والواقع أن النقابات المهنية أو الطوائف بدأت تنطوى تحت تأثير الاقتصاد الحديث: منافسة المنتجات المستوردة من أوروبا ، احلال تجارة القطاعى محل (الأسواق) ، تغيير طبيعة النشـــاط التجارى فى القاهرة وتركيزه على القطن وليس على المنتجات الشرقية ، رفض المشروعات الأوربية ، الاستفادة من خدمات النقابات المهنية الطوائف لتزويدها بالأيدى العاملة ، اعادة تنظيم الجهاز الادارى للدولة فى أواخر القرن التاسع عشر والذى استغنى عن نظام الطوائف . وعلى ذلك ، ففى أواخر القرن اختفت الطوائف الواحدة تلو الأخرى ولم يعد أحد يتحدث عنها ، بعد الحرب (٢٧) .

يرجع تكوين الطبقة العمالية الى عهد محمد على . ويصور مصطفى فهمى ذلك تصويرا جيدا ، غير أن تحليله يستند الى مماثلات متكررة فى تاريخ الاقتصاد الأوربى واذا كان قد جانب الصواب بقوله ان أول عنصر عمل على زيادة الطبقة العاملة عدديا «كان الغاء القيود على نظام الطوائف» كانعكاس للثورة الاجتماعية التى صحبت الثورة الفرنسية ـ ، فمن الصحيح أن العنصر الثانى كان « نمو المشروعات الصناعية الحكومية ، وأن مصر كانت الدولة الوحيدة فى الشرق التى عرفت فى ذلك العصر تكوين طبقة عمالية أجيرة ، وذلك خلال فترة قصيرة للغاية » (٢٨) . ويذكر مصطفى فهمى أن ٠٠٠ر٤٣٠ عامل «انتقلوا الى الصناعة» خلال ٤٢ سنة بين ١٨١٦و١٨٥٠، ومن هـــذا العدد يقدر القوة العـــاملة فى مصـــانع الحكومة بـ ٠٠٠ر٣٠ « عامل دائم » ، و « العمال الاجراء » العاملين فى القطاع الصناعى بصفة عامة بـ ٠٠٠ر٢٦٠ ، وعلى ذلك تكون النواة الرئيسية ممثلة فى الرقم الأول ويشير الى أن الحكومة عممت نظام الأجر بالقطعة ، واستخدمت الحيوانات كقوة محركة بدلا من المجهود البشرى ، وكانت تقدم وجبات منتظمة الى

---

(٢٧) G. Baer : Egn. Guilds ch. v. 127-49.

(٢٨) M. Fahmy : Révol. ind. Eg., 82-4; وهنا نجد تعبيرا واضحا عن التماثل مع التاريخ الاقتصادى الأوروبى .

عمالها ، وحددت يوم العمل بشروق الشمس وغروبها ، ولكنها كانت تستخدم الأيدى العاملة من الأطفال والنساء ، كما كانت تتاخر شهورا عن دفع الأجور (٢٩) • وجدير بالذكر أن الانهيار الذى نتج عن الغاء الاحتكار ، ثم استئناف التطوير الاقتصادى الذى باشره اسماعيل ، وأخيرا التغلغل الأوربى والحديث الـذى صـحبه (٣٠) ، كل ذلك أعطى الطبقة العمالية منطلقا جديدا • فى عام ١٩٠٧ كان عدد العمال المأجورين فى القطاع الحديث ٦٤٣ر٠٢١ منهم ٤٨٩ر٦٨٥ فى الصناعة (٣٢) •

ومع ذلك فمع نهاية القرن ، أدى جمهور العمال المأجورين فى القطاع الحديث من الاقتصـــاد الى وجود بروليتاريا صناعية ، أى فئة من العمال المأجورين الذين يعملون بانتظام فى الصناعة على مدى يزيد عن جيل من الزمان • وقد عبر هـذا الحدث الاجتماعى عن نفسه بتكوين أول نقابة حديثة ، هى نقابة عمال التبغ فى القاهرة عام ١٨٩٩ ، وقد شهد نفس العام أول اضراب عمالى وقد قامت به نفس النقابة وتبعته اضرابات أخرى جديدة عـام ١٩٠٣ و ١٩٠٨ وخاصـة ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ ، وكانت أولى

---

(٢٩) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** • وقد اعترض على هذه الأرقام « هيرشلاج »حيث يقول « وقد يعنى هذا أن ٥٠٪ من قوة العمل كانت مستخدمة فى الصناعة ، فى بلد أغلبيته الساحقة كانت تعيش على ما تنتجه الأرض بالفعل •• ، فى حين أن جزءا هاما كان مستخدما فى أعمال السخرة غير الصناعية وفى الجيش » •

Z. Y. Hershlag : Introduction to the modern economic history of the Middle East, E. J. Brill, Leiden, 1964 87.

(٣٠) وعلى الرغم من أن ج• غالب يبدى تحفظا شديدا تجاه التغلغل الأجنبى فانه يقول ان « رؤس الأموال الأجنبية •• قد أسهمت اسهاما كبيرا فى احراز تقدم مادى فى البلاد ولا يرجع ذلك الى أهميتها فحسب وانما يعود أيضا الى دور الريادة الذى لعبته عن طريق شق الطريق فى عديد من القطاعات الاقتصادية » • (Capitaux étr. Eg., 412).

ويقول « م • رودنسون »منصفا « كان دور محمد على على العكـــس هو الانفصال عن الأوضاع القائمة من أجل الشروع فى عملية جديدة باغراء من النموذج الأوروبى •• وعندما تميزت بوضوح مزايا التصنيع التى فرضت نفسها على الجميع ، فقد كان ذلك متاخرا للغاية فى كثير من الأحيان • وان القوة العسكرية والاقتصادية للاستعماريين الغربيين جعلت من الصعوبة الشديدة ، ان لم يكن مستحيلا ، متابعة النموذج الاوروبى » •

(Islam et capitalisme 142).

(٣١) ولا يذكر ر• البراوى وم• ح• عليش غير The Census 1907, 279-83. الرقم الثانى - غير أنهما يحددان توزيـع العمال بين هذين القطاعين (**التطور الاقتصـادى** ، ١٤٧ ـ ١٦٦)

(٣٢) The Census 1917, 364-79.

النقابات العمالية الوطنية قد تكونت عام ١٩٠٩ (٣٣) • وكان هناك معنى وراء صدور أول قانون « اجتماعى » يحمل رقم ١٤ لعام ١٩٠٩ ، وهو ينظم عمل الأطفال فى مصانع حلج القطن ، ولم يصدر بعد ذلك أى قانون ينظم العلاقات بين العمال وأصحاب الاعمال قبل عام ١٩٣٤ (٣٤) •

وأخيرا ، وفى قاع السلم بالمدينة كان هناك جمهور غير مستقر يتألف من عمال يعملون ببعض الوقت ، وآخرين بدون عمل ومن المتشردين والبغايا • وقد أشرنا الى زيادة عدد الخدم (من ٢ر٣٥٨ر٥٠٦ عام ١٩٠٧ الى ٢ر٥٧٨ر٧٤٤ عام ١٩١٧) • وكذلك ارتفع عدد فئة « أصحاب المهن المتنوعة » : فمن ١٠٥ر٣٢٥ الى ٢٧٢ر٢٨٩ • ومع ذلك فاذا كان عدد من لا عمل لهم قد هبط بصورة كبيرة — من ٥ر٣٧٨ر٠٧٦ الى ٢ر٦٧٦ر١٠٠ — فان عدد المتشردين عام ١٩١٧ كان ٩ر٦٠٦ ، والبغايا ٤ر٢٤٣ (٣٥) فهن ٢ر٢٦٣ فى الاسكندرية فقط عام ١٩١٠ (٣٦) •

هل يمكن لنا أن نخلص من ذلك الى بعض النتائج ؟

ان أول اتجاه وهو خاص بالماركسية الكلاسيكية ، يحاول أن يعطى صورة مبسطة مسطحة طبقا للمصطلح الرسمى : « ان الشركات الصناعية فى مصر تنقسم الى ثلاث مجموعات : الأولى — المؤسسات الصناعية لكبار المحتكرين الأجانب (مصانع السكر والمعادن) ، وتمثل الفئة الثانية مجموعة الأجانب (الصناعات الغذائية ، والصناعات القطنية) ، وكانت المجموعة الأخيرة خاصة باليونانيين والأمن واليهود (مصانع التبغ) [•••] وكانت الجالية الأجنبية فى مصر تضم ١٠٠ر٠٠٠ نسمة فيما عدا اليونانيين والأرمن واليهود واللبنانيين ، من التجار ورجال البنوك والحرفيين وأصحاب الصناعات [•••] • وقد منع انهيار الحرف والمصانع كلا من البورجوازية

---

(٣٣) محمد فهيم أمين : **تاريخ الحركة النقابية وتشريعات العمل والعمال** ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦١ ، الفصل الأول ، ١٣ — ١٧ • وحول هذه المشكلة بأسرها انظر :

A. Abdel-Malek : Le rôle des classes populaires dans le mouvement national d'indépendance en Egypte aux 19 et 20 siècles, rapport aux Colloques de Tunis (1964) et Vienne (1965).

In Mou vements nationaux d'indépendance et Classes populaires aux XIXème et XXème siècles, Armand Colin, Paris, 1971, vol. 2, 306-32.

(٣٤) I. G. Lévi : «Les débuts de la législation sociale égyptienne», Eg. Cont., xxv (1934), no 146-7, 1-25 (1).

(٣٥) The Census 1917 364-79.

(٣٦) محمد سيد كيلانى : **السلطان حسين كامل ، فترة مظلمة فى تاريخ مصر ١٩١٤ — ١٩١٧** ، دار العرب للبستانى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ١٦٧ — ١٨٠ ، وهو يعرض تأثير الحرب على العادات والحياة الجنسية فى المدن •

الصغيرة والكبيرة من التكون [...] . وكانت البورجوازية الوطنية أبطأ الجميع في التكون [...] . كذلك فان وجود سلطة الدولة فى أيدى القوى الأجنبية منع تحول البلاد من بلد اقطاعى الى بلد رأسمالى [..] . وعلى النقيض من الهند وغيرها من البلاد المستعمرة ، لم يكن المصريون يقومون بوظائف سمسارية (كومبرادورية) ، فقد كانت هذه الوظيفة فى مصر يقوم بها السوريين واليونانيين والأرمن واليهود . وكان المصريون معزولين عن جميع المشكلات التجارية والمالية الخاصة ببلادهم [...] . وكانت البروليتاريا المصرية تتألف من ثلاثة عناصر هم : (١) الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم واستغلوا فى المصانع ، (٢) صغار الحرفيين الذين لم يصمدوا لمنافسة الصناعة الأجنبية الكبرى ، (٣) النساء والأطفال الذين أجبروا على العمل فى المصانع [...] . وكان العنصر الأول هو أهم هذه العناصر الثلاثة وبذلك يكون أغلب العمال المصريين من الفلاحين [...] . ولقد بدأت الحركة الثورية المصرية عام ١٨٩٩ باضراب عمال مصانع التبغ فى القاهرة بسبب انخفاض الأجور بنسبة ٢٤٪ (الناتج عن استخدام الآلات الحديثة) ولم يكتف العمال ولكنهم نظموا مظاهرة تطالب ، لأول مرة فى تاريخ مصر نوعا من النقابة باسم « الاتحاد المهنى لعمال التبغ » (٣٧) . »

هذه اذن تصورات مريحة مطمئنة : تنقصها حركة الحياة وهى ما استلهمها «جاك بيرك». أن معنى الحياة ، والخيال السوسيولوجى يطالعنا فى لوحة حيث الحدس المستقبلى يعطى لوحة ، صحيح أنها انطباعية ، غير أنها تحيط بأنواع التفكك التى يمكن تجنبها في كل تحول أساسى. القرية أولا : «مع عمل الرى الذى زاد باستخدام الآلات المشوه ، ثم الانتقال من وضع الى آخر ، الى حد كما فى أوروبا ، وفى نفس الوقت ، ثم الانتقال من المعمل الحرفى الى الانتاج على مستوى المصنع . ان المقابلة الاغريقية القديمة بين الطبيعة والعمل الفنى Techne تفرض نفسها هنا مع كل ما تثيره من تعارض جوهرى وتنافر بشرى . وعلى ذلك فنحن هنا أمام أقدم طبيعة أو بالأحرى أقدم طبيعة اسانية ، وأمام أغرب التكنيكات ، لأن الآلة هنا تأتى من الخارج لتعرض معدلا آخر للسرعة ، ولغة أخرى للتفاهم ، لأن ما كانت تحدثه الآلة من تبدلات رهيبة فى الانسان وفى المجتمع فى بلادها الأصلية تدفع بها الى درجة لا تطاق فى بلاد تدخلها دخلة الغازى . ومع كل ، فان المجتمع الريفى قبل كل ذلك ، وطن نفسه عليه [...]. أن هذه المقدرة على التغيير ما كانت لتكون على هذا النحو لولا اقترانها بقدرة على البقاء : وكلتاهما نابعة من كثافة الممارسة الاجتماعية كثافة تفوق الوصف .

(٣٧) L.A. Fridman : Kapitalitcheskoe razvitie egipta (1882-1939), Institut des Langues Orientales, Moscou, 1963, 16, 216-21, 285. 38

ولنطالعها فى مختلف جوانبها : الايكولوجيا التقنية ، اللغـة ، العقيدة ، التعاقد ، ان القرية المصرية تبدو كعقدة من العلاقات المتبادلة والمعانى على درجة تتسم بثراء مذهل تقريبا : لم نستجل الا القليل من مكنوناتها ؛ ثم، المدينة ، «المدينة المتنازع عليها» : «هل يتراجع هذا الاقتصاد عن فرضياته الخاصة به ؟ في الفرضية المحدثة التى تؤكد نفسها في الأساس بشكل طاغ بأشيائها وبأشخاصها ؟ لا توجد صناعة صلب محلية ، بالطبع ، ولا يوجد غير ماهو مستورد وحتى على باشا مبارك لا يذكر شيئا عن النساجين ! حقا أن هناك كثيرا من صناع الحرير الذين يصنعون العباءات ومناديل النساء · ولم يكن الدباغون ، الذين أبعدوا الى جنوب القاهرة ، سوى خمسمائة · الصرح يكون معيبا عندما تتسم قواعده بالفرض · ومن اليقين أنه يلزم اجراء تحليلات أعمق لتأكيد ما يبدو أنه يفرض نفسه ، ان لم يكن كنتيجة ، فعلى الأقل كفرضية عمل · أى تبقى الحرف ذات اليد العاملة الهامة التى مازالت باقية من الناحية الاقتصادية · ومن يدرى اذا لم يكن تنظيمها المعقد ، وكل هذه الفخامة فى المظهر وفى اللفظ ، وفى البراعة ، وشرف المهنة ، تمثل ممارسة للتعرف على الذات ، وزخرفة فى الهـوية التقليدية أكثر من مجرد كونهـا تشكيلا خارجيا منتجا ؟ وبالاجمـــال سقوط أكثر مما هو ميراث (···) · ان الصناعة تأتى من مكان آخر وهى تعمل فى جزء كبير منها بمساعدة فنيين أجانب · ويمكن أن يكون مثيرا للشغف دراسة هاتين المسؤوليتين من العامل الايطالى أو اليونانى ، وتدريب المهندس المصرى من قبل الفنى الفرنسى أو الانجليزى · ان التقدم مستمر ، لكن الاخفاق سيكلف كثيرا ولابد من وضعه فى الحسبان بوصفه الثمن الذى يدفع للانتفاع بالحضارة الصناعية ، ضمن تقدير الميزانيات المالية التى تعد عن ادارة اسماعيل أحيـــانا · واذا كان يمكن اعتبار ادخال الزراعة المائية ، فى الوقت الحاضر نجاحا ، رغم احتكارها بشكل فاضح ، فاننا مازلنا نهزأ من عدم نجاح المصانع على نمط بوتمكين التى بنى محمد على الكثير منها · ان الحافز التى تقدمه الدولة هو الذى يقدر وحده الى حد ما على أن يحل محل المبادرة الأجنبية ويسيطر عليها · ولقد عمل على ذلك اسماعيل عن اقتناع : فعندما بنى مصنع سكر فى بها ، جعل من القرية ، مع مراعاة النسب ، مجمعا صناعيا صغيرا · لكن الوابورات السبعـــة فى المحلة الكبرى والتى كانت موجـــودة آنذاك بغرض الحلج والتحويلات الأخرى ، تتوزع بين الأجانب والشرقيين على نحو مميز · نجاح التحديث الحقيقى هو التحديث الذى يضطلع بمسؤولية القيام بدور المحرك (الموتور) ، ان أمكن القول ، لمجموعة هائلة عددها (٥٠٠٠٠ نسمة) وفى تقاليدها الحرفية · هل سيكون المستقبل على هذا النحو ؟

« فى الوقت الراهن لا يمكن فصل هده الالية عن جوانبها الغربية،

الشاذة ، والداخلية كيلا نقول الاغتصابية · وهي تنمو في وسط رأسمالي تكنوقراطي نحو الأعلى ، مضارب بل وربوي نحو الأسفل · ان المراتب القديمة أو الصاعدة تندمج ، في هذه العملية ، في حدود ما تستطيع الوصول اليه ، وتستخدم من أجل ذلك وسائلها الخاصة والتي تؤثر بها ، في بعض الحالات ، حتى على البيوت الأجنبية القوية · »

والقاهرة تحتل موقع الصدارة في عملية التحول : « مضطربة من الداخل ، مكونة من عناصر شتى ، منتشرة في الخـــارج ومتحددة كلها ، تتحداها الكوزموبوليتيكية (٣٨) ، لكنها تمارس الحداثة رغم حنينها الى نفسها متقطعة الأوصال لكنها حية · ان القاهرة تجهد لتصبح عاصـــمة العصور الجديدة (···) » ·

ثم هذه الرؤية للنواة المركزية ، أي للشعب المصري : « اذا كان ثمة شعب ينكر كل نهج اختزال سواء في ممارسة العمل أو في طريقة التفسير، فتلك هي مصر ، نيل الزمان ونيل المكان حيث لا يمكن لشيء أن يتحقق الا بما يزيد عن الكفاية عن طريق ما هو أحلى · ان الدمائة الناقدة التي يضفيها هذا الشعب على النماذج والضغوط لا تعد في الأساس سوى لجوء الى ما يمكن فيه خصائص شأن أوراق الشجر في اريافه التي تستمر في حيويتها حتى يدركها التحول فتمددت ، غير أنها لا تخرج عن نطاق المبدأ الذي يحكمه علية الاستزراع والانبات » (٣٩) ·

(٣٨) الاتجاه الى العالمية اللا ـ قومية ، والمعادية لها ·

(٣٩) J. Berque : L'Egypte .., 41-2, 91-8. تجدر المقارنة هنا بين هذا التحليل المنمق والتحليلات الوصفية المسطحة من طراز « يؤدى التغير الاجتماعي الى القضاء على الاطار الاقتصادي الاجتماعي التقليدي تقريبا » ، الذي يزدري مكانة وأثر مجهود الانشاء الاقتصادي والتصنيع ، كما نراه في عمال :

Baer, Gabriel : Social Change in Egypt 1800-1914, in Holt P.M., ed. : Political and Social Change in Modern Egypt. 135-61; Loutfi el-Sayed, Afaf : The rôle of the 'ulamâ' in Egypt during the early nineteenth centiry, in Ibid., 264-80.

وفي هذا الفصل الأخير دراسة لفئة العلماء في بداية القرن التاسع عشر ·

خاتمـــــة

من الأوفق أن نستخلص ، مؤقتا ، الخصائص العامة للتطور الاقتصادى والاجتماعى ٠

أولا ، تتمتع مصر ، منذ عهد محمد على ، باقتصاد وطنى بدلا من الاقتصاد المحلى ، كما هو الحال بالنسبة لأغلب البلدان الشرقية ٠ ان وجود مركز وطنى موحد مهيمن فى مجال السياسة والاقتصاد يعود بطبيعـة الحال الى الخصوصية التاريخية الألفية التى تتمتع بها مصر ٠ وقد قام الاقتصاد الاكتفائى المستقل الذى أراده محمد على بخدمة أهداف مؤسسى مصر الحديثة وقيام الامبراطورية ٠ وعلى الرغم من عملية التعويق فى عام ١٨٤٠ ، فقد استطاع اسماعيل أن يستأنف السير فى الطريق الذى رسمه أول الولاة ٠ ثم ان الضغوط ، وتغلغل رأس المال العالمى ، وأخيرا احتلال مصر عام ١٨٨٢ أضاف الى هذا العامل عاملين آخرين مهمين : فمن ناحية قيام سوق وطنية موحدة وخصوصا بفضل الأعمال الكبرى التى باشرها اسماعيل ، ومن ناحية أخرى ، ادماج الاقتصاد المصرى العالمى من زاوية القروض والاقتصار على زراعة القطن ٠

ان هذا الادماج ــ وهنا تكمن ملاحظتنا الثانية ــ قد تحقق عن طريق التشويه الذى فرض على الاقتصاد المصرى من الخارج ٠ وقد تحدثنا عن مأساة المحصول الواحد وهو القطن بالنسبة للحياة الاقتصادية بصفة عامة: ان الادماج هنا هو عملية استرقاق للظروف العالمية ولعيوبها ومضارها ، التى ظلت مصر غريبة عنها مع حرمانها منذ ١٨٧٩ من حرية ممارســـة سلطاتها ٠ ان ما قام به « كرومر » وخلفاؤه من القضاء على الصـــناعة والسياسة المنظمة بهدف احباط كل محاولة جديدة للانطلاق قد زاد من تقليص فرص العمل والمناورة واحتمالات التطوير ٠ وأخيرا فان ربط الجنيه المصرى بالقوة بمصير الجنيه الاسترلينى ، بعد فترة من ربطه بالغطاء الذهبى قد أكمل عملية تقليص السيادة الاقتصادية للبلاد ٠ وهنا تتقاســـم مصر مصير سائر البلاد الخاضعة للاستعمار والتى تحدث عنها كل من « هوبسون» و « لينين » و « روزا لكسمبورج » فى أواخر هذه الفترة التى نقـــوم بدراستها ٠ وهناك تشويه آخر ، وهو جغرافى هذه المرة ، ميز مصر السفلى

على حساب مصر العليا • صحيح ان الدلتا تضم معظم المســاحة القابلة للزراعة والمدن الكبرى • واذا كانت الأعمال الكبرى قد خصصت بالدرجة الأولى للاسكندرية ثم للقاهرة ، واذا كانت طرق المواصلات قد وجهت من الجنوب الى الشمال ــ قليل جدا من الطرق تخترق الدلتا أفقيا ، من الشرق للغرب ــ واذا كانت مدن مصر العليا (الصعيد) قد أهملت ، فان هذا يعود بصورة مباشرة الى الاستغلال المدروس للاقتصاد المصرى • ومع ذلك ، فكيف ننسى أن القاهرة والاسكندرية قد احتلتا مركز العاصمة السياســية والثقافية على مر عصور تاريخ مصر ؟ ان تعميق الفروق بين هاتين المدينتين وبين الريف ، بسبب الاستعمار ، سيكون له نتائج خطيرة على المســتوى الاجتماعى والسياسى • وسنرى ، بعد ذلك أن هذا العامل سيلعب دورا فى الاختلافات الأيديولوجية النابعة هى نفسها من الأساس الثقافى الذى تركبت عليه : الانفتاح على الجانب الآخر للبحر المتوسط ، تمركز سلطة الدولة الوطنية ، على الرغم من ضغط المحتل ، فى القاهرة ، أسلوب الحياة اليومى التقليدى ، بل والمتخلف ، فى الجنوب •

وأخيرا فان العلاقة الجدلية التى نشــأت بين الرأســمالية المصرية والاستعمار تمثل الخاصة الثالثة للاقتصاد المصرى • والحقيقة أنها جدلية ذات ثلاثة مستويات • أظهرها هو ما رسمنا خطوطها العريقة بين المجهود الوطنى للبناء الاقتصادى والتغلغل ، ثم الاسترقاق ، الذى مارسه رأس المال الأجنبى الضخم • وتسمح النظرة الفاحصة بتمييز عقدة توتر أخرى فى قلب القطاع الوطنى • ان الرأسماليين الأجانب ، أو من أصل أجنبى ، المقيمين فى مصر يدخلون فى نطاق السياسة الاقتصادية الأوربية • وكان الهدف هو الاستفادة بأسرع وأكثر ما يمكن من الامكانيات التى ظهرت بسبب شلل حرية العمل الوطنى ، مع تحسين وسائل الاستغلال والادارة فى القطاعات الاقتصادية « المباحة » ، وخاصة الزراعة ، والمشروعات الكبرى ، والتجارة ، والبنوك • وكان الرأسماليون المصريون ــ البورجوازية الوطنية (المحلية) ــ مرتبطين ، موضوعيا ، باوروبا وبالأخص بريطانيا العظمى وساحة ليفربول • غير أن اختلافا بدأ بعد الصحوة المصرية حوالى ١٨٩٠ ــ ١٩٠٠ ــ التى شرعت تبحث عن طريقها ، انطلاقا من خبرات محمد على ، بل ومن ماضى مصر المجيد • ان هذا القطاع الرأسمالى المصرى ، وهو يعايش المجموعات الأوربية معايشة يومية ، كان يحاول أن يستحث الخطى ويفكر فى المســتقبل ــ ثلاثون عاما ــ بخصــوص الاقتصاد الوطنى ، والتصنيع ، ثم الاستقلال السياسى ، والسيادة •

وهكذا نرى أن علاقة المدينة والريف تختلف اختلافا ملموسا فى مصر عنها فى أغلب البلدان الخاضعة لسيطرة الاستعمار فى تلك الفترة

نفسها • صحيح أن المدن تعتبر مركزا لعملية التحديث الاقتصادى والاجتماعى والثقافى • وان الطبقة المحلية المهمية ـ طبقة كبار الملاك العقاريين ـ التى خرجت شيئا فشيئا من تطور القطاع الرأسمالى ابتداء من ظهور الملكية الخاصة للأرض ـ كانت هى همزة الوصل بين المدن والقرى ، ومن ناحية أخرى بين البلاد والخارج ، وهو الذى كان يحتكر التجارة الخارجية وخاصة شراء القطن • هذا التلاحم عند القمة ، على حد هذا التعبير ، قد خلق روابط عضوية عميقة بين داخل البلاد وبين المدن • كذلك فان انتقال بعض جماعات من السكان كان يتم من الريف فى اتجاه المدن • ان مؤخرة البلاد هنا تعبير ينطبق بحذافيره على الجنوب ، على مصر العليا ، لأنه اذا كانت الاسكندرية ، وقد اتجهت نحو أوروبا ، راحت تلعب دورا اقتصاديا رئيسيا ـ خاصة منذ عهد سعيد حتى آخر القرن ـ فان القاهرة تقع فى قلب البلاد وتطوى بين جنبيها الدلتا حيث الجانب الأكبر من ثروة البلاد وحيث يعيش غالبية السكان •

روابط عضوية عميقة ، لكنها أيضا تكوينية • ولا حاجة لاستعجال الأمور أو المبالغة • ان الدولة الموحدة تجمع وتقود تتصرف وتقرر ، تدير وتهيمن على المقدرات وعلى الناس. ولا يتم ذلك عن طريق الاستبداد ـ الذى يفترض وجود فوارق شديدة فى البنى الاجتماعية التى تتوافر لها الأجهزة الخاصة بها للتعبير والعمل ، وكذا تفرقة واضحة بين « مؤخرة البلاد » والمدن ـ بقدر ما هو عن طريق سلطة التقرير • وأضاف محمد على الى الخصوصية الألفية سندا قويا • ان الدولة هى التى تنهض بالتصنيع ، وكما سنرى ، بالنهضة الثقافية • ان موظفى الدولة هم الذين يوجهون الاقتصاد المصرى ويوحدونه ، قبل أن تأتى الامبريالية وتفرض بالقوة ادماج مصر فى السوق العالمية قبل ظهور الرأسمالية المحلية • كذلك فان جهاز الدولة هو الذى حافظ على قدر ما من الاستقلال الذى بدونه ما كان ليكتب للحركة الوطنية أن تنطلق وتنطلق على مستوى البلاد بأسرها •

وعلى مدى هذه الصفحات فان اسطورة مصر « الاقطاعية » قد وئدت فى مهدها لدرجة لا يجب معها تكرار البرهنة عليها بطريقة تفصيلية • ان الأمر الواقع يتعلق بخاصية أدبية أو دفاعية الغرض منها هو طبع مصر الحديثة بالغرابة ، أو المبالغة بصورة هائلة فى خلق الفجوة التى تفصل هذه المرحلة الأولى من النهضة عن المرحلة الثانية التى تنطلق مع ثورة ١٩١٩ •

ان تعبير « ما قبل الرأسمالى » الذى أطلق على الفترة بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٨٢ يقلل مما هو جوهرى فى الصناعة التى أنشأتها الدولة أولا ، أى قيام قطاع رأسمالى ، وفى الاقتصاد الزراعى والتجارى بعد ذلك ـ الذى

يهيمن على نشاط البلاد فى مجموعها · نحن اذن بصدد اقتصاد من نوع وسيط ، دون أن تكون المرحلة أو الحلقة الأولى لهذا الانتقال ما اقترح بتسميته ب « الاقطاع الشرقى » · وقد أثبتت البحوث الدقيقة قدم القطاع الرأسمالى فى قلب السوق المشتركة » العربية ـ حيث تعتبر مصر عنصرا أساسيا ـ وعدم وجود هذا « الاقطاع الشرقى » الذى يسعى ، باسلوب العلاقات الانسانية ، الى تكوين العنصر الأساسى فى خاصية التشكيل الاجتماعى ـ الاقتصادى فى مجموعه ، وفى الأصل الخارجى للرأسمالية المصرية (١) ·

ان الاندماج الاجبارى لمصر فى السوق الاقتصادية العالمية ، فى عهد اسماعيل ، وبوجه خاص منذ الاحتلال البريطانى ، خلق اقتصادا رأسماليا فى البلاد بصفة عامة : الانتاج للسوق ، العمل المأجور بصفة خاصة · ومع ذلك فمن الأفضل تفصيل التحليل : فاذا كان الاقتصاد المصرى ،بدءا من ١٨٨٢ ، انبثق عن الرأسمالية ، فان الأمر يتعلق بقاسم مشترك يمكن أن نجده فى بلدان مشابهة خضعت لنفس النظام السياسى ، فى عهد التوسع الامبريالى ، وهو ما اقترحنا تسميته بـ « الرأسمالية المتخلفة ذات الصبغة الاستعمارية ويغلب عليها الطابع الزراعى » (٢) ان التكوين الاجتماعى ـ الاقتصادى المسيطر موجود فى اطار النمط الخاص به ، وذلك دون تجاهل أسلوب العلاقات الانسانية ، ودون التهوين من المعدل السريع القائم الذى تم استخلاص محصلة اتجاهه ·

ان المدهش هو أن نرى استمرار التيار العميق الذى يحمل النضال المصرى منذ ١٨٤٠ ، على الرغم من القهر ثم الاحتلال · فبعد الدولة المالكة جاءت جماعات الملاك وأصحاب المشروعات والوعى القومى ـ ابتداء من الأوساط الدينية حتى العسكرية ـ الذى أثاره وحمل لواءه المثقفون ، يرسم

---

(١) M. Rodinson : Islam et capitalisme, ch. iii et v. 45-89, 131-93.
والفصل المتعلق ب « الاقطاع أو نمط الانتاج الآسيوى ؟ (٧٣ ـ ٨٣) بالغ الأهمية ، وهو لا يسمح بالحديث مرة أخرى عن « الاقطاع الشرقى » ، على نحو ما فعلنا ، من قبيل تيسير الأمور ، فى كتابنا « **المجتمع المصرى والجيش** » ، وذلك فى أعقاب ما كتبه ابراهيم عامر ·

(٢) لقد انتقدنا ، خطوة فخطوة ، فكرة « مصر الاقطاعية » ، ولا سيما فى :
«La réforme agraire en Egypte et la révolution nationale 1952) Tiers-Monde, iii, (1962), no. 9-10, 181-216;
المجتمع المصرى والجيش ، القسم الأول والقسم الثانى ، الفصل الأول ، ١٥ ـ ٩١ الطبعة الفرنسية ٣٧ ـ ١٠٩ الطبعة العربية ·
"La reforme agraire en Egypte «A.A.U.» : proplèmes et perspectives» Développement et Civilisations, no 22 (1965) 19-27.

طريق المستقبل . ولا ينبغى أن ننسى أن المرحلة التى ندرسها هنا هى أظلم المراحل فى تاريخ مصر الحديثة — فهى مرحلة الانحطاط ، وفشل أول نهضة ، وهى مرحلة الاحتلال . ان المستقبل الوشيك، وهو يضىء الواقع — رغم عثراته — يتهيأ لمرحلة أشد وأصلب .

يرتفع الستار اذن عن مصر ، وهى فى غمرة التغير والتبدل ، خاضعة بكل ذلة للسيطرة الأوربية ، مهيضة الجناح بسبب التغلغل الامبريالى ، وهى تناضل — بأى ثمن ! — لتبعث الى الحياة نهضتها الوطنية . وتتردد من أقصى البلاد الى أدناها كلمات الاستقلال والدستور وصيحة الحرية .

الباب الثانى

أسس النهضة الثقافية

(١٨٠٥ - ١٨٧٩)

ان التدخل الأوربى ، كما هو متوقع ، لا يمكن أن يقتصر على مجالات الاقتصاد والسلطة السياسية ٠ فأوروبا وليدة الثورات ، وبنوع خاص ، الثورة الفرنسية : ان « البعثة العلمية » التى صاحبت الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت هى التى بدأت استئناف العلاقات المباشرة بين مصر ، الولاية شبه المستقلة والمنعزلة نسبيا فى الامبراطورية العثمانية منـــذ ١٥١٧ ، وبين أوروبا التى أنهكتها الحروب الثورية ، وبدأت فيها الثورة الصناعية والتكنولوجية ٠

«تكيف ثقافى» ، أو «تغريب» ، هكذا يرى بعض الكتاب تعريف عملية التداخل الثقـــافى الأوربى المصرى ، خـلال تلك الفترة ٠ والواقع وعلى الرغم من الفروق البسيطة ، فان هذين الاصطلاحين يكادان يخفيان الطابع الجدلى فى العلاقات الثقافية التى نرجو دراستها ، كأساس وكعامل مكون فى تشكيل الثقافة والفكر الليبرالى فى مصر الحديثة ٠ لذلك يبدو لنا ان من الأوفق أن نقسم دراسة هذه العملية طبقا لمقاييس شكلية ، داخل المرحلة التى اخترناها ٠ ان الفصل الثالث سيتناول بالدراســـة قنوات الانتقال وأشـكال الاتصـــال ٠ وفى الفصل الرابع سـنعرض للتنظيمات المنبثقة عن السيطرة الأوربية ، وتطورها فى ظل تأثير العوامل الداخلية ثم بتبلور حركة ثقافية وفكرية منبثقة عن تقابل هذين التأثيرين ، وهو تقابل تاريخى فى أغلب الأحيان ٠

أما الفصل الخامس فسيخصص لدراسة تكوين أيديو لوجية الحركة الوطنية قبل ثورة ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ والاحتلال البريطانى ٠

الفصل الثالث

قنوات الانتقال : الانفتاح على أوروبا

القسم الأول : البعثات الدراسية

ان التاريخ التفصيلي للبعثات الدراسية المصرية فى أوروبا ، وخاصة فى فرنسا ، لا يدخل فى اطار عملنا • غير أن توضيح الأعمال الخاصة بها أمر ضرورى لمعرفة طبيعتها ، وبالتالى لمعرفة مدى تأثيرها على النهضة الثقافية فى مصر •

لقد فتح محمد على الطريق ، بعد أربعة أعوام فقط من الثالث عشر من مايو ١٨٠٥ ، ذلك اليوم الذى قبل فيه أن يتولى السلطة كوال على مصر • ففى عام ١٨٠٩ سافرت البعثات الأولى الى ايطاليا لدراسة العلوم العسكرية وبناء السفن والطباعة وفنون الهندسة ، وبعد أول طالب وهو نيقولا مسابكى ، الذى درس الطباعة ، باشر عثمان نور الدين حياة عملية صاخبة (١) • وأرسل بين عامى ١٨٠٩ و ١٨١٨ ثمانية وعشرين طالبا الى أوروبا ومن المستحيل اعطاء القائمة الكاملة بأسمائهم بسبب الحريق الذى دمر القلعة عام ١٨٢٠ (٢) • وبدأ عقب ذلك الاتجاه نحو فرنسا ابتداء من عام ١٨٢٦، تحت تأثير «دروفيتى» Drovetti و «وجومار» **Jomard** (٣) • وقد اعتاد الباحثون التحدث عن تسع بعثات بين عامى ١٨٢٦ و ١٨٤٧ ، ناقلين ذلك عن عبد الرحمن الرافعى (٤) • غير أن «ج• هيورث ــ دون »

---

(١) J. Heyworth-Dunne : An introduction to the history of education in modern Egypt, Luzac and Co., London, 1939, 150-7

(٢) Yacoub Artin : L'instruction publique en Egypte, Leroix, Paris 1890 Annexe E.

(٣) H. Pérés : «Les premie es manifestations de la renais^ance littériire arabe en Orient au XIX siècle», Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, Fac. Lettres. Univ. d'Alger, i (1934-35), 233-56 (234); J. Heyworth-Dunne : Hist edic., 157.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على** ، ٤٧٦ ــ ٤٩٦ •

قد عارض ذلك وعاد الى ذكر البعثات الأولى وطبيعة الحركة المستمرة • وعلى أية حال يمكن أن نتذكر التواريخ الأساسية التالية : ١٨٢٦ و ١٨٢٨ و ١٨٢٩ و ١٨٣٣ و ١٨٤٤ ، ١٨٤٧ • وتختلف الأرقام باختلاف المصادر، غير أن هذه الاختلافات تسمح بتحديد الحد الأقصى لحجم هذه البعثات (٥) :

المصدر	الفترة	الطلبة المبعوثون
عبد الله النديم	١٨٢٦ ـ ١٨٤٨	٢٩٠
جورجي زيدان	١٨١٣ ـ ١٨٤٩	٣١٩
أمين سامي	١٨١٣ ـ ١٨٤٨	٣١٩
عبد الرحمن الرافعي	١٨١٣ ـ ١٨٤٧	٣١٩
الأمير عمر طوسون	١٨١٣ ـ ١٨٤٨	٣٣٩
ج • هيورث ـ دون	١٨٠٩ ـ ١٨٤٩	٣٤٩
ابراهيم أبو لغد	١٨٠٩ ـ ١٨٤٨	٣٤٧
زكى صالح ومحمود مرسى	١٨١٣ ـ ١٨٤٨	٣٤٠

وتتوفر لدينا المعلومات الدقيقة عن التكوين القومى العرقى والاجتماعى وخصائص هذه البعثات • وان بعثة عام ١٨٢٦ ـ التى تألفت فى معظمها من الأتراك والأرمن ، مع أقلية من المصريين ـ من بينهم امام البعثة الشيخ رفاعة الطهطاوى ـ كانت تتكون فى جوهرها من الأعيان وأتباعهم (٦) • ومن بين ٤٤ طالبا ، كان ستة فقط يدرسون القانون والادارة وعلم السياسة أما الأخرون فقد تخصصوا جميعا فى علوم وفنون الحرب والهندســة (٧)•

(٥) عبد الله النديم : **الأستاذ** ، السنة الأولى ، القــاهرة ١٨٩٣ ، ٧٣٦ ـ ٧٣٧ ، جورجي زيدان : **تاريخ آداب اللغة العربية** ، طبعة جديدة ، دار الهلال ، القاهرة د• ت• ، جـزء ٤ : ٢١ ٢٣ ، أمين ســامى : **تقويـم النيل** ، القــاهرة ، ١٩٢٨ ، جـ ٢ : ٤١٤ ، ٤٧٦ ـ ٤٩٦ ، عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على** ، ٤٧٩ ، عمر طوســون : **البعثات العلمية** ، الاسكندرية ، ١٩٣٤ ، ١١ ، ١٢٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٢ ـ ٢٢٦ ،

I. Abu-Lughod : Arab rediscovery, 35, no 9;

زكى صالح ومحمود مرسى : **البعثات العلمية فى القرن التاسع عشر** ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، جـ ١ : ٥٧ ـ ٥٨ •

(٦) Anouar Louca : Voyageurs et écrivains en France au XIXème siècle th. lettres, Paris 1957, ex. polycopiés, i : 336,

ويشير على سبيل المثال الى أن الطهطاوى اختاره بصفة شخصية الشيخ حسن العطار الذى كانت له مكانته •

(٧) J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 157-70. ، عبد الرحمن الرافعى ، **عصر محمد على** ، ٤٨١ ـ ٤٨٤

وبين عامى ١٨٢٨ و ١٨٣٦ نجد ١٠٨ طالب (منهم ٢٦ فى بريطانيا العظمى و ٤ فى فيينا ، والآخرون فى فرنسا ، ونلاحظ التخصصات الآتية : ٧ للصناعات ، ١٤ للبحرية ، ٨ للعلوم ، ١٢ للطب (نحن نتحدث هنا عن المجموع الكلى لبعثة عام ١٨٣٢ المعروفة « بالبعثة الطبية الكبرى » والتى اختارها كلوت بك والتى سوف تؤسس فيما بعد مدرسة الطب فى مصر)، ٢ للطب البيطرى، ٢ للادارة (٨) ٠ أما الفترة بين ١٨٣٧ و ١٨٤٣ فانها تمثل بداية الانطواء ، فى الوقت الذى بدأ فيه العدوان الأوروبى ضـد محمد على ، ويقدر عبد الله النديم مجموع البعثة بأربعين يخصم منهم ــ كما هو الحال بالنسبة لمجموع الأرقام الخاصة السابقة ــ ١١ نجارا وأربعة فنيين فى المناجم بعثوا الى بريطانيا العظمى لتعلم نسج الحرير واسـتخراج الفحم (٩) ٠ أما بالنسبة لعام ١٨٤٤ ، فان أكبر بعثة ــ الأرقام تتراوح بين ٦٥ و ٧٠ طالبا ــ سافرت الى فرنسا ، وكان أعضاؤها من شباب أسرة الوالى ــ ومن ثم جاءت تسمية «بعثة الأنجال» التى أطلقها على مبارك ــ وأبناء بعض كبار رجال الدولة وألمع تلاميذ التعليم الحديث ٠ وكان الهدف ذا دلالة: فهى بعثة عسكرية بالدرجة الأولى ، وعدد قليل منها لدراسة علوم أخرى ، وبوجه خاص ٩ لدراسة الادارة (١٨٤٦) و ١٥ لدراسة الطب ٠ كما سـافرت أربع بعثـات أخرى أقل أهمية بين ١٨٤٥ و ١٨٤٧ ، الأولى والثانية سافرتا الى فيينا وباريس : ٨ طلاب لدراسة الحقوق والطب ٠ أما البعثتان الأخريان فقد سافرتا عام ١٨٤٧ بصفة خاصة الى بريطانيا العظمى وكانتا تتألفان من ٣٦ طالبا يدرسون العلوم البحرية والهندسية ، وقليل من أعضائها سافر الى فرنسا (١٠) ٠

ويقدر ابراهيم أبو لغد ، فى دراسة حديثة ، تخصصات المبعوثين على النحو التالى : ٣٥٪ للعلوم العسكرية والبحرية ، ٢٧٪ للفنون الصناعية ، ١٨٪ لفنون الهندسية ، ٧٪ للطب ، ٧٪ للادارة والحقوق والسياسة ، ٤٪

---

(٨) J. Heyworth-Dunne : Hist educ., 178-80; ، عبد الرحمن الرافعى ، **عصر محمد على** ،٤٨٦ ــ ٤٨٩

(٩) عمر طوسون : **البعثات** ، ١٦٢ ــ ١٦٣ ، أمين سـامين : **تقويم** ، ج : ٤٨٧ ، Heyworth-Dunne : Hist, educ., 221-3. ؛ اسماعيل باشا هارمانك : **حقائق الأخبار عن دول البحار** ، بولاق القاهرة ، ١٨٩٤ ــ ١٨٩٩ ، ١٩٢٣ ، جـ٢ : ٥٢٦ ؛ ثم أحمد عزت عبد الكريم ، **تاريخ التعليم فى عصر محمد على** ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ٤٥٣ ، يشير أن الى ٢١ عامل نسيج : وقد نقل هذا الرقم ز٠ صالح و م٠ مرسى : **بعثات القرن التاسع عشر** ، ٥٧ ، ونظرا لعدم توفر وثائق محددة عن هذا الموضوع يظل المصدر هو النديم ، كما أن عبد الرحمن الرافعى لا يشير الى هذا الموضوع ٠

(١٠) J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 243-64. ، عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على** ،٤٨٩ ــ ٤٩٦ ٠

للزراعة وعلومها ، ٣٪ للعلوم (الكيمياء) (١١) · وقد أوضحنا فيما سبق كيف كانت عملية تصنيع مصر ، فى ذلك العصر ، تستهدف خلق دولة مستقلة حديثة تملك جيشا قويا فعالا · وهذا يعنى أن البعثات كانت تستهدف أساسا تزويد الوالى بالكادرات اللازمة ليس للجيش فقط ، وانما للدولة أيضا ، وذلك فى مجال عملية التحديث الاقتصادى ، أى الصناعة· وقد ظلت هذه الرغبة قائمة ، كما أوضحنا ، بعد فترة من التذبذب ، بين عامى ١٨٣٧ و ١٨٤٣ · وكان جوهر البعثات الأخيرة ، وهى أكبر البعثات عددا ، يستهدف تقوية كوادر الجيش ، وهو هدف كان له المقام الأول. ذلك أن معاهدة لندن ومناورات القوى الأوربية قد زادت من مخاوف محمد على، وارتيابه بالنسبة للأجنبى ، وانطوائه داخل الدولة وجهازه العسكرى ·

هل لنا الآن أن نتحدث ، على نفس المستوى ، عن رؤية ثقافية ، وبالتحديد عن اقامة نهضة حضارية أصيلة ؟ ان أنور لوقا وآخرين يرون ذلك (١٢) ، بالرغم من الموقف المتشدد تجاه سياسة البعثات ، ففى أطروحته التى كتبها بعد الاطاحة بالملكية نراه يدين « النظام العسكرى الصارم الذى جعل طلابنا حتى فى أوروبا ، بدلا من أن يتحركوا فى حرية وينفتحوا على هذا العالم الجديد ، يظلون ، بصفة رسمية ، محروسين من روح المبادرة (١٣) ·» واللوائح الصارمة تشهد على ذلك ، فهى توجه وتنظم الحياة اليومية للبعثة المصرية فى فرنسا (١٤) · ونجد نفس الملاحظة فى كل مكان : كان محمد على يكره أن يعهد بالمهام السياسية أو الادارية الى الطلبة الذين حصلوا على دبلوماتهم فى هذه المواد ، واساء استخدام المتخصصين غير العسكريين باستثناء الأطباء (١٥) · وسنرى فى القسم

---

(١١) I. Abu-Lughod : Arab rediscovery, 35, no 9.

(١٢) A. Louca : «La renaissance egfptienne et les limites de l'oeuvre de Bonaparte», Calt. hist. égypt., vii (1955), no. 1, 1-20:
« ويتعين علينا أن نعترف بأنبونابرت لم يعد خلق الحياة المصرية وانما هز مصر بقوة · ولم تتغير الحياة المصرية بفعل وجود الجيش الفرنسى وانما هى قد بدأت ببساطة · وتؤرخ هذه اللحظة بالفعل لنهضتنا · وقد قام محمد على بانشاء المصانع والمستشفيات والمدارس فى ذات الوقت ، كما عمل على تدريب البشر القادرين على تنفيذ جميع هذه المشروعات · ولما كان يرى أن العلوم الوضعية ، وهى العصب الحقيقى للتقدم الحديث ، توجد فى أوروبا فانه طلب من أوروبا المعلمين وأوفد المصريين الى أوروبا للتعلم ·· (١٨) · »

(١٣) A. Louca : Voy. et écriv., i : 334.

(١٤) عمر طوسون : **البعثات** ، ١٧٥ – ٢٠٠ ،
J. Heyworth1Dune : Hist educ, 243-53.

(١٥) Paul Merruau : L'Egypte contemporaine — 1940-1857 — de Méhémet-Ali à Said pacha, Didier and Co. Paris, 1858. 89-90,
بصدد الوضع العام ، أما بالنسبة للأطباء انظر :
J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 177;
وفيما يختص ببعثته ١٨٣٢ انظر A. Louca : Voy et éc:iv., i : 223-4

التالى الى أى درجة استفادت حركة الترجمة من هذه القيود وهذا التنظيم السيء • وكذا لم يتحرك الوالى لتخفيف العداوة التى انطلقت من الموظفين الحكوميين تجاه حملة الدبلومات القادمين من الخارج • ومع ذلك ففى مجال البعثات كما هو الحال بالنسبة للمجال الأشمل وهو تنظيم التعليم ، فان أحد النقاد التشدديين وهو «ج• هيورث ــ دون» يرفض رأى «هيكيكيان» Hekikian الذى يقول بأن الوالى « كان يريد أدوات لا مستشارين » ويصحح الناقد فيقول « انه كان يريــد مستشارين فعلا يكونون أيضــا أدوات (١٦) • »

بقى مع ذلك أن محمد على هو أول حاكم أو رئيس دولة شرقى يواجه بطريقة حازمة متطلبات التجديث : ان عبد الرحمن الرافعى ، وهو عدو معروف للأسرة المالكة السابقة ، يرى هذا الرأى ويتحدث عنه واصفا اياه بال « عبقرية » (١٧) ، كذلك فان « برنارد لويس » ، المتخصص فى التركيبات ، الصهيونى المتشدد بالنسبة لمصر ، يوضح أن عمل محمد على، الذى سبق ايران ، أجبر السلطان محمود الثانى على ارسال أول بعثة دراسية تركية ، مكونة من ١٥٠ طالبا ، الى أوروبا عام ١٨٢٧ فقط ، على الرغم من المعارضة الدينية (١٨) • بقى أيضــا أن المثقفين والاداريين المصريين الدارسين فى أوروبا فى اطار هذه البعثــات سيصبحون خميرة النهضة المصرية ، ويكونون بمثابة جسر يصل بين امبراطورية محمد على التى تنهار ابتداء من ١٨٤٠ ، بين السيادة المصرية التى تزول فى ١٨٧٩ ــ ١٨٨٢ ، وبين مقدمات ثورة ١٩١٩ والمرحلة الثانية فى نهضة مصر الوطنية. ولم يفعل الوالى من الناحية الموضوعية أكثر من اقامة دولة مستقلة ، وصناعة حديثة وقوة مسلحة : وقد دفع هذا الى تكوين وبروز الأجيال الأولى من المثقفين الثوريين العصريين المصريين •

وفى عهد عباس الأول (١٨٤٨ــ١٥٨٤) ، لا يلوح أن الانطواء المصرى عدل تعديلا كبيرا من سياسة البعثات • ومن المؤكد أن مدرسة البعثة المصرية فى فرنسا قد أغلقت فى عام ١٨٤٨ ، وكان أغلب الطلبة ــ الضباط قد أنهوا دراستهم • وان احتكار فرنسا شبه الكامل للبعثات قد أوشك على نهايته : وقد اتجهت نسبة كبيرة من الطلاب نحو المراكز الطبية الكبرى فى جامعات ألمانيا والنمسا وكذلك بريطانيا العظمى لتلقى علوم الهندسة •

---

(١٦) انظر بالنسبة لهيكيكيان :
N.W. Senior : Conversations and journals in Egypt and Malta, Lond 1882, i : 249; J. Heyworth-Dunne : Hist. mod. educ., 184.

(١٧) محمد على : ٤٧٧

(١٨) Bernard Lewis : The Middle East and the West, Indiana Univ. Pess, Bloomington, 1964, 39.

وعلى الرغم من ان الأرقام المتوفرة فى هذا الصدد غير دقيقة تماما ، فانه لا يمكن مع ذلك ادانة هذه السياسة التى هى فى المحصلة لم تمتد الى أكثر من ست سنوات فقط وتلك هى تقديرات المؤلفين المختلفين (١٩) :

المصدر	الطلبة المبعوثون
يعقوب ارتين	١٩
عبد الله النديم	٤٨
جورجى زيدان	١٩
أمين سامى	١٩
عمر طوسون	٤١
عبد الرحمن الرافعى	١٩
ج · هيورث دون	٤١
أحمد عزت عبد الكريم	٤١

ويلاحظ أن تقديرى يعقوب أرتين وعبد الله النديم هما مصـــدر المجموعتين المتعارضتين التقديرات · كذلك تشير الى أن فرنسا استقبلت ثلاثة طلبة فقط ، وأن ٣١ طالبا درسوا الطب (٢٠) ·

أما خلال السنوات التسع التى تمثل حكم سعيد (١٨٥٤ ــ ١٨٦٣) فقد استؤنفت البعثات مع فرنسا مع الحفاظ على التخصص غير الحربى ، وخصوصا الطب وتتباين التقديرات تباينا شديدا (٢١) :

---

(١٩) **Y. Artin . Instr. publ. Eg., 209** عبد الله النديم ، **الأستاذ** ، السنة الأولى · ٧٣٧ ، عمر طوســـون : **البعثات** ، ٤١٨ عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على** ، ١٧
J. Heyworth-Dunne : Hist educ., 301-7.
أما تقديرات جورجى زيدان وأمين سامى وأحمد عزت عبد الكريم فهى مأخوذة عن ز· صالح وم· مرسى : **بعثات القرن التاسع عشر** ١١٨ ــ ١٢١

(٢٠) **J. Heyworth-Dunne : Hist educ., 301-7.**

(٢١) عبد الله النديم ، **الأستاذ** ، السنة الأولى : ٧٣٧ ، أمين ســامى : **تقويم** ، ١٦ ، جرجى زيدان : **الهلال** ، المجلد ١٥ (١٩٠٧) ٢١٩ فى
J. Heyworyth-Dune : Hist educ., 324.
عمر طوسون : **البعثات** ، ١٧٤ ، ٤٩٣ ،
Y. Artin : Instr. publ. Eg., 209;
J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 323-30. : اسماعيل سارهانك وأحمد عزت عبد الكريم فى ز· صالح وم· مرسى : **بعثات القرن التاسع عشر** ، ١٤٦ ويوافقان على تقدير أحمد عزت عبد الكريم ·

المصدر	الطلبة المبعوثون
اسماعيل سارهانك	لا أحد
عبد الله النديم	لا أحد
أمين سامى	١٤
جورجى زيدان	١٤
يعقوب ارتين	١٤
عمر طوسون	٤٨
عبد الرحمن الرافعى	١٤
ج هيورث دون	٤٨
أحمد عزت عبد الكريم	٦٩

هناك عدة ملاحظات واضحة : اذا كنا سنأخذ تقدير ٤٨ ، فاننا نجد ٣٠ طالبا يدرسون الطب · ومن نفس هذا المجموع الكلى نجد عددا كبيرا من الأتراك والأرمن والشركس ومصرى قبطى واحد واثنين من خريجى مدرسة الفرير ، وأخيرا ٩ ينتمون الى عائلات درس بعض أفرادها فى الخارج مثل عائلة البقلى · وهذا يعضد تكوين النواة الرئيسية لكبار موظفى الدولة (٢٢) ·

ويتغير مع مجىء اسماعيل الثقل النسبى والنوعى للبعثات الدراسية فى الخارج تغيرا كبيرا : فقد كان الأمر الهام ، فى ظل حكمه وابتداء من تلك الفترة ، هو اقامة بنية أساسية لنظام وطنى (٢٣) ، وقد استمرت البعثات، وزادت فيما بعد زيادة لم تتوقف حتى اليوم · وقد ظلت أحد العناصر الرئيسية للنظام العام للتعليم الوطنى فى مصر ·

وفيما يلى تقدير البعثات تحت حكم اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) (٢٤):

(٢٢) J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 329-30. حيث يتحدث عن انشاء « طبقة جديدة من الموظفين الحكوميين الذين تحتاجهم الدولة · » وتعبير « طبقة » الذى يستخدم فى سياق الكتاب استخداما سياسيا يجرده من كل محتوى سوسيولوجى ، هو مجرد أسلوب فى الكتابة بطبيعة الحال ·

(٢٣) انظر القسم الأول من الفصل الرابع ·

(٢٤) C. Sachot : Mission en Egypte, Paris, 1868, 28; E. de Régny : Stat. de l'Egypte. 1er année 1870, 90 ; Y. Artia : Instr. publ: Eg., 209; A. Sammarco : Sá'îd et Ismâ'îl. 300-1;; J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 394;

عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ١ ، ٢٠٤ ·

الطلبة المبعوثون	المصدر
٥٥	ساشو
١٥٨	دى رينيى
١٧٢	يعقوب ارتين
١٧٣	الياس الايوبى
١٧٢	ساماركو
٩٤	هيورث ـ دون
١٧٢	عبد الرحمن الرافعى

ويقدر عدد الطلبة الذين يدرسون العلوم العسكرية بحوالى مائة : ولأول مرة منذ عهد محمد على يعود الخديوى الى الرغبة فى أن يخلق للدولة المصرية ، التى أصبحت مستقلة ، جهازا عسكريا قويا ـ ونحن على أبواب ثورة الجيش ـ الذى يتشكل قواده فى المدارس المصرية ـ دون غيرها ـ كما أننا على أبواب الاحتلال البريطانى ٠

ومن الواضح أن طبيعة البعثات الدراسية المصرية فى أوروبا ، خلال الفترة التى ندرسها ، كانت تستهدف ، قبل كل شىء ، توفير جهاز حديث فعال للدولة الوطنية ، على المستوى العسكرى أولا ، وكذلك فى مجال الصناعة والادارة ٠ وكان الهدف الثانى يرمى الى استعادة ماضى مصر الطبى منذ آلاف السنين ، الذى استمر ، والحق يقال ، فى اطار الأسرات المستقلة التى حكمت مصر الاسلامية ، كما يرمى الى تزويد الدولة والثقافة الوطنية بوسائل محددة ودقيقة للاتصال بأوروبا ، تتألف من جهاز فعال من المترجمين ٠ وسندرس ذلك فى القسم التالى ٠

كان تأثير هذه البعثات على النهضة الوطنية والثقافية فى مصر الحديثة حاسما ٠ « ألم يكن رفاعة بسفره من طهطا الى باريس ، يمثل فى الواقع مصر بأكملها تنتقل من القرون الوسطى الى الحياة العصرية ؟ (٢٥) » هذه العبارة الموفقة لا شك أنها تصف الحقيقة ٠ ودراسة هذه التأثيرات سابق لأوانه ٠ فســـوف نراها تمتد ـ متداخلة مع العمل الوطنى ـ على مدى دراستنا ، فى سائر المجالات الثقافية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضا ٠

وهنـــاك عوامل أخرى كالرحلات « السان ـ سيمونيين » (٢٦)

(٢٥) A. Louca : Voy. et écriv., II : 232.
(٢٦) انظر القسم الأول من الفصل الخامس ٠

لعبت دورها فى دعم تأثير البعثات • أما رحلات المصريين الى الخارج وما جاءوا به من روايات فيعد أقل واندر • رجــلان فقط ـ الطهطاوى ومحمد بيرم التونسى ـ رجعا من رحلاتهما برصيد من الروايات سنعود اليها فيما بعد • ومع ذلك فيجب أن نشير الى أن كتاب الطهطاوى وحده ، « **تخليص الأبريز فى تلخيص باريز** » ، ظهر قبل ١٨٨١ فى طبعتين (٨٣٤و١٨٤٨) فى حين أن كتاب « **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار** » ، فى خمسة مجلدات ، نشر فى ١٨٨٤ ـ ١٨٨٦ (٢٧) • وكان تأثير كتــاب الطهطاوى كبيرا ، لذلك سنخصص له تحليلا مفصلا (٢٨) •

أما الرحالة الأوربيون ، خاصة الفرنسيين ، الذين هبطوا مصر ، فقد كان تأثيرهم كبيرا لدرجة أنهم اتصلوا مباشرة بأوساط السلطة • فبعد « شاتوبريان » ، جاء عدد كبير من « النبلاء الفنانين والمثقفين » ، الكولونيل «باتان» ، و « أ• فيرمان ـ ديدو » ، والكونت « دى فوربان » الذى كتب « **رحلة فى المشرق** » (١٨١٩) ، و أ • « دى مونتوليه » ، والكونت «دى مارسيللوس » وهو مؤلف « **ذكريات من الشرق** » (١٨٣٩) ، و « الكسندر ديما » ، و م• « دوزا » ، والبـارون « تايلــور » و « لوى ريبو » مؤلف « **سوريا وفلسطين وأرض يهوذا** » (١٨٣٩) والبارون «رينوار دى بوسير» وما كتبه فى «**رسائل عن الشرق**» (١٨٢٩) ، «وجان فرنسوا شامبليون» ، الذى تدين له مصر بأسرار لغة الفراعنة والذى يستبين تأثره من مؤلفه « **رسائل مكتوبة من مصر والنوبة** » (١٨٢٩) ، والمؤرخ « جوزيف ميشو » بمؤلفه الضخم «**مراسلات الشرق** » (٧ أجزاء ، ١٨٣٣ ـ ١٨٣٥) والذى صحبه سكرتير ج• ج• «بوجولا» • ويأتى بعد ذلك المعجبون بمحمد على : المارشال « مارمون » ، أ ر • « دى كادالفين » و ج دى « بروفيرى » مؤلفى «**مصر وتركيا**».بين ١٨٢٩ ، ١٨٣٦ ، ثم المؤرخون ف• «مينجان» مؤلف عدة كتب أهمها : «**تاريخ مصر تحت حكم محمد على**» (١٨٢٣) ، و ب «موربيه» مؤلف «**تاريخ محمد على ، والى مصر**» فى خمسة مجلدات (١٨٥٥ ـ ١٨٥٨) ثم دكتور كلوت بك الذى يعتبر كتابه « لمحة عامة عن مصر » (٨٤٠) مؤلفا وضع لتمجيد الوالى • هناك أيضا الخصوم : الصحفى « بوكيه ديشان » ، وقد حماه القنصل « دروفيتى » ، وحصل له على الاذن باصدار جريدة اسبوعية باسم «**صدى الأهرام**» L'Echo desPyrméde كانت حربا على فساد البلاط ، و « أوزيب دى سال » عدو اسماعيل ، كما يدل على ذلك كتابه

(٢٧) انظر أيضا I. Abu-Lughod : Arab rediscovery. ch. vi, 66-85;
H. Pérés : Voyageurs musulmans en Europe aux XIX et XX siècles. Mémoires publiés par les membres de l'Inst. Franç. d'Archéol. Orient. du Caire, Ixviii, Le Caire, 1940,
حيث نجد قائمة مرتبة ترتيبا أبجديا عاما دون تمييز بين البلاد التى جاءوا منها •

(٢٨) القسم الثالث من الفصل الرابع ، والقسم الثانى والثالث من الفصل الخامس •

« **رحلات في الشرق** » (مجلدان ، ١٨٤٠) ، وب·ن· « هامون » الغريم التعس لكلوت بك والذى عبر عن يأسه وخيبة أمله فى كتابه « **مصر فى حكم محمد على** » (١٨٤٣) ، و « جيسكيه » وكتابه « **مصر ، والأتراك ، والعرب** » (مجلدان ١٨٤٨) الذى يتظاهر فيه باخلاقيات مصطنعة ويهاجم استغلال الوالى « وفيكتور شولشير » وهو تحررى مناهض للعبودية وقد ظن أنه وجد فى وادى النيل أرضا خصبة لحملاته كما يدل على ذلك كتابه «**مصر عام ١٨٤٥**» (١٨٤٦) (٢٩)· وبعد عام ١٨٤٣ ، وكما يوضح ذلك ج·م· «كاريه» ، يمكن أن نميز نوعين من الرحالة الفرنسيين : أولا رجال الأدب والعلم ، وهم أوائل الرومانسيين : « جيرار دى نرفال » ، «وجان جاك امبير » و « وجزافيه مارمييه » و « فلوبير » و « مكسيم دى كان » · ثانيا مجموعة الفلاسفة وعلماء اللغات ، وصغار الرحالة » والروائيين ومرافقى « فرديناند دى ليسبس » : ج « بارتيليمى سان هيلير » ، « جوبينو » ، « مارييت » و « رينان » ، « شارل ادمون » ، « آوجين بواتو » ، « شارل دينبيه » « اميل جيميه » ، والممثلة « راشيل » ، والكونتيسة « جوليت دى روبير سار » ، و « أوليمب أودوار » ، و « بريفو بارادول » ، و « ادمون أبو » ، و «أوجين فرومنتان» ، و ن· «بيرشير» ، و «شارل بلان» ، و « لون كوليه » ، و « فليكس سينار » ، و «فرنسوا لينورمان» (٣٠). أما بالنسبة لتأثير مصر والاسلام على الحركة الرومانسية الفرنسية بالذات فان مؤنس طه حسين قد تعرض له حديثا فى الجزء الثانى من مؤلفه «**الرومانســـية الفرنسية والاسلام** » (٣١) ، وكان من الممكن أن يستكمل هذه اللوحة بالتعرض لرحالة البلدان الأوربية الأخرى الذين ســـوف تصادفهم فى الميادين التى تركوا تأثيرهم عليها · وقد كان تأثير فرنسا حتى عام ١٨٨٢ واضحا فى مصر أكثر بكثير من تأثير الأمم الأوربية الأخرى (٣٢) ·

ودون أن نهمل تأثير هذه العوامل ، يمكن أن نقول أن تأثيرها كان من الدرجة الثانية · أما التأثير الجوهرى هنا فقد كان للبعثات ·

---

(٢٩) Jean-Marie Carré : Voyageurs et écrivains français en Egypte Inst., Franc, d'Archéol, Orient, du Caire, Le Caire, 1932, i : III partie, ch. i-vii, 166-319.

(٣٠) نفس المؤلف : المرجع السابق ، جز ٢ ·

(٣١) Moenis Taha-Hussein : Le romantisme français et l'Islam, Dâr al-Ma'âref, Beyrouth, 1962.

(٣٢) انظر بصفة خاصة :

Pierre Giffard : Les Français en Egypte, 2 ed., Hazard, Paris 1883; وكذلك

Gamal el-Din el-Shayyal : «The first cultural contacts between Egypt and the West in the 19th century — a study of their origins, trends and effects on the Egyptian society» Bulletin of the Faculty of Arts of Alexandria, xiv (1960), 69-85.

القسم الثانى : حركة الترجمة

اذا كان تأثير البعثات قد تطرق الى جميع ميادين الحياة الوطنية ، فهو أظهر ما يكون فى حركة الترجمة • ونستطيع أن نحدد بداية هذه الحركة بعام ١٨٤٠ • ويبدو أن أعمال الترجمة التى بوشرت أثناء الحملة الفرنسية كانت تنحصر فى المسائل الادارية والعسـكرية ، فلم تكن تنشر للناس الكتب أو المقالات العلمية؛ وأخيرا فان أعمال المستشرقين كانت ذات مستوى مرتفع (١) ، هو مستوى المراكز الجامعية فى فرنسا وأوربا التى كانت تكرس لها أعمال هؤلاء المستشرقين •

ومع مجىء محمد على — الذى يمكن أن نصف عهده بأنه « عهد الترجمة والتعريب من وجهة نظر النهضة الثقافية » (أحمد عزت عبد الكريم) — بدأت الحركة ، كمرحلة أولى ، لاشباع الرغبات الخاصة للباشا الذى كان مهتما بمعرفة أوروبا ، وفنونها وثقافتها • واذا لم يكن هناك من أثر يدل على وجود قسم للترجمة ، فى ذلك العصر ، فان بعض الأسماء تظهـر فى قصص الرحالة الأجانب (كونت « دستورميل » ، و « وانفنتان » بصفة خاصة) وفى محفوظات قصر عابدين : أوجست سكاكينى ، عزيز أفندى ، حسن أفندى — ويزعم أصحابها أنهم مترجمون وكتاب بالديوان العالى — وكذلك المترجمون الفوريون المكلفون بالاتصالات مع الأجانب : يوسـف بوغوص الذى سيصبح وزيرا للخارجية والتجارة ، ودكتور « جايتانى » ، وعثمان نور الدين الذى سيصبح أميرال الأسطول (٢) •

ويميز جاك تاجر ثلاث مراحل فى حركة الترجـمة « فى خدمـة البلاد » والتى كان يشجعها الوالى : ابتداء من مطلع العهد الجديد حتى ١٨٣٠ ، ومن ١٣٠ حتى ١٨٣٥ ، وأخيرا ، ابتداء من تأسيس مدرسـة الألسن عام ١٨٣٦ حتى نهاية العهد • ونحن نرى ، كما يرى جمال الدين الشيال بصورة ضمنية دون تصريح ، ان من الممكن ضم المرحلتين الأولى والثانية دون ضرر ، ذلك أن الفاصل الحقيقى يقع عام ١٨٣٦ ، أى فى الوقت

(١) جاك تاجر : حركة الترجمة فى مصر خلال القرن التاسـع عشر ، دار المعارف ، القاهرة ، د•ت حوالى (١٩٤٦) ص ١٤ •

(٢) نفس المؤلف :المرجع السابق ، ١٥ — ١٨ • كانت تحت تصرف جاك تاجر ، أمين المكتبة الخاصة للملك السابق فاروق ، محفوظات عابدين ، حيث تشـكل وثائق محفوظات عابدين المواد الرئيسية فى مجموع عمله •

الذى بدأت فيه البعثات الدراسية فى أوروبا تقيم قاعدة لحركة هى مدرسة الألسن وكذلك المطبعة وأول صوت للصحافة المصرية ممثلا فى الجريدة الرسمية (٣) ٠

فى بداية المرحلة الأولى ، كان الغرض هو امكان قيام حوار بين الأساتذة الأوربيين وبين طلاب المدارس الحديثة الذين كانوا يجهلون اللغات الأجنبية ٠ وكانت ترجمة المؤلفات الفرنسية والايطالية الى اللغة العربية أو التركية تتم عن طريق بعض السوريين والأوربيين المقيمين فى مصر ٠ وقد أحضر محمد على من استنبول عددا كبيرا من الكتب العلمية سبق ترجمتها الى التركية وأعاد طبعاتها فى بولاق وذلك لمواجهة حاجات التعليم ٠ وقد كان التحول من ايطاليا الى فرنسا ، حوالى عام ١٨١٨ (٤) سببا فى تعقيد مهمة المترجمين ، بالاضافة الى استمرار اللغة العربية واللغة التركية كلغتين رسميتين للبلاد ٠ وكانت تعليمات الوالى – الى بوغوص و « ابرو » و «توسيتا» – تشدد على ضرورة حصر المراسلات الرسمية فى لغتى البلاد ٠ وكثير من الوثائق يدلنا على تذمر محمد على من اهمال المترجمين فى ذلك العصر (٥) ٠ وكان المترجمون الفوريون يصحبون المدرسين الأجانب ويترجمون محاضراتهم مكتسبين بذلك خبرة عظيمة ٠ وفى عام ١٨٢٩ ، قام عويس السمعانى الرومانى – ونعتقد أنه سورى – بانشاء مدرسة لتعليم اللغات العربية والفرنسية والايطالية فى حى الجوانى بالموسكى (٦) ٠ من هذه البدايات تطالعنا بعض الأسماء القليلة المعروفة : عثمان نور الدين وثلاثة من السوريين هم الأب انطون روفائيل ويوسف فرعون ويوحنا عنهورى (٧) ٠ وتزخر محفوظات قصر عابدين بحصيلة ضخمة من الرسائل والتعليمات الموجهة للبعثات فى أوروبا ؛ والانطباع الذى نخرج به هو أن « المهمة الأولى لأعضاء البعثات فى نظر الوالى هى

---

(٣) ج٠ تاجر : حركة الترجمة ١٨ – ٢٩ ،

A. Perron : "Lettre à M. Mohl sur les écoles et l'imprimerie du pacha d'Egypte», Journal Asiatiques, 4 série, ii (1843) 5-23.

(٤) جمال الدين الشيال : **تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على** ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ١١ – ١٤ ،

Abdel-Aziz Abdel-Meguid : «The impact of Western culture and civilization on the Arab world», Islam. Quart., ii (1954), 290.

(٥) ج٠ تاجر : **حركة الترجمة** ٠٠ ، ٢٠ – ٢٣ ٠

(٦) ا٠ سامى : **تقويم مصر** ، جـ ٢ ، ٣٥٧ ،

J. Heyworth Dunne Hist. educ., 271-2;

ج٠ تاجر ، **حركة الترجمة** ٠٠ ، ٢٤ – ٢٥ ٠

(٧ ج٠ زيدان : **تاريخ آداب اللغة العربية** ، جـ ٤ : ١٦٤ – ١٦٧ ، ج٠ تاجر : **حركة الترجمة** ، ٢٣ – ٢٤ ، ولا سيما ج٠ الشيال : **تاريخ الترجمة** ، ٧٠ – ١٠١ ٠

ترجمة المؤلفات العلمية التى درسوها فى أوروبا ، لذلك فقد كان أول عمل عهد به اليهم هو تقديم الكتب مصحوبة بالتعليمات لانجاز ترجمة سريعة » (جاك تاجر) • وكذلك كانت الحال بالنسبة لموظفى الحكومة حتى أصبحت « الترجمة مهمتهم الأولى ، على حساب أعمالهم الأخرى (٨) • » أما طلبة البعثات فلم يسافروا الى أوروبا ليدرسوا اللغات ، وانما ليدرسوا العلوم ، الأمر الذى كان يضايقهم ويسبب لهم بعض الصعوبات • وتبين روايات العصر مدى التناقض بين رغبات الوالى وامكانيات شباب الدارسين : فقد أمر محمد على بحجز جميع العائدين من أول بعثة داخل القلعة حتى ينتهى كل منهم من ترجمة كتاب فى مجال تخصصه : تلك هى النهاية المنطقية « للقانون العسكرى » الذى فرضه الوالى على الطلبة والذى كان يقيدهم أثناء دراستهم •••• (٩) •

تقضى الوثيقة المؤرخة فى ٢٨ ربيع أول ١٢٥١ (أوائل ١٨٣٥) بانشاء « مدرســـة للترجمة من اللغة الفرنسية الى اللغـــة العربية » ــ ٥٠ طالبا تحت ادارة الطهطاوى الذى سرعان ما خلف ابراهيم أفندى فى الادارة ــ وقد أصبحت فيما بعد مدرسة الألسن بموجب قرار صدر فى ١٥ ربيع الآخر ١٢٥١ ــ وقد حلت مكان مدرستين مهدتا الطريق : المدرسة الملكية للادارة (١٨٣٤) والتى تخصص طلبتها الثلاثون فى ترجمة النصوص والمؤلفات الادارية ، ثم مدرسة التاريخ والجغرافيا (١٨٣٤) الملحقة بمدرسة المدفعية • وقد أغلقت المدرستان والحق طلبتها بمدرسة الألسن (١٠) •

وكان الهدف هو « تشكيل مكتب للترجمة من خريجى هذه المدرسة يتولى ترجمة الكتب الضرورية للمدارس والادارات الحكومية (١١) » • وقد كان من نتيجة صدور قوانين التعليم لعام ١٨٣٦ أن جعلت منها مدرسة متخصصة ، تقبل طلبتها من بين تلاميذ المدارس الاعدادية ، كما جعلت منها مدرسة اعدادية تزود بطلبتها المدارس المتخصصة وقد تركز الاهتمام على الوظيفة الأولى • وكذلك فان لجنة اصلاح التعليم المشكلة فى ١٨٤١ ألحقت بها مدرسة اعلادية لتلافى أوجه النقص في خريجى مدرسة الألسن الألسن حتى ذلك الحين، في مادتى العلوم والرياضيات ، وأضيفت اليها اللغة الانجليزية مع أن التركيز كان على اللغة الفرنسية واللغة العربية (١٢) •

---

(٨) ج• تاجر ، **حركة الترجمة** •• ، ٢٦ ــ ٢٧ ، نقلا عن أمين سامى : **تقويم مصر** •

(٩) ع• الرافعى : **محمد على** : •• ٥٧ ، ج• الشيال : **تاريخ الترجمة** ٩١٤ ــ ٩٢

(١٠) أ• ع• عبد الكريم : **التعليم فى عصر محمد على** ، ٣٢٨ ، ج• الشيال : **تاريخ الترجمة** •• ٣٨ ــ ٣٩ •

(١١) نج • تاجر : **حركة الترجمة** ، ٢٩ ــ ٣٠

(١٢) ا••ج• عبد الكريم **التعليم فى عصر محمد على** : ٣٣٢ ــ ٣ ، **J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 264;** ج• تاجر : **حركة الترجمة** •• ٣٠ ــ ٣٢ ، ج• الشيال : **تاريخ الترجمة** ••

وقد جمع الطهطاوى من حوله نخبة من المدرسين الأكفاء ـ وقد اختار من بين المصريين مجموعة من خيرة شيوخ الأزهر : محمد الدمنهورى ، على الفرغلى ، حسنين الغمراوى ، محمد قطه العدوى ، أحمد عبد الرحيم الطهطاوى ، عبد المؤمن الجرجاوى ، حسن أفندى ، نصر الحورينى ، محمد المرصفى و محمد أبو السعود و محمد المنصورى ،خليل الرشيدى (١٣)، الذين كانا يعملون فى وفاق ووئام مع زملائهم الأوربيين ـ وجعل من المدرسة ، على حد تعبير عبد الرحمن الرافعى ـ مؤسسة أقرب الى كلية الآداب والحقوق (١٤) • وقد استوعب قلم الترجمة الذى أنشىء عام ١٨٤١ غالبية خريجى المدرسة • وقد كان هو نفسه مقسما الى أربعة أقسام : العلوم والرياضيات بادارة البكباشى محمد بيومى ، العلوم الطبية والطبيعية ، بادارة اليوزباشى مصطفى واطى ، المواد الاجتماعية والأدبية (التاريخ ، الجغرافيا ، المنطق الأدب ، القصص ، القانون ، الفلسفة الخ) بادارة الملازم أول خليفة محمود ، وفرع الترجمة التركية بادارة ميناس أفندى (١٥) •

وانهالت الكتب بالآلاف بأمر محمد على : فقد اشترى عثمان نور الدين بما قيمته ٥٠٠٠٠ روبل كتبا من ايطاليا أثناء اقامته فيها ، وتأثر الوالى أيما تأثر لما قام به مدير ميناء طولون بارسال كمية ضخمة من المؤلفات عن العلوم البحرية وذلك بايعاز من قنصل فرنسا « دروفيتى » ، وفي عام ١٨٢٧ أمر الوالى باحضار كتب على ظهر البواخر الجديدة التى بنيت في لندن ، وقد تلقى رسله في مختلف العواصم الأوربية وفي استنبول الأوامر بارسال مؤلفات فى سائر الموضوعات الحديثة ابتداء من علم التشريح حتى فن التحصينات الحربية (١٦) • وقد كانت كل مدرسة متخصصة تملك

---

(١٣) صالح مجدى : **حلية الزمان بمناقب خادم الوطن** ، مخطوط ، ٤٧ ، فى **الخطط** ، جـ ١٢ : ١٥٤ ، عبد الر **J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 268;** الرافعى : **محمد على** ، ٥١٤ ـ ١٦ ، ج• الشيال : **تاريخ الترجمة** •• ، ٤١ ـ ٤٢ ويقدم الكتابان الأخيران عدة روايات مختلفة عن الثلاثة كتب الأولى •

(١٤) ع•ر• الرافعى : **محمد على** ، ٥١٤ ـ ٥١٦ •

(١٥) ا•ع• عبد الكريم : **التعليم فى عصر محمد على** ، ٣٤١ ، ج• الشيال : **تاريخ الترجمة** •• ، ٤٣ • يشير الاسمان الأولان فى التركية الى رتبة المقدم والنقيب • وقد ظلت أسماء الرتب العسكرية بالتركية ابتداء من رتبة **اليوزباشى** الى رتبة **الأميرالاى** حتى ١٩٥٨ ، تاريخ الوحدة المصرية والسورية ، ومنذ ذلك الحين غربت هذه الأسماء •

(١٦) J. Heyworth-Dunne : «Printing and translation under **Muhammad 'Ali of Egypt, the foundation of modern Arabic»;** Journ. Roy. Asiat. Soc., 1940 no 2-3, 328-9, حيث يستشهد بأعمال G. Douin, G. Cattaui, ا• سامى Brocchi, A. Zaydân, Michaud et Poujoulat, Perron, E. Sarkis; ج• الشيال ، **تاريخ الترجمة** ، ٤٦ ـ ٤٨

مجموعتها من المؤلفات باللغات الأجنبية وهى فى الأغلب بالفرنسية (١٧). وقد صدر قرار فى ١٠ أغسطس ١٨٣٥ يقضى « بان طلب الكتب يستهدف تسليمها لمن لهم الحق فيها ، حتى يترجموها ويستفيدوا منها [٠٠٠] ، وليس حبسها وعدم استخدامها (١٨) ٠ »

ولدينا أدلة كثيرة ودقيقة تبين اهتمام الوالى بالسرعة والفاعلية (١٩)٠ غير أن معلوماتنا أقل بالنسبة لانتاج المائة وخمسين طالبا (٢٠) ، مع أننا نملك القائمة التقريبية لأسماء الخريجين طبقا لما أورده صالح مجدى (٢١)٠ ففى عام ١٨٤٣م (١٢٥٩هـ) جاء فى أحد النصوص ذكر ٦٧ كتابا مترجما احتفظت اللجنة المسئولة بـ ١٤ منها فقط (٢٢) ٠ ولعل من الممكن الوصول الى ذلك عن طريق عمل قائمة ، حسب المواد ، بما تم تنفيذه اعتمادا على السير التى قدمها جاك تاجر ، والقوائم الجزئية التى أعدها جمال الدين الشيال ٠ ومن الأوفق وضع الأجانب على حدى : وهم المستشرقون الذين كانوا يعملون بصفة شخصية (« أصلان دى شيرقيل » ، أدوارد وليام لين » ، « بارون دى كريمييه » ، « سليمان فونك » ، « موللييه » الخ) أو فى خدمة الحكومة المصرية (دكتور « بيرون » ، « كوينج » بك ، « جورج فيدال » ، جيوفانى فيناتى » « لوبير » بك ، « ماشيرو » ، « يوسيبج أجوب » ، الملقب بالحكيم « هيصر » ، مارى بك ، (٢٣) ٠

وقد كان الجانب الأكبر من عملهم موجها صوب أوربا ، ومع ذلك فان عددا كبيرا منهم ، وخاصة من بين الموظفين ، ترجم بعض الكتب الى اللغة العربية ٠ ويحسن أن ننبه الى أننا لن نورد فى التقسيمات التى سـوف نستخلصها بعد ذلك الرقم الدقيق للكتب المترجمة ـ الأمر الذى يستحيل تحقيقه ـ بل فضلنا أن نقدم قائمة بأسماء المترجمين المعروفين حسـب أهميتهم تبعا لتخصصاتهم ٠ ويأتى الطب فى رأس القائمة ، وأهم الذين ترجموا فى هذا المجال هم ج « فيدال » ، الطهطاوى ، ى ٠ فرعون ، يوحنا عنهورى ، محمد عبد الفتاح ، على هيبه ، أوجست سكاكينى ، ابراهيـم النبراوى ، أحمد حسن الرشيدى ، حسين غانم الرشـيدى ، عيسـوى التهراوى ، مصطفى السبكى ، محمد الشافعى ، مصطفى رسمى الشركسى،

---

(١٧) ج٠ الشيال : **المرجع السابق** ، ٤٨
(١٨) ا٠ سامى : **تقويم مصر** ج ٢ : ٤٤٨
(١٩) والأمثلة على ذلك توجد عند جاك تاجر : **حركة الترجمة** ٠٠ ، ٣٦ ـ ٣٨ ٠
(٢٠) ذكر هذا الرقم J. Heyworth-Dunne : Hist educ., 198.
(٢١) نقلا عن J. Heyworth-Dunne : Hist educ., 269-71.
(٢٢) ج٠ تاجر : **حركة الترجمة** ٠٠ ٣٨
(٢٣) ج٠ تاجر : **حركة الترجمة** ٠٠ ٤٢ ـ ٥٠

يعقوب أفندى • وتاتى علوم وفنون الهندسة فى المرتبة الثانية وأهـــم مترجميها ابراهيم عزام ، الطهطاوى ، محمد بيومى ، أحمد طايل ، ابراهيم رمضان ، محمد الشيمى ، محمود أحمد ، بيومى أفندى ، محمد عصمت ، أحمد قايد ، أحمد دكله ، على جزله • ويحتل التاريخ والجغرافية والرحلات المكانة الثالثة وألمع المترجمين فى هذا المجال مصطفى سيد أحمد ، الزرابى، حسن قاسم ، السيد عبد الله عزيز ، سعد نعام ، رستم بسيم العرضحالى ، أبو راشـــد ، ابراهيم عاطف • وفي المركز الرابع تاتى العلوم الحربيـــة والبحرية ومن أهم مترجميها « كوينج » بك ، « مارى بك » « محمد بك وعثمان نور الدين والطهطاوى ، ومحمد عطا الله رمضان عبد القادر ، • ثم تاتى الفلسفة ومن أهم مترجميها :الطهطاوى ، عبد الله بن حسين ، خليل محمود • ويليها القانون والعلوم الاجتمـــاعية ومن أهم مترجميها الطهطاوى و م « هركل » • وأخيرا الآداب والدين ومن أهم المترجمين فيها الأب « رافائيل دى موناش » ونور بن مصطفى الرومى • وذكر جاك تاجر ١٢٨ كتابا فى جميع المواد ، منها ٢٥ للطهطاوى وحده الذى ترقى الى رتبة أميرالاى (عميد) (٢٤) • بالاضافة الى ١٨ كتابا بدون اسماء مترجميها موزعة بنفس النسب تقريبا (٢٥) •

أما جمـــال الدين الشـــيال فيعطى أرقاما أكثر دقة : ١٣٥ لمختلف الفروع فيما عدا العلوم الحربية و ١٩١ للعلوم الحربية • وهو يذكر بعد ذلك بعض النصوص التى تشير الى ٨٦ كتابا آخر ترجمت فى ذلك العصر• ومن ثم يكون مجموع الكتب المترجمة ٤١٢ (٢٦)

وبطبيعة الحال ، كان نصير الحركة الفكرية رقيبا ، ما دام هو الذى يملك زمام السلطة فى الدولة • فقد قضت تعليماته الخاصـــة بترجمة كتاب «**وصف مصر**» بعدم ترجمة الجزء الخاص بوصف العادات المصرية (٢٧). وقد لوحظ اهتمـــامه باذاعة منجزات عصره العظيمة عن طريق ترجمة النصوص والتقارير المختلفة الى اللغات الأوربية (٢٨) •

وقد تمت الاستعانة بالترجمة عند انشاء الجريدة الرسمية المعروفة باسم « الوقائع المصرية » والتى صدر أول عدد منها فى ٣ ديسمبر ١٨٢٨ باللغتين العربية والتركية • وقد عين نصر الله المشهور بسارى على المترجمين

---

(٢٤) عن هذه الفترة من حياة الشيخ رفاعة انظر جمـــال الدين الشيال : **تاريخ الترجمة** ••• ، ١٢٠ ـ ١٤٦ ؛ وقد نال الشيخ رفاعة عندئذ لقب البـــكوية • كما أن تسميته بالطهطاوى بدأت فى ذلك العصر •

(٢٥) ج• تاجر **حركة الترجمة** •• ٤٦ ـ ٦٩ ؛ الكتب غير المعروفة أسماء مترجميها ،

(٢٦) ج• الشيال : **تاريخ الترجمة** •• ، الملحقان الأول والثانى ، ٧ ـ ٣٦ ، الملحق الثالث ، ٤١ ـ ٥٠ •

(٢٧) ج• تاجر : **حركة الترجمة** ، ١٧ •

(٢٨) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٣٩ •

الذين كانوا يغذون الجريدة بمواد من أصل أوروبى . وقد أدى اعادة تنظيم الجريدة فى عام ١٨٤١ الى اعطاء الأولوية للغة العربية والاخبار المصرية ، وعين الطهطاوى محررا ومن حوله لفيف من المحررين والمترجمين من خريجى مدرسة الألسن نذكر من بينهم اسم على لبيب (٢٩) .

وهناك العديد من المسائل التكنيكية التى تسترعى الانتباه فيما يتعلق بحركة الترجمة فى ذلك العصر . أولا فيما يختص منها بالجهاز المكلف بالترجمة : فقد كان القائمون بها فى البداية من السوريين أو المصريين الهواة غير المتخصصين . وقد بدأت عملية التخصص تتسع بعودة البعثات غير أنه كان من الأمور الشائعة أن يقوم أكثر من مترجم بالاشتراك فى ترجمة كتاب واحد : تلك كانت القاعدة فى مدرسة الألسن ومدرسة المهندسين على حد سواء . وكانت مدرستا الطب والطب البيطرى وحدهما تسيران على نظام تخصيص مترجم واحد للكتاب (٣٠) . وعلى ذلك نستطيع أن نقدر المكانة التى كان يشغلها المحررون والمصححون الذين كانوا يساعدون ويعضدون فئات المترجمين دون كلل . ومن أشهرهم محمد عمران الهراوى ، مصطفى حسن كساب ، الشيخ سالم عوض ، الشيخ على العضوى ، ابراهيم الدسوقى ، محمد محرم ، حسين عبداللطيف الاسناوى، خليل الحفنى ، عبد الرحمن الصفطى ، محمد هدهد ، محمد عواد الطهطاوى ، عبد المنعم الجرجاوى وأشهرهم جميعا الشيخ محمد عمر التونسى . ويبدو فعلا ، كقول « هيورث دون » أن « مهمة المترجم الرئيسية هى وضع ترجمة واضحة تستخدم فى فصول الدراسة ، لكنها لا تصل الى درجة الجودة التى تؤهلها للنشر (٣١) » .

أما المشكلة الثالثة ، وهى عسيرة ، فتتعلق بالمصطلحات . لقد كثرت المقدمات التى تتحدث عن مشكلات المترجمين : اختلاف حروف الطباعة ، الاختلاف بين العالمين الثقافيين الأوربى والمصرى الذى لم يكد يخرج من حضيضه . فكيف يكون التغلب على المشكلة ؟ الحقيقة أن محاولات وضع القواميس الفنية كانت قد بدأت فى تركيا منذ ١٧٨٠ وكان أغلبها فى المجالات العسكرية وما شابهها . ويقول ج « هيورث ـ دون » : « ان الحمول

---

(٢٩) ابراهيم عبده : **تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨ ـ ١٨٤٢** ، المطبعة الأميرية بولاق ، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ٤٨ ـ ٤٩ ؛ ج. تاجر : **حركة الترجمة** ، ٣٩ ـ ٤١ .

(٣٠) ج. الشيال : **تاريخ الترجمة** ، ٢١٠ .

(٣١) J. Heyworth-Dunne : Print. and transl. 341-7.

العلمي عند الأتراك في مصر هو الذى أعطى اللغة العربية مكانة بارزة فى هذه النهضة » (٣٢) ، وقد نسى أن ألفاظ العلوم والفلسفة فى العصور الوسطى الاسلامية هى ألفاظ عربية وقد استعارها الأتراك • لقد شرع عثمان نور الدين فى العمل بمساعدة عظيمة من المستعرب الشاب «كوينج» فى سائر المجالات تقريبا (٣٣) • أما المجلدات التسعون التى ترجمت فى مدرسة الطب بين عامى ١٨٣٢ و ١٨٤٩ ، تحت اشراف كلوت بك والأطباء المصريين الشبان ، فيبدو أنها قد استفادت كثيرا من مساعدة الدكتور «بيرون» فيما يختص بالمصطلحات، وقد أدت ترجمة قاموس «نستين» Nesten الطبى ثم ترجمة « **قاموس قواميس الطب** » فى ثمانية مجلدات تحت عنوان « **كتاب الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية** » الى تزويد العلوم الطبية وأشباهها فى مصر بمصطلحاتها الحديثة الدقيقة (٣٤) • وقد تبع ذلك أعمال أخرى كثيرة نسبيا • والحقيقة أن ترجمة الكتب فى مختلف العلوم والفنون قد أدى بطبيعة الحال الى وضع مصطلحات جديدة ، ولو مؤقتة ، وكانت قائمة المترجمين المتخصصين الأساسيين هى نفس قائمة واضعى هذه المصطلحات الجديدة • وكانت الألفاظ التى تؤلف هذه المصطلحات توضع أما عن طريق النقل الصوتى للمصطلحات الأجنبية الى اللغة العربية ، وأما عن طريق مجموعة من الكلمات ، أو بواسطة جمل قصيرة تؤدى المعنى باللغة العربية أو التركية (٣٥) •

ويذكر جمال الدين الشيال ترجمة عدة قواميس ايطالية وفرنسية وفارسية وتركية الى اللغة العربية ، أشهرها « **القاموس الايطالى العربى** » لدون روفائيل ، ولا نعرف الكثير عن القواميس اللغوية الأخرى • ولكننا نعرف أن حركة الترجمة قد أدت الى اعادة ظهور بعض القواميس العربية من العصر الكلاسيكى ، وأن محمد على فكر فى أعادة طبع « **القاموس المحيط** » •

---

(٣٢) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٣٢٥

(٣٣) « وان الصبر الذى تحلى به المستشرق الشاب « كوينج » جعله يتغلب على العوائق الأولى ، وهو الذى ترجم بعد اجراء بحوث عديدة جميع المصطلحات الفنية التى تحتاجها اللغة التركية ، وبما أن جزءا كبيرا من هذه الكلمات لم يكن موجودا من قبل فقد قام عثمان بك (نور الدين) مستعينا باللغة العربية ، وتم قبولها فى المدارس » •
(J. Planat : Histoire de la régénération de l'Egypte, Paris, 1830, 93-4).

(٣٤) هذا القاموس العربى الذى جاء ثمرة الجهد الذى بذله عدد كبير للغاية من الباحثين المصريين » استولى عليه كلية كلوت بك وقدمه هدية للمكتبة الوطنية فى باريس بتاريخ ٩ سبتمبر ١٨٥١ • وقد كان المؤرخون المصريون للطب يجهلون مجرد وجوده حتى عام ١٩٣٦ ، **(J. Heyworth-Dunne : Print. and transl., 343-4).**

(٣٥) ج• الشيال : **تاريخ الترجمة** •• ، ٢١١ ـ ٢٤ ، ٢٢٤ •

أما المشكلة الأخيرة فهى خاصة باسلوب الترجمات • ففى البداية سادت الأخطاء والبلاغة المفتعلة والتهويل والتفخيم اللفظى • ومع عودة البعثات ، بدأ الاهتمام بالدقة ، وأصبح أغلب المترجمين يميلون الى الاقتراب من النص المترجم ، بأكثر مما يتقيدون بأساليب التعبير فى اللغة العربية مستهدفين الدقيقة الديدة ، وقد كان الطهطاوى الوحيد الذى سن الطريقة التى جرى عليها أسلوب المترجمين المعاصرين أى التعبير عن روح النص المترجم أكثر من التقيد بحرفيته (٣٦) • غير أن الطريقة القديمة ظلت سائدة ، مع ذلك ، فيما يتصل بعناوين المؤلفات المترجمة والمنشورة باللغة العربية بحيث كان من المستحيل تقريبا التوصل الى معرفة العنوان الأصلى وراء تزويقات وتحليات السجع القديم ، كذلك فان الكثير من الترجمات لا يذكر العنوان الصحيح للكتاب الأصلى ولا اسم المؤلف الأجنبى ومن ثم كان عدم دقة الاحصاءات •

وتغيرت الصورة سريعا مع بداية عهد عباس الأول • فقد حل غضب الوالى على الطهطاوى الذى كان مكروها من العلماء ، ومثار حسد على مبارك ؛ فتم ابعاده الى الخرطوم حيث تولى ادارة مدرسة أولية أنشئت بعد وصوله فقط (٣٧) • وقد بلغ من قنوط الرجل الذى كان بحق باعث النهضة الثقافية فى مصر ، أنه لم يترجم الا كتابا واحدا خلال تلك الفترة • ولم تشر الاجراءات التى اتخذها عباس فى مجال الترجمة الى مدرسة الألسن وألغى قلم الترجمة وكذلك مدرسة الألسن والمحاسبة (هكذا كان اسمها فى ذلك الحين) فى عام ١٨٥١ وأنشئت ادارة أخرى للترجمة وعهد بها الى « كانى » بك ، يعاونه عدد من الموظفين أمثال زكى أفندى ، منياس أفندى و « ألاثون » أفندى • وعادت الأهمية لترجمة الوثائق والتقارير الرسمية باللغة التركية ، وكذلك الترجمة للسائحين • ولكن لم تظهر ترجمة فى المجال الثقافى أو العلمى بالمعنى الدقيق (٣٨) •

ان البؤس الذى أصاب التعليم فى عهد سعيد اقترن باختفاء حركة الترجمة تقريبا • فلا يوجد أى أثر لأمر أو قرار من الوالى يتعلق بتشجيع ترجمة المؤلفات المدرسية أو الكتب القيمة ، فاذا كان قد استدعى الطهطاوى من المنفى • فقد كان ذلك ليعينه ناظرا للمدرسة الحربية • ومع ذلك فنحن نذكر المرسوم الذى أصدره سعيد عام ١٨٥٧ (١٢٧٤ هـ) والذى جعل

---

(٣٦) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، حيث يعرض عينات كثيرة من انتاج تلك الفترة •

(٣٧) J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 296-7.

(٣٨) A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl 4-11; ، ج• تاجر **حركة الترجمة** ٧٠ ـ ٧٤ •

بموجبه استخدام اللغة العربية ضروريا فى المراسلات الرسمية وانحصر استخدام اللغة التركية فى أضيق الحدود (٣٩) ٠

أما اسماعيل فقد استأنف عمل محمد على ٠ واذا برغبته فى الاستقلال عن تركيا تقوده بالطبع الى زيادة التمصير فى جميع الميادين ، وفى مجال اللغة والثقافة أصبحت اللغة العربية فى المقام الأول واكتست برداء الأبهة الرسمية ٠ وقد صدر أمر لوزير الداخلية فى عام ١٨٦٦ يقضى بطبع ٥٠٠ نسخة من جميع القرارات الحكومية منذ عصر محمد على باللغة العربية ، وكانت النصوص التركية مصحوبة بترجمتها العربية وصدر أمر آخر فى عام ١٨٧٠ يضفى صفة الالزام على استخدام اللغـــة العربية فى تحرير المراسلات الداخلية الخاصة بالمصالح والادارات فى الحكومة المصرية ٠ ومع ذلك فلم يكن يتوفر المحررون العرب المؤهلون ، أو بالأحرى العرب الذين يجيدون الترجمة عن التركية ٠ وهذا ما حاولت تلافيه التعليمات التى وجهت لديوان المدارس عام ١٨٧٥ حيث قضت بانشاء فصل أو فصلين لدراسة اللغتين التركية والعربية والترجمة من كل منها الى الأخرى (٤٠)٠

والواقع أنه من العسير فصل دراسة حركة الترجمة فى عهد اسماعيل عن سياسته العامة فى التعليم ، وقد يكون ذلك أكثر صـــعوبة عنه فى العهود السابقة ٠ فقد اتخذت مجموعة من الاجراءات التربوية تستهدف تكثيف حركة الترجمة : فأصبح الهدف من التدريس هو تعليم اللغات الأجنبية ، اعادة فتح مدرسة الالسن عام ١٨٦٧ ، كجزء من مدرسة الادارة وذلك لثلاثين طالبا ، تعيين خريجى مدرسة الألسن القديمة فى وظائف المترجمين الحكوميين ، تدريب طلبة بعض المدارس العليا على الترجمة ، قبل اعادة فتح مدرسة الألسن ، تنويع اللغات الأجنبية التى تدرس باضافة الانجليزية والنمســـاوية (الألمانية) وحتى اللغـــة الأثيوبية (٤١) ، تعليم اللغة الفرنسية كلغة اجبارية فى جميع المدارس الأولية والاعدادية والخاصة سواء فى القاهرة أو الأقاليم ، تعيين خريجى مدرسة الألســـن القديمة كمدرسين للغات الأجنبية ، اذ انصرف المدرســـون الأجانب الى

---

(٣٩) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ٧٥ _ ٧٩

(٤٠) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ٩٣ ٠

(٤١) وحول جميع هذه الأنشطة انظر ،نفس المؤلف ، **المرجع الســـابق** ، ٨٢ _ ٨٤ أما مدرسة اللغة المصرية القديمة التى تأسست فى ١٨٦٩ فقد كان مديرها النمساوى « هنرى بروجسن » ومن هنا ياتى تدريس الالمانية ؛وكان أساتذة من بطريركية الأقباط يعلمـون اللغة الأثيوبية الى تلاميذ « سمر وسود » وكذلك اللغة الهيروغليفية ؛ وتعليم اللغة الأثيوبية كان يستجيب لاحتياجات امبراطورية اسماعيل الجديدة فى أثيوبيا (ج ٠ تاجر : **حركة الترجمة** ٠٠٠ ٨٧ _ ٨٨)

تدريس المواد الحديثة والمتخصصة ، كذلك فان التوسع فى التعليم من ناحية ، وقلة المؤلفات الدراسية الموضوعة أصلا باللغة العربية من ناحية أخرى جعل الحاجة ملحة الى الكتب المترجمة (٤٢) ٠

وقد أدت الى نفس الغاية بعض العوامل الأخرى الناتجة عن آثار التغلغل الأوربى وبالذات ضخامة الجاليات الأجنبية فى البلاد ٠ فقد أنشأ الخديوى فى عام ١٨٧٣ أول قلم (مكتب) أوروبى ، وفى عام ١٨٧٥ الحق هذا المكتب بوزارة الداخلية وكلف بتحرير المراسلات الحكومية باللغات الأجنبية ، وليس بترجمتها ، كما كانت الحال بالنسبة لعلم الادارة الذى كان يحمل نفس الاسم والذى كان ملحقا بوزارة الحربية ٠ ومن ناحية أخرى اشترى الخديوى فى عام ١٨٧٦ مكتب البريد الذى كان يديره الايطاليون ، واستمر استخدام الايطالية كلغة عمل ٠ ولم نجد أثرا لأى مكتب للترجمة فى الوزارة الخديوية ، ولكن كان هناك مكتب أوروبى وسكرتير محرر للغات الأوربية وأخيرا فقد كان انشاء المحاكم دفعة قوية للترجمات القانونية من والى اللغتين الفرنسية والايطالية ، وكانت الحكومة المصرية تفضل القضاة المصريين المتمكنين من لغة أو عدة لغات أجنبية ، وقد ترجمت « **مجموعة قوانين نابليون** » فى ثلاثة مجلدات عام ١٨٦٦ بواسطة كل من الطهطاوى وعبد الله أبو السعود وأحمد حلمى وعبد الله أفندى ، كما ترجم الطهطاوى أيضا مجموعة القوانين التجارية الفرنسية ، وقام مترجمون آخرون بنفس العمل بالنسبة لقوانين الاجراءات الجنائية ، ومجموعة قوانين العقوبات ، وقوانين الحدود ، وفى عام ١٨٧٦ تمت ترجمة جميع أحكام المحاكم المختلطة الى اللغة العربية (٤٣) ٠

وبعد جريدة Le Moniteur Egyptien التى كانت تصدر فى عهد محمد على ، بين عامى ١٨٣٢ و ١٣٨٤ ، ظهرت فى عهد اسماعيل جريدة تحمل نفس الاسم عام ١٨٧٤ ، وأصبحت الجريدة الرسمية للحكومة ٠ وكان تنوع المواد الشديد وخاصة فى مجالى الاقتصاد والقانون من ناحية ، وظهورها يوميا من ناحية أخرى ، يدل على أن جهاز المترجمين المحررين الذى كان يرأسه مديرها « بوسنو » Posno كان يضمن صدور الجريدة (٤٤) ٠

---

(٤٢) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٨٠ ـ ٩٣ ٠

(٤٣) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٩٣ ـ ٩٦ ٠

(٤٤) ابراهيم عبده : **تاريخ الوقائع** ، ١١٨ ـ ١٢٣ ، ج٠ تاجر : **حركة الترجمة** ٠٠ ٩٧ ـ ٩٨ ٠ وسنعود الى هذه الصحيفة فى القسم الثانى من الفصل الرابع ٠

وفيما يلى قائمة باهم المترجمين ، حسب موادهم ، وتبعا لأهميتهم وذلك لاعطاء فكرة اجمالية : تأتى العلوم والرياضيات وفنون الهندسة على رأس القائمة وأهم المترجمين صالح مجدى ، عبد الله أبو السعود ، محمد سليمان ، جرجس حليا ، محمود فهمى ، اسماعيل مصطفى الفلكى ، محمود حمدى الفلكى ، أحمد نادى ، أحمد بك ، على عزت ، زيور أفندى ، ابراهيم مصطفى ؛ ثم تأتى العلوم العسكرية فى المكانة الثـانية حيث نجد صالح مجدى ، أحمد عبيد الطهطاوى ، سليمان سليمان ، سليمان رؤوف عبد الرحمن على ، حسن مظهر ، أحمد حمدى ، محمد عثمان ؛ وبعد ذلك تأتى اللغات والأدب وأهم المترجمين محمد عثمان جلال ، أحمد نجيب ، بشارة شديد ، حسين حسنى ، نجيب بحرى ،مراد مختار ؛ أما المكانة الرابعة فقد كانت للتاريخ والجغرافيا وأهم المترجمين صالح مجدى ، حزين نعمة الله الخورى ، محمد أحمـــــد عبد الرازق ، خليفة محمود عبد الله أبو السعودأحمد أفندى الطهطاوى ، ويأتى بعد ذلك القانون حيث نجد عبد الله أبو السعود ، محمد قدرى ، رفاعة الطهطاوى ، « جاجاردو » بك ، أحمد زكى ؛ وفى ذيل القائمة نجد الطب ، علم البصريات ، الديانات ، الاحصاء ، والفنون الخاصة بالمنزل وأهم المترجمين حسن عبد الرحمن ، هليلة تمرهان ، حسن محمود ، عبد الله أبو السعود ، نخلة صالح ، حسن عاصم ، حسين ندور ، سعيد البستانى ومحمد بن أحمد بن صدقى ٠ ومن ناحية أخرى فان الترجمات الرسمية التى يذكر منها جاك تاجر الأربعة الرئيسية تبلغ ١٠٢ عملا مترجما ، فى حين أننا لا ندرى شيئا عن أعمال ١٤ مترجما آخرين ثبت أنهم مترجمون (٤٥) ٠

كيف يمكن اذن التوفيق بين هـــذه الأرقام ــ لعهـــدى محمد على واسماعيل ــ وبين الرقم « الذى يتجـــاوز الألفى مؤلف » والذى ذكر هـ٠أ٠ر «جيب» أنه رقم المؤلفات التى ترجمها الى العربية والتركية فى ذلك العصر طلبة مدرسة الألسن (٤٦) ؟ لعل هذا الرقم كان خاصا بالترجمات التى نشرت ، والنصوص التى تمت ترجمتها ولكنها لم تنشر ــ أوامر ، لوائح ، قرارات حكومية وتشريعية من كل نوع ، الخ ــ اللهم الا اذا كان الكاتب أراد اضافة المقالات الهامة نوعا ما والمترجمة والمنشورة فى الصحف؛ وليس لدينا للأسف أى تفسير دقيق كامل يؤيد هذا الرقم ٠ وبالنسبة

---

(٤٥) ج ٠ تاجر : **حركة الترجمة** ، ٩٨ ــ ١١٢ ٠

(٤٦) Hamilton A.R. Gibb : «Studies in contemporary Arabic literature», in Studies on the civilization of Islam, Stanford J. Shaw and William R. Polk, eds, Routledge and Kegan Paul Ltd., London 1962, 247-8.

لعصر محمد على فانه على الرغم من أن القوائم التى وضعها كل من جمال الدين الشيال (٤٧) وأبو الفتوح رضوان (٤٨) تتجاوز قوائم جاك تاجر فانها لا تدعم تقدير هـ ٠ أ ٠ ر ٠ « جيب » (٤٩) ٠

واذا نظرنا الى طبيعة الترجمات التى تمت خلال العهدين ــ الفترة بين ١٨٣٥ و ١٨٤٨ تمثل قمة الانتاج ــ أمكن استخلاص خاصيتين دالتين : أولا ، التوسع في جميع المجالات المترجمة على عهد محمد على ، حل محله عمل مخطط منظم على عهد اسماعيل تشغل فيه العلوم العسكرية ، وكذلك القانون والعلوم مكانة مختارة (٥٠) ، مع بقاء العلوم كعنصر أساسى فى كلا العهدين ؛ ثانيا ، كانت الترجمة فى عهد محمد على تستهدف أساسا تزويد المدارس بالمؤلفات الأساسية ، فى حين أنه فى أواخر عهد اسماعيل كانت الآداب والعلوم الاجتماعية تحظى باهتمام أكبر ٠ وقد جاء هذا التغير فى طبيعة الأعمال المترجمة نفسها مصحوبا بتغيير فى جهاز المترجمين الذى كان مصريا تماما خلال الفترة الأولى ، ثم غلب عليه بصورة ملموســـة العنصر السورى ، الذى وجد فى مصر ملجأ من الاستبداد العثمانى (٥١)٠

بقيت مشكلة الاختيار ٠ كان التفوق للفن العسكرى والعلوم والتكنيك بطبيعة الحال ، وذلك بغرض تمثل الجانب «التكنيكى» للمجتمعات الصناعية الأوربية ٠ فهل كانت الأوساط الثقافية الأوربية فى ذلك العصر ترغب فى الاقتصار على هذه المجالات فى رسم صورة أوروبا فى نظر الشرق العربى وبخاصة مصر ؟ نستطيع أن نرد على ذلك بالايجاب ، مع تقدير مصـــلحة واقعية سياسة الدولة لجبهة الدول الكبرى ابتداء من عام ١٨٤٠ ٠ ومع ذلك فان المكانة الهامة التى خصصت للتاريخ والجغرافيا والمكانة المحددة والمتأخرة التى خصصت للقانون والأدب والعلوم الاجتماعيـــة وحتى تاريخ الفلسفة تجيبان على استفسار : ما موضـــوع الاختيار ؟ هنا تظهر فائدة المقارنة التى عقدها ابراهيم أبو لغد بين حركتى الترجمة فى القرن التاسع وفى القرن التاســع عشر فى العالم العربى : فبينما دخلت جميع العـــلوم

---

(٤٧) انظر الهامش رقم ١٩ من القسم الأول اعلاه ٠

(٤٨) **تاريخ مطبعة بولاق** ، القاهرة ،١٩٥٣ ، ٤٤٦ ــ ٤٧٩ ٠

(٤٩) I. Abu-Lughod : Arab rediscovery. ، وهو يؤكد عدم دقة هذه القوائم ٠

(٥٠) ج٠ زيدان **تاريخ آداب** ٠٠ ، جـ ٤ : ١٦٦ ــ ١٩٦ ، ومع ذلك فهو لا يذكر العلوم ٠ I. Abu-Lughod : Arab rediscovery, 44.

(٥١) I. Abu-Lughod : Ibid 44-5, 56.

والفلسـفة الاغريقية المجال العربى فى القرن التاسع عشر ــ باسـتثناء الأدب واللاهوت والتاريخ ــ فان الفلسفة والمنطق والعلوم البحته قد مست مسا خفيفا فقط فى القرن التاسع عشر (٥٢) ، مع أن نظـرة دقيقة فى قوائم الاعمال المترجمة فى هذا المجال الأخير تبين الاهتمام الشديد الذى لم يعترف به هذا الكاتب • ماذا يمكن أن يقال هنا سوى أن الاهتمام باقامة نهضة يكون أساسها قوة الدولة هو ماكان يشغل كوكبة المترجمين المصريين الذين امتدحهم بما يستحقونه هـ• أ• ر• «جيب» (٥٣) ؟ لم يكن مفهوم القوة قاصرا على علم أو تكنيكات تطبيقية فحسب ، ولكن أيضا على أنه مشكلة حكم وسلطان ، وكان اختيار كتب التاريخ والجغرافيـا والأدب والقانون من وحى هذا التصور ــ السياسى فى المقام الأول ــ للنهضة •

ومن ناحية أخرى ، فقد كانت العلاقات بين هذا العالم [الفكرى] وبين الشعب المصرى تبدو لأول وهلة ، ضعيفة للغاية ، ان لم تكن معدومة• صحيح أن كل كتاب مترجم كان يطبع منه ألف نسخة • غير أن هذه النسخ كانت تصل جمهورا مختارا ، يتألف من الصفوة الجديدة من « الأفندية » وطلبة المدارس الجديدة ، وموظفى الحكومة ، وكبار رجال الحكم • وظـل جهاز التعليم التقليدى وطائفة شيوخ الأزهر ، فى معظمهم ، على عداء لهذه البدع الدخيلة على الدين (٥٤) • وكان التراث الثقافى العظيم الذى تميزت به قرون الاسلام الأولى يختمر ، لكن فى عقول ضئيلة ، وفعالة : الشيخ حسن العطار الذى عظم منصبه الرفيع كشيخ للأزهر وحامى زمامه ، ثم الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، ومحمد عمر التونسى وسالم عوض القناياتى ونصر الهورينى والجوهرى وطائفة المحررين والمصححين الذين عملوا جنبا الى جنب مع المترجمين • كانت المترجمات ، وبالتالى ، المعارف الجديدة تدور فى حلقة مغلقة • ولم يصل الى معرفتنا غير كتابين فى الطب ــ **كنوز الصحة ويواقيت المنحة ، والدر الغالى فى معالجة أمراض الأطفـال** (٥٥) واللذان وصلا الى الشعب ، حيث أمر محمد على بتوزيعهما لتعليم المصريين وسائل مكافحة الأوبئة •

---

(٥٢) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٥٨ ــ ٥٩ •

(٥٣) Contemporary Arab lit., 247 sqq.
I. Abu-Lughod : Arab rediscovery, 62.

(٥٤) ج• الشيال **تاريخ الترجمة** •• ، ٢٢٤ ــ ٢٢٧ ، ويستشهد بـ :
A. Perron : Lettres inédites à Mohl, 9-12; Y. Artin : «Lettres inédites du Dr Perron à M.J. Mohl», Bull. Inst. Eg., 5 série, III (1909), 137-52;

وكذلك مادة **الأزهر فى دائرة المعارف الاسلامية**•

(٥٥) ج• الشيال : **تاريخ الترجمة** •• ، ٢٢٨ •

وبالاضافة الى دوران هذه العلوم الحديثة داخل دائرة مغلقة ، كانت الكتب المترجمة تختار عن طريق السلطة ، لا عن طريق المتخرجين من الجامعات الأوربية والذين أصبحوا مترجمين بدورهم ، الأمر الذى قلل من فرص المبادرة ، ولم يشجع كثيرا على الانتاج غير الرسمى · ومع ذلك فقد كانت الفائدة عظيمة : فبدون ذلك المجهود الرسمى الضخم الذى شجع عليه محمد علي، لم يكن ليكتب للحركة أن تستأنف في عهد اسماعيل (٥٦). وأنه من الصعب بوجه خاص — وفى هذا يكمن جوهر الموضوع — ايجاد عامل آخر ، يكون حاسما فى المجرى الأخير ، يفسر ازدهار الأعمال الأدبية والعلمية ، والعلوم الانسانية التى انتشرت فى عهد اسماعيل انطلاقا من الأسس المتينة التى وضعها أول الولاة : أن رفاعة وتلاميذه وأتباعه ومن جاءوا بعدهم اقتصروا على تقديم الأعمال التى تحتوى على الأفكار التى سوف تخصب الثقافة الوطنية التحررية الجديدة فى مصر الحديثة ·

(٥٦) وعلى الرغم من أن « هيورث ــ ديون » يتخذ فى جميع كتاباته موقفا نقديا عنيفا تجاه محمد على الا أنه يعترف بوضوح قاطع بدوره الاصلاحى الرائد فى :
Print, and transl., 349;
وكذلك ج الشيال : **تاريخ الترجمة** ·· ، ٢٢٨

● الفصل الرابع

البنية الأساسية للحركة الثقافية

القسم الأول ـ تطور التعليم : الأفكار والمؤسسات

يعكس وضع عام ١٨٤٠ بطريقة واضحة حاجات الدولة المصرية التى أقامها محمد على لتكون مركزا لامبراطوريته · وكان الاهتمام منصبا على العلاقات المباشرة بين حاجات الجيش من جهة وبنية التعليم وتطوره من جهة أخرى ، وسنرى تفصيل ذلك بعد قليل وا ُدير بالذكر أننا نصادف الكثير من التكتم فيما يتعلق بتحديد مكانة السياسة التعليمية فى اطار النهضة الثقافية فى مصر · وأخيرا وهو الأهم ، ثمة مظهر ثالث يبدو أنه لم ينل ما يستحق من الاهتمام ، بل يكاد أن يكون مجهولا ، ألا وهو رغبة الوالى فى أن يبقى سيد الموقف ، وعدم الخضوع للمستشارين والخبراء الأوربيين ، وبذلك لم يكن مصير التعليم متعلقا بمصير الأسلحة والتكنولوجيا الصناعية فحسب ، وانما أيضا بمصير استقلال سلطة الدولة ·

كان النظام فى مجمله يخضع لادارة ديوان المدارس ، الذى انشىء فى ١١ يناير ١٨٣٦ ، والذى كان يعرف فى ذلك العصر بأسماء مختلفة كالمجلس العام ، أو المجلس الاستشارى أو اللجنة (١) · وكان الناظر هو مصطفى مختار (مارس ١٨٣٧ ـ نوفمبر ١٨٣٨) وقد خلفه ابراهيم عزام (مايو ١٨٣٩ الى مارس ١٨٤٩) (٢) ، وكان أعضاؤه هم كلوت بك (مدير مدرسة الطب) ، والكولونيل « كيانى » بك ، ويعقوب أرتين بك (مدير مدرسة الادارة ، واسطفان أفندى (مدرسة الادارة) « فاران » (مدير مدرسة الفرسان) ، « هيكيكان » (مدير مدرسة المهندسخانة Polytechnique ، رفاعة رافع الطهطاوى (مدير مدرسة الألسن)،

---

(١) P.N. Hamont : L'Egypte sous Méhemet-Aly, 2 vol. Paris, 1843, ii : 198 ; J. Heyworth-Dunne : Hist educ., 190 ; Ahmed Hass Ebeid : National policy and popular education in Egypt 1919-1958 th. D. Phil., Oxford, 1964, 15.

(٢) A H. Ebeid : Ibid., 417.

بيومى أفندى (مدير مدرسة المهندسخانة) ، «لامبير» (مدير مدرسة المناجم) ، « هامون » (مدير مدرسة الطب البيطرى) ، و « دورول » سكرتيرا ، وقد أشار ، الوالى الى وجوب اشتراك مختار بك ، وأرتين بك ، واسطفان أفندى والشيخ رفاعة فى الديوان الذى يبدو أن فكرته ترجع الى تأثير كل من « السان — سيمونيين » وأعضاء البعثات العائدين من أوروبا ، وكان أرتين هو المتحدث بلسانهم (٣) • وقد حل الديوان محل لجنة التعليم التى تشكلت فى يناير ١٨٢٦ ووضعت تحت ادارة ناظر ديوان الجهادية •

وفى عام ١٨٣٦ كان هناك ٦٧ مدرسة أولية يرجع أقدمها الى عام ١٨٣٣ (٤) • وكان الهدف هو اعداد التلاميذ للمدارس المتخصصة والعليا على النمط الأوربى والتى تقوم بدورها بتزويد الجيش والادارة بالكوادر وهى : المدرسة الحربية (١٨٢٥) ، مدرسة أركان الحرب (١٨٣٦) ، مدرسة الطب (١٨٢٦) ، مدرسة الصيدلة (١٨٢٠ — ١٨٣٠) ، مدرسة الولادة (١٨٣١ — ١٨٣٢) ، مدرسة الطب البيطرى (١٨٢٧) ، مدرسة الموسيقى (١٨٢٤) ، مدرسة الفرسان (١٨٣١) ، مدرسة المدفعية ، مدارس المشاة (١٨٣٢) ، مدرسة الأمراء (١٨٢٦) ، مدارس البحرية (١٨٢٥) ، مدرسة الذخيرة الحربية (١٨٣٣) ، مدرسة التعدين (١٨٣٤) ، مدرسة المهندسخانة (١٨٣٤) ، مدرسة الكيمياء التطبيقية (١٨٢٩) ، المدرسة المدنية (المعمار المدنى) (١٨٢٩) ، مدرسة الادارة والترجمة (١٨٣٤) ، مدرسة الاشارة (١٨٣٠) ، مدرسة الفنون والصنائع (١٨٣١) ، مدرسة الرى (١٨٣١) ، مدرسة الترجمة وقد سميت فيما بعد مدرسة الألسن (١٨٣٦) ، مدرسة الزراعة (١٨٣٦) (٥) •

أما طلبة هذه المدارس فقد كانوا من أصلين بشريين مختلفين • فبينما كان غير المصريين — المماليك ، الشراكسة ، مع أقلية من اليونانيين والأكراد والألبانيين والجورجيين — يكونون فئة الضباط وطلبة المدارس العسكرية ، كان المصريون يمثلون غالبية طلبة مدارس الطب والطب البيطرى والمهندسخانة وكذلك الخدمات الطبية • وكان محمد على يجمع التلاميذ من المساجد والكتاتيب التى اختفت فى صعيد مصر حوالى عام ١٨٣٣ ، فى حين انخفض عددها فى بقية أنحاء البلاد • وعندئذ ، لكى يرد محمد على على كراهية علماء الأزهر ، عين حسن العطار شيخا للمسجد الكبير ،

---

(٣) J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 191-2.

(٤) ا•ع• عبد الكريم : **التعليم فى عصر محمد على** ، ١٥ — ١٩ •

(٥) J. Heyworth-Dunne : Hist educ., 115-52. ، وحول السياسة العامة للتعليم فى عهد محمد علىانظر : ع• الرافعى : **محمد على** ، الفصل الثانى عشر ، ٤٦٤ — ٥٧١ وج• الشيال : **تاريخ الترجمة** •• ، ١٦ — ٢ ،٣ ، ٣٨ — ٤٤ •

حيث تم انشاء أربعة عشر كتابا بين عامى ١٨٣٣ و ١٨٣٦ (٦) ، غير أن جوهر التعليم كان فى المدارس الحديثة التى أنشأها ديوان المدارس ابتداء من عام ١٨٣٦ .

أما حركة تحديث التعليم ، فقد بدأت عام ١٨٣٦ وذلك ابتداء من المراحل العليا ، انطلاقا من المدارس المتخصصة ، لتهبط بعد ذلك الى فئتى التعليم الأدنى والمتمثلتين في المدارس الاعدادية والابتدائية. وقد أصاب س . حماد حينما قال : « اتخذت هذه العملية شكل الهرم المقلوب ، حيث كانت حاجات التعليم العالى هى المهيمنة والمنظمة لحجم وبرامج المرحلتين المتوسطة والأولية (٧) » . وكان النفوذ الفرنسى مثالا فى هذه العملية ، « ولم يبدأ طوره كحركة حرة الا حينما غادر الفرنسيون البلاد ، ودعت ظروف مصر فى عهد محمد على ومن خلاله الى القيام ، عن رغبة عمدية وعن طواعية ، باستعارة النظم والانماط بل والموظفين من فرنسا . ان مظاهر التأثير هذه ، حتى ولو لم نستطع أن نزعم أنها كانت تعبر عن رغبات ومطالب البلاد فى مجموعها ، الا أنها كانت تعبر عن رغبة شديدة من جانب الحكومة التى كانت تجد فيها الوسيلة الوحيدة لبناء الدولة الجديدة وبناء جيشها . » وقد عبر الوالى « عن مشاعر الود التى يكنها المصريون للفرنسيين (٨) » ، الذين وجدوا العون ، ليس فقط بين النخبة الجديدة من الطلبة العائدين من البعثات الدراسية ، وانما أيضا فى بعض كبار أساتذة الأزهر الذين تأثروا كثيرا بالتفوق العلمى للبعثة العلمية الفرنسية، وبصفة خاصة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، مؤرخ مصر فى نهاية القرن الثامن عشر فى بداية القرن التاسع عشر ، والشيخ حسن العطار أستاذ رفاعة والذى مهد لظهور محمد عبده (٩) .

« ونشير أولا الى مدارس التخصص ولا نذكر منها الا سبعم ، وهى مع عدد طلابها ، فى عام ١٨٣٨ ، أخذا عن « بوجولا » ، على النحو التالى مدارس اللغات (١٥٠) مدرسة المهندسخانة (٢٢٥) ، مدرسة المدفعية (٣٠٠) ، مدرسة الخيالة (؟) ، مدرسة المشاة (٤٠٠) ، مدرسة الطب (٣٠٠) ، مدرسة الطب البيطرى (؟) . ولم تعد اللغة الفرنسية اجبارية

---

(٦) ا. سامى : **تقويم** ، ج ٢ : ٤٨٤ ، ٤١٣ ـ ٤٥٧ ، ا.ع. عبد الكريم : **التعليم** ، ملحق ٣ ٤١ ـ ٤٣ ، J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 152-7,

(٧) S.I. Hammad : French and British influence in Egyptian education, an historical and comparative study, th. M.A. Edic., London, 1950, 109.

(٨) S.I. Hammad : Ibid., 138-40. ، وهو يسير فى اتجاه مناقض لاتجاه « هيورث ـ دون »

(٩) A.H. Ebeid : Nat. policy and pop. educ., 13.

نظرا لأن الطلبة العائدين كانوا قادرين على القيام باللغتين العربية والتركية • كذلك بذلت محاولات أخرى قصيرة الأجل لانشاء المزيد من المدارس المتخصصة : مدرسة للمحاسبة (١٨٣٧) ، مدرسة للعمليات (١٨٣٩) • مدرسة للقانون الادارى (١٨٤٠) ، وفى ذات الوقت واصلت بعض المدارس المتخصصة القديمة ـ كمدرسة الموسيقى ومدرسة البحرية ـ عملها بجانب المدارس السبع التى شكلها الديوان (١٠) •

وكانت مهمة المدارس الابتدائية والاعدادية هى اعداد الطلبة المصريين للالتحاق بمدارس التخصص • وقد أصبح عدد المدارس الابتدائية خمسين مدرسة عام ١٨٣٧ ، منها أربع مدارس فى القاهرة وواحدة فى الأسكندرية وخمس وأربعين فى الأقاليم ، تضم جميعها ٥٠٠ر٥ تلميذ (١١) • وكان جميع نظار المدارس تقريبا من مشايخ الأزهر ، ولعل ذلك كان بهدف الانتقال من نظام الكتاتيب القديمة الى هذا النوع الجديد من المدارس . وكان تدريس اللغة العربية والدين من اختصاصهم • وبالنسبة للغة العربية لم يكن هناك أى أسلوب لتدريس اللغة : ومنذ ذلك الحين أصبح « استخدام [الشيوخ] فى تدريس اللغة ، أيا كان الأمر ، امتيازا دائما للأزهريين [...]، وكان القرآن هو الكتاب الذى يدرس فى كل مكان (١٢) • » ويمكننا أن نتصور التأثير الحاسم الذى مارسه الأزهريون فى التدريس اذا أدركنا أن مادة واحدة مع أربع مواد ـ وهى مبادىء الحساب ـ لم يكونوا يقومون بتدريسها فى حين كانت المواد الثلاث الأخرى ـ القراءة والكتابة ، اللغة العربية ، الدين ـ قاصرة عليهم •

أما المرحلة الاعدادية فكانت تضم مدرستين ـ مدرسة القاهرة (١٥٠٠ تلميذ) ومدرسة الاسكندرية (٥٠٠ تلميذ) ـ وكانتا مؤسستين

---

(١٠) ع• النديم : **الأستاذ** ، ١٨٩٣ ، ٧٣٢ ـ ٣٣ ، أ• سامى : **تقويم مصر** ، جـ٢ : ٤١٣ ـ ٥١٥ ،

B. Poujoulat : Voyage dans l'Asie mineure, en Palestine et en Egypte, 2 vol., Paris, 1840-41, ii : 516-7; J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 197-208, 281-21.

(١١) ترد القوائم عند ا• سامى **تقويم** ، جـ ٢ : ٤٨٤ وا•ع• عبد الكريم : **التعليم** •• ٣٤ ـ ٤٤ وكذلك

J. Heyworth-Dunni : Hist. educ. 195, A.H. Ebied : Nat. policy and pop. educ., 15.

(١٢) J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 201-7. ويمتنع عن تقديم ادنى انتقاد ، فى حين أن هذا النظام التعليمى أفضى الى نتائج مدمرة الى أن أنشئت كلية الآداب بجامعة القاهرة عقب الحرب العالمية الأولى •

شبه عسكريتين ٠ وكان يدرس فيهما اللغة العربية والتركية ، والفارسية، ومبادىء الهندسة ، وجانب مبسط من التاريخ والجغرافيا ، والخط والرسم. والواقع أن عدد تلاميذ مدرسة القاهرة كان يتراوح بين ٦٠٦ و ١٥٠٠ تلميذ ، أما مدرسة الاسكندرية فيبدو أنها لم تمارس نشاطها فى الواقع، وذلك لأن مدرسة القاهـرة الاعدادية وحدهـا هى التى زودت المدارس المتخصصة بال ٢ر١١١ تلميذ الذين التحقوا بها عام ١٨٣٩ (١٣) ٠

وكان هناك فى عام ١٨٤٠ ، حيث بلغ النظام أوج قمته ، ٩ر٠٠٠ تلميذ « يأكلون ويسكنون على حساب الدولة » كما قال كلوت بك (١٤) ٠ ويجب أن نضيف الى ذلك أنهم كانوا يتعلمون طبقا للأساليب الأوربية الحديثة ، عن طريق فريق من العلماء والاساتذة الأجانب والمصريين العائدين من أوروبا ٠ ولم يكن الهدف هو « التربية الوطنية » ، كما أراد الايحـاء بذلك بعض مستشارى الوالى الفرنسـيين ٠ فقد كانت تنقص النظرية العامة ، وبالذات ، الرؤية الواضحة للوحدة والارادة الوطنيتين ٠ وقد كان الهدف هو الخروج من الهوة ، وبناء دولة حديثة ، قوية ، قادرة على تحقيق التقدم ٠ وهل يعنى ذلك التقليل من قيمة الانجازات الضخمة التى تمت على وجه السرعة فى تلك السنوات القليلة ، كما يزعم ذلك « بوجولا » و ج « هيورث ــ دون » ؟ لقد كتب الأول يقول : « أقام محمد على من حوله تعليما عموميا ، لماذا ؟ ليحصل على الضباط والاداريين والأطباء ، لا لتنوير الشعب المصرى واستبدال مزايا التربية بالجهل الذى يولد الشقاء والبؤس؛ ويمكن القول أنه ليس هناك ما هو أقل عموميـة من هذا التعليم الذى يسمونه التعليم العمومى» ٠ ويشكو الثانى وهو يشير الى أن «المدارس العمومية التى كانت قائمة فى القرن الثـامن عشر قد خربتهـا السياسة الجديدة (١٥) ٠ » والمقصود «بالمدارس العمومية» هو كتاتيب المساجد التى ستصبح فيما بعد موضع رعاية قوات الاحتلال البريطانى ــ فى حين أن محمد على أراد أن يبنى دولة حديثة بمدارس حديثة ٠ واذا كان هذا «التعليم العمومى» لا علاقة بينه وبين التنظيمات التى أوجدتهـا الثورة الفرنسية، وهذا أمر حقيقى : ان أربعة قرون من الانحطاط تفصل مصر فى ذلك العصر عن نموذجها الثقافى ، فرنسا ،التى كانت تشارك بريطانيا العظمى فى السيطرة على العالم ٠ ولكى تكون المقارنة عادلة ومثمرة ، يجب أن نعقدها

---

(١٣) أورد النديم فى **الأستاذ** ، ١٨٩٣ ، ٧٢٩ الرقمين ٦٠٦ و ١٥٠٠ ، أما بقية الأرقام فقد أوردها : J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 196-7, 218.

(١٤) نقلا عن Dr. E Rossi bey : La population et les finances 61.

(١٥) B. Poujoulat : Voyage Eg., ii : Hi; J. Heyworth-Dunne : Hist., Educ., 229.

بين المجهود الذى بذله محمد على من ناحية ، ومجهود فرنسا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر من ناحية أخرى • حينئذ تثبت المقارنة أن اعداد الكوادر الحديثة ، أو الثورة من أعلى ، تسبق دائما التعليم العمومى خلال مرحلة البناء الوطنى • وهـذا أيضـا ما رآه المؤرخون والتربويون المصريون ــ وبالذات محمد صبرى وعبد الرحمن الرافعى وأمين سامى وأحمد عزت عبد الكريم وجمال الدين الشـيال ــ فى حين أن اسـماعيل القبانى ، وهو مفكر تربوى من الجيل الماضى سلفى النزعة فيما يتصل بالمضمون ، وأمريكى المنهج ، ومعارض رئيسى لأفكار وانجازات طه حسين، يرى ما رآه ج • « هيورث ــ ديون » (١٦) • ولقد تعرض الانتقال من الكتاتيب الى المدارس الحكومية ذات الصبغة العسكرية لعداء أولياء الأمور من الفلاحين والأوساط الدينية الأزهرية (١٧) : وهل من الممكن أن يكون الوضع خلاف ذلك فى بلاد سكانها من الفلاحين المسـخرين تمر بفترة انتقال وبشكل سريع متعجل نحو مجتمع حديث وصناعى ونحو بناء دولة مستقلة تعتمد على جيش قوى ؟ •

ذلك ان الوقت أيضا كان محسوبا : « ان مرسوم السلطان فى ١٣ فبراير ١٨٤١ ، ومرسومة فى ١٩ أبريل من نفس العام ، وقبول محمد على لكليهما فى ١٠ مايو ١٨٤١ ، وتوقيع اتفاقية لندن فى ١٣ فبراير ١٨٤١ ، كلها تواريخ هامة فى تأريخ الثقافة المصرية ، تماما كأهميتها فى التاريخ السياسى» (ج . «هيورث ــ دون») (١٨) . ان عدوان الدول الأوربية الكبرى

---

(١٦) « ولقد كان التعليم القديم فى الأزهر ، بالرغم مما اتصف به من ضيق وجمود ، يتصل بناحية هامة من حياة المتعلمين ، وعاطفة قوية متغلغلة فى النفوس ، ولذا كان له بعض الأثر الروحى • فكان يطلب ويحترم لذاته ، وكانت الأسرة تفخر بأنهـا وهبت بعض أبنائها للعلم ، وكان الكثيرون من طلاب العـلم ، بعد أن ينالوا منه بغيتهم ، يعودن الى بلادهم أو قراهم فلا يبحثون عن وظيفة يستغلون فيها هـذا العلم اسـتغلالا ماديا ، بل يشتغلون بتجارة أو زراعة ويعملون فى الوقت نفسه على افادة النـاس بعلمهم • وكان بعضهم يقرءون دروسا دينية فى المسـاجد ، فيوجدون بذلك لونا من ألوان الثقـافة بين طبقات الشـعب • أما التعليم الذى أطلق عليه اسـم التعليم الحديث فانه عندما أدخل الى مصر لم يكن يتصل بشىء فى حياتها التى ألفتها ، ولم تكن له جذور فى نفوس أبنائها، بل كان تعليما أجنبيا مفروضا على الأمة • » اسماعيل القبانى : **سياسة التعليم فى مصر** ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ٢٣ •

(١٧) ومع ذلك فان الرافعى يلاحظ الضعف التدريجى لهذا العداء (**محمد على** ، ٤٧٦)

(١٨) J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 223; ، انظر تقسيم المراحل الذى أوردناه فى المقدمة •

لن يلبث أن يحطم انطلاقة النهضة السياسية ويرغم الوالى على الأنطواء الثقافى ٠ ثم يقوم ابراهيم بخطة لاعادة التنظيم فى نوفمبر ١٨٤١ ، على الرغم من معارضة سليمان باشا وعزام بك ، وتقضى الخطة بتخفيض ميزانية المدارس ٥٠٪ ، نظرا لأن الجيش تقلص من ٣٠٠ر٠٠٠ رجل الى ١٨ر٠٠٠ ، وأغلقت ثمان وأربعون مدرسة ابتدائية ، ولم يبق من المدارس الابتدائية سوى ثلاث أغلقت عام ١٨٤٤ و ١٨٥٠ (١٩) ٠ كما بقيت تسع مدارس متخصصة ضاق مجال نشاطها ٠ ومع ذلك فان الناظر الجديد ، عزام بك ، بمعاونة عبد الرحمن رشدى ، حاول أن يحول دون سقوط النظام : ففتح أربع مدارس ابتدائية بين ١٨٤٢ و ١٨٤٦ ، ومدرسة على النظام الانجليزى عام ١٨٤٣ (٢٠) ٠ وقد قام « بيليسييه Pellissier بدراسة للموقف عام ١٨٤٩ ، بناء على طلب الحكومة الفرنسية ، فكتب يقول : « ان ثورة حديثة حديثة تجعل من هذا التقرير تاريخا كاملا لعمل من أعظم انجازات محمد على ، وهو أيضا أقصرها عمرا ، فلم يعد هناك أية مؤسسة للتعليم العمومى ٠ » لقد وجد خمس مدارس ابتدائية (١ر٠٠٠ تلميذ) ،ومدرسة اعدادية (٥٠٠ تلميذ) ، أما المدارس المتخصصة فكانت فى حالة تدهور ، وكان أسعدها حظا مدرسة المهندسخانة (٨٠ طالبا) ، بادارة « لامبير » ، وبعدها مدرسة الطب ، أما مدارس الألسن والمدفعية فقد كانت ما تزال تقاوم الى حد ما ، وكانت الفوضى على أشدها فى مدرستى الفرسان والمشاة ٠ كان هذا الانهيار يعود من ناحية الى ضعف المكانة التى أعطيت للفرنسيين فى التعليم العالى ، ومن ناحية أخرى ، الى عدم ترقى الطلبة الفلاحين لأعلى من درجة صغار المرؤوسين ، وقد أدى اتصالهم بمواطنيهم غير المتعلمين الى توحيد المستوى عند القاعدة الشعبية ٠ ومع ذلك فقد كان جوهر الأمر سياسيا ووطنيا، ولم يخف هذا عن «بيليسييه». فاذا كان الاقتصار على استظهار القرآن فى سن مبكرة قد أفسد عقول التلاميذ ، فان عدم وجود الشعور الوطنى وعدم وجود جيش خليق باثارة المثل العليا الوطنية هو الذى حطم الانطلاقة الثقافية (٢١) ٠

وقد ظل تاريخ التعليم ، حتى مجىء اسماعيل ، يسير من سىء الى أسوأ ٠ ففى بادىء الأمر أمر عباس الأول باغلاق جميع المدارس الابتدائية (١٨٤٩) – ١٨٥٠) ، ثم جمع أنواع التعليم العسكرى فى مؤسسة واحدة

(١٩) ٠ا سامى : تقويم : ٣٣ – ٤٤ ،
M. Rifaat : The awakening of modern Egypt London, 1947, 189-91.

(٢٠) J. Heyworth-Dunne : Hist : educ., 234-5.

(٢١) Pellissier : Rapport adressé à M. le Ministre de l'Instruction publique et des Cultes sur l'état de l'instruction publique en Egypte, Paris, 1849.

تحت اسم مدرسة المفروزة (سبتمبر ١٨٤٩) تضم ١٦٩٦ر١ طالب ، موزعين على أقسام ثلاثة : الأولى ، والاعدادى ، ثم مدرسة عسكرية بمعنى الكلمة · واختفت جميع المدارس المتخصصة عام ١٨٥٠ – ١٨٥١ ، ماعدا مدرسة المهندسخانة ، التى يديرها على مبارك ، ومدرسة الطب · وقد ظلت المدرسة الأولى تمارس نشاطها بطلبة قليلين وميزانية ضعيفة ، ومع ذلك فقد استطاع مديرها أن يطبع ٦٠٠٠٠ر٦٠ كتاب لاستخدام المدارس الأخرى ، وكذلك بعض الأطالس والكتب المصورة (٢٢) . أما مدرسة الطب التى كان يديرها «وليام جريسنجر » ابتداء من ١٨٥٠ ، فقد اتجهت ناحية ألمانيا والنمسا : وفى تلك الأثناء توصل « بليهارز » الى اكتشاف ميكروب «Schistosoma haemakobium» الذى يسبب المرض الذى عرف فيما بعد باسم البلهارسيا والذى عصف بصحة الفلاح . وبعد قليل استبدل بالطاقم الذى يتكون أصلا من الألمان طاقما آخرا من الايطاليين ، يتألف من الطبيبين « راجى Raggi و «رانزى» Ranzi وهما من فيرنزه . غير أن أخطر ما فى الأمر كان يجرى على مسرح آخر : فقد تعلل عباس الأول بكراهية علماء الأزهر لرفاعه (٢٣) ، وقام بنفيه الى الخرطوم مع محمد بيومى أفندى ودكله أفندى لانشاء مدرسة ابتدائية هناك · لكن الهدف الحقيقى هو القضاء على النـــواة الرئيسية لسياسة التعليم الوطنية الحديثة التى كان قد بدأها محمد على · ووقع رفاعة فريسة للمرض والغضب ولم يسلم من ذلك الا بصعوبة ، فى حين أن محمد بيومى ، عميد أساتذة الهندسة والرياضيات بمدرسة المهندسخانة ، مات فى الخرطوم (٢٤) · وبذلك وجد عباس الأول أدوات طيعة فى الناظرين اللذين أعقباهما فى رئاسة التعليم العمومى وهما ابراهيم عزام (١٨٣٩ – ١٨٥٠) وعبدى شكرى (١٨٥٠ – ١٨٥٤)· ومن بين جميع مؤرخى التعليم فى تلك الفترة ينبرى ج « هيورث – دون » ، وحـــده ، ليدافع عن عباس (٢٥) ومع ذلك ، لم يستطع الا أن يسلم بصحة الحكم الذى أصدره «فنترينييه» مؤلف سيرة سليمان باشا ، حينما يقول : « كانت عقيدته بسيطة وواضحة صارمة وسريعة · فقد أعلن أنه من أصل تركى ويريد

---

(٢٢) وبالنسبة لسائر الأنشطة التى حث على مبارك على القيام بها انظر سيرته الذاتية فى **الخطط** ، ج ١٠ : ٣٧ – ٦٠ ، وكذلك سعيد زايد : **على مبارك واعماله** ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ٥١ – ١٠٥ · وحول هذا الموضوع المحدد انظر
J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 43-5.

(٢٣) L. Delatre : «L'Egypte en 1858», Revue de l'Orient, de l'Algérie et des colonies, viii (1858), sept., 129-49; J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 297.

(٢٤) ع. الرافعى : **عصر اسماعيل** ، ج ١ : ١٦ – ١٧ ·

(٢٥) A. Sammarco : Sa'id et Ismâ'il, 6-8.

أن يحكم كتركى [٠٠٠] ٠ كان عهد عباس فترة استجمام وراحة فبعد أن توقفت الحياة الأوربية ، غزا الجمود الاسلامى البلاد وخيم عليها (٢٦) ٠ »

ومع مجىء سـعيد كان قيـام مدارس البعثات الأجنبية يمثل أكبر ظاهرة سائدة فى السياسة التعليمية (٢٧) ٠ ولم يحاول الحاكم الجديد المنفتح على النفوذ الفرنسى أن يفعل شيئا لاعادة فتح المدارس الابتدائية والاعدادية ، مفضلا ترك هذه المهمة للمدارس الأجنبية ٠ وقد أعيد فتح العديد من المدارس المتخصصة : المدرسة الحربية أو مدرسة أركان الحرب (١٨٥٦) بالقلعة ، ومدرسة المحاسبة ، ومدرسة الهندسة المدنية أو العمارة — وعهد بالمدارس الثلاث الأولى الى رفاعة الذى استدعى من السودان فى حين استبعد على مبارك الى القرم — والمدرسة البحرية ومدرسة المهندسخانة، التى كان لها مقران أحدهما فى القلعة والآخر فى القناطر ، ومدرسة الطب التى دخلت طور انحطاطها (٢٨) ٠ وقام سعيد بحل ديوان المدارس فى ديسمبر ١٨٥٤ وبذلك جعل من التعليم مادة لهواه ، وفى ذات الوقت ، وضع أسس المتحف المصرى وادارة الآثار المصرية وأعاد تنظيم « معهد مصر » الذى أصبح فيما بعد « المعهد المصرى » (٢٩) ٠

وكانت المدارس الأجنبيـة فى ذلـك العصر تتكـون من نوعين من المؤسسات : مدارس الجاليـات والطوائف الأجنبية ، ومدارس البعثات الدينية الأجنبية ، وقد بدأ النوع الأول يتبلور على عهد محمد على حيث أنشئت مدرسة أرمنية (١٨٢٨) ، ومدرسـتان اسرائيليتان ، تعرفان بمدرستى القرم (١٨٤٠) ، ومدرستان يونانيتان ترجعان الى أوائل القرن التاسـع عشر ٠ وقامت الجالية اليونانية بالاسـكندرية فى عهد عباس بتوسيع مؤسستها بشكل كبير ٠ وفى عهد سعيد ، انشـئت مدرسـتان يونانيتان جديدتان فى القاهرة (١٨٦٠) ، وأخريان فى المنصورة (١٨٥٩) وطنطا (١٨٦٠) ؛ كما انشئت مدرستان ايطاليتان فى القاهرة والاسكندرية؛ وثلاث مدارس خاصة احداها فرنسية (١٨٥٦ — ١٨٦٢) ؛ ومدرسـة

---

(٢٦) A. Vingtrinier : Soliman-Pasha (Joseph Sève) ou histoire des guerres de l'Egypte de 1820 à 1860, Didot, Paris, 1886, 551, 560.

(٢٧) V. Edouard Dor : L'Instruction publique en Egypte, A. Lacroix, Verboeckhoven and Co éd., Paris, 1872, 215.

(٢٨) « بعد خمسة وعشرين عاما من التعليم الطبى فى مصر فانه لم يتحقق بعد انشاء مدرسة طبية ٠ » (J. Heyworth-Dunne : Hist educ., 323).

(٢٩) A. Sammarco : Sa'id et Ismâ'il, 31.

اسرائيلية تلمودية جديدة (٣٠) . أما تطور البعثات الدينية فقد كان أظهر وأوسع : بعثة الأب «اتيين» Pere Etienne ، الرئيس العام للعازريين فى سوريا ، فى عام ١٨٤٠ ، حيث استجاب لرغبات محمد على الصادقة وتوسع فى اقامة المدارس الكاثوليكية الفرنسية : مدرسة الراعى الصالح (بون باستور) للبنات فى القاهرة (١٨٤٥) ـ ١٨٤٦) ومدرسة اللعازريين وفتيات الاحسان (١٨٤٧) ومدرسة الفرير المجانية للعقيدة المسيحية فى الاسكندرية (١٨٥٧) ومدرسة جديدة للفرير بالقاهرة (١٨٥٤) ومدرسة الراعى الصالح الداخلية ببور سعيد (١٨٥٣) ، ومدرستان للآباء الفرنسيسكان فى نقاده وجرجا (١٨٥٠ ـ ١٨٥٣) ، وبيت الأخوات الفرنسيسكان فى القاهرة (١٨٥٩) وعشر مدارس للفرنسيسكان بالوجه القبلى والوجه البحرى من قنا حتى بور سعيد (١٨٥٥ ـ ١٨٦٣) . ولم يلبث صراع النفوذ بين فرنسا وبريطانيا العظمى أن ظهر فى ميدان البعثات الدينية : فحاولت المدارس البروتستانتية أن تقاوم المدارس الكاثوليكية . وقامت جمعية ارساليات الكنسية بفتح ثلاث مدارس (١٨٣٩ ـ ١٨٤٠) وقام آل « ويسليان » بفتح مدرسة فى القاهرة ؛ وفى عهد سعيد فتحت American Pres by termian Missionaries ثمانى مدارس فى القاهرة والاسكندرية والفيوم (١٨٥٥ ـ ١٨٧٥) ، وفتحت البعثات التبشيرية الاسكتلندية مدرستين بالاسكندرية (١٨٥٩) . والواقع أنه بينما كانت المدارس الدينية الفرنسية تتمتع بمساندة حكوماتها المباشرة ، وخاصة « جيزو » ، استهدفت المدارس البروتستانتية الانجلو ـ أمريكية تحويل الأقباط الى بروتستانت وكانوا يعتمدون فى ذلك على أموال المنظمات التبشيرية (٣١) . وكان مجموع المدارس الأجنبية الأولية والاعدادية فى عام ١٨٦٣ يتراوح بين ٣٢ و ٤٧ منها ٣ مدارس غير دينية (٣٢) . وقد كان جرجس سلامه على حق حينما ركز على الهدف التبشيرى الذى كان يمثل الاهتمام الأول لمدارس البعثات وخاصة فى صعيد مصر : فقد كان الهدف هو تحويل الأقباط المصريين الى الكاثوليكية والبروتستانتية . وقد

---

(٣٠) J. Heyworth-Dunne : Hist educ., 271-5, 311, 335-7.

(٣١) J. Heyworth-Dunni : Hist educ. 275-84, 308-9, 330-4.

جرجس سلامة : تاريخ التعليم الاجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ٤٠ ـ ٦٨

(٣٢) J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 339; F. Amici : Essai de statistique générale de l'Egypte, Le Caire, 1879, 248-9.

اعترف بالبروتستانتية كدين من أديان الامبراطورية العثمانية بمقتضى فرمان ١٨٥٠. كما مارست جمعية الكنيسة التبشيرية Church Missionary Society تأثيرا تربويا وأيديولوجيا أكيدا حتى عام ١٨٦٥ ، وخاصة عن طريق **المؤسسة القبطية** The Coptic Institution (١٨٤٣–١٨٤٨) · وقد أدرك أسقف الحبشة ، الأنبا اندراوس ، والبطريرك نفسه ، ضرورة قيام عملية تحديث · وقد كانت نفس البعثة تهتم بالاسرائيليين ، وجاءت ارسالية الكنيسه الى اليهود «Church Mission to Jews» (١٨٤٧–١٨٦٨) وسرعان مالحقتها ، لنفس الهدف ، بعثة «الكنيسة الاسكتلندية» (١٨٥٨ – ١٨٦٤) ، غير أن الأقباط أظهروا رد فعل عنيف بايعاز من البطريرك الكبير كيرلس الرابع (١٨٠٦ – ١٨٦١) « أب الاصلاح القبطى » (عزيز عطية) : فقد انشئت اثنتا عشر مدرسة قبطية ، ولكن عدد البروتستانت كان يقدر بحوالى ٦٠٠ عام ١٨٧٥ فى حين أصبح عدد الكاثوليك ٢٢٫٠٠٠ عام ١٩٠٤ · وباختصار كان كل شيء يجرى بطريقة منطقية : فالرجل الذى فتح الباب بكل بساطة وتهاون للقوى الاستعمارية فى مشروع قناة السويس كان قد نفض يده من مسئولياته كحاكم فيما يتعلق بالتعليم العمومى · وان صديقه ونصيره « بول ميريو » لا يكاد يدافع عنه (٣٤) · ويتحدث « ادوار دور » عن « الكرم الذى أظهره الوالى حيال العديد من المدارس الأوروبية التى لم تستمر الا بفضل المساعدات الأميرية التى كان يقدمها اليها » · ويقدر ج· « هيورث دون » أنه « بغض النظر عن المبانى الحكومية التى تنازل عنها ، فان المبالغ التى وهبها لمدارس الفرير بالقاهرة ومدارس الايطاليين بالاسكندرية كانت على الأرجح تفوق ما صرفه على ميزانية التعليم العمومى خلال حكمه كله (٣٥) » ·

وتغيرت الصورة تماما مع مجيء اسماعيل · فقد كان الفريق المحيط

---

(٣٣) Jack Sislian : The beginning of British and French missionary educational activity in Egypt 1825-1863 th. M.A. Educ., London, 1956, ex. dact., 115-28, 131-51, 152-80.

(٣٤) P. Merruau : L'Egypte contemporaine de Méhémet-Alî à Saîd pacha (1840-1857), Paris 1869, ch. vi, 79-91.

« لم ير الوالى أنه من المفيد الاستمرار فى تشجيع تطوير هذه المؤسسات (المدارس الثانوية) ومضاعفة عددها [····] وقد يكون ملائما على الأخص انشاء المدارس الأولية الذى سار بطريقة أفضل نوعا ما من انشاء المساجد » (ص ٨٧)

(٣٥) V. Edouard Dor : Instr. publ. Eg., 215; A. Watson : The American Mission in Egypt, 1898, 199-208, 327-451; K.S. Latourette : A history of the expansion of Christianity Harper and Row, New York, 1958-62, vi : 24; J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 340;

به ـ الشيخ رفاعة ، يعقوب أرتين ، محمد شريف ، وعلى الأخص على مبارك ـ يتوق الى اقامة اصلاح واسع ٠ وقد وضع هذا الفريق نصب عينيه ثلاث مشكلات : طريقة استخدام المؤسسات القائمة ؛ اهتمام الجمهور بسياسة نشر التعليم العمومى ؛ تحديد المستويات المختلفة لنظام تربية وطنية (٣٦)٠

صحيح أنه من المبالغ فيه أن نؤكد ، مثل ف٠ « ادوار دور » وا ٠ « سامارکو » ، أن تربية الشعب أصبح ينظر اليها بمعزل عن أى اهتمام عسكرى (٣٧) ٠ ومن الأصوب القول ان اسماعيل قد فصل بوضوح بين نظامى التعليم المدنى والعسكرى ، تحت تأثير على مبارك ، وأعطى الأولوية للنوع الأول من التعليم مبتدئا باحياء ديوان المدارس فى ٢٦ يناير ١٨٦٣ ـ والذى أصبح على مبارك ناظرا له (ابريل ١٨٦٨ ـ سبتمبر ١٨٧٠ ، مايو ١٨٧١ ـ أغسطس ١٨٧٢ ، أغسطس ١٨٧٨ ـ ابريل ١٨٧٩) (٣٨) ـ وعلى الأخص القانون الأساسى لعام ١٨٦٨ المسمى « لائحة المدارس المصرية بالقاهرة وحكومات الاقاليم (٣٩) ٠ » أما المدارس العسكرية الضرورية لاعادة بناء الجيش فكانت قد وضعت تحت ادارة موحدة تعرف باسم ادارة المدارس الحربية : مدرسة المشاة (١٨٦٤) ومجموع طلبتها ٤٩٠ ، مدرسة الفرسان (١٨٦٥) ١٦١ طالبا ، مدرسة المدفعية والهندسة العسكرية (١٨٦٥) ٢٨٠ طالبا ، مدرسة أركان الحرب بالعباسية (١٨٦٥)، مدرستان لصف الضباط (١٨٧٤) ، مدرسة الطب البيطرى الملحقة بمدرسة الفرسان (١٨٦٨) ، وأخيرا مدرستان للشيش والذخيرة ٠ وقد اجبرت الأزمة الاقتصادية لعام ١٨٧٩ اسماعيل على الغاء هذه المنشآت العديدة وجمعها فى منشأة واحدة هى المدرسة الحربية (٤٠) ، التى ظلت تقوم

---

(٣٦) A. H. Ebeid : Nat. policy and pop. educ., 17-8.

(٣٧) V.E. Dor : Instr. publ Eg., 215; A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 292.

جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى : ٥٣ ـ ٦٨ ٠

(٣٨) والنظار الآخرون هم : ابراهيم أدهم (يناير ـ يوليو ١٨٦٣) ، محمد شريف (يوليو ١٨٦٣ ـ ابريل ١٨٦٨) ، مصطفى بهجت (سبتمبر ١٨٧٠ ـ مايو ١٨٧١) ، الأمير حسين كامل (أغسطس ١٨٧٢ ـ أغسطس ١٨٧٣) ، مصطفى رياض (أغسطس ١٨٧٣ ـ مايو ١٨٧٤ ، يونيو ١٨٧٦ ـ اكتوبر ١٨٧٧) ، محمد ثابت (مايو ـ سبتمبر ١٨٧٤ ، ابريل ١٨٧٩) ، الأمير طوسون (سبتمبر ١٨٧٤ ـ أغسطس ١٨٧٥) ، يحيى منصور (سبتمبر ١٨٧٥ ـ يونيو ١٨٧٦) ، اسماعيل ايوب (اكتوبر ١٨٧٧ ـ اغسطس ١٨٧٨) : فى A. H. Ebeid : Nat. policy and popular éduc., 417.

(٣٩) يراجع النص الفرنسى فى: V.E. Dor : Instr. publ. Eg., App, 353-71.

(٤٠) الرافعى : عصر اسماعيل ، ج ١ : ١٧٨ ـ ١٧٩ ، J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 348-52.

بوظيفتها حتى اعادة تنظيم الجيش المصرى عقب المعاهدة الانجليزية المصرية عام ١٩٣٦ ٠

أما المجهود الضخم فانه سوف ينصب على عملية توحيد التعليم خصوصا فى المرحلة الأولية ٠ فقد أراد على مبارك وضع حد لعسكرية التعليم بالاضافة الى تحقيق هدفين آخرين : ادخال التعليم الأولى الى الريف ، ووضع الجهاز بكامله ، مع الاختلافات البينة فى طبيعته ، تحت سلطة الديوان المركزية ٠ وبذلك تتحقق الرغبة التى عبر عنها بوضوح المجلس الاستشارى للنواب ، خلال جلسته الأولى عام ١٨٦٦ ، مستفيدا فى ذلك من اقامته الطويلة النشطة فى فرنسا (٤١) ٠ وقد قام بتشكيل لجنة من كبار الموظفين ، ولأول مرة ، من أعيان القاهرة والأقاليم ، وكانت نتيجة ذلك صدور قانون رجب الشهير (١٨٦٨) ٠ وقسمت المدارس الابتدائية الى ثلاث فئات : المكاتب الأهلية (المدارس الأهلية) ، مدارس الأوقاف الابتدائية الحكومية ، ومدارس الأوقاف الابتدائية الخاصة التى انشأها بعض الأفراد ٠ أما بالنسبة لأعداد هذه المدارس فهى موضع اختلافات شديدة ٠ وكالعادة فان ج٠ « هيورث ـ دون » ، يعطى أقل هذه الأرقام كما يعطى أسوأ الأحكام ٠ ويتضح ذلك من خلال الأطروحة الحديثة التى قدمها س٠ حماد (٤٢) ٠ ففى البداية كان هناك ٢٢٢ مكتبا فى مدينة القاهرة وحدها ؛ كما افتتح ٣٣ مكتبا آخر فى القاهرة والأقاليم ٠ وبعد قانون ١٨٦٨ مباشرة وطبقا لتقديرات أمين سامى عام ١٩١٧ ، والتى أخذ بها أ ٠ عبيد عام ١٩٦٤ ، فان الأرقام فى عام ١٨٧٥ كانت على النحو التالى : ٤ر٦٨٢ كتابا للبنين بها ١١١ر٨٣٤ تلميذا ، ١٤ كتابا للبنات بها ٢١٣ تلميذة ، ١٧ مكتبا أهليا للبنين بها ٧ر٧٢٩ تلميذا ، ١٢ مدرسة أوقاف للبنين بها ١ر٧٤٣ تلميذا، ٣ مدارس أوقاف للبنات بها ٤٤٥ تلميذة (٤٣) ٠ ونشير هنا الى انشاء المدارس الحكومية للبنات (١٨٧٣ ـ ١٨٧٨) تقليدا للمدارس القبطية والأجنبية ، وقد كان الحافز على ذلك هو كيرلس الرابع ، ثم رفاعه الذى نشر عام ١٨٧٢ ، أى قبل وفاته بعام واحد ، كتابه

---

(٤١) بعد أن اشترك على مبارك فى البعثة الخامسة التى أوفدت الى باريس فى ١٨٤٤ لدراسة العلوم الحربية اختير بعد عامين للدراسة بمدرسة الطوبجية والهندسية الحربية الشهيرة بميتز **Metz** حيث حصل على الدبلوم بعد عامين دراسيين ٠ وقد عين آنذاك ملازما فى الآلاى الثالث من فرقة المهندسين الحربية بالجيش الفرنسى حيث ظل لمدة تقرب من عام (الرافعى : **عصر اسماعيل** ، ج ١ ، ٢١٨ ـ ٢٢١ ٠ س٠ زايد : **على مبارك** ٠٠ ٢٠ ـ ٢٤)

(٤٢) S.I. Hammad : French and British influence, 115, n. I.

(٤٣) A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 300; J. Heyworth-Dunne : Hist. educ. 360; A.H. Ebeid : Nat. policy and pop. educ., 18. أ٠ سامى ، **التعليم** ، ٢٢ ٠

التربوى عن تعليم البنات والبنين وعنوانه: «**المرشد الأمين للبنات والبنين**». وقد ظل الرجل حتى النهاية رائد النهضة الثقافية المصرية وحامل لوائها ٠

أما على مبارك فقد كانت الأموال التى تحت تصرفهقليلة : فانبرى الخديوى يضرب المثل بتخصيص جانب من دخله الخاص للمدارس، فحذا حذوه الكثير من الأعيان ، وصدر قانون ١٨٦٨ ليقضى بأن يتحمل أولياء الأمور جزءا من المصاريف يدفعونها حسب مقدرتهم ، كما خصص جانبا من أموال الأوقاف للمدارس ، وكانت ميزانية الدولة تقدم الباقى ٠ وكانت هـذه الميزانية تخصص للمدارس الابتدائية والأولية مبالغ تتراوح بين ٨٦٧ر٦٤٤ جنيها مصريا بين عامى ١٨٦٨و١٨٧٩ بالاضافة الى ريع الأوقاف والضياع الخديوية من جهة الوادى ، حسـب تقدير يعقوب أرتين ، وبين ٠٠٠ر٦٠٠ر٣ جنيه استرلينى (٠٠٠ر٥١٠ر٣ جنيه مصرى) شاملة كل شىء ، خلال عهداسماعيل، حسب تقدير م ٠ ج « مولهال » ٠ وطبقا لاصدق التقديرات ، وهى تقديرات على مبارك فقد رفع اسماعيل ميزانية التعليم من ٠٠٠ر٦ جنيه مصرى على عهد سعيد الى ٠٠٠ر٤٠ جنيه مصرى ثم الى ٠٠٠ر٧٥ (منها ٠٠٠ر٤٨ من وزارة المالية ، و ٠٠٠ر ٢٠ من ريع دومين الوادى و ٠٠٠ر ٧ من ريع أراضى الأوقاف)٠ وهبط هذا الرقم فى أواخر عهد الخديوى الى ٠٠٠ر٢٠ج٠م (٤٤)٠ ولن تلبث شهوة التوفير أن تصيب فى الصميم « بروليتاريا المدرسـين التى كانت احدى مواجع مصر » ، كما يقول بحق ف (ادورد دور) الذى عين فى عام١٨٧١ مفتشا عاما (٤٥) ٠ أما المرحلة الثانية من التعليم ، أى التعليم الثانوى ، فقد قضى قانون ١٨٦٨ بأنه يتألف من « مدارس مراكز المديريات » أى المكاتب الأهليـة ، وهى أرقى فى مسـتواها من الكتاتيب وفى حين كانت الكتاتيب تتولى نشر تعليم القرآن والحسـاب فى القرى (مادة ٢٩) ، وقد أضيفت اليها الكتابة والمعلومات التجارية والنحو والتاريخ القديم والجغرافيا واحدى اللغات الأجنبية الحديثة والتهذيب ، فى مدارس المدن التى يتجاوز عدد تلاميذها ٧٠ تلميذا (مادة ١١) . فقد كانت مدارس المراكز تدرس اللغة العربية والدين والشريعة والأدب ولغة حديثة حتى مستوى الترجمة والجغرافيا والتاريخ القديم والحساب ومبادىء التجارة والرسم الهندسى وعلم الحيوان وعلم النبات ومبادىء الفلك والخط (مادة ٣٦) ٠ وكانت هناك مدرستان فقط ــ مدرسة العباسية التحضيرية

---

(٤٤) Y. Artin : Considérations sur l'instruction publique en Egypte, Le Caire, 1894, 33-4; M.G. Mulhall : «Finance in Egypt», Contemporary Review x ii (1882), 525-35; E. de Leon : The Khedive's Egypt, 2 éd., London, 1882, 162; على مبارك : الخطط ، ج ١ : ٨٦

(٤٥) حول تمويل الجمهور للكتاتب انظر : أ٠ع عبد الكريم : **تاريخ التعليم فى مصر** ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ج ٣ : ٣٤ وما بعدها ٠

ومدرسة رأس التين بالاسكندرية (١٨٦٣) ويمكن أن نعتبرهما مدرستين ثانويتين (عبد الرحمن الرافعى) (٤٦) ٠

وقد عرفت المدارس المتخصصة والعليا فترة ازدهار عظيمة ٠ ونذكر من المدارس المتخصصة : مدرسة المحاسبة والمساحة (١٨٦٨) الملحقة بمدرسة المهندسخانة ، ومدرسة الآثار المصرية القديمة (المصريات) (١٨٦٩ ـ ١٨٧٦) بادارة النمسوى « بروجش » Brugsch التى تخرج فيها أوائل علماء الآثار المصرية ، ونخص بالذكر أحمد كمال ، وقسم الرسم بالمدارس المدنية (١٨٦٩ ـ ١٨٧٩) ، ومدرسة الزراعة (١٨٦٧ ـ ١٨٧٥)، ومدرسة المكفوفين والصم للبنات والبنين (١٨٧٥) ، ومدرسة الفنون والمهن (العمليات) التى أنشئت عام ١٨٦٨ ، بادارة «ايلواجيجون» Eloi g .igon بهدف اعداد عمال مؤهلين ورؤساء عمال خلال ثلاث سنوات ، وقد صادفت هذه المدرسة صعوبات كثيرة فيما يتعلق بالمصطلحات الفنية ، ثم مدرسة البرق (١٨٦٨) ، الملحقة بمدرسة العمليات التى تضم أقساما مختلفة (الرسم ، السكك الحديدية ، الصناعة العامة) ، ومدرسة صناعية أخرى لم تدم أكثر من عام واحد (١٨٧٥) : أما المدارس العليا الأربع الرئيسية والتى كانت تمثل النواة الحقيقية للجامعة المصرية فى المستقبل ، فقد كانت مدرسة المهندسخانة (١٨٦٨) ، وكانت ما تزال تحت ادارة مهندسين ورياضيين مصريين ـ اسماعيل مصطفى الفلكى ومحمود الفلكى اللذان خلفا على مبارك ـ وكان طلابها الـ ٧٢ يعملون فعلا فى ظل نظام عسكرى ، وأضيفت اليها مدرسة اعدادية تضم ٣٠٩ تلاميذ، ثم مدرسة الطب ـ ١٠٠ تلميذ ربعهم في الصيدلة ـ يديرها طورا مصريون وطورا فرنسيون ، أما اساتذة الطب فقد كانوا جميعا مصريين ، ثم مدرسة الادارة والألسن المعروفة باسم مدرسة الحقوق (١٨٦٨) وقد قام على ادارتها لمدة أربعة وعشرين عاما الاستاذ « فيدال » ، « وفى هذه المدرسة تخرج معظم رجال القانون الذين نبغوا فى عصر اسماعيل وما يليه من العصور ، ولها الفضل الكبير على نهضة القانون والتشريع والقضاء ، وعلى النهضة الأدبية والسياسية فى البلاد » ، كما يؤكد عبد الرحمن الرافعى (٤٧) ٠ أما المدرسة الرابعة فستحقق اهتماما خاصا : انها دار العلوم التى أسست فى سبتمبر ١٨٧٢ كمدرسة للمعلمين المتخرجين فى المدارس الأزهرية ٠ وكان على مبارك منذ عام ١٨٧١ ، وقد أقلقه تكوين المعلمين الضعيف ، قد نظم محاضرات عامة فى قاعة قصر درب الجماميز : فى الأدب العربى (الشيخ حسن المرصفى) والفلك (اسماعيل مصطفى الفلكى) وفى الطبيعة (منصور أحمد «وبيكتات») والعمارة («فراتر»)

---

(٤٦) **عصر اسماعيل** ، جـ ١ : ٢٠١

(٤٧) **نفس المرجع** ، جـ ١ ، ١٩٨

والميكانيكا («جيمون») والتاريخ العام (« بروجش ») والفقه طبقا لمذهب أبى حنيفة (الشيخ عبد الرحمن البحراوى) وعلم النبات (أحمد ندا) ، الخ (٤٨) • وكان الهدف هو تجديد المحاولة الأولى التى قام بها رفاعة على عهد محمد على بغرض التوفيق بين التعليم الاسلامى والتعليم الحديث • غير أن النتائج كانت مخيبة للآمال : فلم يحصل على الدبلوم غير ٢٧ طالبا فقط بين عامى ١٨٧٢ و ١٨٧٩ (٤٩) ، وأخذ الأزهريون يدرسون العلوم الحديثة بنفس العقلية السابقة القائمة على الاستظهار والافتقاد التام لاى أسلوب نقـــدى ، وظلت اللغة العربية تدرس طبقـــا لأساليب العصـــور الوســطى ، « التعليم العقيم » على حد تعبير أحمد شفيق (٥٠) • لكن الخديوى حاول تحديث الأزهر بفضل نفوذ العميد الجديد الشيخ محمـــد العباسى المهدى الذى أدخل نظام الامتحانات (مرسوم ٣ فبراير ١٨٧٢) : احدى عشرة مادة (خمس مواد دينية وخمس مواد أدبيـــة ثم المنطق) بالاضافة الى لجنة امتحان تشكل من ستة أساتذة يختار من سيصبح من العلماء • لكن الصراع بين المذاهب المختلفة كان على أشده بسبب مواقف الشيخ المالكى الرجعى محمد عليش • ومع أن جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده دخلا المعركة الا أن ذلك لم يستطع أن ينقذ الجامعة الدينية الكبرى من جو الفساد والانحطاط الذى كان يسودها (٥١) • وكان مجموع طلبة الأزهر والمعاهد الدينية الأخرى فى الاســـكندرية وطنطا عام ١٨٧٢ هو ٩٫٦٦٨ منهم ١٫١٢٨ أجنبيا ، مقابل متوســـط يتراوح بين ١٫٠٠٠ و ٣٫٠٠٠ على عهد محمد على • وفى عام ١٨٧٥ بلغ عدد الطلاب أقصى ارتفاع له ، ١١٫٠٩٥ طالبا منهم ١٫٢٩٤ من الأجانب ، ثم هبط عددهم الى ٧٫٦٩٥ منهم ٦٨٩ من الأجانب عام ١٨٧٨ • وكان عدد أساتذة الأزهر يتراوح بين ٢٢١ و ٣٢٥ بين عامى ١٨٦٧ و ١٨٧٥ (٥٢) •

وظلت المدارس الخاصة والأجنبية تتزايد فى أعدادها ، وكانت المدارس

---

(٤٨) ١٠٠ سامى : **التعليم** ، ٢٤ •

(٤٩) **Recueil des travaux du premier Congrès Egyptien réuni à Héliopolis, Alexandrie, 1911, 160.**

(٥٠) أحمد شفيق باشا : **مذكراتى فى نصف قرن** ، ٤ مجلدات ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ ، جـ ١ : ٨ •

(٥١) حول هذه المشكلات بأسرها انظر الفصل الحادى عشر من الباب الخامس • وكما يرى محمد عبد الله عنان انه لم يكن هدف اسماعيل اصلاح الأزهر «كما هو» بقدر تحويله الى « اداة فعالة لمقاومة العقلية التركية • » (**تاريخ الجامع الأزهر** ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ـ ٢٥٢) •

(٥٢) **V.E. Dor : Instr. publ. Eg., 377-8; J. Heyworth-Dunne : Hist, educ., 405-6.** يتناول « دور » مناهج الدراسة بالأزهر التى تعود الى القرون الوسطى **(Instr. publ. Eg., App., 373-6).**

الأجنبية وحدها تضم ١٨٫٩١٦ تلميذا عام ١٨٧٥ (٥٣) • وكان متوسط عدد الطلاب فى هذين النوعين من المدارس هو ١٣٠ تلميذا فى عدد من المدارس يقدر بـ ١٥٢ مدرسة عام ١٨٧٨ • وكان عدد المدارس الكاثوليكية ٢٨ مدرسة (الآباء المبشرون فى صعيد مصر ، والعازريون ، أخوات الراعى الصالح ، الفرنسيسكان ، الفرير ، الياسوعيون (١٨٧٩) ، وبلغ عدد مدارس البعثات الأمريكية ٣٦ مدرسة (منها ١٩ ايفانجيليكان) ، ومدرسة اكليركية لاهوتية فى أسيوط (١٨٦٥) ، ومدرسة تبشيرية بريطانية ، وكان لليونانيين سبع مدارس ، وللايطاليين مدرسة واحدة ، وللألمان ثلاث ، وكانت هناك مدرستان مجانيتان حرتان وعامتان ، و ٢٥ مدرسة خاصة أغلبها علمانية • وكان لطائفة الاسرائيليين ٨ مدارس وللأرمن مدرسة ، وللمارونيين السوريين ثلاث • وأخيرا كان للأقباط ٢٥ مدرسة أنشئت أساسا لمقاومة التبشير البروتستانتى والكاثوليكى (٥٤) •

والآن هل يمكن أن نقدر العدد الكلى لتلاميذ كل هذه الأنواع من التعليم؟ ان أ. « دى رينيى » يذكر أن عدد التلاميذ بلغ ٨٩٫٨٩٣ تلميذا منهم ٣٫٠١٨ تلميذة أى بمعدل ١٧٣ تلميذا لكل ١٠٫٠٠٠ مواطن عام ١٨٧٣ (٥٥) ، أما يعقوب أرتين فيذكر أن عددهم بلغ ١٢٥٫٧٣٠ تلميذا موزعين على ٤٫٨١٤ مدرسة بها ٤٫٨١٤ مدرسا عام ١٨٧٥ (٥٦) ، ويذكر ج. « يونج » أن عدد المدارس هو ٥٫٨٢٠ مدرسة عام ١٨٧٨ (٥٧) • وطبقا لتقديرات ج « هيورث ديون » التقريبية للغاية فان ٦٣٪ من مجموع خريجى المدارس المصرية كانوا يلتحقون بالخدمة العسكرية بمعدل ١٫٦٨٠ طالبا ، و ٦٨٩ يلتحقون بالدواوين المختلفة ، وأخيرا يظل حوالى ٢٫١٥٠ طالبا بلا عمل (٥٨) •

لقد كان المجهود التربوى مصحوبا بانشاء العديد من المؤسسات العلمية الهامة • أولا : المكتبة الخديوية ، « دار الكتب » ، التى جعلها على مبارك على غرار المكتبة الوطنية فى باريس ، وتضم كميات ضخمة من الكتب القديمة التى يرجع عهدها الى محمد على ، وكذلك الكتب الخاصة بمصطفى

---

(٥٣) س• زايد : على مبارك •• ، ٦٨ ، ويشير « ساماركو » الى وجود ٩٣ مدرسة بلغ عدد التلاميذ فيها ٨٫٩٦١ (Sa'îd et Ismâ'îl 300).

(٥٤) J. Heyworth-Dunne :Hist, educ., 406-24.

(٥٥) Statistique de l'Egypte 1873, xxxv.

(٥٦) Instr. publ. Eg., 155.

(٥٧) Egypt, London, 1927, 77-8.

(٥٨) Hist. educ., 381-2.

فاضل ، شقيق الخديوى ، والمناسترلى والجمعية المصرية بالاسكندرية (٥٩) • ثم الجمعية الجغرافية الخديوية التى أنشئت فى ١٩ مايو ١٨٧٥ في أحد القصور مزودة بمكتبة وتحت ادارة Schweinfurth • ثم المتحف المصرى ببولاق المؤســـس عــام ١٨٦٣ بادارة « مرييت » و « متحف الفــن العــربى » المؤسس عام ١٨٧٠ تحت ادارة « سلزمان » • وأخيرا « معهد مصر » الذى واصل أنشطته تحت اسم « المعهد المصرى » وقام بنشرات دورية وبتوسيع مكتبته (٦٠) •

ويمكن أن نذكر أرقاما أخرى تبين التضاريس الاجتماعية للشعب الذى كان يستفيد من هذا التعليم المنتشر • وقد أشرنا فى مناسبات عديدة الى أن المجهود الذى بذل كان مجهودا ضخما ، لكنه كان مجهودا قطاعيا أو غير شامل لجميع فئات الشعب ، فقد كان قاصرا على الفئات الحاكمة وعائلات من يدورون فى فلكها ثم الجماعات البورجوازية الناشئة التى كانت تعيش فى المدن بعيدا عن الأرض • وكان يوجد حول هذه النواة ، كما رأينا ، عدة دوائر متحدة المركز وخصوصا فى الريف حول الضياع والمدن • وتركز كتابات العصر على الطابع التشتتى لظاهرة الاقبال على المدارس التى حكمتها متطلبات الزراعة والتى كانت في توسع مطرد • فمما لا شك فيه أن التربية القومية السليمة تتطلب فى البداية اقتصادا قوميا مستقرا على مدى الزمن ؛ وقد رأينا الصعوبات التى تحول دون ذلك ، خلال الفترة التى ندرسها وضخامة المجهودات التى بذلت •

ولعل هناك ما يعزى بالاقتصار على هذا العرض الوصفى : ألم يكن المجهود الكمى ، على أية حال ، مجهودا جبارا ؟ ليس هذا هو المهم ، وانما المهم ذلك الذى يكمن فى بحث الأفكار التى أدت الى هذه الطفرة • أولا ، مفاهيم الطهطاوى عن التربية فى كتابه الذى صدر عام ١٨٢٧ والذى يعرض فيه خطته عن التربية حيث يصورها على أنها جزء من التوجيه العام للدولة : فاذا كانت الروح الحربية تسيطر على الدولة فان تربية البنين والبنات تكون على نحو فروسى أو بطولى ، واذا كانت الدولة تريد أن تكون بصفة خاصة دولة تجارية أو زراعية أو بحرية فيجب أن يبدأ منهاج التربية من هـــذا المنطلق • والواقع أن قيمة أى تربية يكمن فى كونها تربية وطنية فالأولوية يجب أن تعطى دائما لطبيعة الدولة السياسية (٦١) •

أما على مبارك الذى كان يسيطر على الموقف ، فلم يكن لديه أى فكر تربوى متبلور ، انما كانت لديه مجموعة من الأفكار • وانطلاقا من نظرية

---

(٥٩) على مبارك **الخطط** ، جـ ٣ : ١٤ ، جـ ٩ : ٥١ ،
A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 301;

(٦٠) الرافعى : **عصر اسماعيل** ، جـ ١ : ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ، س• زايد : **على مبارك** •• ، ٨٧ •
A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 301-2.

(٦١) **مرشد البنات والبنين** ، ٦ ـ ٧ ، ٦٢ ـ ٦٤ ، ٦٦ ـ ٦٨ ،
A.H. Ebeid : Nat. policy and pop. educ., 20-2.

الطهطاوى كان يطالب باقامة الامتحانات « لمصلحة الطلبة أولا ، وبالتالى لمصلحة الحكومة » . كما أن قانون عام ١٨٦٨ يلفت الأنظار بدقة التفصيلات التنظيمية التى جاءت فيه ، أما وجهات النظر العامة فهى نادرة . وقد أوضح على مبارك الصفات التى يجب أن يتحلى بها المعلم فى رسالة له أرسلها الى زوجته يصف فيها المؤدب الذى يجب أن تختاره لتعليم أولاد الأسرة من بنين وبنات . ولقد وردت الرسالة فى كتابه « **علم الدين** » ، وهو كما نعرف عبارة عن قصة طريفة موضوعها رحلة متخيلة مع رجل أوروبى الى أوروبا يصف فيها على مبارك بعض مظاهر الحياة فى مصر وأوروبا ويضع ذلك فى محاورات بينه وبين رفيقه . تقول الرسالة :

« واذا اخترت مؤدبا فالأولى أن يكون موصوفا بأوصاف الكمال ، ذا معرفة ووقار ، وسكينة وجلال ، وأن يكون فى فن الحساب ، كاشفا عن مخدراته النقاب ، وفى فن اللغة والأدب كأنما حفظ لسان العرب ، وفى العقيدة أشعريا ، وفى الأخلاق أحنفيا ، وفى علم السير بحرا ، وفى الحديث نهرا ، ولا يلزم أن يقيم معهم طول نهاره ، بل يكفى أن يأتى لهم فى وقت معين ، والأولى أن يكون بعد وقت افطاره ، ثم يخرج بعد أن يقسم لهم الوقت نصفين: نصف يشتغلون فيه بالمطالعة والمذاكرة، والنصف الآخر يلعبون فيه . والأولى أن تكون حصة اللعب متخللة بين أوقات التعليم والمذاكرة ، لئلا يطول عليهم الجلوس ، فتخمد فكرتهم ، وتضعف بنيتهم وأرجوك منع الضرب مطلقا ، وأن تسلكى بهم طرق النصيحة ، والأسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القريحة ، كأن تهدى الى المجتهدين منهم بعض تحف ، من ملبس أو مأكل أو كتب أو مصحف ، ونحو ذلك مما تميل اليه الأطفال على حسب ما يظهر لك من الأحوال ، فان ذلك باعث لغيرتهم وازدياد رغبتهم أكثر ما يكون بالأذى والضرب ، لأن الضرب يؤثر فى الأعضاء الظاهرة فقط ، وبعد برهة من الزمن يزول كأن لم يكن ، بخلاف ذلك فانه يؤثر فى الباطن ، وتبقى لذاته لمن اغتنمها ، وآلامه لمن حرمها ، مادامت الهدية ، وأيضا فان الضرب يحرك الشهوات الغضبية عند الضارب فلا يقف فى ضربه عند حد العقاب ، بل يتعداه لما يخطر فى باله من سوابق ذنوب المضروبين ، فربما أضر بأعضائهم أو ترتب على الخوف والرعب بحثهم عما يخلصهم من يده ، فيحتجون بكل ما أمكنهم من الحجج ، من غير تمييز بين قبيحها ومليحها حتى ينجو من يده ، وربما ألجأته الاحتجاجات والتعلات الى أسباب الدناءة وخسة الطباع ، فتبقى فيهم طول عمرهم ، وحيث أن مقصود الآباء فى تربية أولادهم حال صغرهم ألا يختل هذا المقصد فحق عليهم أن يختاروا لتربية أولادهم مؤدبين موصوفين بالأدب والرأفة وحسن الفعال ، حتى لا يصدر عنهم الا ما كان حسنا ، وبسبب ما عندهم

من الرأفة يعاملون الأطفال بما يناسب سنهم ، فيبتدئون لهم بالكلمات الصغيرة ، والحكم القصيرة ، ثم منها الى ما فوقها وهكذا ، فيميلون من أنفسهم الى العلم وحب العلم ، خصوصا اذا أرشدهم الأستاذ الى ما فى كل كلمة أو حكمة ألقاها اليهم ، من الفائدة الدقيقة ، واستعمل فى مخاطبتهم الألفاظ الرقيقة ، فأرجوك أن تعملى بنصيحتى ، وأن تخبرينى فى كل خطاب ترسلينه الى عن حال كل منهم ودرجته ، خصوصا عن حال اخواتى البنات • » (٦٢)

وكثير من المبادىء الأخرى نجدها فى « **علم الدين** » (الاسكندرية ، ١٢٨٢) فى صورة رسالة أرسلها من أوروبا الى زوجته ويتحدث فيها بوصفه تربويا مثاليا ، أى أن استعمال العنف لا يؤدى الا الى نتيجة فورية فى حين أن الاقناع وتشكيل العقول يؤثر تأثيرا عميقا وبالتالى يجب أن يكون أساس المنهج التربوى

وقد لاحظ المفتش العام السويسرى ف• «ادوارد دور» عام ١٨٧٢ أن النتائج التى تحققت كانت مخيبة للآمال : « ان السبب الحقيقى لعقم المجهودات بالنسبة للتضحيات [•••] يكمن بكامله فى المنهج التربوى المصرى • » وترجع « السطحية النسبية للتعليم » الى أن « المنهج التربوى غير صائب وأن الأساسى الذى يعطيه التعليم الابتدائى غير كاف • » ان عدم وجود « تعليم ابتدائى اجبارى » فعلا وليس على الورق فحسب « جعل المدرسة وكأنها بمثابة فرقة تدريب فى مستوى الآلاى ، قبل التدرج فى مدرسة الفصيلة » وهو يأخذ على مصر جهنها بألمانيا وسويسرا واسكندناوا و«محاولتها تقليد فرنسا» وبذلك «تتمثل بنماذج المستوى الأدنى (٦٣)»ومع ذلك فانه يلاحظ ، فيما بعد ، أن عدم كفاية الميزانية يجعل من المستحيل استيعاب المدارس للأولاد البالغ عددهم•••ر٣٥٠ والذين هم في سن المدرسة بصرف النظر عن البنات • وهو يطالب بالقيام باصلاحات عامة فى المستقبل تصحبها اصلاحات فى طرق التدريس : « ان أكثر ما ينقص المصرى [•••] هو الثقة فى المستقبل والتلقائية الفردية • ان اسراف المصرى فى الميل

---

(٦٢) س• زايد : **على مبارك** ، ٨١ ـ ٨٣ •

(٦٣) « اذا كانت بروسيا بفضل التعليم العام تحتل المقام الأول بالنسبة للدول الأوروبية ، فان بريطانيا العظمى تحتل المكانة الأولى بالنسبة للدول من الفئة الثانية وتأتى فرنسا فى المكانة الثانية بعدها • وبينما لا يوجد فى بروسيا غير ثلاثة مجندين من بين كل مائة لا يعرفون القراءة ولا الكتابة فان هذه النسبة ترتفع فجأة فى بريطانيا العظمى الى ١ر٢٤٪ (انجلترا : ٩ر٢٣٪ ، اسكتلندا ٣ر١٦٪ ، ايرلندا ١ر٣٢٪) وتصل فى فرنسا الامبراطورية الى ٤ر٢٧٪ » (V.E. Dor : Instr. publ. Eg., 310-1).

الى اللامبالاة وأحلام اليقظة ، وفرطه فى الخجل والتهيب يجعله ينظر أولا الى نفسه ، فهو لا ينظر أبدا الى الأمام » ، ومن ثم كان لزاما على طريقة التربية أن « توقظ القوة المعنوية والشعور بالواجب ، والطموح الشخصى النبيل والتلقائية » ويجب على التربيـــة أن تقتلع من الطفل الشعـــور باللامبالاة الذى يمثل احدى نكبات المجتمع الشرقى ، وعليها أن تقوده ، بالتعليم المنطقى والتأمل الدائم ، الى سلامة النظر والتفكير » ، وينبغى « العدول عن دراسة القرآن كله لتخصيص مكان للعقيدة » ، و « تعليم أكبر قدر من المعلومات فى أقل وقت ممكن دون التضحية بالمتانة فى سبيل الكم ، وعدم استخدام الذاكرة الا لتنمية الذكاء ، وعدم تعليم الطفل مالا يمكن فهمه • » « ان تنمية الذاكرة على حســاب الذكاء أشبه برأس مال مدفون لا يدر فائدة • فليتعلم الطفل القليل ، اذا شئنا ، بشرط أن يفهم وليكن عقله عند خروجه من المدرسة مهيئا للاستمرار فى تعليم نفسه اذا قضت بذلك متطلبات الحياة (٦٤) » •

انه منهج تربوى كامل – يبدأ من الطهطاوى حتى طه حسين – صحيح أن ما أنجز منه ، ابتداء من ١٨٤٠ حتى الاحتلال البريطانى (٦٥) ، لا يعدو أن يكون الا جزءا ضئيلا للغاية ولكنه عظيم بامتداده وانتشاره وصرامتـه والشجاعة الأدبية التى استهدفت تحطيم جدار اللامبالاة السميك ، والركود الثقافى والرجعية السلفية والسياسية . لقد وضعت البذور التى أتت ثمارها فى العقول فيما بعد : أفكار الطهطاوى عن التربية القومية والمؤسسات الحديثة ، والمجهود الضخم الذى قامت به البعثات الدراسية ، والتنظيم التربوى الذى وضعه على مبارك ، والمؤازرة الفعالة من جانب محمد على واسماعيل • وعلى الرغم من ليل الاحتلال الحالك الذى لن يلبث أن يخيم على النهضة الثقافية المصرية ، وعلى الرغم من الارتباط الشديد بأسلوب وعادات الامبراطورية العثمانية التى بلغت قمة انحطاطها ، الا أن الانطلاقة كانت قد بدأت • ولن يستطيع أى شىء أن يعترض طريقها بصورة حاسمة•

---

(٦٤) V.E. Dor : Ibid., 261, 303-7 316, 327-8, 333-8.

(٦٥) تعمدنا دراسة التعليم فى عهد توفيق فى الفصل الذى درسنا فيه « السياسة الثقافية للاحتلال البريطانى » [الفصل السادس من الباب الثالث] وذلك بغرض الاتساق والاستمرارية •

القسم الثاني – الصحافة والنشر

ان ضخامة المجهود التربوى الذى عرضنا مساوئه وأفكاره الرئيسية لا يمكن أن يأتى مصحوبا بنهضة موازية فى الصحافة والنشر . ومن الطبيعى أن يكون المحرك لكلا هذين العنصرين هو نهضة الدولة المصرية منذ عهد محمد على .

البنية الأساسية المادية قبل كل شىء ، أى المطبعة . أما فيما يتعلق ببدايتها – وهى لا تدخل فى نطاق دراستنا – فمن المتفق عليه أن تركيا كانت السابقة فى ذلك المضمار ، ويحدد البعض بدايتها بعام ١٤٨٥ (١) ، غير أن البداية تتحدد بدقة فى عام ١٧٢٧ (٢) . أما بالنسبة لمصر فقد كانت الحملة الفرنسية هى التى بدأت أولى خطوات هذه العملية . واستأنف محمد على فى عام ١٨٤٠ ، بحزم وتصميم ، المشروع الذى كانت قد وضعته « البعثة العلمية » ، ويمكن عرض خطة هذا المشروع دون أن نتجاوز الواقع كثيرا . وفى البداية كانت المطابع الحكومية ، وأولها مطبعة بولاق التى تأسست بين ١٨٢٠ و ١٨٢٢ (٣) بايعاز من عثمان نور الدين وادارة نيقولا مسابكى ، وكان هو المسئول بنوع خاص عن تسيير الماكينات

---

(١) خليل صابات : **تاريخ الطباعة فى الشرق العربى** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ٢١ – ٢٦ .

(٢) N. Berkes : Turkey, 40-1.

(٣) حول الصحافة وقت الحملة الفرنسية انظر :
Amin Sami Wassef : L'information et la presse officielle en Egypte jusqu'à la fin de l'occupation française, thèse doct d'Université, Paris, 1952, ex. dact;

أبو الفتوح رضوان : **تاريخ مطبعة بولاق ولمحة فى تاريخ القاهرة** ، المطبعة العيدية ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ٤٧ ، ويتردد مؤرخون آخرون بين عدة تواريخ : ١٨٢١ بالنسبة لجرجى زيدان ، ٤ نوفمبر ١٨٢١ بالنسبة لأمين سامى **التعليم** ، ١٢ ، **تقويم** ، جـ ٢ : ٥٧٨ ، ويتفق على عام ١٨٢١ كل من
Jean Deny : Sommaire des Archives turques du Caire, Société Royale de Géographie d'Egypte Le Caire, 1930, (122); Reynold Nicholson : A literary history of the Arabs. T. Fisher Unwin London 1930 468-9);

اما عام ١٨٢٢ فيتفق عليه O. Sachot : Mission en Egypte, 48;
وفيليب دى طرازى **تاريخ الصحافة العربية** ، جزءان فى مجلد ، المطبعة الأدبية ، بيروت ١٩١٣ ، جـ ١ : ٤٩ . وأخيرا فان خليل صابات يميل الى تفصيل عامى ١٨٢١ – ١٨٢٢ (**تاريخ الطباعة** ، ١٣٧ – ١٣٨) وثمة ملاحظات هامة عن نشأة المطبعة فى : =

وقد طبعت ٦٤ مؤلفا خلال الأحد عشر عاما الأولى (١٨٢٢ ـ ١٨٣٢) ، ثم طبعت عددا يتراوح بين ١٦٨ و ١٨١ مؤلفا خلال السنوات العشر التالية (١٨٣٣ ـ ١٨٤٢) ، فيكون المجموع الكلى بين ٢٣٢ و ٢٤٥ كتابا خلال عهد الوالى الأول (٤) ، وكانت الطباعة واضحة ، على الرغم من شهادات المراقبين التى كانت فى الغالب سطحية ، ومع ذلك فقد ظل عدد الخطاطين العاملين فى نقل المخطوطات ثابتا لم يتغير (٥) ٠ وكانت هناك مطابع أخرى تساعد مطبعة بولاق التى كانت تقوم بالمجهود الأساسى مطبعة مدرسة الطب بأبى زعبل بادارة كلوت بك الذى كان يعمل بعدد محـدود من العمـــال والمعاونين بين عامى ١٨٢٧ و ١٨٣٧ وهو تاريخ اغلاق هذه المطبعة ، ومطبعة مدرسة المدفعية التى افتتحت عام ١٨٣١ لطبـاعة المؤلفات العســكرية والنصوص التشريعية بالعربية والتركية بالاضافة الى بعض المؤلفات الادبية التقليدية ، ومطبعة ديوان الجهادية (وزارة الحربية) التى أنشئت عام ١٨٣٣ لطباعة الكتب باللغة التركية والعربية والفارســية بالاضافة الى مجلة أسبوعية باللغة العربية والايطالية ، وقد ضمت هذه المطبعة المشهورة بطباعتها المتقنة الى مطبعة بولاق عام ١٨٣٥ ، ومطبعة ديوان الخديوى ، المتخصصة فى طباعة وثائق الخديوى وأنشئت عام ١٨٣٢ ، وكانت تقوم بطباعة «**الوقائع المصرية**» لفترة من الزمن ، ويبدو أنها ضمت الى مطبعة القلعة المؤسسة فى ١٨٢٨ـ١٨٣٠ والتى استأنفت طباعة «**الوقائع المصرية**» ابتداء من العدد ٥٣٥ فى ١٥ يونيو ١٨٣٣ ، ومطبعة رأس الطين بالاسكندرية المنشأة فى ١٨٣٢ والتى كانت تقوم بطباعة Le Moniteur Egyptien بالاضافة الى العديد من الكتب باللغة العربية ، ومطبعة مدرسة الموسيقى وكان نشاطها ضئيلا ، والمطبعة التى أنشئت فى كريت عام ١٨٣١ لطباعة «**الوقائع الكريتية**» وهى مجلة رسمية باللغتين التركية واليونانية ، أغلقت أبوابها حوالى عام ١٨٣٤ ، وأخيرا قامت حكومة الوالى بانشاء مطابع حجرية فى رشيد ، بطلب من مجلس المدينة عام ١٨٣٦ ثم بطلب حكام مديريات البحيرة والمنوفية والقليوبية والشرقية والدقهلية ٠ وكذلك فى أقاليم مصر الوسطى ، بالاضافة الى دمشق أيضا ٠ ومع أنه من المستحيل تحديد تاريخ أغلاق هذه المطابع ، الا أننا نرى ما يراه خليل صابات من أنها اختفت فى

M.A. Geiss : «Histoire de l'imprimerie en Egypte», Bull. Inst. d'Eg., 5 série, (1907), i : 133-57; ii 195-320

وحول أول الكتب التى زودت بها المكتبة انظر :

A.A. Paton : History of the Egyptian revolution, 2nd ed., Trubner, London, 2 vol., 1863, ii :247.

(٤) ا٠ن٠ رضوان : **مطبعة بولاق** ، ١٣٨ ـ ١٣٩ واشارتى «هيوارث ـ ديون» الى أن سنجلاق الفارسى سيكون هو المبدع لفن الخط الجديد فى مصر الى جانب عثمان نور الدين : (Print. and transl., 330, n. 4).

(٥) **تاريخ الطباعة** ، ١٥٥

أواخر عهد محمد على (٦) ٠ وبجانب هذا القطاع الحكومى شبه السائد، نذكر مطبعة أوروبية بالاسكندرية طبعت قصيدة انجليزية بعنوان Egypt, a descriptive poem لمؤلفها Henry Solt فى نص معيب ، ثم مطبعة عبد الرازق التى أنشئت قبل عام ١٨٣٧ (٧) ٠ وقد ظل النصيب الأكبر من الانتاج لمطبعة بولاق الحكومى ٠ وقامت هذه المطبعة ، طبقا لاحصاء عام ١٨٤٦ ، بنشر ٣٠٢ر٨٤٣ مجلدا لحساب الحكومة و ١٠٢ر٢٣١ لحساب بعض الأفراد (٨) ٠

وهناك اشارة ذات مغزى أوردها خليل صابات :

« ظلت مطبعة بولاق خلال حكم محمد على للبلاد المؤسسة الصناعية الوحيدة التى لم تلجأ الى العناصر الأجنبية مطلقا سواء كانت فنية أو ادارية ٠ فان نظارها جميعا كانوا من العرب أو من الأتراك ٠ ولا يوجد فى الوثائق الرسمية الا اسم أجنبى واحد كان يعمل فى سبك الحروف (٩) ٠ »

وجاءت ضربة التعجيز عام ١٨٤٠ لتكون بداية فترة انحطاط طويلة لم تنته الا عام ١٨٦٣ ٠ ففى عهد عباس هبط عدد العاملين بمطبعة بولاق من ١٦٩ الى ١٠٣ ٠ وهبط العدد فى عهد سعيد من ١٠٣ الى ٦٠ (١٠) ٠ واضطرت المطبعة أخيرا الى اغلاق أبوابها من يوليو ١٨٦١ حتى ١٩ أغسطس ١٨٦٢ (١١) ٠

ثم بدأ استئناف العمل بالمطبعة على عهد اسماعيل ٠ وقبل ذلك ، وفى ٧ أكتوبر ١٨٦٢ ، أهدى سعيد المطبعة لعبد الرحمن رشدى مدير المصانع للبحر الأحمر ؛ فلجأ هذا الادارى الممتاز الى « أنطوان موريه » ، مدير المطبعة الفرنسية بالاسكندرية ، بعد موت الياس مسابكى ٠ وترجع نهضة المطبعة بالتحديد لعام ١٨٦٥ ، حينما خلف حسين حسنى عبد الرحمن رشدى فى ادارة المطبعة بأمر من الوالى ، فأطلق على المطبعة ، لفترة من الزمن ، اسم المطبعة السنية ببولاق وظل محتفظا بها عشر سنوات وسبعة أشهر (١٢)،

(٦) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ١٥٥ ، الذى يستند الى تحليل دقيق لمحفوظات عابدين ٠

(٧) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ١٦٥ ـ ١٦٧ ، وحول محمد على أنظر : ع الرافعى ، **عصر محمد على** ، ٥٦٩ : ٥٧ ٠

(٨) « **الوقائع المصرية** » ، العدد ٤٦ ، ١٦ محرم ١٢٦٣ (١٨٤٦) ٠

(٩) فى صابات : **تاريخ الطباعة** ٠ ١٧١ ٠

(١٠) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ١٧٢ ٠

(١١) ابراهيم عبده : « **تاريخ الوقائع** » ، ٦١ ٠

(١٢) ا٠ رضوان : **مطبعة بولاق** ، ١٨٥ ـ ٢٠٥ ٠

S. Limongelli : L'Arte italiana nelle stamperia nazionale d'Egitto, Cairo, 1911, 20; A Geiss : L'histoire de l'imprimerie en Egypte siite — époque contemporaine, ex. dact., Le Caire, 1908, ii : 218;

خ٠ صابات : **تاريخ الطباعة** ، ١٧٥ ـ ١٧٦ ٠

وفى ذات الوقت، عهد اليه اسماعيل بادارة مصنع الورق الذى كان قد أنشىء حديثا ، وكان يقوم بانتاج ورق الطباعة منذ عام ١٨٧١ (١٣) ٠ وجاء التوجيه من اسماعيل نفسه : فقد أصدر أمرا الى ناظر الداخلية فى سنة ١٨٦٥ يقضى بطبع ٥٠٠ نسخة على نفقة الدولة من كتاب تاريخ مصر للطهطاوى المسمى « **أنوار توفيق الجليل فى تاريخ مصر وتوثيق بنى اسماعيل** » فظهر الكتاب عام ١٨٦٨ (١٤) ٠ واستدعى الايطالى «باولينى» لتصميم واصدار أول طوابع للبريد (١٥) ٠ وقد كان انتاج المطبعة ذا كيفية ممتازة بحيث أن جناح مصر فى معرض باريس عام ١٨٦٧ نال الميدالية الفضية ، بسبب المطبوعات التى تم طبعها فى القاهرة بالذات وعلى وجه خاص الكتب الفارسية ومجلتى «**المجلة العسكرية**» و « **يعسوب الطب** » **(١٦)** ، وصدر أول كتاب ايطالى عام ١٨٧٤ (١٧) ٠ وقد جاء عزل اسماعيل بمثابة ضربة قوية للمطبعة التى هبط انتاجها سريعا كما وكيفا (١٨) ٠ وبعد كارثة عام ١٨٤٠ ، لم تواصل العمل ، من بين المطابع الحكومية الأخرى التى أنشأها محمد على ، الا مطبعة القلعة وحدها ٠ وقد أسس على مبارك عام ١٨٦٧ مطبعة ديوان المدارس تحت ادارة ابن الطهطاوى، وكانت مخصصة لتزويد شبكة المدارس الواسعة التى أنشأها وكذلك طبع مجلة « **روضة المدارس** » (١٩) ٠ ويبدو أن هذه المطبعة استوعبت مطبعة صغيرة كانت تعرف باسم « المطبعة الأميرية » وملحقة بمدرسة المبتديان٠ وتأسست كما يبدو، عام ١٨٦٤ ٠ وأنشأ اسماعيل فى عام ١٨٧٢ مطبعة أركان حرب بالقلعة بادارة « أوجست بيرنشتين » الأمريكى الجنسية، وقد الحق بالعمل فيها عاملان ايطاليان متخصصان ، أحدهما ويدعى « ميكائيلى دى باولا » ، أدخل فن صهر الحروف والحفر والطلاء ، وتولى ايطالى آخر يدعى « مارتزينى » ادارة المطبعة فى عام ١٨٧٥ (٢٠) ٠ وقد

---

(١٣) **الوقائع المصرية** ، العدد ٤١٠ أول يونيو ١٨٧١ ، وعن حسن حسنى انظر : الرافعى : **عصر اسماعيل** ، ج ١ : ٢٥٠ ــ ٢٥٢ ٠

(١٤) خ٠ صابات : **تاريخ الطباعة** ، ١٧٨ ، حسين فوزى النجار : **رفاعة الطهطاوى** ، مكتبة مصر ، القاهرة ، د٠ت (حوالى ١٩٦٦) ، ١٨١ ٠

(١٥) S. Limongelli : L'Arte italiana, 21.

(١٦) Charles Edmond : L'Egypte à l'Exposition universelle de 1867, Paris, 1867, 331-71.

انظر أيضا مقالات الشيخ أحمد ابن عبد الرحمن فى «**الوقائع المصرية**» ، لعدد ١٠ ، ٢ مايو ١٨٦٧ ٠

(١٧) خ٠ صابات : **تاريخ الطباعة** ، ١٨٠٠٠

(١٨) ا٠ن رضوان : **مطبعة بولاق** ، وحول فترة ١٨٨١ ــ ١٨٩٦ ، ص ٢١٩ ــ ٢٤٨ ٠

(١٩) ع٠ مبارك : **الخطط** ، ج ٩ ، ٤٨٠ ــ ٥٠

(٢٠) A. Geiss : Hist. Impr. Eg., 26.

اختصت هذه المطبعة بطبع المؤلفات المتعلقة بالزراعة وفنون الحرب والموسيقى العسكرية والخرائط الجغرافية بالاضافة الى كتاب نقـــدى بالألوان صدر بمناسبة تقـديم أوبرا « **عايدة** » لفردى على مسرح الأوبرا بالقـــاهرة · و « **جريدة أركان حرب الجيش** » · وتولى ادارة المطبعة بعد « مارتزينى » مدير جديد يدعى « **انطوان موريس** » عام ١٨٨٠ ، وعلى الرغم من المجهودات التى بذلها الجنرال الأمريكى « ستون » فقد الحقت هـذه المطبعة نهائيا بمطبعة بولاق عام ١٨٨٠ (٢١) · وظهرت مطبعة عسكرية أخرى تعرف باسم مطبعة المدارس الحربية ويبدو أنها مارست نشاطها فى الفترة بين عامى ١٨٧٤ و ١٨٨١ وهو التـاريخ الذى ضمت فيه الى مطبعة بولاق (٢٢) · وأخيرا ، قام وزير الداخلية بتأسيس مطبعة باسم «مطبعة الوقائع المصرية» ابتداء من العدد رقم ٩٣٣ ، بتاريخ ٩ أكتوبر ١٨٨٠ حتى أول يوليو ١٨٨٤ وهو التاريخ الذى عادت فيه الجريدة الرسمية الى مطبعة بولاق · وكان يطبع فيهـا أيضـا مجلتا « **تجارة مصر الخارجية** » (١٨٧٩ ــ ١٨٨١) و « **المنتخب** » (ابتداء من يوليو ١٨٨١) (٢٣) ·

أما بالنسبة للمجهود الخاص فقد كان عظيما · فقد أسس أحمـــد بابى الحلبى فى عام ١٨٥٦ «المكتبة الميمنية» التى قامت بنشر «**سفينة الملك**» للشيخ شهاب الدين ، وقد أصبحت فى أيامنا واحدة من أوائل دور النشر بالقاهرة. ودخل المعركة ناشران مصريان آخران: محمد عثمان الوناني (٢٤) وبالذات محمود محمد كتبجى الذى تخصـــص فى كتب الأطفال منـــذ عام ١٨٥٨ · وحتى ذلك الحين ، كانت المطابع من النوع الحجرى ، أما أول مطبعة حروف فى تاريخ مصر فقد أسـسها عام ١٨٦٠ البطريرك القبطى الأرثوذكسى كيرلس الرابع باسم « المطبعة الأهلية القبطية » ، وقد تم شراء الأجهزة بكاملها من بريطانيا · وبدات فى الانتاج عام ١٨٧٠ · وحينما وصلت المعدات رصيف الاسكندرية ، أمر البطريرك نائبه باستقبالها فى حفاوة بالغة : «انما أنا أحيى النهضة العلمية واحتفى بمستقبل حظ الأقباط منها · لأن هذه الآلات الحديدية هى الواسطة الوحيدة للرقى والدليل على احترام العلم والرغبة فى احرازه عن طريقه القويم · ولئن استغربتم صدور

---

(٢١) خ· صابات : **تاريخ الطباعة** ، ١٨٦ ــ ١٨٧ ·

(٢٢) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ١٨٧ ·

(٢٣) ا· ف رضوان : **مطبعة بولاق** ، ٢٢٧ ·

(٢٤) تتوفر معلومات قليلة عنه ، انظر أ·ف · رضوان ، **المرجع السابق** ، ٢٣٢ ·

أمرى ، فانى لو كنت حاضرا لرقصت أمامها طربا كما رقص داود النبى أمام تابوت العهد ٠ »

فهل كانت مطبعة قبطية ؟ صحيح أنها قامت بطبع الكثير من المؤلفات الطقوسية واللاهوتية ، لكن الجانب الأكبر من انتاجهـا كان من الكتب العلمية والتاريخية والأدبية :

« وأخرجت تلك المطبعة مؤلفات ثمينة أحدثت فى الأمة ثورة أدبية كان تأثيرها هائلا فى الأفكار (٢٥) ٠ »

غير أن النساخين الأقباط عرقلوا عمل البطريرك الكبير وحالوا دون سير المطبعة ٠ وأخيرا ، نذكر بعض المطابع الحجرية الأخرى قليلة الشأن مثل مطبعة المغربى محمد هاشم (١٨٦١) ، و « المطبعة الوهبية » لصاحبها محمد وهبى (١٨٦٣) ، « والمطبعة الخاصة » لقدرى باشا ناظر التعليم العمومى ، و « مطبعة وادى النيل » ، و « مطبعة جمعية المعارف » التى أسسها محمد شرف باشا عام ١٨٦٨ ، والتى طبعت فيها مجلة « **نزهة الأفكار** » لابراهيم المويلحى بدءا من عامها الثانى ٠ وأخيرا مطبعة كبرى ـ حجرية وبحروف فى نفس الوقت ـ وهى « المطبعة الشرفية » لصاحبها حسن شرف (١٨٧٣) الذى كان يستخدم ٨٠ عاملا (٢٦) ٠

وكانت المطابع الأوروبية أفضل من حيث النوعية ، فقد كانت تستفيد بطبيعة الحال من الخبرة الأوروبية فى هذا المضمار ٠ ونحن لا نعلم بالضبط متى أغلقت «المطبعة الأوروبية» بالاسكندرية التى كانت قد استأنفت نشاطها عام ١٨٣٠. وقد تأسست «مطبعة امبللونى» Imbolloni القاهرة عام ١٨٤٢ وكانت تقوم بطبع الكتب المدرسية الفرنسية التى تطلبها المدارس الحكومية والخاصة ٠ أما «مطبعة كاستيللى» Castelli (١٨٤٤) فكانت تنشر كتبا باللغة العربية ٠ وكانت هناك مطبعة يملكها شخص يدعى أوتولنجى Otte Lenglai فى الاسكندرية عام ١٨٥٣ ، ولم تدم آثارها طويلا كذلك أنشئت مطبعتان فرنسيتان: الأولى لصاحبها "فانسون بيناسون» Vincent Penasson (١٨٥٨) ، التى أصبحت فيما بعد « المطبعة الخديوية » (١٨٦٧) ، وكانت المطبعة الثانية والأهم هى مطبعة انطوان موريس (١٨٦٠) Antoine Morice والتى غيرت اسمها عدة مرات تبعا لأهواء الشركات المالية ،

---

(٢٥) توفيق اسكاروس : « تاريخ الطباعة فى وادى النيل » ، **الهلال** ، العدد ٢٢ ، نوفمبر ـ ديسمبر ١٩١٣ ، مارس ١٩١٤ ٠

(٢٦) حول جميع هذه المطابع ، انظر خليل صابات : **تاريخ الطباعة** ، ١٩٥ ـ ١٩٦ ٠

وقد سبق أن قلنا أن مؤسسها انضم لمطبعة بولاق وأسهم فى تحقيق النجاح الذى أحرزته مصر فى معرض عام ١٨٦٧ · وقامت مطبعته بالاسكندرية بنشر جزء من مؤلفات مرييت وفهرس معهد الآثار المصرية ، ووثائق وزارة العدل ، وجريدة Le Moniteur Egyptien Egypte وأسس «موريس» فى عام ١٨٧٥ المطبعة الفرنسية فى بور سعيد ادارة «سيريير» Serrière وتأسست مطبعة أمريكية فى الاسكندرية أيضا كفرع لمطبعة بيروت بهدف طبع المؤلفات التبشيرية · وتأسست فى القاهرة مطبعة « دالبو ــ دوموريه Dalbo Demourer» عام ١٨٧٠ التىأصبحت عام ١٨٨٠ « المطبعة الفرنسية » لصاحبها ليون جابلان وشركاه » ، وذلك على غرار الشركات المساهمة الأوربية الجديدة وأخيرا قام Dolla Rocca بتأسيس مطبعة حجرية وبحروف عام ١٨٨١ · وقد اضطرت ثورة ١٨٨٢ معظم هذه المطابع الى اغلاق أبوابها (٢٧) ·

وقد ظهر نوع جديد من المطابع فى ذلك العصر . وهى مطابع الصحافة فكانت مطبعة وادى النيل (١٨٦٦) تقوم بطبع الصحف والمجلات الآتية: **وادى النيل ، نشرة أركان حرب الجيش المصرى ، مجلة روضة المدارس . الأخبار** · وفى عام ١٨٧٢ كانت مطبعة صحفية Kairon اليونانية تطبع كذلك العديد من المطبوعات الدورية التجارية التى لم تدم طويلا· غير أن أهم حدث كان انشاء مطبعة صحيفة **الأهرام** (١٥ يوليو ١٨٦٧)، وكانت تقدم بطبع **الأهرام . وصدى الأهرام** (١٨٧٦) ، وحقيقة **الأخبار** (١٨٧٨) **والوقت** (١٨٧٨) ، **والأحوال** (١٨٨٢) بالاضافة الى العديد من كتب الأدب والروايات ، وكتابين عن المسألة الشرقية ، الأول لأمين شميل والثانى لنفس المؤلف بالاشتراك مع سليم تكلا · وأخيرا وفى عام ١٨٨١ اشترى جاك سيريير مكتبة موريس ببورسعيد ليطبع فيها « **البوسفور المصرى** » الذى منع صدوره قادة ثورة عرابى (٢٨) ·

لقد امتزج تاريخ النشر بتاريخ الطباعة والبعثات الدراسية ــ كما رأينا ــ وتاريخ الصحافة أيضا · ولم يكن قد ظهر بعد فى ذلك العصر نشر مستقل خارج حدود هذه القطاعات الثلاثة ·

واذا أخذنا برأى أول مؤرخ للصحافة العربية ، فيليب دى طرازى ،

---

(٢٧) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ١٨٨ ــ ١٩٢ ·

(٢٨) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ١٩٦ ــ ٢٠٢ ، وحول مطبعة **الأهرام** ، انظر **الأهرام** الصادر فى ١٨٧٦/٩/٦ و ١٨٨١/٧/٧ ، خليل مطران : **بشارة تكلا** ، القاهرة ، ١٩٠٢ ، وخاصة ابراهيم عبده : **جريدة « الأهرام » تاريخ وفن** ١٨٧٥ ــ ١٩٦٤ ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ٢٠ ــ ٢٨ ·

فان الصحف والدوريات المصرية ـ منذ ١٧٩٨ حتى الحرب العالمية الأولى ـ لم يكن لها سوى مكانة ضئيلة الشأن ، وذلك لأن لبنان كانت تحظى بنصيب الأسد (٢٩) . وكانت الحملة الفرنسية ، بقيادة « مينو » Menou عقدت العزم على تأسيس صحيفة باللغة العربية اسمها « **التنبيه** » ، وليس « **الحوادث اليومية** .» كما أورد فيليب دى طرازى ، وذلك بقرار صدر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٠٠ ، غير أن ثورة القاهرة التى ما لبثت أن أجبرت القوات الفرنسية على الرحيل ، فقد قضت على المشروع قبل أن يرى النور (٣٠). وفي الوقت الذى تولى فيه محمد على السلطة كانت الصحيفتان الفرنسيتان الخاصتان بالحملة الفرنسية وهما Le Courrier de l'Egypte (٢٨ أغسطس ١٧٩٨) La Décade Egyptienne (أول أكتوبر ١٨٩٨) ، قد اختفيتا ولم يعد لهما وجود ، لكن انجاز الاصلاحات الكبرى حدا بالوالى الى تأسيس أول جريدة للصحافة المصرية « **جرنال الخديوى** » نحو عام ١٨٢٢ ، التى كانت تنشر النصوص التشريعية والتنفيذية الخاصة بالحكومة وكانت توزع على كبار رجال الدولة وموظفى البلاد ، وكانت تصدر على فترات غير منتظمة (٣١) .

يبدأ التاريخ الخاص للصحافة المصرية بتأسيس « **الوقائع المصرية**»

---

(٢٩) ان العمل الكلاسيكى الذى قدمه دى طرازى : **تاريخ الصحافة العربية** ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، ١٩١٣ فى جزأين ، يخصص ما يقرب بالكاد من عشرين صفحة للصحافة المصرية (جـ ١ : ٤٥ وما بعدها ، جـ ٢ : ٤ ، ٢٤٦ وما بعدها ، ٣١١ وما بعدها) من مجموع عددصفحات الكتاب البالغة ٤٩٦ صفحة .

(٣٠) أشار فيليب دى طرازى خطأ الى أن هذه الصحيفة قد ظهرت فعلا (**المرجع السابق**، جـ ١ : ٤٥) ، وارتكب نفس الخطأ أديب مروه فى **الصحافة العربية نشاتها وتطورها** ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ـ ١٤٩ . وقد صحح هذا الخطأ ابراهيم عبده : **تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية** ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، جـ ٢ ، ١٩٥٠ ، ٩٧ ـ ١٠٨ ، وكذلك عبد الرحمن الرافعى : **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر** ، مكتبةالنهضة المصرية ، القاهرة ، جـ ١ ، ط ٤ ، ١٤٠ هامش ١ ، و جـ ٢ ، ط ٣ ، ٢١٠ . ويرد التاريخ التفصيلى والدقيق للصحافة والطباعة والنشر فى بحث صلاح الدين البستانى
S. Boustany : "The Press during the French Expedition in Egypt 1798-1801», Cah. Hist. Egypt., vi (1954), no 1, 1-30.

ويقول اذا لم يكن نابليون بونابرت صحفيا عظيما فان الصحيفتين اللتين انشأهما « تضطلعان بدور بارز فى وصف المراحل التى تجتازها الحياة المصرية بالنسبة للميليشيا الفرنسية وكذلك بالنسبة للأجانب المقيمين فى مصر وفى أوروبا (٢٩) » .

(٣١) ابراهيم عبده : **تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـ ١٩٥١** ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٥١ ، ٢٦ ـ ٣٠ ، ومما يثير الدهشة استخدام تعبير «الخديوى» فى ذلك الوقت فى حين ان هذا اللقب لم يمنح لاسماعيل الا فى ١٨٧٦ . انظر أيضا ا. مروه : **الصحافة العربية** ، ١٤٩ . ولم يذكر هذه الصحيفة فيليب دى طرازى .

التى صدر أول عدد منها فى ٢٥ جمادى الأولى ١٢٤٤ (١٨٢٨) ، بعد عامين من الاصلاح الادارى الواسع فى عام ١٨٢٦ ، وهو الذى أقام أسس الدولة المصرية الحديثة · وعلى النقيض من مزاعم قسطاكى الياس المؤرخ السورى مع أنه أوثق معرفة من طرازى ، فان **الوقائع** لم تؤسس لنشر ··· أخبار حرب الشام (٣٢) ، فقد كان أمر محمد على يقضى بتعريف المصريين « بالحالة والعصر اللذين يعيشان فيهما » ولفت أنظارهم الى « الأمور الدقيقة الحاصلة عن الزراعة والحراثة وباقى أنواع الصنايع التى باستعمالها يتأتى الرخاء والتيسير (٣٣) »

حقا ، ان الشئون العسكرية كانت تحتل مكانة كبيرة من الصحيفة، مع أنها كانت تقل عن المكانة التى تشغلها أخبار الحكومة الداخلية فى مصر ومع ذلك ،فاذا كانت « **الوقائع** » فى بداية عهدها توزع على كبار رجال الدولة والموظفين المدنيين لم يكونوا ملزمين « بصورة اجبارية » بقراءة الصحيفة فيما عدا من كانوا يشغلون الدرجات العليا ويزيد راتبهم عن ألف قرش ، أما جميع ضباط الجيش فقد كانوا ملزمين بقراءتها ، وكان هناك نظام يضمن وصول النسخ اليهم فى سرياتهم البعيـــدة فى غمرة الحملة الفرنسية ، أينما كانوا وأيا كانت مناصبهم (٣٤) · لقد كانت الرقابة الايديولوجية لما أصبح فيما بعد العصب الأساسى لجهاز الدولة من الاهتمامات الأولى لمؤسس مصر الحديثة · وكان الاهتمام شديدا بدقة الأخبار والنصوص المنشورة ، وكان يرفض كل ما من شأن مستـــواه الأدبى أن يحط من قدر الصحيفة المخصصة لسائر كوادر البلاد كلها . وكان من الطبيعى أن ينشر فيها بالدرجة الأولى النصوص والأخبار الرسمية ، غير أن حيزا ضئيلا خصص بالتدريج للمسائل المالية والعلمية ، وبدأت الصحيفة ، فيما بعد تهتم بالسياسة الخارجية ، من خلال الصحف الفرنسية فى أغلب الأحيان ، ثم ظهرت فيها أخبار الوفيات وبعض الأعلانات ، وسوف يصبح هذان النوعان من أهم أبواب الصحافة المصريـــة الى اليـــوم ، وقد ظهرت محاولة غير كاملة لتحرير المقالات (٣٥) · وخلال تلك المرحلة الأولى من تاريخ « **الوقائع المصرية** ــ التى بدأت بأربع صفحات على عمودين ، وكانت المقالات تحرر باللغة التركية وتنشر ترجمتها العربية على العمود الموازى ــ كان المحرر الخاص بالقسم التركى يدعى سامى بك فى حين أننا

(٣٢) قسطاكى الياس عطارة الحلبى ، « **تاريخ تكوين الصحف المصرية** » القاهرة ، ١٩٢٨ ،ص ٩٩ ·

(٣٣) النص نقلا عن ابراهيم عبده « **تاريخ الوقائع** » ، ص ٣٠ ·

(٣٤) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ١٩ ــ ٢١ ·

(٣٥) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ١٥ ــ ٤١ ·

لا نعرف على اليقين اسم المحرر الخاص بالقسم العربى ويبدو أنه كان من الأقباط المصريين ويدعى نصر الله أو نصرى (٣٦) ٠

بدأت « **الوقائع** » مرحلة ثانية بتكوين لجنة ديسمبر ١٨٤١ والتى نشرت قراراتها فى ١١ يناير ١٨٤٢ :

« ان الغرض من طبع الوقائع انما هو لنشر الأخبار الحديثة على الناس حتى يستفيد منها كل انسان ولا يجب الاكتفاء بنشر أخبار مصر فحسب ٠ وقد أصبح من اللازم اضافة بند للحوادث الخارجية فى الجريدة حتى يتقبلها الناس برغبة وشوق ويشتاقون لقراءتها فالأخبار تسقط قيمتها اذا تقادم عهدها ولذلك وجب الحصول على الأخبار أولا فأول ونشرها على الجمهور ولما كان فى بعض الأخبار الأجنبية أشياء لا يليق نشرها فقد تقرر تمييزها وعدم نشر المواد غير المناسبة ونشر الحوادث الداخلية والخارجية الملأى بالعبر والمنتظر فائدة منها ٠ »

« أما الحوادث الخارجية وان كانت ستنشر فى الجريدة الا أن الأخبار المصرية ستكون المادة الأساسية [٠٠٠] ٠٠ حيث أن حضرة الشيخ رفاعى سيضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية (٣٧) » ٠

لقد بدأ العهد الذهبى لـ « **الوقائع المصرية** » ليستمر حتى عام ١٩٥٠ ٠ ومنذ عام ١٨٣٥ ، كان الطهطاوى ، على ما يبدو ، من العاملين فيها ، لكنه أصبح المسئول الرسمى عنها فى عام ١٨٤٢ (٣٨) ، وتمصرت الجريدة وأصبحت اللغة العربية اللغة الأصلية للمقالات واحتلت العمود الأيمن ، وقد تمنى الطهطاوى فى وقت ما أن يسميها «**مظهر أخبار مصرية**» بدلا من الاسم المتوارث من فترة السيطرة العثمانية ، غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ (٣٩) ٠ وأعلن القراء بالشكل الجديد للصحيفة التى « تشتمل على

(٣٦) لا يلوح أن الطهطاوى قام فى تلك الفترة بدور مباشر فى الصحيفة وفقا لما قاله ابراهيم عبده : **المرجع السابق** ، ٣٠ ــ ٣٥ ٠

(٣٧) وفقا لوثائق محفوظات عابدين ، نقلا عن ابراهيم عبده : « **تاريخ الوقائع** » ص ٤٢ ــ ٤٣ ٠

(٣٨) صالح مجدى : **حلية الزمان فى وصف مناقب خادم الوطن** ، القاهرة ، ١٨٧٣ ، ١٥ ــ ١٦ ٠

(٣٩) صالح مجدى : **المرجع السابق** ، ٤٨ ٠

« ان مصر التى سوف تكافح فيما بعد للقضاء على ما تبقى من آثار اللغة التركية سوف تزود عملية التعريب بدافع حاسم ، سوف تحذوها فيه أغلبية البلاد الاسلامية ٠٠ وقبل المطبعة ، كانت الثقافة العربية تتسم بطابع أرستقراطى ٠٠ غير أن المطبعة سوف تحدث تحولا ملحوظا ٠ وبفضل الكتب والصحف سوف تنتشر الثقافة بين جميع الفئات الاجتماعية ٠٠ وسوف تصبح المطبعة ، فى المقام الثانى ، عاملا قويا لتحقيق الوحدة اللغوية لأنها سوف تطعن اللهجات المحلية بطنعة قاضية ٠ »

A. Dimeerseman : «Les tous pr emiers débuts du modernisme en Islam». I.B.L.A., 17, 1954 337-42).

الأخبار الملكية، داخلية وخارجية ، صناعية وتجارية، علمية وأدبية (٤٠)». وبدأت الوقائع تظهر كل يوم جمعة ٠ وكان المقال الافتتاحى للعدد ٦٢٣ بحثا فى السياسة والنظم الديموقراطية والاستبدادية ، وكان الأول من نوعه فى الصحافة الذى يربط التراث (ابن عبد الحكم) بالعصر الصناعى . وكان الهدف كما يشير الى ذلك العنوان نوعا من التمهيد فعلا (٤١) ٠ وفى مجال الأدب ، وجهت « **الوقائع** » الأنظار الى التراث القديم ، خصوصا الى آراء ابن خلدون حول فن الأدب ٠ وظهر أول اعلان فى العدد رقم ٦٢٤ (٤٢) ٠ غير أن أزمة ١٩٤٠ وجهت الى « **الوقائع** » ضربة فى الصميم : فتضاءلت موضوعات السياسة الخارجية ، واقتصر الأمر على عرض الأخبار التى تظهر فى الصحيفة الفرنسية **Le Journal des Débâts** بلا تعليق ، واستعادت اللغة التركية تفوقها المفقود ٠ وما أن تولى عباس الأول السلطة ، حتى أمر بالاقتصار فى توزيع الصحيفة على « حاملى رتب فريق وميرميران وميرلواء وميرالاى » ، أى على جميع كبار الضباط أو المدنيين الحاملين لهذه الرتب نظرا لأن الصحيفة كانت ترسل « لجماعة أمية وسفلة » ٠ وفى عهد عباس الأول وسعيد كانت تظهر طبعتان تركية وعربية فى نفس الوقت وفى مناسبات عدة ٠ وابتداء من عام ١٨٤٦ ، استردت الأخبار الخارجية مكانتها وخصوصا « الأحداث التجارية » ، وفى ذات الوقت اختفت تماما الموضوعات الأدبية والعلمية والمقالات السياسية والاجتماعية ، وذلك بعد أن حلت النقمة بالطهطاوى وتولى على جودت رئاسة التحرير يساعده فى القسم العربى الشيخ ابراهيم بن عبد الغفار الدسوقى الذى حاول أن يصبغ الصحيفة كلها بالصبغة الدينية (٤٣) ٠

لم تكن « **الوقائع** » وحدها فى الميدان على عهد محمد على ، خلافا لرأى مؤرخى الصحافة السوريين (٤٤) ٠ فقد حثت الحملة الظافرة على سوريا الوالى على أن يؤسس صحيفة خاصة بالجيش عام ١٨٣٣ سميت « **الجريدة العسكرية** » « لنشر الجرائم التى تقع فى الألوية العسكرية »

---

(٤٠) **الوقائع المصرية** ، العدد ٦٣٣ ، غرة ربيع الآخر ، ١٢٥٨ (١٨٤٢) ٠

(٤١) **المرجع السابق** ، العدد ٦٢٣ (١٨٤٢)

(٤٢) **المرجع السابق** ، العدد ٦٣٢ (١٨٤٢) ٠

(٤٣) K.E. Galal : Entstehung und Entwicklung der Tagespresse in Agypten, Limburg and der Lahn, 1939, 60;

أ٠ عبده : **تاريخ الوقائع** ، ٥٥ _ ٥٧٠

(٤٤) فيليب دى طرازى :**تاريخ الصحافة** ، ج ١ : ٤٧ _ ٥٣ ، أ٠ مروه **الصحافة العربية** ، ١٩٠ ٠

بسوريا ، وكانت الصحيفة تقدم بهذا العمل خمس عشرة مرة شهريا ٠ ويبدو أن الجمهور فى هذه المرة كان من العسكريين فقط ، ولم يلبث تقليص الجيش من ٣٠٠ر٠٠٠ رجل الى ١٨ر٠٠٠ أن عجل بنهاية هذه الصحيفة ، التى كانت قليلة الشهرة (٤٥) ٠ واتجه الوالى نحو المسائل الاقتصادية مع الاحتفاظ بالاهتمام الأول ـ كما كانت الحال فى جميع المجالات ـ للجانب العسكرى ٠ ان الرجل الذى كتب يقول : « ان رخاء السكان مرتبط بالزراعة (٤٦) » ، والذى أمر منذ عام ١٨٤٢ بالاهتمام بتأسيس بنك فى الاسكندرية على نمط البنوك الأوروبية ، ليكون بنكا مركزيا وتجاريا ، فى ذات الوقت (٤٧) ، فكر فى انشاء صحيفة اقتصادية ٠ ان هذا المشروع الذى استأنفه ابنه ابراهيم ، خلال فترة خلو منصب الوالى السابقة على تولى عباس الأول ، قد سمح بانشاء « **الجريدة التجارية الزراعية** » ، والتى كانت تعرف أيضا باسم «**جرنال جمعى**» ، عام ١٨٤٧ . لقد اشترط الأمر الصادر بهذا الشأن ، فى ٤ من ذى القعدة ١٢٦٤ هـ ٠ أن تتيح هذه المحاولة الجديدة ـ مشيرا بذلك الى محاولات محمد على ـ نشر جميع الأخبار والاعلانات والمعلومات المتعلقة بالتجارة الداخلية والخارجية ، وكذلك المشروعات والمعلومات التى من شأنها تحسين الزراعة فى البلاد ، بما فى ذلك جزء طبى هام ، مع تخصيص جزء هام لوسائل الرى وهندسة المياه ، ويبدو أن هذه الصحيفة لم تظهر سوى خمس مرات حتى وفاة ابراهيم فى ١٣ من ذى الحجة ١٢٦٤ هـ (٤٨) ٠

لقد تحدثنا عن اضمحلال الصحافة على عهد عباس الأول وسعيد ٠ لقد شهد عام ١٨٥٧ صحيفة عرفت باسم «**جريدة السلطنة**» (٤٩) ٠ وقبل ذلك ، فى عام ١٨٤٦ كان أحد المراقبين الانجليز قد أشار الى مدى صلاحية مصر للصحافة ـ بسبب ظاهرة الانحدار والتقهقر (٥٠) ٠ وبالفعل

---

(٤٥) ١٠ عبده : **تطور الصحافة** ، ٣٦ ، ٣٨ ٠

(٤٦) أ٠ سامى : **تقويم مصر** ، جـ ٢ : ٥٤٥ ٠

(٤٧) نص الأمر الصادر فى ٢٥ ذى الحجة ١٢٥٨ (٨١٨٤٢) فى ١٠ عبده : **تطور الصحافة** ، ٣٩ ٠

(٤٨) النصوص والملاحظات عند ابراهيم عبده ، **المرجع السابق** ، ٣٩ ـ ٤٢ ٠

(٤٩) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ٢٥٩

(٥٠) ستكون أول صحيفة تصدر فى « القاهرة الكبرى ، مدينة الموتى » هى الصحيفة الإيطالية Spettatore Egiziano ، « ومن جهة أخرى ، لا يتيح أى بلد آخر مجالا للملاحظة من جميع الجوانب أفضل من مصر اذا ما اذاع سكانها من الاوروبيين ما يسترعى انتباههم بصفة دائمة على الأقل ٠٠ ، فذلك هو سخاء الجالية الاوروبية وحكمها الصائب » ٠ («Journalism in Egypt» The Times, 7 April 1846. p. 6).

فقد تتابع ظهور الصحف الأجنبية مع بداية التغلغل الأوروبى بعد ١٨٤٠ :
(١٨٤٦) Spettatore Egizians ، (١٨٣٣) Le Moniteur Egyptien

Il Progresso d'Egits (١٨٥٣) Manifests Giornaleris (١٨٥٢) Manifeste

La presse Egyptienne Le Courrier de la (١٨٥٧) Il Commercio et Gironde

(١٨٥٩) Bulletin de l'Institut Egyptien Le Sphynx Egyptien

L'Echo d'Egitto, L'Echo d'Europe (١٨٦٠) La Trombella
• (٥١) (١٨٦٢)

وأقبل عهد اسماعيل ليكون العصر الذهبى الثانى للصحافة الرسمية المصرية ، وبصورة عامة للصحافة بشتى أشكالها • ففى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٥ أعلن اسماعيل عن «رغبته فى جعل « **الوقائع المصرية** » « احدى الصحف المحترمة » • وقام بتعيين أحمد خيرى مديرا للطبعتين ، العربية والتركية . وكان الشيخ أحمد عبد الرحيم مكلفا بالطبعة العربية • وظهر العدد الأول فى ٢٥ نوفمبر فى شكل غير مألوف ، أكبر حجما من الأول ، وقد تركز بصورة واضحة على الشئون الداخلية ، حيث تم اختيار بعضها ، وكانت الأخبار الخارجية المســـتقاة من أهم المصادر تحتل مكانة هامة ، وكانت الافتتاحية ذاتها بقلم أحمد خيرى تشير الى أنه « يحسن أن تصدر أخبار أفريقيا من مصر لكونها من قطاعاتها وأيضا أخبار الحجاز واليمن لأنهما وان كانتا من آسيا لكنهما مجاورتان لها وكذا أخبـــار الهند لكون مصر أقصر الطرق الموصلة الى أوروبا • » وتولت « **الوقائع** » معارضة الدعاية التى كانت تقوم بها الصحيفة السكندرية الجديدة L'Egypte (١٨٦٣) • وظهرت بها أقسام جديدة عديدة : العادات ، الأدب الحديث ، كتابات أجنبية عن مصر ، وكان هناك اهتمام بمشكلات التعليم وأخباره ، ووسائل الترفيه لعلية القوم ، الاعلانات التجارية والقضائية ، الأخبار البرلمانية المفصلة ، وقد نشر بها لأول مرة مقالات بأقلام — بعض المحررين من غير العـــاملين بالصحيفة • وفى عام ١٨٧٤ ترك الشيخ عبد الرحيم — وهو من طهطا — ادارة الطبعة العربية ، بعد أن قدم فيها خدمات جليلة • وفى عام ١٨٧٦ ، خلف على جودت ، وهو محرر بالصحيفة منذ عهد الطهطاوى ، أحمد خيرى فى ادارة « **الوقائع** » • وما لبثت الصحيفة أن اضطرت الى الانطواء أمـــام عداء الدول الكبرى للخديوى : فتتابعت فى الصحيفة ، بين عامى ١٨٧٩

(٥١) ا• عبده : **تطور الصحافة** ، ٢١٠

و ١٨٨٠ ، التحذيرات والتهديدات ضـــد التطرف الســـياسى ومثيرى الاضطرابات والفتن . ومع ذلك ، فقد قـام الشيخ أحمد عبد الرحيـم ، فى ٣ أكتوبر ١٨٦٠ ، بنشر مقال افتتاحى خطير بعنوان « العدالة والعلم » يعتبر الأول فى نوعه ، ولعله أول مقال حقيقى فيما ســـيعرف بعد ذلك بالأدب الصحافى المصرى ، وكان يمثل فى ذات الوقت ردا عنيفا على حملة التهديدات التى سبقت الثورة (٥٢) . واستأنفت « **الجريدة العسكرية المصرية** » صدورها فى عام ١٨٦٥ مع الانتفاضة العسكرية التى شـملت البلاد ، ومع ذلك فلم تتجاوز طبعة شـهرية تختلف تماما عن مثيلتها فى عهد محمد على ؛ صحيح أنها كانت تنشر المقالات العسكرية ، لكنها كانت تنشر أيضا مقالات وأخبارا عن الأحداث الســياسـية العالمية ، « المعارف النافعة والعيـون المتنوعـة » ، وكان الهـدف هو تربية الجيش ، القـادة والضباط والجنود لاذاعة القرارات التأديبية . وفى عام ١٨٧٤ ، أصدرت هيئة أركان الحرب جريدة جديدة باســم « **جريدة أركان حرب الجيش المصرى** » خصصت للضباط بهدف دفع « تقدم الجيوش المصرية فى مجال الفنون العسكرية » . وقبيل عزل اسماعيل ، وكما لو كان الأمر يستهدف اعداد الأذهان لثورة ١٨٨١ ، صدر مقال حول القضاء على الغزو العسكرى البريطانى فى عام ١٨٠٧ ، وكان موجها الى هيئة الضباط :

« اذا قدر الله بغزو هذه الديار مرة أخرى ، فليتذكر ضباط الجيش المصرى غزوة سنة ١٨٠٧ ، وليكن كل ضابط مصمما على المدافعة والذود عن وطنه ولا يرتكب العار فى التسليم كما ارتكبه أمين أغا ، بل يدافع بنفسه وبعساكره عن كل نقطة يتجه الهجوم اليها ، كما فعل على بك السلانكلى الذى اكتســب الفخر والشرف ومنع العدو وصــده عن الوطن (٥٣) . »

وقد احتلت « **روضة المدارس** » مكانة خاصة فى الصحافة الرسمية . كانت هذه الجريدة التى انشأها على مبارك عام ١٨٧٠ ، بغرض دعم الجهاز التربوى الذى أقامه ، تستهدف تشكيل عقول وحساسية التلاميذ والمثقفين. وقد عهد بادارتها الى الطهطاوى الذى أصبح ابنه رئيسا لتحريرها . وكانت هيئة التحرير أشهر الأسماء فى ذلك العصر : الطهطاوى حتى وفاته ، على فهمى رفاعه ، على مبارك ، عبد الله فكرى ، الشيخ حسين المرصفى ، « هنرى بروجش » ، محمود الفلكى ، محمد قدرى ، دكتور محمد بدر ، أحمد ندا ، الشيخ عبد الهـادى نجا الابيارى ، صـالح مجدى ، عبد الله

---

(٥٢) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٥٨ – ٨٠ .

(٥٣) العدد ٦ ، المجلد ١ ، السنة الثانية ، نقلا عن ابراهيم عبده :**المرجع السابق** ، ٤٩ – ٥٠ ، ٥٦ .

أبو السعود ، الشيخ عثمان المدوخ ، الشيخ حسونة النواوى ، والشيخ حمزة فتح الله (٥٤) · والواقع أن الانجازات التى تمت خلال ثمانى سنوات هى عمر الجريدة كانت عظيمة : فلا شــك أن مصر تدين لهذه الجريدة بتشكيل نواة الكتاب وكتاب المقالات والصحفيين (٥٥) الذين سيصبحون رصيدا ثمينا لها بعد الاحتلال : « ومن عام ١٨٧٠ أصبحت مصر تمتلك مجلة أشبه شيء بمجلة علمية لكلية من كليــات الجامعة » وذلك بفضــل الدفعة التى أحدثها الطهطاوى فى التحرير (٥٦) ·

وعلى أية حال فقد ظل الحدث الأكثر أهمية فى ذلك العصر هو ظهور الصحافة غير الرسمية ، التى ستترك آثارها عميقة فى الحياة المصرية بدءا من ثورة ١٨٨١ حتى ثورة ١٩٥٢ بقيادة « الضباط الأحرار » ·

لقد استهدف اسماعيل فى البداية دعم العمل الحكومى عن طريق صحافة غير رسمية رفيعة المستوى ، خصوصا أن « الباب العالى » الذى أثارته اجراءات التمصير التى قام بها سعيد، أسرع بارسال اسكندر شلهوب الى القاهرة ليؤسس فيها أول صحيفة مصرية غير حكومية باسم «**السلطنة**» عام ١٨٥٧ ، بهدف محاربة اجراءات الوالى وكسب التعاطف للســلطان · ولم يدم هذا المشروع طويلا — بضعة اعداد فقط — لكن الدرس لم يضع هباء (٥٧) · ففى عام ١٨٦٦ ظهرت « **وادى النيل** » مجــلة مصرية ، أسبوعية ، سياسية ، علمية ، أدبية » ، كما يشير الى ذلك العنوان الفرعى لها ، يديرها عبد الله أبو السعود ، تلميذ الطهطاوى ، وهو شاعر وأديب وموظف كبير ، وكان ذلك غداة تشكيل مجلس شورى النواب فكان الهدف هو تقديم ساحة للجدل الى الرأى العام الناشىء ، وذلك فى اطار التوجيه السياسى المتأثر باسماعيل · وقد أحاط الوالى الصحيفة الجديدة برعايته ، وسرعان ما بدأ جدال شديد بين « **وادى النيل** » من جهة و « **الجوائب** »

---

(٥٤) ع· الرافعى : **عصر اسماعيل** ، جـ ١ : ٢٤٦ ·

(٥٥) V. Edouard Dor : Instr. publ. Eg., 253. ، س· زايد : **على مبارك** ، ٨٨ — ٨٩ ·

(٥٦) عبد اللطيف حمزة :**أدب المقالة الصحفية فى مصر** ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، جـ ١ : ط٢ (١٩٥٨) ، ١٢٦ — ١٢٨ · وحول الحافز الذى قدمه اســماعيل انظر ابراهيم عبده : **تطور الصحافة** ، ٤٥ — ٥٨ ·

(٥٧) Clément Huart : La littérature arabe, Armand Colin, Paris 1902, 428; Henri Munier : La presse en Egypte (1799-1900), notes et souvenirs, Paris, 1930; A.M.S. Ramadan : Evolution de la législation sur la presse en Egypte, Paris, 1935, 8; عبده ، تطور الصحافة ، ٦١ ·

التى يديرها من استانبول أحمد فارس الشدياق منذ عام ١٨٦٠ من جهة أخرى ، جدال عنيف ، لم يستسلم فيه دعاة التوفيق لأولئك الذين كانوا يحاولون فصل الباب العالى عن أهم ولاياته · وقد تمكن اسماعيل ، الذى كان يعمل على انتزاع الخديوية لمصر ، من نقل ميدان المعركة الى قلب الامبراطورية العثمانية ذاتها ، وقد كان هناك ثلاثة رجال يعرضون وجهات نظرهم – ابراهيم بك وعلى الكريدى بك والشدياق الذى كان يكتب بطريقة نقدية – وفى ذات الوقت كان الوالى يغدق فى مساعدته المالية على الصحف السورية التى تقرأ فى مصر – «**الجنان**» و «**الأخبار**» – كما بالغ فى الحفاوة باستقبال مراسل صحيفة Levant Herald فى فندق شبرد ، وكانت هذه الصحيفة قد صدرت فى استانبول للدفاع عن القضية المصرية ، كما صدرت صحف عديدة غيرها ، وكذلك أغدق اسماعيل فى العطاء على وكالتى Reuters, Havas لمعارضة الدعاية المعادية لمصر فى أوروبا ·

ويعتبر ذلك مثالا فريدا فى تاريخ السلطة فى الشرق ، فقد أنشأ لأول مرة مؤسسات صحفية وكان أول من ادخل ما عرف بعد ذلك بالدعاية والعلاقات العامة ، كما يشير الى ذلك ابراهيم عبده (٥٨) · وفى عام ١٨٧٥ شجع أبو السعود ابنه على تأسيس « **روضة الأخبار** » ، وهى صحيفة « سياسية وعلمية وأدبية ومالية وتجارية » · وكانت تظهر ثلاث مرات فى الأسبوع ويقوم هو نفسه بتحرير الصفحة السياسية فيها (٥٩) · وفي عام ١٨٦٩، قام كاتبان هما ابراهيم المويلحى وعثمان جلال بتأسيس المجلة الأسبوعية « **نزهة الأخبار** » ، وكان اتجاهها السياسى أكثر حرية وأكثر نقدا من مجلة « أبو السعود » · وقد كان ضغط الوالى سببا فى اتجاه عثمان جلال الى الوظيفة العامة ، وبقى ابراهيم المويلحى وحده يواصل مهمته فى شجاعة · أما اسماعيل ، فاخلاصا منه للعلاقات التى تربط أسرة المويلحى بمحمد على سمح باستمرار « **نزهة الأخبار** » ، بل زيادة على ذلك شجع صاحبها على تكوين نفسه ماليا حتى استطاع أن يقوم بتأسيس مطبعته الخاصة عام ١٨٦٨ ، تلك المطبعة التى نشرت كتبا قيمة · وبعد ذلك صحب ابراهيم المويلحى الخديوى فى منفاه وأصبح سكرتيره وكاتم سره (٦٠) · وظهرت بعض المجلات الأخرى التى لم تخلف أثرا يذكر وهى « **يعسوب الطب** » لمحمد على البقلى والشيخ محمد الدسوقى (١٨٦٥) ، وكانت أول مجلة

---

(٥٨) ابراهيم عبده : **اعلام الصحافة العربية** ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ٢ . ١٩ – ٢٥ ، وحول « **وادى النيل** » انظر لنفس المؤلف : **تطور الصحافة** ، ٦٢ – ٦٥ ، **واعلام** ·· ، ٩٩ – ١٠٢ ·

(٥٩) ا· عبده : **اعلام** ·· ، ١٠٢ – ١٠٣ ·

(٦٠) ا· عبده : **اعلام** ·· ، ١٠٣ – ١٠٥ ، **تطور الصحافة** : ٦٥ – ٦٦ ·

علمية باللغة العربية ، و« **النحلة الحرة** » (١٨٧٠) للويس صابونجى ، وأخيرا « **الكوكب الشرقى** » (١٨٧٣) لسليم الحموى وكلاهما سورى ، وقد منعت الجريدة الأخيرة من الصدور بعد ثلاث سنوات بسبب دعايتها للباب العالى (٦١) ٠

وعلى ذلك فقد بات من المؤكد أن الصحافة العربية غير الحكومية فى مصر قد انشأها المصريون ٠ وبذلك يصبح رأى لويس شيخو ، الذى شاع بعده فى كل مكان ، والقائل بأن المهاجرين السوريين هم الذين انشأوا الصحافة المصرية (٦٢) ، رأيا لا أساس له من الصحة ٠

كان ظهور « **روضة الأخبار** » بداية مرحلة جديدة للصحافة غير الحكومية التى تأثرت بوجه خاص بانشاء « **الأهرام** » ، أكبر صحيفة فى العالم العربى فى ذلك الوقت ، فى ٥ أغسطس ١٨٧٦ (٦٣) ٠ وقد انشأ الصحيفة الأخوان بشارة وسليم تقلا وهما من أصل لبنانى ، « وقد أخذت الصحيفة على عاتقها نشر أخبار الأمم جملة وتفصيلا » ، فالصحافة هى « صوت الأمم » ، وهى صحيفة « سياسية ، علمية ، تجارية » ، تستعين بسائر المواهب وتمهد لاصدار سلسلة من المطبوعات من كل نوع ٠ ومنذ البداية ، كان هناك نوع من التحفظ تجاه السياسة البريطانية (٦٤) فى حين تعاطفت مع فرنسا (٦٥) ٠ وقد قام اسماعيل بالاشتراك فى عدة مئات من الصحيفة ، لكنه لم يقدم أية مساعدة مالية مباشرة (٦٦) ٠ وسرعان ما استطاعت الصحيفة بمستواها الجديد أن تكسب جمهورا واسعا من المثقفين والأعيان والموظفين (٦٧) ، وفى ٣ يناير ١٨٨١ ، تحولت « **الأهرام** » الى « صحيفة يومية سياسية تجارية أدبية وفكاهية » ٠ لكن

---

(٦١) ١٠ عبده : **تطور الصحافة** ، ٦٦ ، ٢٥٩ ، ويتولى أديب مروه الدفاع عن سليم الحموى فى كتابه : **الصحافة العربية** ، ١٩٣ ٠

(٦٢) لويس شيخو : **الآداب العربية فى القرن التاسع عشر** ، بيروت ، ١٩٢٤ ، جـ٢ : ٦٧ وما بعدها ٠ وحول مشكلة المؤثرات الأجنبية انظر المعالجة السريعة التى قدمها :
Rouchdi Fakkar : L'influence française sur la formation de la presse littéraire en Egypte au XIXe siècle, thèse d'Université, ex. polyc., Paris, 1956.

(٦٣) وقد سبق أن ظهرت طبعة أولية بعنوان « **مثال الأهرام** » فى ١٥ يوليو ١٨٧٦ ابراهيم عبده : **جريدة « الأهرام »** ، ٢٨ ــ ٣٠) ٠

(٦٤) Martin Hartmann : The arabic press of Egypt, London, 1899, 53.

(٦٥) H. Munier : Presse Eg., 6

(٦٦) انظر : **الأهرام** ، ١٠ اغسطس ١٨٧٧ حول التغيرات المفاجئة فى السياسة البريطانية تجاه الحرب الروسية التركية ، ابراهيم عبده : **جريدة « الأهرام »** ، ٣٧ ــ ٣٨ ٠

(٦٧) M. Sabry : Ismâ'îl et ingérence, 110.

اية سياسة ؟ لقد تتابعت منذ ١٨٧٦ التحذيرات والتنبيهات بالامتثال للنظام صحيح · أن «**الأهرام**» كانت تستقى أخبارها الداخلية من الصحافة الحكومية وغير الحكومية ، الا أنه لم يخف على اسماعيل الولاء الذى دأبت الصحيفة على اظهاره للباب العالى (٦٨) ، الذى كان يعارض سياسته الوطنية الهادفة الى الاستقلال · وابتداء من عام ١٨٧٨ نصبت « **الأهرام** » نفسها حاميا للنظام الديمقراطى وذلك بمجرد الاعتراف بمبدأ المسئولية الوزارية · فهاجمت التوجيه المالى من جانب « بلينيير » Blignières ، على الرغم من تعاطف الصحيفة مع فرنسا · وقامت فى عام ١٨٧٩ بحملة منظمة دفاعا عن الحريات أسفرت عن سجن سليم تقلا رغم حماية ولى العهد توفيق (٦٩) · ولا يفوتنا أن نذكر صحيفة أخرى معاصرة صدرت فى ٩ سبتمبر ١٨٧٦ باسم « **صدى الأهرام** » (٧٠) · وفى نفس الفترة ظهرت صحف أخرى على فترات متقطعة : « **شعاع الكواكب** » لسليم الحموى (١٨٧٦) ، وصحيفة نصف شهرية باسم « **المنارة** » أصدرتها « **الأهرام** » لمعالجة المسائل التجارية والصناعية والأخبار الطبية والكيماوية (٧١) » ·

لقد أدى الاعتداء على استقلال مصر خلال السنوات الأخيرة من حكم اسماعيل الى اصلاح للصحافة المصرية التى كانت قد بلغت مستوى متقدما نسبيا من التطور التكنيكى · وعندما وقعت فى الخارج مفاجأة الحرب الروسية التركية بين عامى ١٨٧٧ و ١٨٧٨ وانتهت لصالح الجيوش الروسية ، فان ذلك أثار موضوع اضمحلال الامبراطورية العثمانية ، كما زاد من الاهتمام بالسياسة الخارجية · ففى عام ١٨٧٧ ظهرت تباعا «**مرآة الأحوال**» و «**الوقت**» و «**حقيقة الأخبار**» وبصفة خاصة «**أبو نظارة**» لصاحبها يعقوب صنوع و « **الوطن** » لميخائيل عبد السيد و « **مصر** » لأديب اسحاق · وظهرت فى عام ١٨٧٨ عناوين أخرى مثل «**الاسكندرية**» و « **القاهرة الحرة** » و « **بستان الأخبار** » وبصفة خاصة « **التجارة** » لسليم النقاش وأديب اسحاق · وفى عام ١٨٧٩ ظهرت « **مصر القاهرة** » فى باريس والصحيفة الهامة « **مرآة الشرق** » لسليم عنحورى و « **الكوكب المصرى** » و « **الميمون** » (٧٢) · ويلاحظ بصفة عامة أن الصحف التى كان يملكها مهاجرون سوريون ولبنانيون ـ الذين وجدوا فى مصر ملجأ لهم ـ

---

(٦٨) **الأهرام** فى ٢٩ نوفمبر و ٢٢ و ٢٨ ديسمبر ١٨٧٧ ، و ١١ يناير ١٨٧٨ ·

(٦٩) ا· عبده : **جريدة « الأهرام »** ، ١٢٥ ـ ١٤٠ ·

(٧٠) ا· عبده : **تطور الصحافة** ، ٧١ ، هامش ٣ ، ٢٥٩ ·

(٧١) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٧١ ، هامش ٣ ، ٢٥٩ ·

(٧٢) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ٢٥٩ ؛ ا· مروة : **الصحافة العربية** ، ١٩٤ ·

كانت تميل نحو تركيا ، ونخص بالذكر « **الأهرام** » و « **مصر** » (٧٣) ٠ وكانت « **الأهرام** » تصحب كتاباتها بحملة حقيقية ضد الاستبداد الشرقى ، فى الوقت الذى منح فيه اسماعيل مصر نظاما برلمانيا ٠ أما الحملة المضادة للامبراطورية العثمانية والمناصرة للروس فكانت تشنها صحيفة «**الوطن**» ، وكان ميخائيل عبد السيد ، الذى يحلو للبعض التركيز فقط على كونه قبطيا ، يقود حملة ضد الباب العالى باسم مصر ـ كان اسماعيل الذى أعلن استعداده للحرب يشترط لذلك قدرة مصر الاقتصادية ـ وباسم الاضطهاد الذى كانت تمارسه تركيا ضد الأفكار التحررية والتنظيمات الممثلة لها : ولأول مرة تقوم صحيفة غير حكومية بالدفاع عن وطنية مصر فى المجال العالمى (٧٤) ٠

كانت صحف يعقوب صنوع ـ فى القاهرة ثم فى باريس ـ والصحف التى قامت على أثر حركة جمال الدين الأفغانى فى أواخر عهد اسماعيل ، تركز على النقد الاجتماعى ٠ وكانت صحيفة « **أبو نظارة زرقاء** » ، أولى صحف يعقوب صنوع ، والمؤسسة عام ١٨٧٧ تصدر فى صورة فكاهية على طريقة Canard Enchainé ٠ وكانت تقدم مشاهد تعرض مختلف الأنماط الاجتماعية فى مصر فى ذلك العصر وتشهر بعيوبهم ومحاباتهم لمعارفهم وفسادهم ٠ وكان النقد فى الأعداد الثلاثة الأولى منصبا على الماضى : فكانت الشخصيات المعرض بها ترجع الى عدة قرون مضت ٠ وشرع ابتداء من العدد الرابع ينقد الخديوى نفسه : فبعد الثناء على التعليم والحملة على التعصب باسم الحرية ، كتب صنوع يقول :

فكشفت النقاب عن وجهى وهاجمت الخديو اسماعيل بشجاعة ، ذلك الحاكم الذى كان ينهب رعاياه بفرض الضرائب التى لا عداد لها ويقصم ظهورهم بالرسوم المجحفة .. وبينت حينئذ للمصريين أن الأوربيين عامة والفرنسيين خاصة هم أصدقاؤهم ، وأنهم يريدون أن يروهم سعداء ، وأن الدولة العربية الوحيدة التى تطمع فى مصر هى بريطانيا العظمى » ٠

وقد أنقذ حياته ما وجده من حماية من طائفة الماسونيين والدول

---

(٧٣) حول الأهرام انظر : ٠ا٠ عبده ، **تطور الصحافة** ، ٧٤ ـ ٧٧ ؛ ثم **اعلام** ، ١١٦ ـ ١١٨ ٠

(٧٤) وهو ما يؤكده بانصاف ابراهيم عبده فى **تطور الصحافة** ، ٧٥ ـ ٧٧ ، مقرظا ميخائيل عبد السيد ٠

الأوروبية ، ونفى من مصر فى ٢٠ يونيو ١٨٧٨ (٧٥) • واستهلت الحكومة الأوروبية (نوبار ـ «ريفرز ويلسون» ـ «بيلينير») عهدها بانذار رسمى للصحافة التى تتعرض بالنقد لتصرفات الحكومة الحالية بطريقة لا تتفق وحدود المهنـة (٧٦) • وكانت صحيفتا « **الوطن** » و « **التجارة** » تحملان على التدخل الأجنبى واسـتيلاء الدول الكبرى على أراضى مصر ، وكانت الصحافة الأوروبية فى مصر تقف من هذا التدخل موقف المجاملة ، وقد ساندت نفس هذه الصحافة مجلس شورى النواب ضد الوزراء الأوروبيين• وكتبت « **التجارة** » التى عطلت لمدة خمسة عشر يوما تقول : « نحن نعتقد أن حب الوطن دينا والمدافعة عنه جهادا» ، ولم تستطيع حكومة نوبار مواجهة الوضع واضطرت الى الاستقالة (٧٧) • وأجبرت « **الوطن** » الى التوقف عن الصدور في عام ١٨٧٩ بسبب عدم توفر الامكانيات ، ومع ذلك ، ففى أحد أعدادها الأخيرة رحبت بعزل اسماعيل لكنها رأت فى ذلك هدفا تحقق دون معرفة الفاعل • وظلت « **التجارة** » وحدهـا فى الميـدان ، فى حين كانت « **الأهرام** » تنهال بالهجوم على الخديوى ، مطمئنة لحماية توفيق ، وكانت «**مرآة الشرق**» تبحث عن أسباب الأزمة المصرية فى فساد العادات الاجتماعية لا فى العدوان الاستعمارى ـ وهى بذلك وضعت تقليدا سوف يمتد فيما بعد من الأصولية الاسلامية حتى الاخوان المسلمين (٧٨) •

لقد حققت الصحافة الأوروبية فى مصر ـ سواء أكانت صحافة الجاليات الأجنبية أو الصحافة الوطنية ـ انطلاقة كبرى من عام ١٨٦٣ الى ١٨٧٩ • لقد كانت صحيفة La Réforme السكندرية هى التى تقود المعركة ضد رغبة الخديوى فى الاستقلال• وهذه هى أهم الصحف الأجنبية بترتيب تاريخ صدورها L'Egypte (١٨٦٣) L'Avenire d'Egitto (١٨٦٥) ، Le Nil (١٨٦٦) Le Journal du Canal, Moniteur de la Publicité en Egypte (١٨٦٧) ، (١٨٦٧) ، (١٨٧٠) Le Progrés Egyptien (١٨٦٨) L'Impartial d'Egypte و Les Nouvelles du Jour (١٨٦٩) ، : The Egyptian Messenger

---

(٧٥) فيليب دى طرازى :**تاريخ الصحافة** ، ج ٢ : ٢٨١ ـ ٢٨٤ ، ا• عبده : **الصحفى الثائر** ، كتاب روز اليوسف ، العدد ٨ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ٢٥ ـ ٥٢
Irene L. Gendzier : The practical visions of Ya'qub Sanu', Harvard U.P. Cambridge, Mass., 1966, 49-65.
وحول عمل يعقوب صنوع بعد هذا التاريخ انظر : القسم الثالث من الفصل الرابع والقسمان الثانى والثالث من الفصل الخامس •

(٧٦) **التجارة** ، ٨ يناير ، ١٨٧٩ ••

(٧٧) ا• عبده : **تطور الصحافة** •• ، ٨٢ ـ ٨٩ •

(٧٨) حول « **مرآة الشرق** » ، أنظر ، ا• عبده : **تطور الصحافة** •• ، ٩٦ ـ ٩٩ •

Phare d'Alexandrie, l'Indépendant d'Egypte, Il corriere (١٨٧١)
L'Avenir Commercial de Port Said (١٨٧٢) Egizians,
Hymeéyasia Nea, Le Sport , La Finanza
L'Economiste Le Stafille ، (١٨٧٣) Kaiéon La Finanza
Le Moniteur Egyptien, Courrier de Port Said, Le Commerce, La
Farfalla (١٨٧٤) L'Echo d'Orient, Le Phare d'Alexandrie
Bulletin Financier de la Bourse و Gazette des Tribunaux و
، (١٨٧٥) Bulletin de la Societé Khédiviale de Géographie و
La Gazette des Tribunaux و Le Droit و Lloyd Egiziano و
Masr, Kelepux , La Jurisprudence La Réforme, و Bulletin
de Législation et de Jurisprudence ، (١٨٧٦) L'Egypte Judiciaire
Messagero Egiziano ، (١٨٧٧) Masr Journal officiel Mansourah
٠ (٧٩) (١٨٧٨) Mausourah و L'Impaéziale و L'Imparziale.

هكذا انتهى جيلان من الصحافة المصرية مع عزل اسـماعيل ٠ فى بداية المنحنى صحافة رسمية ، بل ادارية ، تواكب مسيرة الدولة الثقافية والتربويـة والاعلاميـة ٠ وبعد فترة من الاضـمحلال الوطنى ، اتخذت الصحافة شكلها الحديث ٠ أولا ، الصحافة الحكومية التى سـايرت فى تنوعها عملية تحديث الدولة ٠ ثم الصحافة الخاصة ، التى انقسمت الى صحافة وطنية وصحافة الصفوة المنعطفة نحو أوروبا ــ وكلتاهما ، على حد تعبير اسماعيل نفسه ، لسان حال لحركة وقضية للمصريين كافة (٨٠) ــ لقد كانت تلك الصحافة ذات طابع سياسى الى حد بعيد ، الا أنها كانت تخصص أكبر جزء من مساحتها للآداب والعلوم والاقتصاد والفنون وللوافد الحضارى من العصر الصناعى فى أوروبا ، وفى حدود أضيق ، فى أمريكا الشمالية ٠ وأخيرا ، صحافة أوروبية تناصر التغلغل الاقتصادى والسياسى

F. Amici : Essai de statistique générale de l'Egypte, V. Penasson, Alexandrie, ii, 1879, 260-1; (٧٩)

وتختلف هذه القائمة اختلافا طفيفا عن القائمة التى قدمها ابراهيم عبده فى **تطور الصحافة** ٠٠ ، ٣١٠ ــ ٣١١ ، وهى أكثر اكتمالا ، وتشمل القائمة التى أعددناها جميع أسماء الصحف التى ذكرها هذان المؤلفان مع مواءمتها وفقا لما ذكره F. Amici ، وحول الصحف الاوروبية فى الاسكندرية انظر :

François-Lavernay : Guide-annuaire d'Egypte, année 1872-73, Delbos-Demouret, Le Caire, s.d., 182.

(٨٠) نقلا عن ابراهيم عبده : تطور الصحافة ، ٩١ ٠

للدول الكبرى فى مصر وتلعب دورا خطيرا فى المجالين الاقتصادى والقضائى بوجه خاص ٠

أما الصحافة المصرية ، فقد ظل المورخون السوريون ـ اللبنانيون الأوائل زمنا طويلا يوهمون الناس أنها وليدة مبادرات سورية لبنانية ٠ ولقد أوضحنا ، ووفقا لما أثبته ابراهيم عبده وعبد اللطيف حمزة ، أن ذلك ليس حقيقيا ٠ فقد كانت البادرة مصرية سواء فى مجال الصحافة الحكومية (محمد على ، الطهطاوى ، على مبارك ، اسماعيل) أو الخاصة (عبد الله أبو السعود ، عثمان جلال ، ابراهيم المويلحى) ٠ ولا يعنى ذلك التقليل من شأن ما قام به الصحفيون السوريون ـ اللبنانيون ، ابتداء من « **الأهرام** » ، فقد كان دورهم عظيما مثمرا ٠ ولكن الأهم هو أن مصر وحدها ، من بين سائر بلدان الشرق الاسلامى ، هى التى أتاحت قيام نهضة قومية وثقافية بمعنى الكلمة فى مواجهة الاستبداد الغاشم الذى كان يتحكم فى مصير الامبراطورية العثمانية ٠

خاتمـــــة

ان اقامة البنية الأساسية الوطنية الثقافية لمصر الحديثة يمثل عنصرا رئيسيا فى هذه النهضة نفسها · كما يمثل عنصرا رئيســيا فى النهضة العامة للحضارة العربية فى العصر الحديث والمعاصر ·

كان العصر عصر ظلمــات ، عصر اضـــمحلال الشرق ، وبالـذات الامبراطورية العثمانية ، ولكى يتبلور فكر معين حتى يبلغ حدا أدنى من التماسك ، وبالتالى يصل الى حد الوساطة الفعالة ، ينبغى أن تتوفر له شروط مادية بل وطبيعية ، قاعدة راسخة نسبيا على المستوى المؤسسى ، وكذا الاستمرار الزمنى ·

الدولة المصرية ، أولا وقبل كل شىء · لقد قلبت ارادة محمد على الآية كما يقولون : فلم يكن الرحالة والمبشرون هم الذين مهدوا للتغيير فى أرض مصر ، بل قد جاء ذلك ، وبصورة أساسية ، من أفواج المبعوثين من شـــباب مصر الذين أوفدوا الى قلب أوروبا ، ونهلوا من العلوم والأفكار الحديثة · كانت البعثات هى الجهاز الرئيسى الذى استخدمته مصر بايقاع سريع لكى تتجمع على أرض الوطن ثمار الثـورة الصـــناعية أى العـلم والتكنولوجيا ، وكذلك الأفكار السـياســية والاجتماعية وليدة الثورات البرجوازية الأوروبية ، وأسلوب الحياة وانماط السلوك الخاصة بالمجتمعات الحديثة الرأسمالية والليبرالية فى أوربا القرن التاسع عشر · وقد سبقت فرنســا بمراحل جميع الدول الأوروبية الأخرى فى ممارســـة التـأثير الحاسم ·

قام أعضاء البعثات الدراسية على اثر عودتهم الى مصر وتحت رقابة الدولة بعمل مثمر ، أولا فى مجال الترجمة التى روت عقول الصفوة الجديدة من الموظفين والضباط والأعيان وكبار رجال الدولة · قد تكون هذه الصفوة حلقة مغلقة ــ لكن هل كان من الممكن أن يكون الوضع غير ذلك فى مرحلة البدء تلك ؟ وفضلا عن ذلك فلم يكن الأمر قاصرا على المعـــارف العلمية والتكنيكية الضرورية للجيش والدولة وانما كان يشمل كذلك تقديم الأفكار والنظريات الجديدة · وكان ذلك نقطة انطلاق للازدهار الذى يشـــمل

الأعمال الأدبية والعلمية والعلوم الانسانية على عهد اسماعيل بوجه خاص ٠ وكان رفاعه الطهطاوى يمهد هذا الطريق المحفور فى الصخر ، يستنهض الهمم ، ينسق المجهودات ، يزيل العقبات ، ليبنى فى شـــجاعة واقدام ٠

كان دور البعثات هو دور الطليعة ، ولم يكن فى مقدورها أن تكون وحدها أساس النظام التربوى على مستوى البلاد بأسرها لتلبى احتياجاتها ٠ ان المجهود يبدو لنا هائلا ضخما ، بمقارنته بالنكوص وبالعمل الذى قام بل المحتل البريطانى (أنظر الفصل العاشر من الباب الخامس) ٠ كان هناك تباين بين نمطى التعليم التقليدى (الكلاسيكى) والحديث : التراث المصرى من جهة ، ومتطلبات الدولة العسكرية والنهضة الثقافية من جهة أخرى ٠ ان شبكة المدارس العليا الخاصة ــ الفريدة فى العالم غير الغربى فى ذلك العصر ــ التى كانت تميز عصر محمد على أضيف اليها نظام تربوى وطنى قومى بمعنى الكلمة وذلك بفضل على مبارك ، بعد فترة توقف ســـمحت للبعثات التبشيرية الأوروبية والأمريكية بتثبيت أقدامها فى فترة التسلل الاستعمارى ٠ ولقد أسفر مجمل هذه المبادرات وهذا التفكير ، خلال نصف قرن ، عن نظام أصيل فى التربية الوطنية القوميـــة والحديثـــة ، وعن المكونات الأساسية لجامعة حقه ، وعن شـــبكة متنوعة من المؤســـســـات العلمية ، وعن منهج تربوى يقـــوم على أساس القيم الانسانية والعلمية والعقلية المعاصرة ٠ ولقد اعترضت الطريق فى هذا المجال الأخير ، بطبيعة الحال ، الصعوبات البالغة ، فتغيير المؤسسات أيسر من اعادة تشـــكيل العقول ٠

ان تلاحم البعثات الدراسية وصعود الصفوة الجديـــدة للســـلطة وتحريك أوساط واســـعة خصوصا فى المدن ، بفضل العمـــل السياسى والعسكرى الذى قامت به الدولة ، أدى الى قيام حركة قوية فى الصحافة والنشر حيث سمح تشجيع الدولة ورقابتها أيضا بوجود قدر من المبادرات الخاصة ٠

وجدير بالذكر هنا أن مصرــوحدها من بين سائر ولايات الامبراطورية العثمـــانية ــ هى التى قدمت للمثقفين والمفكرين والكتاب والصـــحفيين المضطهدين من الباب العالى ملجأ يلوذون به ، ملجأ يتميز عما ســـواه بشرقيته واسلامه ، كما أنه لا ينفصل انفصالا عضويا عن مسيرة أوروبا الحديثة ٠ ملجأ لا يقف عند هذا الحـــد بل يعتبر كذلك مكانا للقـــاءات والاجتماعات ، للعمل والابداع الفكرين ، فى الدولة العصرية الوحيدة فى الشرق التى تملك بنية أساسية مادية وتكنيكية واقتصادية متقدمة ٠ ان الصراع الذى خاضته مصر ، منذ الحملة الفرنسية ومجىء محمد على لاقامة

دولة حديثة ، وقهر أربعة قرون من التخلف ، وتأسيس اقتصاد متقدم ، يعتمد على جيش قوى مقاتل ، هذا الصراع الذى استأنفه اسماعيل فى ظل ظروف شاقة للغاية ، قد أسفر عن غليان فى الأفكار والحركات الاجتماعية والسياسية : فعاشت الصحافة العربية ــ المصرية واللبنانية السورية ، الرسمية منها والخاصة ــ فى بيئة ممتازة ، رافعة من شأن العاطفة الوطنية وملائمة للتجديد الثقافى ومزج الأفكار .

وهنا يكمن ، فى رأينا ــ أكثر مما يكمن فى كون مصر ملجأ مختارا فى ذلك العصر فى قلب الامبراطورية العثمانية ــ هنا يكمن الاسهام الأساسى لمصر ، دولة وأمة ، فى سبيل تطوير التعليم والصحافة والنشر ، والاشعاع فى العالم العربى والاسلامى فى ذلك الوقت ، خلال تلك المرحلة التى لاحت فيما بعد وكأنها مرحلة الحمل بالثورة والنهضة الوطنيتين .

الباب الثالث

العناصر التكوينية لأيديولوجية الحركة الوطنية

(١٨٠٥-١٨٧٩)

● الفصل الخامس

هيمنة الدولة
والـ « سانسيمونية »

كانت الـدولة هي نقطة الانطلاق في نهضة مصر الوطنية · وقـد تكونت هذه الدولة تبعا لايقاعات متباينة في السرعة ، على عهد محمد على ثم على عهد اسماعيل · وقد قمنا حتى الآن بتحليل دور الدولة ومكانتها في مجالات الجيش والادارة والاقتصاد والثقافة كما أوضحنا التأثير الخارجي في مختلف مظاهره · ويستحق أحد هــذه المظاهر شــيئا من التأمل ، خصوصا وأن العديد من الباحثين قد نسبوا اليه أهم ما في الدولة المصرية الحديثة : ونقصد « السانسيمونية » ·

الأحداث أولا وقبل كل شيء · في ١٨ مارس و ٢٣ سبتمبر ١٨٣٨ سافرت الى مصر مجموعتان من « الســانســيمونيين » بقيادة « بارو » Barrault و « فيلسيان دافيد » Félicien David ثم «انفنتان Enfantin نفسه (١) · فلماذا وقع الاختيار على مصر ؟ اننا في أعقاب أزمة ١٨٣٠ ، التي سوف تسفر عن القطيعة بين « الأبوين » الأب « بازار » Bazard والأب « انفنتان » · وبعد أن تم القبض مرتين على هذا الأخير ، ظهر في « مينيلمونتان » Ménilmontant بصحبة أربعين حواريا · وبمجرد خروجه من سانت بيلاجي Sainte-Pélagie بدأ التســاؤل عن الطريقة التي يمكن بها تنفيذ وصية « سان سيمون » Saint-Simon ، وبعبارة أخرى : أين ، وكيف يمكن اقامة دولة صناعية تستنير بالعلم الحديث ، ويتعاون الجميع فيها على تلافي الحروب وتعمل ارســتقراطية الجـدارة للصالح العام بالانتاج المفيد ؟ وقد أضاف « انفنتان » الى هذه الأهداف

---

(١) Sébastien Charléty : Essai sur l'histoire du Saint--Simansme (1825-1864), Paul Hartmann, Paris, 1931, 220.

أفكاره عن «رد اعتبار الجسد» بواسطة شيوع النساء والاتجاه نحو الكهنوتية، الأمر الذى فصله فيما بعد عن « أوجست كونت » Auguste Comte وبحثه عن « الأم » التى تتمكن من تحقيق الاتحاد بين الشرق والغرب ، بزواج « الأب » « إنفنتان » والأم . والواقع أن «انفنتان » لم يكن فى حاجة الى اعمال خياله أكثر من اللازم : فالمثال قريب منه متمثلا فى الحملة الفرنسية وبعثتها العلمية التى ستصبح بعثة « انفنتان » تكملة واستمرارا لها فهى « حملة فرنسا الفكرية الثانية » (٢) . وهى فكرية رسمية طالما أن « سان سيمون » ومن بعده « انفنتان » قد حصلا فى هذه المهمة على المساعدة الرســـمية من الملك « لويس فيليب » وحكومته وممثليهما فى مصر . وهتف « انفنتان » قائلا : « السويس هى محور حياتنا العملية ، هناك سنقوم بالعمل الذى ينتظره العالم ليعترف بأننا رجال (٣) » مادام يتعلق بتحقيق الفكرة الحبيبة الى « سان سيمون » ، فكرة الاتصال الكبير عبر المحيطات (٤) .

وابحر هؤلاء المبشرون (الرسل الجدد) الى مصر فى الفترة الحافلة التى تقع بين اقامة الادارة الحديثة فى ١٨٢٦ ـ ١٨٢٩ وبين ضربة التعجيز فى ١٨٤٠ . ولم يكن لدعاوى الكولونيل « سيف » (ســـليمان باشـــا) والقنصل « مينو » صدى كبير عند محمد على : فلم يتم شق برزخ السويس ذلك لأن الحكومة كانت منصرفة الى اقامة قناطر الدلتا ، ولم يكن الوالى راغبا ، كما رأينا ، فى تقديم الفرصة للدول الكبرى لتثبيت نفوذها فى أرض مصر . فما كان من « انفنتان » الا أن أثار ذكرى «مونج» و «كارنو» وكلاهما نصير متحمس للقناطر ، لكى يقنع تلاميذه بأن الأمر يقتضى ايجاد بديل مفيد للسويس (٥) . وسافر عـــدد معين من التلاميـــذ الى القناطر بصحبة مجموعة من «فتيات القناطر » بقيادة «كلورند روجيه» وسرعان

---

(٢) J.M. Carré : Voyageurs et écrivains fr., i, ch. v : 258.

(٣) OEuvres de Saint-Simon et d'Enfantin, ix : 64.

(٤) أنظر رسالة جان دوترى بتاريخ ٧ يونيو ١٩٥٦ الى محمد طلعت عيسى ، التى اوردها فى رسالته : « لم ترد فكرة شق قناة السويس ضمن كتابات سان سيمون المنشورة أو غير المنشورة » .

ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن سان سيمون قد شغل فى محادثاته مسالة شق القنوات التى توجد نســـخ منها عندى ، التى تحقق الاتصال عبر المحيطات . » (**اتباع سان‌سيمون ، فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر** ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ٩٧ ، هامش ١) .

(٥) Oeuvres, ix : 207.

ما لحقت بها «سوازن فوالكان » (٦) ۰ وكان الجميع يخضعون لاشراف « لينان دى بيلفون » Linant de Bellefonds .

ولم تفل الشدائد من عزم « انفنتان » ، وحاول أن يتعجل الأمور : فتحدث عن سدين جديدين فى دمياط (٣٦٢ متر) ورشيد (٤٧٠ متر) ، وطلب من الجنرال سليمان بك فى ١٣ يونيه ١٨٣٤ تشكيل « فرقة نموذجية من المهندسين » فى الجيش لتحقيق « عمل ثلاثى : القيام بأعمال الشرطة وتوجيه العمال والتدريب العسكرى » ، ثم دافع بعد ذلك ، فى تقرير رفعه الى « لينان » ، اضفاء الطابع العسكرى على أعمال السد عن طريق استخدام « ١٨ فرقة من العمال، تضم كل منها ألف رجل (٧) » ۰

وبدأ العمل فى عام ١٨٣٤ ، وسرعان ما تحول الحماس فى البداية الى نوع من القنوط بسبب الطاعون الذى عصف بآلاف الرجال ، وسوء الادارة المالية ، وبعد عشر سنوات لم تكن القناطر قد أنجزت بعد مما أثار سخط محمد على (٨) ۰ وقد كان لهذه المشكلات آثارها على «العائلة» : فانصرف «انفنتان» الى المجون ، الأمر الذى صرف عنه كثيرا من «تلاميذه» ، وبوجه خاص « لامبير » Lambert مدير مدرسة الهندسة العسكرية بالعباسية (٩) ، أما « هوار » « والكسندر » و « جوندريه » و «لامى » و « دومولار » و « بوسكو ذى دومباسكيه » و « دلون » « وماريشال » فقد ماتوا بالطاعون (١٠) ، وانصرف « اوليفييه» الى الزراعة ، واعتنق «اوربان» الاسلام (١١) ۰ وفى عام ١٨٤٥ ، عرض « انفنتان » قائمة بخمسة وخمسين

---

(٦) Henri René d'Allemagne : Les Saints-Simoniens 1827-1837, Grund, Paris, 1930, ch. xii, 398-438 (414); وكذا مذكرات S Voilquin : Souvenir d'une fille du peuple, ou le Saint-Simonisme en Egypte, Paris, 1886.

(٧) Documents de l'Arsenal, 7618, fo 54, et 7827, H.R. d'Allemagne : Saints-Simoniens, 408-10.

(٨) Loiis Bréhier : L'Egypte de 1798 à 1900, 113-4. ، عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على** ، ٥٧٩ ــ ٥٨٢ ۰

(٩) م۰ ط۰ عيسى : **اتباع سان سيمون** ، ١٠٥ ــ ١٠٦ ، وهو يستشهد بفقرة دالة من رسالة بعثها «انفنتان» الى «أوربان» مؤرخة ١١ مارس ١٨٣٥ : « الله كريم ! وداعا بعض الوقت أيتها الأفكار المتعبة وسوف استمتع وارى البلدان والهو مع البربرية والبدوية ، والزنجية والحبشية » ۰

(١٠) S. Charléty : Essai sur hist. Saint-Simonisme, 232.

(١١) م۰ط۰ عيسى : **اتباع ساسيمون** ، ١٠٦ ، هامش ١ ۰

تليمذا جاءوا الى مصر أغلبهم من المهندسين والأطباء والتجار والصحفيين والكتاب (١٢) ٠

وغادر «انفنتان» مصر نهائيا فى ٣٠ أكتوبر ١٨٣٦ تاركا وراءه «برونو» ، قائد حرس الوالى ، «ولامبير» مدير مدرسة المدفعية بطره ، «وأوربان» مدير مدرسة الهندسة العسكرية ببولاق ، «ولينان» كبير مهندسى الطرق والكبارى ، «وبيرون» Perron مدير مدرسة الطب (١٣) ٠ ومع أن «الأب كان يعلم أن مشروع السويس مشروع فاشل ، فانه شكل فى ٢٧ نوفمبر ١٨٤٧ «جمعية الدراسات من أجل قناة السويس» ، وكان انفنتان و«ديفور» يمثلان فرنسا فيها. وقد تسلم «فيرديناند دى ليسبس» من «انفنتان» «وآرل» جميع الوثائق الضرورية للدفاع عن مشروع القناة لدى صديقه سعيد ٠ ومع ذلك ، بمجرد أن انتزع دىليسبس الامتياز من الوالى الجديد بادر بابعاد «السانسيمونيين» من الشركة الجديدة ٠ ولم يجد الالتماس الذى رفعه «انفنتان» الى نابليون الثالث فى رسالته بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٨٥ صدى ، فلم يعد الوقت مناسبا لكى تلقى الأوهام الاشتراكية صدى لها فى باريس ٠ وتم شق القناة وتكلف ذلك تضحيات

---

(١٢) القائمة فى
OEuvres, xxix et xxx; S. Charléty : Essai sur hist,Saint-Simonisme, 299 ; J.-M. Carré : Voyageurs et écrivains franc., i : 271-2. المهندسون : Enfantin, Lambert, Bruneau, Fournel, Prax Tourneux, Decharmes; أطباء : Fourcade, Rigaud, Charpin, Perron, Cogniat, Dilon, Lachèze, Jallat, Labour; صحافيون وكتاب Martin, Be nard, Holstein, Reboul Toche, Genevois. Sonneral; Barrault, Urbain, Duguet, Granal, A. Collin, Massol, Maréchal; فناون ومصورون وموسيقيون : Achard, Roger, Alric, Jamin; مهندسون ; رجال زراعة : Olivier, Busco de Dombasle, A. Petit ; خبراء معادن Hoart, Linant de Bellefonds ; كيميائيان Gondrat, Javary; مهندس معمارى ; Yvon : علماء رياضة ;Lefèvre, Dumolard: دبلوماسيون ;Noel : مستشرق Machereau : رسام ; Lamy :

آخرون ; Alexandre ميكانيكى ; Drouot : مهندس مناجم ; Combes; Plichon, Granal jeune, Davesus, Ferrand, F. David, Tamisier.

(١٣) J.-M. Carré : Ibid., i : 268 G. Weil : L'école Saint-Simonieme, sno histoire son influenci jusqu'a nos jours, F. Alcan, Paris, 1896, 171 sqq.; Marcel Emerit : Les Saints Simoniens en Algérie, Les Belles Lettres, Paris, 1941, 51-6.

غير أن محمد طلعت عيسى يحدد تاريخ مغادرة «انفنتان» لمصر باعتباره تم فى ٢٤ فبراير ١٨٤٨ ! ل اتباع سانسمون ، ١٠٩ ـ ١١٠

J. Marlowe : Suez Canal, 44-6, 51-4, 63, 67-7;

هائلة ، بشريةومالية ، وفتح باب مصر للسيطرة الأجنبية ، وكان مصير مبادىء العمل الأخلاقية ، كما كان يراها « سان سيمون » ، السحق والابادة بين الأصابع الحديدية المجردة من الرحمة ، أصابع الرأسمالية العالمية « والمفترسين الجدد » (١٤) ٠

ومع ذلك فان ما انجز من العمل على المستوى الاقتصادى كان هائلا ٠ فقد تقاسم أعضاء « العائلة » المهام بطريقة تجعلهم « يسيطرون على جميع وسائل الانتاج فى مصر » : فقام « لامبير » باقناع الوالى بضرورة انشاء مدرسة للهندسة العسكرية ، وتولى « تورنو » أمر السكك الحديدية ، وأشرف « ديشارم » على الطرق والكبارى ، « ولوفيفر » اختص بالتنقيب عن المعادن ، وقام لامى بشق نفق شبرا ، واختص «جافارى » « وجونديه » بالصناعات الكيماوية الوليدة ، أما « بوسكودى دومباسل » فقد انشأ مزرعة نموذجية فى شبرا ، وحاول « اوليفييه » تحسين وسائل الرى ، وقام « روجيه » ، وكان مهتما بتحسين عائد المصانع ، بانشاء أول نواة للموسيقى العسكرية بمدرسة المدفعية بطرة ، وقام « ماشيرو » وأشار و « ألريك » برسم عدد من الوحات الواقعية بنفس الأسلوب ، وأخيرا قام التجار ـ خاصة «بيرنار» و « فوشيه » ـ بنشاط كبير (١٥) ٠ وقد أنشأ « السانسيمونيين » ٢٩ مصنعا خلال عام ١٨٣٧ وحده (١٦) ٠

---

(١٤) حول تفاصيل هذه الأبعاد انظر :
Le percement de l'Isthme de Suez, Enfantin et F. de Lesseps, Paris, 1869;

والرسالة التى وجهها «انفنتان» الى الامبراطور بمثابة قائمة اتهام : « لقد عمل «ديليسبس» على تأخير المسالة عشر سنوات ، وأعادها الى الوضع الذى كانت عليه وقت أن رفقت بها فى ١٨٤٥ الى جمعية الدراسات التى أنشأناها » ، ورسالته الى « مكيسيم دى كامب » هى صيحة ألم : « لقد كنت آمل ان تكون قناة السويس عملا من أعمال السان سيمونيين وتحمل اسمنا ٠ لقد كنت أقدر أن جميع أهلى الذين لازالوا على قيد الحياة ، سوف ينالون مايعوضهم عن التضحيات التى لم يتوانوا عن تقديمها للعقيدة الجديدة ، وما يؤلنى أن اقبع وأتحول الى دور المتفرج » ، الا أن « انفنتان » ، الشهم ، يشكرُ « ديلسبس » عند افتتاح القناة ويباركه (Maxime du Camp : Souvenirs littéraires, Paris, ii : 103-4).

ويركز شارل بلان Charles Blani فى كتابه
Voyage de la Haute-Egypte, Renouard, Paris, 1876.
على الأعمال التمهيدية التى تؤكد التساوى بين مستوى البحرين (ص ٣٣٤)

(١٥) Ch. Lambert : Papiers personnels, 7752/4
Oeuvres, x : 14, xxnx : 11, xxx : 52, 60.
نقلا عن محمد طلعت ٠ عيسى : اتباع سان سيمون ، ١٣٣ ـ ١٣٦

(١٦) R. Cattaui : Le règne de Mohammad-Ali d'après les Archives Russes en Egvpte, Société Royale de Géographie d'Egypte, Le Caire-Rome, 1931-36, ii : 381.

وقامت « عائلة » « ســان ســيمون » ـ فى مجال الثقافة ـ بنشر نظريات جديدة ، أصبح بعضها ذا فائدة عظيمة للحركة الفكرية القائمة ٠ فقد نادى كل من « ألريك » « وماشيرو » بمبدأ الفن للفن ، وركز الأخير على ضرورة اقامة مدارس للفنون الجميلة لتكوين الطلبة الموهوبين (١٧) ٠ وكانت كوكبة الأطباء متأثرة بمفهوم التضــامن الاجتماعى (١٨) ، وهى تعتبر ، بصورة ما ، رائدة للطب الاجتماعى الذى انتشر فى مصر بعد ذلك على الرغم من عدم وجود علاقة نسب بين الاثنين ٠ ويرى محمد طلعت عيسى أن الخطة كانت محدودة : فلا تعميم للتعليم العمومى ، بل تشجيع المدارس العليا التى تتولى تكوين طبقة خاصة من الموظفين وأنصار النظام ، كما لم يكن هناك أى تعليم مهنى قائم على تشجيع المواهب ، ولم يكن تنفيذ الأعمال الفنية بفضل مواهب أعضاء « العائلة » مصحوبا بتكوين جيل من الفنانين المصريين ، علما بأن مدرسة الرسم بالجيزة أنشئت طبقــا لمبدأ الحرية الفنية (١٩) ٠ ويدين محمد على لكل من «انفنتان» «ولامبير» بفكرة تكوين «المجلس الأعلى للتعليم العمومى» ، «واللجنة الاستشارية للعلوم والفنون» ، وهى همزة الوصل بين « معهد مصر » القديم الذى يعود الى عــام ١٧٩٩ و « المعهد المصرى » الذى أنشىء بعد ذلك برئاسة « جومار » (٢٠) ٠ ان الحاح « انفنتان » لجعل مدرسة المهندسخانة المحرك الرئيسى للاقتصاد المصرى الحديث (٢١) ، واهتمامه بتشكيل المجلس الأعلى للتعليم العمومى من الرجال « الأكثر استنارة والأكثر ارتباطا بفرنسا » أمثال حسين وكيانى ومختار وأرتين من بين آخرين (٢٢) ، تحملان طابع خريج مدرسة الهندسة Ecole Polytechnique حفيد فلاسفة القرن الثامن عشر الــذى اختــار مع رفاقه أن يأخذ على عاتقه احياء عبارة نابليون : « انما عن طريق مصر ينبغى أن تتلقى شعوب وسط أفريقيا النور والسعادة (٢٣) » ٠

---

(١٧) م٠ط٠ عيسى : **اتباع سان سيمون** ، ١٤٣

(١٨) Note manuscrite sur la médicine, Archives Saint-Simoniennes, 7827/34.
فى م٠ط٠ عيسى : **اتباع سان سيمون** ، ١٤٤

(١٩) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ١٤٥

(٢٠) J.-M. Carré : Voyageurs et écrivains franç., i : 269-70.

(٢١) رسالة « افنتان » الى « لينان » بتاريخ ١٩ مارس ١٨٣٤ : اعمل بأسرع ما يمكن على انشاء مدرسة الهندسة لكى تســـتوعب عددا هائلا من التلاميذ ، ونواتها متوفرة هنا ، وسوف تكون فى خلال عام واحد منجما منتجا ومستودعا لأدوات العمل »
(OEuvres, xxix : 122)

(٢٢) يتحدث « هيوراث رديون » عن « لجنة التعليم العمومى »
(Hist. educ., 185).

(٢٣) Ed. Driault : «La renaissance de l'Egypte, Napoléon», Rev. des Etudes Napoléoniennes, janv. 1925, 13.

بعد ذلك بقليل ، وجد « أوجست كونت » ، الذى ارتبط لفترة « بانفنتان » فى شخص شاب مصرى بمدرسة المهندسخانة وعضو أول بعثة ، اسمه محمد مظهر ، الشخص الذى كان يتمناه ليصبح المبشر لمذهب الفلسفة الوضعية فى مصر . فبعد أن احتك به طالبا لمدة عامين رآه مرة أخرى عام ١٨٤٣ بعد أن أصبح موظفا كبيرا ، وقدمه الى « جـون ستيوارت ميل » John Stuert Mill تقديما حارا . لقد وجدت « التربية العالمية » ، الحبيبة الى « كونت » ، فى مظهر باشا ، الذى شغل أرقى المناصب (٢٤) نصيرا عظيما فى أرض مصر .

والمطلوب الآن هو تحديد دقيق لطبيعة التأثير الذى مارسته « السانسيمونية » منذ محمد على حتى اسماعيل ، وبقدر الامكان ، تقدير مساهمتها فى النهضة المصرية .

طبقا للتفسير الحديث الذى أورده محمد طلعت عيسى ، فان « السانسيمونيين » نجحوا فى تضبيع المجتمع دون أن ينجحوا فى تحقيق مبدأ أساسى فى مذهبهم الاجتماعى وهو « عدم استغلال الانسان لأخيه الانسان ، وتعاون الجميع فى سبيل استغلال الانسان لمظاهر الطبيعة (٢٥) .

وتدعيما لفرضيته الأولى ، يصف الانجاز الضخم الذى حققه تلاميذ « انفنتان » فى مجال الصناعة . أما فرضيته الثانية ، وهى تدهش لأول وهلة — أفلسنا فى عصر الرأسمالية الصاعدة فى جميع أنحاء العالم ؟ — فانها تستند فى الحقيقة الى غرض مقصود .

والواقع أن رسالة الدكتور عيسى بكاملها تستهدف تمجيد عمل « السانسيمونيين » بقصد التهوين من عمل محمد على . ولقد أوضحنا من جانبنا ، وربما أكثر من غالبية الباحثين ، نصيب « السانسيمونيين » فى بناء الصرح الاقتصادى الذى قام به الوالى الأول . ويجب أن نضيف بعد ذلك أن محمد على أدرك أن الجانب الأعظم من هذا الانجاز الهائل انما هو من مجال سيادته — حيث اختلط ما هو للحاكم بما هو للدولة — وهو مجال تجاوزت ضخامته بفارق عظيم ، كما رأينا ، الاسهام المباشر لرفاق « انفنتان » . لقد كان الهدف هو تجهيز الجيش بكل متطلباته قبل أى شىء آخر ، لا تحقيق أحلام الاشتراكية الأولى الخيالية . ولتنفيذ ذلك لجأ

---

(٢٤) حول العمل العظيم الذى اضطلع به محمد مظهر باشا فى العهود المختلفة ، انظر عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على** ، ٥٤٦ — ٥٤٧ **وعصر اسماعيل** ، ج ١ : ١٤ ، ٢٤٤
(٢٥) **اتباع سان سيمون** ، ١٣٨ .

محمد على ، واسماعيل من بعده ، الى الخبراء الأجانب ، ويدل التشجيع الذى أولاه كل منهما للبعثات الدراسية فى أوروبا على مدى اهتمامها بالاشراف المباشر على الجهاز الذى سيتولى ادارة هذا المشروع العظيم المتشعب الجوانب ٠

وعلى ذلك ، فاذا كانت الدولة هى محور كل شىء فى مصر القرن التاسع عشر (٢٦) ، فمن الطبيعى أن يحرص مصلحون شجعان وواقعيون من أمثال « السانسيمونيين » بالعمل من خلالها لدفع عجلة المشروعات ٠ واذا كان محمد طلعت عيسى لا يغفر لهم تخليهم عن مبادئهم ومثلهم العليا ، فانما فعل ذلك باسم مثله العليا الشخصية : « ان سياسة التصنيع ، على أساس الغاء الملكية الفردية والحرمان من حق الوراثة ، قد عاقت تكوين المثل العليا فى المجتمع المصرى ، اذ وضعت نظامها على قاعدة تؤثر فى شخصية الفرد وعلى حوافز العمل لديه » ٠

وهو يحمل على الاحتكار الذى نفذه محمد على فى جميع المجالات ، من الأرض حتى المصنع مرورا بالتجارة ٠٠ الاحتكار — وليس ممارسة الاحتكار ، ليشير ضمنيا الى بناء الدولة ومجهود الجيش ، باسم فلسفة ليبرالية هى نفسها فلسفة قادة مصر حتى عام ١٩٥٧ (٢٧) ٠

أما رشدى فكار ، فى أطروحته الحديثة ، فيقدم التفسير انطلاقا من رؤية الأصولية الاسلامية فيقول : « ان أثر النشاط العملى الذى قام به الاتباع (لسان سيمون) فى البلاد لا ريب فيه ، ماداموا قد اسهموا باخلاص فى تطوير مصر خلال حكم محمد على » وعلى العكس ، فان أثرهم

---

(٢٦) وهو ما قد أوضحناه خلال الباب الأول من هذا الكتاب ٠ أنظر أيضا تقديرات
D.A. Cameron : Egypt in the nineteenth century or Mehemet Ali and his successors until the British occupation in 1882, Smith, Eldes and Co. London, 1898;

ويقول تير H. Thiers « يتعين أن تاتى بادرة التقدم فى مجال الفنون الصناعية ٠٠ من الحكومة ذاتها وذلك لبعض الوقت ٠٠ ، وهذا ما يفسر كيف أن تقريبا جميع الصناعات الكبيرة والمصانع ومعامل التكرير ، الخ ، تنتمى فى مصر الى الحكومة ٠ وهى بمثابة مدارس تقريبا » ٠
(L'Egypt eancienne et moderne à l'Exposition Unvierselle, Dramard-Baudy and Co. Paris, 1867, 136);

ويضيف تقرير اللجنة التى كلفتها الحكومة الفرنسية بدراسة مشروع الاصلاح القضائى فى ١٨٦٣ : « يشترك الوالى بصفته الشخصية فى جميع افرع الأنشطة الاجتماعية ٠ ويمتلك قطاعا كبيرا من الأرض يمارس عليها سيادته ٠ وهو الزارع والتاجر والصانع والبانى ٠ »
(Joseph Achkar : Le Khédivat d'Egypte, étude de droit politique. Impr. Firmin et Montane, Montpellier, 1912, 118-9);

(٢٧) اتباع سانسيمون ، ١٣ — ١٣٩ ٠ وكتب المقدمة الدكتور عبد القادر حاتم ٠

على الحركة الفكرية لا يكاد يذكر : فالصحافة التى تردد تعاليمهم كانت أجنبية ، خصوصا Le Moniteur égyptien عام ١٨٣٣ ، بمناسبة المحاضرات التعليمية المذهبية التى كان يلقيها « بارو » فى الاسكندرية • صحيح أن الطهطاوى وتلاميذه أطلعوا على الرسالة ، لكن الدور الذى قام به هؤلاء المثقفون المصريون الخلص كان محدودا للغاية ، فلم يتجاوز اطار الاصلاحات فى مجال التعليم العمومى الذى كانت الكلمة الأولى والأخيرة فيه لمحمد على دون أن يسمح له بالمساس بالتركيب الاقطاعى للمجتمع المصرى • وصحيح أن هـذه النخبة من المثقفين كانت على دراية بالأفكار التقدمية الكبرى وخصوصا السانسيمونية • لكنها فضلت أن تلزم الصمت انتظارا لعهد أفضل • ان أهم شىء بالنسبة لهذا الكاتب هو « صدى عذاب هذا الشعب المسالم ، الذى نطالعه فى كتابات رسل الحركة المصرية » ، بالقدر الذى يستطيع به هذا العذاب أن يخدم قضية السياسة الحديثة لمحمد على (٢٨) • ويصاحب وفرة الوقائع التى تم تجميعها تناقضات مرجعها تحليل تقريبى : فاذا كان السانسيمونيون قد حملوا على أكتافهم بناء الصرح الاقتصادى لدولة محمد على ، واسهموا فى خلق الفئات الجديدة ، ورسموا أفضل صورة للحياة فى ذلك العصر ، يصبح ممكنا التقليل من المجهود الوطنى ، أى مجهود الدولة والمثقفين • وذلك بلا ريب باسم انحيازهم للعصرية • ورفضهم جعل الاسلام محورا لأيديولوجيتهم (٢٩) • حينئذ يصبح « السانسيمونيون » ، بصورة ما ، أصحاب اليد الطولى فى سائر الجهود •

ويبدو لنا ، خلافا لذلك ، أنه يكفى « السانسيمونيون » أنهم فهموا الطابع الخاص ، أى خصوصية ، المجتمع المصرى ، تلك الخصوصية التى تتفق ومفهومهم عن الحكومية الثيوقراطية (الدينية) العلمية ، خصوصا على الصورة التى أعطاها اياها « أوجست كونت » فيما بعد • أن عملهم هام فى حد ذاته ، لكنه محدود : وأهم ما فيه هو اقامة مدرسة المهندسخانة بمعنى الكلمة عام ١٨٣٤ على نمط مثيلتها فى باريس ، تلك « المدرسة

---

(٢٨) Rouchdi Fakkar : Sociologie, socialisme et internationalisme prémarxistes, l'influence de Saint-Simon, Delachaux et Niestlé, Neuchâtel, 1968, 217-53.

(٢٩) « ان اللوحة الأمينة التى رسمها أتباع سيمون •• لا تمحو الروايات الزائفة فحسب وانما تقدم الدليل أيضا على أن التاريخ الحقيقى للشعب المصرى لم يكتب بعد • ومن لديه الجرأة على كتابته بحرية فى ظل ظروف مماثلة ؟ » (٢٥٣) • فما هو « التاريخ الحقيقى » ؟ ان المؤلف يتجاهل قرنا من الكتابة التاريخية بدءا من الطهطاوى الى حسين فوزى ومحمد أنيس وجمال حمدان مرورا بمدرسة شفيق غربال والرافعى ـ وجميعهم ـ حقا ، ورثة نزعة التحديث الوطنى الأصيل •

العسكرية الكبرى » (وفقا لقول « جومار ») ، والتى جعل منها على مبارك فيما بعد المحور الرئيسى للقاعـــدة التربوية فى مصر قبل الاحتلال ، ثم أصبحت ، رغم هذا الاحتلال ، أحد الأركان الرئيسية فى نهضة مصر فى القرن العشرين (٣٠) ٠ وجدير بالذكر أن القاهرة فى ذلك الوقت كانت مركزا لمدرســة المهندســخانة بمعنى الكلمة ، بعد برلين (١٧٩٩) وبراغ (١٨٠٦) ، وسان بطرسبرج (١٨٠٩) ، وجلاسجو (١٨٢٣) ، ـ أى أن القاهرة ، ســبقت الكثير من المدن الجامعيــة فى انجــلترا والولايات المتحدة (٣١) ، وكان هذا النوع من المدارس مجهولا تماما فى الامبراطورية العثمانية ، بل وفى اليابان حتى أواخر القرن التاسع عشر (٣٢) ٠ ومع ذلك فان المؤرخ « ارمتياج » لا يذكر كلمة عنها ٠ وفى هــذا الالتقاء بين أســلوب هيمنــة الدولة فى مصر وبين حكومة التكنوقراطيين ذات النزعة الاشتراكية عند «السانسيمونيين» يكمن اسهامهم الذى سيؤدى الى ازدهار الفترة اللاحقة من تاريخ مصر كأعظم ما يكون الازدهار ، ولقد لاحت من جديد ملامح هذا الامتزاج أو هذا الاتحاد الحيوى بين أسلوب هيمنة الدولة والاشتراكية وهو ما نجده فى أجلى صورة منذ عام ١٩٦١ (٣٣) ٠

لكن هناك مظهرا آخر لتأثير « السانســيمونيين » فى مصر ، وهو مظهر أقرب الى النوع الجمهورى وان لم يكن هو المظهر الاشتراكى ٠ ففى

---

(٣٠) حول تاريخ هذه المدرسة انظر : ا٠ سامى : **تقويم مصر** : جـ٢ : ٣٨٠ ـ ٤٢٦ ، س٠ زايد : **على مبارك** ، ٦٣ ـ ٦٤ ،
V. Edouard Dor : Instr. Publ. Eg., 242-5; J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 137-44, 198-9, 203, 208, 220, 236-41; 354; 389-92.

(٣١) **W. H. G. Armytage** : The rise of the technocrats, a social history, Routledge and Kegan Paul-Univ, of Toronto Press, London-Toronto, 1965, 76, 96-7, 140-1, 148.

(٣٢) **N. Berkes** : Turkey, وكذلك John K. Fairbank, Edwin O. Reischauer, Albert M. Craig : East Asia, the modern transformation, George Allen and Uniwin, London 1965-271-8.

(٣٣) فى عام ١٨٤٤ كان « أمبير » **Ampère** يعبر النيل بصحبة أدهم بك ناظر المعارف العمومية ، وقد أخذ « ينظر اليه ويستمع له بفضول ٠ عجبا ! انه تركى ، وزير ذلك المدمر الرهيب للمماليك ، هذه الشخصية التى تحمل نظارات خضراء وتتحدث الفرنسية بطلاقة مستفيدة من جميع المنافع التى يتيحها الجمع بين ثروات محدودة وأوضاع لا بأس بها مقرونة بطيبة قلب اعتقد انها مخلصة ٠ ان الشرق التى لم تتأصل فيه فكرة الملكية الفردية بجذور ضاربة فى الأعماق هو البلد الذى لا تحتاج فيه النظريات الاشتراكية ، من نواح عديدة ، الى الكثير من الاجتهـــاد كى تفرض نفســـها ٠ ولقد تم التعود كثيرا على أن تقوم الحكومة بالاستغلال ، وليس ثمة طريق غير الحفاظ عليها مع اعادة تنظيمها وتطهيرها من الطغيان ان كان ذلك ممكنا ٠ ان أفكار سان‌سيمون قد تركت بذورها فى مصر ٠ »
(J. J. Ampère : Voyage en Egypte et en Nubie, Calmann Lévy, nouv. éd., Paris, 1881, 129). =

عام ١٨٣٦ ، كان المستعرب « فلوجنس فريسنيل » قد لاحظ أثرا لبعض النوايا الجمهورية (٣٤) • وقد تبدى تأثير « كونت » فى آخر مؤلفات الطهطاوى ، ذلك المؤلف الذى يعتبر أول بحث مصرى فى علم الاجتماع وهو «مناهج الألباب المصرية» (١٨٦٩)،الذى يقوم بكامله على فكرة الفصل بين العلماء — حيث أعيد تفسير الفكرة التقليدية على ضوء مفهوم رجال الدين عند السانسيمونيين — ، وبين الدولة (٣٥) • وقام من بعده عثمان غالب الذى أصبح وزيرا للأشغال العمومية (٣٦) ، وفريد وجدى وطنطاوى جوهرى بمواصلة هذا التقليد فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، هذا التقليد الذى وجد فى شخص على عبد الرازق (١٨٨٨ — ١٩٦٦) مؤلف « **الاسلام واصول الحكم** » مشروعه الرئيسى الذى أسهمت آثاره فى تقدم الراديكالية الاجتماعية والاصلاح الدينى فى ذلك الوقت فى مصر المعاصرة (٣٧) •

وحول اشكالية مصر منذ ١٩٥٢ أنظر كتابنا **المجتمع المصرى والجيش** ، الطبعة الفرنسية ٣٣٧ — ٣٦٧ ، الطبعة العربية ، الجزء الرابع بأكمله •

«Nasserism and socialism», The Socialist Register, 1964, London, 1964, 38-55; Sociology and economic history, an essay on mediation; «C isis in Nasser's Egypt», New Left Review, no 45 (sept.-oct. 1967), 67-81.

(٣٤) « لقد أحضر الى (فلوجنس فريسنيل) قبل رحيله طبيبا مصريا جمهورى النزعة على غرار الفتيان الرومانسيين عندنا الأكثر اكتمالا • ولم يتحدث الا عن خلع الباشا واقامة حكومة ديمقراطية صالحة فى أرض الفراعنة • وأبدى اعجابه بالتقدم الذى أحرز فى عصر الأنوار • »

رسالة ٢٥ اكتوبر ١٨٣٦ الى **F. de Sanley, فى (Prosper Mérimée Correspondance génerale, ii : 71,**

وقد تفضل بتقديمه لنا الأستاذ « مانويل فوشيه » بجامعة البرتا ، ادمنتون ، كندا •

(٣٥) الطهطاوى ، **مناهج** ٣٥٤ — ٣٧٠ ، نقلا عن

A. Hourani : Arabic thought, 76.

وسنعود الى الحديث عن الطهطاوى •

(٣٦) انظر الحديث الذى القاه الدكتور عثمان غالب بك أثناء الاحتفال بمرور خمسين عاما على وفاة « اوجست كونت » فى ٨ سبتمبر ، ١٩٠٧

sub. «Une fète internationale», Mechveret, xii, I oct. 1907, suppl. **français, Paris, p. 2 sqq.**

(٣٧) وقد أوضح هذا المسار محمد طلعت عيسى : **اتباع سان سيمون** ، ١١٣ — ١١٤ • وقد بدأ الاشتراكيون المصريون فى تنقيب ابعاد هذه المشكلة ، أنظر كامل زهيرى : « حقائق لم تنشر عن السانسيمونية فى مصر » ، **الهلال** ، المجلد ٧٦ (١٩٦٨) ، العـــدد ٩ ، ٢٢ — ٣٧ ، العدد ١٠ ، ٣٦ — ٤٩ ، الخ •

● الفصل السادس

ميلاد الوعى التاريخى

القسم الأول : من الحوليات الى التاريخ العلمى

فى عام ١٨٨٠ ، لم يتردد عالم المصريات الألمانى العظيم « جورج ايبرز » عن أن يعلن بصورة قاطعة ، معتمدا فى ذلك على « جاستون ماسبيرو » : « الشرقى ينقصه الحس التاريخى ٠٠٠ فليس لديه ما يعتبر بالنسبة للأوربى أساس أية تربية جادة ، تلك القدرة والرغبة فى تصور الحاضر على أنه أصبح ماضيا والتعرف بهـذا على كل مرحلة من مراحل تطوره ٠ ان « الحكايات » (القصص) تعجبه لأنها تنشط ذهنه وتشعل ذكاءه الذى لا يمل أبدا عن تخزين الأحداث الحقيقية والخيالية ٠ ان التاريخ كما نتصوره ونمارسه ، موضوعا للسمو بأنفسنا وتنمية طاقتنا ، لا وجود له فى المؤلفات التربوية فى الشرق (١) » ٠ ان « الشرقى » الذى يتحدث عنه الكاتب هنا هو المصرى ٠ فمنذ القرن السادس عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر ، ابتداء من ابن اياس وابن زنبل الى عبد الرحمن الجبرتى ، تلاشى التاريخ فى الوقت الذى ذبل فيه المجتمع ، ونحن ندهش ، لأول وهلة ، اذ نرى « ج٠ ايبرز » لا يأخذ فى الاعتبار التحليل السببى للتاريخ : ألم يكن ابن خلدون فى القرن الرابع عشر مؤسسس « التاريخ كعلم » ، ثم ألم يكن التاريخ نفسه فى أوروبا ، علما حديثا ، بدأ فى القرن الثامن عشر فى غمرة الثورات البورجوازية الكبرى (٢) ؟

(١) G. Ebers : L'Egypte, i : 350.

(٢) انظر فى النطاق الأوروبى بعد التقديم الذى كتبه «فرانز روزنتال» للطبعة الانجليزية من المقدمة (١٩٥٨) الكتاب الذى أصدره حديثا
Yves Lacoste : Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire, passé du tiers-monde, François Maspéro, Paris, 1966 وكذلك دراستنا
«Ibn Khaldoun, fondateur de la science his'orique et de la Sociologie», i. F. Chartiler, ed. : Histoire de la Philosophie, Hachette, Paris 1968-1970, vol. 2, ch. 6;
Nassif Nassar : وعلى الأخص الرسالة الهامة التى قدمها 20-1
La pensée réaliste d'Ibn Khaldoun, P.U.F., Paris, 1967.

ان تطور التاريخ يمثل خلفية الوعي القومي السابق على تكوين الأيديولوجية الوطنية والفكر الاجتماعي في مصر « النهضة » · وقد حدث ذلك على مرحلتين : مدرسة الجبرتي ، ثم مدرسة الطهطاوي والحركة التاريخية على عهد اسماعيل ·

كان عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤ — ١٨٢٥) (٣) ينتمي الى أسرة من كبار الأعيان الأغنياء من أصل أثيوبي ، ترعرع في جو المحاورات الثقافية الحامية التي كانت تدور في منزل والده الشيخ حسن الجبرتي وقد كان عالما ، ولاسيما في اللاهوت والرياضيات (الفلك ، الهندسة ، الحساب ، وصف البلدان ، الجغرافيا) ، وكان أستاذا في الأخلاق ، والتشريح والهندسة والتاريخ بالأزهر ، وكان يجيد اجادة تامة اللغتين التركية والفارسية · كان استاذه المفضل هو محمد مرتضى الزبيدي (٤)· غير أن ما هو أهم من ذلك جاء مع الجدل الذي بدأ بين هذا الشاب الأزهري ، المتفتح على عصره ، وبين قادة الحملة الفرنسية السياسيين والعلميين · وهو في الواقع « وقف من أحداث هذه الفترة وتياراتها موقفين : موقف المؤرخ المفكر وموقف الوزير المسئول ، لأنه اشترك في عضوية الديوان الذي أنشأه عبد الله مينو (٥) » ونرى من الأوفق تفصيل هذا الحكم ·

كان الجبرتي مؤرخا على نحوين · فهو أولا مؤرخ حولي أو مسجل للحوادث ، تبعا لمنهج حديث يدهشنا بدقته واهتمامه بالتفصيلات ، وهو كذلك دارس فاحص ، أي محلل للتأثير الأوروبي · ان عمله كجامع للأحداث — في صورة مسودات وتيارات — بدأ في أواخر القرن الثامن عشر قبل وصول « بونابرت » ، وهناك ملاحظتان هامتان على هذا العمل : ايجاز الحوادث وترجمات العلماء والامراء الوارد ذكرهم (٦) · كانت الخطة

---

(٣) من بين القائمة البيبليوجرافية الهامة نذكر الكتب التالية :

خليل شيبوب : **عبد الرحمن الجبرتي** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٨ ،

محمود الشرقاوي : **مصر في القرن الثامن عشر** ، ٣ مجلدات ، القاهرة ١٩٥٨ ،

D. B. Macdonald : art. "Al-Djabarti», Encycl. Islam; Von Kremer : **Beiträge zur Arab Lexicographie**, Wien, 1883-4;

جمال الدين الشيال : **تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ، الحركة الاصلاحية والمراكز الثقافية في الشرق الاسلامي الحديث ، جـ ٢ ، مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨** ·

(٤) ج· الشيال : **الحركة الاصلاحية** ، جـ٢ **التاريخ والمؤرخون** ، ١٢ ·

(٥) لويس عوض : **المؤثرات** ·· ، جـ ٢ ، ٩٣ ·

(٦) ج· الشيال : **التاريخ** ·· ، ١٣ — ١٤ ، وكذلك : **تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية** · القاهرة ، ١٩٥١ ·

ترمى فى البداية الى تلخيص تاريخ مصر من بدايات العصر الاسلامى حتى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى ، وذلك فى مقدمة يلحقها التاريخ بمعنى الكلمة لمصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الهجرة • ويتضمن منهج المقدمة دراسة أعمال كبار المؤرخين ــ الطبرى ، المسعودى ، ابن الأثير ، ابن دقماق ، ابن خلدون ، المقريزى ، العينى ، السخاوى ــ تلك الأعمال المتناثرة فى المساجد والمكتبات ، ولم يجد سوى « أسماء بلا مضمون » ، وبعض الصحائف هنا وهناك مما أمكن انقاذه من عمليات السلب والنهب والحريق (٧) • » وتمضى المقدمة سريعا ، لندخل فى التاريخ المعاصر • ونجد أنفسنا مرة واحدة أمام منهج حديث ، بل وعلمى ، فيما يتعلق بجمع الأدلة وصياغتها فى صورة نقدية • وقد بدأ بدراسة الحكايات التى سبق كتابتها : وهى مذكرات بعض العسكريين ثم كتاب تاريخ لمؤلف يدعى أحمد حلبى عبد الغنى الذى يعرض لتاريخ مصر منذ الغزو التركى حتى عام ١١٥٠ هـ • وبعد ذلك ينصب الاهتمام على جمع حكايات المعاصرين المتقدمين فى السن ، ومضاهاة الوثائق الرسمية الموجودة لدى الكتبة والمراقبين ، ثم الحصول على التواريخ المسجلة على الآثار والمقابر ، وأخيرا عرض الأحداث التى عاشها المؤلف نفسه والتى وقعت بعد عام ١٧٧٠ • نحن اذن بصدد « منهج علمى دقيق » ، كما يقول جمال الدين الشيال (٨) • أما التحرير فانه يتخذ صورة الحوليات ، سنة بسنة ، ويأتى سرد الحوادث السنوية متبوعا بترجمات للأمراء والشيوخ وعلماء الأزهر والكتاب والشعراء والتجار والأعيان ، رجالا ونساء ، فى ذلك العصر • والمؤلف فى مجمله ــ « **عجائب الآثار فى التراجم والأخبار** » ــ والذى ظهرت أول طبعة منه عام ١٢٩٧هـ أى فى سنة ١٨٧٩ (٩) ــ

---

(٧) الجبرتى : **عجائب الآثار** ، جـ ١ : ٦

(٨) ج• الشيال : **التاريخ** ، ١٦ ــ ١٧ •

(٩) والطبعات المختلفة هى كما يلى : مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ/١٨٧٩ ، المطبعة الشرفية القاهرة ، ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ وكلتاهما فى ٤ مجلدات ، طبعة على هامش **الكامل فى التاريخ لابن الأثير** ، **القاهرة** ، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤ ، والجزء الثالث المعنون : **تاريخ الفرنساويين فى مصر**، مطبعة جريدة مصر ، الاسكندرية ، ١٨٧٨ ، أصدره اديب اسحق • وأمر السلطان سليم الثالث باصدار طبعة تركية ، عنوانها : **انقاذ مصر من الفرنساوية** ، وكانت الطبعتان الأخيرتان هما اللتان أعدهما بصورة غير ناقصة كثيرا محمد قنديل البقلى بعنوان : **المختار من تاريخ الجبرتى** ، فى القاهرة ، ٦ أجزاء مطبعة الشعب ، القاهرة ، ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ ، ثم أخيرا الطبعة الممتازة التى قدمتها وزارة الثقافة لنص ١٩٠٥ • وتوجد ترجمة فرنسية قام بها شفيق منصور يكن وعبد العزيز خليل وجبرائيل خليل واسكندر عمون بعنوان :
Merveilles biographiques et histoiriques ou chroniqies dr Cheikh Abd el-Rahman el-Djabarti, 9 Vol., Le Caire, 1888-96.

يثير اعجاب المستشرقين : فيقول أ٠و٠ « لين » : انه تاريخ ممتاز للحوادث التى وقعت فى مصر فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى (١٠) ، ويصفه د٠ ب٠ « مكدونالد » ، فى فترة أحدث ، بأنه « أروع تاريخ لمصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (١١) » ٠

ومن ناحية أخرى فان هذا العرض التاريخى الذى يقدم أول تاريخ لمصر الحديثة يطرح أمامنا بعض المشكلات ٠ فيذكر الشيال أن الجبرتى نفسه يشير الى أن أستاذه الزبيدى هو أحد الذين أوفدهم المؤرخ السورى المرادى لجمع ترجمات مشاهير رجال مصر فى ذلك القرن بهدف تأليف كتابه « **سلوك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر** » الذى ظهر فى سوريا فى نفس الوقت الذى كتب فيه المرتضى الزبيدى « **المعجم المختار** » ٠ وقد عثر الجبرتى على هذا المخطوط فى عشر كراسات فى مكتبة استاذه بعد وفاته ، وفى نفس الفترة تقريبا مات المرادى أيضا ٠ وبذلك وجد الجبرتى نفسه المالك الوحيد لمادة هذا الكتاب ، ثمرة العمل الجماعى الذى قام به رفيقاه وهو نفسه : وكانت ثمرة ذلك ظهور كتابين ، الأول للجبرتى والثانى للمرادى فى ثلاثة مجلدات (١٢) ٠ وبالاضافة الى هذه المشكلة الأولى الخاصة بالتأثيرات العربية المتبادلة فى مجال التاريخ ، هناك المشكلة الخاصة بمدى اسهام الجبرتى نفسه فى هذا العمل ٠ يورد س٠ «موريه» ، فى نقد موجز للنص ، الترتيب الزمنى التالى : « **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٦** » ، على الأرجح فى سنة ١٧٩٨ ، تحت سيطرة الاحتلال الفرنسى ، «**مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس**» ، فى ديسمبر ١٨٠١ ، لتبرئة نفسه من اتهامه بالانحياز لجانب الاحتلال الفرنسى ، الاجزاء الثلاثة الأولى من «**عجائب الآثار**» ، عام ١٨٠٥/١٨٠٦ ، ولا نعثر فى أى مكان على النص الموجز الذى كتبه عن «**تذكرة أولى الألباب**» لداود الانطاكى ، ولا النص المهذب من الأجزاء الموصوفة بالمجون من كتاب «**ألف ليلة وليلة**» (١٣) ٠ أما عن « **مظهر التقديس** » ، فيذكر الجبرتى أنه

---

(١٠) E.W. Lane : Modern Egyptians, 226.

(١١) مادة « الجبرتى » فى Encycl. Islam.

(١٢) ع٠ الجبرتى : **عجائب الآثار** ، جـ ٢ : ٢٤٩ ، ج٠ الشيال : **التاريخ** ٠٠ ، ٢٠ ــ ٢٤ ، وقام « دافيد أيالون » بنقد تاريخى بالغ العمق لمكونات **عجائب الآثار**
David Avalon : "The historian Al-Jabarti and his background", B.S.O.A.S., xxiii (1960) no 2, 217-49.

(١٣) S. Moreh : «Reputed autographs of Abd al-Rahman al-Jabarti and related problems», B.S.O.A.S., xxviii (1965), no. 3, 324-40.

كتبه بمعاونة الشيخ حسن العطار ، الذى يبدو أن اسهامه كان ثانويا (١٤) ٠

ان كتاب « **عجائب الآثار** » ، بالاضافة الى ما يضمه من وثائق رسمية من كل نوع ــ مراسيم ولوائح وقوانين ــ يعتبر قبل كل شىء وثيقة لاغنى عنها حول التأثير الحقيقى للحملة الفرنسية على مصر فى فجر نهضتها ، كما أنه يقدم لوحة للأفكار الاجتماعية والسياسية التى كانت سائدة بين الأعيان وعامة الشعب قبيل استيلاء محمد على على السلطة ٠

ويتخذ المؤرخ من أول وهلة ــ ومنذ الصفحات الأولى من المجلد الثالث ــ حيال « بونابرت » وقواده والبعثة العلمية ، موقف المستوزر : فادانته للنكبة التى نزلت بمصر تنتهى بحملة غامضة نشعر معها بأن الأمر ما هو الا من تصاريف القدر العادل (١٥) ٠ وقبل ذلك فى حديثه عن عهد المماليك ، لا نجد سطرا واحدا ينسب اليهم حسنة من الحسنات ، وان لويس عوض محق فى اشارته الى أن « نظرية القصاص الالهى على فساد الأمم جزء لا يتجزء من كل تفكير دينى أصيل ، وهو المرادف الروحى لما نسميه اليوم حتمية التاريخ (١٦) » ٠

ويؤكد د ٠ « ايالون » هذا التحليل ، و[illegible]ح بصفة خاصة على أهمية الكتاب سواء لما تضمنه من دراسة مفصلة عن المماليك تحت السيطرة التركية (١٧) ، أو لما يحفل به من ترجمات مستفيضة للشخصيات ، وتتعارض هذه الاستفاضة مع الايجاز الشديد في السرد التاريخي وتستدعي «اعادة صياغة» الكتاب حتى تكون هناك قاعدة متينة لدراسة مختلف مظاهر الحياة المصرية (١٨) » ٠ ان الاعجاب الذى يبديه الجبرتى بمظاهر الايجابية في السياسة الفرنسية ــ كرفض السخرة ، والحد من عسف القوات العسكرية وفكرة المساواة بين الناس كافة أمام القانون ، واعادة صياغة النظام

(١٤) ج٠ الشيال : **التاريخ** ٠٠ ، ٢٥ ــ ٢٦ ، لويس عوض : المؤثرات ، ج ٢ : ٩٢ ــ ٩٣ ٠

(١٥) وعن سنة ١٧٩٨ يقول الجبرتى : « وهى أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الامور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ٠ (**عجائب الآثار** ، الجزء الثالث)

(١٦) لويس عوض : **المؤثرات** ، ج ٢ : ٩٤ ٠

(١٧) D. Ayalon : «Studies in al-Jabartî, i : Notes on the transformation of Mamluk society in Egypt under the Ottomans», Journal of the Economic and Social History of the Orient, iii (1960), no 2-3, 148-74, 275-325.

(١٨) نفس المؤلف : The historian al-Jabartî, 244.

القضائى على أساس وطنى ديمقراطى ، وانشاء **الديوان** والدور الذى يقوم به ، وهو ما سنعود اليه ، لم يحجب الحقيقة عن المؤرخ · ان حديثه عن الزيادة التى قام بها الشيوخ والعلماء للمعهد يصورهم « بلا شك متأثرين [···] ، بحماسة العلماء المرتفعة أكثر من تأثرهم بما كان يبديه هؤلاء العلماء من حيل ساذجة ، ولكنهم كانوا يرفضون الخضوع للسيطرة (١٩)· وقد حدث نفس الشىء من جانب الديوان تجاه اصلاحات « بونابرت » التى تعتبر غاية فى التقدم · وان تعليق الجبرتى عن القاهرة بعد القضـــاء على أول ثورة ضد الاحتلال يعتبر مغزى فى هذا الصدد : فعنده أن الهـــدف الأوحد من هذه المقدمة لم يكن الا التأثير العميق على الأفئدة ، اذ انها طويلة ومليئة بالادعاءات القائمة على أساس تصور خـاطىء (٢٠) ونفس هـذا الموقف الانتقادى من محمد على هو الذى عرض حياة الجبرتى للخطر ، اذ يتهم محمد على بقتل الجبرتى فى ٢٢ يونيو ١٨٢٢ (٢١) ·

وهناك أربعة مؤرخون آخرون ينتسبون الى مدرسة أو جيل الجبرتى · أولا عبد الله الشرقاوى الذائع الصيت (توفى ١٨١٢) ، شيخ الأزهـر ورئيس أول ديوان · وقد وضع كتابا سرديا يسمى « **تحفة الناظرين فيمن ولى من الولاة والسلاطين** » (٢٢) ـ وهو عرض سطحى لتاريخ مصر العام منذ عهد الخلفاء الراشدين حتى بونابرت ، ويتضمن قائمة بباشوات مصر على عهد السيطرة العثمانية من سليم الأول الى بونابرت · وله كتـــاب آخر مخطوط ، عن طائفة الشافعية « **التحفة البهية فى طبقات الشافعية** » (٢٣) · أما الشيخ اسماعيل الخشاب فيعتبر أهم من الشرقاوى وكان صديقا للمستشرقين الفرنسيين وبخاصة « ريج » Reige ، لذلك فقد عينه الجنرال « مينو » أمينا لمحفوظات الديوان وعضوا فيه أيضا ، ويقول الجبرتى ، لقد أصبح الخشاب « كاتب السلسلة التاريخية وقد كتب لهذا الغرض عدة كراريس سجل فيها وثائق الديوان ومحاضره عدة كراريس لا أدرى ماذا فعـل بها » على حد تعبير الجبرتى ، وعلى أية حال ، ظل الكتاب فى صورة مشروع ، أما الكراسات فلم يعثر لها على أثر منذ ذلك الحين · وعلى العكس

---

(١٩) Christopher Herold : Bonaparte en Egypte, trad. par M.C· de Seynes Larlenque, Plon, Paris, 1962, 214.

(٢٠) الجبرتى : **عجائب** ·· ج ٦ ، ٧٩ ـ ٨٠

(٢١) أبرز هـــذا الموقف الانتقادى محمود الشرقاوى : **مصر فى القرن التاسع عشر** ، ج : ٣٢ وأكد عملية القتل

D.B. Macdooald : art «Al-Djabarti», Encycl. Islam.

(٢٢) مجلد فى ٥٦ صفحة ، القاهرة ، ١٢٨٦/١٨٦٩ ·

(٢٣) ج· الشيال ، **التاريخ** ·· ، ٢٧ ـ ٣٠ ، والمخطوط محفوظ بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٥٧٨ ·

هناك مخطوط لكتاب عن تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر بعنوان «**تاريخ حوادث وقعت بمصر من سنة ١١٢٠ (١٧٠٨) الى دخول الفرنسيس** » (٢٤) أما الشيخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى فقد وضع مخطوطا لم ينشر عنوانه « **تاريخ محمد على باشا** » • كتبه على ما يبدو بايعاز من شيخ الأزهر الجديد محمد بن أحمد العروسى ، لابراز المنجزات السياسية الداخلية والخارجية لمحمد على ردا على التأريخ النقدى الذى وضعه الجبرتى • أما نقولا الترك (١٧٦٣ – ١٨٢٨) فيعتبر أهم هؤلاء المؤرخين جميعا • فقد بعثه الأمير بشير الثانى أمير لبنان الى مصر لكى يتتبع آثار الحملة الفرنسية على ما كان يعتبر فى ذلك الحين أهم ولايات الامبراطورية العثمانية ، فكتب تأريخا ، على شكل حوليات ، نعرف العديد من طبعاته وخصوصا طبعة كل من « كاردان Cardin (باريس ١٨٣٨) و م « • ديجرانج اينيه » Desgranges Aîné (باريس١٨٣٩) و ج• « شيت » G. Wiet (القاهرة ١٩٥٠) (٢٥) وقد اتبع فى سرده السياق الزمنى الهجرى ، واحتل الوصف والوثائق أهم جزء من الكتاب ، ونجد فيه بعض التفسيرات الهامة وخصوصا ما يتعلق فيها بثورة القاهرة الأولى ، ودور المماليك ، الخ (٢٦) • ويرى ابراهيم أبو لغد أن أهمية هذا التأريخ تكمن فى كونه يمثل ، فى ذات الوقت ، أول رد فعل عربى حيال الثورة الفرنسية كما أنه المصدر الأساسى الذى رجع اليه مؤرخو تلك الفترة فيما بعد (٢٧) • ويبدو لنا الجزء الثانى من هذا الحكم ضعيفا أمام الدور الرئيسى الذى يلعبه تاريخ الجبرتى حتى اليوم ، حيث أن تاريخ نقولا الترك يعتبر بالاجماع ، سردا لعصره حافلا « بالملاحظات والأحكام » (٢٨) •

هذا البيان للمرحلة الأولى من التأريخ فى مصر الحديثة يجب أن ننظر اليه من زاوية العصر، وبخاصة زاوية الوالى• وقد أجاب هذا الوالى على

---

(٢٤) ج• الشيال : **تاريخ الترجمة والحركة الثقافية** : ٣٠ – ٣٦ ، والمخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٠٧ تاريخ •

(٢٥) وكانت العناوين على التوالى هى :

Journal d'Abdurrahman Gabarti pendant l'occupation française d'Egypte, suivi d'un précis de la même campagne par Mo'allem Nicolas el-Turki secrétaire du prince des Druzes; : ثم Histoire de l'expédition des Français en Egypte par Nakoula el-Turk; : واخيرا Chronique d'Egypte 1798-1804 par Nicolas Turc.

(٢٦) George M. Haddad : «The historical work of Niqula el-Turk 1763-1828», Journ, of, the Amer, Orient, Soc. lxxxi (1961), no 3. 247-51.

(٢٧) Arab rediscovery, 25.

(٢٨) G.M. Haddad : Hist, work N. el-Turk, 251; والعنوان الذى تحمله طبعة « كاردان (هامش ٢٥) يبين جيدا الأهمية الثانوية لعمل نقولا الترك •

سؤال للدكتور « باورنج » معبرا عن تفضيله للعمل (٢٩) · غير أن رجل الدولة والحرب لا يترفع عن التعرف على المؤلفات التاريخية ، بل على العكس فقد عمل على أن تترجم الى اللغة التركية ، فى قسم خاص ملحق بمكتبه بالقلعة (٣٠) ، سيرة حياة كل من : النبى محمد ، الاسكندر ، نابليون ، كاترين روسيا ، وكذلك كتاب فى تاريخ ايطاليا ، و « **الأمير** » لمكيافللى ، و « **مقدمة** » ابن خلدون ، الخ (٣١) ويجب أن نضيف الى هذه المؤلفات العشرة ، تلك التى ترجمت الى اللغة العربية بايعاز من الطهطاوى ، وكذلك « **وصايا فردريك الأكبر الى قواده** » وهو من أوائــل الكتب التى نشرت فى القاهرة حوالى ١٨٢٢ ــ ١٨٢٣ · وقد ظل أثر هذه المكتبة التاريخية الأولى قاصرا على دائرة صغيرة تجيد التركية ــ محمد على وابنه ابراهيم ، وبعض القواد وكبار رجال الدولة من المدنيين (٣٢) ، أما الجمهور المثقف فقد كان عليه أن ينتظر الطهطاوى لكى يطلع بحق على الثقافة التاريخية ، وفى ذات الوقت على الثقافة الحديثة فى شتى مجالاتها ·

وقد تولى الطهطاوى تدريجيا ، اثر عودته من فرنســـا ، أهم مسئوليات التعليم والثقافة ، وذلك قبل أن يناله غضب عباس الأول · وكان قبل ذلك أثناء اقامته فى باريس قد قام بترجمة بعض المقالات فى التاريخ والجغرافيا (٣٣) · وعندما عمل الطهطاوى مترجما فى مدرســـة المدفعية ، أسس فيها مدرسة لدراسة هاتين المادتين ــ وفى الواقع ، فصل دراسى خاص يتبع مدرسة المدفعية (٣٤) · وهو يشرح أهدافه فى المقدمة

---

(٢٩) « أبلغنى الكولونيل « دوهامل » اننى سوف أغدو رجلا عظيما فيما لو قرأت التاريخ [···] ، بغية ان اتعلم الحكم · غير اننى بلغت من العمر ما لا يتيح دراسة التاريخ· لقد كتب الى ابنى يطلب منى تعليمات فى وقت تحف به المخاطر من جميع الجهات ، وبالنسبة الى ، فكرت فى أن أفضل تعليمات انما تتمثل فى أن أذهب اليه بنفسى ، وقد رحلت الى يافا وسحقت التمرد فى موقعه · ذلك هو الحكم السياسى » ·
(J. Bowring : Rep. Egypt and Candia, 145).
وهو ما يفرض التفكير فى مبدأ نابليون « نشتبك أولا ثم نتأمل » نرى بعد ذلك ، لنخوض المعركة أولا ثم نتدبر العواقب) ·

(٣٠) J. A. Saint-John : Egypt and Mohammed-Ali, 127-9.

(٣١) يقدم جمال الدين الشيال قائمة بعشرة مجلدات تمت ترجمتهـــا ، **التـاريخ** ·· ٤٣ ــ ٤٧ ·

(٣٢) ج· الشيال : **التاريخ** ·· ، ٤٧ ــ ٤٨ ·

(٣٣) ج· الشيال : **رفاعة الطهطاوى** ، مجموعة اعلام الاســـلام ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ٢٧ ــ ٢٨ ·

(٣٤) أمر من محمد على الى ناظر الجهادية ، بتاريخ ١٤ جمادى الآخرة ، ١٢٥١ هـ · فى ج· الشيال : **التاريخ** ·· ، ٥٣ ، ٥٤ ·

التى كتبها لترجمته كتاب « مالت برون » Malte Brun **التعريفات الشافية لمريد الجغرافية** (بولاق ١٢٥٠ هـ) : انه يبغى أن يقدم للتلاميذ كتابا دراسيا أساسيا ، والمؤلف الذى يقوم بتقديمه « أطنب فى أوروبا لكونها وطنه ، وأوجز فى غيرها حيث لم تكن داره ولا سكنه ، فهذ الوصف لا يكون لنا كافيا »

ومنذ ذلك الحين ، ولتدريس « التاريخ على حقيقته » ، كان من الأوفق انشاء مدرسة متخصصة وهى مدرسة الألسن ٠ ويقـــول جمال الدين الشيال منصفا « ان التاريخ اعترف به كعلم لأول مرة فى تاريخ التعليم فى مصر الاسلامية ، وجعله لأول مرة مادة من مواد الدراسة فى مدرسة الألسن وعين له مدرسا خاصا لتدريسه (٣٥) » ٠

وسنهتم هنا بتحليل المفهوم التاريخى عند الطهطاوى ســـواء فى مجال التأليف والترجمة أو فى مجال التعليم ، أما مضمون الأفكار فسيكون موضوع تحاليل لاحقة ٠ ان نظام التعليم الجـــديد يخصص مكانا أكبر للجغرافيا ، ولا يبدأ فى تدريس التاريخ الا من السنة الثالثة الاعدادية ولمدة عامين (كتابا الجغرافيا والتاريخ للطهطاوى مناصفة) ، وبدأت مدرسة الألسن تدرس التاريخ فى نهاية السنة الاولى لافتتاحها (٣٦) ٠ وقد اهتم الطهطاوى وتلاميذه فى البداية بترجمة واكمال الكتب الدراسية الاوروبية وفى عهد اسماعيل أنصب التركيز على تأليف الكتب ٠ وقد جاءت الترجمة أولا : وحاول الطهطاوى تغطية تاريخ العالم بصفة عامة مع اعطاء مكانة خاصة لتاريخ فرنسا ٠ وبالنسبة للعصور القديمة فقد تمت ترجمـــة « **بداية القدماء وهداية الحكماء** » (١٨٣٩) من الفرنسية ؛ وقد وجـــده « ناقصا بالنسبة لتاريخ البشرية والعرب [فى حين أن] كتاب عماد الدين أبى الفدا ، سلطان حماه ، يتضمن ما يكفى » الأمر الذى دفعه الى أن يضيف عدة فصول الى الكتاب المترجم ، « لانجاز [لتحقيق] ما نرغب وبلوغ الهدف » ٠ وقد قام بترجمة هذا العمل الأول مصطفى الزرابى ومحمـــد عبد الرازق وعبد الله أبو السعود ، ثم اتبع بمؤلف ضخم فى مجلدين عن تاريخ العصور الوسطى بفضل جهود مصـــطفى الزرابى عنوانه « **قرة**

---

(٣٥) وبطبيعة الحال لم يتم انشاء كرسى لهذه المادة بالمعنى المعروف ٠ وأول الكراسى لمادة التاريخ انشئت فى اكسفورد وكامبريدج حوالى منتصف القرن ١٨ ، غير أنها لم تقم بالتعليم !
(G. P. Gooch : History and historians in the XIXth. century, London, 2 éd., 1950, 12);
وانشىء كرسى التاريخ والأخلاق فى الكوليج دى فرانس فى ١٧٦٩ فقط (الشـــيال : **التاريخ** ٠٠ ٥٦ ـ ٥٨) ٠

(٣٦) ا٠ع٠ عبد الكريم : **التعليم** ، جـ ١ : ٢٢٩ ٠

النفـــوس والعيون بســـير ما توســـط من القرون • » ، **أما تاريخ** فرنسا فقـــد جاء فى كتابين : « **نظم اللآلىء فى الســـلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك** » ، ترجمة عبد الله أبو السعود (١٢٥٧ هـ) ، وترجمـة حسين قاسم للكتاب « مونيكوروس » (١٢٦٤ هـ) ، ثم كتابين كبيرين فى السيرة : سيرة بطرس الأكبر « **الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر** » ترجمة أحمد عبيد الطهطاوى ، وسيرة شارل الثانى عشر « **مطالع شموس السير فى وقائع شارل الثانى عشر** » ترجمة مصطفى البياع (١٢٥٧ هـ) الذى أضاف اليه ملحقا عن السويد (٣٧) • ولأول مرة ، كما أشار الى ذلك « برنارد لويس » ، يجد المثقفون المصريون والعرب بين أيديهم مجموعة من المؤلفات التاريخية تعالج مختلف العصور التاريخية فى العالم بطريقة علمية دقيقة ، فى حين أنه ، قبل ذلك ، كان تاريخ العالم الاسلامى وحده هو محور اهتمامهم (٣٨) • وانتشرت ألف نسخة مطبوعة باللغة العربية بين خاصة المثقفين فى البلاد ، لتوسع دائرة نظرتهم وتشمل شعوبا وأمما وأقطارا أخرى ، فى نطاق التاريخ العالمى كله •ولم تعد مصر والامبراطورية الاسلامية وحدهما فى العالم • صحيح أن ذلك العالم ، الذى عرفه القراء الجدد الذين درس عدد كبير منهم فى أوروبا، هو عالم الاستمرارية التاريخية ذات الماضى المجيد ، لكنه أيضا عالم لثورات البورجوازيـــة والتحررية الكبرى التى كانت تهز أوروبا فى ذلك العصر •

لم تعد مصر وحدها فى العالم لقد أتاح مجىء اسماعيل للطهطاوى أن يستأنف نشاطه ، بعد مرارة النفى ، الذى ربما جعله يتأمل « **أوديسا ملحمة الشعب المصرى** » الطويلة (٣٩) • والجدير بالذكـر أن الثورات

---

(٣٧) ج• الشيال : **التاريخ** •• ، ٥٩ ــ ٦٣ ، ا•ع• عبد الكريم : **التعليم** •

ويبين « برنارد لويس » بوضوح ما تمثله المدرسـة المصرية من قيمة نموذجية بمقارنتهـا بتركيا التى كانت آنذاك خاضعة للحكم المطلق : ويرجع أول تاريخ وطنى لتركيا Tariki àlém الى عام ١٨٧٦ أى بعد ثمانية أعوام من « **انوار توفيق الجليل** » (١٨٦٨) ، وأول ترجمة تركية من الانجليزية لكتاب التاريخ العالمى .Chamber's Universal History الذى أحمد حلمى يرجع الى ١٨٦٦ أى بعد ما يقرب من ثلاثين عاما من بداية القدماء ، وهو ما يؤكده « أركومن كوران » : فكتاب « فولتير » عن .L'Histoire de Charles xii اقتباس أمر بترجمته فى ١٨٥١ لم ينشر على الاطلاق :

(B. Lewis et P.M. Holt : Introduction ; B. Lewis : The use by Muslim historians of non-Muslim sources; E. Curan : Ottoman historiography of the Tanzimat period, in Bernard Lewis and P.M. Holt, eds. : Histo ians of the Middle East, Oxford U.P., London, 1962, 15, 191 424.

(٣٨) B. Lewis : The Arabs in history, Hutchinson, London, 1950. 164-5.

(٣٩) هذا التعبير مأخوذ عن حسين فوزى فى كتابه العظيم : **سندباد مصرى** ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦١

الكبرى التى يظهر أثرها عميقا فى الفكر السياسى عند الطهطاوى ، قد سارت جنبا الى جنب مع شعور قوى بالشخصية القومية التى جاءت اكتشافات « شمبليون » الحديثة الخاصة بمصر القديمة ، ومن بعدها اكتشافات* « مرييت » و « ماسبيرو » و « بروجش » ، لتدعمها بأسس وقواعد لم تكن موجودة حتى ذلك الحين • كان ذلك هو منطلق كتاب الطهطاوى الكبير عن تاريخ مصر « **أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل** » الذى ظهر الجزء الأول منه عام ١٢٨٥ هـ (١٨٦٥) بادئا من الفراعنة حتى الفتح العربى • أما المنهج فهو منهج العلم التاريخى الحديث : مقدمة تعرض الاطار الجغرافى لمصر وتأثيره* فى تاريخ البلاد وتنتهى ببيان الانجازات التى حققتها البعثات الجغرافية وخصوصا بعثة سليم قابودان و « دوراندو » عام ١٨٤١ ، تلك الانجازات التى يمكن مقارنتها بروايات بطليموس عن منابع النيل • أما التاريخ بمعناه الصحيح فيرد تبعا لتوالى العصور المختلفة : العصر الفرعونى ، عصر البطالمة ، العصر الرومانى فالعصر البيزنطى ، ويخصص الفصل الأخير للعرب قبل الاسلام (العادات ، التقاليد ، اللغات ، الاسواق ، الخ •) • وهو يقول يجب أن تمر أعمال مؤرخى العصور القديمة عبر غربال النقد «العقلى » حتى يستبعد منها ما يرى « أنه من محض الخرافات •• أو من اختراع الأباطيل •• والعجائب التخيلية •• « وخوارق العادات » • ويبقى على الكاتب أن يحافظ على « جوهر ما قيل فيما يتعلق بالوقائع المدنية والعسكرية » وأن يحدد دور العوامل المختلفة من آثار ومعابد وغزوات وفنون وصناعات ، مضيفا الى ذلك « من ملاحظات اقتضاها الحال ، أو من ايقاظات تربط ما تأخر بما سبق [•••] أو للجمع بين الأقوال المختلفة [•••] لما احتوى عليه من اقتران المدلول بالدليل » (٤٠) • وفى الكتاب ، نشهد مضاهاة أقوال « هيرودوت » و « مانيتون » بالكشوف الأثرية الحديثة ، كما درس المؤرخون العرب استنادا الى المصادر الفرنسية (٤١) •

ومن الطبيعى أن يخصص الطهطاوى الجزء الثانى من كتابه عن تاريخ مصر لمن كان مصدره ، أى لمحمد ، رسول الاسلام • ان « **نهاية الاعجاز فى سيرة سكان الحجاز** » الذى ظهر بعد وفاته فى عام ١٨٧٤ ، يقدم دراسة عن المؤسسات السياسية والادارية والمالية والاجتماعية فى الاسلام فى فصل أخير ، لا يعرفه المتخصصون كثيرا ، ويقول الشيال انه ، منذ ذلك

---

(٤٠) الطهطاوى : **أنوار** •• ، ٥ ـ ٩ •

(٤١) وهى **أعمال** ابن عبد الحكم ، المسعودى ، المقريزى ، القاضى عياض ، السيوطى ، الخ ، وقد أشار رفاعة الى « قاموس مشاهير الرجال الفرنساوى » والى « مارييت » باشا ج• الشيال **التاريخ** ، ١١٩ •

الحين لم يتناول هذا الموضوع بالدراسة سوى المغربي عبد الحي الكتاني في كتابه « **الترتيبات الادارية في عهد الرسول** » ، وكان لابد من الانتظار حتى عام ١٩٣٥ لكي نرى كاتبا آخر يقدم دراسة عن حياة الرسول هو محمد حسين هيكل في كتابه « **حياة محمد** » · أما البقية ـ تاريخ مصر بعد الفتح العربي ـ طبقا لشهادة صالح مجدي ، فقد كتب حتى عهد الخليفة المطيع ، ولكننا لا نجد لها أثرا ·

وسرعان ما أثمر المثل الذي ضربه الاستاذ ، فاذا نحن أمام حصيلة عظيمة من الأعمال هي في أغلبها مبادرات لم تكتمل · وأول مجموعة من الأتباع (التـــلاميذ) نجدهم في الأزهر حيث يدرس التـاريخ والهندسة والموسيقى لنفر قليل من الطلبة (٤٢) · ونقصد الشيخ ابراهيم الدسوقي رفيق « أدوارد لين » Law في رحلاته ، والشيخ محمد عياد الطنطاوي الذي قام بعد تدريس الأدب بالأزهر بتدريس اللغة العربية بجامعة « سان بطرسبرج » من عام ١٨٤٠ الى ١٨٦١ ووضع بها خمسة مؤلفات تاريخية ظهر آخرها فقط في ليبزج عام ١٨٤٨ بعنوان « **أحسن النخب في معرفة لسان العرب** » ، وأخيرا ، الشيخ محمد عمر التونسي رفيق الدكتـــور « بيرون » ، وقد وضع كتابين يعتبران من أحسن المصـــادر عن تاريخ السودان حتى اليوم (٤٣) · أما المجموعة الثانية فتشمل تلاميذ الطهطاوي في مدرسة الألسن · وقد تخصص فريق منهم ، سبق ذكرهم ، في ترجمة المؤلفات التاريخية : محمود خليفة (٤٤)، عبد الله أبو السعود، م· الزرابي حسن الجبلي ، محمد مصطفى البياع · وكان عبد الله أبو السعود الذي أدار « **وادي النيل** » واشترك في تحرير « **روضة المدارس** » ينشر بهما مقالات كثيرة من وحي التاريخ ، وفي عام ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ أصدر طبعة من « **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** » لأبي شامه · أما صالح مجدي ، الذي كان يمثل مرحلة انتقال بين الطهطاوي وعلي مبارك ، فقد اشترك مع هذا الأخير في تأليف كتاب عن تاريخ مصر في عدة مجلدات وصل حتى عام ١٦٠ هـ ـ

---

(٤٢) م·ع· عنان : **تاريخ الأزهر** ، ٢٥١ ،

Bayard Dodge : Al-Azhar, a millenium of muslim learning, The Middle East Institute, Washington, 1961, app. iii, 198.

(٤٣) أصـدر الدكتـــور «بيرون» **Perron** في باريس بالعربية روايـة رحلة دارفور بعنوان : «**تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب**» في ١٨٥٠ ، ثم صدرت بالفرنسية في ١٨٥٥ ، ولا توجد الرواية الخاصة برحلة الوادي باللغة العربية التي كانت تحت يد الدكتور «بيرون» ، وقد صدرت الترجمة الفرنسية في ١٨٥١ (ج· الشيال : « الدكتور بيرون والشـيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي » **مجلة كلية الآداب بجامعة الاسـكندرية** ، العدد ٢ ، ١٩٤٤ ·

(٤٤) وقد أعاد ترجمة مؤلفات الكاتب الانجليزي « روبرستون » من الفرنسية بعنوان : **اتحاف الملوك الألبـاب بتقدم الجمعية في بلاد اوروبية ، واتحاف ملـوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلكان** (ج· الشيال : **رفاعة الطهطاوي** ، ٩٧) ·

وهو غير كتاب « **الخطط** » ، وقد تم تحرير أربع كراسات يبـــدو أنها لم تطبع (٤٥) · وعلى العكس من ذلك ، فان ترجمته لسيرة الطهطـــاوى ـ « **حلية الزمان بذكر مناقب خادم الوطن** » ـ ظلت المصدر الأول عن حياة الأستاذ ، والكتاب الوحيد الذى خصصه للطهطاوى أحد الرجال الذين يدينون له بتكوينهم (٤٦) ·

لقد أصبح التسجيل التاريخى ، أى الحوليات ، بفضل الطهطاوى ومدرسته تاريخا ، بالمعنى العلمى لكلمة التاريخ ، وذلك بفضل الدقـــة الشديدة والمنهج الحديث الذى استخدم · غير أن مفهوم التاريخ هذا ينفتح فى ذات الوقت على العالم ويمتد الى جميع العصور ـ ومن ثم ، واقتداء بنهج الشيخ رفاعة فى سائر مؤلفاته ـ فانه يحطم عزلة مصر العثمانيـــة المئوية ويقدم للصفوة ، أى « الطبقة السياسية » ، رؤية للاطار العام الذى تجرى فيه نهضتها ـ كما ينفتح على التاريخ الخاص لمصر بوصفها أمة · ان الوعى التاريخى الذى تقدمه هذه المدرسة للنواة القائدة ـ سياسيا وثقافيا ـ هو وعى تاريخى وطنى فى جوهره ، لكنه ـ وبسبب متطلبات النهضة الوطنية ـ يميل الى الاستفادة من الخبرات الأخرى ، وبشكـــل خاص ما يبدو منها أكثر تقدما ، سواء فى مجـال التضـــامن الوطنى والمضمون المتحرر لهذا التضامن (كما هو الحـال فى فرنسا) ، أو فى مجال صلابة سلطة الدولة المركزية وفاعليتها ، كما فعل محمد على عن طريق كونه مستبدا مستنيرا (بطرس الأكبر ، شارل الثانى عشر) · ان مؤلفات الطهطاوى التاريخية ومدرسته تتسم من أولها الى آخرها بفكرة الطهطاوى استاذا ورائدا ، وكأنها نار متقدة ، الا وهى الهيام بـ « مصر أم الدنيا » ·

---

(٤٥) راجع صالح مجدى : **ديوان صالح مجدى** ، **القاهرة** ، ١٩١١ · المرجع فى دراسة هذه المجموعة هـ ج·د· الشيال : **تاريخ** ·· ، ٨٤ ـ ٩٨ ·

(٤٦) وقدم جمال الدين الشيال طبعة نقدية لهذه الســـيرة نشرها مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ·

« فى قلب جميع المفاهيم السياسية الاسلامية يوجد مبدأ « الأمــة » جماعة المسلمين . والأمة في مظهرها الداخلى هى جماعة الأفراد الذين تجمع بينهم روابط لا يكون محورها الأصل أو الجنس ، وانما الدين ، على أساس ايمان جميع الأعضاء بالله الواحد الأحد وأن محمدا رسول الله [...] أما في مظهرها الخارجى فهى تختلف اختلافا جذريا عن سائر التنظيمات الاجتماعية الأخرى ، فواجب الأمة أن تشهد الله على العلاقات التى تربط بين الأعضاء من ناحية وبين سائر البشرية من ناحية أخرى [. .] . ورئيس الأمــة هو الله ، والله وحده .. وسلطانه مباشر وأحكامه ، كما تلقاها محمد ، تتضمن قانون الأمة ودستورها . ولأن الله نفسه هو المشرع الوحيد ، فلا مكان فى النظرية السياسية الاسلامية لسن القوانين وللسلطات التشريعية ســواء أكانت بيد حاكم زمنى أم بواسطة أى نوع من المجالس . ولا يمكن أن توجد الدولة ذات السيادة ، بمعنى الدولة التى تملك حق سن تشريعها الخاص، لكنها تملك حرية تحديد تركيبها الدستورى (١) . » هذه المبادىء الأساسية للنظرية السياسية الاسلامية والتى يعبر عنها هـ . أ . ر . « جيب » Gibb فى أسلوب أخاذ ، كيف يمكن اختزالها الى تجربة سياسية من النــوع الحديث هى ذاتها نتيجة للصدام بين مصر ، مقر الأزهر ، والتدخل الأوروبى البورجوازى والليبــرالى ، العلمى والمؤمن بالتكنولوجيــا الصــناعية وبأيديولوجيتها ؟

---

(١) Majid Khadduri and Herbert, J. Iiebesny, eds. : The Muslim community and the State = Law in the Middle East, The Middle East Institute, Washington. 1955, i, 3.

ويقول مكسيم رودنسون : « لقد كان الاسلام شموليا الى الحد الأقصى . وفى الواقع فانه يوجه مبدئيا جميع أفعال وكافة أفكار المؤمنين به .. وكل فعل ، حتى لو كان ناجما عن الاحتياج البيولوجى الأولى (الافراز ، الجماع ، الخ) ، وحتى لو كان متعلقا بالأنشــطة الاجتماعية التى تعدها الثقافات الأخرى لا تدخل فى الحين الدينى (الأنشــطة التقنية ، الاقتصادية ، الجمالية الخ .) كان يجرى تفسيرها فى علاقته بالنظام الأيديولوجى وكان متدمجا فيه ويقوم بتنظيمه . وكل فعل كل مؤسسة كل فكرة من أصل غريب عن النظام اما أن ترفض أو (عندما يتعذر الرفض) تستوعب ويضفى عليها الطابع الاســلامى .
Problématique de l'étide des rapports entre Islam et communisme Actes du Colloque sur la sociologie musulmane (11-14 sep-tembre 1961), Publ. du Centre pour l'Etude des Problèmes du Monde Musulman Contemporain, Correspondance d'Orient, no 5, Bruxelles s.d. (c. 1962), 119-50. (114).

هكذا يصبح السؤال ، طرح السؤال هو : كيف يمكن صياغة تطور مفهوم « الوطن » انطلاقا من اطار لديه من الصرامة ما يمكنه من عدم التقاعس عن الاستعداد لصد الهجمة الاستعمارية ثم الامبريالية ، بل ودفعها على أعقابها ؟ وكيف يمكن جعل هذا المفهوم هو محرك النهضة فى أنحاء البلاد، وبأية صفة ترى ؟ ان التناقض بين نظرية الاسلام السياسية وبين أيديولوجية الثورات البورجوازية الأوروبية ــ وهو أول مظهر للمشكلة ــ كان موضوعا لدراسات كثيرة ، وقد تعرض لها حديثا (عدد من المفكرين) بنقد متعمق وطرحوا تفسيرا نظريا لها (٢) ٠ أما المظهر الثانى ، فقد ظل موضوع جدال عميق ومعارك كلامية طاحنة ، منذ جيل مضى ، ابتـــداء من انشاء جامعة الدول العربية على أثر مبادرة مصرية (١٩٤٥) : ألا وهو : هل هناك أمة مصريـــة ، أم أن الاقليم المصرى ليس الا جزءا من أجـــزاء الأمة العربية (٣) ؟

وفى الوقت الذى بدأت فيه مصر أولى مراحل نهضتها الوطنية فى العصر الحديث طرحت المشكلة بصورة رئيســـية : كيف يمكن أن يكون المصرى مصريا فى مطلع القرن التاسع عشر وخلاله ؟ ٠

فى عام ١٧٧٠ ، سبق لعلى بك الكبير آخر كبار المماليـــك الذى أعلن خروجه على الباب العالى ، أن حاول اثارة الشعور الوطنى للشعب الذى كان يضطهده على رأس طائفته : « دافعوا عن حياتكم ، واعلموا أن مصر ،منذ القدم، قد حكمتها دول للمماليك وقد كانوا من جبابرة السلاطين ومفخرة الأرض والسماء : ومن ثم ، فلتعيدوا مصر اليهم ! (٠٠٠) » (٤)

---

(٢) أنظر أيضا
M. Rodinson Islam et capitalisme, Le Seuil, Paris 1966.
A. Abdel-Malek : Problematique socialisme ronde arabe : Jacqtis Berque et Jean-Paul Charnav. ed. : Normes et valeurs dans l'islam contemporain, Payot, Paris, 1967; Abdallah Laroui : L'idéologie arabe contemporaine, Maspéro, Paris, 1967.

(٣) المؤلفات فى هذا المجال وفيرة وهى تتزايد دوما ، انظر على الأخص :
Sylvia G. Haia ed. : Arab nationalism : an anthology, Univ. of California Press, Berkeley — Los Angeles, 1962; Anthologic de la litterature Arabe contemporaine — ii : les Essais, Le Seuil, 1965;
وقدمنا تفسيرنا لهذه المشكلة فى اطار الفكرة التى طرحناها عن «الأمة ذات المستويين» وخاصة فى كتابنا « **المجتمع المصرى والجيش** » ، الطبعة الفرنســية ٢٣٤ ــ ٢٧٦ ، الطبعة العربية ٢٤٨ ــ ٢٨٢ ، وكذا فى العديد من الدراسات ، وخاصة «**الفكر السياسى العربى المعاصر**» ، الطبعة الفرنسية ، باريس ١٩٦٥ ، ثم « **الفكر العربى فى معركة النهضة** » ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٥ ، الخ ٠

(٤) هذا التصريح غير محدد التاريخ أشار اليه جورجى زيدان : **تاريخ آداب** ٠٠ ، طبعة ١٩١١ ، القاهرة ، جـ ٢ : ٩ ٠

بعد ذلك اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن يقظة النزعة القومية ـ الشعور الوطنى ـ فى أواخر حكم اسماعيل • ومع ذلك ففى السنوات الأخيرة ، نجد أن تاريخ المجتمع المصرى وأفكاره بقلم المتخصصين فى مختلف العلوم الاجتماعية ، لا بقلم المستشرقين وحدهم ، يركز على عناصر هامة ، بل حاسمة ، فى مجال تكوين الجهاز النظرى للوطنية القومية المصرية الذى يتوسطه مفهوم المجتمع القومى ، أى القومية • والواقع أنه لما كان لفظ « القومية » يستخدم حتى ذلك الحين للتعبير عن « الأمة الاسلامية » فقد ظهر لفظ آخر لتحديد مفهوم الأمة بمعناها الحديث ، بغض النظر عن صفة العلمانية ، وهو لفظ « الوطن » •

ان الدراسات التى قام بها كل من محمد صبرى وعبد الرحمن الرافعى وآلبير حورانى « وجاك بيرك » وبصفة خاصة لويس عوض تجتهد فى توضيح نشـأة مفهوم الوطن • ويرى لويس عـوض أن منطلق الفكـر السياسى والاجتماعى المصرى بأكمله يتمثل فى اعلان بونابرت الصادر فى أول يوليو ١٧٩٨ ، الموافق آخر محرم ١٢١٣ هـ في مقر القيادة بالاسكندرية وهناك روايتان لهذا النص ، أحداهما واردة فى مراسـلات « نابليون » والأخرى أوردها الجبرتى ، ومن الأهمية بمكان قراءة الفقرات التى تتحدث عن الأمة فى هذا النص (٥) :

[« بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه • من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسـوية] ، السرعسكر الكبير أمير [الجيـوش الفرنسـاوية] بونابرت [يعرف أهالى مصر جميعهم] أن من زمان مديد السناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها • يا أيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم [فذلك كذب صريح] فلا تصدقو • وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضـارب فمـاذا يميـزهم عن غيرهـم حتى يسنوجبـوا أن يتملـكوا مصر

(٥) الفقرات الموضوعة بين قوسين [•••] أضافها الجبرتى فى عجائب ، أما بقية الفقرات فهى مطابقة للنص الفرنسى •

ولعـــدهم ويختصـــوا بكل شيء أحسن فيهـــا من الجـوار الحســان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها ، وسـابقا كان فى الأرض المصرية المـــدن العظيمة والخلجان الواســـعة والمتجـــر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية [أعيان البـــلد] قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون [·····] والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعـــالى لانقضـــاء دولة المماليك « قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى ، أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية (٦) » وهنا يستخـــدم الجبرتى عبارة « الأمـــة المصرية » ترجمـــه لتعبير La nation égyptienni وقد ظل اللبس مستمرا نظرا لكوننا ما نزال فى البداية ·

ويقول الرافعى : « والواقع أن « نابليون » فى هذا المنشور قـد استثار الروح القومية المصرية ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابا الى المصريين ويعدهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد فى البلاد (٧) » · وفى هذه النقطة بالتحديد لم يستثر المنشور الشعور الوطنى فقط ، انما أضفى عليه عمق مجاله التاريخى ، عن طريق التذكير بالعظمة الضاربة فى القدم ، ويقدم تفسيرا سببيا للانحطاط المصرى، ويلقى مسئولية ذلك على المماليك ، ثم على الحكومة الأجنبية بصـــفة عامة· ومن هنا كانت « هذه اليقظة (للقومية المصرية) التى سوف تتبلور فى الأمة المصرية وسوف تصبح فيما بعد نداء من أجل « مصر للمصريين » (٨) »

وأصبحت فكرتا **الوطن والقومية** تسـيران جنبا الى جنب مع الصراع

---

(٦) Correspondance de l'armée d'Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, Paris An VIII, iv : 191-2; Nicolas Turc : Chronique d'Egypte, 1798-1804, publ. et trad. par G. Wiet, Le Caire, 1950. 10-12;

ونص الجبرتى أورده عبد الرحمن الرافعى : **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر** ، ط ٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ج ١ : ٨٤ – ٨٧ ·

(٧) **تاريخ الحركة القومية** ج ١ : ٨٨ ·

(٨) لويس عوض : **المؤثرات** ، ج ٢ : ٥٠ وهو يلح على عنصر التجارب الأولى فى مجال التنظيم الديمقراطى ·

من أجل الحكم الذاتي والاستقلال والنظام البرلماني • وسنفصل بطريقة تعسفية المظهر الأول من هذا الكل ـ « الوطن » ـ لمتطلبات التحليل الذى سنكمله في الفصـــل التالي ، وحينئذ سيتخذ أبعاده الحقيقية كظـاهرة قومية •

وجدير بالذكر أن هذا البيان لا يمثل ظاهرة مستقلة • ان الخطبـة الافتتاحية لأول ديوان للقاهرة في ٦ أكتوبر ١٧٩٨ ـ سجلها القاضي منتلى ، رئيس محكمة الدعاوى بعنوان « **فرمـــان الشروط** » ـ والتي ألقى ترجمتها بالفرنسية المترجم الفورى « فينتور » تتخـــذ صفة البيان الدستورى بمعنى الكلمة •

« ان قطر مصر هو المركز الوحيد (٩) ، وانه أخصب البلاد ، وكان يجلب اليه المتاجر من البلاد البعيدة ، وان العلوم والصـــنائع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول . ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكه ، فملكه أهل بابل ، وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن ، الا أن دولة الترك شددت في خرابه لأنها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها ، فلذلك لم يبقـوا بأيدى الناس الا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم (للترك ••) فالمناسب من أهلهـــا ترك الشغب واخلاص المودة ، وان هذه الطوائف المحضرة من الاقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة لأنهم أهل خبرة وعقل ، فيسألـون عن أمـور ضرورية ويجيبون عليها فينتج لسارى عسكر (نابليون) من ذلك ما يليق صنيعه (١٠) » •

ان تمرد القاهرة الأول (اكتوبر ١٧٩٨) الذى امتد الى الأقاليم ، بالرغم من القمع الذى مارســـه « بونابرت » في العاصمة حتى شـــهر ديسمبر ، ورغم حل الديوان ، لم يضع حدا للسياسة الفرنسية في هـذا المجال • فحينما تولى « كليبر » القيادة في ١٣ أغســطس ١٧٩٩ على أثر عودة بونابرت المفاجئة الى فرنســا ، حاول التقرب الى الزعماء المصريين ، فاستقبل أعضاء الديوان في نفس الوقت الذى استقبل فيه قواد التشكيلات العسكرية الفرنسية وذلك في ١٦ سبتمبر ١٧٩٩ حيث خطب فيهم قائلا : « أيها العلماء ، وكل من يستمعون الى •• قولوا (للشعب) ان حكومة

(٩) ويقدم الرافعي في الهامش ترجمة الأصل الفرنسي للبداية : « ان مصر بلاد لا نظير لها » ، ويشير الى أن الترجمة التي أوردها الجبرتي تتضمن بعض عبارات ركيكة وأنه حرص على ابقائها لأنها وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها • (**تاريخ الحركة القومية** ، جـ ١ ، ١٠٤ ، هامش رقم ١) •

(١٠) النص في الرافعي : **تاريخ الحركة القومية** ، جـ ١ : ١٠٤ ـ ١٠٥ •

الجمهورية الفرنسية حينما عهدت الى بحكم مصر ، كلفتنى بصفة خاصة بالسهر على اسعاد الشعب المصرى • وان هذه المهمة لأحب الى قلبى من جميع مهام قيادتى • ان الشعب المصرى يقيم سعادته على دينه : فتوفير الاحترام لهذا الدين اذن من واجباتى الرئيسية ، بل اننى سأذهب الى أبعد من ذلك ، فسأكرمه وأسهم ما وسعنى الجهد فى اعلاء شأنه وتمجيده •• اطمئنوا ، فان حكم مصر قد انتقل الى أيد أخرى ، وكل ما يمكن أن يحقق سـعادتكم ورخاءكم سـيظل ثابتا لا يتغير (١١) » • لكن سرعان ما أثار الجنرال الجديد ، بتصرفاته الحمقـاء غضب الشعب ، واذا بتمرد القاهرة الثانى واغتيال « كليبر » يحددان نهاية الحملة الفرنسية •

وقد اعتدنا أن نرى مؤرخى تلك الفترة أحد فريقين : فريق يرى أن « بونابرت » وحملته قد خلقا الشعور الوطنى المصرى خلقا وذلك بادخال أفكار ثورة ١٧٨٩ بحد السيف ، وعلى العكس من ذلك يرى الفريق الآخر أن صراع الشعب المصرى ضد الاحتلال الفرنسى هو الذى بلور الشـــعور الوطنى • وكثير من الكتاب الفرنسيين الذين يتناولون تلك الفترة من زاوية المذكرات أو دراسة أحد مظاهرها المميزة ، يتبنون الفرضية الأولى (١٢) ، وفى الجانب المناقض نجد المؤرخين المنتمين لاتجاه الاصولية الاسلامية (١٣)• وفى فترة أحدث ، نجد ، كما قلنا ، اتجاها جديدا ـ بدأته الدراســـات التى قام بها كل من صبحى وحيده وعبد الرحمن الرافعى وجمال حمدان وحسين فوزى ولويس عوض ـ يقدم لنا صورة أوضح : فاذا كانت رؤية

(١١) نقلا عن A. Galland : Tableau de la France pendant le séjour de l'armée française, Galland Libr., Paris, An xiii-1804, i : 196-7.

(١٢) انظر على الأخص ،

A. Galland : Ibid; H. Pérès : "L'Institut d'Egypte et l'Oeuvre de Bonaparte jugés par deux historiens arabes contemporains», Arabica, 4 (1957), 113-30.

« لا يعد « بونابرت » فاتحا طاغيا انما هو رسول حضارة لصالح تطلعات الشعب المصرى » ، « يقدر بونابرت أهمية الذخيرة الدينامية للاسلام ، ويكن لها أعظم التقدير وينوى استخدامها من أجل خير فرنسا ، وكذلك الحضارة التى لا يفصلها عن مصيرها» (١١٨ ـ ١١٩) ، الخ• تلك هى الموحيات العامة التى يستلهمها ج• م « كاريه » فى كتابه ، وهو محور أعمال « جاك بيرك » بأسرها : « ان فرنسا هى يونانية (ان دائرة تأثير اليونان الحضارية) العرب » ، : الفلسفة السياسية للاستعمار الحضارى ••

(١٣) من بين آخرين ، محمد فؤاد شكرى :**الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر** ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، د•ت (حوالى ١٩٦٢) ، ٥٩٢ ـ ٦١٢ ، وهو يستعين بمؤلفات الجبرتى ، ا• «جالان» ، بل • «ريبو» ، هـ• «داسـتر» ، كونت «دى نويه» ، «فيلييه» ، وكذلك مراسلات «نابليون» الأول Correspondance de Napoléon 1 ويصل أنيس صايغ فى العمل الهام الذى سبق التنويه به الى حد تجاهل هذه الفترة كلية •

بونابرت للأمة المصرية أيا كانت بواعثهـــا (١٤) ، وقد أيقظت على نحو ما الشعور الوطنى (١٥) ، وأذا كان « التيار الديموقراطى والتيار الوطنى (القومى) أصبحا التيارين الرئيسيين فى تفكير المصريين (١٦) » ، فيجدر بنا أن نوضح أن العنصر القومى هو الذى يسود ، بصورة مستقلة أولا ثم وبصورة خاصة ، كمضمون للمطلب الديموقراطى في التمثيل البرلمانى ٠ان « جالان » يركز على تشتت « الشعب المصرى » الذى « يتألف أساسا من خمس أمم متمايزة : الأقبـــاط أو أبناء البـلاد ، اليونانيون ، اليهود ، المسلمون والعرب الذين يعيشـــون فى ظل قانون محمد (١٧) ، ولكنما ثورتا القاهرة ، وكذا المقاومة السياسية والمسلمة فى الأقاليم لخير برهان على أن الشعور الوطنى يجد ركائزه فى أمة تشعر بنفسها وتريد أن تظل كذلك ــ رغم قرون الانحطاط الأربعة ٠

هذه الفترة التى عاصرت التأثير الأول ــ تأثير الحملة الفرنســية ــ ويقظة الحركة الوطنية ، شـــاهدت أيضا حركة المعلم يعقوب الذى كان قائدا «للفيلق القبطى » ، ثم عينه كل من «كليبر» و «مينو» جنرالا (١٨)٠ وتوضح دراسة مشروعه الخاص بالاستقلال ، الذى سنعود اليه مرة أخرى ،

(١٤) يقول « لاس كازاس » و « جورجو » ان نابوليون يعتبر أثناء منفاه فى سانت هيلينه هذا الاعلان بمثابة أعلى مستويات حكمه ، راجع

C. Herold : Bonaparte en Eg., 92.

(١٥) ويشدد الرافعى بقوة على هذه النتيجة : « بدأت هذه القوة (الشعب المصرى) تظهر فى الميدان خلال السنوات التى قضاها الجيش الفرنسى فى البلاد ، ظهرت الأمة بشخصية جديدة وروح فتية ، وعزيمة قوية ، كونتها الحوادث والشدائد ، وصقلتها التجارب والآلام ، كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح الســياسى وتطور فى الحياة القومية ، رأت الأمة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح أعينها وهز أعصابها واستثار فيها روح التطلع الى المجد والعلا ، رأت نابليون بونابرت يخطب ودها ، ويشيد لعظمتها ، ويتملق كبرياءها القومى ، ويتغنى بماضيها ويعلن حقها فى أن تحكم نفسها بنفسها ٠

« ثارت فى وجه الحكم الفرنسى غير مرة ، فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القـوة المسلحة ،وألفت خوض غمار الوقائع والمعارك ، قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش ، رأت خلاصة علماء فرنسا وأطبائها ومهندسيها يعرضون عليهـــا آثار علمهم وفلســـفتهم وحضارتهم وتجاربهم ، رأت علوما وأفكارا جديدة ، ومنشآت ونظما حديثة ٠٠» تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ٢٥٧ ــ ٢٥٨ ٠

وقد اقتبسنا هذا النص الطويل رغم ما فيه من تشدق زائد وعدم دقة لكى يعطى فكرة عن الاحساس السائد لدى الطبقة السياسية المصرية فى الفترة المعاصرة ٠

(١٦) ل٠ عوض : **المؤثرات** ، جـ ٢ ، ٥٠

(١٧) A. Galland : Tableau de la France, ‌ؤ : 135.

(١٨) حول الجنرال يعقوب ، انظر :

Gaston Homsy : Le général Jacob et l'expédition de Bonaparte en Egypte, Marseille, 1921; la Préface de Georges Douin à L'Egypte indépendante, projet de 1801 (documents Inédits), Société Royale de Géographie d'Egypte, Impr, de l'Institut Français d'Archéo- **logie Orientale, Le Caire, 1924 i-xvi;**

الطريق الذى سارت فيه الأفكار المتعلقة « بالوطن » « والأمة » قبيل استيلاء محمد على على السلطة ٠ وقد ظلت وثائق هذا المشروع حتى الآن موضع تحفظ شديد من جانب المؤرخين المصريين ، باستثناء صبحى وحيدة ولويس عوض ، وهى الوثائق المتبادلة مع العقيد بحرى « جوزيف ادمون » قبطان السفينة الحربية «بالاس»، لنقلها الى الأميرال «ايرل سان فنسنت»، اللورد الأول وزير البحرية ، فى عام ١٨٠١ عند جلاء القوات الفرنسية ، نظرا لعدم امكان التفاوض فى ذلك الوقت مع « بونابرت » مباشرة ٠ وقام يعقوب بتقديم نفسه على أنه رئيس « مفوضية مصرية » ، يوجد بعض أفرادها فى باريس ٠ ويقول القبطان ج٠ «ادمون» : « لقد صرح لى فى ٤ أكتوبر ١٨٠١ بأنه يفضل أية حكومة لبلاده على حكومة الأتراك ، وأنه انضم الى الفرنسيين تحدوه رغبة وطنية لتخفيف آلام مواطنيه ، وأن الفرنسيين خدعوهم ، وفى هذه اللحظة فان المصريين يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الاتراك من قبل ، وأنه ما زال يأمل ، عن طريق الحكومات الاوروبية ، ان يفعل خيرا لبلاده ويعتقد آن رحلته الى فرنسا ستحقق هذا الهدف [٠٠٠] » ٠ وقام يعقوب نفسه كتابة « **مذكرات** » موجهة الى لورد « كيث » قائد الاسطول تتضمن جوهر آرائه ومفاهيمه : « اذا كانت مصر ، التى ازدهرت فى الماضى ، لا يمكن لها أن تثير العرفان بالجميل ، فلا أقل من أن تثير شفقة الدول الاوروبية الكبرى وأنها باستردادها لنفسها ، وهى قادرة على ذلك فى وضعها هذا ، تثير اعجاب جميع الحكومات التى تطمع فيها ، وبذلك لا تضر أحدا ٠ » هكذا عبر يعقوب عن مبدأ خصوصية الأمة المصرية التى تطوع هو ليعيد لها استقلالها ٠ وفى النقطة السابعة من هذه الوثيقة يتحدث عن طبيعة الحكومة : « لتكن الحكومة الجديدة عادلة ، حازمة ، وطنية [٠٠٠] كحكومة شيخ العرب امام في الصعيد (التى رويت لكم حكايتها) ومن المؤكد أنها ستكون موضع احترام وطاعة وحب ٠ » ومن المحتمل أن تكون كلمة « وطنية » هنا تعنى « مستقلة » أى نابعة من اتفاق الشعب المصرى أو ارادته ٠وبعد قليل ، يتحدث عن ضرورة تشكيل « فرقة مساعدة أجنبية من ١٢ الف الى ١٥ ألف رجل » « فرقة مساعدة [تصبح] نواة الجيش الوطنى ، وهو يقدر أنه لابد من مرور وقت طويل حتى « تصبح هذه الثورة الوطنية منظمة وعلى قدر من الهيبة » ٠

وقد أكد مرارا على الوحدة الوطنية ، كالوحدة المبكرة تحت نير الحكم

م٠ش٠ غربال : **الجنرال يعقوب والفارس لاسكارس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١** ، القاهرة ١٩٣٢ ، لجنة التاريخ القبطى : **الجنرال يعقوب واستقلال مصر** ، مطبعة التوفيق ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، ل٠ عوض : **المؤثرات** ، جـ ٢ : ٥٢ ــ ٧٧ ٠

العثماني : « ان مصر المقسمة الى عدة شيع وطوائف تقدم الوسائل السهلة لتنظيمها وتحقيق التوازن بينها » وتحرص المفوضية المصرية ، بلا تحزب على الارتباط بكل هذه الشيع والطوائف بصورة أكثر اتساعا وهو ما يخفى وسيظل خافيا كلية على ادراك الحكومة التركية فى مصر [...] . » وأخيرا فى المادة الثامنة ، ولاول مرة ، يكون مصير الوطن مرتبطا ارتباطا وثيقا لا ينفصم بالاستقلال : « ان المصريين عامة ، ومفوضيتهم بالنيابة عنهم لدى الحكومات الأوروبية ، سيبذلون ما وسعهم من جهد فى سبيل التخلص بأية وسيلة من النير الذى يجثم على وطنهم المنكوب [...] (١٩) . »

هل كانت المفوضية المصرية فعلا مفوضية ؟ لقد جمع يعقوب أعيان القاهرة الاقباط : جرجس الجوهرى ، أنطون أبو طاقية ، فلتاؤوس ملطى (٢٠) ، لكن الجبرتى لا يذكر أى لقاء بين يعقوب وقادة مصر الوطنيين فى ذلك العصر . أما شفيق غربال فيرى أن الجنرال يعقوب لا وجود له : فهو ليس سوى وكيل الفـــارس « لسكاريس » ، ووســـيطه لدى الأسطول الانجليزى (٢١) . وكتب « جورج دوان » ، الذى قدم هذه الوثائق عام ١٩٢٤ يقول : « لا شك أن «بونابرت» ما كان ليقابله أثناء وجوده أو يعيره أذنا صاغية ربما لأن عدم الاستيلاء المباشر على مصر ، جعل استقلالها يبدو له متفقا ، كما هو الحال الآن ، مع المصالح الدائمة لفرنســـا فى البحر المتوسط وفى العالم ، وعلى هـــذا الأساس فان مفاوضات « اميـــان » (Amiens) للسلام كانت ، فيما يتعلق بمصر ، ستسير فى طريق مختلف وتفضى الى اتفاقيـــات أخرى غير تلك التى تضـــع هذا البلد بلا شروط ولا تحفظات تحت سيطرة الباب العالى (٢٢) . » ولعل أنصف تحليل هو ما قام به لويس عوض — فى نفس اتجاه صبحى وحيده — وهو ما نأخذ به هنا : فأمام التيار المنادى بـ « أى شىء فيما عدا حكومة الأوروبيين » ، والتيار المتمثل فى « انقاذ ما يمكن انقاذه » ، كان يعقوب يمثل تيار « أى شىء فيما عدا حكومة الأتراك والمماليك » ، ومحاولته ، حتى لو كانت بتحريض من الفرنسيين ، فانها ليست عديمة القيمة ، اذا ما قارناها بموقف التبعية لشيوخ الأزهر من بونابرت ، انها تمثل احدى المحاولات الوطنية التى قام بها الشعب المصرى لاستعادة استقلاله مستفيدا من تغير التوازن بين الدول الكبرى (٢٣) .

(١٩) L'Egypte indépendante, 1-12.

(٢٠) G. Homsy : Le général Jacob, 130.

(٢١) م.ش. غربال : **الجنرال يعقوب والفارس لسكارس** .

(٢٢) مقدمة L'Egypte indépendante, xv-xvi.

(٢٣) صبحى وحيدة : **فى أصول** .. ، ١٣٠ — ١٣٤ ، ونجد عنده أول تقدير نقدى ايجابى للعمل الذى قام به يعقوب باعتباره مثيلا لما قام به عمر مكرم ؛ ل. عوض : **المؤثرات** ، ج ٢ : ٧١ — ٧٧ .

ونحن حتى الآن مازلنا فى مجال ازاحة آثار الحطام الذى تركته فترة الانحطاط الطويلة على الضمير الوطنى المصرى · ويأتى عهد كل من محمد على واسماعيل ليهيىء الدافع الاجتماعى ــ السياسى الذى سيتيح لرفاعة الطهطاوى أن يصبح منظر الأمة المصرية · ويكون ذلك على مرحلتين : « **تخليص الابريز** » ثم « **مناهج الألباب المصرية** » · وخلاصة الكتاب الأول كما أشرنا الى ذلك مرارا ، هى ادخال مبادىء الثورة الفرنسية فى النهضة الوطنية فى مصر الحديثة · ويستند الدفاع عن الحريات العامة دائما على مراجع من التاريخ المصرى · ففى تعليقه على المادة الثالثة من ميثاق عام ١٨٣٠ ــ حول مبدأ المساواة بين المواطنين فى تولى المهام العامة ــ يذكرنا بأصول المسألة :

« وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبطية كانت تعين لكل انسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده · قيل سبب ذلك ان جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة عندهم من مقتضيات الأحوال لأنها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال فى الصناعة » ·

وأشار الى أن المصريين مازالوا يتذكرون رواية مالك بن أنس عن موقف الخليفة عمر ازاء الاهانة التى ألحقها أحد أبناء عمرو بن العاص بأحد المصريين وهم فى ذلك الوقت رعايا الخليفة العربى ، وذلك للتدليل على مبدأ مساواة الجميع أمام القانون · ان الحاجة على اثارة الماضى المصرى كان من الطبيعى أن يتيح له ، فى النهاية ، بالاضافة الى تقريب مصر من أوروبا فى عصر الثورات ، أن يفصلها عن تركيا ، وأن يؤكد طابعها الخاص الذى تمتزج فيه العناصر الفرعونية القديمة بالعناصر العربية الأسلامية ، فكتب يقول :

« فلم يبق علينا الا ذكر خلاصة هذه الرحلة ، وما دققت فيه النظر وأمعنت فيه الفكر ، فأقول : ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس ، وأقوى مظنة القرب بأمور كالعرض والحرية والافتخار ، ويسمون العرض شرفا ، ويقسمون به عند المهمات ، واذا عاهدوا عليه وفوا بعهودهم ·· » ·

« وعلى ذلك فليس من قبيل المبالغة أن نساند قول لويس عوض بأن دور الطهطاوى فى تحدى الايديولوجية القائمة على الجامعة العثمانية باسم الجامعة الاسلامية وفى توكيد الفوارق بين خصائص المصريين والعرب عامة أفرادا ومجتمعات وخصائص الترك ، اى باختصار : توكيد القومية

المصرية والقومية العربية ، كان سلاحا قويا فى حرب العقائد التى شنها المفكرون المصريون والمفكرون العرب عامة على فكرة الجامعة الاسلامية التى كان الاتراك يحكمون الشعوب العربية تحت لوائها (٢٤) . »

وقد أصبح هذا الموقف ممكنا مع سياسة الحكم الذاتى واتجاهها الى الاستقلال التى أستهلها محمد على وابنه ابراهيم ، وهو ما سندرسه فيما بعد .

وتقل معرفتنا بتطور أفكار « الشعب و « الأمة » و « الوطن » على عهد سعيد . ان ل . « زولندك » يؤكد أن اختفاء عبارة « الشعب من كتابات الطهطاوى ترجع الى تعارضها مع المفهوم التوحيدى « للأمة » ، ويشير الى أن المؤلفين السوريين المسيحيين فى ذلك العصر وخصوصا نيقولا الترك كانوا يكثرون من استخدامها ، غير أن ذلك كان يحدث فقط عند حديثهم عن فرنسا ، أما عبارة « الأهالى » فقد كانت خاصة بمصر (٢٥) . ومع ذلك ، يكفى الاطلاع على مذكرات عرابى التى نشرت بعد وفاته ، لادراك مدى الحماس الذى بلغه الشعور بالانتماء الى « الوطن » المصرى ، منذ أوائل عهد سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) . وقد كتب عرابى يقول : « ولشدة اعجابه بى أهدانى (أى سعيد) تاريخ نابليون بونابرت باللغة العربية (طبع بيروت) وهو بادى الغيظ على أن تمكن الفرنساويون من التغلب على البلاد المصرية ، والتحريض على وجوب حفظ الوطن من طمع الأجانب » .

ثم يعقب ذلك اعجابه بالخطبة التى ألقاها سعيد بعد قليل من اعتلائه العرش أمام كبار رجال الدولة .

— أيها الاخوان .. انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مستعبدا لغيره من أمم الارض . فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والأشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام . وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب ، ومن الترك ، والاكراد والشركس . وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن (بونابرت) » .

« وحيث انى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل » .

---

(٢٤) المؤثرات ، جـ ٢ : ١٣٠ — ١٥٢ .

(٢٥) Léon Zolondek : «Ash-sha'b in Arabic political literature of the 19th. century», Die Welt des Islams, x (1965), no. 1-2, 1-16 (1-2).

فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا ٠ وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا ٠ وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام « مصر للمصريين » (٢٦) ٠ »

ثم يعقب ذلك اعجابه ـ بالخطبة التى ألقاها سعيد بعد قليل من اعتلائه العرش أمام كبار رجال المملكة ٠

« وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة (٢٧) ٠ » وعلى الرغم من تناقضات سعيد فقد أفاض في تشجيع الدراسات التى يقوم بها «مرييت» عن تاريخ مصر الفرعونية والكشوف التى كان يقوم بها محمود الفلكى(٢٨)٠

يعتبر « **مناهج الألباب المصرية** » ، الذى كتب فى عام ١٨٦٩ ، أكمل تعبير عن البناء النظرى للقومية المصرية فى أوج حكم اسماعيل ٠ انها السنة التى ساوى فيها «ديليسبس» « بين المصرى[٠٠٠] وغيره من الأفراد المنتمين الى أصل حبشى (٢٩) » ، كما أنها السنة التى أصدر فيها الباب العالى قانون ١٣ يناير ١٨٦٩ حيث تقضى مادته الأولى بأن « كل فرد يولد من أب عثمانى وأم عثمانية ، أو أب عثمانى فقط ، فهو رعية عثمانية (٣٠) » ـ ناسبا بذلك ،وبطريقة قانونية ، المصرى الى الجنسية العثمانية ٠ وبعد ذلك بقليل ، صدرت الفرمانات التى انتزعت انتزاعا من اسماعيل فى عامى ١٨٦٦ و ١٨٦٧ والتى أوجدت فكرة « التبعية المحلية المصرية » (٣١) indigénat égyptien لكن الخلط بين الجنسيتين ظل حتى عام

(٢٦) أورد نصها أحمد عرابى : **مذكرات عرابى** ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٥٣ ، جـ ١ : ١٥ ـ ١٦ ٠

(٢٧) وردت هذه العبارة فى الطبعة الأصلية للمذكرات التى صدرت بعنوان :
كشف الأستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ، مطبعة مصر ، القاهرة ، د٠ت ، ١٦ ، اما طبعة ١٩٥٣ التى صدرت بمقدمة للواء محمد نجيب ، فقد حذفت هذه العبارة ٠

(٢٨) ع٠ الرافعى : **عصر اسماعيل** ، جـ ١ : ٢٨ ٠

(٢٩) **Egypte et Turquie, Plon, Paris, 1869. 6.**

(٣٠) **P. Arminjon : «De la nationalité dans l'Empire Ottoman, spécialement en Egypte», Rev. Gén. de Droit International Public, viii (1901), 520-67 (520).**

(٣١) « تتبدى التبعية المصرية على الأخص فى الحقوق والامتيازات التالية :

أولا ـ يتمتع المصريون وحدهم ، الرعايا المحليين ، بالحقوق السياسية فى مصر ٠٠ ،
ثانيا ـ ان مرسوم ١٨٩٢/١٢/٤ (مادة ١٩) ٠٠ يعتبر مصر بين الرعايا العثمانيين الذين ولدوا فى مصر ويقيمون فيها أو نفس الرعاية العثمانيين الذين أقاموا فى مصر ١٥ =

١٩١٧ ، أى بعد ثلاث سنوات من بدء الحماية البريطانية (٣٢) ٠ ومع ذلك فقد تجددت الأحداث بصورة مختلفة : « كان يوم ٢٥ أبريل ١٨٥٩ وهو يوم عيد القديس مرقص ، حامى مصر ، هو اليوم الذى قام فيه «ديليسبس» برفع العلم المصرى فى مكان العمل (فى قنـــاة السويس) ايذانا ببدء المشروع (٣٣) »٠ وكانت تلك الفترة تمثل قمة حملات البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية من أجل انتزاع المسيحيين المصريين من الكنيسة القبطية وقـــد عرف الاقباط فى عهـد محمـد عـــلى نوعـا من الحرية الجـــديدة ، بعد تعسف المماليـــك (٣٤) ٠ ومع ذلـــك ، وكما يقول ب٠ س « شـــولير » ، « فان المسيحيين والأقبـــاط يدينـــون لسعيـــد والخديوى اسماعيل باندماجهم الكامل فى جسد الأمة [٠٠٠] ٠ فكـــان اسماعيل يقدر أن الأقباط والمسلمين مصريون على قدم المساواة (٣٥) ٠ » وقد انتقل اسماعيل من القول الى الفعل : فى حين كان جده ، الذى كان مهتما قبل كل شىء بالفاعلية ، ويستعين بالمسيحيين الأوروبيين والشرقيين الذين كانت تشكلهم وتوجههم البعثات الكاثوليكية (٣٦) ، كان اسماعيل يدرك تماما الفرق بين أحفاد قدماء المصريين وبين أشياع أوروبا التى تتربص بالبلاد وتلقى فيها بالرجال ورؤوس الأموال تمهيدا لاحتلالها ٠ أما سعيد فقد دعم مجهودات البطريرك كيرلس الرابـــع (١٨٠٦ ــ ١٨٦١) « أب الاصلاح القبطى (٣٧) » وقام البطريرك بين ١٨٥٤ و ١٨٦١ بعمل عظيم

عاما على الأقل ٠٠ » ٠ وبرغم الفرمانات ، وبرغم الانفصال الذى أحدثه الاحتلال لن يتحدد مفهوم الجنسية المصرية عشر سنوات بعد هزيمة التل الكبير ٠

(C. Dahan : «La question de la nationalité en Egypte et les différents problèmes qu'elle soulève», Eg. Cont., vii, 1915-16, 355-66 (357-8).

(٣٢) وفى عام ١٩١٧ يعود نفس المؤلف لكى يؤكد مرة أخرى هـــذا الوضـــع :

« وبما أنه لم يصدر قانون جديد خاص بالجنسية المصرية فمن المستحيل عمليا التمييز بين من هو مصرى ومن هو عثمانى »

(C. Dahan : «La notion moderne de l'allégeance et le régime qu'il convient d'appliquer à la nouvelle nationalité égyptienne». Eg. Cont., viii, 1917, 107-25 (109).

(٣٣) L. Doutreleau : "Esquisse historique de Port-Saïd», Cah. d'hist. égyt., vi (1954), no 3-4, 180-228 (197).

(٣٤) أنظر ، على الأخص مادة « الاسكندرية »

«Alexandrie» par Mgr. Alfred Baidrillart = Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique, ii : 363; Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes d'Egypte, La Colombe, Paris, 1960, 148-9.

(٣٥) S. Chauleur : Ibid., 152-3.

(٣٦) A. Baudrillart : Alexandrie, 363.

(٣٧) حول أعمال كيرلس الرابع ، من المفيد الرجوع الى الدراســـة الايضاحية التى قدمها عزيز سوريال عطية :

Aziz S. Atiyah : A history of Eastern christianity, Methuen and Co. London 1968, 103-7. =

وهو اقامة اثنتى عشرة مدرسة قبطية فى مدينة القاهرة وحدها ، فى نفس الوقت الذى اعترف فيه السلطان بالعقيدة البروتستانتية كعقيدة دينية جديدة فى الامبراطورية (١٨٥٠) ، ومن بين هذه المدارس كانت أول مدرسة للبنات فى مصر ، وانشاء كلية قبطية أرثوذكسية بهدف تكوين رجال دين من نوع جديد ، وهى كليـة مجانية ، على مســـتوى كبرى المدارس المتخصصة فى ذلك العصر ، وذلك بميزانية بلغت ٦٠٠ر٠٠٠ قرش ،وتجديد المنشآت الدينية ، واعادة تدريب رجال الدين العصاميين ، وتغيير الطقوس واعادة تنظيم الشئون الادارية والمالية ، والوساطة بين الخديوى سعيد ونجاشى اثيوبيا « تيودورس » (٤ سبتمبر ١٨٥٦ ـ ١٣ فبراير ١٨٥٨)، واستهلال سياسة أرثوذكسية مستقلة • ويبـدو أن هذا العمل الأخير قد أحدث خلافا بينه وبين سعيد الذى أراد أن يدس له السم •

أما اسماعيل فقد مضى الى أبعد من ذلك بكثير • فقد أصدر أمرا الى مديرى الاقاليم فى الصعيد بالقيام رسميا بمساندة البطريرك كيرلس الخامس ، الذى دخل أسيوط عام ١٨٦٧ كحامل لواء المسيحية الوطنية ، بهدف القضاء على تسرب البعثات التبشيرية البروتستانتية (٣٨) • غير أن النجاح الوقتى الذى حققه البطريرك اصـــطدم بعقبة كبرى ألا وهى الأهداف المغرضة التى كان يسعى اليها التعليم المجانى الذى كانت تقدمه المدارس البروتستانتية فى الصعيد والتى هاجمها الوالى فى بيان أصدره عام ١٨٦٧ جاء فيه : « أن الوالى قد لاحظ أن بعض الأفراد يلجئون الى المدارس الأجنبية للتهرب من الواجبات الحكومية ـ وأن ذلك لا يرضى عنه الوالى (٣٩) • » وهناك الكثير من الدلائل على سخط المسيحيين الأوروبيين، وبخاصة إلكاثوليك ، على الأقباط المصريين فى ذلك العصر ، مما يؤكد

= وهو يعتمد على مؤلفات توفيق اسكاروس ، نخلة روفيلة ، الأسقف القبطى ايزودورس ومصادر وأعمال معهد الدراسات القبطية بالقاهرة الذى كان عميدا له فترة طويلة ، • « سروثمان » ، م • « قاولار » ، « ماريا كارمر » ، وبصـدد تغلغل البعثات الأجنبية ، أنظر :

A. Watson : The American Misson in Egypt, 1898 110; P. E. Shaw : American contacts with the Eatern churches 1820-1870, Chicago, 1937;

ج• سلامة : **تاريخ التعليم** الأجنبى •• ، ٦٢ ـ ٦٤ •

(٣٨) A. Watson : American Mission, 199-201;

(٣٩) نقلا عن ج• سلامة : **تاريخ التعليم الأجنبى** ، ٦٥ ، واعتمد فى تحليله للتغلغل البروتستانتى فى صعيد مصر على **تقرير كلية اسيوط للعام الدراسى ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦**

الطـــابع العنيف لذلك الصراع الذى كان وطنيـــا فى جوهره أكثر منه دينيا (٤٠) ٠

ان كتاب « **مناهج الألباب** » يحفل من أوله الى آخره بمعانى الولاء والتكريم للوطن المصرى والشعب المصرى ٠ والعودة فيه الى التاريخ وهى كثيرة ومتكررة ، لا تقتصر على المجال العاطفى فحسب ، انما تتدعم بالنقد والتمحيص ٠ فأولا : الولاء والتكريم انطلاقا من التاريخ : « فقد أجمع المؤرخون على أن مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عليا فى الفنون والمنافع العمومية » ، وهو ما تشهد به الآثار وخاصة آثار ممفيس « مدينة المملكة المصرية وكانت منزل الملوك

من القبط الأولى والعماليق ومسكن الفراعنة ومازال الملك بها الى أن ملك الروم اليونان ديار مصر فانتقل كرسى المملكة منها الى الاسكندريـة ومع ذلك لم تزل عامرة الى أن جاء الاسلام ثم خربت وفيها كانت الانهار تجرى من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار ٠

« ويقال ان ملوك الدنيا لو اجتمعوا واتفقوا على أن يصنعوا مثلهـا لما أمكنهم ذلك » (٤١) ٠

ان مصر أم الدنيا وهى أيضا « روضة الدنيا » ويفضلها على الشام والعراق اللذين كانا مقر الأسرات الحاكمة الكبرى في الامبراطورية الاسلامية.

---

(٤٠) ومن بين هذه الكتابات نذكر ما كتبه E. Cellion-Danglai « أجد بعض المشقة فى مناصرة اولئك الذين يعتبرون الأقباط الممثلين الأنقياء والذين ينحدرون مباشرة من العنصر المصرى القديم ٠ وفى جميع الأحوال فهم ليسـوا الا قطاعا ، هذا الجزء من البرجوازية الفاسدة المنحرفة التى سلمت البلاد الى العرب كرها فى سيطرة الامبراطورية اليونانية ولا سيما المسيحية التى لم تكن تعتنقها»
(Lettres sur l'Egypte, 67-8).
وكذلك A. Baudrillart : Alexandrie, 363.

والتحول من المســيحية الى الاســلام ، بوصفه أيديولوجية وطنية ، أحسن تقديره مؤلفون على قدر من التباين مثل H. Thiers : « لم تستطع المسيحية أن تقدم شيئا لهذا البلد الذى كان يحتاج الى دين يجعل منه قومية ٠ وقد كان ذلك هو دين محمد » (١١١)٠ ويقول نبيه كامل : « لم يكن الاسلام فى مصر ميلادا جديدا بل كان اصلاحا وتقويما »
(The national characteristics of the modern Egyptians, th. M.A., London, 1942, 98).

البطراوى فى رسالته الى أن « توزيع فصائل الدم فى مصر اليوم يبين أن جماهير الشعب متجانسة للغاية ولا توجد أية اختلافات دالة فى هذا المضمار بين الأقباط والمســلمين » ٠
A.M. Batrawi : The racial history of Egypt and Nubia from Predynastic to present times, th. Ph. D. Science, London, 1940, 132-3).

(٤١) **مناهج** ، ١٧٧ والنص مأخوذ عن الطبعة الثانية التى صدرت عام ١٩١٢ ٠ ويرى لويس عوض أن « العماليق » قد يقصد بهم الهكسوس ، وأن كلمة « المملكة » لا تشـير بالضرورة الى « الملكية » وانما الى الدولة (**المؤثرات** ، جـ ٢ : ١٥٤ ، ١٦١)

« ولم يكن في الأرض ملك أعظم من ملك مصر وكان جميع الأرمنيين يحتاجون الى مصر ٠٠ وهذا عين التمدن ، ولا يكون ذلك الا بتقدم الصنايع والفنون ويؤيد بقايا الآثار المشاهدة التى لا كان مثلها في غير مصر ولا يكون مع ما انمحى منها [٠٠٠] (٤٢) ٠ » وكان قد ظهر فى العام السابق ، كما ذكرنا، الجزء الأول من كتابه عن تاريخ مصر « **أنـــوار التوفيق** » معبرا عن الولاء والتكريم لتاريخ مصر على مر العصور ، وبالأخص خلال العصور القديمة ، ولذلك يكون الطهطاوى « أول مؤرخ مصرى آمن بأمجاد هذا التاريخ المصرى الفرعونى القديم ولم يلعنه ولم ينقص من قدره (٤٣) » ٠ انه يعبر تعبيرا واضحا عن فكرة الديمـــومة والاستمرارية فى « **أنوار التـــوفيق** » الذى يستلهمه كتابه « **مناهج الألباب** » : « فقد كانت مصر فى أيام الفراعنة أم أمم الدنيا [٠٠٠] فما

اختصت به مصر من بين الممالك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تنطفىء وتشرق شمس بهجتهـــا ثم تختفى ، فكانما نورها شىء ما كان ولا لمع ضوؤها فى زمن من الأزمان ، واما مصر فاغرب شىء من بقاء شمس سعدها وارتقاء كوكب مجدها انها بقيت سبعين قرنا حافظة لمرتبتها العليا ، لها اليد البيضاء والسلطنة المعنوية على سائر ممالك الدنيا ٠٠

وأعظم لفضل لديار مصرفي انتشار هذا التمدن المرقص المطرب (٤٤)»، ويناقش الطهطاوى فى مرحلة ثانية المشكلة النقدية : كيف يمكن تقدير هذه الاستمرارية وتلك الحضارة ؟ هناك عاملان فيمـــا يختص بمصر الفرعونية : « تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية والفضائل الانسانية [٠٠٠]، و [الواسطة الثابتة] هى المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية وتبعدها عن الحالة الأولية الطبيعية (٤٥) ٠ »« وعند فتوح الاسلام سلك الخلفاء والسلاطين والولاةبقدر استطاعتهم فى هذا السلوك وانما لما صارت مملكة مصر في قبضة الكوليمان وصار لهم عليها الرياسة واختلت أحوالهم وضعفت عندهم السياســـة ولم يبق لهم من شهامة الحكام الا مجرد احسان ركوب الخيل والفروســية بدون فراسة أهملوا عمليات النيل فخسروا من نيل الثروة وكسب السعادة خسرانا مبينا وهجم عليهم الفرنساوية فلم يجدوا لهم من النظام المعنوى

(٤٢) **مناهج** ، ١٧ ٠

(٤٣) ج٠ الشيال : **التاريخ والمؤرخون** ٠ ٧١ ٠

(٤٤) أنوار **توفيق الجليل** ، ٩ ــ ١٠ ٠

(٤٥) **مناهج** ، ٧ ــ ٨ ٠

ولا الحسى منجدا ولا معينا فتبدد شملهم بالكلية وصارت مصر فى يــد الفرنساوية تعد اقليما من أقاليم الجمهورية ولم تعد للدولة العلية الا بعد التى واللتيا فزحف عليها المماليك وبالهمة المحمدية العلية لم يلبثوا بها مليا ثم بتوطن هذا الأمر وتوطيد هذا السرير أدرك أنه لم يســـتول · من الأراضى الا على مــوات ولم يسترع الا احيــاء ضـــعاف الهمــة وهم فى الحقيقة لاختلال الهيئة الاجتماعية فى حيز الأموات » ·

« فكان المماليك المستولون عليها لا ينظرون الى عمارتها وانما يأخذون ما بدا لهم وراج فى كل عام حتى صارت يبابا وازدادت خرابا فقد كان أهملها المماليك نحو خمسين سنة بدون عملية نيلية (٤٦) فكانت الأراضى تفسد فى كل عام فى كثير من الأقاليم حتى هجمت جيوش رمال البرارى على وادى النيل الصالح للزراعة فتكون من الرمال على شواطىء النيل تلال وأكوام ولو بقى حكم ابراهيم بك عشرين من الأعوام لفسدت جميع أراضى مصر الزراعية ·

« قال نابليون حين تأمله فى أراضى مصر لو حكمت هــذه الديار بحكومة منتظمة مضاهية لحكومة فرنسا وايطاليا وانكلترا والنمسا لزادت مزارعها وأهاليها ثلاث أضعاف ما كانت عليه فى أيام المماليك ·

« فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق تتوزع بينهم أقاليم مصر وكل سنجق يقطع لكشافة القرى والنواحى وكان كل سنجق منفصلا عن غيره بادارته وسياسته لا يتبع الا هوى نفسه ولا يطيع الا ما يسوله له عقله من وسائل التخريب وان كان مستقيما للصدفة والاتفاق فالغالب عليه التكلل وعدم النشاط فكان فى أيامهم لكل قســـم وكل قرية ترع وجسور خصوصية لا ينتفع من السقى منها الا أهاليها ولم يكن بينهم روابط عمومية فكان أصحاب الأراضى والمزارعون لها المجاورون شـــطوط الماء يحتكرون الرى والسقى ويختلسون من المياه ما هو قريب منهم ويمنعون

---

(٤٦) حول هذه الفكرة ، انظر :

K. wittfögel : Oriental despotism; Claude Cahin ; "Au seuil de la troisième année : Réflexon sur l'usage du mot de féodalité», Journal of the Economic and Social History of the Orient, iii (1960), no. 1, 2-20;

وكذلك المناقشات التى دارت حول « نمط الانتاج الآسيوى » ويمكن فى هذا الصدد الرجوع الى الدراسات الايضاحية التى قدمها

Jean Chesneaux : «Où en est la discussion sur le mode de production asiatique ?», La Pensée, no 122, août 1965, 40-59; no 126, oct. 1966, 47-55.

وبالنسبة لمصر ، انظر : ابراهيم عامر ، **الأرض** ، أ نور عبد الملك : **المجتمع المصرى والجيش** ، الخ ·

الأراضي البعيدة من ذلك مع كونها لها حق فى مشاركتهم فى المياه عند الفيضان فكان ينشأ من هذا ما لا مزيد عليه من عداوة قرية لأخرى وربما ترتب على ذلك القتال وسفك الدماء فلهذه الحوادث الجارية فى أيام حكمهم تقهقرت العمليات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين » (٤٧) ٠ ٠ ومع ذلك فان مجهود محمد على كان عظيما ٠ ان الطهطاوى يكثر من الحديث عن المشروعات الكبرى المائية والاقتصادية ، وعن اقامة جيش قوى يرتكز على قاعدة صناعية ، وهو يجعل منه الاسكندر الأكبر الثانى (٤٨) ، وفى كل مناسبة وفى كل مكان ، يحمل المماليك مسئولية الاضمحلال فى حين يجامل الاتراك ، ذلك لأن مصر كانت ما تزال جزءا من الامبراطورية ٠

هل يمكن الآن التمييز بين « الوطن » و « الأمة » ؟ ان الطهطاوى هو أول مفكر فى العالم العربى والاسلامى يرى ذلك ويعبر عنه بوضوح تام :

« فجميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من أخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية فيجب أدبيا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناء ثروته (٤٩) ٠ »

ان أ٠ حورانى يرى فى ذلك ، وهو على حق ، خلق « الفكرة الخاصة عن الوطنية الاقليمية بالمعنى الحديث ، حيث مسقط رأس الانسان ـ الوطن يصبح بؤرة الواجبات التى كانت فى نظر فقهاء المسلمين ، تربط أعضاء الأمة بعضهم ببعض ، فيصبح ذلك الشعور الطبيعى الذى يرى ابن خلدون أنه كان موجودا بين الناس الذين يربط بينهم رباط الدم (٥٠) » ، هو ما جرى العرف على تسميته بالعصبية ٠ ان هذا الوطن هو قبل كل شىء مصرى : فالمعيار الذى يقوم عليه الكتاب من أوله الى آخره ، نابع من عظمة مصر الفرعونية والعصر الاسلامى فى حدود اقتفائه لأثرها ٠ فالوطن اذن هو أرض مصر منذ الفراعنة حتى محمد على ، وأبناء مصر هم الفراعنة والاقباط والمسلمون وأولئك من بين الغزاة الذين اندمجوا في العظمة التليدة٠ ويمكننا أن نصفه بأنه وطنى مصرى اسلامى ، وحينئذ يكون الاسلام هنا هو الوجه الحديث لمصر الفرعونية القبطية ، ولم يحدث للطهطاوى فى أى وقت من الأوقات أن وصف مصر بأنها عربية (٥١) ٠ « فحب الأوطان

---

(٤٧) **مناهج** ٠٠ ، ٢٢٤ ـ ٢٣٦ ٠

(٤٨) **المرجع السابق** ، ٢٠٦ ٠

(٤٩) **المرجع السابق** : ١٨٧

(٥٠) Arabic thought, 78-9, 82.

(٥١) وقد حاول العديد من الكتاب فى الفترة الحديثة دفع تفكير الطهطاوى فى الاتجاه العربى ، ولا سيما حسين فوزى النجار : **رفاعة الطهطاوى** ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، القاهرة ، د٠ت٠ (حوالى ١٩٦٦) ٠

[٠٠٠] أبهى عنوان ، وهو فضيلة جليلة [٠٠٠] ، ـ لا سيما اذا كان الموطن منبت العز والسعادة والفخار والمجد كديار مصر ، فهى أعز الأوطان لبنيها ومستحقة لبرها منهم بالسعى لبلوغ أمانيها ، ـ بتحسين الأخلاق والآداب، من جهتين عظيمتين :

الأولى : أنها أم لساكنيها ، وبر الوالدين واجب ـ عقلا وشرعا ـ على كل أنسان ٠ ـ والثانية : أنها ودود بارة بهم ، مثمرة للخيرات ، منتجة للمبرات ٠٠٠ » (٥٢) ٠

ومنذ ذلك الحين ، بدأت فكرة الوطن المصرى تهيمن على أيديولوجية الحركة الوطنية بأكملها حتى الوقت الذى حدث فيه التمايز الأساسى بين التحديث الليبرالى والاصولية الاسلامية فى أوائل القرن العشرين ٠ ان احدى الصحف الأساسية التى كانت تساند اسماعيل خلال السنوات الحاسمة ، كانت تحمل اسم « **الوطن** » وكان يديرها ميخائيل عبد السيد عام ١٨٧٧ وكذلك خصص عبد الله النديم بطل المقاومة الشعبية ضد المحتلين مكانا كبيرا لمؤلفات الطهطاوى فى مكتبته التى كان يحملها فى فراره طوال فترة اختفائه لمدة تسع سنوات ، كما تأثر به مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى (٥٣) ٠ ان أيديولوجية الحركة الوطنية بأسرها التى شملت مصر من ١٩٠٧ حتى ١٩٥٢ من جهة ،والفكر الاشتراكى المصرى من ١٩٢٠ حتى اليوم، يحملان بصمات المفكر الذى كان أول من أعطى الاسس النظرية للوطنية الحديثة ولخصوصية مصر الناهضة (٥٤) ٠ ان الطهطاوى ـ الذى ترجم أيضا الى العربية نشيد فرنسا الوطنى ، « **المارسييز** » وأطلق على ديوانه اسم « **منظومات وطنية مصرية** » أعطى المثل لتلميذه عبد الله أبو السعود الذى ترجم تاريخ مصر منذ البداية حتى الفتح العربى من تأليف «أوجست مرييت » (١٨٦٤) ، ويتحدث فى المقدمة عن أغراضه قائلا : « لقد أراد الخديوى أن يوقظنا من هذه الغفوة بدراسة تاريخ أسلافنا لكى نتمكن من التحلى بفضائلهم المجيدة ، ونحتذى حذوهم فى العمل معا كمصريين جديرين بهذا الاسم وكمواطنين حقا من أجل رفعة مصر (٥٥) » ٠ ومع ذلك فان واضع علم التاريخ الحديث فى مصر ، محمد صبرى ، والذى يضع الطهطاوى فى مكانه الصحيح لا يرى هنا الدور الأساسى الذى لعبه الطهطاوى ، ذلك لأنه فى عام ١٩٣٣ لم يكن يبحث عن أسباب النهضة الوطنية أو

---

(٥٢) نقلا عن ج ٠ الشيال الذى لم يحدد المصدر : **رفاعة رافع الطهطاوى ١٨٠١ ـ ١٨٦٣** ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ٦٠ ٠

(٥٣) ج٠ الشيال : **التاريخ والمؤرخون** ، ٧٥ ٠

(٥٤) انظر دراستنا :
Robespierre, le jacobinisme et la conscience nationale égyptienne, 285-303.

(٥٥) نقلا عن **M. Sabry : Ismâ'îl et ingérence, 326.**

الحركة الوطنية المصرية ، وانما كان يبحث عن أسباب نهضة « مصر ، العربية الاسلامية ، بلغتها ودينها (٥٦) » ٠

ان دراسة مفهومى « الوطن » و « الأمة » ، من خلال أعمال الطهطاوى ، يجب أن تتم فى نطاق تطوره العملى ، وبالذات فى نطاق تحليل محتوى أفكار الحركة الوطنية التى جعلت مهمتها تحقيق الاستقلال والنظام النيابى ٠

ومع كل ، فعند هذه النقطة من تحليلنا ، يبدو من الانصاف ذكر البيان الذى أعلنه اسماعيل ، المعزول ، عن منجزاته : « لقد استعنت بعظمة السلطان ليحمينى من الضغط الأجنبى ، ولقد اجتزت ست عشرة سنة حافلة : ففى ظل ادارتى ، غطيت مصر بشبكة من السكك الحديدية ، وتوسعت مصر فى شق القنوات التى تخصب التربة ، وانشأت ميناءين السويس والاسكندرية ، وقضيت على مصادر العبودية فى وسط أفريقيا وجعلت علم الامبراطورية يرفرف على ربوعها التى كان مجهولا فيها ، وتمكنت من اتمام شق القناة التى تربط بين البحرين ، وأخيرا ، وبعد مقاومات طويلة ، شرعت فى اصلاحها القضائى الذى أعد من أجل المستقبل الوسائل لاقامة تناسق عادل فى لقاء حضارات الشرق بالحضارات الأجنبية (٥٧) ٠ »

---

(٥٦) نفس المؤلف : **المرجع السابق** : ٣٢٦ ٠ يوجد قدر من الاضطراب فى تحليل د٠ محمد صبرى : « ان قيام « شامبليون » لفك رموز الكتابة الهيروغليفية ، وانشاء المتاحف وانتشار دراسة المصريات وصحوة الدراسات التاريخية كل تلك العوامل عملت على تدعيم الشعور الوطنى الوليد عن طريق احياء أصول مصر ، أقدم الأمم المتحضرة » ثم يقول : « كما وجدت مصر الجديدة ، العربية والاسلامية ، بحكم ثقافتها ولغتها ودينها ، فى نهضة دراسات اللغة العربية وآدابها ، أسبابا للفخر والتضامن الوطنى ٠ » (٣٢٦ ــ ٣٢٧) ٠ وان تعبير « وطنى » الذى يتعين أن ينطبق على السمة المصرية التى تتحلى بها مصر اتسع نطاقه لكى يشمل العالم العربى والاسلامى دون ادراك التمايز المفهومى ٠

وفيما يختص بالتضامن الاسلامى فان منظر القومية العربية ساطع الحصرى يلحظ بحق ان عدم التدخل التركى أثناء الغزو العسكرى البريطانى فى عام ١٨٨٢ يرجع وفقا لما رآه الوزيران الأولان سعيد باشا وكامل باشا الى قرار السلطان عبد الحميد : « اخشى أن يفضى هذا الى أوخم العواقب ٠ فالجنود الذين قد يرحلون الى مصر يمكنهم الانبهار بهذه البلاد حيث تستولى على ألبابهم وتؤثر فيهم ، وحالما يعودون سوف يصبحون معادين لنا ٠ »
(M. Sâte' al-Hucrî : «L'idée de nation dans les pays arabes du début du 19ᵉ siècle à la création de la Ligue des Etats Arabes», Orient, 1963, no 27, 147-70).

اذن فان مصالح الدولة والمصالح الطبقية توجه ، هنا كما فى مكان آخر الايديولوجية وتقودها فى ركابها ٠

(٥٧) نقلا عن A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl 367;
والحملة الأولى ذكرها ٠ M. Sabry : Ismâ'îl et ingérence, 370, n. 1.

وتحت علم الأمبراطورية ، وفى مرحلة قريبة ، كانت تلك الافكار هى ذاتها أفكار الطهطاوى ، خاصة مفهومه عن الوطن ، التى أصبحت نفس أفكار مصر الرسمية ، وقد طرد رئيسها ، فى اللحظه التى بدأ فيها التقارب مع الأمانى الوطنية لمختلف قوى الطبقة الرأسمالية الجـــديدة التى كانت تتشكل ومع الحركة الوطنية التى شرعت فى انطلاقها النضالى ٠

ومع ذلك فان الطبقة الأولى ل « **دائرة المعارف الاسلامية** » الصادرة فى عام ١٩٣٣ (٥٨) ، لم تتضمن مادة عن (الوطن) ، والمادة التى خصصت ل « الأمة » اقتصرت على عصر محمد : أما القرنان التاسع عشر والعشرون فلا وجود معاصر لهما فى عالم المستشرقين — على عكس النسيج الذى يتشكل فى ضمير مواطنى أهل البلاد ٠

(٥٨) الطبعة الاولى : Paris-Leyden 1934, iv.

● الفصل السابع

الاستقلال الوطنى والحركة الدستورية

القسم الأول : من الحكم الذاتى الى الاستقلال الوطنى

ان تطور فكرة الاستقلال يمثل منحنى آخر ٠ ففى حين كان تقدم التبلور الفكرى لمفهومى الوطن والأمة يسير سيرا حثيثا ومنتظما نسبيا ، فان تقدم فكرة الاستقلال لم يكن يخلو من عثرات ٠

وهنا أيضا لعبت الحملة الفرنسية دورا حاسما — وربما جاء ذلك بفعل ما أثاره الاحتلال من ردود فعل معارضة بأكثر مما أسهم به عن طريق الاخصاب الفكرى الخاص ٠ ويعتبر التحليل العلمى لمختلف أنواع ردود الفعل التى أثارها « بونابرت » وجيشه شـــيئا حديث العهد ، فحتى السنوات الأخيرة جرت العادة على تمييز « القوى الوطنية » المصريـــة فى ذلك العصر طبقا لمظهرها الشكلى كما فعل عبد الرحمن الرافعى — الاتراك ، الانجليز ، المماليك (١) — هذا اذا لم يقتصر الباحث ، ببساطة ، على تقدير كلى لنصيب فرنسا فى النهضة المصرية فى المجال الثقافى بالذات ٠ ويرى لويس عوض أن نقطة الانطلاق فى التاريخ المصرى كله ، من ١٧٩٨ الى ١٩١٩ ، تتمثل فى الصراع بين تركيا وانجلترا وفرنسا للسيطرة على مصر ٠ وعلى ذلك فقد بدا له ممكنا التمييز بين « ثلاثة اتجاهات متباينة كل التباين » فى الفكر الوطنى المصرى قبيل حكم محمد على : الاتجاه الداعى الى « أى شىء فيما عدا حكم الأوروبيين » ، والاتجاه الذى يتقبل « أى شىء فيما عدا حكم الأتراك والمماليك » ، وأخيرا الاتجاه الذى يستهدف « انقاذ ما يمكن انقاذه » (٢) ٠ »

الجديد فى هذا التحليل يكمن فى تحديد الاتجاهين الأولين ٠ وسنبدأ

---

(١) **تاريخ الحركة القومية** ، جـ ٢ : ٢٥٤ — ٢٥٧ ٠

(٢) **المؤثرات** ، جـ ٢ : ٧١ ٠

بدراسة ثورتى القاهرة ضد الجيش الفرنسى من جهة ، ومشروع الجنرال يعقوب من جهة أخرى • أولا ، ثورتا القاهرة : كانت الثورة الأولى (٢١ ـ ٢٤ أكتوبر (١٧٩٨) مع امتدادها فى المدن والريف (٣) ، تبدو كرد فعل للاغتصاب المالى الذى مارسه جيش الحملة ضد الشعب مما أدى الى سوء حالته بشكل واضح ، وأكثر من ذلك ، الى سوء حالة الأعيان والمماليك • كما أن عوامل أخرى نفسية ومعنوية صدمت مشاعر هذه الفئات وتعارضت مع عاداتها (٤) • وكان أعيان القاهرة هم قادة الحركة ، وعلى رأســـهم الشيوخ سليمان الجوساقى ، وأحمد الشرقاوى ، وعبد الوهاب الشبراوى، ويوسف المصيلحى ، واسماعيل البراوى الخ ـ وقد أسفرت عن ألفى قتيل منهم ستة شيوخ ، كما أدت الى تعطيل الديوان • وعلى الرغم من تحفظات الجبرتى حيال عامة الشعب (٥) ، الا أنه يعطينا صورة عن الموقف ، اذا ما قابلناها بغيرها من الشواهد نجدها تبين أن هذه الحركة الأولى من الثورة الوطنية ضد الاحتلال الأوروبى كانت موجهة ضد المحتلين وحدهم وأفراد الشعب الذين ساعدوهم ومنهم بعض الأقباط (٦) • ولم يكن الوضـــع كذلـــك بالنسبة للثورة الثانيـــة (٢٠ مارس ـ ٢١ أبريل ١٨٠٠) : ففى هذه المرة كان التوجيه الفعلى فى أيدى الاتراك أمثال ناصف باشا ، ونصوح ، وعثمان كتخدا ، وابراهيم بك وجنودهم من الانكشارية ، وكذلك المماليك ، فى حين أن الشيوخ الذين اشتركوا فيهـــا ، وهم عمر مكرم وابراهيم بك وحسن الجداوى وحسين أغاخان وأحمد المحروقى الجوهرى، لم يكونوا يمثلون قلب هذه الثورة • والجبرتى الذى يتحـــدث باســـم رفاقه الأزهريين الذين أعيتهم الحيلة ، يصـــف لنا المجازر التى قام بها

---

(٣) انظر : الرافعى : **تاريخ الحركة القومية** ، ج ١ : ٢٦٥ ـ ٣١١ •

(٤) أنظر من بين كتابات أخرى الشهادة التى قدمها نيقولا الترك : « ومن ثم أصبحت اقامة الفرنسيين فى القاهرة غير محتملة ، ولا سيما عندما رأى المصريون النساء والفتيات المصريات عاريات الوجوه أثناء تجوالهن فى الشوارع ولاح على رؤوس الاشهاد انهن ملكية للفرنسيين يسرن فى صحبتهم فى الشـــوارع ويقطن معهم فى دورهم •• والواقع ، ان الاحتلال الفرنسى عمل على تحســين الأحوال المعنوية للطبقة الدنيـا ، البـائعين المتجولين ، الحمالين ، الحرفيين ، الحمارين ، السائسين ، القواد ، البغايا ، وباختصار فان حثالة السكان كانت مستريحة لأنها نعمت بالحرية • غير أن الصفوة والطبقة الوسطى عانيتا من كل الوان الضيق بسبب تعطيل الصادرات والواردات » •
(Chronique d'Egypte, ed. G. Wiet, 45).

(٥) **عجائب الآثار** ، لا سيما المجلد الثالث ، لويس عوض : **المؤثرات** ، ج ٢ : ٩٥ ، ١٠٦ ـ ١١٥ •

(٦) لويس عوض : **المؤثرات** ، ج ٢ : ١٠٧ ، وهو يؤكد بصفة خاصة الثورة التى قدمها عبد الرحمن الرافعى : **تاريخ الحركة القومية** ، ج ١ : ٢٦٥ ـ ٣١١ •

المرتزقة والجامعات المسلحة ضد الأقباط والأجانب ، والاعتداء على الشيوخ الأفاضل المتهمين بالسكوت ـ باختصار يصف لنا استغلال السخط الشعبى ضد المحتل لاعادة مصر ، شاءت أو لم تشأ ، تحت سيطرة المماليك والباب العالى (٧) ٠

وفى نقطة أخرى من هذا المنحنى للحركة الوطنية تقع مبادرة يعقوب٠ فقد تشكل « الفيلق القبطى » فى ٥ محرم ١٢١٥ هـ (١٨٠٠) قبل اسبوعين من اغتيال « كليبر » (٨) وبذلك يمكننا القول أن ثورة القاهرة الثانية، بسبب طبيعتها نفسها ، قد أدت الى تمايز الحركة الوطنية ، واستخلصت منها الاتجاهين اللذين يبحثان لمصر عن طرق أخرى غير الخط التقليدى الخاص بالامبراطورية التركية وسلطة المماليك ٠

وسرعان ما برزت مجموعة الوسط أنصار ما هو ممكن (الامكانيون) أولا وبصورة استعراضية ، وذلك فى الرســـالة التى قام بتوجيههـــا رؤساؤها ـ وهم الشيوخ السيد خليل البكرى ، عبد الله الشرقاوى ، محمد الأمير ، محمد المهدى ، مصطفى الصاوى ، سليمان الفيومى ، السيد على الرشيـــدى ، موسى سرسى ، عبد الرحمن الجبرتى ـ بايعاز من الجنرال « مينو » الى « بونابرت » فى ١٣ نوفمبر ١٨٠٠ بمناسبة تعيينه قنصلا أول لفرنسا [٠٠٠] لقد ظهرت فى هذا البلد كبارقة نور من الله [٠٠٠] اننا نقول لك ، لأن هذا هو الحـــق ، أن الأمة المصرية والأمة الفرنسية قد أصبحتا شعبا واحدا ٠ وهـــذا الاتحاد يتقـوى يومـا بعـــد الآخـر [٠٠٠] ٠ ونحن نريدك ألا تنسى أن مصر بلدك وأن شرف عاصمتهـا هو شرفك ، وأن سكانها يحبونك وينتظرونك ، وأن ديننا ، الذى نحبه يناديك وأنك بذلت له العهود وأنه قد تحدد اليوم الذى يجب أن تتحقق فيه وحدة الأمتين ، أمتك وأمتنا ، لأن الله يريد ذلك [٠٠٠] (٩) » ٠ وكان الموقعون

---

(٧) **عجائب الآثار** ، جـ٣ : ٩٣ ـ ١١٥ ٠

(٨) **المرجع السابق** ، جـ ٣ : ١١٥ ، لويس عوض : **المؤثرات** ، جـ ٢ : ١٠٧ وهو يؤكد على أن اغتيال « كليبر » جاء من طرق الجانب التركى ٠ وحول يعقوب ، يقول هيرولد : « لقد كان على قدر غير عادى من الفطنة والحنكة حتى بالنسبة لجاب قبطى ، كما أنه تحلى بصفة يندر توفرها فى أصله ـ الأقدام والكفاءة العسكرية » ٠ وفى صعيد مصر اعتبر الناس فرقة Desaik بمثابة « جيش المعلم يعقوب » ٠
(C. Herold : Bonaparte en Eg., 295).

(٩) A. Galland : Tableau de l'Egypte, ii : 8-11.
ومكان الجبرتى فى هذه المجموعة يبرر التقييم الاجتماعى السياسى الذى يقدمه عنه لويس عوض ٠ ويقدم المستشرق السوفيتى Kh. I. Kilberg تحديدا للجبرتى على ضوء المفاهيم الماركسية التقليدية : ومن الخطأ النظر الى الجبرتى بوصفه بطلا للمصـــالح الوطنية فانتماؤه الى طبقة اجتماعية (محظية) وميوله السياسية تتبدى بجلاء فى عمله ٠ وبلا منازع ٠ فانه يستهجن جميع ضروب الحركات الوطنية ٠ ولا يهتم بموقف الشعب الا بمقدار صلته =

على الرسالة هم قادة الديوان : وهذه الرسالة التى تحررت خلال القمع الشديد الذى شهدته القاهرة ومصر كلها قد وضعت بين محفوظات الديوان ولم تصل الى بونابرت • ان الانفتاح فى اتجاه الاتحاد يتحدث عن المستقبل ويتقدم فى حذر خلف ستار من الضباب البلاغى ، وقد وصفت هذه الوحدة ذاتها بأنها وحدة بين « أمتين » ، وعلى ذلك فان « الامكانيين » أنصار الوسط والممكن ليسوا خونة : فاذا لم يتمكنوا من رسم الطريق نحو الاستقلال ، فقد تصرفوا على الأقل ، وفى أسوأ الظروف ، لكسب الوقت بالنسبة للمستقبل •

أما يعقوب ،الذى كانت دوافعه فى المقام الأول تبدو مناهضة للاتراك، فقد كان أول من صاغ عبارة « مصر المستقلة » فى تاريخ البلاد الحديث - والوثائق التى سبق ذكرها تدور حول هذه الفكرة • وكانت مساعدة فرنسا فى رأيه مشوبة « بالتنازل » ما دامت « الجمهورية الفرنسية لا تزال راغبة فى تملك مصر (١٠) » ومن جهة أخرى كانت « الامبراطورية تتداعى من أقصاها الى أقصاها ، فاصبح من الهام عند الانجليز أن يتدبروا من بعيد الوسائل الأكيدة لاستغلال الفرصة السانحة بالطريقة المثلى التى تتفق ومصالحهم السياسية فى المستقبل • واذا كان يبدو مستحيلا لانجليترا أن تستولى على مصر كمستعمرة ، واذا كانت نفس العقبة قائمة بالنسبة لفرنسا ، فان مصر المستقلة ستكون ، على حد هذا التعبير خاضعة لانجلترا التى تتحكم فى البحار التى تحيط بها • » والآن ما هو تعريف مصر المستقلة هذه فى رأى يعقوب و « الاخوان المستقلون » ان استقلالها يؤدى الى ازدهارها السريع ، ولكنها لن تكون أكثر من قوة زراعية ، «تفيض تربتها الخصبة بالمنتجات الوافرة وتتحكم وحدها فى تجارة وسط أفريقيا»•

= بالطبقات السائدة • وفى أغلب الأحيان ، يصف الشعب بالسوقة والحثالة والدهماء والجحود •• غير أننا نصادف الجبرتى ، فى ذات الوقت ، الأحكام التى تشهد على قدرته على تجاوز تحيزات طبقته • وقد أتاحت له ملكاته الفكرية والمعنوية أن يحكم على عيوب طبقته ويدرك مدى انحطاطها » •

(«Djabartî ytchevlorty tom vevo istoritcheskov hroniki», Narody Azii i Afriki, no 2, 1967, 107-16).

(١٠) وقد تأكد هذا الاتجاه بالتحليل العام الذى قدمه مصطفى فهمى ، بالاضافة الى ما قدمه غيره :

Moustapha Fahmy : "La première convention commerciale franco-égyptienne au XVIII siècle (10 janvier 1785)», Cah. hist. égypt., vii (1955), no 1, 21-34;

وكذلك فى دراسة الحالة التى اضطلع بها

G. Homsy : «Un Egyptien colonel dans les armées de Napoléon Ier», Bull. Inst. Egypte, x (1929), 83-96.

ان الاستقلال سيكون « استقلالا تسمح به الحكومات الاوروبية » ، وليس بأى حال « ثورة صادرة عن أنوار العقل أو تفاعل وغليان مبادىء فلسفية متعارضة ، وانما كتغيير صادر عن قوة قاهرة حيال قوم مسالمين جهلاء لا يكادون يعرفون فى ذلك الوقت سوى عاطفتين أخلافيتين هما المصلحة والخوف • فيكفى أن يزيد مال المواطن قليلا أو تتيسر حاله قليلا نتيجة لقيام الحكومة الجديدة (وهذا أمر ليس صعب التحقيق) حتى يصبح مناصرا لها ومدافعا عنها ، ويحبها ، أليس أى شىء فى الوجود أفضل من التحكم التركى ؟ ولتكن الحكومة الجديدة عادلة وحازمة ووطنية [•••] (١١)» ان اسلوب الكلام ،مرة أخرى هو أسلوب رجل حبيس داخل مثلث السيطرة : كان الهدف هو الوصول الى بونابرت من خلال الاسطول الانجليزى فقد كانت القواعد المصرية ، مهما قال عنها يعقوب ، غير مؤكدة ومجزأة ، كان الجانب الأعظم من قوات الجنرال يعقوب من الأقباط المدفوعين أكثر من المسلمين الى الارتياب فى الامبراطورية العثمانية • وقد حدد « الاخوان المستقلون » الطريق الذى أصبح عام ١٨٠٠ طريق مصر المستقلة • وقد لعبت الثورة الفرنسية ، فى ذلك العصر ، دور العامل المساعد : فالى كل مكان فى أوروبا ، والى فرنسا ذاتها ، هاجر الناس ورجال دولة ومفكرون وأعيان يطلبون العون فى الخارج ويبحثون عن وسائل لبناء السلطة الوطنية أو اعادة صياغة طبيعتها فى بلادهم • وتنطبق هذه الملاحظة أيضا على عمر مكرم نصير المماليك والاتراك • كانت مصر ساحة معركة تتصارع فيها القوى الكبرى فى فجر القرن التاسع عشر ، ساحة معركة برزت بالكاد من ليل العصر الوسيط وتحت السيطرة العثمانية (١٢) •

ومنذ الجلاء الفرنسى وحتى تعيين محمد على واليا ، عادت البلاد ولاية عثمانية • فقد كان من نتيجة ثورة القاهرة الثانية أنها أضعفت موقف الفرنسيين بصورة حاسمة ، ودعمت الاتجاه الوطنى المؤيد للعثمانيين والمماليك ، ولم يتمكن عمر مكرم رغم تزايد سلطته ، أن يحول السلطة الى أيدى الطبقة السياسية المصرية الجديدة ــ المتمثلة فى العلماء والأعيان والتجار ــ فقد كان السلاح لا يزال فى أيدى سادة الأمس • وبعد أن قبر مشروع « الاخوان المستقلين » بموت رئيسهم على ظهر الباخرة التى كانت تنقله الى أوروبا ، وبعد تحييد البديل « الامكانى » المتمثل فى مشايخ

(١١) L'Egypte indépendante, 5-10.

(١٢) يرفض لويس عوض بحق رفضا قاطعا التفسيرات بالأبيض والاسود واللعنات والادانات التى لا طائل تحتها التى تبرز فى الكتب والمقالات المصرية عن الحركة الوطنية (**المؤثرات** ، جـ ٢ : ٧٤ ــ ٧٧) •

الديوان الذين واجهوا الاختيار الصعب ، فى غمرة العـــذاب ، فى فترة الدسائس والمؤامرات (١٣) ·

ان مصر فى عام ١٨٠٥ كانت مجرد ولاية فى الامبراطورية العثمانية ، أى أقل من مســـتوى « الاودجاك » · odjaks ومنهـا الجزائر · كان الوضع الجغرافى السياسى للبلاد يحد كثيرا من فرصـــة الانطلاق · ومع ذلك فان الرجل الذى استطاع أن يستولى على السلطة مؤيدا من العلماء والجماهير والمخلصين له من الالبانيين ، كان يقدر أهمية البقعة التى أصبح سيدها ، ولو بصورة غير مؤكدة · وكانت انجلترا تؤيد المماليك تحت زعامة محمد الألفى بك وتحرض الباب العالى على عزل محمد على منذ عام ١٨٠٦ · وفى عام ١٨٠٧ ، حاولت انجلترا غزو مصر بطريقة مباشرة ، غير أن انتصار المصريين فى رشيد فى ٣١ مارس ، قضى على المحاولة · وقرر محمد على ، وكان قد اعتمد عدة مرات على الأعيان وبخاصة عمر مكرم (١٤) ، أن يقضى على سطوة المماليك فى الصعيد خصوصا وأنهم كانوا حلفاء للانجليز : وتمكن بين يونيـــو ١٨٠٨ وأغسطس ١٨١٠ أن يخضع الصـــعيد لسلطانه ، وفى أول مارس ١٨١١ كانت مذبحة القلعة التى قضت قضاء مبرما على القوة المتمردة التى كانت تحول دون وحدة السلطة وتقف عقبة فى ســـبيل مشروعات الوالى الجديد · وقد أوضـــحنا ـ فى البابين الأول والثانى ـ منجزات محمد على لاقامة الصرح الوطنى والنهضة الوطنيـــة وذلك فى المجالين الاقتصادى والتعليمى مستهدفا بصفة خاصة انشاء جيش قوى · ويجدر بنا الآن أن نستخلص الدوافع والأفكار التى قادت الى هذا الاتجاه السياسى ·

لقد ظلت الأوضاع الجغرافية والسياسية ثابتة حتى سقوط نابليون ؛ وابتداء من عام ١٨١٥ بدأ الثقل النوعى لانجلترا يزداد ، ودخلت المعركة دول جديدة ولا سيما النمسا فى عهد ميترنيخ · وقد توافق ذلك مع الفترة التى بدأ فيها محمد على ، بعد أن أخضع المماليك ، فى بناء الامبراطورية وتنفيذ مشروعات التجديد الكبرى الداخلية · وقد ظهر انقسام المؤرخين وحيرتهم حيال معرفة ما اذا كان « الباشا » قد فكر ، منذ البداية ، فى الاستقلال أم لا · أما نحن فنرى أنه من الأفضل التعرض للمشكلة على الوجه التالى : كيف تصور محمد على الاستقلال ؟ وفى هذا الاطار : ما هو الدور الذى كان يراه للحكم الذاتى ، لا الاستقلال الادارى ، داخل اطار

(١٣) بالاضافة الى شهادة الجبرتى فان ما قدمه
Félix Mengin : Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed-Aly, Arthus Bertrand, Paris, 1822, i.
يعد أفضل صورة عن هذه الفترة المضطربة

(١٤) انظر : الرافعى : **عصر محمد على** ، ١٦ ـ ٧٩ ·

الامبراطورية ؟ فى ١٨ نوفمبر ١٨١٠ اجتمع محمد على وقنصل فرنسا « دروفيتى Drovetti فى جلسة سرية وطلب منه أن تقوم فرنسا بمساعدة مصر للتخلص من الامبراطورية العثمانية(١٥) وفى ذات الوقت فى ٢٥ نوفمبر طلب من استانبول أن تعترف لمصر . وهى مجرد ولاية (ابالة) بحقوق « الاودجاك » وبذلك تتمتع بنفس الحرية التى كانت تتمتع بها الجزائر فى ذلك الوقت (١٦) : ان محمد على بلجوئه الى الباب العالى ، كان يحاول ، عن طريق الخدمات التى كان يؤديها ، أن يؤكد استقلاله وأن يبسط حدود قوته فى اطار الامبراطورية ، فى اطار التبعية الاسمية (١٧) . » وعلى ذلك فقد أطلق جيشه الى الجزيرة العربية (١٨١٣ — ١٨١٩) ثم الى السودان (١٨٢٠ — ١٨٢٣) بهدف بعيد ، هو الاستيلاء على الحبشة (١٨) . واذا بانجلترا التى كان ينافقها ويحاول كسبها الى صفه ، تنقلب ضده ، خصوصا وأنه تسلل الى ثلاث مناطق داخل حدود نفوذها — البحر الأحمر . الخليج الفارسى ، الحبشة — لا غنى لها عنها لتأمين طريقها الى الهند (١٩) . والحقيقة أن ذلك لم يكن كل ما فى الموضوع : فقد كتب « دريو » Driault يقول : « من الخليج الفارسى حتى صحراء ليبيا ، ومن السودان حتى البحر المتوسط ، وعلى جانبى البحر الأحمر ، كانت تنتشر فى خمسة ملايين كيلومتر مربع ، أى ما يعادل عشرة أمثال مساحة فرنسا ، أو نصف أوروبا ،

---

(١٥) « كان الموضوع يتعلق بمشروعاته التجارية فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، ولا سيما رغبته فى أن تكون عنده سفن تجارية فى البحر المتوسط تستطيع أن تتمتع فى جميع الأحوال بحق الحياد . ودفعته مناقشة هذا الموضوع الى الاعتراف بأنه ليس فى وفاق تام مع حكومته ، وأنه يريد موافقة فرنسا لكى تحتل مكانها بين القوى البربرية (أى الشرقية اللا أوروبية) » (رسائل دروفيتى الى الوزير ، ٥ يونيو ١٨١١ ، فى Ed. Driault : Mohamed-Ali et Napoléon (1807-1814), Le Caire, 1925, 126).

(١٦) رسالة محمد على الى نجيب أفندى ، ٢٥ نوفمبر ١٨١٠/١٢٢٥ هـ فى محفوظات القلعة بالقاهرة ، نقلا عن M. Sabry : L'empire égyptien, 36-7.

(١٧) محمد صبرى : المرجع السابق ، ٣٧ .

(١٨) وهو ما أكده بوضوح محمد صبرى ، المرجع السابق ، ٦٦ وكذلك عبد الرحمن الرافعى مرات عديدة فى كتابه عصر محمد على ١٢٢ — ٢٠٨ . وحول العلاقات مع السودان انظر : محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٤٧ . وحول محمد على بوجه عام انظر القائمة الببليوجرافية النقدية للمؤلفات الأجنبية التى أعدها :

H. L. Hoskins : «Some recent workson Mohamed Ali and Modern Egypt», Journal of Modern History, iv (1932), 93-103.

(١٩) أنظر تحليل المحفوظات الانجليزية الذى أجراه :

Henry Dodwell : The founder of modern Egypt, a study of Mohammed 'Alî, Cambridge U.P., London 1931, 54-6, 66, 88-9.

امبراطورية أشبه بامبراطورية نابليون أو بامبراطورية الفراعنة · (٢٠) » وكان ذلك فى نفس الوقت الذى شهد انهيار القوة العثمانية · حينئذ حلت « المسألة المصرية » (٢١) محل « المسألة الشرقية » ، « بفضل وجود قوة حضارية كبرى فى شمال أفريقيا (٢٢) » ·

كانت الصدمة الأولى فى جزر اليونان (« هيدرا وسبيتزيا ») فى عام ١٨٢٧ · فقد تمركز فيهما أسطول محمد على القوى وجيش ابنه ابراهيم وذلك لمعاونة الامبراطورية العثمانية · وقد جرت مفاوضات فى الاسكندرية بين الكولونيل « كرادوك » المبعوث الخاص للندن وبين محمد على ومساعديه: ولم يكن الموضوع سوى الاستقلال اعتمادا على وضع القوة المصرية أمام الباب العالى (٢٣) · وقد حاول محمد على ، كسياسى محنك ، أن يتفادى المجابهة المسلحة ، غير أن عناد السلطان أدى الى تدمير الاسطول المصرى، وهو جزء من الأسطول العثمـــانى ، وذلك فى « نافارين » (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) · وأمام تخلى فرنسا التى كانت صديقته حتى ذلك الحين ، عاد محمد على الى أحضان الامبراطورية ، ففى ١٢ ديسمبر قدم الى الباب العالى خطة اصلاح تدل على أنه رجل دولة : «[···) ما من شك في أن هناك حاجة ملحة الى الاصلاح فى سائر بلاد الاسلام ، وما من شك فى أن أمتنا ، فى جمودها الحالى ، تعيش كما تعيش الدواب · دعوا جانبا ، من فضـــلكم ، الأنانية والاندفاع والحماسة المفرطة وفكروا قليلا فى الحالة المحزنة البائسة التى تمر بها حاليا الأمم الاسلامية · ولنعد الى الحكمة ولنقم سلاما هو أقرب الى الحلم [···] · تقولون فى رسالتكم أن كبار رجال الأناضـــول بلاد الروم (روميليا) قد استدعوا الى القسطنطينية ليعاونوا بعلمهم وخبرتهم [···] · شىء عظيم ! لكنكم لا تجهلون أن هؤلاء الرجال هم من ذوى العقول البسيطة الذين لا يملكون حولا ولا مالا ، وبالتالى فهم لا يستطيعون البت فى أمر الا تبعا لقوة تفكيرهم ودرجة ذكائهم · أما السبيل الى انهاء

---

(٢٠) Ed. Driault : Mohamed-Aly et Napoléon, 14

(٢١) تظل الدراسة التى قدمها شفيق غربال أفضل دراسة حول هذا الموضوع :
Shafîq Ghorbâl : The beginnings of the Egyptian question and the rise of Mohamed-Ali, G. Routledge and Son, London, 1928.

(٢٢) M. Sabry : L'empire égyptien, 74.

(٢٣) « صرح لى محمد على أن حرب الموره قدمت له أعظم خدمة ·· ويرى H. Salt. أن سموه يعنى بهذا التأكيد المتميز أنه قد يكون من المستحيل على الباب العالى أن يرفض منحه ولاية سوريا اذا ما ظل مخلصا له فى الأزمة الحالية ، غير اننى أميل الى الظن الى أنه يشير الى الامكانات التى اتاحتها له هذه الحرب بتكوين بحريته وجيشه بغرض وحيد هـو تحقيق استقلاله بصورة نهائية ·· »

(رسالة الى « كاننج » بتاريخ ٢١ أغسطس ١٨٢٧ ، نقلا عن محمد صبرى : **المرجع السابق** ، ١٤٣ ـ ١٤٤ ·)

الحرب وتمهيد الطريق الى السلام فلا يكون بالالتجاء الى فقراء الامبراطورية وانما بالالتجاء الى الأغنيـــاء والأقوياء • كذلك ، فقد قام ممثلنـــا فى القسطنطينية بالايحاء الى القائمين على الأمر بأن يعهدوا الينا بادارة سوريا مع تكليفنا بتجنيد جيش من ثلاثين الى أربعين ألف رجل ، وفى ذات الوقت تكليف ابننا ابراهيم بشئون روميليا التى كان يتولى زمام حكمها بالاتفاق مع عمال الباب العالى الكرام [•••] • ان تسليمها الينا ، ولو لفترة قصيرة، يمكننا من أن نحصل منها على موارد ودخول تساعدنا فى تكوين جيش ضارب متعلم ومجهز طبقا للنموذج الأوروبى • ونظرا لأن بلادنا المختلفة فقيرة فى الرجال والموارد وعاجزة عن ادارة نفسها بنفسها ، فاننا سنقوم باختيار جميع الشباب الذين يعرفون القراءة والكتابة فى الأناضـــول وروميليا ، ونطلعهم على مبادىء الحرب الحديثة والعلوم الرياضية والحربية وغيرها ، وذلك لتكوين كوادر للجيش الجديد الذى ستكون مهمته الأولى هى اقامة التحصينات فى كل مكان والاستعداد لمواجهة احتمالات المستقبل • وستكون هذه المبادرة مثلا يحتذيه جميع عمال الامبراطورية الذين سيعملون بكل طاقتهم فى اطار من الاتحاد والأخوة على أداء الواجب [•••] • ونرجو أنا وابنى ، أن يعين لنا ثلاثة أو خمسة وزراء من الامبراطورية للتعاون معنا ، داخل اطار الاتحاد المقدس ، فى التنظيم العام ، الذى سيكون وحده كفيلا بأن يقدم لنا أكثر الوسائل فاعلية لضرب أعدائنا]•••] • ان من الأفضل لنا ألف مرة ، أن نعيش ونخدم وطننا وديننا بهذه الطريقة [•••] ولقد آن الأوان أن أضع نفسى أنا وابنى على هذا النحو فى خدمة الدولـة والدين (٢٤) » «دولة» ، «أمة» ، «وطن» ـ هل يخلط محمد على بين هذه الأفكار عن وعى وقصد ؟ لقد عبر عن « الأمة » طورا بأمتنا ـ الامبراطورية العثمانية ـ وطورا « الأمم الاسلامية ، أى فى حالتنا هذه ، تركيا ومصر وكذلك سوريا وروميليا وربما الجزيرة العربية والسودان • ان هـــذه الوثيقة توضح أكثر من أية وثيقة أخرى مفهوم محمد على عن الحكم الذاتى ـ فهو هنا مفهوم ضيق ينحصر فى التبعية ، وهى تبعية مؤقتة ، فرضتها حوادث ـ وذلك لاعادة بناء الامبراطورية الضعيفة عن طريق القوة ، وبالتالى يضمن لنفسه المكان الأول ، وليكن الاستقلال أو حتى خلافة السلطان •

ان بقية القصة معروفة : رفض الباب العالى ، زيادة مطامع الوالى فى العالم العربى تحت تأثير ابراهيم ، الحرب بين تركيا ومصر التى توجت بانتصارات ابراهيم فى « كونيه » « وكوتاهيه » « ونصيبين » ، تدخل الدول الكبرى للقضاء على محمد على • لقد كان محمد على بين ١٨٣١ و ١٨٤٠ يدق أبواب استانبول ، فنهض الحلف المقدس الذى كان يجمع الدول

---

(٢٤) رسالة الى شيجيه Cheijh أفندى ، ١٢ ديسمبر ١٨٢٧/١٢٤٣ هـ • **محفوظات القلعة** بالقاهرة ، نقلا عن محمد صبرى : **المرجع السابق** ، ١٥٣ ـ ١٥٥ •

الأوربية الكبرى لينقذ حكومة السلطان ، وذلك ليتمكن من القضاء على الدولة الاسلامية والشرقية الوحيدة القادرة على مواجهة التوسم الاستعماري الأوروبى من جهة ، والنهوض باصلاح ولايات الامبراطورية وتحديثها والأخذ بيدها لتحقيق النهضة الوطنية ، من جهة أخرى · وبينما كانت الحرب على أشدها في سوريا ، كان هناك رأيان متمايزان في استقلال مصر · فبالنسبة لمحمد على ، كان يريد أن « يهادن أوروبا ، ويتفادى القطيعة مم الباب العالى ويوفق بين أهدافه التوسعية وبين مبدأ المحافظة على سلامة الامبراطورية العثمانية ، وأن يقيم لنفسه بالفعل امبراطورية تحت ستار الولاء ووراء مظاهر النظام (٢٥) » · كان يحاول أن يقنع انجلترا بأنه الخادم المطيع للامبراطورية العثمانية يجب عليه ، كتركي وطني مخلص ، أن يعزل السلطان محمود الضعيف لمصلحة ابنه عبد المجيد · ولكن في ذات الوقت، سحبت العملة التركية بعد انخفاض قيمتها ، وذلك فى سبتمبر ١٨٣٢ ، ولم يبق السوق سوى العملات المصرية والأوروبية ، واختفت صور السلطان وتماثيله من ولاية مصر (٢٦) · وحتى صبيحة الانتظار في « كونيه » (٢١ ديسمبر ١٨٣١) كان يبدو أن آراء الوالى تتفق وآراء ابراهيم، الذى شهر بالسلطان بألفاظ قاسية ، باسم « هذه الأمة الاسلامية البائسة » ، وطالب بعزله « باسم حبنا لهذه الأمة وعزتنا الدينية » حتى يتمكن ولى العهد من أن يتصرف « كارادة فعالة توقظ هذه الأمة من سباتها العميق (٢٧) · »

لقد كان الأمر الذى أصدره محمد على الى ابنه ابراهيم بالتوقف فى « كوتاهية » عند أبواب استانبول ، مسببا فى تصعيب موقف ابراهيم · وهو يقولها عالية صريحة لوالده في رسالة اليه قبيل المفاوضات : « [···] يبدو لى أن « الاستقلال » يجب أن يكون فى مقدمة الموضوعات التى يتم بحثها وتسويتها مع المتفاوضين ، انها بالنسبة لى مسألة حيوية تتصدر غيرها من المسائل · وتأتى بعد ذلك المطالبة بالتخلى عن أقسام الأناضول الثلاثة ، وكذا علايا وسيليسيا وجزيرة قبرص · وأخيرا العمل على أن يضم الى مصر ، اذا أمكن ، تونس وطرابلس · ويجب أن يمثل ذلك الحد الأدنى لمطالبنا التى لا يجب التخلى عنها بأى ثمن،ان مصالحنا الجوهرية تقتضى ذلك · أولا وقبل كل شىء يجب أن يكون موقفنا صلبا لا يتزعزع بالنسبة

(٢٥) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٢٢٦

(٢٦) Barker ١٨٣٢/٩/١٩ و ٦/٢٥ F.O. 78-214, in H. Dodwell : وتعليقاته Founder mod, **Egypt.**

(٢٧) جميل خانكى : « ابراهيم باشا » ، **الكتاب** ، ٤ (١٩٤٨) العدد ٩ ، ٥٩٥ ـ ٦٠٩ (٦٠٤)

للاستقلال حتى ندعم موقفنا ونحصنه بالضمانات من أجل المستقبل · فبدون الاستقلال لا جدوى لمجهوداتنا وسوف نظل تحت نير هذه القـوة الغاشمة التى ترهقنا على الدوام بمتطلباتها السخيفة ومطالبها المالية · من الآن فصاعدا ، يجب أن نتحرر من أعبائها التى لا تطاق وأن نجـد خلاصنا الوحيد فى الاستقلال [···] (٢٨) » · هناك اذن طريقان ، سبيلان متباينان لتحديد مكانة مصر الوطنية : الحل الوسط ، الامكان ، الذى يراه محمد على ويستهدف الحكم الذاتى الذى يقترب من الاستقـلال ، وهناك ارادية ابراهيم الذى لا يرضى بأقل من الاستقلال الكامل نظـرا لأن مصر هى رأس الامبراطورية العربية وقلبها ·

أولا الحل الوسط ،الامكانى ،الذى يراه محمد على · فبين عامى ١٨٣٤ و ١٨٣٧ ـ ١٨٣٨ توجه الوالى الى الدول الكبرى الأوروبية بهذا السؤال : ألا يحق له وهو « الوالى المطيع ، وأقوى الولاة جميعا ، أن يعترف لـــه عن طيب خاطر بما اعترف به لليونان ، بل وبلجيكا ؟ ان الضعف يتجلى فى مبدأ المجادلة بدلا من التصرف والعمل (٢٩) ، وسرعان ما تنحسر نظرة الاستقلال · وها هو الوالى يناور أمام ساريم بك الذى جاء يستوضح موقفه باسم السلطان عام ١٨٣٧ : « الله يعلم أننى لن أقبل التخلى عن قرية واحدة ! واذا وجدتنى مضطرا لذلك ، فالأمر يختلف · اسمح لى أن أقول لك الحقيقة لن أطمئن الا اذا ظللت مالكا لجميع الأقاليم التى تحت نفوذى ، وذلك حتى وفاتى · بعد ذلك يجب أن أحصل من السلطان على وعد بأن يعهد بهـا من بعدى الى أبنائى وأحفادى · حينئذ أنفق ما بقى عن عمرى فى استحقاق رضى عظمته [···] (٣٠) » · نفس الأسلوب مع قنصل فرنسا ،«كوشليه»

---

(٢٨) رسالة بتاريخ ٤ فبراير ١٨٣٣ (١٣ رمضان ١٢٤٨ هـ) ، **المحفوظات المصرية** ، فى M. Sabry : L'empire égyptien, 227-8. · اما جميل خانكى فيحدد تاريخها فى ٢٤ يناير ١٨٣٣ (**ابراهيم باشا** ، ٦٠٤)

(٢٩) ذلك هو رأى الأمير هـ « بوكلر موسكاو » **Puckler Muskau** : « لو كان قد استفاد من اللحظة المناسبة وأخذ باعتباره فاتحا ، وبعد أن كسب معركة ، اللقب الذى يتفق مع الواقع وتوج رأسه بتاج العرش فى عزم وثبات ، فما كان محتملا أن ينزعه منه السيف أو الدبلوماسية أو حتى محاولة ذلك · غير أن الســـعى للحصول عن طريق التفاوض على ما أهمل اتيانه بواسطة الجرأة والاقدام انما هو ضعف محزن ·· »
(Aus Mehemed Ali's Reich, 3 vol., 1844, in M. Sabry : L'empire égyptien, 406-7).

(٣٠) Mahmoud Nafei : «La mission de Sarim bey, délégué de la Sublime Porte en Egypte», Cah hist. égypt. ii (1950), no 4, 381-408 (399).

عام ١٨٣٨ (٣١) • ويزداد ضغط الدول الكبرى : ويشهد يوليو وأغسطس عام ١٨٣٨ الانذارات الانجليزية والنمساوية والروسية ثم الفرنسية • أما فرنسا فقد اخبرها « بانه يأمل فى حل مسألة وراثة أبنائه للبلاد التى يحكمها باسلوب يرضيه ، وأن هذا هو أمله الوحيد ورغبته الوحيدة فى الوقت الحاضر (٣٢) » ، وقد وجه الى النمسا فى ٤ سبتمبر مذكرة رسمية : « [••••] ان الباشا يأمل أن تحل مسألة الوراثة بما يرضيه ، وهو من جانبه سيكتفى بها اذا انتهت بالوسائل الودية وعن طريق المفاوضات ، أما اذا لم ينجح واضطر الى استخدام القوة ، فانه حينئذ لن يطالب بالوراثة فقط ، وانما بالاستقلال الكامل لمصر • انه مصمم كل التصميم على ألا يستسلم للباب العالى على أيدى الدول الأوروبية الكبرى • لقد تقدمت به السن ، ولعله لا يرى أفضل من أن يسقط بكل شرف صريعا فى ساحة الجهاد من ان يترك لهوى الأحداث أسرته وأعوانه وهذا الشعب الذى طالما عمل من أجله • لقد اضطر فى حياته الى بذل الدماء لينفذ ما حقق وليحصل على ما يملك ، كذلك فهو لا يريد أن تكون هذه الدماء قد بذلت هباء • وزيادة على ذلك فان آراءه تتفق مع مصالحهم وسياسة أوروبا • فلماذا التضحية به ؟ انه ليس من دينهم ، ولكنه انسانا أيضا ، ويجب معاملته على نحو انسانى ، أى يجب أن يسمحوا له بالتفكير فى مصير أبنائه الذين يريد أن يضمن سعادتهم [•••] (٣٣) » • لقد فات الأوان : فسرعان ما سيتولى ائتلاف القوى الأوروبية الكبرى تحطيم مصر الناهضة وتحطيم امبراطوريتها • أولا ، مرسوم سلطانى (١٣ فبراير ١٨٤١) بايعاز من لورد « بونسوبنى » ، يعيد مصر الى وضعها الذى كانت عليه قبل عام ١٨٤٠ « قسم ادارى فى الدولة العثمانية وليست حتى دولة تابعة » (٣٤) • ورفض محمد على شروط الباب العالى : « ان هذا البلد هو مفتاح أفريقيا ، وربما مفتاح القسطنطينية [•••] (٣٥) » • وفى أول يونيو

---

(٣١) يتحدث م• « كوشليه » ، بالتناوب ، عن « مجلس فى الوجه البحرى » للبت فى « اعلان استقلال مصر على أقل تقدير والاستعداد للحرب فى حالة الاعتراض على هذا الاستقلال » ثم ينقل عن محمد على « أريد أن اؤمن قبل وفاتى مستقبل أسرتى ، وأريد أن تنتقل القوة التى انشاتها أيديها » • وبذلك تبلغ المناورة الاحتمالية أوج نشاطها •
(Arch. franç. A.E., Corr. polit. Egypte, vol. 7, in M. Sabry : L'empire égyptien, 408-9)

(٣٢) Arch. franç. A.E., Corr. polit. Egypte. vol. 7. in M. Sabry Ibid., 418.

(٣٣) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٤١٨ ـ ٤١٩ •

(٣٤) «L'Egypte et les firmans». Rev. génér. de Droit intern. public, iii (1896), 291-313 (294, 99).

(٣٥) برقية سعيد محب أفندى ، ٢٧ فبراير ١٨٤١ ،
M. Sabry : L'empire égyptien, 533-4.

يصدر مرسوم سلطاني آخر ليعدل بعض النقاط الرئيسية على النحو التالى : الاعتراف بالوراثة لأكبر أبناء محمد على الذكور ، من حق الوالى أن يكون فى جيشه ضباط حتى رتبة كولونيل (عقيد) فقط ، أما الجزية ، وهى ثابتة ، فلا تحدد نسبتها بدخل البلاد ، فتقدر بأربعين مليون قرش (عشرة ملايين فرانك فى ذلك الوقت) ٠ ويرى محمد صبرى أنه اذا كان « باشا مصر قد اعتبر كأى من باشوات الامبراطورية ، واذا كانت مصر قد استمرت على وضعها كمجرد ولاية عثمانية فان هـذا الميثاق قـد وضع مبدأ استقلال مصر الضمنى ، ذلك المبدأ المعروف فى القانون العام الأوروبى ، وذلك باقامة سلطة وراثية فى أسرة محمد على ٠ وهكذا أصبح لمصر « أسرة ملكية وطنية » عليها أن تواصل انجازات مؤسسها في اطار الحدود الضيقة ،وهذا صحيح »،وعلى كل حال ،فقد كان في ذلك «الانتصار الكامل للآراء الانجليزية » (٣٦) ٠ وعندئذ ، عاد محمد على يتوجه الى الباب العالى يمالقه محاولا كسبه الى صفه فى مشروعه الخاص بالتجديد باسـم الاسلام والأمة،غير أن جو الانحطاط المحيط بالسلطان لم يدرك قيمة المشروع العظيم الذى كان يريد محمد على تنفيذه ، وقد تم تعيين محمد على مع ذلك وزيرا أكبر فى سبتمبر ١٨٤٢ ، وأسفرت زيارة أغسطس ١٨٤٦ التى تخللها لحظات مؤثرة ، عن اسراف فى الأموال وخطب طنانة (٣٧) ٠ وهكذا قضى محمد على ـ كما رأينـــا ـ بقية حيـــاته محاولا وقف التسرب الاستعمارى ، وبوجه خاص المحافظة على استقلال فعلى ، يعتمد على جيش ابراهيم والانجازات الداخلية ٠

والآن ، هل كان تصور ابراهيم للاستقلال مختلفا حقا ؟ وكما لاحظ أنيس صايغ ، فان أصدقاء ابراهيم من الفرنسيين ـ خاصة « كادالفين » « وبواليكونت » ـ هم الذين روجوا لعروبته : فقد صرح للأول بأنه لا ينوى التوقف فى زحفه الا عند حدود الأقاليم التى يتحدث أهلها اللغة العربية ، وأكد للثانى رغبته فى أحياء الأمة العربية حيث ترعرع هو فى

---

(٣٦) هذان التقديران المتعارضان أوردهما محمد صبرى : المرجع السابق : ٥٣٥ ـ ٥٣٦ و ٥٤٥ ٠

(٣٧) انظر المذكرة التى قدمها القنصل العام لفرنسا، و « بارو » O. Barrot (٨ يوليو ٦ « ٠٠ يعانى محمد على أشد المعاناة ومنذ أمد طويل من الرقابة التى يمارسها ممثلو الدول الأجنبية على جميع أعمال حكومته ، بحيث أنه يرى أن الاستقلال الواقعى الذى حصل عليه سوف يصبح أكثر حرجا بالنسبة اليه من اعترافه المباشر بسيادة تركيا ٠ ذلك أنه يعلم انه سيكون لديه ، متى شاء ذلك ، وسائل جبارة للعمل الفعال فى القسطنطينية وهى وسائل لا جدوى منها فى صراعه ضد مصلحة أوروبا ٠٠ »
(M. Sabry : Ibid., 549-50).

مصر وفى جو الثقافة العربية (٣٨) · فهل نذهب الى حد أن نجعل منه بطلا للعروبة ؟ ان الطريق الذى سار فيه ابراهيم يسمح ببلورة الاجابة · أولا ان دراسة اللغة العربية (٣٩) زودت القائد الأعلى الشاب بالوسيلة اللازمة لممارسة القيادة فى سوريا · كما أن خبرة المعارك ، ثم ، وبصفة خاصة ، المواجهة المباشرة مع الباب العالى ، من خلال سوريا العربية ــ بعد فتح الجزيرة العربية والسودان ــ قد حدت به الى التفكير فى اقامة « امبراطورية عربية (٤٠) » فعلا ، نعم ،بشرط أن نلاحظ ، كما فعل جاك تاجر الذى يدافع عن هذا الرأى فى حماسة « ان لفظ عربى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان يعنى العنصر المحكوم فى الامبراطورية العثمانية والذى يتحدث بلغة القرآن » وعلى ذلك ، « حينما تحدث ابراهيم لأول مرة عن احياء الجنس العربى ، كان يقصد المصريين وحدهم وفيما كان يكتسح الأراضى السورية أكد أن جميع الشعوب المجاورة التى تتحدث العربية تجمعها صفات عديدة مشتركة [···] ثم ان التشجيع على اقامة امبراطورية عربية ألا يعنى ،

---

(٣٨) أنيس صايغ : **الفكرة العربية** ، ٢٤ ــ ٢٥ ، الرافعى : **عصر محمد على** ، ٢٤٧

(٣٩) ان جاك تاجر هو الذى يتمادى فى هذا التفسير : « منذ أن شارك ابراهيم حياة فرقه المصرية فى معسكر التدريب ثم فى أرض المعركة لم يتوقف عن تحقيق هدف بالغ التحديد : نهضة الدول العربية مجتمعة فى جماعة واحدة متخلصة من أية وصاية أجنبية ·· وعلى النقيض من محمد على الذى كان يجهل دائما العربية ، قام ابراهيم بدراسة هذه اللغة ، حيث تمكن بعد قليل من التعبير بها بطلاقة ·· »

«Ibrahim pacha, promoteur de l'idée Panarabe moderne», Cah. hist. égypt., i, 1948. no 1, 43-51 (43-4).

(٤٠) « مادام تحت امرة القائد العام جنود من المماليك أو الألبانيين ، ومادام والده يستغرقه أساسا فى أعمال ادارية ، أى أنه مادام غير مسئول عن جيش النظام (الدولة) ، فلا ثمة مجال على الاطلاق لانشاء امبراطورية عربية »

(J. Tagher : Ibrahim pacha, 48-9).

ويعتقد « بالمرستون » ، بدءا منذ ١٨٣٣ أن « المصير الحقيقى (لمحمد على) هو انشاء مملكة عربية تضم جميع البلاد التى تتحدث اللغة العربية · وقد يحدث أن أشياء مماثلة قد لا تتضمن فى ذاتها سوءا ، ولكن بما انها تعنى بالضرورة تقطيع أجزاء تركيا فلا يمكننا قبولها · وفضلا عن ذلك فان تركيا تشغل أيضا الطريق المؤدى الى الهند وهو ما يمكن أن يفعله أى عامل عربى نشيط »

(Bulwer : Life of Palmerston, ii : 144-5, in H. Dodwell : Founder mod. Eg., 123).

وحول التبريرات التى يقدمها « بالمرستون » ، بطل الحزب الليبرالى ، لسياسته المعادية لمحمد على انظر :

Charles Webster : The foreign policy of Palmerston 1830-1841, G. Bell and Son, 2e ed., London, 1951, ii : 540-606.

في ذات الوقت ، تحرير مصر من السيطرة التركية وتدعيم مكانتها الدولية واقامة حاجز استراتيجى بينها وبين الأناضول (٤١) ؟ » ٠

ان نقد أنيس صايغ لا يخلو كله من بعض الصدق : ان تصريحات ابراهيم المتكررة تتحدث كلها عن عظمة مصر (٤٢) ، المفصل فى رسالة كوتاهية الشهيرة ، يتحدث عن ضم مناطق عثمانية ، بدلا من العمل ، ولو بالقوة على تجميع سائر المناطق العربية (٤٣) ٠ ان أنصار القومية العربية فى الوقت الحاضر يؤاخذون ، محمد على وابراهيم بأنهما فتحا البلدان العربية بقوة السـلاح مسببين بذلك الكثير من الانتفاضـــات المسلحة والخسائر الفادحة ٠ والسؤال الآن هو : هل كان من الممكن خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر التصرف على نحو آخر ؟ بل وأكثر من ذلك ، هل من الممكن تحقيق وحدة تضم مجموعة قومية ـ ثقافية ، أيا كانت ، منذ العصور القديمة حتى الآن ، بغير قوة مركزية متفوقة المقدرة وتؤمن بالوحدة ؟ ان الوضع الحقيقى للمشكلة ، كما يبدو لنا ، يكمن بالذات فى هذا العنصر الثانى ألا وهو الايمان بالوحدة ٠ كان والى والقائد العام يستهدفان فى المقام الأول اقامة الامبراطورية المصرية أما العنصر العربى فقد تدخل فى مرحلة تالية ، واختفى بعد ١٨٤٠ (٤٤) ٠ وكان من الطبيعى أن يكون أفضل المعبرين عن هذا العنصر هو الرجل الذى قاد الجيوش فى البلاد العربية ٠ وهذا العمل نفسه هو الذى سيحدد الفارق الحقيقى بين ابراهيم وأبيه فى موقف كل منهما من الاستقلال الوطنى لمصر وقوتها ٠

لقد استطاع ابراهيم كقائد عسكرى أن يدرك المميزات التى تتمتع بها الجيوش وكوادرها خلال المعارك ، ويبدو أن حرب الموره Morae (فى اليونان) قد أقنعته اقناعا حاسما بقيمة العنصر المصرى الذى سرعان ما سيتحول اليه ويذوب فيه « عن عاطفة وعن تقدير » (محمد صبرى) ٠

---

(٤١) J. Tagher : Ibrahim Pacha, 49.

(٤٢) أمام عكا فى ١٨٣١ وقف قائلا : « هدفى ٠٠ مزدوج : أولا ، صيانة شرف مصر الخالدة واستعادة مجدها التليد ٠٠ » ، وقبل الهجوم على حمص هدد بتقطيع أوصال الجيش العثمانى « وذلك بغية تقوية موقف مصر وجعل مصيرها أكثر وضوحا والاعلاء من شأن دورها وشرفها » وكثيرة هى الرسائل التى تؤكد موقف ابراهيم الأساسى من هذه المشكلة ، ولا سيما رسالة « كوتاهية » الشهيرة التى ذكرت كثيرا

Asad. J. Rustum : The royal Archives of Egypt and the origins of the Egyptian Expedition, 1831-1841, American Univ. Press, Beyrouth, 1940. no 209, 240; ii : 86, 2516; iii ; iv; 253;

وقام بتحليلها أنيس صايغ :**الفكرة العربية** ، ٢٤ ـ ٢٦)

(٤٣) أنيس صايغ : **المرجع السابق** ، ٢٤ ـ ٢٨ ٠

(٤٤) وهو ما يعترف به جاك تاجر فى Ibrahim Pacha, 51.

« ان مؤسسات محمد على كلها من جيش وبحرية وترسانة ومصانع وادارات ومجالس كانت وطنية ، وعن طريق الموارد الوطنية ، من رجال وأموال ، نجح فى اقامة امبراطوريته وتدعيمها • ففيما عدا بضع مئات من الاتراك والفرنجة على رأس هذه المؤسسات ، فان جهاز الدولة تألف من عناصر وطنية من أهالى البلاد أعدها الوالى تدريجيا لتحل محل معلميها « المؤقتين» ومن ناحية أخرى ، فان أصـداء الانتصـارات والعظمة التى حققتها قوة مصر والانتفاضة الهائلة التى أعقبت انجازات محمد على الضخمة فى جميع المجالات ، كل ذلك أيقظ «الغريزة الوطنية المصرية». ويضيف محمد صبرى قائلا ، وهو مصيب ، ان نصيب ابراهيم فى هذه الانجازات كان عظيما : « كان يريد أن يجعل من جيشه « كتلة حية » ، يشعلها حماسة بمثله ، وبخطبه الحماسية وبتلك القوة السحرية التى كان يمارسها على جنده ، وبتلك «الروح الوطنية» التى كان يسعى الى ايقاظها [•••] • كان ابراهيم مصريا صميما ، كان يتفوق على أبيه فى ملاحقته وتصميمه على تحقيق فكرة معينة : استقلال مصر وعظمة مصر • كان يمتزج بالمصريين ويتوحد معهم، وكانت القسطنطينية بالنسبة له وسيلة ، وليست غاية ، [•••] • كان ابراهيم يرفع جنده الى مرتبة الكرامة الانسانية والوطنية ، ويمنحهـم الشعور بقوتهم ويستنهض عزتهم التى أذلتها قرون العبودية ، ويوقظ فيهم وطنيتهم • وتحقيقا لهذا الغرض ، كان يريد أن يعهد الى المصريين فى الجيش ببعض الرتب والمراكز العليا حتى يكافىء شجاعتهم واخلاصهم (٤٥) • » ان التحليل التفصيلى الذى قام به أسد ج • رستم للمحفوظات

---

(٤٥) M. Sabry : L'empire égyptien, 467-70. ويقول جاك تاجر عن حب الموره : « لقد كانت حرب المورة هى التى جعلت ابراهيم يحكم على المصريين بقيمتهم الحقيقية وحققت الآمال التى وضعها فيهم ، وأنه من المحتمل ابتداء من هذا التاريخ التخلى الى الأبد عن أصله العثمانى • ولا يستطيع اليوم أحد أن يدحض أنه ظل مصريا حتى الأعماق وباخلاص الى أن عاجلته المنية • » • وقال ابراهيم فى حديثه عن حصار عكا الى « بوكلر ـموسـكاو » : « أنه يستحيل على أى جيش فى العالم أن يتحلى بروح الجلد والبسالة بأكثر مما تحلى بها جيشى ، وفى كل مرة تبرز فى الجيش حالة تردد أو تخاذل فقد كانت مصدرها دوما الضباط الأتراك : ولا أعرف مثل هـذه النماذج بين العرب • » ثم يقول فى رسـالة الى والده (٢٢سبتمبر ١٨٤٠) ، بصدد موضوع القادة العسكريين : « لقد انقضت عشرون عاما وأنا أعيش مع هؤلاء الرجال وفى استطاعتى ان أؤكد لك انه اذا كان يوجد ثلثمائة تركى من بين ألف تركى عرفوا بولائهم ، فانه يوجد سبعمائة بين المصريين • الا اذا كنت تخشى هواهم فى العمل من حين لآخر ، وثورتهم ضد الحكومة القائمة •• »

(Prince H. Pückler-Muskau : Aus Mehemed Ali's Reich et Arch. égypt. in M. Sabry : L'empire égyptien, 469-71).

المصرية يخلص الى نفس هذا المعنى (٤٦) ٠ كانت قوميته المصرية أكثر نقاء وعمقا من قوميـــة محمد على ، « الذى ولد مقدونيـــا ، ومات مصريا مع بقائه عثمانيا (٤٧) » وخلاصة القول كما تعترف به المدرسة التاريخية المصرية ، ممثلة فى عبد الرحمن الرافعى بصفة خاصة ، كانت « حروب مصر فى عهد محمد على باشا هى التى مكنتها من تحقيق استقلالها القومى ولولا تلك الحروب لما تكون ذلك الاستقلال ولرجعت البلاد الى عهد الحكـم

---

(٤٦) « وعلى أساس معاركه مع أوروبا والضباط الأوروبيين ، يبدو أن ابراهيم باشا قد أصبح على قناعة شخصية بسلامة الفلسفة ذات النزعة الوطنية ٠٠ وبهذا المعنى فان ابراهيم باشا جدير بكل تأكيد بأن يحتل مكان الشرف فى تاريخ القوميـــة فى الشرق العربى ٠ »
(Royal Archives of Egypt,, 96).

(٤٧) J. Tagher : «Psychologie du règne de Mohammad Ali», Cah. hist. égypt., ii (1949), no 1, 1-17 (2),

وعن التعليمات الحذرة التى أصدرها الوالى عشية رحيل ابنه فى بعثته انظر
G. Wiet : «Le voyage d'Ibrahim pacha en France et en Angleterre d'après les archives européennes du Palais d'Abdine», Cah. hist. égypt., i (1948), no 1, 78-126.

وان التقديرات المختلفة عن شـــخصية محمد على الوطنية لا حصر لهـــا : « متمرد على عاهله ، مستبد بشعبه ، خائن لعقيدته ولامته ولبلاده ، وما كان ممكنا أن يوجد الا أنه كان ، من جهة الأداة التى تستخدمها قوتان أجنبيان ، ولأنه كان يحكم ، من جهة أخرى ، شعبا سلس القياد مطيعا بحيث لا يغضب أبدا ويســـيطر على بقعة بالغة الثراء من أجل انضباطها »
(D.Urqhart : Le Sultan et le Pacha d'Egypte, trad. fr., Paris, 1839, 81-2);

« لقد كان بالنسبة لمصر تقدميا ، يتمتع بموهبة رفيعة عرف اكتشاف طريق النصر عن طريق دمج روحه التى مازالت تطبعها بعض الآثار المتبقية من العالم القديم مع روح الأجيال الجديدة ٠ »
(H. Guillaumot : Le Khédive et le Sultan, Etude sur la question turco-égyptienne, Impr. Vve. Miot Dardant, Clermont 1870, 6) :

عندما كان الوالى « يتحدث عن حقوقه وعن العدالة والمساواة فانه كان ينسى ، فى خاتمة المطاف ، انه لم يكن أكثر من متمرد مثل الوهابيين واليونانيين » ، « ولم يكن أكثر من صاغ (نقيب) جاهل فى سلاح الباش ـ بوزوك قليل الالمام بحضارتنا » ، ومع ذلك فانه كان يبدو للأوروبيين « كما لو كان منتميا الى أسرة مالكة قديمة راسخة الأقدام من الملوك المسيحيين فى الاسكندرية » ،
(D.A. Cameron : Egypt in the nineteenth century of Mehemet Ali and his successors until the British occupation in 1882, Elder and Co, London, 1898, 165, 127-8);

ومن محمد على نفسه الى الأميرال أحمد باشا فى ١٨٤٠ : « أنتم غيرنا فى القسطنطينية ، لقد ارتديتم الثياب الافرنجية وتتصرفون بعقول تركية ، أما أنا فقد احتفظت بالثياب التركية وأتصرف بعقل أفرنجى » ، (M. Sabry : L'empire égyptien 454-5).

التركى [...] . ففى ميدان الحروب تكونت الدولة المصرية الحديثة وحققت استقلالها [...] بالقوة ، وتحافظ عليه بالقوة ...] (٤٨) » .

وعلى الرغم من ضربة التعجيز فى عام ١٨٤٠ ، الا أن الاتجاه نحو الدولة الوطنية المستقلة على جميع المستويات ، كان الطابع المميز للأفكار والمؤسسات . وكانت التبعية الاسمية التى فرضت على مصر تعكس علاقة القوة فى عصر الرأسمالية الأوروبية الصاعدة والتسرب الاستعمارى الذى بدأ يمارس نشاطه . وما من شىء استطاع أن يمحو آثار المنجزات العظيمة التى بدأها محمد على وابراهيم فى سبيل النهضة . وفى المجال الذى يهمنا هنا ـ وهو تتبع التحول من الحكم الذاتى (الاستقلال الادارى) الى الاستقلال ـ فان الحركة الفكرية تدرك الهدف الذى كان يرمى اليه مؤسسا الأسرة المالكة الجديدة ، بل ربما أكثر من ذلك ، فانها اقتنعت بالدليل على أن نهضة مصر ليست آراء فكرية ، وأنها لكى تترجم الى حقائق ، فى مواجهة الائتلاف الأوربى الرأسمالى وانحطاط الشرق الاسلامى ، فان قوة الدولة جيشا واقتصادا قبل كل شىء لها ثقلها الحاسم .

وقد أدى انطواء عباس الأول ،الذى تبعه نوع من الحمية الوطنية على عهد سعيد ، الى استئناف حركة النهضة ـ فى هذا المجال وسائر المجالات الأخرى ـ على يد اسماعيل وحكومته . غير أن مجال العمل ، وطبيعة الحركة الفكرية والانجازات التى تمت ، والقيود التى فرضت ، كانت تشكل بعض الاختلافات التى ترجع أساسا الى التلاحم التاريخى . ان الجيش والاقتصاد الذى تهيمن عليه الدولة يلعبان دورا هاما ، ومع ذلك فقد ظهر أن المجالات التشريعية والدستورية كانت أكثر أهمية . ولقد ظل القائمون بالأمر يضعون الدولة فى المقام الأول . غير أن التسرب الأوروبى ، كما رأينا مرارا ، قد أعطى دورا كبيرا لذلك العامل الجديد ألا وهو الرأى العام وبالتالى « للطبقة السياسية » الجديدة التى تشكلت وصلب عودها خلال السنوات الأخيرة من حكم اسماعيل .

والواقع أن العنف يستدعى الدبلوماسية والدهاء والمراوغة أكثر مما يستدعى السلاح : لقد تكونت الامبراطورية المصرية فى ذات الوقت الذى بدأ فيه تحالف القوى الكبرى الرأسمالية يغزو أفريقيا ، الأمر الذى أدى الى مؤتمر برلين (١٨٧٨) . أن النزعة النفسانية ـ باصطلاحاتها المانيكية (« خداع » ، « نفاق » ، الخ) التى كانت شائعة عند الكثير من الكتاب على عهد اسماعيل ، يجب أن نضعها فى الاطار الواقعى للعصر الذى نقوم بدراسته ، وبعد أن كانت تصورا للتاريخ ، أصبحت أحد أدوات التحليل العلمى وليست دعامته أو هدفه . وهناك ثلاثة عناصر فى السياسة الوطنية التى انتهجها اسماعيل يمكن أن نستخلص منها

(٤٨) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، ١٢٢ ـ ١٢٣ .

الأفكار الرئيسية للحكم : الصراع لبسط وتأمين استقلال الدولة المصرية، اعادة بناء الامبراطورية المصرية ، الحركة التشريعية · أما الاصلاحات الدستورية فسنعرض لها في القسم التالى · وعلى ذلك يصبح فى الامكان دراسة التفاعل بين أفكار الوالى وفكرة الحركة الوطنية الوليدة · الدولة المصرية أولا · عباس الأول الذى كان يرضى بأى شىء الا الحكومة الأوروبية (٤٩) ، فان اسماعيل صاغ المشكلة فى ألفاظ الاستقلال والسيادة (٥٠) · وكان الهدف هو الحد من تبعية البلاد لتركيا ، واعادة بنائها بعد ذلك كدولة مستقلة ذاتيا ومستقرة ، تملك مؤسسات الاستقلال المرتقب · وفى البداية حصل اسماعيل على فرمانى ١٧ مايو و ١٥ يونيو ١٨٦٦ ثم فرمان ٨ يونيو ١٨٦٧ · وقد أقر الفرمانان الأولان مبدأ الوراثة المباشرة للعرش ابنا عن أب طبقا لمبدأ حق الابن الأكبر ، ووفقا لنفس أسلوب الوراثة فى معظم الأسرات المالكة الأوروبية » ، « وخلافا لتقاليد العالم الاسلامى (٥١) » وفى عرض الأسباب جاء فى المقام الأول أن من الضرورة أن تتمتع مصر بسلطة ثابتة متمركزة ، لا تكون عرضة للاقطاعات أو الخسائر الاقتصادية : وأيا كانت النوايا المختلفة ، للباب العالى و « ديليسبس » واسماعيل فان مقومات الخصوصية القومية المصرية قد دفعت في اتجاه الترشيد والتقدم (٥٢) · وهناك بنود أخرى تدعم الاستقلال

---

(٤٩) « لقد كان جدى يعتقد أنه حاكم مطلق : وقد كان بالنسبة لنا وبالنسبة لخادميه ولأطفالنا ، غير انه كان مستبعدا للقناصل العموميين · واذا كان يتعين على أن أصبح محكوما للغير فانى أفضل حكم رئيس كافة المسلمين الخليفة السلطان على حكم المسيحيين (الأجانب) الذين أمقتهم · » (J. Achkar : Khédivat, 103).

(٥٠) يقول « سامارکو » : « كان يتعين البت فيما اذا كان العنصر التركى سوف يستمر فى أن يصدر – من البسفور – القوانين للعالم الاسلامى ، أو ما اذا كان يجب عليه ان يتقاسم السيطرة مع القاهرة وأن يتنازل تدريجيا للشعوب العربية عن أكبر جزء » ·

« لقد صمم اسماعيل على تحرير مصر من احتمالات « المسألة الشرقية » حتى لا تندرج منطقة نفوذه حالما يأتى يوم التسوية فى نطاق الأقاليم التى يتعين اعادة توزيعها ·· ، لقد عمل اسماعيل كل شىء بغرض أن تتفوق اللغة العربية والمصريون على اللغة التركية والعثمانيين · »

Emile Sélim Amad : La question d'Egypte (1841-1938), Les Editions Internationales, Paris 1938, 47.

(٥١) نص الفرمانين فى A. Sammarco : Sa'îd et Ismaâ'îl, 196-7.

(٥٢) يقول « بروكيش – أوستن » : « ومما لا ريب فيه أنه على هذا النحو نقدم خدمة عظمى للبلاد · سوف تنتهى الضغوط من أجل الحصول على ممتلكات وموروثات للخلفاء المباشرين لشتى الولاة وسوف تتوحد مصالح الأسرة مع مصالح البلاد » · (فى « سامارکو » : **المرجع السابق** ، ١٩٩) ، ويقول « ديليسبس » « لقد اعترف بالفعل رجال الدولة فى أوروبا وتركيا بالوضع الاستثنائى لمصر وضرورة ادارتها عن طريق تكوين سلطة محلية ذات طابع استثنائى أيضا » (Eg. et Turquie, 14).

الذاتي : تشكيل مجلس وصاية ، زيادة عدد الجيش الى ٣٠٠٠٠ رجل ، اختلاف العملة المصرية والتركية ، منح الرتب المدنية (١٨٦٦) • أما فرمان ٨ يونيو ١٨٦٧ ، فقد خلع على اسـماعيل وخلفائه لقبا جـديدا هو الخديوى (٥٣) وذلك لتميزه عن غيره من الولاة • ومنح الفرمان خديوى مصر حق اعلان التنظيمات الخاصـة بادارة البلاد ، وعقد الاتفاقيات مع الدول الأجنبية (الجمارك ، البريد ، النقل ، أمن الأجانب الخ •) مع عدم اعطائهم طابع المعاهدات الدولية ، وهذا يعنى فى الواقع منحها الحق الكامل فى التفاوض الاقتصادى (٥٤) • وكتب « سامارکو » بحق يقول : لقد اعتبر الوالى جميع هذه المكاسب مراحل نحو الاستقلال التام » (٥٥) • وقد أعقب هذه المرحلة الأولى مرحلة ثانية شهدت سـوء العـلاقات المصرية التركيـة (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠) ذلك أن جولة اسـماعيل فى أوروبا لدعوة الملوك بمناسبة افتتاح القناة قد أقلقت الباب العالى • فأرسل اليه رسالتين (أغسطس ١٨٦٩) تعتبران بمثابة تحذير عنيف ، بسبب تبذير فى المصروفات وكذا مهمات يقوم بها « شخص ما يتظاهر بأنه وزير الخارجية المصرية (٥٦) » ، زيادة الجيش العامل ، شراء سفن مدرعة ؛ وتخطره هاتان الرسالتان باعادة اشراف الباب العالى على المالية المصرية ، كمـا كان الحال قبل فرمان ١٨٤١ • واذا بفرمان ٢٩ نوفمبر ، يـؤكد هـذه التهـديدات ، وخاصـة فى المجال المـالى • حينئذ قام اسماعيل بنشاط سياسى مكثف فى اتجاه ايطاليا والنمسا بوجه خـاص مقرونا بهـدايا لاستامبول ، وكان مسعى الخديوى ، هذه المرة ، يرمى الى الاستقلال نظرا

---

(٥٣) من تعبير فارسى يعنى : « السيد ، الحاكم ، » • وقد أكد أهمية ذلك ، بوجه خاص ج « دينى » .
J. Diny : Sommaire des Archives turques du Caire, Le Caire, 1930, 70-4; A. Sammarco : Sa'id et Ismâ'il, 209; L'évolution constitutionnelle de l'Egypte, Paris 1946, 4); P.M, Holt : Egypte and the Fertile Crescent 1516-1922, a political history, Longmans, London, 1966, 19617
ويقول اسكندر دوس : « لقد كان هذا النظام (الخديوية) المحرك الرئيسى لفترة انتقال من النظام السابق أى السيطرة العثمانية التى تنهض مفهوم الخلافة القديم الى النظام الحالى القائم على مبدأ السيادة الوطنية »

(٥٤) النص فى A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 209-10.

(٥٥) نفس المؤلف : **المرجع السابق** ، ٢١٠

(٥٦) ويشير « مينجن » الى أنه تم فى عام ١٨٣٩ « انشـاء وزارة خارجية » تولاها بوغوص بك وعاونه سامى بك A..Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl 213; (Hist. gouv. Mohamed-Aly, iii : 115).

لتفوق مصر على تركيا في جميع المجالات (٥٧)· وبلغ الموقف ذروته بصدور فرمان ٨ يونيو ١٨٧٣ الذى اعتبر مصر لأول مرة « دولة » وليست مجرد ولاية وأكد استمرار سلطة الخديوى بنفس الشروط، سيادة تمتد الى ولايات الامبراطورية (سواكم ومصوع) ، وحق عقد المعاهدات والاتفاقيات فى مجال التجارة ولائحة الأجانب مع الدول الكبرى ، بشرط ألا تتعارض مع المعاهدات التى عقدتها تركيا ، وحق زيادة الجيش ومنح الترقيات حتى رتبة كولرنيل (قائمقام ، أى عقيد) مع حظر امتلاك السفن المدرعة ، الخ · على ان أهم ما في الموضوع هنا ، يكمن في الامتيازات الواسعة بالنسبة للاستقلال الاقتصادى ، والقوة العسكرية والعلاقات الدولية مع الاعتراف بالواقع الوطنى لمصر باعتبارها « دولة » · وبذلك فان ظهور فكرة « الوطن » فى نفس الفترة تقريبا يجد له دعما فى هيكل شكلى قائم فعلا وقوة مؤقتة : وتتحول « الأمة » فى الأذهان الى « دولة » ، وتمضى الدولة نحو تعميق طابعها الوطنى والحصول على الاستقلال · هكذا شهد عام ١٨٧٣ ظهور الأفكار المحركة الأساسية للحركة الوطنية المصرية (٥٨) ·

ان اعادة انشاء الامبراطورية المصرية يستجيب ، فى رأى محمد صبرى ، الى « فكرة تكوين دولة كبرى مستقلة » ، فمن جهة « الحصول بقوة المال » على استقلال مصر ، وهو ما حاول محمد على عبثا أن يحصل عليه بالقوة ، ومن جهة أخرى ، الحاجة الى « الكشف فى التوسع الافريقى عن جانب العظمة والحرية الذى يتيح لها أن تستعيد شعورها الوطنى وتنمى بعض قدراتها المعطلة · » « كان اسماعيل وهو يبسط نفوذ مصر حتى خط الاستواء يفكر ، الى حد ما ، فى أن يقيم لاستقلالها حصنا هائلا منيعا

---

(٥٧) ويصرح اسماعيل الى الوكيل الايطالى الذى يشير الى أن احدى مواد الاصلاح الصادر فى أول سبتمبر ١٨٦٩ تعترف بالاستقلال ، « لقد طويت رايتى ، غير انى لم أخفها ، وسوف أنتظر الأحداث ، وفى أثناء عملية الانتظار هذه أعد بلادى من أجل المستقبل » (سامارکو : **المرجع السابق** : ٢١٨ ـ ٢١٩) ، وحول تطور تركيا بوجه عام انظر ،
N. Berkes : Turkey. 89-288. وكذلك F. J. Cox : «Khedive Ismail and slavism», The Slavonic and East Eiropean Review, 32 (1953-54), 151-67;

(٥٨) تحتل التهمة الموجهة الى اسماعيل بانه لم يعمل الا على خراب مصر مكانا هاما فى الكتابات التاريخية الجارية ولا سيما فى كتابات عبد الرحمن الرافعى : **عصر اسماعيل** ، ومع ذلك فان S. Cane يسجل منصفا أن الوالى كان يتشدد فى كل مرة تصاغ فى وجوده مقترحات من شانها المساس بالاستقلال الداخلى للبلاد ·
(J. Tagher : «La première intervention britannique dans les affaires intérieures de l'Egypte ou les dessous de la mission Cave». Cah. hist. égypt., iv, 1952, no 3-4, 205-21 (219).

في قلب القارة (٥٩) ٠ » ولم يصطدم التوسع فى قلب القارة الافريقية ، على الأقل فى أوائله ، بتركيا ولا بريطانيا العظمى ٠ وفى البداية لجأ اسماعيل الى فرنسا (بعثة الكولونيل Mircher فى عام ١٨٦٤) ، ثم وهو شيء جديد ، اتجه الى الولايات المتحدة ، التى لم تكن تحركها فى ذلك العصر الأهداف الاستعمارية ، وذلك لتدريب الضباط وتكوين الجغرافيين والمهندسين والمستكشفين (بعثة الجنرال « ستون » عام ١٨٧٠) (٦٠) ٠ وقد تم انشاء اسطول حربى متوسط القوة بعد تسليم البوارج (السفن المدرعة) لتركيا ، وبحرية تجارية تضمن كافة احتياجات التجارة المصرية، وثمانية عشر حصنا ، وخدمة هاتفية وبرقية جيدة ؟ وتصميم خط حديدى يصل الى الخرطوم وسواكن ، — وغير ذلك من الانجازات التى تكمل البنية القاعدية الأساسية للامبراطورية الجديدة (٦١) ٠ وقد تمكنت السودان والصومال وهرر والمنطقة الاستوائية وأونيورو وأوغندا من الانفتاح على الحضارة الأوربية عن طريق التقدم العسـكرى المصرى ، كما أغدقت فى الثناء الصحافة التحريرية فى أوروبا (٦٢) ، وكان استقبال الشـعوب فى جوهره يتسم بالترحيب ٠ غير أن الفشل كان نهاية هذا العمل العظيم الذى بلغ ذروته بين ١٨٧٢ و ١٨٧٩ ويرى أغلب المؤرخين فى ذلك العصر أن سبب ذلك يعود الى أن اسماعيل عهد بالقيادة الى الأجـانب وبخاصـة الانجليزيين « بيكر » و « جوردون » ، حيث أدى اهمالهما لصالح دولتهما ، الى ضياع الخديوى ٠ لكن هناك سبب آخر ، قد يكون أكثر أهمية : فاذا كان اسماعيل قد تخلى عن القيادة العسكرية ، معتقدا أنه بذلك يحصل على رضا بريطانيا عن خطته فى افريقيا فانه لم يفعل شيئاً مما فعله محمد على من انجازات اقتصادية وبالأخص فى المجال الصناعى ٠ فالجيش الذى كان حسن التجهيز ، ولكنه تحت قيادة أجنبية ، لم يكن يملك قاعدة صناعية قوية : فمنذ معاهدة لندن ، لم تعد مصر قادرة على تأمين استقلالها وتطورها الاقتصادى الحديث ، لقد بقى أمامهـا أن تبنى قاعدتها المادية عن طريق القروض والزراعة والتجارة ، غير أن القطاع الصناعى الحديث

---

(٥٩) M. Sabry : Ismail et ingérence, 377-8. يسـمى محمد محمود السروجى هذا الاتجاه « السياسة العربية المتكاملة » فى بحثه : **موقف مصر ازاء بعض مشاكل شبه الجزيرة العربية فى الستينات من القرن التاسع عشر » ، المجلة التاريخية المصرية** ، ٧ (١٩٥٨) ، ٧٢ — ٨٥ ٠

(٦٠) Col. Chaillé-Long : My life in four continents, London, 1912, I, 32; ويروى « جيسمان » تفاصيل هذا الموضوع ويؤكد أن المصريين لم يألفوا أى شعور ودى للضباط الأمريكيين ، C. Jesman «Amirican officers of Khedive Ismail», African Affairs, 57 (1958), 302-7.

(٦١) M. Sabry : Ismail et ingérence, 383-9.

(٦٢) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ٤٢٥ — ٤٣٢ ٠

كان فى أيدى الأوروبيين ، وكان أهمه يتمثل فى طلبيات من الدول الكبرى الرئيسية • وعلى ذلك ، لم يكن فى مقدور الامبراطورية الجديدة أن تستمر الا فترة ، هى فترة الغزو والتنظيم الادارى للمناطق المستكشفة والمستولى عليها فى ذات الوقت ، وجاء عزل اسماعيل ليضع حدا ، الى زمن طويل ، لأية سياسة أفريقية فعالة من جانب مصر • « يجب أن تكون شعوب مناطق منابع النيل صديقة وحليفة لسمو الخديوى » ـ ان عبارة اسماعيل هذه ، فى صياغة مختلفة ، مازالت تدوى حتى أيامنا هذه • وعوضا عن الامبراطورية وجدت كوادر الجيش المصرى فى انجاز هذه المهمات البعيدة شرارة وطنية (٦٣) لم تنطلق مع ذلك الا مع بزوغ شمس الاستقلال •

أما حركة الاصلاحات التشريعية فقد كانت مثار معركة قاسية . اختلف المؤرخون والمحللون فى تقديرها • وكانت الدوافع تبدو فى ذلك الوقت متناقضة ومتقاربة ، وقد جعل الناس منها موضوع معارك جدلية أكثر منها تحليلا اجتماعيا موضوعيا ، لوحة متباينة حافلة بالمؤامرات ومناورات القنصليات وطريدى المجتمعات • الا أنه من الممكن استخلاص بعض العناصر الدالة التى تتيح تصور هذا العمل الضخم داخل الاطار العام لمحاولة مصر الناهضة تحقيق استقلالها • كان الأجانب فى الامبراطورية العثمانية ، يتمتعون بما كان يعرف بنظام الامتيازات الذى كان يتعلق بحرياتهم الفردية والاعتراف بالمحاكم القنصلية ، واعفاءات واسعة من الضرائب وحرية الديانة : وطوال القرن التاسع عشر « كان الاستقلال الذى يتمتع به الأجانب فى مصر بالنسبة للسلطة المحلية أبعد مدى من ممثليه فى الاجزاء الاخرى من الأمبراطورية التركية » ، ولا سيما من جراء تدفق الأجانب من كل صوب وحدب وقد أصدر سعيد مرسوما فى عام ١٨٥٧ جعل الأجانب فى مأمن تام من أحكام المحاكم المصرية (٦٤) • كانت هناك ست عشرة محكمة قنصلية تطبق ستة عشر تشريعا مختلفا ، وتقضى .

---

(٦٣) تفاصيل الأنشطة العلمية لأركان حرب الجيش المصرى فى : محمد صبرى ، **المرجع السابق** ، ٥٥٠ ـ ٥٥٢ (« يرىستون » باشا رئيس الأركان أن هؤلاء الضباط اكتشفوا وسجلوا تفصيلا بين عامى ١٨٧١ و ١٨٧٨ عددا من الأقاليم المجهولة فى أفريقيا يزيد بكثير عما توصل اليه جميع المكتشفين العالميين الآخرين » ، الخ •) وحول الحملات العسكرية انظر : الرافعى : **عصر اسماعيل** ، ج ١ : ١٠٤ ـ ١٩٦ ، وفيما يختص بالرسالة السماوية والتبريرات الأخلاقية التى قدمها « بالمرستون » ومن خلفه أنظر ، Ronald Robinson, John Callagher and Alice Denny : Africa and the Victorians : the official mind of imperialism, Macmillan, London, 1961 2-3. 122-33, 1159.

(٦٤) A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 273-3; ، وفيما يختص بالأجانب انظر القسم الثانى من الفصل الثانى •

بين الأجانب والمصريين وتمثل دولة حقيقية داخل الدولة . ويبدو ، لأول وهلة آن هدف اسماعيل ووزيره نوبار كان اعادة تنظيم القضاء المصرى وتحقيق سيادة الدولة · وصدر أول مشروع لنوبار عام ١٨٦٧ عن رأى صائب وادراك سديد : « ان الطريقة التى تمارس بها العدالة تؤدى الى افساد البلاد ، والمصرى الذى يضطر الى أن يرى اوروبا من خلال الأوروبى الذى يستغله ، ينفر من تقدم الغرب ويتهم الوالى وحكومته بالضعف والخطا [··] · ان هذه الحالة لا تفيد أحدا ، لا المصالح العامة للدول الكبرى ، ولا سكان مصر الشرفاء ، من مواطنين وأجانب · ان هذه الحالة تقوم على حساب مصر ، وعلى حساب الحكومة ولمصلحة أولئك الذين جعلوا مهنتهم استغلالها (٦٥) · » وكان التقرير الذى رفعه الى اللجنة الدولية عام ١٨٦٩ يقوم على ثلاث أفكار : تحرير الحياة المدنية للمواطنين أو الأوروبيين من كل فكرة طائفية دينية ، انشاء جهاز قضائى وطنى نزيه ، قادر على تشكيل محاكم ذات سلطة وجديرة بالاحترام ، ثم تنظيم قضائى كامل يضم دوائر تحاكم المواطنين بجانب دوائر تحاكم الأجانب (٦٦) · اذن كيف يمكن تفسير تحول موقف فرنسا من المعارضة القاطعة الى القبول المشروط المتحفظ من جهة ورد الفعل المناصر من جانب بريطانيا العظمى وايطاليا والنمسا وروسيا والحكومات الأخرى المعنية ؟ لقد اكتفت سياسة فرنسا بالامتيازات الموالية للمصالح الفرنسبة ، ورؤوس الأموال الضخمة المستخدمة فى صورة قروض وبضمان معاهدات وباستثمارات مفيدة · غير أن « ديليسبس » نفسه ، وكذلك أهم الصحف الانجليزية ـ خصوصا The Pall Mall Gazette, The Times دافعا عن قيام قضاء وطنى ومختلط بدلا من المحاكم القنصلية · ويجب أن نرى سبب ذلك ، كما يشير حسام عيسى ، فى متطلبات عملية ادماج مصر فى السوق الاقتصادية العالمية ، وخصوصا بعد شق برزخ السويس : « ان ادماج مصر فى السوق الرأسمالية العالمية فى منتصف القرن التاسع عشر كان يستلزم تغيرا فى تركيب القانون المصرى · وقد تم ذلك عن طريق الاصلاح التشريعى والقضائى عام ١٨٧٦ · وقد أصبح هذا التركيب القضائى الجديد بدوره عاملا معجلا لعملية ادماج الاقتصاد المصرى فى السوق العالمية · وأصبح

(٦٥) In M. Sabry : Ismail et ingérence, 228-9.

(٦٦) Henri Lamba : De l'évolution de la condition juridique des Européens en Egypte, Libr. Nouv. de Dr. et de Juriprudence, Paris, 1896, 91-7.

كذلك بخواصه الشكلية ، فقد كان احلال قانون موحد (القانون المختلط) تقوم على تطبيقه هيئة قضائية موحدة محل القوانين الأجنبية العديدة التى تطبقها المحاكم القنصلية ، كان هذا الاحلال هو الشرط المسبق الضرورى لادخال المشروع الرأسمالى الذى يقوم على حساب عقلى متبصر الى مصر ٠ وهذا يوضح من زاوية أخرى اتجاه المحاكم المختلطة الى توسيم مجـــال اختصاصها ، عن طريق حيلة نظرية الرقابة ، لكى تشمل رؤوس الأمـوال الأجنبية المستثمرة فى الشركات المصرية ٠ وقد كان التركيب القضـائى الجديد عامل ادماج عن طريق مضمون معاييره : التحرر الزائد حيـــال الشركات الأجنبية ، والقيود على الشركات المصرية الخ [٠٠٠] ٠ وكانت الحلول المقبولة عموما بخصوص الاعتراف الدولى بالشخصية المعنـــوية والشخصية القانونية للشركات ، وتحديد جنسية الشركات عن طريق مقارها الرئيسية ، كانت تلك الحلول هى التى تتفق تاريخيا مع ضرورات تطور الرأسمالية ، وتأكيدهـا كنظام عالمى ومفهومهـا كسوق وحاجتها لاستغلال رؤوس الأموال ٠ كان تطبيق هـــذه الحلول فى مصر وهى بلد مستورد لرؤوس الأموال ، من شأنه سرعة ادماج مصر فى السوق العالمية كوحدة اقتصادية تابعة ومسيطرة عليها (٦٧) » ٠ لسنا هنا بصدد العمل الحسن ، أو الاعتبارات الأخلاقية : فالهدف هو تهيئة مصر لاستثمار رأس المال الكبير ، وتشغيله على أسس عقلية مدروسة وبالتالى يزداد ريعه ٠ وقد سبق للتنظيم السياسى الذى أقامه محمد على واسماعيل أن أدخل الأمان

---

(٦٧)

Hossam Issa : Evolution du régime juridique des sociétés anonymes et sa correspondance aux réalités sociales en Égypte, essai sur le rapport entre stricture sociale et droit. Th. dr. Paris 1969.

وعرضت النظرية القانونية التى قال بها « ماكس فيبر » فى المقدمة التى كتبها « كاهن فروند » Khan-Freund لترجمته الى الانجليزية كتاب كارل رينر

Karl Renner : The Institutions of private Law and their social functions, Routledge Kegan Paul, London, 1945, 14.

ويستـــعيد المؤلف ما قاله عزيز فهمى : « وفقا لنص اتفاقيات الامتيازات ، كانت جميع المنازعات التى يتهم فيها أحـد المواطنين ، مدع أو مدعى عليه ، من اختصـاص المحاكم الأهلية ٠ »

(L'abolition des Capitulations en Egypte, th. dr., Paris, 1938, 20).

كانت توجد بالتالى ، من الناحية النظرية هيئة تقوم على « حســـاب عقلى متبصر » ، كانت « جريمتها » انها وطنية ٠ انظر العرض التاريخى الذى قدمه :

Josper Crane Brinton : The Mixed Courts of Egypt, revised ed., Yale U.P., New Haven, 1968.

والعقلانية من القاهرة الى الخرطوم (٦٨) · ولقد قام اسماعيل (٣ سبتمبر ١٨٦١) وهو مازال وليا للعهد ، باعادة تنظيم المحاكم المختلطة للتجارة التى انشئت عام ١٨٤٦ (٦٩) · وقد ادركت فرنسا تدريجيا ، بتأثير « اوليفييه » ، أنه اذا « كان القضاء الوطنى مرتبطا بنوع خاص بالتقدم الاجتماعى والمعنوى للبلاد » ، فان « القضاء المختلط مرتبط بنوع خاص بتقدمهاالاقتصادى (٧٠) » ، أى بتشغيل رؤوس الأموال واقامة المشروعات الأجنبية · وقد تصدت لذلك العرقلة التركية (٧١) ، خصوصا وأن اسماعيل أخذ على عاتقه عدم تطبيق القانون المدنى العثمانى الجديد المجلة (١٨٧٨) ، بعد أن انتزع استقلاله الادارى والقضائى بموجب فرمان ١٨٧٣ (٧٢) · وعلى الرغم من المعارضة الفرنسية لنوبار (٧٣) ، فان

---

(٦٨) « كان الأوربيون فى استطاعتهم الذهاب من القاهرة الى الخرطوم ، ويجوبون جميع أرجاء الامبراطورية المصرية ، ويتاجرون بحرية ويكتشفون ويقومون بالرحلات دون التعرض لأدنى خطر · وما كان ممكنا أن تقوم فى مصر دولة أو يوجد بها أوروبيون لولا النظام والتطور الاقتصادى اللذين خلقهما الولاة · »
(M. Sabry : Ismail et ingérence, 242).

(٦٩) A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 277, n. 2.

(٧٠) M.E. Caselli Piola : «La procédure civile moderne et la réforme judiciaire en Egypte», Eg. Cont., v (1914), no 1, 52-72 (72);
وقد كانت الفكرة التى عرضها دوق « ديكاز » Decazes أمام البرلمان الفرنسى تشير الى أنه « قد تزايد كثيرا الاحساس بالحاجة الى اعادة الوحدة الى هذه البقعة المتنوعة وخلق النظام فى وسط هذا الاضطراب ولا سيما مع التوسع الهائل الذى شهدته المشروعات التجارية والصناعية التى أقامها الأوروبيون على ضفاف النيل » ، الخ ·
(in M. Sabry : Ismail et ingérence, 252-3).

(٧١) انظر الرسالة التى وجهها نوبار من باريس بتاريخ ٢٤ يوليو ١٨٦٩ الى قنصل فرنسا ضد ملاحظات الوزير الأعظم على باشا : ·· « ان القسطنطينية بما تتمتع به من غريزة التمسك بالسلطة المطلقة ، والسلطة الارستقراطية والسلطة الكهنوتية تقاوم بشدة التقدم المعنوى ولعلها تعتقد أنه من الضرورى لها ابقاء مصر محصورة فى النطاق القديم الذى تحيا هى فيه » ،
(Archives françaises, A.E., Corr. polit., Egypte, vol. 46, in M. Sabry : Ismail et ingérence, 245).

(٧٢) Mohamed Saleh Omer : The role of Islamic legal modernism in the Arab world, th Ll. M., Univ. of London, 1961, 78;
ويذهب J.A. Haakman الى حد القول ان « مصر انفصلت عن الشرق بحكم شق برزخها »
(L'Egypte et les traités internationaux sur la réforme judiciaire, A. Durant et Pédone-Lauriel, Paris, 1877, 1).

(٧٣) ويتعمد التهكم عليه بوصفه أنه « كان يحمل عقلية انجليزية تحت الطربوش »
(in M. Sabry : Ismail et ingérence, 246);
ويقول « ادمون دىليون » أنه « يشبه أحد الانجليز »
(The Khedive's Egypt, 179).

« مشروع لائحة التنظيم القضائي للقضايا المختلطة فى مصر » ، والـذى تضمن نصا من ستة قوانين حررها المحامى الفرنسى « مونورى » ، قدم فى ٢٤ فبراير ١٨٧٣ ، وقبلته فرنســا بعد ادخال تعديلات هامـة فى ١٧ ديسمبر ١٨٧٥ ، ووفقا لاعلان من طرف واحد من الحكومة الفرنسية فى ٢٥ أكتوبر ١٨٧٥ يحد من أثره بصورة بالغة (٧٤) ٠ وكان قانـون نابليون هو مرجع هذه القوانين مع بعض لمسات من الشريعة الاسلامية(٧٥) . وبعد ذلك ، قام أحد أعظم الخبراء القانونيين الأجانب ، ومن بعده هيئة المحامين نفســها بابداء ملاحظات ايجابية (٧٦) ٠ ان وضـع ضـوابط

وبعد أن اقيل فى ١٨٧٤ غادر مصر فى ٢١ مارس ١٨٧٦ ومنحته الحكومة البريطانية «C.C.S.I., CSMC. etc.»
(J. Tagher : «Portrait psychologique de Nubar pacha», Cah. hist. égypt., i, 1949, no 5-6. 353-72 (369).
(J. Tagher : «Nubâr pacha et la réforme judiciare», Cah. hist, égypt , 1, 1948, no. 56, 373-412);
وينصف جاك تاجر نوبار فى شان الاصلاح القضائى .
أنظر الاطراء الذى قدمته
Victoria Archaruni : Nubar pacha (1825-1899), Le Caire, s.d.

(٧٤) وهو يتضمن ثلاث نقاط (١) : ترى (الحكومة الفرنسية) أنه لا يتعين أن تتسع ولاية المحاكم الجديدة بحيث يخول لها حق فرض شرعية الرسوم أو الاشتراكات أو الضرائب التى يكون من اللائق أن تحددها الادارة المصرية ٠ وبذلك لا يكون من حق القضاء الجديد أن يوافق باحكامه على أى اجراء ضريبى يكون مثار نزاع عن الطريق الدبلوماسى ، ويجوز أن تتدخل الحكومات الأجنبية ووكلاؤها أو قناصلها بصفة مستمرة من أجل الغاء أو تعديل الأعمال التى تخالف ما تنص عليه الاتفاقيات أو أوصاف القـانون الدولى العـام ٠٠
(٢) يستمر القناصل العموميون وقناصل فرنسا وكل من يستخدمهم القانون الفرنسى لتحقيق العدالة فى مصر ، فى ممارسة نفس الاختصاصات كما فى الماضى ، ما خلا الحالات التى حددها بصراحة التنظيم القضائى الجديد الواجب اقامته ، (٣) تظل الامتيازات ، التى ظلت سارية فى مصر حتى الآن ، هى القاون الوحيد الذى ينظم العلاقات بين الحكومـة المصرية والأجانب ، ماعدا الحالات الاستثنائية الجزئية والصريحة التي وافقت عليها الحكومة الفرنسية رسميا على سبيل التجربة والتى تتعلق بصفة أساسية بالاستخدامات الخاصة بمصر ٠ »
(M. Sabry : Ismail et ingérence, 249).

(٧٥) M. S. Omer : Islamic legal modernism, 78. وفيما يختص بعدم التوافق بين النظامين القانونيين انظر : صوفى عبد الله أبو طالب : **بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى** ، القاهرة ، ١٩٥٠ ٠ وتهيأ فيما بعد محمد قدرى باشا لوضع « قانون منافس ، فى سبيل الاحتجاج على تبنى القانون الأجنبى » ، وذلك فى « **مرشد الحيران الى معرفة احوال الانسان** » (صبحى محمد ، نقلا عن
M. S. Omer : Islamic legal modernism,

(٧٦) « ليس للقانون المدنى أو القانون المالى الخاص ـ تماما مثل القانون التجارى وقانون الصرف المالى ، وكلها قوانين انفصـلت عن بعضها البعض ـ قيمة فى حـد ذاته ، مثلما الأعمال الفنية واللغة والأدب والنظم العائلية وعادات شعب التى تعد تعبيرا عن الروح الوطنية ٠ وهذا القانون ليس غاية وانما هو مجرد وسـيلة وواسطة ٠ ويتعين أن يكون=

للاقتصاد المصرى جعله يسير في طريق التقدم · ان هذه « الضوابط » ، وهذه الغلبة العقلانية على طريقة « فيبر » أعدت البـلاد للتحديث ، وفى نفس الوقت ، وضعت حدا لابتزاز المغامرين الذين يتدفقون على البلاد ، وقدمت للمحاجة القانونية للحركة الوطنيـــة أسسا واضحة ثابتة ظهر أثرها بصورة لا يمكن انكارها فى الحركة الوطنية التى كانت تأخذ أهبتها فى ذلك الوقت·

وقد يبدو غريبا أن نختم هذا التحليل دون أن نذكر الدور الخاص للرأى العام وللحركة الوطنية غير الرسمية اللذين كانا يتبلوران فى ذلك العصر · وقد حدت بنا دواعى اتصال الموضوع وتلاحمه الى أن نقوم بهذه الدراسة فى نطاق دراسة الصراع من أجل النظام البرلمانى ، وهى دراسة تعتبر فى حد ذاتها جزءا لا يتجزأ من ايديولوجية الحركة الوطنية ·

ان صبحى وحيده ، فى مسحه لقرن من التاريخ ، شـــهد تثبيت أقدام أوروبا فى مصر ، التى أصبحت غارقة أو تكاد فى «الموجة الغربية» ، وذلك فى بحثهالدقيق الرائد عن فلسفة التاريخ المصرى ، ينصف جميع من خاضوا غمار المعركة ، اذ يقول :

« وقد أخفق يعقوب لأنه كان يمثل فى مطلع القرن التاسع عشر أول محاولة فى طريق لم تتبين معالمه الا فى القرن العشرين ، وأخفق السيد عمر مكرم لأنه لم يستطع أن يؤدى ثمن الحكم الاسلامى الذى أراده · أخفق الاثنان ونجح محمد على ·· وهكذا كانت سياسة محمد على تقوم عـلى الاحتفاظ بمصر وتقويتها والقدرة على الدفاع عنها ، ثم تمتد ، بدافـع تخوفها من انهيار الامبراطورية العثمانية ، وطموحه الشخصى ، الى الرغبة فى توسيع حدودها ، والبلوغ بها الى الخطوط الطبيعية التى تمكنها من القيام بنفسها ، ثم تعلو الى محاولة الوصول الى الاستانة لتحقيق ما كان يصبو اليه العالم الاسلامى حينئذ من انهاض الامبراطورية العثمانية » ·

بسـيطا ، ملائما ، موحدا ، صالحا لكل مكان ، ومثل الموازين والمقاييس فكذلك البريـد ، التلغراف ، النقود ، العملة الورقية ، الكمبيالة · ولا ريب فى أن القانون المالى قد شرع فى التباين لدى جميع الشعوب، تماما مثل النقود، غير أن هذا لايبرر ألا يكون موحدا في الأرض قاطبة » ذلك ما قاله « فان بميلين «P. van Bemmelen : Eg. et Ear. i : 298

ويقول « **الكتاب الذهبى** » الذى أصدرته نقابة المحامين بمناسبة العيد الخمسينى للاصلاح القضائى : « لقد أصاب الاصلاح حظا مواتيا من النجاح ويتبدى جليا اليوم أن الملايين التى أنفقت عليه حتى اليوم ، لم تكن مجرد تبذير ، وانها كانت عملا اداريا حاذقا رفيع المستوى ووفر لمصر المليارات عن طريق تحقيق الأمان فى المعاملات وترسيخ دعائم الملكية وخلق الثقة فى عدالتها » (ص ٧١)

(Ed. «Journal des Tribunaux, Mixtes», Alexandrie, 1926)

« وكانت لمحمد على شخصية تماثل شـــخصية الحكام العثمانيين الأصليين ومن سلالة أولئك الذين قادوا المســـلمين فى الانتصارات على الصليبيين والمغول والذين شيدوا سلطة المماليك والعثمانيين • ولم ير مثلهم فى السلطة الا جانبها العســـكرى ، ولم يعتبر الحيـــاة المدنية الا باعتبارها وسيلة من بين الوسائل الكفيلة بضمان الانتصـــار على أرض المعركة (••)

« هو حاكم عثمانى قد شـــاء له عدم انتمائـه الى الطبقة الحـــاكمة العثمانية لعهده ، وما اضطره اليه من فرض ارادته على هذه الطبقة فرضا ، وتفكك الامبراطورية العثمانية الذى منعها من القضاء عليه قبل أن يستفحل أمره ، أو الانتفاع بمواهبه حـين استفحل ، ووقوف أوروبا بينه وبين السلطان بما كانت تتمتع به وقتئذ من نفوذ فائق ، شاء له كل ذلك أن يقف ارتفاعه الطبيعى الى سماء السلطنة ، وأن يقصى عن مقرها الرئيسى ويزدهر فى الأقاليم ، حيث أقام من ولايته دولة جديدة ، استمدت من مركزها وشخصيته هو بريقا خاصا ، وبقى طوال حياته بريئا من الانحلال الذى خص به حكام تركيا وقتئذ ، ولا نزال نرى بعض أعراضه فى حكام الشرق الى اليوم من جراء توزع ضميرهم بين الشرق والغرب • وهو يختم بذلك سلسلة الحكام العمالقة الذين أنجبتهم الامبراطورية الاسلامية ، ويضع حدا فاصلا بين عصرين مختلفين فى تاريخ هذا الجانب من الشرق الاسلامى بقامته هذه الجبارة التى تجعل منه ندا عظيما لبيبرس وقلاوون وأباطرة بنى عثمان الأولين • ولعل السلطنة العثمانية لم تخسر آخر أيامها مثل ما خسرت باقصائه عن مقاليد الحكم فيها • »

وقد أعطى هذا الانسان والعمل الذى أداه نقطة الانطلاق الى العصرية:

« هناك اذن مجتمع مصرى جديد ترجع نشـــأته الى مطلع القرن التاسع عشر وترجع أصوله فى مجموعها الى تراخى الصلة بين الســـلطنة العثمانية ومصر ، وتحلل النظم المـــلوكية ، ثم النزعة الانفصالية التى بدأت تحت مشايخ البلد وبلغت أشدها بمحمد على ثم انتهت الى غايتهـــا عند انفجار الحرب العالمية الأولى ، اذ تضافرت هذه العوامل فى تكوين أسرة مالكة جديدة وحكومة محلية ومصالح وطنية ، وأتاحت لأبناء البلاد الغلبة على من كان يختلط بهم الى ذلك الحين من عناصر أخرى •

« وهذا المجتمع يرث عن ماضيه الفكر العربى وضميره الاســـلامى ونظمه المغولية ، فى حالة ثقيلة من الفساد الذى دب اليهـــا جميعا تحت

الدولة التركية ، ويخضع لتأثير هـذه الحضـارة الغربية البراقة ، التى تكونت بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ، أى أثناء نكسته العثمانية بالذات ٠٠ وهـذا التأثير الغربى يتخذ الى المجتمع المصرى الجديد طريق التغلغل الاقتصادى ، فيقيد منابع ثروته بانتاجه ، والنفوذ السـياسى اذ يبعد هـذا التغلغل ويدفع بحكومات القـائمين به الى الضـغط على الحكم ثم الاستئثار به ، ثم الغزو الثقـافى ، اذ يشعر أبناء البلاد بمقتضيات الحياة الجديدة التى يتجهون اليها فيقبلون على التعليم الحديث ويشـعر الغرب بالحاجة الى ايلافهم ، فينشر بينهم ما يريده من هـذا التعليـم ، وتنشأ بذلك طبقة من المفكرين المحدثين ، ترفعها مقتضيات الحياة الجديدة الى الصدارة ، ثم تنتشر الصحف وتعم الاذاعة فتلحق البلاد بدائرة الرأى العام العالمى ٠ وهو يبدأ فى هذه الميادين جميعا كتيار يهب من الغرب ثم ينقلب جذوة تتقد من الداخل ٠ ويكون فى الحالة الأولى شـكلا من أشكال التوسع الغربى ، فى حين يصير فى الحالة الثانية عنصرا هاما فى نهضة محلية ٠ ولكنه يبقى فى الحالتين شـيئا يفرض على عامة المجتمع ولا يكون ثمرة تنبت من أعماقه ، شيئا يصدر عن ارادة التوسع الخارجية أو ارادة الاصلاح الفردية الداخلية ولا يصدر من قاع الحيـاة الاجتماعية المحلية ٠ وهو يسير لذلك جنبا الى جنب وظروف هـذه الحياة ويبدى خصال كل ارادة تفرض على المجتمعات من تأثر شديد بشخصية أصحابها وميولهم واستعدادهم وتعثر فى سيرها واثارة ما لم تفكر فى إثارته قط [٠٠٠] « كذلك تبصر حكما يتخذ أوضاعا حديثة ولكنه مازال يذكر ماضيه المغولى فهو يخلط بين الحكم والتحكم ، ويطغى على كل شئ كما يشاء ، ويعد الأفراد ومصالحهم وسيلة لوجوده لا غاية لها ٠ وهو لا يكاد يميز بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، فيتحول فى يسر الى وسـيلة من وسائل اصلاح الحال ومحاباة ذوى القربى والاعلان الشـخصى ٠ ثم أنه لا يقدر وزنا للتشريع الوضعى فيتزيد ويتنقص فى تفسـيره وتطبيقه أو تعطيله كما يشاء دون أن يكلف نفسه حتى التزام الطريقة الصحيحة المؤدية الى ذلك ٠ وهو على كل حال حديث فى تكوينه فليس بين القائمين به من أدنى الدرجات الى أعلاها من عمل به أكثر من جيل أو جيلين ، ولكنه قديم فى نظمه فهذه النـظم مازالت فى جوهرها تلك التى انشـئت فى القرن الماضى دون رؤية أو تعمق [٠٠٠] ان الأمر فيما عليه حالتنا الراهنة هو قبل كل شىء أمر فقر الدم هـذا الذى أصاب أطراف مصر جميعا بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ، فحد من نشاطها الاقتصادى ، وهبط بحياتها الاجتماعية الى الحضيض ، ودفع بفكرها الى الجمود الازهرى ٠ أمر مجتمع يخرج من أقصى ما يسـتطيع أن يتردى فيه شعب من دمار الى أحـدث

ما انتهت اليه البشرية المتمدنة ، ويحاول أن يساير هذه الحياة الجديدة دون تقاليد أو مقدمات حقيقية ، وهو يتعثر لذلك بين هشيم الماضى وعقبات الحاضر ولا يريـد أن ينظر الى ظروفـه الحـاضرة النـظرة المجردة التى تستحقها ويعالجها بالحزم الذى تقتضـيه • ومعالجة مثل هـــذه الحالة لا تستطيع أن تستقيم الا بتنقية هذا الدم وتغذيته والاكثار منه ، وهو عمل يقتضى مجهودا كبيرا يشترك فيه جميع أفراد المجتمع ، لأنه يتصل بنشاط كل منهم (٧٧) » •

ان المراجعة الجارية منذ عام ١٩٥٢ لتاريخ مصر الوطنى لا يبدو أنها توجهت بعد ـ ما عدا فى حالات استثنائية مثل جمال حمدان وطارق البشرى ـ الى صياغات بالغة الدقة يكون فى استطاعتها أن تلغى مفعول الأحكام المانيكية المسطحة والمريحة •

ويجب أن نتذكر فى ختام هذا التحليل أن التكوين الفكرى النظرى لفكرتى الوطن والأمة استمر فى تبلوره بصورة منتظمة نسبيا ، فى حين أن التكوين الفكرى النظرى لفكرة الاســتقلال تعرض لنوع من التعثر •

---

(٧٧) صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية ، ١٣٣ ـ ١٣٤ ، ١٤٢ ـ ١٥٥ ، ٢٠٩ ، ٢٢٤ •

القسم الثانى – الاتجاه الدستورى والنظام النيابى

ان تاريخ الاتجاه الدستورى والنظام البرلمانى فى مصر ، الذى كان موضوعا لدراسات عديدة ، يركز فى أغلب الأحيان على عهد اسماعيل ۰ ونحن نجد السوابق هنا وهناك ۰ أما دراستنا فستتناول بالتحليل المضمون الفكرى لهذه الحركة التى تعتبر أحد الوجهين المكونين لايديولوجية الحركة الوطنية ، ومصادرها الأيديولوجية وأسسها الاجتماعية وتلاحمها مع نهضة الوطن واستقلال الدولة المصرية ۰

يرى لويس عوض أنه من الأوفق أن نبحث فى عهد نابليون عن « أول وزارة وأول دستور وأول برلمان » ، وقد سبق ذكر اعلان أول يوليو ۱۷۹۸ ۰ ان النصين الفرنسى والعربى ، اللذين أوردهما الجبرتى ، يتضمنان بعض الاختلافات ۰ فهما متفقان فى صياغة مبادىء المساواة والأخاء : « [۰۰۰] الناس جميعا سواء أمام الله ، الذكاء والفضائل والعلم وحدها هى التى تفرق بينهم » ، ومتفقان فى صياغة مبدأ الحرية : «أجيبوا [۰۰۰] بأننى جئت لأرد اليكم حقوقكم من الغاصبين » ۰ ان أوضح اختلاف يتجلى فى فكرة الحكومة : فالنص الفرنسى الخاص – « **مراسلات جيش مصر** » – يقول « ولكن الله عادل رحيم بالشعب ۰ وبعونه لن يستعفى من الآن فصاعدا أى مصرى من مهامه ، وسيكون فى وسع الناس جميعا الوصول الى أرفع الدرجات ، وسوف يتولى أذكاهم وأفضلهم وأعلمهم ادارة الأعمال ۰ وبذلك سيصبح الشعب سعيدا (۱) » ۰ ويختلف هذا النص عما ورد فى « **مراسلات نابليون** » حيث نجد أن [۰۰۰] أعلمهم سيتولون الحكم (۲) » – وهو ما يورده الجبرتى بقوله : « سيدبرون الأمور (۳) » ، ويرى لويس عوض أن سبب ذلك يعود الى نقص فى المصطلحات العربية فى ذلك العصر ، تلك المصطلحات التى كانت ما تزال تجهل كلمة « حكومة » ۰ بقى أن ألفاظ الثورة الفرنسية ستنغرس فى التربة المصرية وأن النداء موجه الى الشعب والرتب موعود بها « الشيوخ والقضاة والأئمة » ان انشاء الديوان العمومى

---

(۱) **مراسلات جيش مصر** ، ج ٤ : ۱۹۱ – ۱۹۲ ۰

(۲) **مراسلات نابليون** ج ٤ : الوثيقة ۲۳۷۷ ۰

(۳)**عجائب** ، نقلا عن الرافعى ، **تاريخ الحركة القومية** ، جـ۱ : ۸٤ – ۸۷ ۰

(٢٥ يوليو ١٨٩٨) ــ تسعة أعضاء يتولون بصفة أساسية الأمن العام ، وتموين وصحة العاصمة ــ ومن بعده بيومين انشـــاء الدواوين فى كل مديرية ، يمثل فى ذات الوقت بداية اقامة سلطة سياسية مصرية ، وطنية ونيابية ، وتدريب أساسى لأعيان مصر فى مجال الحكم ، وهو كذلك اداة لاستعادة بعض الحقوق المفقودة • وعلى النقيض من عبد الرحمن الرافعى ، يرى لويس عوض أن إلا مركزية لم تكن الا ظاهرية : فان ديوان القاهرة هو الذى كانت تتركز فيه الوظائف الأساسية للســـلطة التنفيذية ذات النظام الحديث ، تلك السلطة الخاضعة لجيش الاحتلال مع تمتعها بقدر معين من حرية المبادرة (٤) •

فى الخامس من أكتوبر ١٧٨٩ دعا «بونابرت» الى اجتماع عام للأعيان أطلق عليه اسم **الديوان العام** • وكان هناك هدفان صريحان لهذا الاجتماع: « تعويد الأعيـــان فى مصر على أفكار المجـــالس والحـــكم (٥) » ، واصلاح التشريع المدنى والجنائى ، ومن جهة أخرى اثيرت مشـــكلة نظام ملكية الأراضى ، بســـبب فرار المماليـــك (ثلاثـــة أرباع القـــرى ، فى تقدير « بونابرت ») (٦) • وقد صدر ميثاق ، هو **فرمان الشروط** ، من جانب السلطات الفرنسية وحدها أمام الديوان ، اتخذ صفة أول دســـتور لمصر الحديثة (٧) • وفى ٢١ ديسمبر صدر مرسوم يقضى باعادة تنظيم المجلس الى نوعين : **الديوان العمومى** (٦٠ عضوا يختارون من بين الأعيان ويمثلون مختلف الطبقات) ، **الديوان المخصوص** (١٤ عضـــوا ينتخبهم الديوان الأول ويجتمعون كل يوم) ، وبذلك أدت ثورة القاهرة الأولى الى نوع من المساومة بين جيش الاحتلال ورأى الأعيان (٨) • أما تعطيل **الديوان** ، أثناء ثورة القاهرة الثانية ، ثم اعادته على أساس لائحة مختلفة على يد الجنرال

---

(٤) حول سائر هذه التطورات انظر ، لويس عوض : **المؤثرات** جـ ٢ : ٣ ــ ٣٣ ، عبد الرحمن الرافعى **تاريخ الحركة القومية** ، جـ ١ : ٩٣ ــ ١١٤ ، وفيما يختص بالبواعث انظر رسالة « نابليون » الى « كليبر » : « اذا ما استحوذنا على رأى كبار مشايخ القاهرة فاننا نكون قد استحوذنا على رأى مصر باسرها وعلى رأى جميع الرؤساء لهـــذا الشعب • ولا يوجد من هو أخطر علينا من هؤلاء المشايخ الوجلين ، الذين لا يعرفون القتال والذين يوحون بالتعصب دون أن يكونوا متعصبين ، مثل جميع القساوسة • »
Carr. de Napoléon 1, IV : 475.

(٥) Corr de Napoléon I., v : 32.

(٦) C. Herold : Bonaparte en Eg., 222-3.

(٧) ع• الرافعى : **تاريخ الحركة القومية** ، جـ ١ : ٩٣ ، ١١٤ •

(٨) م•ف• شكرى **الحملة الفرنسية** ، ٨٧ ــ ١١٥ ، ع• الرافعى : **تاريخ الحركة القومية** ، جـ ٢ : ١٠ ــ ٢٠ ، ل• عوض : **المؤثرات** ، جـ ٢ : ٤٤ ــ ٤٥ •

« مينو » فى اكتوبر ١٨٠٠ ، فانه لم يغير بشكل ملموس من طبيعة الدفعة التى أعطاها له « بونابرت » · كان الموضوع أكثر من عملية تنظيمات : كان عبارة عن صدام حقيقى ، أول لقاء — يتم غالبا فى جو من العصبية ودائما فى جو من التوتر — بين مصر وهى فى غاية انحطاطها ، وبين أكبر ثورة فى العصر الحديث · كانت المساهمة أجنبية · ولكن ثورات القاهرة والأقاليم تعاملت وتفاعلت مع ارادة جيش الاحتلال ·

ان تاريخ الجبرتى يوضح المناخ الفكرى وكذا موقف الأعيان فى ذلك العصر ، أمام تجديدات « بونابرت » · اعجاب بمبدأ مساواة الجميع أمام القانون ، رفض السخرة ، تعيين مصرى فى أعلى منصب قضائى ، وهو منصب قاضى العسكر ، تعيين اتخذ شكل الانتخاب ، واطلاق اسم الجيش المصرى على أفراد الحملة السورية ، وتقديم تقرير من قائد الجيش عن نتائج كل عملية حربية الى الديوان قبل اذاعتها ، وسلطة الديوان فى مجال القوانين المدنية ، وقد سبق أن تحدثنا عن سخط الجبرتى على أعمال القمع التى مارسها الجيش الفرنسى وعن تحفظاته حيال تصرفات العامة وخصوصا أثناء ثورة القاهرة الثانية · أما بذور النظام النيابى التى أدخلتها الحملة الفرنسية فقد لقيت الاهتمام والتأييد من جانب الفكر السياسى والاجتماعى فى ذلك العصر (٩) ·

ومن بين الاتجاهات الثلاثة الواضحة التى يراها لويس عوض ، تظهر الأفكار الجديدة الخاصة بالحكومة — الوطنية والنيابية — وتجد فى شخص الطهطاوى مفكرها ، فى عنفوان نهضة الدولة · وعلى الطريق ، نجد فى مشروع الجنرال يعقوب الخاص بالاستقلال أسرع الآثار التى خلفتها أفكار ١٧٨٩ · ان يعقوب ، كما نعلم ، كان يتصرف باسم « مفوضية مصرية لدى الحكومات الأوروبية » و « باسم المصريين » ، كان يتحدث عن حكومة جديدة تقوم على «المصلحة» و «الرهبة [···] عادلة ، حازمة ، ووطنية» ، فى قلب مصر المقسمة إلى شيع (والتى) تقدم الوسائل السهلة لبث الخلافات بينهم من أجل خلق التوازن بينهم ، [···] وتحرص المفوضية المصرية ، بلا تحزب ، على الانتشار بصورة أكثر اتساعا وهو ما كان وسيكون خافيا كلية على الحكومة التركية فى مصر [···] (١٠) » · كانت أول محاولة للتفاوض على استقلال مصر تنطلق من فكرة السلطة الوطنية الموكولة الى مجموعة تزعم ، تعسفا ، أنها تمثل أعيان البلاد ·

(٩) وهو ما أبرز الجبرتى مرات عديدة فى **عجائب الآثار** وسجله لويس عوض من **المؤثرات** ، جـ ٢ : ٩٥ — ١٢٠ · على عكس النغمة العامة التى سادت فى كتاب C. Herold L'Egypte indépendante, ٤-12.

(١٠)

واذا انتقلنا الى محمد على نجد أن كل ما يتعلق ببناء الدولة على النظام الحديث كان يتطلب تجنيد البلاد جميعا ، ان الفكرة المركزية التى كانت تعمل على تطوير المؤسسات وضعت لتحقيق الفاعلية ، وبدافع التنظيم لا بدافع تشكيل وفد • وقد تأسس جهاز جديد ، هو « **مجلس المشورة** » ، عام ١٨٢٩ من ١٥٦ عضوا – منهم ٢٣ من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الأقاليم و ٩٩ من الأعيان وشيوخ الأقاليم – وتولى رئاسته ابراهيم ، وكان دوره استشاريا ، ولا سيما فى مجال الادارة والتعليم والشئون العامة • وقد أصدرت الدورة الأولى للاجتماعات عدة قرارات : تحسين الكتابة العربية والتركية ، أزياء موحدة للموظفين ، اعادة تنظيم السخرة ، تشغيل الشحاذين فى الشركات ، عقاب العمد وأعيان القرى المتهمين بالفساد أو المحسوبية ، ودراسة مشروع القناطر المقدم من « لينان دى بيلفون » ، الخ (١١) • ويبدو أن هذا المجلس قد اختفى من تلقاء نفسه بعد قليل ، فى حين أن تنظيم الأجهزة التنفيذية عام ١٨٣٧ ، وبخاصة عام ١٨٤٧ ، قد دعم السلطة ومتطلبات الرقابة ، وكان قد تشكل مجلس خاص باسم **المجلس العمومى** فى ١٨٤٧ بالاسكندرية للنظر فى مشكلات هذه المدينة (١٢) • وفى عام ١٨٣٢ أصبح لسوريا مجلس من كبار الأعيان يتألف من ٢٢ شخصا (١٣) • ويرى هـ « دودويل » ، الذى ينتقد تفسيرات « دزرائيلى » « والسانسيمونيين » ، أنها كانت عملية مركبة : الحاجة لمعرفة مستوى تفكير الشعب ، التبنى التدريجى للمؤسسات الغربية ، التربية السياسية لكوادر الأمة ؛ ويركز محمد صبرى محقا، على هذا المظهر الأخير (١٤) •

ان كلمة «**الحرية**» نفسها ، ومشتقاتها من «تحرر» و «تحرير» ، كانت مجهولة قبل القرن التاسع عشر في المصطلحات السياسية والاجتماعية (١٥)• ومن ثم كان منهج الطهطاوى لشرح « **الميثاق** » الذى أصدره « لويس »

---

(١١) ع• الرافعى : **عصر محمد على** ، ٦٠٨ – ٦١٠ ، ويشير « دودويل » الى أن عدد أعضائه كان ٤٠٠ شخص استنادا الى خطاب من «باركر» الى «جوردون» مؤرخ ٢٢ سبتمبر ١٨٢٩ • (F.O. 78-124) (Founder mod. Egypt, 205).

(١٢) Linant de Bellefonds : Travaux utilité publ., 433. ، عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على**، ٦١٥ – ٦١٨ •

(١٣) وفقا للاعلان الذى أصدره ابراهيم بتاريخ ١٥ صفر ٢٤٨ هـ ومودع بمحفوظات عابدين ، فى H. Dodwell : Founder mod. Egypt, 205.

(١٤) H. Dodwell : Ibid., 205-6; M. Sabry : Mohamed-Ali, 580-6.

(١٥) انظر التعارض بين مفهوم الحرية المدنية والسياسية والاجتماعية فى أوروبا وبين الحرية القانونية فى الاسلام فى : لويس عوض ، **المؤثرات** ، جـ ٢ : ١٢٥ – ١٢٦ •

الثامن عشر عام ١٨١٨ وتعديله عام ١٨٣١ ، بعد أيام يوليو ١٨٣٠ ومجيء « لويس فيليب » . كان هدف الامام العائد من باريس هو تأمل حقيقي في التراث المصرى من أفكار وعادات اجتماعية منذ العصور القديمة ، من جهة ، وفي أفكار عام ١٧٨٩ ، حتى عندما فقدت هذه الأفكار مضمونها الثورى بعد الردة الملكية عام ١٨١٨ ، واتخذت مجرد مظهر شكلي ، من جهة أخرى . ويعلق الطهطاوى على مبدأ مساواة الجميع أمام القانون (المادة الاولى) قائلا : « لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا الى اجراء الأحكام (...) وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف . » ومبدأ حق كل مواطن فى تولى المناصب العامة (العدل ٣) وهو يقترب من « شريعة قدماء القبطة (التى) كانت تعين لكل انسان صنعته ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده » . وفيما يتعلق بالمواد ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ يركز الطهطاوى على مزايا حرية التعبير والصحافة ، فالأخبار يمكنها أن تتضمن « تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة ، سواء أكانت صادرة من الجليل أو الحقير لأنه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم » .

وبعد مثل الأقباط القدماء ، يذكر الطهطاوى المثل الذى ضربه الخليفة عمر : وحينئذ يمكن أن يتم الانتقال : دون صدامات كثيرة ، بين التعليمات الأولية التى يتضمنها الدين التقليدى ، والصورة الجديدة لمبدأ المساواة انطلاقا من حقوق الانسان والمواطن :

. ان أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، وانما هى مأخوذة من قوانين أخرى غالبها سياسى ، وهى مخالفة بالكلية للشرائع [...] ، ويقال لها : « الحقوق الفرنساوية » ، أى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لأن الحقوق عند الأفرنج مختلفة [...]

القانون يسمى الشرطة la charte ومعناها فى اللغة اللاتينية ورقة ثم تسومح فيها ، فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة وان كان غالب ما فيه ليس من كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم (بقول الرجال) بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد (...) والعدل أساس العمران . »

لقد أراد الطهطاوى أن يدعم وجهة نظره بالالتجاء الى الفاعلية ، بعد ذكر ضروب التماثل والتجانس الفكرية . وتتطور المحاجة ، انطلاقا من

هذا المجال العلمانى المحض ، الى دعوة للراديكالية السياسية • فاذا كان الفرنسيون ينقسمون الى قسمين ، الملكيين والأحرار ، فان تحليل الاختلافات ينحاز بلا مواربة :

« والملكية أكثرهم من القساوسة وأتباعهم ، وأكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية • فالفرقة الأولى تحاول اعانة الملك ، والأخرى ضعيفة واعانة الرعية ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة لملك أصلا • ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل عنها منْ تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية • »

ثم يستعرض الطهطاوى تاريخ فرنسا السياسى منذ الثورة ، ويميز فيه ثلاثة نظم ـ الملكية المطلقة ، الملكية المقيدة ، الجمهورية ـ وهو يحبذ النظام الثالث بصورة واضحة ، وذلك بطريقته فى عرض مبادىء هذا النظام • والنظام الأول ، من بين النظم الثلاثة ، يلقى ادانة صريحة • ومع ذلك ، فان تحليله لثورة ١٨٣٠ يفضى به الى الاشارة الى مساوىء الملكية المقيدة (الدستورية) ، والتحمس لدور المجالس النيابية البرلمانية وتبرير الثورة العنيفة ضد السلطة الملكية المتهمة بالاستهتار بحقوق الشعب • وكان تولى « لويس فيليب Philippe-Egalité » كملك للفرنسيين » فرصة للطهطاوى لكى يشن هجوما عنيفا على الملكية القائمة على الحق الالهى ، هجوما دعمه بالدعوة الى النظام الدستورى • وقد أتاحت له دراسة المؤسسات البرلمانية الفرنسية عام ١٨٣٠ ، أن يوضح مبدأ الحصانة البرلمانية (قضية دوق « بولينياك ») ، ويدخل ـ لأول مرة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى ، العربى ـ مفاهيم « اليمين » و «الوسط» و « اليسار » ، ويشرح معنى « الموت المدنى » ، ويتناول بالتفصيل والتعليق جميع مظاهر حقوق الانسان والمواطن الخاصة منها والاجتماعية والجماعية ، ويوضح تقسيم السلطة الى ثلاث شعب (التنفيذية والتشريعية والقضائية) ، ويشير الى أن « الدستور » وحده (الميثاق) القائم على العقد الاجتماعى لا الممنوح من الملك هو الذى يمثل أساس المجتمع المتحضر (١٦) •

كان لويس عوض على حق حينما أشار الى جرأة الطهطاوى المتناهية فى جوكان ما يزال مشبعا بالاستبداد التركى والشرقى ، وفى ذروة

(١٦) وردت هذه النصوص فى لويس عوض : المرجع السابق ، جـ ٢ : ١٢٢ ـ ١٤٩ الذى يقدم تحليلا نفاذا مليئا بالثناء عليه يعتبر أدق عرض للفلسفة الليبرالية فى مصر •

ســـلطان محمد على • بينما يصــف البيرخوراني الطهطاوى بانه مفكر مرحلة الانتقال بين التقليدية والليبرالية ، فيرى أنه « عاش وعمل خلال فترة سعيدة من التاريخ ، حينما كان التوتر بين الاسلام والمسيحيـــة قد تراخي ، ولم يكن قـــد حل محله التوتر السياسى بين الشرق والغرب [•••] • كانت فرنسا وانجلترا عندئذ تمثلان العلم والتقدم المادى لا القوة السياسية والتوسع [•••] • وكان محمد على واسماعيل [••] حاكمين مطلقين عطوفين من النوع المالوف فى الاسلام ، ولم يكونا يثيران مشكـلات جديدة (١٧) • » ويركز « زولونديك » على أســـاس تفكير الطهطاوى المنطلق من التراث والتقاليد (١٨) • ويبـــدو لنا أنه ، اذا كان المنطلق والأيديولوجية المستترة مازالا اســلاميين على الأقل فى زمن « **تخليص الابريز** » ، فان المواجهة المباشرة والمتصاعدة مع الدول الكبرى ، ابتداء من معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، وكذلك متطلبات التحديث فى مجال البناء المادى والثقافة تجعلنا ناخذ فى الاعتبار ، بصورة أفضل ، الطبيعة المتقدمة لأفكار الطهطاوى ، رسول الليبرالية فى ذلك العصر والتسامح ومساندة محمد على ثم اسماعيل : ان الوضع الاجتماعى السياسى جعل من المقبول ، بل ومن الضرورى ، وجود فلسفة سياسية من نوع متقدم ، سوف تتطور فى المستقبل الى الراديكالية ، الى الفكر النقدى الجذرى •

وفى عهد عباس الأول نفى الطهطاوى الى السودان • وأقام سعيد مجلسا أشبه بمجلس الدولة ، من تسعة أعضاء ، وكان استشاريا (١٩) •

---

(١٧) Arabic thought, 81-3.

(١٨) Leon Zolondek : «Al-Tahtawi and political freedom», Muslim World, 54 (1964), no 2, 90-7.

(١٩) يقول أمين عثمان : « يستخلص من الادارة فى عهد سعيد للمرة الأولى ما يمكن أنه يشبه القانون الدستورى الحديث : تقسيم الادارات •• ، التجنيد العسكرى •• الملكية العقارية •• ، فرض الضرائب •• ، تعيين القضاة •• ، لائحة ادارية للسودان •• ، حرية تجارية » ،

انظر أيضا Amin Osman : Le mouvement constitutionnel en Egypte et la constitution de 1923, Jouve and Co., Paris, 1925, Barnett no. 18 à Aberdeen, Alex. 8 mai 1845 (F.O. 78/623). In Jacob M. Landau : Parliaments and parties in Egypt, Israel Publ. House, Tel-Aviv, 1953, 7.

وقد تلهف مؤلف هذا الكتاب أن يكون عمله هو العمل الأساسى فى هذا المجال ، غير اننا لاحظنا فيما يتعلق بموضوع بحثنا أن هذا العمل يشوبه عدم الدقة فضلا عن عدم التحديد الدقيق للمراجع • والعمل الرئيسى فى مجال الحياة النيابية قدمه محمد خليل صبحى وأشرنا اليه فيما بعد (هامش ٤٧) ، غير أنه لا يوجد عمل مماثل له عن الأحزاب السياسية ، وان كانت البحوث المصرية بدأت تتدفق خلال السنوات الأخيرة •

ويبدو أن استئناف الحركة الدستورية بدأ فى أغسطس ١٨٦٤ (٢٠) فقد صدرت اللائحة الاساسية واللائحة النظامية (القانون الذى يحدد اختصاصات مجلس النواب) فى ٢٢ أكتوبر ١٨٦٦ وجمعتا فى «منشور» واحد ، لتشكيل « **مجلس شورى النواب** » • والمادة الأولى من الوثيقة الأولى تحدد طبيعة المجلس الجديد : « ان رسالة هذا المجلس هى المداولة فى المصالح العليا للبلاد ، وابداء الرأى فى المشروعات التى تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس وعرض جميع ذلك للحضر الخديوية (٢١) » •

ويخضع الاعضاء الذين يتمتعون بحق الانتخاب لشروط منها عدم انتمائهم للجيش أو الوظائف العامة ، ويتم انتخابهم بالاقتراع غير المباشر ومن بين ٧٥ نائبا (أو مندوبا) هناك ٦ فقط يمثلون القاهرة والاسكندرية ودمياط ، أما الباقون فمن المديريات المختلفة • والواقع أن الغالبية العظمى من المنتخبين كانوا من مشايخ أو عمد القرى : ومن ثم كانت تسمية المجلس بـ « **مجلس الأعيان** » (٢٢) • ومن الجدير بالذكر كما أشار الى ذلك كل من « ماكينزى والاس » « وماكوان » أن أعيان القرى كان ينتخبهم الفلاحون وأنه اذا كان تعيين الحكومة لهؤلاء الأعيان يأتى كتصديق على هذا الانتخاب أو بالأحرى على هذا الاجماع ، على شكل قبول له دون غيره (تزكية) ،

---

(٢٠) Georges Douin : Histoire du règne du Khédive Ismail, Sociét Rovale de Géographie d'Egypte, Instituto Poligrafico dello Stato, Roma, 1933-41, i : 294.

وهو يشير الى تقرير لوكيل فرنسا •

(٢١) تصرف اسماعيل دون علم نوبار ، وقامت فرنسا باعمال التجهيز وتقديم المعدات اللازمة

انظر النص فى («Constitutionalism in Egypt», The Times, 27 sept. 1866, 7); G. Douin : Ibid., i : 298-301.

وكذلك التبرير الـذى قدمه اسـماعيل أمام القناصـل العموميين فى ٢٤ نوفمبر :

« لقد دفعتنى اهتماماتى المستمرة بالمنافع الكبرى لهذا البلد الى كثرة التفكير فى انشاء مجلس للنواب يتولى مهمة المداولة فى الشـؤون الهامة ذات الصبغة الداخلية تماما فى البلاد (•••) وهذه الهيئة التى تعمل على خلق رابطة قوية لا انفصام منها بين الحاكمين والمحكومين هى بمثابة حماية لجميع المنافع (•••) ويقول مراقب آخر « على الرغم من أن هذا النوع من البرلمان لم يتفق كثيرا مع برنامج الحكومات النيابية ، فانه اهتم بجدية بمسائل الضرائب والاصلاحات القضائية والطرق فى الريف والرى وشتى المجالات الادارية •
(Paul Ravaisse : Ismail pacha, Khédive d'Egypte, (1830-1895), extr. de la Revue d'Egypte», Le Caire, 1896, 9).

(٢٢) اللائحة وأسـماء الأعضاء فى عبد الرحمن الرافعى : **عصر اسـماعيل** جـ ٢ : ٨١ ـ ٨٤ ، وبلغ عدد العمد ما بين ٥٨ ـ ٦٤ من مجموع الأعضاء الذين تراوح عددهم من ٧٤ الى ٧٥ عضوا ،

J.M. Landau ; Parliaments and parties, 9.

فانه يتيح للحكومة المحافظة على هيمنة السلطة المركزية (٢٣) • وبعد ذلك بلغ أعيان القرى فى عهد اسماعيل ذروة مجدهم : فقد كان شيوخ البلد وعمدها ، بحكم العادة ، أكبر الملاك العقاريين (٢٤) • وما لبث أن تدعم دورهم الاجتماعى السياسى : تقدير الضريبة العقارية والاشراف عليها ؛ قروض للفلاحين بضمان أراضيهم ؛ فوائد من كل نوع ، خاصة فى مجال الرى فى الفترة التى شهدت عنفوان عملية التوسع والتحديث فى الزراعة ، امتلاك أراض جديدة ، الأرباح الناجمة عن دورهم كوسطاء فى تجارة المنتجات الزراعية فى حركة الأسواق التى ظهرت فى ذلك العصر الخ (٢٥) • وقد جاءت غلبة القرى فى المجلس مصحوبة بحركة واسعة مكثفة لتعيينهم فى المراكز الادارية حتى مركز المدير (٢٦) • وكانت مساندة هؤلاء الأعيان لاسماعيل خلال السنوات الاخيرة لحكمه ، ثم لثورة الجيش، دليلا على كونهم ممثلين للجمهور الأكثر تمثيلا للطبقة السياسية فى ذلك العصر ، وعلى كونهم عناصر البورجوازية الأصيلة الناشئة ، تلك العناصر التى تقبض فوق ذلك على زمام البلاد • ومع ذلك فان كان من الطبيعى ألا يكون للتجار والصناع الا القليل من الممثلين ، فقد كان من الغريب استبعاد المثقفين العائدين من البعثات بسبب الوظائف التى يمارسونها فى الحكومة وفى المؤسسات الرئيسية الحديثة فى الدولة (٢٧) •

ان تحليل الحركة الفكرية داخل المجلس يسمح بتمييز مرحلتين : مرحلة التمرس على الحياة البرلمانية (١٨٦٦ – ١٨٧٦) ، ومرحلة التلاحم بين الحركة الوطنية والنزعة الدستورية (١٨٧٦ – ١٨٧٩) • وفى غضون المرحلة الأولى تعبر خطب العرش التى ألقاها اسماعيل عن طبيعة هذه المرحلة • فخطبة ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ ، التى ألقاها باللغة العربية ، تعود الى منجزات محمد على وابراهيم والى التقاليد القرآنية ، لوضع الأساس لمبدأ الشورى ، دون الاشارة الى السلطان :

(٢٣) D. Mackenzie Wallace : Egypt and the Egyptian question, London, 1883, 208-9, 213; J.C. McCoan : Egypt as it is, 115.

(٢٤) على مبارك : **الخطط** ، وقد نقلها عنها بالتفصيل G. Baer : Village Shaykh, 127, n. 37; D. Mackenzie Wallace; Eng. question, 191, 208; Baron de Malortie : Egypt : native rulers and foreign interference,, London, 1882, 214; G. Baer : Village Shaykh, 123-9,

(٢٥) G. Baer : Ibid., 141.

(٢٦) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ١٤٩ ، وهو يعتمد على ع• مبارك ، عبد الرحمن الرافعى ، « الانداو » ، « ماكينزى والاس » ، « كرومر » ، الخ •

(٢٧) وهو ما انتقده بحق عبد الرحمن الرافعى ، **عصر اسماعيل** ، ج ٢ : ٨١ – ٨٢

« وكثيرا ما كان يخطر ببالى ايجاد مجلس شورى النواب ، لأنه من القضايا المسلمة التى لا ينكر نفعها ومزاياها أن يكون الأمر شورى بين الراعى والرعية ، كما هو مرعى فى أكثر الجهات ، ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى « وشاورهم فى الأمر » وبقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » فلذا استنسبت افتتاح ذلك المجلس بمصر ، تتذاكر فيه المنافع الداخلية ، وتبدى به الآراء السديدة ، وتكون أعضاؤه متركبة من منتخبى الأهالى ، ينعقد بمصر فى كل سنة مدة شهرين ، وهو هـذا المجلس المقدر بعناية المولى فتحه فى هذا اليوم المبارك على يدنا ، الذى أنتم فيه أعضاء منتخبون من طرف الأهالى ، وانى أشكر الله على ما وفقنى لهذا الأمر المبرور وواثق من فطانتكم بحصول النتيجة الحسنة من حسن المداولة فى المنافع الداخلية الوطنية » (٢٨) ٠

أما خطبة العرش فى ١٦ مارس ١٨٦٨ ، فلم تضف أفكارا جديدة ، واكتفت بعرض المنجزات والاصلاحات التى قامت بها الحكومة ٠ فى حين أن خطبة ٢٥ يناير ١٨٦٩ ، وهى أكثر تفصيلا ، قد اهتمت باعطاء صورة كاملة عن عملية النهضة الجارية ، والمشروعات العامة للأساس المادى فى السودان ، والتعليم العـام للجيش ، وتمويل المحاكم المختلطة (٢٩) ٠ وكانت دورة المجلس التشريعى الجـديدة (١٨٧٠ — ١٨٧٣) خاصـة بالأزمة المالية الكبرى : فقد حاولت خطب العرش فى أول فبراير ١٨٧٠ ، ١٠ يونيو ١٨٧١ . ٢٦ يناير ١٨٧٣ ، وكانت قصيرة مقتضبة ، أن تخفى المشكلة ولكنها لم تنجح (٣٠) ؛ ومر عاما ١٨٧٤ و ١٨٧٥ دون دورات برلمانية ، ودون انتخابات جديدة ٠ وفى مواجهة الخديو ، اهتم النواب فقط بالشئون الداخلية — الضرائب وملكية الأرض ، والشئون العـامة وبخاصة التعليم العام — ولكنهم لم يهتموا حتى بمطالبة الحكومة بكشف للميزانية (٣١) ٠ وسارت الدورتان التاليتان فى نفس الطريق وتبنتا عدة قرارات هامة فى مجال الرى والشئون العامة ٠ وقد دعى اسماعيل صديق

---

(٢٨) النص فى عبد الرحمن الرافعى : **عصر اسماعيل** ، جـ ٢ : ٨٥

(٢٩) G. Douin : Règne Khéd. Ismâ'îl ii 128-36; J. Mo. Landau : Parliaments and parties, 16-8.

(٣٠) عبد الرحمن الرافعى : **عصر اسـماعيل** ، جـ ٢ : ١١٢ ، ١١٤ — ١١٥ ، ١١٧ — ١١٨ ٠

(٣١) نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، جـ ٢ : ٩١ — ٩٧ ، J.M. Landau : Parliaments and parties,
وينتقد « هبورث — دون » لتجاهله مناقشات المجلس عن التعليم العام ٠

لتقديم تفسيرات حول الحالة المالية ، فعرض صورة غير موضوعية : ولأول مرة يناقش المجلس موازنة عام ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠ • وقد اشترك فى الأعمال البرلمانية بعض كبار الموظفين والخبراء • وقد حمى وطيس المناقشات تدريجيا وتحمس الطهطاوى لهذه الانطلاقة الجديدة :

« ولو لم يكن له (الخديو الأكرم) من المآثر الا كونه حمل الأهالى على أن يستنيبوا عنهم نوايا ذوى فكرة المعية ، ليتذاكروا فى شأن مصالحهم المرعية ، لكفاه شرفا ومجدا وعزا وسعدا • حيث صار مستوليا على أمة حرة الرأى باستشارتها فى حقائق التراتيب والتنظيمات التى يراد تجديدها لأجلهم ، كما أن له الفخار فى أنه لا يضيع حقوقهم حيث جعله الله أمينا عليها ، فبهذه الوسيلة القوية يتمكن من أداء ما وجب عليه من حق الرعايا مع كونه يمتدح بالحكم على رعايا أحرار يتمتعون بحقوقهم ويحظون بمزاياهم ، وبهذا أيضا يكون على يقين من التسلطن المعنوى على النفوس والأرواح • (٣٢) »

فى حين كثرت التهم من جانب الملاحظين الأجانب • وقد اهتمت الدورات الثلاث للمجلس التشريعى الجديد بالزراعة والرى والاصلاح القضائى ، ودرست الموازنة السنوية دون مناقشة الحالة المالية من أساسها (٣٣) •

أما المرحلة الثانية فقد كانت فى غاية الأهمية • وقد بدأت بدورة غير عادية فى طنطا (أغسطس ١٨٧٦) ، أعربت عن رغبتها فى منع تطبيق قانون المقابلة ، والذى كانت الحكومة بموجبه تضغط لتصفية احتياطى ملاك الأرض لمواجهة الدين العام • وقد تولى الشيخ عثمان الهرميل قيادة حركة النقد التى طالبت بحق الاطلاع على المالية • وعقد المجلس التشريعى الثالث ثلاث دورات حتى عزل اسماعيل، وقد كانت خطب العرش الخديوية (٢٣ نوفمبر ١٨٧٦ ، ٢٨ مارس ١٨٧٨ ، يناير ١٨٧٩) تتردد بين الالتجاء الى الأمة عن طريق نوابها ، والتكتم المطبوع بالحزن • فخطبة ٢٣ نوفمبر ١٨٧٦ ، جعلت من قانون المقابلة أحد اهتماميها الكبيرين ، حتى أعلنت أن هذا القانون يخضع لتصديق النواب ، وبذلك يكون الخديو قد اعترف بسلطة المجلس فى مجال تصرفات الحكومة ، ولكنه

---

(٣٢) مناهج ٢١٥ ، وصدرت أعنف الاعتقادات عن « كرومر » ، « ماكلوان » ، « بيوفيس » ، س• « دى شونسكى » ، « ستيفان ليوتك » ، « فون جروناو » ، زيا بك فى J. M. Landau : Ibid., 14, n. 13).

(٣٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، ج ٢ : ١١٢ ـ ١٢١ ، J.M. Landau : Parliaments and parties, 18-9.

لم يذكره ما فرض على الحكومة من رقابة مالية انجليزية فرنسية معفيا بذلك النواب من مسئولية تأييد اجراء بهذه الخطوات بالنسبة لسيادة الدولة. وقد مارس المجلس الحق الذى اعترف له به.(٣٤) • أما الدورة التالية فقد اهتمت بالشئون الجارية واعادة الفرق المصرية التى اشتركت فى حرب البلقان • فى حين أن الدورة الثالثة قد عقدت في جو كانت فيه الحركة الوطنية الصاعدة ملتهبة ، وسنتحدث فيما بعد عن أهم عناصرها • وفى المجال الذى يهمنا فان الانتقال من نظام الشورى الى النظام النيابى سيؤدى الى اختيار النظام الدستورى على النمط الأوروبى الليبرالى الحديث • وبعد الرد على خطبة العرش (٦ يناير ١٨٧٩) ، الذى خاطب الخديوى بلفظ « جلالتكم » ، أصبحت اللهجة لهجة مطالبة بحقوق الأمة :

« نحن نواب الأمة المصرية ووكلاؤها ، المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها ، التى هى فى نفس الأمر مصلحة الحكومة ، نرفع الى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل ، حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب ، الذى هو أساس المدنية والنظام ، وعليه مدار العمران ، وهو السبب الموجب لنوال الحرية التى هى منبع التقدم والترقى ، وهو الباعث الحقيقى على بث المساواة فى الحقوق ، التى هى جوهر العدل وروح الانصاف [•••] « ونعلن من صميم الفؤاد سرورنا وكمال ابتهاجنا بما تشرفت به مسامعنا من خطاب جلالتكم الذى أنبأ عما انطوت عليه تلك السريرة الطاهرة الزكية من الميل الغريزى الى اصلاح الأمة المصرية ، والرغبة الخالصة فى صعودها على معارج التقدم وترقيها الى ذروة السعادة ونيلها الحرية فى تصرفاتها قولا وفعلا ، حيث أبانت عظمتكم أن الغرض من اجتماع هذا المجلس هو المذاكرة مع نظار حكومتكم فى المسائل المتعلقة بالمالية والأشغال الداخلية •

---

(٣٤) وفى الرد على الخديوى الذى أعلن : « وهذا هو بناء على أفكاركم وتصميمكم بابقاء المقابلة على أى وجه أمكن ، فالذى أمكن هو الذى تقدم الايضاح عنه بانضمام أفكاركم» أجاب النواب : « ولا يخفى على كل ذى عقل ولب ما أشير عنه بالمقابلة الخديوية من جهة الديون ، فانه من المسائل العظمى العائدة على الحكومة والأهالى بالخيرات الكثيرة والثمرات الجمة ، لأنه مع انتظام الديون وتسويتها تحت روابط معلومة تنتظم مالية وادارة الحكومة ، ويتبع ذلك ترقى حركة التجارة وكثرة التعامل بالأخذ والعطاء بين العموم » • (عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق جـ ٢ : ١٥٣ ـ ١٥٥ ، ويسخر « باسكيه » Pasquet قائلا : « ونرى اسماعيل يهتم بغتة بدوره كملك دستورى (•••) ولقد أدرك فجأة هذا الألبانى ، الذى حكم مصر حتى الآن حسبما تبدى له هواه ، أنه يتحلى بالروح التى يتحلى بها وطنى وديمقراطى مصرى (•••) لقد أصبح الشعار الجديد للخديوى : مصر للمصريين • » («Comment la France a perdu l'Egypte, d'aprés les mémoires de Lord Cromre», Revue historique, xxxv, 1911, t. 106, 27-59 (31-21).

« فبعث فينا ذلك الخطاب روح العصر الجديد ، وأحيا آمال هذه الأمة التى لا تزال راجية أن تنال شرفها التليد الذى شهدت به التواريخ وأنبات به الآثار بمساعى الحضرة الخديوية وهممها العلية .

« وأنا نألو جهدا فى دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصلحة الحكومة قياما بأداء واجباتنا التى هى فى الحقيقة مقاصد ولى النعم .

« فليحى الخديو المعظم ، وأنجاله الكرام ، لتحيى الحرية تحت رعايته وحمايته [...] (٣٥) . »

ان الرد يتضمن الكثير من الآراء التقليدية فى الفكر السياسى الليبرالى الأوروبى : ولكنها هذه المرة تثار عن طريق المجلس المصرى ـ لا عن طريق الطهطاوى وحده ـ ومع التلاحم الواضح بين النظام النيابى والاستقلال الوطنى ، والحرية ، وربط العزة الوطنية وعبارة « جلالتكم » عضويا بتأكيد حقوق المجلس على الحكومة . وقد هيأ الخديوى نفسه هذا الجو ، ففى رسالته المؤرخة ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ التى وجهها الى نوبار لدعوته لتولى الحكومة ، يثير اسماعيل مبدأ المسئولية الوزارية : « أريد أن أؤكد لكم عزمى الأكيد على جعل الأسس التى يقوم عليها حكمنا متناسقة مع المبادىء التى تقوم عليها الحكومات الأوروبية . وبدلا من السلطة الشخصية ، وهو المبدأ الحالى للحكومة المصرية ، أريد سلطة تتولى التوجيه العام للشئون ، هذا صحيح ، ولكنها تحقق توازنها فى مجلس الوزراء . وباختصار أريد من الآن فصاعدا أن أحكم بواسطة مجلس نظار (وزراء) ومن خلاله [...] . ويجب على أعضاء مجلس النظار أن يكونوا متضامنين ، وهذا أمر جوهرى [...] ، ان رأى الأغلبية سيقود رأى الأقلية [...] .

وبموافقتى عليهما ، سأصدق بالتالى على الرأى الغالب [...] . وأرى أن اقامة نظارة (وزارة) هذه اختصاصاتها لا يخرج عن تقاليدنا وأفكارنا ، بل ، على العكس ، يتفق وأحد مبادىء القانون المقدس ومع هيئة قضائية منتظمة [وأن] هذا التنظيم يكفل التجاوب مع متطلبات وضعنا الاجتماعى ، ويسمح بتحقيق ما عقدت عليه العزم من أهداف [...] . » وقد أعقب هذه الرسالة صدور قرار ١٠ ديسمبر الخاص برئاسة المجلس ، مع اختصاصات واضحة محددة ، ومع تفصيل اختصاصات الوزراء السبعة ، ثم قرار ٦ يناير ١٨٧٩ بمنع فرض أية ضريبة الا بقانون

---

(٣٥) الرافعى : عصر اسماعيل ، جـ ٢ : ١٦٠ ـ ١٦٢ وهو ما تعمد «لانداو» اخفائه فى كتابه الذى كتبه بعد تلك الصفحات القوية التى خصصها الرافعى لهذه الأحداث .

من مجلس الوزراء ينشر فى «الوقائع» (٣٦) ٠ وأخيرا مشروع باقامة مجلس دولة (قرار ٢٢ يناير ١٨٧٩) ، لم يخرج الى حيز الوجود (٣٧) ٠ وقد كثرت تدخلات أعضاء المجلس ــ يقودهم بصفـــة خاصـــة عبد الســـلام المويلحى ومحمود العطار ــ ضد السياســة المالية ، مســـتهدفين نوبار والمراقبين الأجانب ٠ وفى أوائل فبراير شن المجلس هجوما عنيفـا مطالبا بضرورة احترام الشروط الواردة فى قرار ٦ يناير حول سلطة المنتخبين فيما يتعلق بالشئون المالية :

« وفرض ضرائب ووضع لوائح أو قوانين لذلك ، وما كان من هذا القبيل انما يقصد به الأهالى لا غير ، وكل ما يقصد به الأهالى لابد أولا من عرضه عليهم ورضاهم به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به ، وحيث أنهم أنابوا عن أنفسهم نوابا منهم منوطين بالمدافعة عنهم ، والمحاماة عن حقوقهم ، والنظر فى شئونهم بعين المصلحة ، فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه » ٠ « ولذلك كانت الحضرة الخديوية من عهد تشكيل مجلس النواب لا تبرم غالب الأمور المهمة التى تكون من هذا القبيل الا بعـــد أن تعرض على أعضائه ، ولا يقضى بها الا بعد اقرارهم على وضعها ، مع أن تلك الحضرة هى التى منحت تشكيل هذا المجلس » [٠٠٠] (٣٨) ٠ »

أثارت الوزارة الأوروبية برئاسة نوبار سخطا متزايدا : كان وجود الوزيرين الأوروبيين يبدو للصفوة أمرا لا يطاق ، وكان من نتيجة تسريح ٥٠٠ر٢ ضابط لأسباب اقتصادية ، وتمرد الجيش بقيادة القائمقام (العقيد) لطيف سالم والذى مر مرور الكرام بفضل رباطة جأش اسماعيل ، أن سقطت الوزارة (١٩ فبراير) ٠ وقد عارضت الدول الكبرى أن يتولى الخديوى بنفسه رئاسة الحكومة الجديدة ، فعهد بها الى ابنه توفيق (١٠ مارس) ، بعد أن حصـــل الوزيران على حق الاعتراض على أى قرار من مجلس الوزراء يكون فى رأيهما غير مقبول (٣٩) ٠ وقد شن الوزيران

---

(٣٦) A. Osman : Mouvt. constitutionnel, 53-6. أنظر نص خطاب اسماعيل الى نوبار والى « ريفرس ويلسون » حيث ان الخطاب الأخير يقدم التبرير للأول وذلك فى Gaston Zananiri : Le Khédive Ismail et l'Egypte (1830-1894), Typo-lithographie Nouvelle, Alexandrie, 1923, 159-63.
وقد أعلن كرومر فيما بعد أنه تحدد بخطاب اسماعيل الى نوبار مبدأ المسئولية الوزارية ٠

(٣٧) أنظر النص والحيثيات فى A. Osman : Mouv. constitutionnel, 59-65.

(٣٨) فى الرافعى : **عصر اسماعيل** ، جـ ٢ : ١٦٤ ــ ١٦٥ ٠

(٣٩) Livre Jaune, Paris 1800, 87-8. وقد ذكره الرافعى : **عصر اسماعيل** ، جـ ٢ : ١٧٤ ــ ١٧٧

الأوروبيان حملة ، يساندهما رياض ، لحل المجلس ، ولكن النواب بقيادة عبد السلام المويلحى رفضوا حل المجلس ، وهاجموا رياض الذى كان من رأيه : أن أهالى مصر همج ، وأنه لا يوجد فيهم عشرة يفهمون ما يقال فى الجرائد » (٢٧ مارس) (٤٠)

وقام النواب بارسال عريضة الى الخديوى ، واجتمع عدد كبير منهم فى منزل سيد على البكرى ، ثم فى منزل اسماعيل راغب ، حيث اتخذ الاجتماع اسم « **الجمعية الوطنية** » (٤١) ، وفى الثانى من ابريل ، قام النواب والأعيان وعدد كبير من الشخصيات الرسمية (٤٢) بتوقيع وثيقة باسم «**اللائحة الوطنية**» تتضمن مشروع تنظيم مالى والمطالبة باصلاح لوائح المجلس على النمط الأوروبى ، مع اقرار مبدأ المسئولية الوزارية · « [···] يجب أن يكون مجلس الوزراء مستقلا فى عمله ومسئولا أمـــام مجلس النواب عن جميع تصرفاته المتعلقة بالشئون الداخلية والمالية للبـــلاد

---

(٤٠) عبد الرحمن الرافعى ،**المرجع السابق** ، جـ ٢ : ١٧٧ ـ ١٨٠ · وحول رياض انظر الصورة التى قدمها جاك بيرك :

« تركى ، لكنه تركى فى حركة مستمرة ، على العكس تقريبا من المحترم شريف · ان ما يدهش فيه هو الحيوية · وعندما رسم كرومر صورته ، فى عام ١٩٠٧ ، كان ما يزال على قيد الحياة ، نحيل ، مضنى ، دائم التشوير ، ذو لسان ذرب وحاد ، سريع الاستثارة والالتهاب ، آنئذ ، تطير مسبحته التى لا تفارقه أبدا فى الهواء ، وتزوبع كما لو أنها جلد (أو سير) سوط · شديد الثقة بنفسه ، شديد الحذر ازاء الأخرين · ويقدم نســخة ماتزال عثمانية عما سيكونه انسان الحداثة · وفوق ذلك ، فان فيه شــيئا لم يدركه معاصروه الأجانب الا بشكل غير كامل : فهو يؤمن باحياء الاسلام · لكنه لا يؤمن بذلك كما يؤمن عرابى ، ولا كما يؤمن محمد عبده أو الاصلاحيون الآخرون · بيد أنه يشاركهم هذه القناعة : وهى أن على الاسلام وبوسعه أن يستمر بمجرد اضافة الوسائل المادية مع المحافظة على أخلاقه مصانة ، أضف الى ذلك أنه مالك أراض كبير ، ومزارع قطن ومضيف كريم وانتقائى · لكن هذه المجموعة من الميزات لا تقاس بمشكلات العصر ، والواقع أن وزيره دون الحديث عن مقارنة الحسنات والسيئات ، يرى تقدما حاسما للسلطة الاستعمارية »
(L'Egypte, 156)

(٤١) وقد أطلقت هذه التسمية صحيفة **التجارة** عدد ٢١٤ (٧ ابريل ١٨٧٩) ، كما أسمت الاجتماع فى العدد ٢١٦ باسم «**الحزب الوطنى**» (الرافعى ، **عصر اسماعيل** جـ ٢ : ١٨١ هامش ٣)

(٤٢) جاء فى مذكرة شريف المؤرخة ١٠ مايو ١٨٧٩ أن : لجنة الصياغة كانت مؤلفة من سبعة نواب بالاشتراك مع اسماعيل راغب ، وبلغ عدد الموقعين عليها ستين من أعضاء مجلس شورى النواب ، وستين من العلماء .والهيئات الدينية وفى مقدمتهم شيخ الاسـلام وبطريرك الأقباط وحاخام الاسرائيليين و ٤٢ من الأعيان والتجار و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين و ٩٣ من الضباط (نفس المؤلف ، **المرجع السابق** ، ١٨٢ ، هامش ١ ، ١٨٤) ·

[٠٠٠] ٠ وعلى عظمتكم التكرم بمنح مجلس النواب الاختصاصات والسلطات التى تتمتع بها مجالس النواب الاوروبية فيما يختص بالشئون الداخلية والمالية [٠٠٠] ٠ ونحن نطالب عظمة الخديوى بالتفضل بتعيين مراقبين أوروبيين للايرادات والمصروفات [٠٠٠]، وعلى المصرين ، الممثلين طبقا للأصول ، أن يبادروا بتولى مالية البلاد بأنفسهم دون اعتماد على الأجنبى [٠٠٠] (٤٣) ٠ »

وفى ذات الفترة تقريبا ، نذكر اجتماعا عقده « **الشبان المصريون** » الذين قدموا للخديوى عريضة يوضحون فيها موقفهم من مبدأى الاقتراع العام والاقتراع المشروط ، والانتخاب المباشر والانتخاب غير المباشر : « كنا مؤيدين للاقتراع العام ، لأنه الوحيد المنطقى العادل ، منطقى لأن النواب يمثلون سائر المصالح ، وسائر الأمة [٠٠٠] ٠ كان الشباب مستعدا ، ولو عن غير رغبة ، لقبول الاقتراع المشروط (المحدود) الذى كانت الظروف مهيأة أكثر للأخذ به (٠٠٠) ، ولكنهم كانوا متمسكين بأن يمنح حق الاقتراع للأشخاص الذين يتميزون بالكفاءة أو بالموهبة ، بصرف النظر عن دفع الضرائب ٠ وبخصوص الاقتراع المباشر وغير المباشر ، فقد كان التفضيل يميل نحو الاقتراع المباشر (٠٠٠) ٠ ان قانون الانتخاب فى نظر مقدمى العريضة ؛ يجب أن يقوم على المبادىء الآتية : (١) اقتراع محدود فى الحالة التى لا يمكن فيها اقامة الاقتراع العام بصورة دقيقة ؛ (٢) ، يقوم الاقتراع المحدود على أساس الضريبة (٥٠٠ قرش مصرى فى العام) مهما كانت طبيعة الضرائب المدفوعة ؛ (٣) الانتخاب المباشر ٠ (٤) ، حرية المناقشة فى الاجتماعات الانتخابية ٠ (٤٤) ٠ ان اللهجة العامة على الرغم من بعض التناقضات ـ كانت تشير ، على ما يبدو الى أن « الشبان المصريين » ربما كانوا على وجه التحديد ، الكوادر المثقفة (من موظفين وضباط) التى تكونت فى أوروبا وتتلمذت على يد الطهطاوى على أرض مصر وفى مدارسها ؛ فضلا عن أن التعليل المنطقى والقانونى يتعارض مع طريقة تفكير أعيان القرى ٠ وفى ٧ من أبريل استدعى اسماعيل القناصل العموميين ليخبرهم بعزمه على

---

(٤٣) Diaeddine Saleh : Les pouvoirs du roi dans la Constitution égyptienne, étude de droit comparé, Giard and Bière, Paris, 1908, 99-102.

(٤٤) Morcos Sadek : La constitution de l'Egypte Giard et Brière, Paris, 1908, 101-4.

التصرف بما يتفق وارادة النواب ؛ واطلع ابنه توفيق أيضا على ذلك (٤٥). وفي ذات اليوم اختار محمد شريف ليكون رئيسا لمجلس الوزراء وذلك فى رسالة يمكن اعتبارها ميثاقا لعهد جديد : « (٠٠٠) اننى كرئيس دولة ، وكمصرى أجد أن واجبى المقدس أن أؤيد رأى بلادى وأحقق بالكامل آمالها المشروعة (٠٠٠) وقد أدى البرنامج المالى الذى أعده ناظر المالية ، وأعلن فيه أن البلاد فى حالة افلاس ، الى اثارة الشعور الوطنى ضد النظارة (٠٠٠) ٠ اننى أرغب فى أن تتألف هذه النظارة من عناصر مصرية حقا]٠٠٠[٠ أما فيما يتعلق بالتنظيمات البرلمانية ، فيجب تشكيل مجلس تأتى طرق انتخابه وحقوقه متجاوبة مع متطلبات الحالة الداخلية والآمال الوطنية [٠٠٠] ٠ ان معرفتى باخلاصكم للبلاد ، لا يجعلنى أشك فى أن فخامتكم ومن حولكم رجال يتمتعون مثلكم بثقة الجمهور وتقديرها ، ستحققون الانجازات الحضارية التى أريد أن أقرن بها اسمى [...] (٤٦)٠»
لقد تحددت معايير شرعية السلطة بكل وضوح : الاخلاص للبلاد ؛ ثقة الجماهير وتقديرها ؛ التجاوب مع الآمال الوطنية ؛ الطبيعة المصرية ، على مستوى الأصل والشعور ؛ النظام البرلمانى المتفق مع الارادة الوطنية ٠ وكان عيدا فى البلاد ، وتابعت الوزارة أعمال المجلس ٠ وفى الثانى من يونيو قدمت الوزارة للمجلس بصفته مجلسا تأسيسيا ـ مشروع دستور يمثل القمة التى بلغتها الحركة الوطنية والدستورية قبل العدوان الاستعمارى ثم الاحتلال ٠ ومن أهم المبادىء والبنود الواردة فيه نذكر تعريف كل نائب بوصفه « نائبا عن الأمة المصرية جمعاء » (مادة ٨) ؛ الحرية الكاملة للمناقشة (مادة ٩) ؛ الحصانة البرلمانية (مواد ١٥ ، ١٦، ١٧) ، حق كل مصرى فى مخاطبة المجلس (مادة ٢٣) ؛ حق الوزراء فى اقتراح مشروعات القوانين بينما تكون مناقشتها واذاعتها من عمل المجلس (مواد ٢٦ الى ٣٢) المسئولية الوزارية الفردية أمام المجلس مادة (٣٦) ؛ المركبة الفعالة على مالية البلاد (مادة ٤٥ ، ٤٦) ؛ حق الاستجواب

---

(٤٥) صرح اسماعيل للقناصل العامين أنه « ازاء الأشياء التى تشعر بها طبقات الشعب كافة (٠٠٠) فانه يطلب تأليف وزارة أهلية مسؤولة أمام مجلس نواب تجرى تسميته وفق طريقة أخرى للانتخابات ، واعادة للرقابة » (**الكتاب الأصفر** ، ١٨٨٠ ، ١٦٩ ، ذكره م٠ صادق : **المرجع السابق** ٩١ ـ ٢) ٠ وفى رسالته الى توفيق : « (٠٠٠) انه يعتبر اتباع رأى بلده والاستجابة الكاملة لتطلعاتها المشروعة واجبا مقدسا » فى

Iskandar Doss : L'évolution constitutionnelle de l'Egypte, Paris, 1946, 10.

(٤٦) **G. Zananiri : Ismail et l'Egypte, 1772-3.** الذى يستعيد عبارة كرومر « انقلاب » ويذكر قائمة من ستة وزراء ليس بينهم أوروبى واحد ، كما يشير الى شريف بوصفه « على شريف » ٠

والسؤال (مواد ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) (٤٧) ؛ الخ ٠ غير أن عزل اسماعيل التعسفى فى ٢٥ يونيو أوقف مناقشات المجلس ؛ ولم يخرج دستور ١٨٧٩ الى حيز الوجود ٠

ان تصاعد الحركة الدستورية يأتى فى اطار التطور الاجتماعى والثقافى — الذى قمنا بتحليله فى البابين الأول والثانى من هذه الدراسة — ذلك التطور الذى لقى تعبيره الأيديولوجى فى الفكر الجديد عند الطهطاوى وكتابات الصحفيين الليبراليين الذين يشكلون الرأى العام ٠

على أن كتاب « **مناهج الألباب المصرية** » (١٨٦٩) — والذى قمنا بتحليل ما جاء فيه من جديد على مستوى مفهومى « الوطن » و « الأمة » فيما سبق — لم يلق الا القليل من المتخصصين لينوهوا بمضمونه الفكرى فيما يتعلق بالنظرية السياسية التى قدمها الى الحركة الوطنية والدولة المصرية، وقد فضل هؤلاء المتخصصون أن يروا فى حركة جمال الدين الأفغانى مصدر الأفكار الجديدة للحركة التى بلغت ذروتها فى ثورة عرابى (٤٨)٠ وفى دراسات حديثة ركز كل من جمال م٠ أحمد و أ٠ حورانى ولويس عوض بالذات ، على الدور الرئيسى الذى قام به هذا الكتاب فى مصر الجديدة التى تبحث عن طريقها وقد حاولت أربعة فصول من الكتاب أن تستخلص فلسفة سياسية متماسكة ، جديرة بمساندة المجهود الوطنى ٠ إن مسيرة طويلة — المنفى ، الاضطهاد ، التأمل والعودة الى العمل فى عهد اسماعيل والتعب فى ختام عمل ضخم — وغير ذلك من العوامل كلها تفسر الاختلافات بين « **المناهج** » و « **تخليص الابريز** » ٠ واذا كانت النظريات الاقتصادية قد شطت كثيرا بالنسبة للعصر ، فان الجانب السياسى الخصوصى كان أكثر تعقيدا ٠

ان السياسة — « التى هى معرفة قوانين الحكم » ، أى قواعده ومبادئه — يجب أن تكون مادة للدراسة فى كل تجمع سكانى : « معلم يقرأ للصبيان بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادىء العربية ومبادىء الأمور السياسية والادارية ويوقفهم على نتائجها وهو فهم أسرار

---

(٤٧) يذكر عبد الرحمن الرافعى «**الأهرام**» الصادر بتاريخ ١٢ يونيو ١٨٧٩ بوصفه المصدر الوحيد : **اسماعيل** ، ص ١٩٤ — ٢٠٠ ٠ ومجموع النصوص والوثائق الرسمية أعيد جمعها فى العمل الهائل لمحمد خليل صبحى : « **تاريخ الحياة النيابية فى مصر من عهد ساكن الجنان محمد على باشا** » ، خمسة أجزاء ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٩ ، الجزء الخامس ، ٧٩ — ١٥٤ ٠

(٤٨) ذلك هو على وجه التحديد موقف الفكر الصهيونى :
Nadav Safran : Egypt in search of political community, Harvard U. P., Cambridge, Mass., 1961, 102.
(وكذلك « لانداو » لم يثر هذه المسألة)

المنافع العمومية التى تعود على الجمعية وعلى سائر الرعية من حسن الادارة والسياسة » . ان استعراض الحقوق والواجبات وتفسيرها يجعلُ منهم مواطنين صالحين عند بلوغ سن الرشد ؛ ومنه « تفهم الأهالى أن مصالحهم الخصوصية الشخصية لا تتم ولا تنجز الا بتحقيق المصلحة العمومية التى هى مصلحة الحكومة ومصلحة الوطن . واذا كانت المعرفة هى مصـــدر الفوائد العمومية « الخير » على حد تعبير سقراط ، فينبغى زيادة التركيز والاهتمام بتكوين مشايخ البلد لا سيما أيضا أن مع تجـــديد جمعيات ما لا يخفى وانما العلم بالانتخاب ومجالس النواب » .

ويحلل الطهطاوى طبيعة السلطة (القوة) ؛ وأول تمييز يقتضيه « احتياج النظام العمرانى » هو بين « قوتين عظيمتين احداهما القوة الحاكمة الحالية للمصالح الدارئة للمفاسد وثانيهما القوة المحكومة وهى القـــوة الأهلية (٤٩) المحرزة لكمال الحرية المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج اليه الانسان فى معاشه ووجوده وكسبه وتحصيل سعادته فى الدنيـــا والآخرة » .

ثم يتبعه التمييز ، فى قلب « القوة الحاكمة » نفسها ، بين السلطات الثلاث وليدة التراث السياسى الانجليزى والتى يؤكدها كتـــاب « **روح القوانين** » . أن المشكلة بطبيعة الحال هى مشكلة طبيعة السلطة العليا ، التنفيذية . ولم يعـد هناك مجـال للجمهورية ، صحيح أن لفظ الملكية يظهر مرادفا للدولة ، والحكم المطلق (٥٠) ، لكن الطهطاوى ، وهو شديد الاعجاب بمحمد على ، يركز على الطابع الشخصى للسلطة : « ومن مزايا ولاة الأمور أيضا أن النفوذ الملوكى بيدهم خاصة لا يشاركهم فيه مشارك وهذه المزية العظمى تعود على الرعية بالفوائد الجسيمة حيث أن اجـــراء المصالح العمومية بهذه المثابة ينتهى بالسرعة لكون مفوضنا بارادة واحد »

وهو يقول عن الملك الذى يتمنى أن يحد من سلطته : « ان حسابه على ربه فليس عليه فى غفله مسئولية لأحد من رعايا وانما يذكر للحكم والحكمة من طرف أسباب الشرعيات أو السياسيات [...] الخوف من الله يحمل الملوك على العدل وما يحملهم على العدل أيضـــا الرأى العمومى [...] ويحاسبهم محاسبة معنوية [...] ؛ فان الملوك يستحون من اللوم العمومى . فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك والأكابر يتساهل فى حكمه ولا يهزل فى قضائه فويل لمن نفرت منه القلوب واشتهر بين العموم بمـــا يفضحه من العيوب [...] فاذا فعل الملك كغيره مالا يوافق لأمته عاقبته نفسه لأن نور الحق يسطع فى القلب [...] . وقد كان المنصب الملوكى

---

(٤٩) «القوة الأهلية » أى : قوة الأهالى ، والسكان . وهو تعبير جديد يلفت الأنظار

(٥٠) انظر شرح ذلك فى لويس عوض : **المؤثرات** : جـ ٢ : ١٦١ ـ ١٦٢

فى أول الأمر فى أكثر الممالك انتخابيا بالسواد الأعظم واجماع الأمة ولكن لما ترتب على أصل الانتخابات ما لا يحصى من المفاسد والفتن والحروب والاختلافات اقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح اختيار التوارث فى الأبناء ٠ »

أهى السلطة المطلقة ؟ ان حدودها وضماناتها ستكون تلك النابعة من التراث ، من الضمير الخلقى ، من الميثاق الممنوح ، من القوانين الخاصة — ولكنها ليست كما كان يتمنى « روسو » نابعة من السلطة ذاتها باعتبارها المعبرة عن ارادة الشعب :

« ولى الأمر هو رئيس أمته وصاحب النفوذ الأول فى دولته وحاكم متصرف بالأصول المرعية فى مملكته ولا توجد رعية فى مملكة منتظمة بدون راع والا ضعفت واحتلت وشقى أهلها لعدم من يسعى فى اسعادهم بتحسين شئونهم ٠ « وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية فى الأحكام والحرية وصيانة النفس والمال والعرض على موجب أحكام شرعية وأصول مضبوطة مرعية فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين ٠ « ولما كانت السياسة جسيمة لا يقوم بها واحد اختص الملك بمعالى الأحكام على المحاكم والمجالس وجعل لهم لوائح وقوانين خصوصية ترشد أفعالهم ولا يتعدونها [٠٠٠] « وأما وظائف المجالس الخصوصية ومجالس النواب فليس من خصائصها الا المذكرات والمداولات وعمل القرارات على ما تستقر عليه الآراء الأغلبية وتقديم ذلك لولى الأمر » (٥١) ٠

ان السيادة تمارس فى اطار المبادىء والحقوق والتقاليد المعمول بها : حقوق الانسان بصفة عامة ، وحقوق كل مجتمع بصفة خاصة ٠ انها لا تجد مصدرها فى الشعب ، وانما فى القانون ، وهذا القانون يستمد شرعيته من اتفاقه مع حاجات المجتمع المدنى ، لا من مصادر فلسفية أو لاهوتية : اننا بالفعل ، كما يقول لويس عوض ، فى عنفوان الانتقال من مذهب الليبرالية المطلقة الى مذهب النفعية ، فى المجال الذى غطاه « مونتسكيو » « وبنتام » « وستيوارت ميل » (٥٢) ٠ ويمكن أن نجد تأكيدا لذلك فى مظهرين آخرين من فكر الطهطاوى ٠ فمن جهة ، التركيز،

---

(٥١) **مناهج** : ٣٥٠ — ٣٥٧ ٠

(٥٢) **مؤثرات** ، جـ ٢ : ١٧٤ ، ١٨٠ — ١٨١ ٠ جمع لويس عوض طروحاته منذ ذلك الحين فى سلسلة من المقالات « تاريخ الفكر المصرى الحديث » **فى الأهرام الصادر** فى ١٠ و ١٧ نوفمبر و ١٥ و ٢٢ ديسمبر ١٩٦٧ و ١٦ و ٢٣ فبراير ١٩٦٨ ، ثم فى كتابه الأخير **تاريخ الفكر المصرى الحديث من عصر اسماعيل الى ثورة ١٩١٩ المبحث الأول : الخلفية التاريخية ، الجزء الأول** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ ٠

الذى لا يفتأ يؤكده ، على التسامح الدينى الذى أصبح ضروريا بسبب متطلبات الأمة والوطن ، بسبب « الاخوة الوطنية أكثر منه بسبب الاخوة الدينية » : « فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن واعظامه وغناه وثروته ، لأن الغنى انما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهى تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بميزة النخوة الوطنية [...] . (٥٣) » . ومن جهة أخرى ، فالحل المقترح للتطاحن بين الثقافة المادية والثقافة الروحية « وأهل الفلسفة والعلوم الحكمية النفسية يعتقدون أن الصنائع من المهن والأمور الخسيسة وأرباب الاقتصاد فى الأموال والادارة يبالغون فى توسيع دائرة المنافع [...] » .

سيكون الحل مطبوعا بطابع الانسانية المشوب بالنفعية ، وهو نفسه مستمد من التعليم الالهى فى مجال العلم « والعلم النافع مرادف للحكمة المفسرة به [...] . بهذا المعنى يشمل العلوم النظرية والعملية يعنى معرفة الحقائق والاقدام عليها بالعلم فجميع العلوم النافعة عقلية ونقلية نظرية وعملية داخلة بهذا المعنى تحت قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به » (٥٤) .

وانطلاقا من هذا المفهوم يطور الطهطاوى نظريته الاجتماعية والاقتصادية الراديكالية التى ستقابلنا فيما بعد . ويركز البيرحورانى، وهو فى هذا أكثر وضوحا من لويس عوض ، على أحوال الاتجاهات التقليدية الاسلامية لهذا المفهوم المطلق للسلطة وتقسيمها الى قطاعين كبيرين كما يركز فى نفس الوقت على الطبيعة الخاصة للتلاحم الذى يقيمه الطهطاوى بين الأصل التقليدى والمفهوم الذى يعرضه عن التغير الاجتماعى ، حيث ينبغى للفضيلة والتربية ـ الفضائل الاجتماعية ـ أن تكون سندا للعمل الاقتصادى والحياة السياسية (٥٥) . ولم يعد هناك مجال كبير للتردد

---

(٥٣) **مناهج** : ٩٩ ـ ١٠٠

(٥٤) نفس المرجع ، ٩ ـ ١٠ ، ٤٩

(٥٥) **Arabic thought** ، ٧٣ ـ ٩ ، التى تشير الى تأثير مونتسكيو وسان سيمون أكثر من تأثير بنفام . كما يذكر المنظر الرئيسى للقومية العربية المعاصرة أن كلمة «وطنية» لا وجود لها فى القواميس العربية المنشورة فى لبنان (بطرس البستانى : **محيط المحيط** ، ١٨٦٧ ، لويس معلوف : **المنجد** ١٩٠٨) ، راجع خلدون ساطع الحصرى :
Three reformers, a study of modern Arab political thought. Khayats, 1966, Beyrouth, 29-31.
ونرى هنا اسهام الطهطاوى والنهضة الوطنية المصرية بشكل ساطع .

بين الفوضى التى كانت تعيشها مصر على عهد المماليك وبين النهضـــة الوطنية فى ظل الديكتاتورية المستنيرة التى يمثلها محمد على · ان « **مناهج الألباب المصرية** » يمثل الخاتمة المنطقية لفكر يريد أن يكون فى ذات الوقت أصيلا وفعالا : ان الفكر السياسى عند الطهطاوى الشاب ـ منطلقـــا من التراث التقليدى ـ المثالى والواقعى ، العجز والاضمحلال ـ قد غرس أفكار ١٨٨٩ ، بل وفكرة الثورة نفسها ، فى الضمير الوطنى المصرى الذى أسهم هو بنفسه ، أكثر من أى شخص آخر ، فى تكوينه وتشكيله (٥٦) ·

وبالتدريج ، وفى مواجهة التسلط الاستعمارى بعد ١٨٤٠ ، تسيطر نظريتان ـ ضرورتان تاريخيتان ـ على فكر الرجل الناضج : سلطة دولة قوية عقلانية ؛ تستند على رأى عام مستنير ومتضامن ، يكون تماسكه شرطا لوحدة الوطن ونهضته بل ولوجود الوطن ونهضته · ان موضوعات ١٨٦٩ ليست موضوعات الانطواء والاستسلام كما يمكن أن توهم بذلك مقارنة سريعة مع كتابات الصحفيين على عهد اسماعيل ، ولكنها ، بالأحرى ، الأساس الذى أعد له مواطن غيور ، ورجل عمل ، ومفكر صلب نزيه للخطوة القادمة فى هذه المسيرة الطويلة التى تمثلها نهضة مصر الحديثة ، والتى ستبلغ ذروتها فى تبلور الحركة القومية وثورة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ ·

وتبدأ هذه المرحلة ، بطبيعة الحال ، بعزل اسماعيل · وعلى ذلك فسندرسها فى الباب الخامس · غير أنه من المفيد أن نشير الى تطور الرأى العام الذى سار فى خط متواز مع تطور الفكر السياسى والاجتماعى ومع معركة السلطة ·

لقد ذكر عام ١٨٦٧ ، مرارا ، على أنه نقطة تحول ؛ وعلى أية حـال فهو العام الذى شهد مولد الدستور العثمانى على يد مدحت باشا (٥٧) · وكانت جريدة Le Progrès Egyptien المعادية للخديوى ، تترصد وتراقب الرأى العام : ففى ١٨٦٩ بدا لها أن هذا الرأى العام يفتقر الى التبلور · غير أن الحرب بين تركيا وروسيا (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) أسفرت عن ملاحظات ذات طبيعة مغايرة تماما : « ليس العرب [المصريين] غير مبالين بالسياسة كما نتصور · فانهم يتهافتون على سيل الأخبار التى تصلهم من القسطنطينية ويعلقـون عليها ، ويناقشون موضـوع الصراع ؛ باختصار ، ان الرأى

(٥٦) يراجع فى ذلك :
J.M. Ahmad : Intellectual origins Egn. nationalism, 13-4.
، وكذلك حول تأثير عصر أوروبا الثورة على الفكر المصرى كتابنا **دراسات فى الثقافة الوطنية** ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٧ ·

(٥٧) Cf. N. Berkes : Turkey, 232-50.

العام عند العرب يتشكل ويتبلور (٥٨) ٠ » وفى عام ١٨٧٦ أشير الى حادثتين مثيرتين : علم القائمقام (العقيد) عرابى « بوجود جمعية سرية بين الضباط تستهدف عزل اسماعيل [و] تكفل بادارتها » (٥٩) ؛ وتحدثت « التايمس » عن « حزب ثورى كوزموبوليتى » (متعدد الاجناس والقوميات) يقـــوم بتوزيع منشور يدعو فيه الشعب الى مساندة الخديوى والتنظيمـــات الوطنية (٦٠) ٠ ووصف القاضى الهولندى الجو الذى يسود البـــلاد أثناء انشاء المحاكم المختلطة فكتب يقول : « هناك اذن أمة مصريـــة ، على وعى بوطنيتها ، تتألف من غالبية مسلمة وأقلية ضعيفة من الأقباط ٠ وجميع سكان البلاد الآخرين أجانب ، وكذلك يعتبرهم المصريون المسلمون والأقباط سواء بسواء ٠ ويخطىء من يعتقد أن المصريين المتحضرين منهم ، لا يهتمون الا براحتهم الفردية وراحة أسرهم ٠ اننا ، على النقيض من ذلك ، يمكن أن نقول ، انهم يبغضون السيطرة التركية والسيطرة الأوروبية ، ويرغبون فى أن تصبح الحكومة وطنية تماما ؛ وأنهم يحبـــون مصر الحالية ومصر التاريخية ويهتمون بمصير الشعب المصرى ويتألمون لآلامه الأبدية ؛ وأنهم أخيرا يتوقون الى عصور أفضل ، مع أن مثل الماضى لا يترك لهم الا أملا ضعيفا [...] (٦١)٠ » ويوضح محمد صبرى هذا الحكم مركزا على التعارض الذى خلقته حرب ١٨٧٧ـ١٨٧٨ ، في الشعور الوطنى: فالعداء للباب العالى المسيطر ، يخف ، على مستوى الطبقات الحاكمة وذلك لمواجهة أوروبا (٦٢)؛ وهو ما يؤكده «مككوان» Mccoon (٦٣) ٠ واذا كان من الواجب أن نذكر فى هذا الصدد ، دور الصحافة غير الحكوميـــة ـ والتى درسناها فيما سبق [الفصل الرابع ، القسم الثانى] ـ فان من الأوفق أن نركز أكثر

---

(٥٨) In Mohamed Sabry : La genèse de l'esprit national égyptien (1863- 1882), Paris, 1924, 110-2;

ويذكر أيضا مقالات مؤرخة فى ٢٦ يونيو و ١٤ يوليو ١٨٦٩ حيث تتردد فيها هذه الجريدة بين عبارتين :

« لا يمكننا القول انه يوجد فى مصر تطلعات عامة ، وان المصريين يرغبون بشىء ما » !

« ان خضوعه (الشعب) لم يعد أخرس ، فالفلاح انتقل من السلبية الى الاشمئزاز ٠ »

(٥٩) Alexandrie Holynski : Nubar pacha devant l'histoire, A Deuter s.d. c. 1885), 91-2

بيد أن هذا الكتاب يعتبر من حزب المخيلة الى حد كبير

(٦٠) "Revolutionary proclamation in Egypt», The Times, 11 avril 1876, 5.

تبدأ الحركة فى الاسكندرية ٠

(٦١) P. Van Bemmelen : Eg. et Eur., i : 26-7.

(٦٢) Esprit national, 126.

(٦٣) Egypt as it is, 85.

على آثار السياسة التعليمية الجديدة فى مجال تكـــوين الوعى الـوطنى والسياسى ، والذى حدد روحه ، الى درجة كبيرة ، المفتش العام « أدوارد دور » بالاتفاق مع اسماعيل وعلى مبارك : « فى القسم التربوى ، يهتم المنهج التربوى بدراسة جميع مزايا وعيوب الطبيعة الوطنية للتمكن بصورة أكيدة من تنمية الأولى ومكافحة الأخيرة . كما يوقظ القوة المعنوية ، والشعور بالواجب والطموح الشخصى النبيل وروح المبادرة التى يفتقر اليها الشباب المصرى • كذلك فانه ينزع من الطفل الشعور باللامبالاة الذى يعتبر آفة من آفات المجتمع الشرقى ، ويقوده عن طريق التعليم المنطقى ، والتأمل الدائم ، الى سلامة الرأى والتفكير. وكذا فانه بدون النيل من ثقته بنفسه، ذلك الشرط اللازم للنجاح ، يوضح له أن التواضع لا يتعارض أبدا مع المعرفة العميقة والمحافظة الكاملة على الوقار • كما سيعلمه التمثل بمن هم أفضل منه ، والحذر من الغرور الذى يقع فيه العرب الذين بلغوا درجـــة معينة من التعليم تجعلهم يتباهون بالمسافة التى تفصل بينهم وبين ســائر العامة الجاهلة ، والذين خرجوا من بين صفوفها • ومع اشعاره بمزايا التعليم يعلمه أن من واجبه أن يستفيد منه الآخرون • وعن طريق تعليم مدنى يناسب حاجات الشعب ، وعن طريق دراسة التاريخ الوطنى ، يوضـــح له المنهج أن الوطنية الحقة لا تقتصر على الارتباط السلبى بمسقط الرأس، وانما كذلك تتجلى فى حب نابض يدفع الفرد الى تكريس طاقاته وقدراته جميعا لتطوير الشعب ، وتحريره الثقافى ، وهنائه وعن طريق الجغرافيا والدراسة المنطقية لعادات وتقاليد الشعوب الأخرى يبث فيه الرغبـــة للوصول الى درجة أعلى من الثقافة • ويوضح له ما عند الشعوب المنافسة ليحذو حذوه ، ومن شر ليتجنبه • كذلك فهو يوجه نظره الى المستقبل ، وينزعه من حالة التأمل الكئيب التى يتميز بها ، ليشعل فيه الحماسة التى يعتبر الجنس العربى ، الى درجة كبيرة ، خليقا بها والتى تستطيع وحدها أن تقوده الى عظيم الأعمال (٦٤) » •

أما جمال الدين الأفغانى ، فان دوره فى ذلك العصر يبدو أقل مما أشيع عنه • لقد أقام فى مصر بدعوة من رياض عام ١٨٧١ • وبين ١٨٧١ و ١٨٧٥ قـام الافغانى فى حماية رياض بالتمهيد للـدور الـذى قام به فى المستقبل : فقد تدخل للحصول على نشر صحيفتين « مصر » ثم « التجارة » وكلتيهما بادارة أديب اسحاق ؛ كما اهتم فى نفس الوقت بالماسونية ، وبانشاء محفل منفصل عن « الجنرال سكوتش لودج » وينتسب الى محفل «الشرق الكبير» Grand Orient غير أن تاريخ هذا العمل الأخير يكتنفه الغموض : وتبدو البواعث الفلسفية الايمان بوجود معمارى كبير للكون)

---

(٦٤) Instr. publ. Eg., 333-4.

أقل أهمية من الهدف السياسى ، وهو اقامة هيئة سرية تضم عددا كبيرا من الشخصيات المؤثرة ، « الجمعية الماسونية العربية » ، وتضم ، كما أورد س٠ العنهورى كلا من محمود سامى البارودى ، وعبد السلام وابراهيم المويلحى ، ومحمد عبده ، وابراهيم اللقانى ، وعلى مظهر ، والشاعر الزرقانى وأبو الوفا القونى وسليم النقاش وأديب اسحاق ، وعبد الله النديم (٦٥) ؛ وكما أورد محمد صبرى فان قسم محفل « الشرق الكبير » بالاسكندرية ضم زعيمى تمرد الضباط ، لطيف سليم وسعيد نصر ، اللذين كانا فى هذه « النواة للحزب الوطنى » (٦٦) ٠ وكلاهما متفق على المكان والتاريخ : الاسكندرية عام ١٨٧٨ . وتظل النقطة الرئيسية أنه طوال عام ١٨٧٨ ــ ١٨٧٩ ، وكلما أريد ضرب اسماعيل ، انضم الأفغانى الى جانب المعادين للخديوى ٠ وأثار الجماهير فى الاسكندرية بخطبه محرضا اياها على القضاء على «الاضطهاد» ، كما تدخل لدى م٠ « تريكو » ، القنصل الفرنسى العام ، للعمل على خلع اسماعيل ووصل الى حد اقتراح اغتياله (٦٧) ٠ وســـوف نشير الى تأثير أفكار الأفغانى فيما بعد [الباب الخامس ، الفصل الحادى عشر والثانى عشر] فى حدود انتشار هذه الأفكار فى مصر خـلال الفترة التى نقوم بدراستها ٠ ويجدر بالذكر الآن أن قائمة الشخصيات التى ذكرت على أنها تلاميذه تضم فى ذات الوقت أنصارا وخصوصا للحزب الوطنى ولثورة عرابى فى المستقبل ٠ وهى قائمة فيها مجال كبير لعدم الدقة ، كما هو متوقع فى مثل هذه الحالات ، ولا تسمح بالفصل فى تحديد الطبيعة الدقيقة للسياسة التى نفذت ٠ كذلك فان تفسيرات المؤرخين الشائعة والتفسيرات الواردة فى بعض الدراسات الحديثة المناهضة فى عنف وقسوة للأفغانى وخلفه ، تتعارض بصورة جذرية ٠ بقى أن أفكار الأفغـانى المناهضـة

---

(٦٥) وقد وصل المؤلف الى مصر فى عام ١٨٧٨

Sihr Harout, Damas, 1885, 180-1.

(٦٦) Esprit national, 142-3.

أنظر القائمة الأولية للمطبوعات الماسونية فى مصر التى أعدها :

Jacob M Landau : «Prolegomena to a study of secret societies in modern Egypt», Middle Eastern Affairs, 1, (1965), no 2, 135-86 (169-71).

(٦٧) حول محاولة الاغتيال انظر

Wilfrid Scaven Blunt : Secret history of the English occupation of Elie Keddourie : Afghani and Abduh. an

وقد شنت الحركة الصهيونية حملة تشويه مكثفة ، عنيفة ، متصلة ضد جمال الدين الأفغانى ، رائد الاسلام السياسى ، وذلك فى مرحلة ضرب الثورة المصرية والقومية العربية ، خاصة ابتداء من ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ٠ فمثلا :

Keddourie Afghani and Abduh, an essay on religious unbelief and political activism in modern Islam, Frank Cass, London, 1966, 20-7;

وقدم التفسير التقليدى عبد الرحمن الرافعى : اسماعيل جـ ٢ ١٣٥ ــ ١٤٨ ٠

للاستبداد ، فى تلك المرحلة من نشاطه ، كانت تستهدف سلطة الدولة المصرية التى كانت تسعى لأن تكون وطنية ، كما أن تلك الأفكار كانت تعتمد على أعداء هذه السلطة وذلك باسم الحرية ٠

وقامت عدة جمعيات علمية ـ طغت فيها السياسة على العمل الثقافى ـ عملت على تجميع الصفوة ٠ فقد اهتم «**معهد مصر**» الذى أعيد افتتاحه عام ١٨٥٩ ، بالبحث فى التاريخ الألفى على ضوء الحضارة الحديثة ؛ وقام جماعة العلماء المصريين والأجانب بتأسيس « **معهد مصرى** » (مجلس المعارف المصرى) ، عام ١٨٥٩ ٠ وعهد اسماعيل الى « شوينفورث » برئاسة « **الجمعية الجغرافية الخديوية** » (١٨٧٥) ٠ كما تأسست « **جمعية المعارف**، وهى أول منظمة ثقافية شعبية ، على يد كل من محمد عارف باشا وابراهيم المويلحى بك عام ١٨٦٨ ؛ وأسس الطلبة السوريين بالأزهر « **جمعية رواق الشام** » (١٨٧٣) ؛ وتأسست « **الجمعية الخيرية الاسلامية** » ، وهى الأولى التى تحمل هذا الاسم ، بالاسكندرية عام ١٨٧٨ ، بايحاء من عبد الله النديم لمواجهة تدخل البعثات التبشيرية المسيحية الأوربية فى مجال التعليم ٠ كما أسس سلطان باشا « **جمعية المقاصد الخيرية** » وهى مؤسسة للتعليم الاسلامى عام ١٨٧٨ ٠ وتكونت جمعيات أخرى يغلب عليها الطابع السياسى ، وسرية فى غالب الأحيان : « **جمعية الأدب** » للشيخ محمد الخشاب الفلكى (١٨٧١) « **والجمعية الشرقية** » بادارة يعقوب أرتين باشا وفخرى باشا وسليمان أباظة (١٨٧٧) ؛ « **وجمعية مصر الفتاة** » وتضم كلا من الأفغانى واسحاق وسليم النقاش وعبد الله النديم ونيقولا توما و «**جمعية الشبان** » التى تأسست فى الاسكندرية قبيل ثورة عرابى (٦٨)٠

واذا كان « عهد الحزب الوطنى قد بدأ » ، كما قيل فى لندن » (٦٩) ، فان الحركة الفكرية التى تشكله تدين بالفضل أساسا الى دور الدولة ، يسانده ويلهبه فكر الطهطاوى ، ونخبة المثقفين من المعجبين ورجال الحكم المحيطين بمحمد على واسماعيل ، وهى حركة لعبت الصحافة ووسائل النشر دورا فى تألقها وهو دور لم يكن معروفا فى الشرق حتى ذلك الحين ٠ لقد انبثقت مصر ، وهى ملاذ جميع المضطهدين من الحكم العثمانى ، فى تلك النهضة الوطنية الأولى ، كقاعدة لحركة التحديث ، وكحاملة للواء الأفكار التقدمية بالرغم من مساوىء ومفاسد الحكم المطلق ـ حتى التصدع ٠

---

(٦٨) جرجى زيدان : **تاريخ الآداب** ، جـ ٤ ٠ ٧٧ ـ ٩٣ ، عمر الدسوقى : **فى الأدب الحديث** ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٤ ص ٦١ ـ ٦٣

(٦٩) «Latest intelligence — Egypt», The Times, 26 avril 1879, 7.

الخاتمة

عناصر متباينة فى الظاهر تتجمع وتصب فى القوالب التأسيسية التى تعتبر متقدمة كثيرا بالنسبة للعصر ، وقد تعرضنا لها فى الباب الثانى· ومع ذلك فان التباين ثانوى ، أو هو بالأحرى من مرتبة ثانية · والحقيقة اننا نستطيع أن نتبين فى يسر الخط الرابط الموحد ، ألا وهو الحاجة الملحة المتزايدة والعامة الشاملة للمعقولية الاجتماعية ، وذلك خلال عملية ادماج مصر فى السوق الاقتصادية العالمية ·

أولا : هناك عنصر خارجى محصن : « السانسيمونية » ، ويكمن أثرها فى الخلط داخل العقول بين نظام هيمنة الدولة و « التكنوقراط » من ناحية وبين الاشتراكية الخيالية من ناحية أخرى ممهدة بذلك للخلط ، الذى ظل محفوظا عن وعى ، بين نظام هيمنة الدولة والاشتراكية الذى بدأ منذ عام ١٩٥٢ · ولكن ليس هناك هذا الخلط فقط : فان تقديم نوع من التصور والرؤية لطلبة المهندسخانة ، رجال القيادات الفنية التكنوقراطية فيما بعد ، ان تسليح الجها بفكر طوبوى ، وذلك فى جو الاحساس الساخن الملتهب ، أمر لا يخلو من القيمة التحريرية ·

ان النواة الرئيسية للاسهام التكوينى ، فى المجالين الثقافى والنظرى ، يبدو أنه من عمل الطهطاوى ومدرسته · ثم ان مولد الوعى التاريخى فى مصر ، ومولد « الطبقة السياسية » المصرية الواعية بالتاريخ ، وكذلك بالخصوصية التاريخية لمصر ، ينطلقان أساسا من الانجازات السياسية لمصر الحديثة · وهذه الانجازات نفسها ، بما فيها بعدها الثقافى بمعنى الكلمة ــ والذى يجب أن يفسح فيه مكانا خاصا لانشاء علم الآثار المصرية كعلم ــ تدور حول مفهوم رئيسى هو : الوطن ·

لقد تحول التاريخ التسجيلى ، الحوليات ، بسرعة فائقة الى التاريخ العلمى فى المستوى المنهجى ؛ وامتد مجال تطبيقه من مصر الى التجارب الكبرى التى يضطرب بها العالم وبالذات العالم الحديث الخارجى ، أوربا التى يأتينا منها التحدى ·

والانتقال من الأمة الى الوطن ــ أى من جماعة المؤمنين الى الوطن بالمعنى الضيق ــ كان له صداه على المستوى الفكرى ؛ والعمل الدائب

للتحرر ؛ وارادة الاستقلال فى مواجهة تركيا · ولكن يجب أن نعترف أن انتقالا نظريا ــ أكثر منه تصوريا (مفهوميا) ــ بهذه الضخامة لا يمكن التفكير فيه كثيرا الا فى بلد ، كمصر ، تتمتع بعمق مجال تاريخى فريد فى العالم ، بلد يمكن لكثافة التفاعلات الاجتماعية فيه أن تتصاعد وتنتشر بشكل مفيد لتدعيم وتركيب خصوصية ما لبثت/، منذ الطهطاوى/، أن تهز الوعى وتستنهض العمل فى العالم العربى من أدناه الى أقصاه ·

أما تطور فكرة الاستقلال ، فلم يسر فى نفس الخط الذى سارت فيه فكرة الوطن · فالتردد بين الاستقلال الذاتى الاقل والأكثر تمركزا على الذات وارادة الاستقلال الحقيقية التى لايزال البديل لها ، غير واضح آنذاك ، ينبع من الاشكالية المتخصصة لفك الحصار حول النواة التكوينية العميقة للشخصية الوطنية المصرية فى الاطار (الجيو ــ سياسى) الذى تحدد تاريخيا بالصراع بين الدول الكبرى على تقاسم العالم ، فى القرن الماضى · ان عدم كمال الأداة التصويرية (المفهومية) والايديولوجية ــ مع انه حقيقة واقعة ــ لايمثل الا بصعوبة ثانوية . فقد كانت المشكلة على صعيد آخر : وبما أن جدلية المواجهة الثنائية المباشرة كانت شبه مستحيلة ، فقد فرضت نفسها استراتيجيات من نوع ثلاثى وأبطالها دائما هم مصر وفرنسا وبريطانيا العظمى · ولكن مصر نفسها ليست ذرة منفردة ــ زيادة على ذلك انها تتصرف وتتصور نفسها فى اطار تاريخها الألفى وقوتها المستعادة ، هذا صحيح ؛ ولكن ذلك لا يخرج عن نطاق انتمائها الى الامبراطورية ، أى السيادة التى يمارسها « الباب العالى » كحق وأحيانا بصورة جزئية · وكانت النتيجة أربعة لاعبين ــ الأمر الذى خرج على قواعد اللعب التقليدية بثلاثة لاعبين · ولكن ، بوسعنا التساؤل ، مع تزايد التهديد الشرقى الذى يحمل طابع مصر الناهضة ، عما اذا كانت مصر ، فى الواقع ، لا تستطيع مواجهة القوى الكبرى الغنية حتى الاحتلال عام ١٨٨٢ بفضل المباركة الجماعية أو شبه الجماعية التى حظيت بها من العالم المتحضر ·

وابتداء من ذلك ، بدأت مصر تبحث فى داخل ذاتها عن مصادر للقوة وعن أسباب للمشروعية · ومن ثم كانت مثابرة الحركة الدستورية وقوتها · ويمكن أن نفيض فى الحديث عن الحوافز ، غير أن بواعث « بونابرت » كانت أكثر غموضا من بواعث اسماعيل الشاب · ان المهم فى الموضوع هو ادراك صدى الأفكار الجديدة ، ذلك الصدى الواسع على مستوى الأمة جمعاء ، وليس فقط على مستوى الأعيان ، والتحالف الناشىء بين بورجوازية الأرض والمثقفين وهم كبار موظفى الدولة غالبا · مع أن هذه الفئات بطبيعة الحال هى أكثر الفئات تأثرا مباشرا باقامة المؤسسات النيابية ، وهنا كما هى الحال فى سائر مجالات التجديد ، يتم

العمل انطلاقا من تجهيز أيديولوجى وسيط بين التراث التقليــدى وبين متطلبات التحديث • غير أن التراث ، كما فسرته مدرسة الطهطاوى ، خريجة الأزهر ، ليس اسلاميا فحسب ، ولكنه مصريا واضحا كل الوضوح منذ عهد الفراعنـــة حتى مصر الخديوية ، مارا بالعصر القبطى ، والفتح العربى والأسرات الاسلامية المصرية الكبرى •

ان محصلة الاتجاه لم تكن فقط الهيبة والمكانة • بل كان الهدف فوق كل شىء ، يكمن فى مواجهة الحياة العصرية ، ومجابهتها والانبعاث فيها من جديد باسلوب أصيل • وعلى ذلك فقد أصبح السبيل الرئيسى هو جعل المعقولية أساسا للمجتمع بكل أبعادها ، انطلاقا من ثراء وثقل تاريخى يرجع الى سبعة آلاف عام • وبعبارة أخرى • فان التأمل لا يقوم على أساس عامل ضارب فى القدم وانما ، وبصفة أساسية ، عن طريق عامل حديث كل الحداثة ، بل ومعاصر ، هو نفسه المطبق فى المجتمعات المتقدمة فى الغرب عن طريق تعميم التكوينات الاجتماعية ــ الاقتصادية الرأسمالية وأساليب الحياة والعمل والفكر التى تصاحبها أو التى تنجم عنها •

الباب الرابع

التحديث الليبرالى ومشكلة الثقافة

(١٨٠٥-١٨٧٩)

● الفصل الثامن :

تغيرات الشعور والحاسة

القسم الأول ــ الحياة اليومية والحاسة الشعبية

ان جيلي المواجهة مع الحضارة الحديثة ، من المقاومة الشديدة حتى تغلغل القوى الكبرى ، وهو ما سنتناوله بالوصف هنا ، وقد جاء بعد ظهور الدولة المصرية بقيادة محمـــد على ، يتجليان فى « **مناهج الألباب المصرية** » التى صورها الطهطاوى عام ١٨٦٩ متأملا الماضى كوســيلة أفضل لاستجلاء المستقبل •

وليس من اليسير الامساك بأطراف الأحداث التى تجرى فى ذلك العصر ومعايشتها • انها تظهر هنا وهناك فى مذكرات الرحالة ، والتقارير والدراسات النادرة • ودراستها المنهجية ممكنة ولا شك ، ويمكن أن تكون موضوعا لدراسة متخصصة • أما بالنســبة لبحثنا ، فمن الأوفق أن نستخلص خطوطها العريضة •

أولا وقبل كل شىء ، اطار الحياة • هل تعتبر مصر ثابتة غير متغيرة؟ ان دراسة العلاقات بين المكان والسكان تقدم أول مجموعة من الحقائق • وعلى النقيض من الرأى الشــائع حتى الآن عن « عزلة » مصر ، تذهب الأبحاث الحديثة ، وخاصة تلك التى قام بها جمال حمدان :

« فشخصية مصر الجنسية هى : بداية ونهاية متجانسة ، أو بالأوضح يصل بينهما قدر ضئيل من الاختلاط لا التخليط ، والكل بفضل حماية طبيعية وعزلة خفيفة ، مع امتداد تاريخى مترام • (•••) وموقعها من العالم هو موقع القلب من الجسم أو العاصـــمة من الدولة ، وانها حجر

الزاوية أو أرض الركن ، مجمع القارات ومفرق البحار ، وملتقى الشرق والغرب ٠٠ الخ ٠ » (١)

وكيف يمكن لها اذن أن تواجه أوروبا ، وهى فى عنفوان ازدهارها الصناعى والتكنولوجى والاستعمارى دون أن تضطرب وتفقد توازنها ؟ ان هذه المشكلة التى سنصادفها فى كل صفحة من صفحات بحثنا — وهى تمثل موضوع هذا البحث — تبدو مختلفة نسبيا من حيث اختلاط المقصود بها تعدده بين تحليل حجم المشكلة وأشكالها فى مجال الحكم ، أو فى مجال الفكر أو مجال الحاسة والوجدان ٠ وفى هذا المجال الأخير ، فان التناول السطحى يبدو وكأنه أكثر عمقا ، دون أن نستطيع مع ذلك ، أن نزعم بوجود تحول فى الشعور العميق للشعب المصرى خلال الفترة التى ندرسها ٠

لقد تغير « الشكل العمرانى » (٢) بسرعة وخصوصا على عهـــد اسماعيل ٠ ومن قبله كان محمد على قد اهتم باقامة الحد الأدنى من القاعدة العمرانية التى لا غنى عنها لعظمة الحكومة : قصر الجوهرة بالقرب من القلعة ؛ مقر الحكومة ؛ قصور شبرا ؛ أثر النبى والهرم بالقاهرة ؛ ثم قصر رأس التين بالاسكندرية ، وهو أجملها جميعا ، والعديد من القصور الأخرى فى الأقاليم : دفترخانة القلعة لايداع المحفوظات ، تجديد الجسر المائى الذى يربط القاهرة القديمة بالقلعة ، وبحيرة الأزبكية ، مسجد القلعة الكبير ، دار الاحصاء ببولاق ، دار الآثار (الانتكيخانة) ، استخراج الرخام والأحجار ، تعمير الاسكندرية ، الميناء الحربى والتجارى وامدادها بترعة المحمودية ، اقامة مدينة الزقازيق ؛ انشاء البريد والاتصالات البرقية والسكك الحديدية والتى سبق أن تحدثنا عنها (٣) ٠ هذه الانشاءات المتناثرة التى كانت تمثل الرافد المدنى فى نهر السياسة الحربية ، أصبحت بفضل اسماعيل وكفاءة على مبارك العالية وتصميمه ، احدى الدعامات الرئيســـية لانجازات

---

(١) جمال حمدان : « شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان » **المجلة** (١٩٦٤) العدد ٩٦ ، ٤ — ١٣ ٠ دراسات جمعت منذ ذلك الحين فى كتاب يهدف الى استعادة التفكير فى فلسفة التاريخ المصرى انطلاقا من الجغرافيا السياسية : جمال حمدان : **شخصية مصر — دراسة فى عبقرية المكان** ، دار الهلال القاهرة ١٩٦٧ ، وخاصة كتابه الرائد العظيم : « **شخصية مصر — دراسة فى عبقرية المكان** » ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ ، ٤٦ — ١١٨ جـ ٣ (تحت الطبع) ٠

(٢) J. Berque : «Etapes de la société égyptienne contemporaine», Studia Islamica, xxii (1965), 91-118 (95);
وكذا تحليله للحياة اليومية فى المدن ، فى L'Egyple, 77-96.

(٣) عبد الرحمن الرافعى : **محمد على** ، ٦٠١ — ٦٠٣

اسماعيل (٤) • كانت القاهرة والاسكندرية يحظيان باهتمام خاص : شق الشوارع والطرق الواسعة المشجرة واقامة الميادين وخصوصا شارع محمد على وميدانه وشارع الأزبكية وميدانها وشوارع أحياء عابدين وباب اللوق والفجالة ، وهذا الأخير ازيل ثم اعيد تخطيطه ؛ ادخال الكهرباء والماء العذب وتمهيد الطرق ، والأرصفة ، ونظام المجارى ؛ اقامة نافورات الميـــاه والتماثيل والمساجد والقصور ؛ وأخيرا انشـــاء مسرح الأوبرا [الايطالى] وآخر أصغر منه لفرقة « الكوميدى فرانسيز » ؛ والتوسع فى المشروعات فى الاسكندرية والسويس (٥) •

وعلى الرغم من الاعتراضات التى يبديها « رونيه » ، فان عملية تحديث المبانى العـامة قـد تمت على الطراز الأوروبى ، بدلا من اعادة « الطرز القديمة (٦) » : اننـا فى فترة تفشى « الموجة الغربيـة » التى برع فى تحليلها صبحى وحيده ، والجرى وراء الجديد بأى ثمن ، كما لاحظ فى نفس الفترة الألمانى ج « ايبرز » (٧) • ومع ذلك ، فيبدو أن الخديوى ، بشهادة الياس الأيوبى (٨) ، قد آثر أن يمزج القديم بالحديث (٩) •

(٤) « والحقيقة أن الأعمال العامة التى بدىء بها وانجزت فى مصر طيلة السنوات الاثنتا عشرة الأخيرة تمثل تقدما رائعا لا نرى مثيلا له فى أى بلد آخر حتى ولو كان اتساعه وعدد سكانه يساوى أربع مرات اتساع وعدد سكان مصر » •
A. Sammarco : Sa'îd et Ismâ'îl, 223-40.
وكذا ، بالنسبة لمجمل منشئات اسماعيل ، راجع خاصة :
E. de Léon : The Khidive's Egypt, 262-3.

(٥) على مبارك : **الخطط** ، جـ٩ ، ٣٦ ـ ٦١ ، عبد الرحمن الرافعى **عصر اسماعيل** ، جـ٢ ٤ ـ ٢٤ ، A. Sammarco : Sâ'îd et Ismâ'îl, 231-3; سعيد زايد ، **على مبارك** ٥٦ ـ ٥٧ •

(٦) « ان التقدم العقلى الحقيقى لا يقوم على مناوأة أو تشويه الملكات الأصلية وانما يتطلب، على العكس ، ان نطورها بحسب نزعاتها الطبيعية •• ولن يكون على رئيس الدولة سوى أن يبدى تفصيلا واضحا لصالح نماذج الماضى الحقيقية لكى يزدهر عما قريب الفن الوطنى ويختفى هوس تحطيم ما يوجد ونسخ أوربا فى غير محله »
(A. Rhôné : Coup d'oeil sur l'état du Caier ancien et moderne-étude sur le vandalisme et Orient, Impr. A. Quantin Paris, 1882, 13-4).
راجع أيضا حول « الفوضى الجميلة » ،
H. Piéron : «Le Caire, son esthétique dans la ville arabe et ville moderne», Eg. Contemp., ii (1911), no. 8, 511-28.

(٧) « انهم يفضلون تشييد الجديد الذى يهبهم من جديد فرحة فتح عيونهم بشكل واسع ، ويهجر لمصيره ما جعله العمر متزعزعا » .(G. Ebers : L'Egypte, i : 353);
Stanley Lane-Poole : Cairo. sketches of its history, monuments and social life S. Virtue and Co. London 1892.

(٨) الياس الايوبى • **تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩)** القاهرة ، ١٩٢٣ ، جـ١ : ١٤٩ •

(٩) محمد عبد الغنى حسن : « الخديوى اسماعيل باعث الجمال فى مصر » **الكتاب** ، جـ ٣ (١٩٤٨) ، العدد الأول ـ ١٣٧ ـ ١٤٥

من الشوارع ، يكتشف سكان المدن ـ وقد تحدثنا عن نموهم فيما سبق ـ النيل فى الاحياء الميسورة ، ويتجمعون حول مراكز الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية المتناثرة فى كل مكان · وفى عام ١٨٦٥ يذكر أحد المراقبين « ألف مقهى منها مائة مخصصة للرواة الذين يشكلون أعضاء مهن مستقلة » فى مدينة القاهرة وحدها (١٠) · كان « الرواة فى المقاهى » يمثلون مادة تسلية للجماهير · وكانوا يعرفون بالشعراء أو « ابوزيديه » بسبب الموضوع الثابت لرواياتهم وقصصهم وهو قصة أبو زيد الشعبية ، ويبلغ عددهم حوال الخمسين شخصا : ثم « رواة قصة الظاهر » أو المحدثين وهم حوالى الثلاثين يروون قصة الظاهر بيبرس ؛ وكان هناك ـ فى عام ١٨٦٩ ـ ستة رواة متخصصين فى قصة عنتر يعرفون بالعناترة أو العنترية ؛ وأخيرا بعض الرواة المتخصصين فى حكايات « المجاهدين » وذوى اللحية (١١) ·

وسوف ننظر فيما بعد فى مضمون هذه الحكايات · أما الآن فسنقوم بجولة داخل المنازل تمكننا من متابعة تطور الذوق · ويلاحظ جاك تاجر أنه « فى حوالى عام ١٨٥٠ ، لم تكن الطبقة الخاصة من المصريين تنفر من التجديدات الأوربية ؛ بل كانت تحاول أن تنقل منها أقلها تعارضا مع تقاليد البلاد وعاداتها · كانت المنازل التركية والمصرية مستوحاة من أوربا · أما منازل الطبقة الأرستقراطية فقد ظلت نموذجا بين حضارتين [···] ، الساعات الكبيرة الرنانة [···] ، الأوانى الفضية والبللورية (١٢) · »

وطبقا للدراسة المستفضية التى قام بها « ادوار وليام لين » عن الحياة اليومية فى مصر بين ١٨٣٣ ـ ١٨٣٦ ، لا يبدو أنه قد تغير الكثير من هذه الحياة ، على الأقل بين جماهير الشعب (١٣) · الشعور الدينى العميق ؛

---

(١٠) L. Malosse : Impressions d'Egypte, 28.

(١١) Fdward William Lane : An account of the manners and customs of the modern Egyptians written in Egvpt during the years 1833-1835, Alexander Garden, London, 1895, 307-341 R.P. Loarty-Hadji : L'Egypte, 267-78, 304-6,

وقد ذكرها دون الاشارة الى المصدر

(١٢) Jacques Tagher : "La vie au Caire et à Alexandrie il y a cent ans», Cah. hist. ég. ii (1950), no, 4, 409-27 (426).

(١٣) وعن المؤلف أنظر :

S. Lane-Poole : The life of Edward William Lane. London 1877 : J. Fuck : Die arabischen Studien in Europa. Otto Harrassowitz Leipzig, 1955 : John Alfred Haywood, in Encycl, Brit., xii : 686.

والمادة التى كتبها عنه

الايمان بالقدر ؛ العطف على الفقير والحيوان وبخاصة القطط ، الاقبال على الاستمتاع بالحياة ، الكرم المفرط ؛ الاعتدال في الغذاء بين عامة الشعب ، النظافة البدنية وهى بين الطبقات الفقيرة أكثر منها بين الطبقة الارستقراطية، عطف الأولاد على الآباء والأمهات ؛ حب الوطن ، وخصوصا المنزل ، مع الرغبة فى السفر ، ولكن من أجل العودة الى وضع أفضل ، حيث كانت الصحراء مبعث رعب وفزع ؛ العناد الزائد ؛ وروح الاستكانة مع الشجاعة ؛ الحساسية الظاهرة ؛ الألفاظ الخليعة النابية ؛ القسوة الشديدة مع المرأة الزانية ؛ الأمانة فى رد الديون ؛ حب المشاجرة والدقة المتناهية فى اختيار الألفاظ • الاسراف فى الاعتقاد فى الخرافات التى يرجع بعضها الى العصور القديمة بالنسبة لبعض الكائنات الخيالية وبعض انماط الكائنات الحية ، وهى خرافات شائعة بين المسلمين والاقباط واليهود ، فكل فئة « تمارس خرافات الفئتين الأخريين مع النفور من مذهبيهما العقائديين مع أنهما أقرب الى العقل والصواب » ؛ تقديس مزارات الصالحين ، وجود طوائف الدراويش وبالذات الرفاعية والقدرية والأحمدية ، والاعتقاد فى التمائم والتعاويذ والاعمال السحرية بمختلف أنواعها (١٤) – وغير ذلك من الملامح التى يعود جانب كبير منها الى مصر الفرعونية كما أوضح ذلك حديثا أحمد رشدى صالح بوجه خاص • (١٥) •

ويرجع الفضل الى الدراسة الدقيقة التى قام بها أحمد رشدى صالح فى اعطائنا صورة واضحة منهجية عن نشوء ومسار التباين الذى ظهر فى صميم شعور الشعب المصرى بين العصر العثمانى والتغلغل الأوروبى • ففترة الانحطاط التى تنتهى بمجىء محمد على ، تتميز فى الأدب الشعبى بموضوعات الخوف والتردد والخضوع ؛ فنحن نجد فيها نموذج الحشاش ، رمز المكر والدهاء ، كذلك نجد الكثير من ملامح السخرية والتهكم ، وحب الشهوات العارم والاسراف فى استعمال الفاظ الحرب والألقاب ، مما يدل على الذلة والعبودية • وشهد القرن التاسع عشر انقسام الأدب والفنون الشعبية الى نوعين كبيرين : « الأدب التقليدى الخاص بالقرية » من جهة وهو يتألف من المراثى والقصص البطولية وكلاهما انتشر عن طريق الرواة

(١٤) E.W. Lane : Manners and customs, 231-315.

(١٥) أحمد رشدى صالح : **الأدب الشعبى** : مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ٢ ١٩٥٤ ، **فنون الأدب الشعبى** • مجلدان ، دار الفكر ، القاهرة ، د•ت (١٩٥٧) ، وقد عمل المؤلف على تنشيط الأبحاث فى مصر فى هذا المجال وقد أسهم فيها الباحثون الاشتراكيون بدور هام وخاصة نخبة من أعضاء « دار الأبحاث العلمية » و « لجنة نشر الثقافة الحديثة » و « الفجر الجديد » بين ١٩٤٤ و ١٩٤٧ •

المحترمين : ثم ، من جهة أخرى · « أدب الفكر الوطنى » وهو أدب المدن التى استيقظت باتصالها بأوروبا والحضارة الحديثة ·

لقد تمكنت عصور العبودية الطويلة من أن تعطى الموضوعات الطبقية ثقلا أكبر مما أعطته للموضوعات التى تعبر عن مرارة الشعب أو مقاومته ؛ مع أن بعض الدراسات الحديثة قد دافعت عن اسطورة السلبية المصرية الوراثية التى لم تتغير (١٦) · فهناك ثلاثة موضوعات كبرى : استحالة ارتقاء العامة الى مستوى المساواة مع الأقوياء ؛ ضرورة تقسيم العمل الاجتماعى بين حاكمين ومحكومين ؛ وبالتالى ، انكار محاولات العامة لتقليد الصفوة · ومع ذلك ، هناك وجه آخر للمشكلة ، ألا وهو رد فعل الضعفاء · وتتمثل فى شعور المواطن بخلو ذات اليد ــ «ديار مصر خيرها لغيرها» ــ مما أدى الى الكثير من ردود الأفعال : التشهير المباشر بالسلب ، ومساوىء السلطة ، والظلم ، وعدم الانصاف في توزيع الثروات ؛ وصراخ الألم في وجه التعذيب ؛ واليأس أمام الشكاوى المرفوضة · وكل شكل من أشكال الشعور ، وكل لون من الأدب الشعبى ، له جمهوره ؛ وهكذا تشكلت نوعيات الفنانين الشعبيين · فاذا بأدب السلطة يخرج محترفين خاضعين لينين ، مهاودين عقيمين ، من مهرجى البلاط الماهرين فى اخفاء فراغ فكرهم بتخريجات لفظية حاذقة · أما الأدب الشعبى فقد أخرج ، شيئا فشيئا ، محترفين هم « دعاة لحياة من حياتين [ممكنتين] ، بأوسع ما تفهم كلمة الحياة ، وكانوا دعاة لنوع من نوعى الأدب ، وكانوا يقومون مقام الصحافة في اعلانها اعلانها وأعلامها ، ومقام المسرح والفن الروائى [المسرحى] فى استحداث الأثر الفاجع المحزن أو السار الساخر ، وكانوا بمثابة المؤرخين ورواة الحكمة والموعظة (١٧) · »

ثم هناك استمرار الموضوعات الكبرى المستوحاة من تاريخ أرض مصر ، (١٨) ، نصادفها فى المواويل التى تعتبر ترانيم شعبية وارستقراطية

---

(١٦) وبوجه خاص :

A. Moret : Le Nil et la civilisation égyptienne, Albin Michel, Paris, 1926, 1956.

سليم حسن : **مصر القديمة** ، ٤٠٤ ــ ٥٠٢ ، محمد العزب موسى : **أول ثورة على الاقطاع** : كتاب الهلال ، العدد ١٨٢ · القاهرة ١٩٦٦ ·

(١٧) أمثلة عديدة يصحبها التحليل فى أحمد رشدى صالح **الأدب الشعبى** : ص ٥٤ ــ ٨٢

(١٨) سعد الخادم : « مصادر بعض التقاليد الشعبية » **المجلة** ، الجزء الثالث (١٩٥٩) العدد ٣٦ ·

فى ذات الوقت مشوبة بالحزن (١٩) · ومن جهة أخرى فقد كرشت الصحافة المصرية مكانا مرموقا للرثاء ابتداء من « **الوقائع المصرية** » التى رثت احدى بنات محمد على عام ١٨٣٠ ـ « ان الموت ما هو الا انتقال ، ولكنه انتقالا من دار الفناء الى دار البقاء (٢٠) » ـ حتى الصحيفة اليومية الكبرى « **الأهرام** » ، تخصص كل يوم صفحة أو صفحتين كاملتين من ثمانية أعمدة للوفيات ·

ان رأى ج · « ماسبيرو » القائل « بأن معتقدات مصر الفرعونية هى التى بقت فى معظم خرافات المصريين اليوم (٢١) » ـ هذا الرأى الذى يلتقى مع دراسات أحمد رشدى صالح وغيره ، يلقى اليوم معارضة شديدة من جانب مجموعة من الباحثين ، بل والجامعيين ، ينادون بعروبتهم ويعتقدون أن من واجبهم تبعا لذلك انكار الخصوصية التاريخية لمصر · ونظرة فاحصة لاحدى مجموعات الامثال فى ذلك العصر ـ وهى مجموعة · ح · ل · « بورخارت » عام ١٨٣٠ ـ يمكنها أكثر مما تستطيع الدراسات الجزئية اللاحقة (٢٢) ، أن تساعدنا فى أن نحسم المناقشة لصالح أنصار الخصوصية المصرية · موقف الشعب المضطهد من قبل الحكام : « اذا ابتليت بظالم جاريه » ، « عاز الغنى شقفه كسر الفقير زيره » ، « أشكى لمين وكل الناس مجاريح » ، « يا بخت من كان النقيب خاله » ، « ضرب الحاكم شرف » ، « أكمن أبوك سنجق داير على حل شعرك » ، « نوم الظالم عباده » ، « اذا اشتد الكرب هان » ، « ياما فى الحبس مظّاليم » ، « يا يموت العبد يا يعتقه سيده » (٢٣) · « محدش يقول يا جندى غطى

---

(١٩) ميلاد واصف : **قصة الموال : دراسة تاريخية ادبية اجتماعية** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦١ ص ٣٢ ـ العدد ٨

(٢٠) رقم ١٧٠ من ٢ صفر ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م)

(٢١) G. Maspéro : Ruines et paysages d'Egypte, Paris, 1910. 159.

(٢٢) حول مؤلفات فترة ١٧٩٨ ـ ١٩٢٥
René Maunier : Bibliographie, IVe Partie Chap, 1, sections 2, 4, 5, 6, 7, 8, 9. p. 290-301; Gabriel Guémard : Supplément; 257-9. أما بعد ١٩٢٦ فهناك J.D. Pearson : Index Islamicus 1906-1955, et Index Islamicus Supplement 1956-1960, et 1961-1965,

(٢٣) أحمد تيمور : **الأمثال العامية** ، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، الأمثلة رقم ٦٣ ، ١٧٩ ، ١٢٩ ، ٢٥٥١ ، ١٢٦٤ ، ٢٢٤ ، ٤٧٥ ، ٩٦ ، ٢٦٠٩ ، ٢٦٣٣ · وانظر كذلك :
J. L. Burckhardt : Arabic proverbs ; or the manners and customs of the modern Egyptians, illustrated from their proverbial savings, current at Cairo, 2e éd., London 1875
وقد صدرت الطبقة الأولى فى ١٨٣٠
16, 21, 36, 52, 60, 94, 103-4; 165; 181; 230-1.

دقنك » ، « يا فرعون ايش فرعنك قال مش لاقى حد يردنى » ، « الأسد الميت ينتفوا له شنبه » ، « اضرب البرىء حتى يعترف المتهوم » ، « ابن الحاكم يتيم » ، «دا العين ما تعلاش عن الحاجب» ، «اللى يبص لفوق توجعه رقبته» ، «ايش عرف الحمير باكل الجنزبيل» ، «الله يلعنك يا زمان خليت للندل كلام وجبت اللى ورى قدام وخليت السيد خدام » الخ (٢٤) ٠

وفى معنى الصداقة ، والاعتدال وحب القيم الانسانية ومع ذلك فان هذا الشعب يدرك معنى الحكم ، فالفوضى دخيلة عليه :

« القفة اللى لها ودنين يشيلوها اتنين » ، « من كل بلاش راح بلاش » ، « الرايب مايرجعش حليب » ، « العشرة ماتهونش الا على قليل الأصل » ، «فقر المرء فى وطنه غربه» ، « السعد وعد » ، «اعمل حاجتى بايدى ولا أقول للعبد يا سيدى» ، «كل شىء وله قانون» ،« اللى القاضى غريمه لمين يشتكى » ، ما يموتش حق وراء مطالب » ، « كل انسان فى نفسه سلطان » (٢٥) ، وفى معنى الصداقة والاعتدال حب القيم الانسانية : « بلاد الله لخلق الله » ، « خد لك من كل بلد صاحب ولا تاخد من كل اقليم عدو » ، « الغربة تعلم » ، « ما نابه من غربته الا عوجة ضبته » ، « ان ماكانش لك أهل ناسب » ، « دور مع الأيام اذا دارت وخد بنت الأجاويد اذا بارت » ، « ازرع قريب وناسب بعيد » ، « اللى له قيراط فى العيله يشيل شيله » ، « مايحمل همك الا اللى فى دمك » ، « نار القريب ولا جنة الغريب » ، « ربك وجارك عالم بحالك » (٢٦) ٠

استسلام وقدرية ٠ ومع ذلك أمل فى المستقبل يمكنه أن يلبى نداء الانسان : « الأعمار بيد الله » ، « اعمل الخير وارميه فى بحر جارى ان ضاع عند العبد مايضعش عند البارى » ، « أعز أيامك أيه يا جحا ؟ لما كنت أعبى التراب فى الطاقية » ، « الايد الواحدة ماتسقفشى » ، « العبد فى التفكير والمولى فى التدبير » ، وكذا انطلاقة أمل فى مستقبل نير : « الاصيل

---

(٢٤) ابراهيم أحمد شعلان : **الشعب المصرى فى امثالف العامية** ، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٥٧ – ٧٢ ٠

(٢٥) أحمد تيمور ، **المرجع السابق** ؛ رقم ١٧٧٦ ، ٢٣٨٣ ، ٧٧٨ ٠
وكذا ، ابراهيم أحمد شعلان ، **المرجع السابق** ، ص ٧٣ – ٨٣ ٠

(٢٦) ابراهيم أحمد شعلان : **المرجع السابق** ، ص ٨٠ – ١٥١ ٠

ما يعيبش » ، « ايد على ايد تساعد » ، « القعدة على الكوم ولا الحوجة للعدو يوم » ، « الضرب بالطوب ولا الهروب » ، « بلاد الله لخلق الله » (٢٧) ٠

وهناك دراسات لاحقة ، أى أحدث من هذه الدراســـات ، تؤكد استمرار الشخصية المصرية ، شخصية الفراعنة ، فى العصور الحديثة ٠ فنفس الموضوعات تعود مع اختلافات بسيطة فى أساليب التعبير ٠ أولا : الاضطهاد ، أورد أحمد تيمور (٢٨) : « ايش عرف الفلاح بأكل التفاح » « اللى تشوفه راكب على العصا قول له مبارك الحصان » ، « ان فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » ، « اذا كان لك عند الكلب حاجة قوله يا سيدى » ... الخ ، وفقا لما قاله أحمد أمين (٢٩) ٠ وقال تيمور عن الصداقة والحب : « حبيبك يمدغ لك الزلط وعدوك يتمنى لك الغلط » ، « اعشق غزال والا فضها » ، « البركة فى كتر الأيادى » ، « اشترى الجار قبل الدار » ، « خذ الرفيق قبل الطريق » ، « حط رأسك وسط الروس تسلم » ، « من فات قديمه تاه » ، « وعد الحر دين عليه » ، (٣٠) ٠ وكذلك أحمد أمين : « ان كان حبيبك عسل ما تلحسوس كله » ، « خذ من الزرايب ولا تأخذ من القرايب » (٣١) ٠ وعن الحكمة وحب العمل والمعرفة : « من نصح جاهل عاداه » ، « يموت المعلم وهو يتعلم » ، « اسأل مجرب ولاتسأل طبيب » ، « العلم فى الصدور مش فى السطور » ، « العلم فى كل زمن له قيمـة وثمن » ، « ازرع كل يـوم تـأكل كل يـــوم » ، « لاقينى ولا تغــدينى » (٣٢) ٠اللى أوله شرط آخره نور » ، « بيت النتـــاش ما يعلاش » ، « القرش الأبيض ينفعك فى اليوم الأسود » (٣٣) ٠ والظلم والاستسلام والمقاومة : « ديوان بلدنا ولا القمح الصليبى » ، « الجــوع

---

(٢٧) ارجع الى أعمال أحمد تيمور وأحمد أمين وابراهيم أحمد شـــعلان المذكورة ، وأحمد رشدى صالح : **الأدب الشعبى** ، مكتبة النهضة المصرية ، القـــاهرة ١٩٥٤ وكذا : **فنون الأدب الشعبى** ، ج ١ و ٢ ، دار الفكر ، القاهرة ،د٠ت ، ١٩٥٦ ٠

(٢٨) أحمد تيمور : **الأمثال العامية** ، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٤٩ أمثال رقم ٢٥٨٨ ، ٢٥٩٧ ، ٢٢٣ ، ٥١١ ، ١٠٦

(٢٩) أحمد أمين : **قاموس العادات والتقاليد والعامية المصرية** ٠ لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٣ ٠

(٣٠) أحمد تيمور : **الأمثال** : ٥٢٣ ص ٦٢ ــ ٦٣ ــ ٢٦٩ ــ ٥٧١ ــ ٢٢٦٧ ــ ٢٥١٥

(٣١) أحمد أمين **قاموس العادات** : ٧٤ ــ ٦٥ ٠

(٣٢) أحمد تيمور : **الأمثـال العامية** ، ٢٣٧٨ ، ٢٦٨٩ ، ١١٥ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١١٣ ، ٢٠١٣ ، ١٨ ٠

(٣٣) أحمد أمين : **قاموس العادات والتقاليد** ، ٥٦ ، ٦٩ ، ٦٢ ٠

كافر » ، « العين بصيرة والايد قصيرة » ، « فقر المرء فى وطنه غربة » ، « ما وراء الصبر الا القبر » ، « ناس ياكلوا البلح وناس يترموا بنواه » ، حداية من الجبل تطرد أصحاب الوطن » (٣٤) ٠ « من جاور الحداد يتحرق بناره » ، « قيراط بخت ولا فدان شطارة » ، « من لم يأخذ تاره النار أولى به » (٣٥) ٠ ويغدو الأمل معقودا على المستقبل والحرية : « بلاد الله لخلق الله » (٣٦) ٠

ويرجع الفضل الى سيريس ويصاواصف فى حصر هذه الاستمرارية فى مجال محدد ، وهو مجال الشعائر الدينية والغذائية عند الأقباط (٣٧) ٠ ان اختيار الموضوع فى حد ذاته موح وكاشف ، فهو يجمع بين الاقتصاد والايديولوجية ، كما أن القطاع المدروس ، وهو الأقباط (٣٨) ، يسمح أكثر من غيره بتوضيح هذه الاستمرارية ، حيث أن الاقباط ، كمجموعة دينية ، يمثلون الرباط الحى بين مصر الفرعونية ومصر اليوم ٠ ان دراسة التقويم ، والمشروبات الموسمية ، والأسواق ، والاحتفالات العائليـــة ، والأعياد ، وأخيرا ، التحليل المفصل للأمثال المتعلقة بالطعام ، كل ذلك يؤكد بشكل واضح استمرار التراث الفرعونى فى الحياة اليومية عند الأقباط ، من جهة ؛ ومن جهة أخرى يوضح الاسهامات العربية الاسلامية بالنسبة لمصر منذ عام ٦٤٠ ؛ ثم التأثيرات المتبادلة بين التراث المصرى

---

(٣٤) أحمد تيمور : **المرجع الســابق** ، ١٠٦٦ ، ٤٨٨ ، ٢٥٢٢ ، ١٦١٩ ، ١٢٧٦ ، ٢٤٣٧ ، ٥٣٤ ٠

(٣٥) أحمد امين : **المرجع السابق** ، ٦٩ ، ١١١ ٠

(٣٦) أحمد تيمور **المرجع السابق** ، ٣١٧ ٠

(٣٧) Cérès Wissa Wasset : Pratiquesrituelles et alimnetaires des coptes, legs et survivances du passé pharaonique, th. Pa is, 1968,

(٣٨) « تستعمل كلمة « قبطى » للدلالة على المسيحيين من سكان مصر الأصليين : وهى كلمة مشتقة من اسم مصر باللغة اليونانية وهو « ايجبتوس **Aegyptos** ان أصل هذه الكلمة ، التى تأتينا من اليونانية عبر اللغة اللاتينية ، مفقود الأثر تماما فى ظلمات المرحلة السابقة على حضارة اليونان ٠ والمعروف أن مدينة ممفيس جرت تسميتها من العامة باسم « هيكوتباه **Hikuphah** (أى قصر « كا » فى « بتاه ») ٠ وحســـب فرضية مقبولة ، التى تشمل اذا ميناء النيل الرئيس وكذا المملكة الممتدة شمال الشــلالات الأولى بأسرها » ٠

(J. Yoyotte in Georges Posener, Serge Sauneron et Jean Yoyotte : Dictionnaire de la civilisation égyptienne, Fernand Hazan, Parìs, 1959, 971), «La corruption du terme par les Arabes, en supprimant la premìère syllabe «AE» donna Gyptos (Coptos) Copte.» C. Wissa Wassef : Ibid., 1).

وهذه الاسهامات · فاذا كانت قد أثرت ونوعت كثيرا من مظاهر الحياة اليومية ، فانها لم تفصم هذه الاستمرارية ، فكل شيء يتم وكأن هذه التأثيرات الجديدة تدور حول محيط الدائرة وعلى سطحها ، فالعادات والطقوس والتقاليد تجد طريقها للمرة الثانية فى لغة جديدة ، وهذه اللغة الجديدة نفسها تنقل الأسماء والمسميات ، مكتوبة هذه المرة باللغة العربية · ومن ثم كان مجديا البحث عن أصل الكثير من الكلمات ، عن مفردات لغة كاملة فى اللهجة العربية المصرية اليوم · مفردات أصولها ليست عربية ، وجزء صغير منها فقط مشتق من أصول تركية وفارسية · أما الجانب الأعظم فهو عبارة عن كتابة بالحروف العربية لمقطوعات لفظية مصرية قديمة من اللهجة الشعبية (الديموطيقية) ، بعد عصر النسخ اللغوى القبطى (٣٩) · لقد بقى الجوهر · وارتضت هذه الاستمرارية عن طيب خاطر بعض التغيرات ·

وقد حدث الشيء نفسه فيما يتعلق بالملابس ، ففى حوالى ١٨٤٠ حرم السلطان على بلاطه ارتداء القفطان والعمامة واستبدل بهما الطربوش والرداء الاستمبولى وهو نوع من رداء التشريفات للسهرة (الردنجوت) : وفى القاهرة ظل القفطان قاصرا على علماء الدين والمشايخ · وفى النصف الثانى من القرن بدأت نساء الطبقة الراقية — نحن مازلنا فى المدن — تستعملن الملابس الداخلية الأوروبية ثم التنورات والفساتين الحريرية والمخمل التى شاعت فى عصر نابليون الثالث (٤٠) · وتطلعنا الصحافة على المكانة الكبيرة التى كانت تشغلها مسابقات الخيل بين الوان اللهو والتسلية فى البلاط حوالى عام ١٨٦٨ (٤١) ·

كذلك طرأ تغيير على الرقص الشرقى : فقد عمد محمد على الى نفى الراقصات المحترفات — العوالم والغوازى — لاعتقاده أنهن مرتبطن بالمماليك فى الصعيد ، وخاصة فى اسنا · ومع ذلك فقد استمرت احدى المدارس تواصل عملها حتى عام ١٨٥٢ بالقرب من شبرا خيت حيث كان يتم

---

(٣٩) اننا مدينون لذكرى الأستاذ الدكتور جرجس متى ، الذى شغل سنوات طويلة كرسى اللغة المصرية القديمة ومنصب مدير معهد الأثار المصرية فى كلية الأداب بجامعة القاهرة ، بعديد من المؤشرات الهامة حول هذا الميدان الذى كان يؤثره بوجه خاص · ونجد بعض ملامحها فى منشوراته النادرة · واننا نحتفظ بذكرى هذه المحادثات التى مهدت لصداقة طويلة · وقد أثبت أحمد رشدى صالح هذا المفهوم علميا فى مجموع مؤلفاته ·

(٤٠) سعد الخادم : **تاريخ الأزياء الشعبية فى مصر** ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦١ ص ٣٥ ·

(٤١) أحمد عبده ، **تاريخ الوقائع** · ص ٧١ — ٧٢

تدريب الراقصات من سن العاشرة ، ليصبحن عوالم حقيقيات • ويصف « سان جون بايل » جمالهن ، وفنهن واثارتهن وكذلك ذكاءهن ، وكانت صحبتهن تحظى بعين الاعتبار فى المجتمع الراقى (٤٢) • ويختم سعد الخادم دراسته بالتحدث عما تبع ذلك من اضمحلال للرقص الشرقى الذى أصبح حرفة الغجريات اللاتى يرقصن حافيات الأقدام ، مكشوفات الأجسام ، رقصات القلة والنحلة والعصى فى مدن الصعيد ، المنيا وأسيوط والأقصر والكرنك ، قطعت السوقية والذوق السقيم على رهافة ذوق البلاط (٤٣) • ومع ذلك فقد حافظت شفيقة المصرية على التقليد القديم فى أحد الصالونات التى كانت يتردد عليها كبار القوم على عهد اسماعيل •

ومن جهة أخرى فقد أثارت ظاهرة التسول سخط الولاة خصوصا انها كانت تشوه منظر المدن • واستمرت طائفة المتسولين بعد محمد على ، وكان قد جمع أربعمائة منهم فى ملجأ خاص • ولكن ، كيف يمكن السماح بمؤسسة تحمل هذا الاسم فى بنود ميزانية حديثة ؟ ويبدو أن تغيير هذا الاسم الى « منشدى (أبو زيد) » الذى ظهر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر يعود الى اسماعيل (٤٤) • ولكن قد يكون من المغالاة أن نخلص من ذلك الى أن موجة التسول قد خفت فى تلك الفترة بصورة ملموسة • أما خارج المدن فلم يتم شىء يجعل مصير الفلاحين أكثر انسانية ، الفلاحين المعزولين فى الغرب حيث ظل الوضع الانسانى شبيها بما كان عليه فى العصور القديمة (٤٥) • كان الهدف هو صقل واجهة المدن حيث تقيم الطبقات الخاصة الجديدة •

---

(٤٢) St. John Bayle : Village life in Egypt with shetches of the Saïd, 2 vol., London, 1832.

(٤٣) سعد الخادم « الرقص الشعبى ومصادره » **المجلة** ، فصل ٤ (١٩٦٠) العدد ٤٥ ص ٨٣ – ٩٠ • راجع أيضا ، « مورو بيرجير » : « الرقص الشرقى » ، حوار ، العدد ١٩ ، نوفمبر – ديسمبر ١٩٦٥ ، ٨٠ – ٩٥ • ودراسة هامة ل

Y. Senn-Ayrout : «La magie et la sorcellerie dans l'Egypte ancienne leurs survivances dans l'Egypte actuelle», Cah. hist, ég., vi (1954) 60-75,

خاصة حول دور الأجيال المتعاقبة لرجال الدين ، وكذا الزار ، الخ

(٤٤) Kamel A. Greiss : «La mendicité en Egypte et sa répression», Eg. Contemp., vii (1916), no 26, 202-27 (205).

(٤٥) V.M. Mosseri and C Audebeau bey : "Quelques mots l'histoire de l'Ezbeh égyptienne», Bull, de l'Inst. d'Egypte, 3, 1921, 27-448.

وعلى الرغم من كل شيء ، فان القصر كان الدعامة الاساسية فى مبادرة بلغت اليوم أوجها ، الا وهى اقامة المسرح الذى سنعود اليه فيما بعد .

والانتقال من المسرح الى الموسيقى أمر سهل : وكان تأسيس الأوبرا هو القمة التى بلغها هذا الشوط . وكانت الموسيقى الشعبية فيما مضى تقوم على مظاهر متعددة الألوان : أناشيد المولد النبوى ، ورؤية هلال رمضان ، وتواشيح السهرات الرمضانية ، ومختلف الاحتفالات الدينية والحج ، والاحتفال بفيضان النيل — « البحر زاد عوف الله » — وحفلات الزواج والدور الخاص بالراقصات والعازفين (الآلاتيه) بآلاتهم (القانون؛ الكمنجة ، الرباب ، الناى ، التخت ، الدربكة ، الأرغول ، الطبل البلدى ؛ الطبل الشامى ، النقاقير ، الباز ، الصاجات) وحفلات الميلاد ، والختان ، وأغانى الطوائف المهنية ، وألحان المنشدين الشعبيين . وكان الغناء يتخذ أشكالا عدة : أولا ، الموشحات بالعربية الفصحى ، وخليط من التركية والعربية ، واللهجة الدارجة ؛ ثم القصص الملحنة ، خصوصا المعروفة باسم الدوبيت التى تصور العصور الماضية ، ثم الموالى أو المواويل وهى من نوع الموشحات المسلية الساخرة والأغانى الشعبية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر نفسه لتصور الحياة اليومية فى ذلك العصر (٤٦) .

ومع الحملات الحربية التى قام بها محمد على واسماعيل ظهرت الموسيقى العسكرية والأناشيد الوطنية وبوجه خاص بتشجيع من محمد ذاكر (١٨٣٦ — ١٩٠٦) الذى أصبح قائدا للموسيقى الخديوية ومدرسا للموسيقى والأبواق قبيل ثورة ١٨٨١ (٤٧) . ونحن ندين بأفضل أناشيدنا الوطنية لكل من أحمد رشدى وكامل المصرى مؤلفى « نعيش لمصر ونسعى لها » ، ثم مصطفى الرافعى ومنصور عوض مؤلفى « اسلمى يا مصر اننى الفدا » (٤٨) .

وبقيام الاوبرا يتم دخول الموسيقى الأوربية الى مصر بصورة رسمية : فقد طلب اسماعيل من « فردى » ، بوصفه موسيقار الثورة الايطالية « ريزور جيمنتو » أن يضع ألحان « عايدة » احياء لمجد مصر ،

---

(٤٦) محمد أحمد الحفنى وابراهيم شفيق : **تراثنا الموسيقى** : اللجنة الموسيقية العليا القاهرة (١٩٤٥) جزء أول ص ٥٨ — ٧٠ .

(٤٧) نفس المؤلف : **نفس المرجع** ، ٧١ .

(٤٨) فكرى بطرس : **الأغنية الوطنية فى مختلف العصور** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة : (١٩٦٣) ص ٦٣ — ٦٤ .

كما وضع النشيد الوطنى المصرى • وفى ذلك الوقت قام السيد محمد شهاب الدين ، وهو شاعر وموسيقى ، بجمع ما يقرب من ٣٥٠ موشحا فى « سفينة شهاب » التى أصبحت مادة لبعض الموسيقيين من أمثال مبروكة الغنية ومصطفى العقاد وخطاب وحسن الجاهلى ، ومحمد عبد الرحيم المسلوب ومحمد المقدم (٤٩) • وفى تلك الفترة بدأ عبده الحامولى (١٨٤٥ ـ١٩٠١) حياته الفنية الطويلة الحافلة حيث طوع الاسهام التركى الحديث للتراث المصرى ؛ وارتبط الحامولى « زعيم المحدثين فى الموسيقى المصرية » بمنزل الخديوى ، ودون أن يحاول تقليد أوربا استطاع أن يهذب الغناء التقليدى وأخذ صوته الذى لا ينسى ، على حد قول معاصريه ، يغزو به الصالونات وقلوب الجماهير (٥٠) •

ويتأمل صبحى وحيده تلك الفترة ، بعد قرن من الزمان ، ويعرض صورة التمزق الذى نتابع هنا تطوراته على المستوى الشعوزى : « وهذا المجتمع يرث عن ماضيه فكره العربى وضميره الاسلامى • ونظمه المغولية ، فى حالة ثقيلة من الفساد الذى دب اليها جميعا تحت الدولة التركية ، ويخضع لتأثير هذه الحضارة الغربية البراقة ، التى تكونت بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر (•••) • ان الأمر فيما عليه حالتنا الراهنة هو قبل كل شىء أمر فقر الدم الذى أصاب أطراف مصر جميعا بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ، فحد من نشاطها الاقتصادى ، وهبط بحياتها الاجتماعية الى الحضيض ، ودفع بفكرها الى الجمود الأزهرى (٥١) • »

ويهمنا هنا روح الصورة التى ستكون عناصرها الفكرية موضوع الفصول التالية : تمزق بين الماضى والحاضر ، بين أرض الوطن والتدخل الأجنبى ، بين الخاصة والعامة ، بين الذهب والطين • فأين نصادف ، اذا كان من الممكن أن نصادف ، عامل توحيد على مستوى الشعور الوطنى ؟ قد يكون من الضرورى أن نذهب الى النهاية ، الى حدود الحياة

---

(٤٩) م•أ• الحفنى وا • شفيق **تراثنا الموسيقى** : ص ٧٢ ـ ٧٣

(٥٠) عبد الرحمن الرافعى : **اسماعيل** ، ٢٨٨ ـ ٩ ، وحول المجموع ، مدخل جيه لم•م مشرفة :
"Music Eastern and Western», The Egyptian Institute, London, 1948.
وعن الحامولى فى نظر معاصريه : « عبده الحامولى ، المغنى المصرى الشهير » ، **الهلال** ، (١٩٠١) العدد ١٨ ، ٥٠٦ ـ ١٥ •

(٥١) م• صبحى وحيدة : **فى أصول المسألة المصرية** ، ٢٥٩ ـ ٢١٠ ، ٢٢٤

والموت ـ هذا الموت الماثل الحاضر أبدا فى أعمق أعماق الشعور المصرى ، على مر العصور ٠ الحياة ؟ الموت ؟ وبعد قرن من الزمان أيضا ، نجد أحمد حسن الزيات ، الذى ينهج فى كتاباته نهج محمد عبده ، يتأمل أيام العطلة الاسبوعية فيقول : « فى يوم السبت ، ينبعث فى المسكن اليهودى تاريخ اسرائيل بأساطيره وتقاليده وعقائده (٠٠٠) وفى يوم الأحد يحول المسكن المسيحى الى عرس أنيق مترف (٠٠٠) وفى يوم الجمعة يصبح المسكن الاسلامى عابسا كالكهف (٥٢) ٠ »

ويلفت اهتمامه بوجه خاص مثال المسيحيين فى مصر يحتفلون بعيد النيروز :

« أنظر كيف يولد العام المسيحى فى بقاع الأرض ٠ انه يولد كما يولد الأمل المعسول فى النفوس المرحة الغضة » ؛ وفى مقابل ذلك يعرض مثال الاضمحلال الاسلامى : « الدين اليوم شعائر من غير شعور ، وتقليد من غير فهم ، واعتقاد من غير تطبيق ، وشعوذة من غير حقيقة ، وأحكام من غير حكم (٥٣) ٠ » وحينئذ يستدير صوب أرض مصر ويكتشف عمق وحدة الشعب والشعور الشعبى متمثلا فى عيد الربيع ، عيد شم النسيم : « اليوم يا صديقى يوم شم النسيم ! وشم النسيم فى مصر هو عيد الطبيعة والناس ٠ والناس الذين يعيدون هذا العيد هم سكان هذا البلد الأمين من كل جنس ونحلة ٠ وهو بهذه الخصيصة يكاد لا يشبهه عيد من أعياد الأمم فان أعياد الأمم اما أن تقوم لذكرى دينية فتكون لأهل هذا الدين ، واما أن تقوم لذكرى وطنية فتكون لأهل هذا الوطن ٠ أما عيد شم النسيم فهو عيد انسانى اشتراكى سمح ، يفتح قلبه لكل دولة ، ويخلص حبه لكل ملة ، يبذل أنسه لكل جنس (٠٠٠) ٠ فى هذا اليوم وحده من دون أيام السنة تغلق القاهرة دواوينها ومدارسها ومتاحفها ومصارفها ومتاجرها ومصانعها وحوانيتها ٠ ثم تخرج الى الرياض والخلوات ، خروج الحجيج الى عرفات ؛ ولكنه حجيج وثنى لا يؤمن فى ذلك اليوم الا بأفروديت وباخوس ٠٠٠ (٥٤) ٠ »

وعن شم النسيم تقدم سيريس ويصا واصف هذه اللوحة :

---

(٥٢) « يوم الجمعة » **الرسالة** ، ٧ مايو ١٩٣٤

(٥٣) « من أحاديث النيروز » ١٢ **الرسالة** ، ١٣ يناير ١٩٣٦

(٥٤) « شم النسيم » ، **الرسالة** ، ١٥ ابريل ١٩٣٨ ، وأيضا
Manners and customs, 495.

« من بين جميع الأعياد المصرية ، يعتبر شم النسيم أو عيد الربيع أكثرها شعبية ؛ ويشارك فيه كافة الشعب تقريبا ؛ وهو مرتبط بالتقويم القبطى ، لذلك فهو يقع دائما يوم الاثنين بعد عيد الفصح ، أى أول أيام الخماسين · ومع ارتباطه بعيد الفصح فان شم النسيم عيد وطنى من أعياد الطبيعة لا يتضمن أية احتفالات دينية ؛ ولكن فكرة بعث المسيح فى التقويم المصرى تظل مرتبطة برباط وثيق بفكرة العام الجديد ؛ ولا جدال فى أن بعض شعائر هذا العيد تعتبر من بقايا أعياد الربيع الوثنية ، ولعل هذا التأثير هو الذى جعل عيد الفصح ، الذى كان يحتفل به فى بداية العصر المسيحى بأسبوع صوم وتوبة ، يفقد طابعه القديم من حزن وانطواء ليصبح يوم خلاص وابتهاج · فما هو أصل هذا العيد ؟ تنقصنا التفصيلات لكى نقدم اجابة دقيقة · لقد رأينا أن المصريين القدماء قد أقاموا تقويمهم طبقا للظواهر السماوية التى راقبوها ، فى ارتباطها بفيضان النيل وعودة الفصول ؛ وكان يتخلل العام أعياد كثيرة مرتبطة بالعام الجديد ، ومطلع كل شهر ، وفيضان النيل ، وبداية الحرث والحصاد (···) · ولابد أن أحد هذه الأعياد كان يقع عند انتقال الشمس من نصف الكرة الجنوبى الى نصفها الشمالى فى فترة تعادل الليل والنهار فى الربيع والتى كانت تتفق وعودة النباتات · وان المسيحيين ، بدورهم ، الذين حافظوا على الاحتفال بالفصح اليهودى ، ومع تزايد الانفصال بين الدينين ، قاموا بتجريده من مضمونه اليهودى البحت ليحلوا مكانه شعائر وطقوسا تتفق والمعتقدات الجديدة ؛ مما جعلهم لا يحتفلون كذلك بعبور البحر الاحمر ، وانما احتفلوا بالعبور من الموت الى الحياة الأبدية · أما المصريون الذين حافظوا على الاحتفال بعيدهم الخاص بالطبيعة ، فقد اضطروا أن يجعلوا عيدهم العام يأتى فى اليوم التالى لأحد الفصح حيث كان الناس ، خلال الأسبوع المقدس ، ينشغلون فى الكنائس بالاحتفال باسبوع الآلام · مما يتكون هذا العيد ، عيد شم النسيم الباقى أبدا ؟ تختلف العادات باختلاف المناطق · ففى القاهرة يستيقظ الناس فجرا وبمجرد مغادرتهم الأسرة يقومون ، صغارا وكبارا ، باستنشاق بصلة خضراء مسحوقة فى قليل من الخل · وفى هذا اليوم يبادر جميع سكان العاصمة ، دون اعتبار للسن أو الجنس أو الدين ، بالخروج من دورهم ليستنشقوا النسيم فى الحدائق العامة ، أو فى الريف ، أو فى قوارب فى النيل · وتسير الجماهير الغفيرة فى الشوارع وتغزو كل فضاء أخضر ؛ تغنى وترقص وتقذف مواد مفرقعة ، وتضع على روسها قبعات من الورق ذات ألوان صارخة ، أو تكدس فوق عربات الكارو التى يجرها الحمير ؛ ويخترق الباعة المتجولون كتل الناس ليبيعوا

لهم الملانة والحس والترمس وغيرها من المسـليات ؛ ويتنـاول الناس غذاءهم عادة فى الخلاء ، فى الهواء الطلق ، فى الحقول ؛ وأكثر الحدائق جذبا للجماهير هى تلك التى تحيط بقناطر القاهرة ٠

وفى هذا اليوم يستهلك الناس الكثير من البيض الملون ومحشى ورق العنب والملوخية المطبوخة بالأوز أو البط ، والفسيخ والبصـــل الأخضر ، بالاضافة الى فواكه الموسم ٠ كذلك فان استهلاك المشروبات الكحولية يسـجل رقما عاليا وغالبا ما يكون مصـــحوبا بالاسراف فى الشراب ٠ والمأكولات التقليـدية فى هـذا اليوم هى البيض والفواكه والسمك المملح ، وخاصة البصل والثوم (٥٥) ٠ »

ان وحدة الشعور المصرى التى اصيبت بتمزق شـــديد بســبب « الموجة الغربية » والمتطلبـات المتناقضة للنهضـة الوطنية ، تتجلى ، ويستمر تواصـــلها فى هذه التسبيحة العظيمة الدائمـة للحياة ، فى مواجهة ، وضد كافة الأحزان ٠

---

(٥٥) C. Wissa Wassef : Prat, rit. alim, coptes,

« يقول كاتب زكى انه من الممكن معرفة الاستعدادات الطبية لكل أمة الى حد ما من خلال العبارات التى يستعملها الأفراد اذ يلتقون بالسلام والتحية والسؤال عن أخبـار الصحة (٠٠٠) ان طريقة سلام المصريين تظهر ميلهم الى الهدوء الكامل نفسـيا وشـعوريا ٠ فالمصرى الذى يلتقى بشخص آخر يناديه : السلام عليك ، واضعا يده اليمنى على قلبه » «
(Breton : L'Egypte et la Syrie, ou moeurs, usages, costumes et monuments des Egyptiens, Paris. 1814, III : 192-3).

وكذ نجد العديد من وصف الوقائع والتحليلات فى
Winfred S. Blakman : The fellâhîn of Upper Egypt, their religious, social and industral life, with special reference to survivals from ancient times, George H. Harrap, London. 1927, Frank Cass, 1968.

القسم الثانى ــ بدايات الحركة النسائية

ان دراسة وضع المرأة فى مصر فى القرن التاسع عشر لا يمثل ، بوجه خاص ، موضوع دراستنا ، وانما ينصب اهتمامنا على الحركة الفكرية المرتبطة بهذا الوضع والتى ستكون دعامة النهضة النسائية فى أوائل القرن العشرين ٠

ان الشواهد كثيرة ، وأحيانا متناقضة وهى تندد بعبودية المرأة وبوجه خاص فى المدن ٠ وتتمثل العبودية باختصار فى عزلة المرأة وكونها أداة متعة ؛ ففى الريف حيث ظروف الحياة أقسى بالنسبة للجميع، تشارك المرأة الفلاح فى مصيره ، وتقوم فى ذات الوقت على خدمته وتوفير المتعة له ٠ وكل الظروف تساعد على ذلك ، وليس فقط ما يقال عن وضع المرأة فى البلاد الاسلامية ٠ فنحن فى خضم تكوين اجتماعى ــ اقتصادى فى دور انتقال ــ من الاقطاع الشرقى الى الرأسمالية المتخلفة ذات الطابع الزراعى الخاضعة للاطار الاستعمارى ٠

والعادات والتقاليد هى تلك الخاصة بالاقطاع الشرقى حيث تأخذ الأبوية على عاتقها جميع التقاليد الناتجة عن التفسيرات الدينية السلفية ٠ ومع ذلك فيجب أن نتذكر أن مصر الفرعونية هى موطن ازدهار المرأة وتألقها وتمتعها بالحرية الواسعة والمساواة الواقعية والقانونية ، وفيها كان حكم حتشبسوت ونفرتيتى ، والفن الذى مجد المرأة على قدم المساواة مع أشهر الفراعنة ٠ ولكن ما أن طويت هذه الصفحة حتى أصبح « وضع المرأة صورة من وضع مصر » ٠ وسوف تحدد جدلية العبودية أن « وضع المرأة فى البيت سيصبح هو وضع الرجل المصرى فى الحقل ، أو فى المتجر ، أو فى المكتب ٠ فى حين سيظل الشباب المصرى متأثرا بالبيت فى كل مراحل تطور مصر الحديثة ٠ والواقع أنه لا توجد « مسألة مصرية » لا تأخذ فى الاعتبار المرأة المصرية (١) ٠ » وهل تختلف الحال فى غير مصر ،فى أى مجتمع تقليدى ، بل وفى أى مجتمع فى أى عصر ؟

ستكون الخلفية اذن هى تلك التى يتسم بها هذا المجتمع الذى

(١) Elizabeth Cooper : The women of Egypt, Hurst and Blackett, London, 1914, 22.

وصفناه • وينبغي أن نضيف الى ذلك البعد الاجتماعي الخصوصي للاسلام في مصر في القرن التاسع عشر • فالمرأة « أيا كانت اهتماماتها الظاهرية (•••) تشغل مكانة عظيمة في منزل الأسرة ، سواء في مجال تربية الأولاد أم في ادارة المنزل • » هذا ما أورده مراقب أجنبي ، متحفظ ، يعدد مزايا المرأة الشرقية ويعبر عن سروره اذ يراها تجهل « ما تسميه الغربيات الحرية » (•••) ، لحسن حظهن (٢) • » ولكن الأهم هو أنه « لا توجد نساء في مجتمع الرجال ولا رجال في مجتمع النساء ، أي أنه لا يوجد هناك مجتمع بالمعنى الكامل لهذه العبارة : فالرجال يجتمعون ويلهون ويتزاورون فيما بينهم ، وكذلك تفعل النساء فيما بينهن » ؛ ويستطيع الزوج أن يطلق زوجته دون أن تستطيع هي ذلك (٣) • ويقدم لنا «أدواردالين» صورة تفصيلية دقيقة عن الحياة اليومية للمرأة في الطبقة الراقية ، ثم في الطبقات الأدنى في المدن ، وهي تؤكد العزلة ونظام الحريم ، وتركز على المآسي التي تنتج عن الطلاق أكثر مما تنتج عن تعدد الزوجات ، وفيما عدا هذه النقطة الأخيرة ، يوضح أن وضع المرأة القبطية لا يختلف اختلافا كيفيا (٤) • ومع ذلك فان « جيرار دي نرفال » ، الرحالة المولع بكل غريب أجنبي ، ينخدع بالرونق الخارجي فيكتب عام ١٨٤٦ قائلا : « اليس مما يبعث على الأمل في هذا البلد الذي نعتقد أن النساء فيه سجينات ، أن تقدم لنا الأسواق والشوارع والحدائق النساء بالآلاف سائرات وحدهن أو في صحبة طفل ؟ الحقيقة أن

(٢) Alfred Nançon : «La condition des femmes dans l'Islam», Revue de l'Islam, iv (1899), 97-9; 113-7 (97-8).

(٣) على كمال : « وضع المرأة المسلمة » ، **مجلة الاسلام** ، الجزء السابع ، ١٩٠٢ ، ٩٧ ـ ١٠٩ ، ١١٦ ـ ٢٠ (٩٨ ، ١١٧) • وحول الزنا في تلك الحقبة وحتى انشاء المحاكم الجزائية في ١٨٨٣ : « ان الشخص المسلم الذي يثبت عليه ارتكاب الزنا يعاقب بالموت ، ويجرى تنفيذ الحكم بالرجم بالحجارة الذي يقوم به أهل المدينة الذين يجتمعون لهذا الغرض • أما الشخص غير المتزوج والمتواطيء في الزنا فيعاقب بمائة جلدة • والدليل الوحيد المقبول في تثبيت الزنا هو اعتراف المذنبين والاثبات بالشهود » ، ويدعم هذا الاثبات أربعة شهود أحرار ، خلال أربع جلسات في المحكمة ، (•••) حقا ان صرامة القانون الاسلامي قد خفت وقل الشعور بها بسبب حق الطلاق الذي كان الأزواج يسرفون في استخدامه • » ميخائيل سليمان :
(La répression de l'adultère en Egypte, Paris, 1925, 27-35).

(٤) Manners and customs of the modern Egyptians, 141-79, 489-511.

ثم حول هذه النقطة الأخيرة ،
Mahmoud Bikheet El-Rabie : **Women writers and critics in modern Egypt 1888-1963, Ph. D. Univ. of London, 1965.**

الأوربيات لا يتمتعن بمثل هذه الحرية : صحيح أن النساء المرموقات يخرجن ممتطين الحمير ، ولكن مثيلاتهـن من نسـائنا لا يخـرجن فى الغالب الا فى العربات • أما الحجاب فلعله لا يمثل الحاجز القاسى الذى نتصوره (٥) • »

أما فى الريف ، وعلى الرغم من الاسطورة الشائعة التى يؤكدها الرحالة والمستشرقون ، فيبدو أن وضع المرأة يختلف اختلافا طفيفا • ويرى « ونفريد بلاكمان » أن « المكانة الدنيا التى تحتلها الفلاحات فى المجتمع الريفى بالنسبة للرجل تعتبر نتيجة طبيعية لأهميتهن العظمى•» ان القيود الأولية التى تمس الحرية لا تظهر الا فى سن البلوغ ، ونستطيع أن نؤكد ، طبقا للعديد من الملاحظات ، « أنه على الرغم من اعتبار النساء نظريا فى مكانة التابع بالنسبة للرجل ، ففى استطاعتهن عمليا ، كمـــا يفعلن غالبا ، السيطرة الشديدة على أزواجهن • لقد عرفت الكثير من الأزواج الذين كانوا يعيشون فى فزع ورعب من زوجاتهن • اننى فى الواقع أميل الى الاعتقاد بأن الرجل المصرى المضطهد هو الأحق بالعطف وأن الزوجة الخاضعة المضطهدة خرافة • (٦) » ونظرة على أمثال ذلك العصر تؤكد ذلك : « سره لامرأته يا طول عذابه ومشقاته » ؛ « خد من الزرايب ولا تأخذ من القرايب » ؛ « بوس ايد حماتك ولا تبوس ايد مراتك » ؛ ولا سيما « خد لك راجل يبقى لك فى الليل غفير وبالنهار أجير » (٧) • » وليس هناك أبلغ من ذلك • وتوضح سيريس ويصا واصف الى أى حد تعتبر المرأة موضع اهتمام أثناء الحفلات العائلية المختلفة – من الميـــلاد الى الموت – ومدى أهمية دورها ، وكيف أنه دور رئيسى (٨) •

لم يجلب الطهطـــاوى من باريس أفكار عام ١٧٨٩ ودروس ثورة يوليو ١٨٣٠ فحسب • فان « **تخليص الابريز** » (١٨٣٤) يعكس مشاهد الحياة اليومية فى باريس حيث تصول المرأة وتجول فى عالم من الحرية، والفتنة ، والتقدير ، سعيدة بكونها محط أنظار الرجال وموضع اهتمامهم ، وأبعد نفوذا من رفيقاتها حاملات مفاتيح السراى •

(٥) Gérard de Nerval : «Les femmes du Caire», Revue des Deux Mondes, 1er juillet, 15 sept. 1846, in Voyage en Orient; Charpenier, 7 éd., Paris, 1869, I : 85-6.

(٦) W. S. Blackman : Fellâhîn of Upper Egypt, 36-46.

(٧) أحمد تيمور : الأمثال رقم ٢٢٩٤ – ٦٣٧ – ٣٣٦ – ٦٤٧ •

(٨) Prof. rit, alim, Coptes, 230-306.

ويحضرنا هنا وصف الأزياء النسائية ، الجدير بأحد علماء الأجناس (٩) • ان نظرة الطهطاوى التى تعاشر أوساط الصفوة فى باريس ، تتوقف عند المحلات التجارية ، والمقاهى والمراقص : فالتجارة هى شغل النساء ، وليس العمل : ويتعارف الرجال والنساء فى الاماكن العامة وفى النزهات وفى المراقص • وهو يشير الى حرية المرأة وخاصة فى التنقل والرحلات • ونظرته هى نظرة مراقب مدقق ، لا نظرة غريب مصلح • وهو يهتم بوجه خاص بمكانة الحب فى المجتمع الباريسى والمساواة بين الجنسين فى هذا المضمار : « ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة ومما قاله أهل المجون الفرنساوية لا تغتر باباء امرأة اذا سألتها قضاء الوطر ولا تستدل بذلك على عفافها ولكن على كثرة تجربتها (•••) • كيف والزنا عندهم من العيوب والرذائل لا من الذنوب الأوائل خصوصا فى حق غير المتزوج (•••)

وبالجملة ما كل بارقة تجود بمائها • ففى نساء الفرنساوية ذوات العرض ومنهن من هى بضد ذلك وهو الأغلب لاستيلاء فن العشق فى فرنسا على قلوب غالب الناس ذكورا واناثا وعشقهم معلل لأنهم لايصدقون بأنه يكون لغير ذلك الا أنه قد يقع بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج »•

وعلى ذلك يكون الحب هو السبب وراء الحرية الجنسية ، وهذا الحب الذى يؤدى فى بعض الأحيان الى بعض التطرف والشطط ، يلعب دورا ايجابيا فى تحقيق الأنس وحسن المعاشرة •

ويلاحظ الطهطاوى أن « النساء كالرجال فى جميع الامور » • ويرى أن الرجال يغالون فى احترام حرية المرأة • غير أن ذلك ليس بالضرورة مصدر انحراف المرأة وسوء سلوكها ؛ فالمهم هو التكوين الخلقى : « ان الرجال عندهم عبيد النساء وتحت أمرهم سواء كن جميلات أم لا قال بعضهم ان النساء عند الهمل معدات للذبح وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت وعند الافرنج كالصغار المدللين •

« ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئا أصلا مع أن هفواتهن كثيرة معهن (معهم ؟) فان الانسان منهم ولو من أعيانهم قد يثبت له فجور

---

(٩) **تخليص الابريز فى تلخيص باريز منشورات** • من ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م دار التقدم القاهرة ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ، حسب تعبير لويس عوض : **المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ـ الجزء الأول** : قضية المرأة : معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٢ • (١١)

زوجته فيهجرها بالكلية وينفصل عنها مدى العمر فلا يعتبر (يعتبر ؟) الآخرون بذلك مع أنه ينبغى الاحتراس منهن » ٠

ومرة أخرى ينير الموقف الســـقراطى عملية النقـد الاجتماعى ويحاول المفكر الاجتماعى ، بالتحديد ، أن يحلل السياق السيسولوجى للشمائل النسائية فيقول :

« ان وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة ٠ »

وباختصـــار ، فان البورجوازية ، التى تعتبر ايديولوجيتها هى نفسها أيديولوجية الليبرالية والعقلانية الحبيبتين الى الطهطاوى ، تصبح مستودع الفضيلة ٠

وفى المقارنة المتكررة بين مكانة المرأة فى فرنسا وفى مصر ، تشعر بالاهتمام الذى يوليه المجتمع الجديد الصاعد مع سلطان محمد على وحياة البلاط والمشكلات التى تثار فيه لمكانة المرأة فى مجتمع اسلامى فى طريقه الى الحداثة ٠ والثنـاء الذى يلوح من تفســير الطهطاوى لحرية المرأة الفرنسية لا يخلو من نقد ، يوجه الى استخفافهن من ناحية والتسامح المفرط من قبل الرجال من ناحية أخرى ٠ وحينما يكتب الطهطاوى قائلا : ان النسـاء « كأمتعـة البيوت » ٠ فى الشرق ، فالحال فى فرنســا أن الفرنسيين يقومون « بتدليع » النساء كتدليل الأطفال ٠

ان الطهطاوى يميل بشكل واضـح الى حرية معتدلة مهتدية بالعقل والتربية ٠ وغالبا ما نجد الاشارة الى تعاليم الاسلام التى تحترم المرأة بعكس ما كان يجرى فى عصر الانحطاط ٠

ان طريقة الطهطاوى هنا ، أكثر منها فى أى مجال آخر ، تكمن فى تجنب الصدام المباشر ، ووصف مساهمة المجتمع الحديث ، حيث يهدف تفسيره العقلى على ما يبدو الى كيفية امكان التوفيق بين هذا التفسير وبين العادات الأصلية تحقيقا لأكبر قدر من المنفعة للمجتمع بأسره (١٠) ٠ وفى عام ١٨٣٦ اشترك الطهطاوى فى اللجنة الخاصـــة بتنظيم التعليم والتى قضت بالتوسع فيه ليشمل المرأة ؛ ولم يتم اتخاذ أى اجراء على الفور ، نظرا للتحفظات الخاصة بالتقاليد ، اللهم الا انشاء مدرسة القابلات ٠

---

(١٠) تخليص الابريز ، ٤٠ ، ٦٣ ـ ٦٧ ، ١٠١ ـ ١٠٢ ، ١١١ ـ ١١٣ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١

ويعود الطهطاوى الى المهمة ذاتها مرة أخرى عام ١٨٦٩ فى « **مناهج الألباب** » وبعد أن يتحدث عن التعليم المثالى للشباب المصرى كما يتمناه ، يتحدث عن الفتيات : « ان ولى البنت يعلمها ما يليق بها من القراءة ، وأمور الدين ، وكل ما يليق بالنساء من خياطة وتطريز ، وان اقتضى حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادىء المعارف النافعة فى ادارة المنازل • فلا بأس بتعليم الحساب وما أشبه لهن ، ويشترك الصبيان والبنات فى تعليم الأخلاق والآداب وحسن السلوك (١١) » • والمدخل هذه المرة لم يعد الدين ، وانما « حال المجتمع » ، أى متطلبات المجتمع المصرى وهو فى غمرة التبدل والتحول فى عهد اسماعيل • وفى غضون ذلك ، كما رأينا ، يقوم كيرلس الرابع بتأسيس أول مدرسة للفتيات • ويشعر الطهطاوى بأن فئات الخاصة الجديدة تفهمه وتسانده • وتدرك الدولة ذلك : واذا بديوان المدارس الذى أصبح يهيمن عليه نفوذ على مبارك يكلفه بوضع « كتاب عن العادات والتربية يصلح فى نفس الوقت لتعليم البنين والبنات (١٢) » ، فيكون كتاب « **المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين** » (١٨٧٢) • يجب تعليم النساء قبل كل شىء لاعدادهم لكى يصبحن زوجات للرجال ورفيقات فعالات لهم ؛ وفى هذه المرة يطالب الطهطاوى بتعليمهن : « القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك (•••) • (مما) يجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ، ويعظم مقامهن (•••) • »

والسبب الثانى هو القضاء على الفراغ فالتعليم « يمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها » • لأن البطالة تفضى مباشرة الى دسائس الحريم • والسبب الثالث الذى يستدعى تعليم المرأة هو أنه « اذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى خدمة عظيمة فى حق النساء ، فان المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها وفيما يأكلون ويشربون ، ويلبسون ويفرشون (•••) ؛ فان فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل ،

---

(١١) مناهج الالباب ، ٦٥ – ٦٦ •

(١٢) Jacques Tagher :

يراجع أيضا H. F. el-Naggâr : Rifâ'ah al-Tahtawi, 147. "La création d'écoles populaires en Egypte, selon un projet de Rifaa Rafée», Cahiers hist. égypt., 1 (1948) no 2, 186-91.

وحول أعمال ودور البابا كيرلس الرابع ، راجع
Aziz S. Atiya : Hist, Eastern christian., 105.

فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة » ٠ وقد عارض الطهطاوى طويلا المحافظين الذين يخشون أن يؤدى تعليم المرأة الى الخداع والفجور ؛ فالاحداث تدل على أن هؤلاء يمثلن أقلية ضئيلة جدا ، فيما لو قارناه بما هو موجود عند الرجال ٠ وعلى العكس من ذلك فمما لا شك فيه « أن حصول النساء على ملكة القراءة والكتابة ، وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة ، والاطلاع على المعارف المفيدة ، هو أجمل صفات الكمال ، وهو أشوق للرجال المتربين من الجمال ، فالأدب للمرأة يغنى عن الجمال ، لكن الجمال لا يغنى عن الأدب لأنه عرض زائل (٠٠٠) ٠ » وأخيرا فان تعليم المرأة وتربيتها يؤثران كثيرا فى أخلاق أولادها (١٣) ٠

ولا ينادى الطهطاوى بطريقة مباشرة بحقوق المرأة السياسية . كذلك فهو لا يرجو أن تساهم فى الحياة السياسية بشكل واضح ، ومع ذلك فهو يخصص بابا كاملا للنساء الشهيرات ومنهن كليوباترا ٠ وفى معرض حديثه عن العادات والتقاليد العائلية يتعرض لتعدد الزوجات ويفسر العديد من المعلقين آراء فى هذا الصدد بأنها تحريم ضمنى (١٤) ٠ لكن هناك ما هو أكثر من ذلك : فهو يعود الى اسلوبه المتبع فى «المناهج» بعد ثلاث سنوات ، ويفيض فى « المرشد الأمين » فى الحديث عن العلاقات بين مفهومى « الوطن » و « الحرية » فالحرية هى أساس المجتمع الوطنى والطهطاوى يفسرها باعتبارها مرادفا للمساواة ٠ فالحريات الخمس ـ الحرية الطبيعية وحرية السلوك والحرية الدينية والمدنية والحرية السياسية أى العالمية ـ يجب أن تكون مشاعا للجميع ، حيث أن جميع الأشخاص يشتركون فى المجتمع الوطنى بشخصهم وصفاتهم ، وأن المساواة « تسير جنبا الى جنب العدالة والبر والاحسان » (١٥) ٠ ان الوطن وحبه يجب أن يتخذا شكلا محددا : المساواه بين الجميع فى الحقوق والواجبات ٠ واذا كان يمكن تفسير هذا المبدأ بالمعنى القانونى الشكلى فى نصوص أخرى ، فهو هنا يفسر فى اطار موجز عن التربية المدنية مخصص صراحة لتعليم البنين والبنات بلا تمييز ٠ ان الحرية والمساواة اللتين يطالب بهما الطهطاوى للجميع لا يجب تطبيقهما على جميع أفراد المجتمع الوطنى فحسب ، وانما وبصورة أخص ، على كلا الجنسين ٠

---

(١٣) **المرشد الأمين** ٠٠ ، ٦٦ ـ ٦٨

(١٤) **المرجع السابق** ، ١٠٤ ، ١٤٨ ٠ وستقارن لوحة كليوباترة باللوحة المؤثرة والرفيعة التى رسمها حسين فوزى الحتشبسوت فى **سندباد مصرى** ، ١٩١ ـ ٢٠٠ وفى هذه اللوحة تقليد للفكر التاريخى والاجتماعى المصرى ٠

(١٥) **المرشد الأمين** ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ٠

ويبدو أن اسهام على مبارك كان بوجه خاص ذا طابع ادارى (١٦) • وكان الحافز هو الخديوى نفسه • ففى عام ١٨٦٧ ، اجتمعت لجنة خاصة ووضعت خطة لانشاء مدرسة للبنات : وفى عام ١٨٧٣ فقط — بعدما يقرب من خمس عشرة سنة من مبادرة كيرلس السابع ، الذى كان رائدا فى مجالات متعددة وبخاصة فى مجال التربية النسوية ، وبعد عام من صدور كتاب الطهطاوى — تأسست مدرسة السيوفية برعاية جاسن عفت هانم الزوجة الثالثة لاسماعيل • وقامت ادارة الاوقاف ، بعد ذلك بقليل ، بتأسيس مدرسة القربية ؛ وفى عام ١٨٧٥ بلغ عدد طالبات المدرستين ٤٤٥ تلميذة ، أغلبهن من الأسر المقربة الى العائلة الخديوية وأسر كبار الموظفين • واذا كانت هاتان المدرستان من المؤسسات التابعة للدولة ، فقد سبقتهما مدارس تابعة لمختلف الطوائف وكذلك بعض المدارس القبطية • ومن جهة أخرى ، فقد اتخذت بنات الطبقة الارستقراطية المستنيرة فى بعض الأحيان مدرسين خصوصيين ، أوربيين أو مصريين ، وذلك منذ بلغ محمد على أوج سلطانه وحكمه (١٧) •

ويجب أن نلاحظ أن هناك هوة حقيقية تفصل بين المرأة التى يتحدث عنها الطهطاوى والفئة التى تأثرت ببدايات التعليم النسوى • ذلك أن الطهطاوى يرى أن الأفكار العامة تنطبق على المجتمع مباشرة ، على طريقة « الاعلان العالمى لحقوق الانسان » • وهذا المجتمع — الذى لم يتحدد بعد بصورة واضحة — هو مجتمع المراكز الكبرى فى المدن • ان الطهطاوى يركز على فائدة — أى ضرورة — تعليم البنات ، نظرا لدورهن فى المستقبل كزوجات يختارهن الرجال المثقفون • وهؤلاء المثقفون يمثلون الصفوة التى تشكل ، معظمها ، فى البعثات التعليمية فى الخارج ، وفى المدارس الخاصة • فنحن اذن بصدد نواة محدودة للغاية من الفتيات اللاتى يطالب

---

(١٦) ومع ذلك فان م•ا•ر•م• درويش يتحدث عن الأهمية التى اكتسبها كتاب على مبارك تحت عنوان **تاريخ الهجاء** (١٢٨٥ هـ/١٨٦٨) •

Factors affecting the education of women's educauion below the university level, M.A., Univ. of London, 1963, 102.

ان هذا المؤلف (ص ١٠٢ — ١٠) وكذلك

M. B. El-Rabie : Women writers and critics:

يحييان فى الطهطاوى على التوالى « المفكر » و « الرائد » للحركة النسائية ولا يذكران عمل كيرلس الرابع الذى كان رائدا عظيما وفعالا • هذا المجال •

(١٧) J. Heyworth-Dunne : Hist. educ. 374-5. على خطأ حين يؤكد أن حتى هذا التاريخ لم تكن أية امرأة شرقية قد تلقت التعليم •

الطهطاوى لهن بحق التعليم . ذلك ، أنه بمجرد أن وضعت المبادىء العامة ، بدا له أن كل شيء سيتعلق بطبيعة الصفوة الوطنية وتلاحمها . ومن الواجب أن نركز على الجانب الآخر من تصور المشكلة : ان مناداة الطهطاوى بتعليم البنين والبنات على قدم المساواة ، وتزويدهم بكتاب مشترك فى التربية الوطنية ، وتركيزه على جميع عوامل الوحدة ، والاستقرار ، والسعادة المشتركة ، وكذلك تنفيره من الانفصال وتعدد الزوجات ، كل ذلك يجعل منه أكثر من مجرد مصلح : فهو يحاول أن يخلق فئة خاصة تتمتع بفلسفة اجتماعية تحررية ، وايديولوجية وطنية متقدمة تستطيع أن تجد فى مجال الحياة الخاصة ، التى ظلت معزولة ومهملة حتى ذلك الوقت ، قوى جديدة للعمل فى خدمة الوطن . ذلك أن غالبية منازل الصفوة ، على الأقل فى العاصمة ، تسكنها نساء من الشركس والاكراد والأتراك (١٨) ؛ وانه فى هذه المنازل ، وهى أقرب الى الجو العثمانى وبصفة عامة إلى الجو الاسلامى منها الى مصر ، ينبغى أن يعيش ويعمل الرجال المسئولون عن بعث النهضة الوطنية المصرية . ومن ثم كان التركيز على التربية الوطنية والفلسفة السياسية فى الكتاب المدرسى المشترك : فمن أجل اعادة بناء مصر ، يجب ، مع اقامة المؤسسات العامة ، التأثير على عقول الرجال ، وأيضا على قلوبهم التى تتحكم فيها النساء .

وتظل المرأة منحنية على أرض مصر ، فى الحقول والدور المقامة من الطوب اللبن . فان رياح الاصلاحات الاجتماعية القوية التى كانت تهب على القاهرة لم تكن قد استطاعت بعد أن تنفذ اليها . ويظل كل شيء على الحالة التى كان عليها وضع المرأة فى مصر منذ عصور الاضمحلال ، أو يكاد .

---

(١٨) راجع مقدمة سهير القلماوى لكتاب « آثار باحثة البادية ملك حفنى ناصف » (١٨٨٦ – ١٩١٨) ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة و النشر ، القاهرة (١٩٦٢) ص ٨ – ١١

● الفصل التاسع :

الأدب والحياة الوطنية

ان الحركة الفكرية التى أعطت لمصر هندامها طوال المرحلة الأولى من نهضتها الوطنية كانت لابد وأن تترك آثارها على الأدب الذى كان فى طريقه الى النور فى تلك الفترة ، هذا ان لم تكن هذه الحركة الفكرية نفسها مصدر بعض الانواع الأدبية التى ظهرت فى ذلك الحين

وسنقوم على التوالى ببحث المضـــمون الفكرى فى كل من المسرح والرواية ، ثم ندرس مشكلة اللغة · أما المسرح فأصوله غامضة · صحيح « أنه فى القرن الثامن عشر ، على عهد المماليك ، لم يوجد المسرح بشكله الحالى (١) » · ولكنه فى ذلك الوقت كان يتخذ شكلا آخر هو « خيـال الظل » ، ويبدو أن هذا الفن ، الذى يرجح أنه من أصل آسيوى (٢) ، قد اختار من بين البلاد العربية أرض مصر بشخصية « قراقوش » ، أحد مشاهير رجال الحرب على عهد صـلاح الدين الأيوبى والذى جعل منه العامة مادة للسخرية · وطوال الفترة التى امتدت من القرن الثالث عشر حتى اوئل القرن التاسع عشر ، اعتاد الدارسون أن يذكروا ثلاث مسرحيات لمحمد بن دانيال (١٢٤٨ ــ ١٣١١) « **طيف الخيال** » ، « **عجيب وغريب** »،

---

(١) تاليف Jeannette Tagher «Les débuts du théâtre moderne en Egypte», Cah, hist. égypt., i (1949), no 2, 192-207 (192).

(٢) راجع مقال «Shadow play or shadow show» MajorieBetchelder McPharlin in Encycl. Brit., xx : 433-4; Georg Jacob, Geschichte dis Sa'tattentheatre, Mayer and Muller, 1907;

أكبر المتخصصين فى هذه المسألة

Paul Kahle : «Islamiche Schattenspielfiguren aus Egypten». Der Islam, i (1910), 264-9 ; ii (1911), 143-55; «Das Islamische Schatter theater in Aegyptin» Orientalisches Archiv, iii (avr. 1913), 103-9; Jacob M. Landau : Edudes sur le théâtre et le cinéma arabes. trad. fr., G.-P. Maisonneuve et Larse, Paris, 1965, 21-3; Geston Wiet : Introduction à la littérature arabe, G.-P. Maisonneuve et Larose, Paris, 1966, 269: etc.

و « المتيم » ـ ويصف ج٠ م «لانداو» هذا الانتاج بأنه «عمل درامى ضخم باللغة العربية، سابق على القرن السابع عشر ، وهو الوحيد الذى وصلنا» (٣) ٠ ومع ذلك ينبغى أن نذكر ، كما فعل عبد اللطيف حمزة ، الحكايات القائمة على الحوار المحملة بالنقد الاجتماعى والفكاهى ، التى وضعها ابن المماتى (١١٥٠ ـ ١٢١٠) فى « **كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش** » ؛ وعبد الله محمد الوهرانى ، المعاصر لصلاح الدين ، فى « **رسائل الوهرانى** » ، وأخيرا يوسف الشربينى الذى عاش فى أوائل الاحتلال العثمانى ، في «**هز القحوف في شرح قصيدة أبى شادوف** » (٤) ٠ وقد تناولت هذه الأعمال موضوعات الساعة فى لهجة محلية ، بل لقد استخدمت المفردات الخاصة بأفراد النقابات المهنية : وينصب الجوهر على النقد الاجتماعى الذى كان يعرض على جمهور عريض تحفل به شوارع القاهرة ، ويجد فى هذا الانتاج مرآة لوضعه غير الانسانى ، ووسيلة للثأر بطريقة غير مباشرة ، وكذا متنفسا (٥) ٠ ومن جهة أخرى ، فان صلاح عبد الصبور الذى يرفض فكرة امتداد المسرح الفرعونى الى العصر الوسيط والحديث ، معارضا بذلك الغالبية من مؤرخى الأدب الشعبى ، فانه يلاحظ مع ذلك ، أن بين المسرح الفرعونى وخيال الظل يوجد «عاملان مصريان أصيلان ، عامل لعبة الممثل (فى التمثيل) ، وكذا عامل السخرية » (٦) ٠

---

(٣) ج٠م٠ لاندو :**المسرح والسينما** ، ٢٨ ـ ٣٤ الذى يعتمد جوهريا على أعمال ج٠ « جاكوب » البالغة الدقة ٠ ومن قبله ابن حزم :

« لم أشهد ما هو أقرب الى أمور الدنيا من خيال الظل ، تلك الشخصيات الصغيرة المركبة على حلقة من الخشب يحركونها ، فاذا بعضها يختفى ، بينما يظهر البعض الآخر
Bull. Inst. Eg., xii (1930), 53-73.
راجع حول الشخصية التى جعلها نجيب الريحانى شهيرة فى عصرنا ، التاريخ الذى وضعه زكى باشا : « كشكش بيه الخرافة والتاريخ)
(G West : Introd litt Arab, 260).

(٤) عبد اللطيف حمزة : **الأدب المصرى من أيام الدولة الأيوبية الى مجىء الحملة الفرنسية** مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ ص ١٩٣ ـ ٨٢١٩ وفيه يمثل نقد « قراقوش » مكانة الصدارة ٠ راجع

أيضا صلاح عبد الصبور « حول مشكلات المسرح المصرى ٠ جزء ٢ : من هو الأب ؟ الشرعى » « **روز اليوسف** » ٢٥ نوفمبر ٠ ١٩٦٣ ، ص ٤٨ ـ ٤٩

(٥) الأمثلة فى G. Wiet : Introd. lit arabe. 269.

(٦) نفس الموقف عند عبد الرحمن صدقى : «المسرح العربى» ، **الكتاب** ، مجلد ٦ (١٩٥١) عددا ، ٤٣ ـ ٦٣ ، وكذا عند محمد اسماعيل محمد : « كلمة فى نشأة المسرح العربى » ، الكاتب ، عدد ١٦ ، يوليو ١٩٦٢ ، ٩٢ ـ ١٠٠ ٠ وكذا ، فان أحمد الطيب ، فى رسالته
The Arabic drama from 1848 to 1950 With special reference to the work of five dramatists. th. P.D., Univ. of London, 1954.

ان عدم وجود التراث المسرحى الحقيقى فى مصر حتى اسماعيل يتطلب تفسيرا أو تعليلا اجتماعيا عميقا ، وهو ما قام به لويس عوض ، خصوصا أنه أوضح العلاقة بين المجتمع الزراعى من جهة ، ووجود أدب فكاهى وملحمى وعدم وجود مسرح من جهة أخرى :

« وقد لاحظنا أن فى التاريخ عصورا يمكن أن نسميها عصورا ملحمية أو عصور الملاحم فيها يعبر الفن عن روح المجتمع تعبيرا ملحميا ، فتبرز الملحمة وقصص الفروسية من بين آثار الأدب بأكثر مما يبرز سواها ، وعصورا يمكن أن نسميها عصورا مسرحية ، أو عصور المآسى على وجه التحديد ، وهى العصور التى تختفى فيها الملحمة او تكاد . وتزدهر فيها الدراما ازدهارا ملفتا للأنظار .

فلم يبق الا أن نتعرف على بعض القوانين التى تحكم المجتمع الواحد فتجعل منه مجتمعا بطوليا أو ملحميا فى عصر ما ، ثم تجعل منه مجتمعا مسرحيا أو دراميا فى عصر آخر .

وأهم هـذه القوانين فيـم نرى همـا الايمـان بالجبر والايمـان بالاختيار .

فعندنا أن الايمان بالجبر هو المولد الأول للفكرة المسرحية ، فى حين أن الايمان بالاختيار هو المولد الأول للفكرة الملحمية . ان الايمان بالاختيار يحكم فكـرة الانسـان عن الخير والشر (...) . أن المجتمع القائم على الاختيار مجتمع منطقى حقا ولكنه قاس مسرف فى القسوة ، وهو مجتمع سخى مسرف فى السخاء قسوته مطلقة وسخاؤه مطلق . ومادام الحق واحدا والخير واحدا والفضائل كلها واحدة لا لبس فيها ، فان كل انحراف عنهـا يعد انحرافا عن العقل وبالتالى انحرافا عن الله ، وبالتـالى كفرا وزندقة (...) . المجتمع الزراعى مجتمع قائم على الاختيار ، وأبناؤه يكثرون من الحديث عن القدر وعن القضاء وعن ارادة الله ، ولكنهم فى صميمهم يؤمنون بالاختيـار ، ولا يأتون شـيئا يدل على ايمـانهم بالقدر . هم لا يجازفون . هم لا يتنقلون (...) هم لا يدخلون معركة الا بعد امتحان سـلاحهم ، هم يؤمنون ، بالاختيار لأن الايمـان بالاختيار معناه العقاب والثواب .

= يفيض فى نفس الاتجاه ، بل وانه يذهب الى حد القول انه لزاما علينا أن ندين « اللغة العربية » هـذه الجثة التى أبقينا عليهـا بطريقة مفتعلة . » (ص ٧) ، مسـتندا فى
Curt Prüfir (in J. Hastings, ed. : Enchclopedia of Religion and Ethics, iv : 8781,

فالمجتمع الزراعى مجتمع ثابت الاقتصاديات (...) فهو لذلك ثابت العلاقات ، والمجتمع الثابت العلاقات لا يستغنى عن فكرة العقاب الواضح· فى المجتمع الثابت لا مجال للخطيئة ولا مجال للجريمة ولا مجال للرغبة أو أو المقارنة أو الموازنة أو التطلع بالعين أو بالفكر – أى لا مجال للثورة · الثورة هى كسر العلاقات بين البشر · والمجتمع الزراعى لا يقبل كسر العلاقات بين البشر · وهو يعد كل من يكسر العلاقات بالويل والثبور · فى المجتمع الزراعى كل شىء واضح ومرتب ومطلق ومن رأى غير هذا فليخرج منه · فى المجتمع الزراعى أن الثورة خروج عن « العقل » وجزاء الخروج عن العقل الموت ·

لهذا كله كان المجتمع الزراعى قاسيا فى حكمه على كل مخطىء ، على كل خارج على « العقل » · هو لا يغتفر الخطأ ولا يغتفر الخطيئة · ولقد يدفع المخطىء أو الخاطىء ثمن خطئه أو خطيئته باهظا ، ولكن الايمان بالمطلقــات يمنــع الغفران له والأسى لمصرعه · كذلك يمنــع الغفران له والأسى لمصرعه والايمان بالاختيار · أو ليس المخطىء أو الخاطىء مسئولا عن خطئه أو خطيئته ؟ لهذا كله لا ســبيل فى مثــل هذا المجتمع المطلق المختــار الى تمجيد البطــل الخاطىء كما يفعــل المسرح فى التراجيديا · هذا المجتمع المطلق المختار لا يمجد الا من أحسن عملا (···) ·

الحضارة الريفية حضارة بطولة : أما البطولة الايجابية التى نراها فى أبطال الملاحم وأما البطولة المسلوبة التى نراها فى أوغاد الكوميديا ، وقارىء فيلدنج يستطيع أن يجد على هذا كل دليل ·

الحضارة الريفية تقوم على الحكم المطلق وعلى الاختيار · فياله من تناقض عجيب هذا الذى يختار فيه الانسان أن يحكم حكما مطلقا ·

الحضارة الريفيـــة يحكمها قانون أساسى ثابت واحـد هو قانون العدالة فى الأرض وفى السماء · فبالعدالة وحدها تدور آلة الكون وتدور آلة المجتمع ، والعدالة لا معنى لها الا اذا كان كل ما فى الوجود مختارا ومسئولا عن اختياره ·

لهذا يســأل السائلون فى مصر عن السر فى اختفــاء المسرح من حياتنا (···) وحقيقة الحال أن مصر الآن لا تزال فى صميمها فى طور الحياة الريفية (···) ·

حقيقة الحال أن مجتمعنا وهو زراعى فى أساسه غير قادر حتى الآن على الاحساس المسرحى بل قادر على الاحساس الملحمى ، والحاسة

الأخلاقية لدينا حاسة حادة قاطعة كالعقـــل القاطع ، لأنها من العقـــل القاطع ، كل شيء لديـنا مرتب ومبوب ومطلق ولا لبس فيه • فالعظيم عظيم مهما لوثت حياته النقط السوداء والحقير حقير مهما تخللت حياته أعمال البطولة • والأرض أرض والســـماء سماء وكل شيء في موضعه لا يريم • ألست ترى كيف نحكم على الناس فلا نرى فيهم الا بياضـــا ملائكيا أو سوادا شيطانيا (••••) ؟

كل هذا لا يخرج منه مسرح ولا يمكن أن يخرج منه مسرح ، وانما تخرج منه الملحمة والأدب الملحمي بوجه عام فليس من الضروري أن تكون الملحمة شعرا يروى رواية ، ولقد تكون نثرا لا يروى شيئا • يخرج منه المقـال النزالي مثلا كما نرى في أدب السياسة ويخرج منـه القصــص الأخلاقي الذي لا يعالج الحياة كما هي ولكن يعالجها لينصر الفضيلة أو لينصر الدين أو لينصر المعذبين في الأرض أو لينصر أي شيء في الوجود • (•••) الملحمة تصور انتصار بطل قوي ونموذجها الأول انتصار البطل المنتقم ، حوريس •

والتراجيديا تصور مصرع بطل خاطيء ، ونموذجهـا الأول مصرع البطل المتأله ، أوزيريس •

وكل بطل تراجيدي نسخة محرفة من هذا الاله الآثم الممزق الذي نفرح ونأسى لتمزقه في وقت واحد : نفرح حين نرى العـــدالة الالهية لا تعفي أحدا من القصاص ولو كان أخير الأخيار ونفرح حين نرى اللطف الالهي لا يحبس عن أحد ولو كان أخطى الخطاه •

ووراء العدالة فكرة الاختيار ، ووراء الصفح فكرة الجبر • والعفو لا يكون الا بعد العقاب كالصعود لا يكون الا بعد الموت •

والمسرح المصري قد اختفى آلاف السنين أولا وقبل كل شيء لأن المصريين يؤمنون بالاختيار ولا يؤمنون بالجبر رغم كل ما يزعمون (••)

وهم يؤمنون بالاختيار لأنهم شعب زارع لا يرى حوله المعلومات تخرج من عللها على وجه رتيب ، ولا يرى شيئا يكسر هذا النظام المعقول الدقيق الذي وضعه العقل الأول •

ولن يقوم للمصريين مسرح عالي العماد الا اذا آمنوا بالجبر الأكبر الذي يقهر كل اختيار أو على الأصح يتصارع مع كل اختيار ، فيتولد من صراعهما ما يسمى بالأزمة في المأساة •

ولسوف يكون لهم مسرح حى حين تنمو بينهم حضارة المدينة حتى تتوازن مع حضارة الريف ٠

فالمسرح للمدينة كالمعبد للريف ٠

فيه يرى كل انسان قصة الانسان ، ذلك البطل المجرم ، ويسمع حكم الله والناس فى بطولته واجرامه أجمعين ٠ (٧) »

ولا يشير القرن التاسع عشر الى أى أثر من مصادر الالهام الأصيلة التى سبق ذكرها ولا أى أثر لمصادر الالهام من المسرح الاغريقى ، فيما أصبح بعد ذلك المسرح المصرى الحديث ٠ كذلك لم يهتم محمد على ولا الحملة الفرنسية بتأسيس الفرق المسرحية ٠ وفى حوالى عام ١٨٢٩ اهتمت الجالية الفرنسية باقامة مسرح للهواة ؛ وبعد ذلك بقليل ، تحدث « جيرار دى نرفال » عن « مسرح القاهرة Teatro dêl Cairo (٨) ، وفى غضون ذلك تحدث لين عن مهازل « منحطة تثير السخرية » ، كان يقدمها « المحبذون » أثناء حفلات الزواج والختان فى منازل الطبقة الارستقراطية ، مهازل تحولت الى « حركات سوقية وتصرفات ماجنة (٩) » ٠ كما تحول الكراكوز الى حركات فاضحة ٠ وفى سوريا ، ظهر مسرح حديث يقوم على الاقتباس ، بفضل مارون وسليم النقاش واديب اسحق واسكندر العازر وسعد الله البستانى (١٠) ٠ وفى القاهرة ، أسس اسماعيل « مسرح الكوميدى » فى ٤ يناير ١٨٦٩ (١١) ، ثم أسس غداة افتتاح قناة السويس ، مسرح الأوبرا الذى قدم « ريجيوليتو » فى أول نوفمبر ١٨٦٩ (١٢) ٠ وكان السيرك ، الذى يضم ٩٥٠ مقعدا ، يواجه مسرح الكوميدى (١٣) ، وأخيرا أنشأ اسماعيل فى قصوره مسارح صغيرة دعى الى العمل عليها يعقوب صنوع فيما بعد (١٤) ٠

---

(٧) لويس عوض : **دراسات فى ادبنا الحديث** ، دار المعرفة ، القاهرة ١٩٦١ ص ٦١ ـ ٧٣

(٨) Jeannette Tagher : "Les débuts du théâtre moderne en en Egypte», Cah. hist. ég., i (1948), no 2, 192-207 (195-6).

(٩) Manners and customs, 395-7.

(١٠) J.M. Landau : Théâtre et cinéma, 60-65; وكذا العدد الخاص بالمسرح الذى أفردته مجلة « المعرفة » ، عدد ٣ ، ١٩٦٤ ٠

(١١) G. Douin : Hist règne Ismâ'îl, ii : 104.

(١٢) J.-M. Carré : Voyageurs et écrivains, ii : 224.

(١٣) G. Douin : Règne Khéd. Ismâ'îl, 109.

(١٤) أنور لوقا : « مسرح يعقوب صنوع » ، المجلة ، المجلد الخامس ١٩٦١ ٠ العدد ٥١ ص ٥١ ـ ٧١ ٠ (٥٧)

وبمقدم يعقوب صنوع دخل المسرح الحديث مصر · فهل كان مسرحا وطنيا ؟ ان المعركة تحتدم منذ جيل من الزمان حول هذا الموضـــوع · والواقـــع أن الرجل قد ادهش بمـــا لديه من طاقة وحير بمـــا قـــدمه من مبالغات · ففى ترجمـــة حياته التى ألقاها فى شـــكل محاضرة بمركز «التعاون الفكـــرى» بباريس عام ١٩٢٠ ، يتحـــدث عن تأثره بكـــل من «جولدونى» و «موليير» و «شـــريدان» ويقـــدم الكثـــير من المعلومات عن تأسيس مسرحه : من ذلك ، الالتجاء الى خيرى باشا كبير أمناء الخديوى . حفل الافتتاح عام ١٨٧٠ أقام جمهور يتألف من ٣ آلاف شخص . فرقة من عشرة ممثلين بينهم امرأتين لأول مرة فى الشرق ؛ تطور المضمون فى المسرح من المسرحيات القصـــيرة الخفيفـــة المضـــحكة الى المسرحيات الاجتماعية ؛ رصيد من ٣٢ مسرحية من تأليفه (١٥) · ومن جهة أخرى ، فان الأبحـــاث الجادة التى قام بهـــا أنور لوقا فى القـــاهرة وباريس ثم استأنفها حديثا عبد الحميد غنيم ، تسمح باثبات المسرحيـــات التالية : «راستور وشيخ البلد والقواحى» . وهى نقد للوضـــع المهين للنســـاء المخصصات لمتعة الكبار فى مقر الحريم ؛ «البنت العصرية» ، وفيها يحذر صنوع بنات الطبقة الراقية من الفساد ؛ «غندور مصر» ، وهى قصـــة مغامرات غرامية ونتائجها ـ نحن حتى الآن بصـــدد مذكرات المؤلف ، فالنصوص لم يتم العثور عليها ـ ثم مجموعة المسرحيات الست التى عثر عليها أنور لوقا فى باريس وهى ـ «بورصة مصر» ، أو فشل الزواج القائم على المال ؛ «العليل» ، وهى دعاية لمياه حلوان المعدنية؛ «أبو ريده البربرى»، وهى وصف لخاطبات العصر ؛ « الصدقة » ، وهى تتحدث عن عادات محدثى الغنى ؛ « الضرتين » ، وهى نقد مغلف لتعدد الزوجات ؛ وأخيرا ، وبصفة خاصة « موليير مصر وما يعانيه » ، التى يوجد لدينا نصـــها الكامل ، والتى تمثل تاريخـــا حقيقيا لمسرح يعقوب صـــنوع ومفاهيمه فى هذا المجال (١٦) · هـــذه المفاهيم التى ستهمنا أكثر مما يهمنا صـــحة

---

(١٥) مقاطع رئيسية من النص فى أنور لوقا : « مسرح يعقوب صنوع » ، ٥٤ ـ ٦ · ويقص مؤلفنا فيما بعد كيف منحه اسماعيل لقب « موليير مصر » ووشجه حول موضـــوع مسرحيته المضادة لتعدد الزوجات ·

(١٦) الرواية الأكثر انتشارا ـ الرواية التى تقبل العدد ٣٢ مسرحية ـ موجودة بشكل رئيس فى : ابراهيم عبده : **أبو نضارة امام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح فى مصر** ، مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٥٣ تقريظ حقيقى للمؤلف ، كما هى موجودة أيضا فى محمد يوسف نجم : « موليير مصر يعقوب صنوع أبو نضارة » **الأديب** ، الجزء ٤٣ (١٩٥٣) العدد ٤ ، ١٦ ـ ٩ ، « **المسرحية فى الأدب العربى الحديث** » ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٦ ، ٤٤٥ ـ ٥٤٦ ، وعبد الحميد غنيم : « **صنوع رائد المسرح المصرى** = » ،

المسرحيات وعددها الحقيقى أو المشكوك فيها أو تأثير هذا المسرح على الجمهور ·

مسرح الواقع المعاصر ، مسرح النقد الاجتماعى ؛ والسؤال الآن هو : أى واقع ؟ وأى نقد ؟ ان العادات وانماط السلوك التى يحمل عليها صنوع هى تلك الخاصة بالطبقة الارستقراطية ، بل أكثر من ذلك ، فهى عادات وتصرفات محدثى الثراء ، وهم فى الأغلب من الشرقيين أو الأجانب · والقائمة السابق ذكرها توضح ذلك : فمصر الشعب لا تهتم بخلاعة النساء المتحجبات حتى أوائل القرن العشرين ، ولا بمضـاربات البورصة ، ولا بتقليد أوربا فى مساوئها ورونق مظهرها ؛ كذلك فان عيون المياه المعدنية ودنيا « الحريم » من شئون الطبقة الارستقراطية · صحيح اننا نصادف فى هذا المسرح بعض المصريين ، ولكنهم من التجار أو رجال الأعمال المرتبطين بالطوائف الأجنبية « بينما يمثل الخادم أو الخادمة ، أو أحيانا البواب النوبى ، شخصية المصرى الحقيقى» (١٧) · وجدير بالذكر أن صنوع ، فى مسرحياته القصيرة النقدية الاولى ، قبل انشاء مسرحه ، قد أدخل شخصية الفلاح وخلع عليه أسماء مثل « أبو الغلب » أو « أبو شادوف » · ولكنه ما أن حصل على الاذن بتأسيس مسرحه ، حتى أصبحت الغلبـة للمصريين المرتبطـين بالبـلاط أو رجال الأعمال أو الخدم أو الوسطاء (١٨) ·

ويكاد هذا المسرح النقدى والتربوى يجمع على أن الخلاص يجب أن يأتى من أوربا : فالنـاس يقلدون عادات أهلهـا ، ويرسـلون أبنـاءهم للدراسة فيها ، ويقضون أجازاتهم فى أوروبا مستمتعين بمختلف أنواع المتع ؛ مرة واحدة فقط فى مسرحيـة «الأميرة الاسـكندرانية » ، التى

الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ · وهذه الرواية مستعادة من قبل ؛ ويوسف أسعد داغر : مصادر الدراسة الأدبية J.M. Landau, Jeannette Tagher الجزء الثانى ، الفصل : ٥٤٩ ـ ٥٢ ، وقد هاجم هذه الاطروحة بعنف صلاح عبد الصبور : « حول مشكلة المسرح المصرى » ، **روز اليوسف** ، ١٨ نوفمبر ١٩٦٣ ، ٤٨ ـ ٩ ، ٢٥ نوفمبر ١٩٦٣ ، ٤٨ ـ ٩ ، ٢ ديسمبر ١٩٦٣ ، ٥٠ ـ ١ ، ووحيد النقاش : « وجهة نظر فى تاريخ المسرح المصرى » **الأهرام** ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ أغسطس ١٩٦٤ · والتقدير الأكثر اتزانا هو تقدير أنور لوقا ندين له باكتشاف ست مسرحيات غير منشورة لصـنوع فى باريس (**مسرح صنوع**) ، وهو تقدير تمثل به
I.L. Gendzier : Practical visions Y. Sanu', 31-40.

(١٧) وحيد النقاش · « وجهـات نظر فى تاريخ المسرح المصرى ! نغمة اللجوء الى أوربا والأخلاقيات الصادقة فى مسرح صنوع » **الأهرام** ، ٢٢ أغسطس ١٩٦٤ ·

(١٨) أ·هـ· غنيم : **صنوع** ص ١٩٠ ـ ١٩١ ·

عرضت فى نفس الوقت مع « العليل » ، يحمل صنوع على فساد العادات المأخوذة عن الأروبيين (١٩) • فالمسرح بالنسبة له « ملهاة » ، وهذه « تتأتى من الناس » الذين يتحدثون باللهجة العامية ، فيما عدا الشيوخ والمثقفين • ويرفض الرأى القائل بأن المسرح يجب أن يكون مادة للترويح والتسلية ويتبنى أفكار موليير التى أعلنها فى دفاعه عن « طرطوف » (١٦٦٩) : والملهاة ، أسوة بالقدماء ، يجب أن تكون تربوية ـ الإخلاق عن طريق الضحك Castigat ridendo mores ـ ويجب على المؤلف أن يلتزم بخدمة « هدف » محدد (٢٠) •

ويحاول بعض النقاد المحدثين ، المهتمين قبل كل شىء بالنيل من قدر اسماعيل ، الايهام بان اغلاق مسرح صنوع عام ١٨٧٢ تم بأمر من الخديوى (٢١) • ومع ذلك لا نجد أى أثر لمثل هذا الاجراء فى الوثائق الخاصة بذلك العصر (٢٢) ، بل أكثر من ذلك ، فان الخديوى لم يبخل بمساندة يعقوب فى البداية حينما نشر صحيفته الأولى عام ١٨٧٧ : كان لابد لصنوع حتى ينفى من مصر أن ينحاز صراحة الى جانب فرنسا فى الوقت الذى كان الهدف الأول فيه هو اسقاط الخديوى ، رمز الاستقلال المصرى ؛ غير أن هناك أجواء فكرية وراء العرض تسمح للاسطورة بالبقاء •

وبذلك يكون يعقوب صنوع بلا جدال هو منشىء المسرح الحديث فى مصر ، وقد أثار هذا المسرح بالتأكيد ردود فعل تراوحت بين الدهشة والسخط والغضب حيال ما ظهر منه كنوع من الانحلال الخلقى • ومع ذلك فان المسرح الذى أنشأه ـ وهو خليط من النقد ، والتهريج المصحوب فى بعض الأحيان بالموسيقى والغناء ـ ينتمى الى نوع « الاوبرا كوميك » اكثر من انتمائه الى المسرح الاجتماعى بالمعنى الصحيح (٢٣) •

---

(١٩) أنور لوقا : مسرح صنوع ، ٦٧ ، الذى يشير الى عنوان الترجمة الايطالية ذى المغزى ، ل « الأميرة الاسكندرانية »
L'aristocratica alessandrina, Le Caire, Jules Barbier, 1875.»

(٢٠) تحليل جيد لموليير مصر فى أنور لوقا : مسرح صنوع ٦٨ ـ ٧١ ، وعبد الحميد غنيم : صنوع ، ١٦٨ ـ ٩٢ •

(٢١) تلك هى وجهة نظر ل عبده ومحمد يوسف نجم و Jeannette Tagher وعبد الرحمن غنيم • وحتى أنور لوقا •

(٢٢) كما يبينه بوضوح صلاح عبد الصبور ووحيد النقاش •

(٢٣) على حد التعبير النفاذ لصلاح عبد الصبور •
حول مشكلات (٠٠٠) الميلاد الكاذب ، ص ٤٩

وفى دراسة حديثة ، تستهدف صراحة أن تضع صنوع بين كبار صناع النهضة المصرية ، تبرز « ايرين جندزير » J. Gendzier « سياحة صنوع فوق أرضية السياسة الفرنسية » ، تلك السياحة التى تفسرها بدوافع نفسية وبمشروع اتحاد دول البحر المتوسط ، على الأقل حتى « الاتفاق الودى » ٠ ان الكثير من الاشارات المنتشرة فى الكتاب تبين أن الموضوع يتعلق بالتزام سياسى فى اطار السياسة الاستعمارية الفرنسية فى ذلك العصر ٠ أما دور صنوع كرائد للمسرح والطابع العالمى لهذا المسرح نفسه فيجب أن نبحث عنه فى اهتماماته الثانوية ٠ فهل هو وطنى مصرى ؟ ولنستمع الى المرافعة عنه أولا : « لم يكن (صنوع) الأستاذ والمحرك السياسى مجرد رسول لرؤسائه [٠٠٠] كانت قضيته هى قضية مصر الحرة ، ولكنه لم يكن الرجل الذى يعميه هوس الوطنية وجنونها ، سواء كانت مصرية أم غير مصرية ٠ لقد ولد فى حضن دين يحد من نشاطاته فى الأوساط المصرية ، لذلك فمن المحتمل أن صنوع كان مطبوعا بطابع الأقلية بمحاسنها ومساوئها ٠ واذا كان قد ولد متفرجا ، فقد حاول أن يصبح مشاركا ٠ وبالفعل ، فقد مضى من حدود أوساط البلاط ، حيث أوصله أبوه ، حتى بلغ قلب الجيل الذى كان يتحدى الخديوى الحاكم [٠٠٠] كان حب الحرية يلازمه ويلح عليه ، ولكنه كان كذلك ملتزما بهدف أكثر سلبية وهو أحداث تقارب بين الشرق والغرب وادمج فيه هدفا آخرا غير تقليدى ألا وهو المساواة الدينية بين المسيحيين والمسلمين واليهود (٢٤) » ٠

ولذلك كانت موضوعاته وشخصياته مغروسة فى أرض مصر ، ولكنها ليست مصرية : ومن هنا لم يصل مسرحه الى رتبة المسرح الوطنى ٠ فلابد ، لكى يصبح المسرح كذلك ، أن يكون مضمونه الفكرى مستمدا من الأرضية الوطنية الشعبية ، ويضع نصب عينيه تغيير الشعور الشعبى ، الحس الوطنى الواسع ، بهدف تحريك نهضة المجتمع الحديث فى اطار الدولة الوطنية المستقلة ٠ ان حكمنا الموضوعى على صنوع هو أنه ، كمنشىء للمسرح الحديث فى مصر ، قد انشأ مسرح الطوائف الأجنبية والأقليات المرتبطة بهذه الطوائف : فالموضوعات المختارة ، والشخصيات ، والتصورات ، وخصوصا تصور مصر ، كانت كلها تصدر عن أجنبى غريب لاذع يمثل الوساطة بين البلاط والمدنية ، بين المدنية وأهل البلاد ٠ أنه مسرح حديث ، لكنه ليس مسرحا وطنيا ٠ ومن ثم اختفى تقريبا منذ أوائل القرن العشرين ٠

---

(٢٤) I.L. Gendzier : Practical visions Y. Sanu' 108-25, 139-40.

وبالمثل ، فاذا كانت فرقة سليم النقاش اللبنانية قد حصلت على الاذن بالعرض على مسرح « زيزينا » بالاسكندرية عام ١٨٧٦ ، فقد « كانت أعمالها كلها مترجمة من الفرنسية الى لغة عربية ركيكة (٢٥) » ٠

أما المشكلات الخاصة بميلاد الرواية ومضمونها الفكرى فى ذلك العصر فهى أكثر تعقيدا ٠ فعلى النقيض من الاعتقاد القائل بأن الأدب العربى الكلاسيكى يجهل هذا النوع من الأدب ، فان بعض الدراسات الحديثة حاولت تفنيد ذلك (٢٦) ٠ فبعض الابحاث التى وضعت عن مصر تشير الى أنه ، اذا كان الأدب الشعبى يتضمن جانبا كبيرا من السرد ، فان الرواية كنوع أدبى قد ظهرت فى ظرف اجتماعى تاريخى مماثل للظرف الذى ظهرت فيه الآداب الأوروبية ، وهو نهاية عصر الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية ٠ وعلى ذلك يكون عصر اسماعيل هو الذى شهد تباشيرها ، وليس فقط عام ١٩٠٥ مع « **حديث عيسى بن هشام** » لمحمد المويلحى (٢٧).

والبحث الحديث الذى قدمه عبد المحسن طه بدر يوضح الدور الريادى الذى قام به الطهطاوى فى هذا المجال ٠ كان هذا الدور يحق هو الجسر الأول الموصل بين التربية والقصة وهو ما يمكن أن نطلق عليه « التيار التربوى المحض » ، على النقيض من « رواية التسلية والترويح » مع حد وسيط ٠ ويرجع هذان النوعان الأخيران الى أواخر القرن التاسع عشر حيث نميزالقرن العشرين بظهور الرواية كنوع للانتاج الجمالى (٢٨) ٠ ويرى عبد المحسن طه بدر أنه من الأوفق اعتبار « **تخليص الابريز** » وكذلك

---

(٢٥) Jeannette Tàgher : Débuts théâtre mod., 200.
لم يرافق ولادة هذا المسرح الحديث أى نقد مسرحى ، كما يبين السيد حسن عيد **تطور النقد المسرحى فى مصر** ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٥ ، ١٠ - ٦ ، ٤٩ - ٥١ ٠

(٢٦) ولا سيما دراسة فاروق خورشيد : **فى الرواية العربية ، عصر التجميع** ، الدار المصرية للطباعة والنشر ، الاسكندرية (١٩٥٨) ، ان « عصر تجميع » القصص الذى بدأ مع الأمويين ، يمكن أن يكون بداية تاريخ الرواية العربية ، راجع بالنسبة للأطروحة الكلاسيكية : H.A.R. Gibb : Arabic litterature London, 1926.

وحول بداية القصص راجع :
Regis Blachère : Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV siècle de J.-C. Adrien-Maisonneuve, Paris, 1966. ii : 737-804.

(٢٧) كما فعل على الراعى فى : **دراسات فى الرواية العربية** ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ - ص ٣ - ٦

(٢٨) عبد المحسن طه بدر : **تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر (١٨٧٠ - ١٩٣٨)** دار المعرفة ، ١٩٦٣ - ١٨٥ ٠ أيضا محمود حامد شوكت : **الفن القصصى** ، القاهرة ١٩٥٦

« **مواقع الافلاك فى وقائع تليماك** » (بيروت ١٨٦٧) ، ضمن هذا التيار ، وقد أشير قبل ذلك الى طبعة بالفرنسية لقصة يعتقد أنها لأحد الشيوخ على عهد الحملة الفرنسية (٢٩) ، وهى على نمط « **ألف ليلة وليلة** » . وقد تحدثنا عن الهدف التربوى لـ « **تخليص الابريز** » والدور الذى قام به الكتاب فى تكوين الفكر السياسى الاجتماعى فى مصر . ومع ذلك ، فيبدو لنا من الصعب أن ندرجه فى قائمة الأعمال الروائية ، نظرا لأن الأحداث الواردة فيه تروى بصورة شديدة الايجاز وتأتى وكأنها أمرا ثانويا . أما الطبعة العربية لـ « **تليماك** » ، التى كتبها الطهطاوى بين ١٨٥٠ و ١٨٥٣ فى منفاه فى الخرطوم على عهد عباس الأول ، فهى تعريب أكثر منها ترجمة دقيقة ، وتشير المقدمة فى وضوح الى أسباب اختيار هذا الكتاب ، « فقد اشتهرت بين الأمم والملل وترجمت الى سائر اللغات لما اشتملت عليه من المعانى الحسنة ، مما هو نصائح للملوك والحكم ومواعظ لتحسين سلوك عامة الناس ، تارة بالتصريح والتوضيح ، والحوار بالرمز والتلويح » (٣٠) ويظهر المؤلف فى الكتاب فى شخصية «منظور» رفيق « تليماك » والذى تعتبر حياته مماثلة لحياة الطهطاوى فريسة الاضطهاد . وأول درس يستخلص منه هو ضرورة محاربة الاستبداد ــ وهو هنا استبداد « بجماليون » الذى يمثل عباس الأول ــ أما الدرس الثانى فهو دعوة الشعب الى الاتحاد : « قد كنتم قبلا يا عصابة اليونان أمة واحدة وجنسا واحدا وملة واحدة مع اختلاف البلدان وتنوع الأقاليم فالحكمة الالهية التى أوجدت البرية من العدم تحب أن تكون بينهم رابطة تربطهم بالاتفاق والاتحاد وأن يكونوا اخوانا فان جميع البشر أبناء رجل واحد ، انتشروا فى جميع جهات الأرض فاذا كلهم اخوان ومحبة الاخوان واجبة ، فويل لأهل الجحود الذين يتطلبون الفخار لسفك الدماء (٣١) » .

ويدهشنا عمل الطهطاوى أكثر من كتاب « فينيلون » بكثرة الحركة ، فالسرد يتوقف دواما بسبب تنقلات الشخصيات الدائمة بحثا عن الأفكار وأنواع التعليم . ويلعب علم النفس دورا محدودا للغاية ، واذا تجاوزنا طريقة اخراج الكتاب ، فان موضوع اختيار هذا العنوان بالذات يسترعى

---

(٢٩) Marcel : Contes du Cheykh-el-Mohdy. المترجم عن العربية نقلا عن المخطوط الأصلى . Impr. H. Dupuy, Paris 1833, 3 vol. والأصل العربى « **تحفة المستنيم ومقامات الماريستان** » قد اختفى . (عبد المحسن طه بدر : **الرواية العربية الحديثة** ، ٥٤ ، رقم ١)

(٣٠) **وقائع تليماك** ، بيروت ١٨٦٧ ، طبعة ١٨٨٥ ، ٣ .

(٣١) **المرجع السابق** ، ١٩٧ .

الانتباه • ويرى عبد المحسن طه بدر أن تفضيل «**تليماك**» على الكتاب الكلاسيكي « **كليلة ودمنه** » لابن المقفع قد يعود الى الانفصام الكامل بين التراث العربى الكلاسيكى وثقافة الطهطاوى الازهرية (٣٢) • ان سيرة الطهطاوى لا توضح جهله بتراث الماضى ، ولكنها ، فى مجال التعرض لموضوعات غير دينية ، تشير الى ميل واضح الى الاسهام الأوروبى الحديث ، الى الفلسفة التحررية والعقلانية ، وهى فى ذات الوقت عدوة للاستبداد وذات طابع عالمى شمولى • فمن الطبيعى بالنسبة للطهطاوى من هذه الزاوية أن يختار أحد الأعمال التى يكون مضمون النقد الاجتماعى فيها شكلها التربوى جديرين بتوصيل الأفكار الجديدة الى الصفوة الصاعدة • ومن جهة أخرى فان الاختيار الذى وقع على عمل أسطورة جاء مصحوبا باعتبار آخر : فقد ظل المخطوط أربعة عشر عاما حتى كتب له الظهور ، ولم ينشر الا فى بيروت •

وقد تمت بقية « التيار التربوى المحض » بعد الاحتلال وذلك مع « علم الدين » لعلى مبارك بالذات • ومن الممكن أن نربط الكتاب الذى نشره فى القاهرة الكاتب التونسى محمد بيرم بالتيار التربوى بل ولعل من الممكن أيضا أن نجعله فى منتصف الطريق بين الملاحظة الاجتماعية والسياسية فى « **تخليص الابريز** » وبين كتاب على مبارك : فالدفاع عن المؤسسات الأوروبية باعتبارها الوحيدة القادرة على احياء الشرق يتخذ أسلوب السرد والقص (٣٣) •

ان مشكلة اللغة تعرض لنا على مستويين : متسوى المطبوعات الرسمية التى سبق الحديث عنها ، حيث تتنازع اللغتان التركية والعربية المكانة الأولى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حتى أصبحت العربية لغة الدولة بالفعل على عهد سعيد واسماعيل • ثم بعد ذلك مستوى الأدب الناشىء ، ووجوب تحديد وسيلة التعبير عن الأفكار والأحداث ونقلها • والعلاقات بين هذين المستويين وطيدة نظرا لأن الرجال الذين يدفعون الحركة الثقافية هم نفس الرجال فى المجالين •

ان العربية المستعملة فى مسرح صنوع هى اللهجة المحلية بل والمشرقية **le vantine** ، مع الكثير من الاستعارات من اللغات التركية

---

(٣٢) ع•م• طه بدر : **الرواية العربية الحديثة** • ص ٦٠ ــ ٦١

(٣٣) محمد بيرم : **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والاقطار** ، خمسة أجزاء ، القاهرة ١٨٨٤ ــ ٨٦ • وتمتد الرحلات فى أوربا بين ١٨٦٧ و ١٨٨٦ • راجع ا• أبو اللغد **Arab rediscovery, 78-87, 143-4.**

والأوروبية (الفرنسية والايطالية على وجه الخصوص) • كان الهدف هو تقديم مادة للحوار الذى يشكل جوهر المسرحيات • وكان هذا الحوار بطبيعة الحال يؤدى بلغة الحديث المستعملة فى أساوط البلاط والمدينة فى ذلك العصر • وقد ظلت هذه المشـــكله تصاحب تاريخ المسرح حتى اليوم • غير أن لغة الحديث نفســـها قد تطورت فى طريق الفرز والمراجعة وثراء المفردات وفى اتجاه كلاسيكى نحوى واضح • ويتجلى الصدام فى انتاج الطهطاوى بين اللغة الكلاسيكية وتوليدات الحضارة الحديثة الصناعية • ان وصف باريس عام ١٨٣٠ ، بلغة العصر يبدو مخاطرة • وقد حاول الطهطاوى فى بادىء الأمر لكى يحل مشكلة المفردات أن يجد المصطلحات العربية التى تؤدى معانى الظواهر الجديدة ، سواءكانت هذه المصطلحات قليلة الاستعمال أو اهملت ، واذا لم يعثر عليها ، اســـتعاض عنها بنقل صوتى مهذب للكلمة الفرنسية مسجلا اياه بالحروف العربية • وكما يشير لى ذلك « هانز ويهر » Hans Wehr فان « حملة بونابرت على مصر شهدت تأثير اللغات الأوروبية على اللغة العربية • ويمكن أن تحدد بداية العصر الحديث بأواخر القرن الثامن عشر [•••] ففى البداية تأثير اللغة الفرنسية التى أصبحت لغة الثقافة فى الشرق الأدنى • أما الايطالية فقد أسهمت فى اثراء المفردات • وأما الانجليزية فقد انتشرت ـ خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى » (٣٤) •

« (فى القرن التاسع عشر) ومع تدفق الأفكار الجديدة الآتية من أوروبا لم يكن من السهل التعبير عنها ، مؤقتا ، الا باســـتعمال الكلمات الأجنبية نفســها أو ما يقابلهـــا ـ وهى غير مفهومة ، من أول وهلة ، للقارىء (٣٥) » وتسمح لنا دراسة تطور أساليب الكتابة بالسير قدما • فهناك أسلوبان واضحان : النثر العادى ، أسلوب الترسل ، والنثر المقفى (السجع) • فى البداية ، وقبل الطهطاوى ، غلب السجع الذى ساد فى العصر الكلاسيكى العظيم على الكتابة : وظل الاهتمام بالشكل يفوق الاهتمام بالمضمون • ويمثل انتاج الطهطاوى ، مؤلفـا ومترجما ، تطورا واضـحا دقيقا • فهو يستخدم السجع فى مقدمات الكتب ، وفى المواقف الانفعالية ، وكذلك فى أوصاف المرحلة الأولى : المائدة الفرنسية ، مسرات باريس فى

(٣٤) Hans Wehr : "Die Besondirheiten der heutigen Hocharabischen», Mitteilungen des Seminar fur Orintalische Sprachen, xxxvii (1934), no 2 1-64 (12).

(٣٥) Id. : «Entwicklung und traditionelle Pflege dir arabischen Schrifsprache in der Gegenwart» Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, 97 (1943), no 1. 16-46 (18).

« **تخليص الابريز** » على سبيل المثال ٠ ثم يغلب الترسل فى مجالين : حيث يعالج الأفكار السياسية والاجتماعية والمؤسسات الحديثة (وبوجه خاص فى الجزء النظرى من « **تخليص الابريز** » ٠ وفى « **مناهج الالباب المصرية** » و « **المرشد الأمين** ») ، وفى الترجمة (أو التعريب) فى المرحله الأولى وخصوصا « **وقائع تليماك** » ٠ كما يظهر النثر الحر أيضا حينما تكثر المصـطلحات الأجنبية ـ تلك التى تصف المؤسسات والظواهر فى المجتمع الأوروبى الحديث ـ وكذلك يظهر السجع عندما يلجأ الى الوصف (٣٦) ٠ أما الصحافة فى ذلك العصر ، وخصوصا « **الوقائع المصرية** » انظر الفصل الرابع ـ القسم الثانى ، فقد شهدت نوعا من الانقسام فى اطار التحديث الكلى للنحو والمفردات والأسلوب : فقد ظلت الأخبار والمقالات التى تتناول الشئون الداخلية مرتبطة بالسجع ، فى حين كانت الشئون الخارجية تميل أكثر الى أن تستخدم النثر الحر (٣٧) ٠ وعلى النقيض من ذلك ، كان أديب اسحاق ، رئيس تحرير صحيفتى «**مصر**» «**والتجارة**» ، المعجب بابن العميد فى العصر العباسى ، يستخدم السجع سـواء فى الشـئون الداخلية أو الخارجية (٣٨) ٠ أما يعقوب صنوع ، رجل المسرح والصحافة ، فقد كان يفضل اللهجة العامية كما تشهد بذلك مسرحياته ومقالاته التى كان يوقعها باسم « **أبو نظارة** » (١٨٧٨) ٠ واستخدم عبد الله النـديم ، خلال المرحلة الأولى من حياته العملية التى امتدت حتى عام ١٨٧٨ ، العربية الفصحى فى ديوانى الشعر المفقودين (حوالى ٠٠٠ر٧ بيت شعر) ، أما كتاباته النثرية ـ التى تنقسم الى مجموعتين (٣٩) ـ فقد كانت بالسجع ٠ وقد نهج خطيب الثورة ، فيما بعد ، نهج أدباء عصره ، فضلا عن أنه نشـأته المتواضعة وحياته المضطربة حالتا دون تعلمه لغة أجنبية الأمر الـذى ندم عليه بعد ذلك ٠ وفيما يتعلق بالمفردات ، كان يلجأ فى مواضع كثيرة الى استعارات من اللهجة المصرية حتى يخفف من وقع الأسلوب ويجذب قراءه عن طريق

---

(٣٦) تحليل تفصيلى فى عصر الدسوقى : **محاضرات عن نشأة النثر الحديث وتطوره** ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ٢٦ ـ ٤٣ ٠

(٣٧) ا٠ عبده : **تاريخ الوقائع المصرية** » ، ص ٢٩ ـ ١٠١ ـ د٠ الدسـوقى **نشأة النثر الحديث** ٠ ص ٥٠ ـ ٥٢ ٠

(٣٨) **المرجع السابق** ، ص ٧٠ ـ ٢ ٠

(٣٩) دراسة نقدية للكتابات ومراحلها قام به على الحديدى : **عبد الله النديم خطيب الوطنية** ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، (١٩٦٣) ٣٩٣ ـ ٩ ٠ تضم المجموعة الأولى ١٦ رسالة تعود لسن المراهقة ، وعنوان المجموعة الثانية « **رياض الرسائل ورياض الوسائل** » وكلاهما مجموعتين فى : عبد الله النديم : **سلافة النديم** ، القاهرة ١٨٩٧ : ٢٩ ـ ٧٣ ٠ وحول النديم راجع الفصل ١٢ ، القسم ٣ بكامله ٠

الفكاهة ، وهو الأسلوب الذى أصبح فيما بعد السمة المميزة لعبد الله فكرى (٤٠) ٠

لقد شهد عام ١٨٧٨ ظهور أول كتاب فى النقد الأدبى فى مصر الحديثة ، وهو كتاب «**الوسيلة الأدبية للعلوم العزبية**» (القاهرة ١٢٩٦هـ) للشيخ حسين المرصفى ٠ كان التركيز فى هذه المحاضرات التى القيت على طلبة دار العلوم على العودة الى المصادر ، الى تراث الثقافة الكلاسيكية الكبرى ، والى صفاء اللغة الكلاسيكية للقضاء على الزخارف والمحسنات اللفظية الحاوية من المعنى والتى كانت طابع اللغة العربية الكلاسيكية فى أواخر عصر الانحطاط ٠ كان المرصفى يجهل الثقافة الفرنسية والثقافة الأوروبية ٠ وكانت « وسيلته » تكمن فى التهذيب ، وفى توجيه الأدباء الشبان ، والشعراء منهم بوجه خاص ، فقد ظل الشعر يمثل اللون الأدبى الرئيسى فى ذلك العصر ٠كانت نصائحه الثلاث تقوم على معرفة الكلاسيكية معرفة جيده ، والتمرس على الكتابة والتاليف الأدبيين ، ثم نسيان النماذج ٠ ونجد عنده ، أحيانا ، بعض الأفكار المتقدمة : كالفقرة التى يعلق فيها على قصيدة لأبى نواس ويعارض المفهوم الكلاسيكى عن وحدة البيت ويثنى على تركيب القصيدة المتناسق وهو ما سيفعله فيما بعد عباس محمود العقاد وحده أولا منذ عام ١٩٠٧ ، ثم بالاشتراك مع ابراهيم عبد القادر المازنى فى عام ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ فقط ٠ كذلك فان التعريف الذى يقدمه عن الشعر ، مناقضا فيه قدامة بن جعفر ، يركز على الانسجام الموسيقى ونقاء التعبير أكثر مما يركز على تقطيعه الى أبيات مستقلة (٤١) ٠ ذلك هو الجديد الذى جاء به الكتاب الوحيد فى النقد الأدبى فى ذلك العصر ، ولقد أسهم هذا الكتاب فى تكوين العديد من الأجيال الأدبية فى العصر الحديث بما فيهم طه حسين وجيله ٠ غير أن الاطار ظل هو اللغة الكلاسيكية الكبرى ٠

اننا فى مفترق الطرق ، فى تلك اللحظة التاريخية التى تتخذ فيها اللغة العربية منطلقا جديدا ٠ ويقال ان اللغة الكلاسيكية ماتت ، بفعل الاضطهاد التركى والتدخل الأجنبى بعد قرون طويلة من الانحطاط ٠ أما اللهجة المصرية ، التى لم تدرس دراسة وافية فى ذلك العصر ، فلا يبدو أنها تختلف كثيرا عن اللهجة التى نعرفها ، بعد مرور قرن من الزمان : ان الأمثال الشعبية البالغ عددها ٢٦٩٦ ، التى جمعها وشرحها أحمد تيمور ، تعود

---

(٤٠) نفوسة زكريا سيد : « **عبد الله الخادم بين الفصحى والعامية** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٩ ــ ٢٠ ــ و ٥٥ ــ ٦١

(٤١) محمد مندور : **النقد والنقاد المعاصرون** ، مكتبة نهضة مصر ٠ القاهرة (١٩٦٤) ص ٧ ــ ٢٤ ٠

فى الغالب الى عصر سابق على القرن التاســـع عشر (٤٢) ، وكلها ماتزال مفهومةتماما ويجرى استعمالها فى مصر اليوم • وكان أحمد رشدى صالح على حق اذ قال :

« فى الحكايات الشـــعبية للقرن التاســـع عشر ، نجد الطـابع الفرعونى » (٤٣)

كان هذا هو مضمون عمل محرم كمال ، وقد جعله يمتد ويتســـع ليشمل الحياة اليومية فى جملتها (٤٤) ، وقد سبق أن أشرنا (الفصل الثامن ـ القسم الأول) الى أهم الآراء خصوصا آراء سيريس ويصا واصف ، التى تؤيد هذه النظرية • وبين هذين الأسلوبين من أســاليب اللغة يظهر بالتدريج أسلوب ثالث ، يجد مجاله فى الصحافة ووثائق الدولة فى منتصف القرن التاسع عشر ـ باختصار ، فى التعبير الشكلى ، الرسمى وغير الرسمى المباشر وغير المباشر ، السياسى والثقافى ، للفئات الاجتماعية القائدة التى تتولى التغيير التدريجى للحياة القديمة ، وتحـاول اثارة النهضـة فى مصر داخل قالب حديث • ان انتاج الطهطاوى ـ ابتداء من نشر أول ترجمة له عام١٨٣٣ (٤٥) ، حتى نشر آخر أعماله بعد وفاته ، « **خياة محمد** » عام ١٨٧٤ ـ يمسح هذا الطريق الوعر ، حيث سبق أن شاهدنا اللغة العربية الحديثة تتخذ صورتها باشكاليتها وصعوباتها التى لم يتمكن الزمن من تغييرها تغيير اساسيا ، والتى ظل تحليلها العلمى هو ما قـام به « هانز ويهر : « ان مورفولوجيـة (التكون الشـــكلى) اللغة الحديثة لا يختلف اختلافا بينا عن اللغة الكلاسيكية ، وقد أسقط النحو عديدا من الوسائل القديمة ، واستقبل بعض الوسائل الجديدة • أما تركيب الجمل والأساليب، وهى أكثر بعدا عن الرقابة ، فقد شهد تحديثات لا حصر لها من أصـــل أوروبى على نقيض عبقرية اللغة العربية ، غير أن هذه التحديثات أصبحت ، فى معظمها ، لا شعورية • وأخيرا فان المفردات تحكمها رقابة شـــديدة ،

---

(٤٢) أحمد تيمور : **الأمثال العامية** ، مطبعة الاستقلال ، القاهرة ١٩٤٩ •

(٤٣) فى : **الرسالة** ، مارس ١٩٥٨ ومنه استشهاد لفانسان مونتوى :
Vincent Monteil : L'arabe moderne, Libr. C. Klincksieck, Paris, 1960, 80.

(٤٤) محرم كمال : **آثار حضارة الفراعنة فى خياتنا الحالية** ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٦ • أثار هذا الكتاب جدلا عنيفا عندما كانت المناقشـات دائرة حول الوحـدة العربية (راجع : أنور عبد الملك **المجتمع المصرى والجيش** ، وثمة نتائج مطابقة فى منذ ١٩٢٧ فى
W.S. Blackman : Fellâhîn Upper Egypt 280-316,

(٤٥) Moeurs et coutumes des nations G. Depping. تحت عنـــوان **قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر** •

ولذلك فان الصيغ غير العربية يمكن التعرف عليها بسهولة — ولكن فى هذا المجال ، وبالاضافة الى التقليد الاضطرارى فان الحاجة العملية لترجمة الأفكار الجديدة تلعب دورا حاسما (٤٦) » ٠

اذن ، فهذه على المســـتوى النظرى للتطور الاجتماعى — اللغوى محصلةهذه المرحلة : ألا وهى مولد اللغة العربية الحديثة ٠

وكما رأينـــا ، كان الأمر يتعـــلق بوسيلة التعبير والاتصال الشكلى بين طبقات الصفوة الجديدة ؛ أما الشعب فى المدن والقرى فقد كان يستخدم اللهجة المصرية ٠ فقد ظلت النصوص الرسمية والأدب وقفا على فئة قليلة محدودة ٠ غير أن هذه الفئة لم تعد فئة أدباء الماضى : انهم المثقفون — على الطريقة الأوروبية — « التيار الأدب الغربى الذى بدأ يتدفق منذ هذه الآونة على العربية وينافس التيار العرب الأصيل » (٤٧) — وهو التيار الذى أثاره الطهطاوى والاصلاحات التربوية الكبرى التى قام بها محمد على واسماعيل ، التى شكلت الأداة الجديدة التى سرعان ما أصبحت أداة الحركة الوطنية العربية بأسرها ٠

---

(٤٦) H. Wehr : Entwicklung und traditionnelle Pflege, 43-4.

(٤٧) ع٠ الدسوقى : **نشـــأة النثر الحديث** ، ٣٧ ، الــذى يلخص غموض موقف الأصوليين الاسلاميين ازاء الطهطاوى الذى تصعب مهاجمته مواجهة ٠ ويؤكد ف٠ مونتينى V. Monteil أن العرب المثقفين هم فى صراع مع ازدواج وثنائية اللغة ، وأن ثقافتهم ستكون مزدوجة (L'arabic Moderne, 85-92) مثال عدة بلدان أوربية صغيرة لكى يخفف من حكمه ، بيد أنه كان عليه أن يجعل التحليل يتناول النزعة الاقليمية فى البلدان ذات الثقافة الكبرى وأن يأخذ بعين الاعتبار الأعمال المصرية التى أشير اليها — وقد تجاهل كلا هذين العاملين تماما ٠

الخاتمة

ما كان للتأثير الأوروبى أن ينحصر فى اطار الركائز القاعدية ، الابنية التحتية التى تسرب اليها بقوة ، مثيرا بذلك ردود الفعــل الســـياسية والتنظيمية التى عرضـــنا لها · فقد بلغ هجومه العنيف ، والذى كان منصبا فى جوهره ، البناء الفوقى · ومع ذلك ، فالمهم الآن هو معرفة ما اذا كان من الممكن فى قلب البناء الفوقى أن نحدد بنوع من الدقة المعدل الخاص بالتأثيرات التى تلقــاها وتمثلهــا الفرعان الثانويان الرئيسيان : أى الأيديولوجية الصريحة ، بمعنى الكلمة ، ثم الجوهر الأساسى ، الدقيق ، المراوغ غالبا ، والمتلق بالشعور والحس الشعبى · بعد ذلك يصبح من الممكن تناول مشكلة الثقافة الوطنية وجودها ، وضعها ، ومحتواها ·

ويدهش الملاحظ قبل كل شىء ، وبطبيعة الحال ، بظواهر الاختصار والتمثيل ـ أكثر من مجرد التكيف الثقافى ـ منحن فى صـميم عصر التوسع الاستعمارى ، ثم الامبريالى ·

ان الطلائع الجديدة تتجه وجهة أوربا ، وبما اننا على الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوســـط ، فى قلب الخصــوبة الأزلية الأبدية والتحرك الابداعى ، فان تقليد الغرب ســـوف يدرك عن طيب خاطر وكانــه عملية مسطحة أى كانه مرآة الذات الممكنة، بدلا من تحقيق الممكن الكامن· وتتضح هذه الوجهة ، وجهة التقليد السطحى المسطح ، فى جميع المجالات : الرداء والأزياء ، المعمار ، الموسيقى ، سواء أكانت الأوبرا أو الصالونات فاذن ، ولكنه لا يستطيع أن يحجب ما هو جوهرى فى هذه المرحلة ، ألا وهو انبعاث الدولة الوطنية وهو الأمر الذى دوما أكدناه · الصالونات ـ ولكنها لا تستطيع أن تطمس ، أو تحجب صوت الوطن العميق ، ولو لحظة واحدة · انه صوت مصر ، كما تعبر عنه الأمثلة والعادات والتقاليد ، صوت يعبر عن سيرة التاريخ الألفى التى عبرها ، ومن خلالها حدثت عملية الانتزاع ،وان كان هذا الانتزاع لا يمكن ادراكه ولا قبوله نظرا لعمق تأصل كل مصرى فى التربة منذ الأزل · ومن ثم سوف تعبر الحاسة الشعبية عن نفسها عبر قوالب وتعبيرات تؤكد حاجتها الى وساطات ممكنة حياتيا · ومن ثم ، فان التعبيرات « السلبية » (الاستعباد ، الاضطهاد ، الظلم ، الخ ··) هى أيضا

ومن الناحية الجدلية مفاهيم للانتماء ، لعدم التباعدية . هكذا نرى ومنذ ذلك المستوى — أكثر المستويات آنية ، وكموضع واقعي ، ولكنه أيضا أعمقها — نرى من أي معدن صيغت تلك الأعمدة التي عليها تتقوم الشخصية الوطنية للثقافة المصرية ، الطابع الوطني لا مجال ، لكل ثقافة مصرية ممكنة لو صح التعبير .

ان الحياة اليومية ، حتى في أدق نواحيها ، لا تبدو على أنها فوق التعديل أو اعادة الوجهة . ومن هنا كان مجهود التربية والتعليم الذي اتجه الى البنات والشابات تحت تأثير كيرلس والطهطاوي . فالهدف هنا ، بالنسبة للرجال الذين يعملون لتحقيق النهضة الوطنية لمصر الحديثة ، انما هو اعادة تشكيل الاطار الأكثر عمقا ، مقام ومكانة الأمن والأنس ، والحب الذي من خلاله تتحقق استمرارية الأمة .

أما في الخارج ، فاننا نشهد مسرحا نقديا ، وأحيانا مسرح خاضع متهالك ، يذكي النقد الاجتماعي ، ولكنه لا يعرف كيف يتباعد بالنسبة للمناورة التي يحركها الأجنبي لمحاصرة السلطة الوطنية والقضاء عليها . ذلك أن المسرح لا يزال مسرح التقليد ، لا ينهج نهج التحليل ، وسرعان ما نراه يقترن بتواجد نوع أدبي حديث على وجه التخصيص ، ألا وهو الرواية ، رواية ظهرت أولا على صورة الرواية التربوية — رواية الدولة لو صح هذا التعبير ، دون أن تكون رواية البرجوازية ، على حد التخصيص. كذلك تتبدى أشكالية اللغة بشكل حاد وسوف يكون لنا عود اليها . ان اللغة العربية التراثية الفصحى تستمر من حيث مبادئها التكوينية وأجروميتها وقواعد اللغة ، ولكنها أيضا تتحدث من حيث المصطلح والترسانة اللغوية : هنا اذن نقطة بدء اللغة العربية الحديثة — بينما تستمر اللهجة العربية المصرية على أمرها .

اننا أمام اقامة المؤسسات الثقافية ، بشكل أساسي ، وكذا ، أيضا ، أمام وضع أشكالية الثقافة في مرحلة نهضتها . ان عملية الصياغة المزدوجة هذه تتحقق في صورة التحديث والليبرالية في اطار التماذج مع التراث والحكم المطلق . ولكن مشكلة الثقافة لا تتحدد ، ولا تطرح نفسها أو تطرح على صورة مشكلة متخصصة — على عكس مشاكل السلطة العسكرية ، وسلطة الدولة ، وكذا الاستقلال الذاتي والدستورية على وجه التمثيل . ولكن مشكلة الثقافة تتبدى ، من حيث خصوصيتها ، من حيث كونها قضية متخصصة على صورة العنصر المحوري بين أكثر عناصر النهضة الوطنية ،

تأثيرا ، أى بوصفها الوسيط الاجتماعى ذات الطابع الايديولوجى الفكرى • ذلك أن الثقافة الوطنية ، هنا ، لابد وأن تعمل على دعم تماسك السفينة الألفية وقد هبت عليها عواصف الحضارة الصناعية والموجة الاستعمارية — وهى المهمة الاولى للثقافة الوطنية ، أكثر من تعبيرها عن مغامرات الذاتية المتفردة • هكذا نرى ضغط الدائرة الخارجية يضطر المثقفين ورواد الثقافة أن يعوا هذه الثقافة من خلال اطار الاضطرار والضرورة ، أى اطار الدولة •

الباب الخامس

آثار الاحتلال في تمايز الأيديولوجية الوطنية الناشئة (١٨٧٩ - ١٨٩٢)

● الفصل العاشر

الصدع : السياسة الثقافية للاحتلال البريطانى

جرى تطور الثقافة والحركة الفكرية فى مصر بعد خلع اسماعيل فى ظروف الغزو الوشيك ، ثم فى جو الاحتلال البريطانى ابتداء هن ٢٥ سبتمبر ١٨٨٢ . **وعلى ذلك فمن الأوفق أن نبدأ بتحديد دور السياسة الثقافية** للاحتلال داخل اطار سياسته بصفة عامة تجاه مصر ، ثم نقوم بدراسة عامل عرضى كان له أثره العميق فى تشكيل هذه السياسة وتنفيذها ، ألا وهو الكيفية التى كان ينظر بها للعالم الشرقى والاسلامى ، السير «افلين بارنج» ، اورد « كرومر » فيما بعد ، وهو الذى حكم البلاد ستة وعشرين عاما . هذان هما العاملان اللذان يحددان طبيعة السياسة الثقافية التى اتبعتها بريطانيا العظمى فى مصر خلال المرحلة الأولى من الاحتلال ، كما كانتا وسيلتها الى تنفيذ هذه السياسة .

ان الطابع العام للسياسة البريطانية فى مصر (١) يحدده تقرير « دوفرين » Dufferin عام ١٨٨٣ ، الذى وجد أن التعليمات تحظر عليه معاملة مصر مثل الهند ، والا « فان قوة قبضة المقيم سرعان ما ستضطر الى

---

(١) S. Zulficar : L'impérialisme britannique en Egypte 1882-1914; Robert L. Tignor : Modernization and British colonial rule in Egypt 1882-1914, Princeton U.P., Princeton, 1966.

وبالنسبة لفترة ١٨٨٢ ــ ١٨٩٢ راجع : عبد الرحمن الرافعى :**مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢)** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ ، والكتاب الكلاسيكى «**Th. Rothstein**» ثم عدة اطروحات حديثة ، خاصة :

D.C. Weeks : The Egyptian question in Britsh foreign policy with special reference to 1885-1887, th. Ph. D., Univ. of London, 1952; M. Clarke : The Egyptian question in British diplomacy 1887-1897, th. M.A., Univ. of Manchester, 1955; etc:

وكذلك الخلاصة التى يقدمها

William Foster : England's quest of Eastern trade, Barnes and Noble, New-York, 1967; etc.

الاتحتاء أمام ارادتها » ، ذلك ان الحكومة البريطانية ترى ان « المصريين ، سينظرون الى المزايا التى حصلوا عليها (على هذا النحو) على أنها جاءت نظير ثمن غال ، الا وهو استقلالهم الداخلى ٠ فضلا عن أن حكومة جلالة الملكة والرأى العام سيعارضان مثل هذا الاجراء » ـ الأمر الذى يعارضه « كرومر » : « لا أستطيع أن أتصور شيئا اضر على رخاء البلاد وحسن ادارتها من الاستبعاد العاجل غير المدروس لنسبة كبيرة من الأوروبيين الذين يعملون حاليا فى خدمة الحكومة ، بسبب الضجة المهووسة التى تثار ضدهم [٠٠٠] ولن تلبث الحكومة المصرية أن تقع فريسة للمضاربين غير الشرفاء والاتفاقات الضارة وعمليات الغش والخداع فى المشروعات العامة التى هى الآن فى مأمن منها بفضل الرجال الأذكياء الاكفاء الذين يقدمون لها النصح [٠٠٠] وهذا ينطبق بشكل خاص على المسائل المالية ٠ ان المحافظة على توازن مصر المالى هو ضمان استقلالها ٠»

أما الهدف البعيد فهو« انشاء جهاز مجدد في حيويته يتمتع بالوجود المستقل (يتمتع بما يشبه) غريزة قوة التطور ٠ » وماذا عن المؤسسات النيابية والحركة الدستورية فى عهد اسماعيل ؟ « ان دستورا على الورق اجراء غير كاف ٠ وقد نجح عدد قليل من المؤسسات التى لم تأت نتيجة تطور بطىء ونمو تدريجى ، أما بالنسبة للشرق فلا وجود حتى لبذور الحرية الدستورية ٠ ان الاستبداد لا يقضى على بذور الحرية فحسب ، انما يجعل التربة التى سحقها عاجزة عن الانبات ٠ ان الأمة التى ظلت مستعبدة أمدا طويلا تتوق بالغريزة الى قبضة حاكم قوى ، لا الى نظام دستورى متساهل ٠ فالحكومة المعتدلة من شأنها أن تبعث على الاحتقار والعصيان أكثر مما تبعث على العرفان » ٠ وبذلك أصبح التركيز على حزم الادارة : « قبل أن يصبح فى الامكان القول بوجود ضمان (أيا كان) لاستقلال مصر ، يجب على النظام الادارى ، وهذا طابعه الأساسى ، أن يجد الوقت الكافى ليتدعم ، وذلك بفرض مقاومة عوامل التفتيت (التى تمارس) من الداخل ومن الخارج ، واكتساب ممارسة ومعرفة قدراته الخاصة ٠ » فالغرض العام هو الوصول بمصر الى أن تصبح « فى منأى عن الازعاج الخارجى ، مع مساعدتها عن طريق النصيحة والعون الودى[٠٠٠] دون استعراض للسلطة يثير الضيق والحنق [٠٠٠ ، ولكن] فى ظل صداقتنا الأكيدة (٢) » ٠ وقد فشل كرومر

(٢) Lord Dufferin : Report on the Reorganization of Egypt, Feb. 1883, حسب النص الوارد فى Earl of Cromer : Modern Egypt, Macmillan and Co. London, 1908, i : 340-5.

راجع التعليقات المتشائمة ل « كرومر » ثم A. Milner : England in Egypt. Edward Arnold, London, 1892, 13 éd., 1926, 63-7.

« وميلنر » فى اخفاء حنقهما فيما بعد · ومع ذلك فان القضية الأساسية هى عدم أهلية مصر لمتابعة مسيرتها المستقلة · غير أنه يبدو من المستحيل إنكار ما تحقق من تقدم من قبل ، والذى يلقى الازدراء والتحقير ، ومن ثم كانت اللهجة المعتدلة والدبلوماسية المقصودة ·

والآن ماذا يمكن أن تكون السياسة الثقافية فى هذا الاطار العام الذى تحدد على هذا النحو ؟ ان الموضوعين الأساسين اللذين يتكرران فى البرقيات وفى تقارير « دوفرين » هما التوازن المالى والنظام السياسى · أما الأول فهو يستبعد أى برنامج طويل المدى ، كثير النفقات بالضرورة ؛ وأما الثانى فلا يستطيع أن يقبل طبع التعليم بمضمون قومى ، وبالتالى وبالضرورى وطنى · وبذلك ، سارت منذ البداية سياسة التعليم فى حدود ضيقة على المستويين الشكلى والمضمونى ·

واذا « القبضة القوية » التى تحدث عنها « دوفرين » تصبح قبضة « كرومر » · و « كرومر » يرى مصر من خلال المنظار المزدوج للفلسفة الامبريالية المنتصرة وخبرته الخاصة فى الهند ، ويجب أن نأخذ فى الاعتبار كلا العاملين فى أى تحليل للسياسة البريطانية فى مصر ، وربما بشكل زائد ، فى المجال الثقافى · واذا كان التناول البراجماتى التجريبى للمشكلات يمثل احدى « الخصائص المميزة لجنسه » ، فان القنصل العام ، ومن أول وهلة ، تصور مهمته فى مصر على أساس خبرته فى الهند : « ان الخطوط العريضة التى يجب أن تتناولها الاصلاحات قد أملتها الضرورات التى تعتبر أمورا عامة فى الحضارة الأوروبية ، سواء أكان مجال العمل هو الهند أم الجزائر أم مصر أو تونس أم البوسنه (تركيا الأوروبية) (٣) » · كان تفكير « كرومر » فى ذلك العصر متأثرا الى حد كبير ب « ألفريد ليال » Lyall الذى قرر « كرومر » كتابه ، « دراسات أسيوية » (١٨٨٢) كنص اجبارى على جميع الموظفين البريطانيين فى الشرق (٤) :

---

(٣) Cromer : Modern Egypt, ii, 125; i : 4.

(٤) Roger Owen : The influence of Lord Cromer's Indian experience on British policy in Egypt 1883-1907 — Middle Eastern Affairs no 4, Albert Hourani, ed., St. Antony's Papers, no 17, Oxford U.P., London, 1965, 109-39 (123-5).

يتحدث R. Owen عن تمزق «كرومر» بين أفكاره الليبرالية وأفكار « ليال » ومع ذلك فهو يسوق عدة أمثلة تبين الاتجاه الأساسى لكرومر : ففى عام ١٩٠٥ ، اكتشفت بعثة ميلنر ان ٢٨٪ من كبار الموظفين فقط مصريون ، مقابل ٤٢٪ من الانجليز ، على أساس ان الباقى هم من الشارقة
(Report of the Special Mission to Egypt in Parl, Papers, 1921, vol. xiii, 30, كما أورده R. Owen, 129).

ان الاسراع بادخال أفكار المســـاواة والتنظيمات الغربية فى مجال التربية والتجارة يمكن أن يؤدى الى اضعاف التركيبات التقليدية فى البلاد المستعمرة فى الشرق ، مسببا بذلك فقدان بعض المزايا الوطنية المفيدة ، ويحفر بالتـالى هوة خطيرة تعزل ســـلطة الاحتلال المجردة من الأعـوان والوسطاء (٥) • وبالفعل فان حركة التحديث التى سيباشرها «كرومر» ، فيما بعد ، ستنصب على القطاعات التى يرى أنها تؤثر فى التوازن المالى ؛ أما القطاعات الأخرى ، وبخاصة المرتبطة بالعادات التقليدية ، أو ما نطلق عليه اليوم « الأيديولوجية الضمنية » ، فستترك على حالها •

ان فلسفة « كرومر » السياسية حيال الاقطار والأجناس الدنيا فى الشرق هى سياسة الامبريالية التقليدية : « ان اعلان القديس بولس الى الأثينيين الذى يقضى بان الناس جميعا من أصل واحد [•••] يؤدى الى النتيجة التى لا جدال فيها وهى أن « نيوتن » انسان تماما مثل الانسان البدائى فى أفريقيا الوسطى ، فهو لا يذهب أبعد من ذلك (٦) • « انه من الأهمية بمكان ، أن يبت فى كل مشكلة خاصة على ضوء المعرفة والخبرة الغربيتين ، بالاضافة الى بعض الاعتبارات المحلية ، وذلك انطلاقا مما نرى أنه أفضل للجنس المحكوم ، دون التأثر بأى فائدة حقيقية أو افتراضية يمكن أن تعود منه على انجلترا كأمة أو ــ وهو ما يقع كثيرا فى هذه الحالة ــ على المصالح الفردية التى تمثلها احدى أو بعض الطبقات المسيطرة من بين الانجليز • فاذا حافظت الأمة البريطانية فى جملتها على هذا المبدأ ، بصفة عامة ، وعملت بدقة وحزم على تطبيقه ، ومع أننا لن نستطيع أبدا أن نخلق وطنية شبيهة بتلك القائمة على وحدة الجنس وجماعية اللغة ، فقد نستطيع أن نصل الى نوع من الولاء العالمى القائم على الاحترام الدائم للمواهب الأرقى والقيادة غير الأنانية ، وكذلك العرفان الناتج عن الأفضال المسداة فى الماضى والتى ستسدى فى المستقبل [•••] وفى محاولاتنا الهادفة الى طبع العقلية الشرقية بعاداتنا الفكرية يجب أن نتقدم بكل حذر ممكن ، وان نتذكر أن واجبنا الأول ليس ادخال نظام يمكنه ، تحت ستار التنظيمات الحرة ، أن يسمح لأقلية صغيرة أن تسىء حكم مواطنيها ، وانما واجبنا الأول هو اقامة نظام يسمح لجمهور الســـكان بأن يكون محكوما وفقا للأخـــلاق المسيحية [•••] وقبل أن يتمكن الشرقيون من الوصول الى أى شىء يمكن

(٥) Cromer : Speeches and Miscellaneous Writings, London 1912, I : 4; Annual Riport for 1894, 12; Annual Report for 1900, 3 (in R Owen : Ibid., 124-5).

(٦) Cromer : «An Indian idealist», The Spectator, 12-7-1913, in R. Owen : Ibid., 133.

أن يقربهم من المثل الأعلى البريطانى فى الحكم الذاتى ، عليهم أن يمروا بالعديد من التغيرات فى فكرهم السياسى [...] . ان النقاط الجوهرية فى السياسة الامبراطورية السليمة ، فى مجملها ، يمكن تلخيصها فى جملة واحدة وهى أنه ، مع تجنب أية حركة للتبشير الرسمى ، فان علاقاتنا مع مختلف الأجناس التى تمثل رعايا ملك انجلترا ، يجب أن تقوم على أساس الصخرة الجرانيتية التى تمثلها قانون الأخلاق المسيحية (٧) » . فالتركيز على الأخلاق المسيحية جزء من الخطة التى وضعها مشرعو الامبراطورية بعد العصيان الكبير الذى وقع فى الهند ، والذى قدم الدليل على أن الاستيعاب التام غير ممكن : كان الهدف هو تكوين طبقة من « الجنتلمان » على الطريقه الانجليزية ، وينصب جوهر هذا التكوين على الطباع والأخلاق ، فسياسة « مزق تسد » لا يمكن تحقيقها الا من زاوية التربية . وهذه ليست موضوع نقل معلومات فحسب ، فالتقاليد الاجتماعية بما فيها الواجبات جزء لا يتجزأ منها (٨) . ان تحالف الصفوة أفضل من كسب الجماهير واستيعابها ، وهو على أية حال مستحيل التحقيق ، والهوة تبدو مستحيلة الاجتياز ، اذا أخذنا فى الاعتبار الصورة التى قدمها « كرومر » عن أوجه الاختلاف بين الشرق والغرب . فهو يرى أن الشرق يتميز بالخصائص الآتية : الاستبداد ، الحكم غير المباشر ، نظام غير مهذب للقانون العالمى ، الشريعة الدينية ، تعدد الزوجات ، انزواء المرأة ، العبودية ، القسوة فى توقيع العقوبات البدنية ، الملابس الفضفاضة ، الأبجدية المعقدة ، الشعر والنثر المجازى . أما أوروبا فتتميز باحدى عشرة سمة أخرى : الحكم الحر ، الحكم المباشر ، نظام مركب للقانون العالمى ، القانون المدنى ، الزواج الفرد ، حرية النساء ، الحرية المدنية للجميع ، الملابس الملتصقة بالجسم ، الأبجدية البسيطة ، النثر الجدلى (المتعقل) (٩) . وفضلا عن ذلك ، فهو يرى أن التقاليد ، أكثر من القرآن ، « قد بلورت الدين والقانون فى كل واحد جامد ، مما أدى الى القضاء على كل مرونة فى النظام الاجتماعى (١٠) » ، فى حين أن قانون الاخلاق المسيحية — الأمر الذى لم يبرره بصورة واضحة —

(٧) Cromer : "The government of subject races» The Edinburgh Review, Jan. 6, 14, 27.

(٨) R. Owen : Cromer's Indian experience 122-5, 130-1.

(٩) Cromer : «East and West», Quarterly Review, no 226 (1916). 21-39.

(١٠) Cromer : Mod. Egypt, ii : 135.

يشتمل على فضائل كالأمانة ، واستقامة الخلق ، والشجاعة ، ونقاء السريرة ، ونوع من الاهتمام براحة الآخرين (١١) ٠

ان تطبيق هذه النظرة العامة على مصر يوضح الصورة ٠ فكرومر يرى أن « المصريين ليسوا أمة ، وانما تجمع عضوى لبعض العناصر المختلفة المختلطة (١٢) ٠ » وهذا الحكم الذى أصدره عام ١٩١٢ يطابق حكمه عام ١٨٨٧ : « ان مصر بلد غير محدد » ، ووصفها بأنها بلد اسلامى كما فعل « بلنت » W.S. Blunt « شيء بعيد جدا عن الصواب (١٣) ٠ » والأمر لا يقتصر على الاحتقار الذى يتعدى كل الحدود ، كما سنرى ، وانما محاولة التركيز على التقسيمات الداخلية فى مصر وبصفة أساسية التقسيمات الخاصة بالأجناس ٠ ان خمسة فصول من كتاب « مصر الحديثة » ـ (المجلد الثانى ، الفصول ٣٤ الى ٣٨) خصصت لذلك ٠ الفصلان الأولان منها (٣٤ و ٣٥) اللذان يتناول فيهما الكاتب المسلمين والأقباط يمثلان نماذج حقيقية مختارة تدل على العقلية الاستعمارية : فمن بين المسلمين يذكر الأتراك ـ المصريين « وصفتهم المميزة [٠٠٠] هى القدرة المدهشة على البغض العاجز » ٠ والزعماء الدينيون مخلوقات تافهة ، وممثلهم الأعظم ، وهو كبير القضاة ، دليل على أن «المصرين جنس لا أهمية له» ٠ والباشوات، بطبيعة الحال ، مرتبطون بامتيازاتهم ، ومهتمون بصفة خاصة باستغلال الفلاحين ٠ أما الطبقة المتوسطة فى الريف فتتميز « بالميل الى الخضوع لمشايخ القرى » ٠ والفلاحون ! « وتحت قيادة انجلترا ، فلم تلبث أشعة الحضارة أن تتسرب الى هذا الركن الذى يعتبر أقدم وأهم ركن فى القارة الأفريقية المظلمة ، وتنير بضوئها المشمس حتى كوخ الفلاح المصرى المبنى من الطين ؟ » ٠ والملاحظة يجب أن تنطلق من الأفعال : « ان العلاقات الدائمة مع الباشوات المعادين ، والمغامرين أصحاب المشروعات وغيرها من العناصر المعادية والذين يؤمنون بأن كل شيء ممكن التنفيذ في مجال الأعمال كما هي الحال في السياسة ، جديرة بأن تزعزع ايمان أى شخص كان فى خير الطبيعة الانسانية ٠ » والمستقبل ؟ سوف تتولاه السماء ، «بالرغم من جهل المصريين وما اشتهروا من نكران ٠ » والأقباط لا يفضلون غيرهم

(١١) Robert L Tignor « Lord Cromer on Islam» The Muslim World, iii (1962), no 3, 223-33 (224).

(١٢) Cromer : Paper on Egypt prepared for Lord Kitchener, 25 July 1912. in P. Magnus : Kitchener, portrait of an imperialist, London, 1958, 203.

(١٣) Cromer to Salisbury, 1-5-1887, S.P. A/52 («Egypt 1887»), in R. Owen : Cromer's Indian experience, 134

فيما يتعلق بالدين والأخلاق والفكر · وزيادة على ذلك ، فهم أطوع وأجدى ، نظرا لخبرتهم الطويلة فى الأعمال والادارة · والاســـتعمار ؟ « ان مصر يجب أن تطبع بالطابع الأوروبى · وكان الانجليز العنصر الرئيسى فى هذا التحويل [···] · ومع أن الحضارة الأوروبية ليست هى بأية حال سرير « بروكوست » ، فهى ليست مرنة للغاية · وبصفة عامة ، وعلى الرغم من جميع المحاولات ، لم يكن من الممكن اعداد السرير ليناسب المصرى ، بل كان على المصرى أن يتكيف لينام على السرير [···] · وقد أوضحت الى أى مدى لم يكن المصرى معدا لينام على السرير · » ومع ذلك ، « فان بعض العيوب ، على الأقل ، فى الخلق المصرى تعود الى التحامه بالحضارة الأوروبية فى صورتها البشعة · فلنحاول بكل روح الاحسان المسيحية ، أن نصفح ما وسعنا الجهد عن عيوب المصريين الخلقية والثقافية ، ولنبذل كل ما فى وسعنا لتقويمها (١٤) · » والضمير الحى لا يقلقه شىء : « ان الانجليزى يتطلع الى المشهد الآخر لانتصاراته الادارية ، الشهيرة فى العالم ، والتى حققها أبنـاء جنســه · يتطلع الى الهند ويقول لنفســـه بكل ثقة الجنس الامبراطورى : أريد أن انجز هذه المهمة ، فلقد سبق أن حققتها فيما مضى ، لقد نقلت الكثير من النعم الى رؤساء « الريوت » الفلاحين المزارعين (١٥) فى « البنغال » و « مدراس » وهم اصهار الفلاحين المصريين ، وستتوفر لهؤلاء الأخيرين المياه لرى حقولهم ، والعدالة فى محاكمهم ، والأمن من الطغيان الذى عاشوا فى ظله ردحا طويلا من الزمن (١٦) · » وكتب فى عام ١٨٨٧ الى « سالزبورى » يقول : « فى الظروف الراهنة سأعتبر أى اقتراح لتعيين أحد أصدقاء « بلنت » حاكما لمصر أو رئيســا لوزرائها ، اقتراحا غريبا منافيا للصـــواب ، تقريبا كتعيين أحد زعمـاء الهنود الحمر المتوحشين حاكما عاما لكندا · » ومع ذلك ، وعلى الرغم من روح الاحسان المسيحية ، يصر « كرومر » ، بعد أربعة عشر عاما من الاحتلال على رفضه أن يرى حقيقة الحركة الوطنية : « لا يمكن أن نجد مصريا واحدا ، أيا كان وبأية وسيلة كانت ، قادرا على ادارة آلة بهذا التركيب وهـــذا التعقيد

(١٤) Cromer : Mod. Egypt, ii : 168-227.

(١٥) أو rayat من العربية رعى ، يرعى — وهى عبارات تستعمل فى الهند للدلالة على المزارعين الفلاحين ·

(١٦) Mod. Egypt, ii : 130.

كالحكومة المصرية الحالية (١٧) • » ويتخذ عدم الأهلية المصرية أشكالا عدة : عدم القدرة على « رؤية أية مشكلة من الزاوية المالية » ، « الخوف من تحمل أية مسئولية فردية » ، « عدم القدرة المناسبة لممارسة وظائفهم بحزم وذكاء والنظر بعين الاعتبار الى الآخرين » ، « النزوع الى التطرف ، الخ (١٨) » •

ولا يقتصر الأمر على الرغبة فى السيطرة السياسية ، تلك الرغبة القاطعة • ان كرومر ، كما فى أسلوب حياته ، يرى أن مصر كبلد شرقى يغلب عليه الاسلام ، كتب عليه ، باختصار ، أن يبقى على الضفة الأخرى من النهر • وقد سبق أن أشار بعض المراقبين الانجليز الى أن تفسيره للاسلام يتسم « بالسطحية والعدوانية بشكل مثير (١٩) ، وهو يعتبر العقلية الشرقية « عقبة يجب التغلب عليها بدلا من اعتبارها عاملا يجب دراسته بروح من الود والتقدير (٢٠) » • « ويوضح » بلنت جيدا القطيعة المتعمدة التى عاشها «كرومر» بالنسبة للمصريين (٢١) • وماذا عن الحركة الوطنية ؟ « (أما) هؤلاء الذى يسميهم « بلنت » وطنيين ، فانا أميل الى تسميتهم متطرفين فاسدين جاهلين (٢٢) » • ان الوطنى لا يمكن أن يكون الا « مسلما هجر اسلامه أو أوروبيا هانت اصالته » يحاول « ان يكيف بعض الملابس ، سواء أكانت سياسية أو صناعية ، المصنوعة فى انجلترا [•••] على أجسام المصريين غير القابلة للتكيف (٢٣) • » ثم الجهل بلغة البلد صحافته « المحلية » • « كان ، بالفعل ، بعيدا عن نبض الحياة

---

(١٧) Baring to Salisbury, 8-5-1887, in Afaf Lutfi El-Sayed : Cromer and the Egyptian nationalists 1882-1907, th. D. Phil., Oxford, 1963, 105 : وقد نشرت فيما بعد تحت عنوان Egypt and Cromer, a study in Anglo-Egyptian rélations, John Murray, London 1968 وكذلك Cromer in R. Owen : Cromer's Indian experience, 128; Cromer : Mod. Egypt, ii : 527.

(١٨) Baring to Goschen, 23-5-1887 وكذلك Annual Report for 1906, 36, in R Owen : Cromer's Indian experience, 129.

(١٩) «Empire builder», Living Age, no 292 (1917), 753 R.L. Tignor : Cromer on Islam, 226.

(٢٠) James R. Rodd : Social and diplomatic memories, London, 1923, ii : 16 ; R. L. Tignor : Ibid., 226.

(٢١) Gordon at Khartum, London, 1912, 61.

(٢٢) Baring to Salisbury, 8-5-1887 : لطفى السيد • فرع Cromer and Egn nationalists, 105.

(٢٣) Modern Egypt, ii : 228 ; Cromer Political and literary essays, London, 1915, second series, 207.

اليومية المصرية بحيث لم يتمكن من تقدير الدور المدهش الذى كانت تلعبه الصحافة فى تحديث العربية ونقل الفكر الأوروبى الى المصريين بلغتهم العربية (٢٤) » ٠ وتقليدا لأستاذه فى التفكير ، « بورك» Burke يميل « كرومر » الى الحذر الشديد فيما يتعلق بالاصلاحات التى تتصل بالعقلية :« ان أسلم طريق فى نظرى ، كممثل للحكومة الانجليزية ، هو ان أبقى جامدا [٠٠٠] وألا أبدى أى تحمس فى حينه ، أو يكون خاليا من التبصر ، فى مجال الاصلاح [٠٠٠] ، وانما أتناول (الأمور الملتهبة) حينما اضطر اليها فقط (٢٥) » ٠

تلك هى أسس السياسة الثقافية للاستعمار البريطانى خلال الرحلة الأولى موضوع دراستنا ، ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كانت هناك « سياسة ثقافية » جديرة بهذه التسمية ٠ ويبدو من أول وهلة أن السياسة البراجماتية البريطانية لم تدخل فى مجال لم يتخذ له شكلا واضحا فى أوروبا نفسها ، على أية حال ، الا بعد ذلك بزمن طويل ٠ ومع كل ، فاذا لم يكن يوجد فى زمن « كرومر » ما يحمل هذا الاسم ، فان مجموع المبادىء التى أصدرتها السلطات المحتلة لتكون أساس تصرفاتها فى مجال التعليم والفكر تمثل سياسة ثقافية بالفعل ٠

ويقدم لنا أول تقرير من لورد « دوفرين » عرضا لحالة التعليم عام ١٨٨٣ ٠ والطابع العام لهذا التقرير هو المناداة ، فى نفس الوقت ، بتدعيم التعليم الأولى ، والتركيز فى مجال التعليم العالى ، واهمال التعليم بالعربية الفصحى ليصبح باللهجة العامية (٢٦) ٠ ومن العسير أن نقدم صورة كاملة لأفكار « كرومر » فى مجال السياسة الثقافية نظرا لعدم توفر النص الذى يتضمن جميع موضوعاتها بصورة متتالية ٠ لذلك فمن الأوفق اعادة ترتيب أفكاره ، كما نستخلصها من النصوص المختلفة المصادر ، التى نشرها بتوقيعه ، ونصوص « دوجلاس دنلوب » ، ثم مضاهاتها بما تم تنفيذه ٠ وهذه النصوص فى معظمها ، لاحقة لحدود تاريخ دراستنا ، فهى تقدم الانجازات التى تمت ، وتشير الى دوافعها وأهدافها ؛ الأمر الذى يجعلنا ضرورية فى التحليل الذى نقوم به ٠ ومن أول وهلة ، ينتسب « كرومر » الى « ماكولى » مؤكدا أنه لا مجال فى الهند ، كما فى مصر ، « للابقاء على الشعب جاهلا [٠٠٠] ليظل

(٢٤) R.L. Tignor : Cromer on Islam, 228.

(٢٥) Marquess of Zetland : Lord Cromer, London 1932, 165.

(٢٦) Lord Dufferin : Report on the Re-organization of Egypt, 63-6; J. Heyworth-Dunne : Hist. educ., 440-2.

خاضعا • (٢٧) » • وبعد صفحات ، يشير ، فى حاشية ، الى المصدر الذى استوحى منه سياسته التعليمية ، وهو « ليكى » Lecky : « ان الخطأ الكبير فى تربية الفقراء كان يكمن بصفة عامة فى أنها كانت ، بشكل واســـع وطموح أكثر مما يجب ، تعليما أدبيا • ان التربية الابتدائية يجب [•••] أن تعلم الفقراء معرفة الكتابة ومعرفة الأرقام : أما فيما عدا ذلك ، فيجب أن تكون تقنية صناعية أكثر منها أدبية ، وأن تهتم بملاحظة الحوادث أكثر من اهتمامها بأى صورة من صور التحليل أو الآراء النظرية • هناك عدد كبير من الوقائع يؤكد صحة النتيجة التى تقول بأن أنواع التربية الشعبية التى تثبت أنها أصلح وأجدى نفعا ، على المستوى الادبى والثقافى، كانت الانواع التى مزج فيها قدر ضئيل من التعليم العقلى البحت بالتدريب الجسمانى أو الصناعى » ويذهب كرومر » الى أبعد من ذلك : « كلما عشت فى الشرق كلما زاد اقتناعى فى العديد من المجالات وبالذات فى مجال التربية بأن الهند تقدم لنا الدرس الموضوعى لما يجب أن نتجنبه • لقد خلقنا منها طبقة عليا عن طريق التربية السطحية • وسمحنا [بوجود] صحافة حرة ، وعلمنا أهل البلاد سائر التصرفات التى يلجأ اليها المهيجون من انجلترا وغيرها ، ولم نفعل شيئا فى سبيل تقديم ترياق واق عن طريق الارتفاع بالمستوى العام للتربية فى البلاد ككل ، بهدف الوصول الى نوع من الموازنة الى حد ما ، مع نفوذ المهيجين [•••] • وهنا اتمسك بدرس الهند ؛ أى دون التقليل من أهمية التعليم العالى ، أبذل كل وسعى لدفع التعليم الأولى والفنى قدما • أريد أن يصبح الجيل المصرى القادم كله قادرا على القراءة والكتابة • وأريد بالمثل أن أخرج ما أستطيع من النجـارين والبنائين والمخصصين الخ ولا أستطع أن أفعل أكثر من ذلك (٢٨) » • هذا وسرعان ما حنق « كرومر » فى مصر التى ورثها زمنا عن الخديوى : « ان عملية صهر الغوغائيين لم تظهر فحسب ، انما يمكن ان نقول أنها قطعت شوطا كبيرا » ليس من السهل أبدا تكوين مصريين يرتفعون الى مستوى الأوروبيين المسيحيين ويستطيعون فى يوم ما ، أن يتطلعوا الى حكم بلادهم » • وفى انتظار ذلك : « ليس من الحكمة ولا من الانصاف ترك الشعب دون حماية فكرية فى مواجهة المشروعات الغامضة المشعوذة التى لن يتورع الدجال السياسى وهو نفسه نصف متعلم من أن يصبها فى أذنيه•

(٢٧) لورد « ماركولى » Macauley فى خطبة بمجلس العموم بتاريخ ١٠/٧/١٨٨٣ فى كروس :

Cromer : Mod. Egypt, ii, 525.

ان التعبـــــير الانجـــليزى education يترجم حسب الأحوال ، بكلمات : تربية ، تعليم ، ومن النادر تدريس •

(٢٨) Cromer to Strachey, 9-4-1906. R. Owen Cromer's Indian experience, 128.

وفى بداية هذا القرن العشرين : ليس هناك من دواء عام ممكن ضد الغوغانى الا ذلك الدواء الذى يقوم على تربية من كتب عليهم أن يكونوا ضحاياه لرفعهم الى المستوى الذى يجعلهم قادرين على كشف الدجل ، الذى يبرق فى أغلب الاحيان ، وراء بلاغته المحمومة ودجله السياسى (٢٩) » • أما مادة العمل — وهى الطفل والمراهق — فيرد وصفها بطريقه موجزة ، وهى تصدر عن علم النفس العنصرى المعملى الذى يعبر عنه Cunynghame عام ١٨٨٧ على النحو التالى : « ان أول [خاصة مميزة] هى وداعتهم العجيبة ورغبتهم فى التعلم [•••] ، وثقتهم المطلقة فى النفس [•] وهم من المهارة وسهولة الارضاء ، فى زمن يســير بحيث أنهم يقتصرون على اثارة المشكلة دون التنقيب عن أغوارها واقعين دائما فى الخطأ الذى يمكن فى اعتبار أن معرفة الكلمات هى معرفة بالاشياء (٣٠) • » ويضيف كرومر الى هذه الملاحظة ملامح أخرى عديدة تبرز سياسته الثقافية : « ان الشكلية القصــوى التى تميز الحيــاة الرسمية فى مصر [•••] • ويزج جميع الشرقيين بالقدرية فى جميع شئون الحياة العملية ؛ وهم يستسلمون عن طيب خاطر أمام الامر الواقع [•••] ان المفضل [عند الباشاوات] هو خداع أنفسهم (٣١) » • وستصبح هــذه الموضوعات ، فيما بعد ، مادة للدروس الاساسية التى يلقيها المعلمون والاساتذة الانجليز على تلاميــذ الصفوة المصرية ، فى المدارس الثانوية والعالية النادرة التى ستبقى على ظهر الوجود (٣٢) •

وهناك من بين النصوص الرسمية نصان يعبر فيهما « كرومر » عن خطة السياسة التعليمية ، انطلاقا من المفهوم العام الذى استطعنا أن نستخلصه : فأولا تقريره لعام ١٨٩٦ : « خلال السنوات الأخيرة ، وضعت الحكومة نصب عينيها هدفا ذا شقين • تمثل الاول فى الرغبة فى نشر شكل بسيط من التعليم بين السكان ، رجالا ونساء ، يتلخص فى معرفة مبادىء اللغة والحساب • أما الشق الثانى فكان يتمثل فى الرغبة فى اعداد طبقة متعلمة ذات مستوى عال يمكن أن تواجه متطلبات الخدمة في الحكومة(٣٣)»•

---

(٢٩) Mod. Egypt, ii : 534-5.

(٣٠) H. Cunynghame : "The present state of education in Egypt», Journal of the Royal Asiatic Society of Great-Britain and Ireland. xix (1887), 223-37 (231).

(٣١) Mod. Egypt, ii : 241 no. 1, 518-9, 530.

(٣٢) راجع ، بين مراجع أخرى مذكرات سلامة موسى فى : تربية سلامة موسى ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الخانجى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ٥٠ — ٦١ •

(٣٣) فى اسماعيل القبانى : دراســات فى تنظيم التعليم فى مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤ •

أما تقرير عام ١٩٠٥ فهو أكثر دلالة ؛ فتحت ضغط الحزب الليبرالى ؛ تتساءل وزارة الخارجية البريطانية عن نواقص سياسة التعليم • ويبرر « كرومر » موقفه : فالنظام الذى كان معمولا به قبل الاحتلال « وضع بكامله أساسا لتحقيق تربية أوروبية • ولم يوضع هذا النظام ، ولا يمكن اعتباره ، كتعبير كامل عن الاحتياجات الوطنية فى مجال التعليم [...] • وفيما يتعلق بالتعليم الثانوى ، وربما بعض الفروع الخاصة فى التعليم الأوروبى ، يمكن قبول بعض التقديرات العامة جدا على أنها ضرورية • ولكن مما لا ريب فيه أن الـ ٣٤ مدرسة ابتدائية تأخذ فى حسابها بصورة كبيرة احتياجات البلاد العامة والخاصة فى ذات الوقت ، بالنسبة لهذا المستوى من التعليم الاوروبى • وحتى لو اعتبرنا ان هذه المدارس الابتدائية الخاصة الأوروبية ذات فعالية ، فان زيادة عددها لا يمثل فائدة محضة للتعليم لأن ذلك يكون على حساب جهود مماثلة ثم تحويلها من المجالات التى تحقق فيها فائدة اجدى وأنفع (٣٤) • » ونجد فى مذكرة « دنلوب » الشهيرة فى عام ١٩٠٦ هذا الاعتراف بين غيره من الاعترافات : « ان نظام التعليم السائد حاليا فى المدارس الحكومية لم يوضع بهدف مواجهة جميع حاجات البلاد فى مجال التعليم الاساسى ، ولا يمكن اعتباره كذلك • ان احدى الحقائق المعترف بها هى أن هدفه هو اعداد فئات من المصريين للوظائف الحكومية المختلفة ، والمهن الفنية المختلفة على النمط الأوروبى (٣٥) •

ومن العجيب أن نرى التربويين المصريين — ومن بينهم اسماعيل القبانى (٣٦) وجرجس سلامة (٣٧) — يقتصرون على هذه الأهداف المعترف بها • ان محاولة الربط بين هذين الهدفين — التعليم الاولى السطحى ؛ تكوين مجموعة من الموظفين المميزين — بالنظرة العامة لثقافة وتعليم سلطات الاحتلال من جهة ، ونظرة « كرومر » العامة من جهة أخرى ، هذه المحاولة لم تتم • ومع ذلك فان النظر الى الملامح الايديولوجية مع أخذ الملامح التقنية فى الاعتبار بوجه خاص بين أن وراء هذه السياسة الظالمة القائمة على التمييز ما هو أهم وأخطر : فان الضرب على الرأس وعلى المصدر — فى

(٣٤) S. I. Hammad : The impact of Europe on Islam viewed in education, th. Ph. D., London, 1952, 384-5.

(٣٥) Douglas Dunlop : Note with reference to the linguistic basis of instruction in the Egyptian Government schools (10-2-1907), in Cromer : Annual Report for 1906, 108-15.

(٣٦) اسماعيل القبانى : **التربية فى مصر خلال مائة عام** ، القاهرة ، ١٩٤٨

(٣٧) جرجس سلامة : **آثار الاحتلال البريطانى فى التعليم القومى فى مصر (١٨٨٢ — ١٩٢٢)** مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ٨٣ — ٩٢

ذات الوقت كما سنرى فيما بعد ـ كان يستهدف تقليص الذكاء وافقار مصادر الهامه وموارده وضرب الانطلاقة الهائلة التى ظلت طـــول القرن التاسع عشر تحمل على ساعدها النهضة الوطنية المصرية وتزودها بالمفكرين والقادة ـ رغم بعدهم بل وانفصالهم من مصدر الابداع والخلق الحقيقيتين ، الا وهو جمهور الشعب ٠

ان نقل هذا التصور وهذه السياسة على المستوى العملى يدخل فى اطار ما اعتبره كرومر العمود الفقرى لمهمته فى مصر : « تخفيف العبء عن الخزانة الحكومية » ، أى رد الدين العمومى الى الدول الكبرى والدائنين الأوروبيين وذلك الدين الذى يجب أن « يتصدر كل ما سواه » ؛ لقد كتب بين عامى ١٨٨٢ و ١٨٩٧ يقول : « كان الجهد [ينصب] على التوازن المالى (٣٨) ٠ » ثم يعرض الأرقام : « ففى عام ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ على عهد اسماعيل ٢٩٫٠٠٠ جنيه مصرى [وفى ظل الرقابة المالية الانجلو فرنسية فى أواخر عهــد اســماعيل ، ٧٠٫٠٠٠ جنيه مصرى ، وفى عام ١٨٩٠ وبعد ثمانى سنوات من الاحتلال البريطانى ٨١٫٠٠٠ ج ٠ م ٠ وبذلك ، كان عدم توفر المال يمثل العقبة الاولى فى طريق التقدم السريع (٣٩) ٠ » والآن كيف نقيم وجهة نظر كرومر ؟ ان الخصوم والأنصار ، بل وأكثر المراقبين دقــة ، يجمعون على رفضها ٠ بقول «ميلنر» : « لقد خفضت اتفاقية لندن ميزانية وزارة المعارف العمومية الى حد بعيد ، ومع أن هذه الميزانية بدأت تتجه الى الصعود منذ عام ١٨٨٨ ، فانها الآن [١٨٩٢] لم تبلغ ما كانت عليه عام ١٨٨٤ (٤٠) ٠ ويقول لنا « تيودور روزشتين » : « على الرغم من ضغوط الدائنين ، كان اســـماعيل يخصص ٨٧٫٠٠٠ ج ٠ م ٠ كل عام للتعليم العام ، منها ٢٣٫٠٠٠ من خزانته الخاصـــة ٠ وها نحن فى عام ١٨٨٨ بعد ٢٥ سنة من اسماعيل ، نشهد ميزانية التعليم لا تتجاوز ٧٠٫٠٠٠٠ ج ٠ م [٠٠٠] وقد اتجهت هذه الميزانية الى الصعود بين ١٨٩٠ و ١٩٠٦ تحت ضغط الرأى العام المصرى والانجليزى لتبلغ ٣٦٢٫٠٠٠ جنيه مصرى [٠٠٠] ، ولكن يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن ثلاثين عاما مضت منـــذ اسماعيل وأن الشعب قد تضاعف عدده على الأقل وأن دخل الدولة زاد بنسبة ٥٠٪ وأن الحكومة التى كانت فى الماضى ترزح تحت أعباء الديون أصبح لديها احتياطى يبلغ ١٦ مليون جنيه مصرى [٠٠٠] ٠ والواقع أن هذه الـ ٣٦٢٫٠٠٠ لم تكن تمثل سوى ٣٪ من مصاريف عام ١٩٠٦ [٠٠٠]٠ وخلال الخمسة والعشرين عاما الاولى من الاحتلال بلغت حصيلة خزانة الحكومة

---

(٣٨) Annual Report for 1897

(٣٩) Mod. Egypt, II : 527-8.

(٤٠) A. Milner : England in Eg. 300.

المصرية ٢٥٠ مليون جنيه مصرى خصص ١٠٠٠ر٨٠١ر٢ فقط للتعليم أى ما يعادل ١٪ (٤١) ٠ » أما « جورج يونج » فيشير الى بيانات ج ٠ م روبيرستون الى مجلس العموم ، ويرى أنه كان من الواجب صرف مليونى جنيه مصرى عام ١٨٩٠ بدلا من الـ ٠٠٠ر٨١ التى سمح بها « كرومر » (٤٢) ٠ وتدل الاحصاءات التفصيلية لوزارة المعارف العمومية على هبوط النسبة المئوية للميزانية المخصصة للتعليم من ٨٤ر٠٪ عام ١٨٨٢ الى ٦٠ر٠٪ فقط عام ١٨٨٨ ، و ٨١ر٠٪ علم ١٨٩٢ (٤٣) ٠ أما يعقوب ارتين وكان حينئذ وكيلا لوزارة المعارف العمومية فيقول: «ان الصعوبات المالية ماكانت لتمثل عقبة فى سبيل انتشار التعليم فى بلد كبلدنا يفيض بالثروة والخير والرخاء والحيوية (٤٤) ٠ » ويقول «شيرول» : «تخصص مصر ٢٪ من دخلها لأغراض التربية مقابل نسبة تتراوح بين ٧و١٠٪ فى بلدان أخرى متأخرة (٤٥) »٠ أما ر ٠ « أوين » الذى يركز على التأثير الهندى وآراء لورد ريبون Ripon فانه يسلم بالرأى القائل بنقص المال حتى حوالى ١٨٩٥ ٠ ومن جهة أخرى يشير الى النظام المعروف باسم grant-in-aid المنح المقدمة الى المدارس : « كلما زاد التعليم العالى من سنة لاخرى اتسعت الهوة الفكرية بين الطبقات العليا وبين الطبقاب الدنيا » ؛ « يبدو أن الوقت قد آن لادخال الاجراءات العملية التى ترمى الى وضع جماهير الشعب العريضة تحت تأثير ادارة المعارف العمومية » ؛ ان مساعدة الدولة ، المسئولة فى مقابل ذلك عن الاشراف التقنى والتربوى ، يجب أن تؤدى الى تحسين مستوى التعليم الأولى والابتدائى (٤٦) ٠ ومن جهة أخرى تقرر الغاء مجانية التعليم بحجة ثراء بعض العائلات ، ولكن الواقع ان الهدف هو الحد من تكوين المثقفين المؤهلين بحجة أن « عدد الشبان الباحثين عن وظائف حكومية والمؤهلين لها سيصبح زائدا عن امعدد الممكن توظيفه (٤٧) » ٠ يجب اقامة حاجز ضد خطر « طبقة غير مرضية ومهملة يمكن أن يعضدها تشجيع الدولة (٤٨) »٠ وفى عام ١٩٠٧ كان هناك تلميذ واحد مستفيد من المجانية ، بينما فى

---

(٤١) Egypt's ruin, 314-6.

(٤٢) George Young : Egypt, Benn, London, 1927, 165-6.

(٤٣) احصاءات وزارة التربية والتعليم فى جرجس سلامة : **آثار الاحتلال** ١٠٦ ـ ٨ ٠

(٤٤) يعقوب آرتين : **القول التام فى التعليم العام** ، ١٣ ، فى جرجس سلامة ، **المرجع السابق** ، ١٠٥ ٠

(٤٥) Sir Valentini Chirol : The Egyptian problem, Macmillan, London, 1920, 220-8.

(٤٦) Annual Report for 1895, 20.

(٤٧) Annual Report for 1898, 40.

(٤٨) Annual Report for 1905, 82.

عهد اسماعيل ، لم تكن مجانية التعليم وحدها ، بل المأكل والمليس والسكن مكفولة لجميع تلاميذ المدارس الحكومية (٤٩) · ومع ذلك فان يعقوب أرتين يدافع عن فروض المصروفات على التلاميذ بحجة أن هذا الاجراء الذى يتفق والصواب يحد من دور المحسوبية التى لا محالة تعمل لصالح التلاميـذ الموصى عليهم (٥٠) – وهم أنفسهم الذين يستطيعون اداء نفقات تعليمهم – لقد ارتفع عدد التلاميذ الذين يؤدون النفقات ، خـــلال فترة دراستنا من ٦٤٣ عام ١٨٨٢ الى ٧٦٤ عام ١٨٩٣ – في حين هبط عدد الذين يدرسون بالمجان من ٥٠٠ر٢ الى ٣٣٧ر١ ، الامر الذى جعل المدفوعـات ترتفع من ٦٥٢ر٥ جنيه مصرى عام ١٨٨٧ الى ٧٧٠ر١٥ جنيه مصرى عام١٨٩١ (٥١)· وبحجة الاقتصاد كذلك ، الغيت وزارة المعارف العمومية فى بداية الاحتلال وتحولت الى ادارة بوزارة الداخلية · وبعد ذلك بقليل أعيدت هذه الوزارة غير أنها احتلت مرتبة ادنى وعهد بادارتها الى وزير الاشغال العامة الذى كان يذهب اليها مرتين فى الاسبوع ليوقع على القرارات (٥٢) وكان لابد من انتظار تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف العمومية فى أكتوبر ١٩٠٦ حتى يتأكد من جديد دور هـــذه الوزارة فى الحركة الوطنية وهى فى قمـة تصاعدها ·

لقد أدى شل الميزانية الى القضاء على الأساس المادى الذى قام عليه الجهاز التربوى فى مجمله · كان كرومر يضرب فى الصميم ،كان يرى أن العقدة الأساسية تتمثل فى المدارس الابتدائية : « لا يساورنى أدنى شك فى أنه فى أغلب الاحيان تكمن مصلحة التلاميذ أنفسهم فى ارسالهم الى الكتاتيب ليتعلموا فيها مهنة تساعدهم على الحيـــاة الشريفة ، بدلا من ارسالهم الى المدارس الابتدائية ليخدموا بعد ذلك فى وظيفة حكومية صغيرة [···] ان هدف الحكومة ليس تثبيط همم الذين يريدون تحصيل العلم فى المدارس الابتدائية ، وانما هو الحد من عدد التلاميذ الذين يلتحقون بهذه المدارس ، حتى لا يتجاوز المستوى الذى يتفق ومصلحتهم ومصلحة البلاد

---

(٤٩) الياس الأيوبى : **تاريخ مصر فى عصر الخديوى اسماعيل** ، جها ١٨٧ – ٩٥،
Louis Bréhier : L'Egypte de 1798 à 1900, 272;
اسماعيل القبانى : **A hundred years of educ. in Eg., 16.**

(٥٠) ى · آرتين : **القول التام** ، ٤٤ – ٥ ، وفى جرجس ســـلامة : **آثار الاحتلال** ١١٣ – ٤ ·

(٥١) ى · آرتين : **المرجع السابق** ، ٢٤ ، ٣٤ ، فى جرجس سلامة : **المرجع السابق** ١٢٠ – ١ ·

(٥٢) يوسف خليل جاد الله : **تطور الحركة القومية فى مصر من ١٨٨٢ الى ١٩١٩** ، رسالة للدكتوراة فى الأداب ، جامعة القاهرة ١٩٥٧ ، ١٩٥ عبد الحميـــد فهمى مطر : **التعليم والمتعامون فى مصر** . القاهرة ، ١٩٣٩ ١٧ ·

والمال هو خير وسيلة للحد من عددهم (٥٣) » • تشجيع الكتاتيب [كان أحد الاجراءات الأولى لسلطة الاحتلال هو تأجيل القرارات الخاصة بقانون رجب ١٨٦٨ والتى تقضى بتأسيس مدرسة من الدرجة الثالثة فى كل مدينة صغيرة (٥٤) • وطبقا لتقدير رفعت وفيق بلغ عدد الكتاتيب ٤٫٨١٧ فى عام ١٨٧٥ ؛ وأصبح هذا الرقم ٥٫٥٦٢ فى عام ١٨٨٠ ثم هبط الى ٣٫٦٧٩ عام ١٩٠٨ ثم الى ٣٫٦٧٩ عام ١٩٠٨ ثم الى ٣٫٥٨٢ عام ١٩٥٩ (٥٥) • ومن جهة أخرى ، يقدر أمين سامى عدد الكتاتيب بـ ٩٫٦٤٧ تضم ١٨٠٫٥٤٧ تلميذا و ١٤٫٥٨٣ معلما وذلك فى عام ١٨٩٧ (٥٦) • ينتج عن ذلك أن ١٠٪ تقريبا من الاطفال فى سن التعليم التحقوا بالدراسة ، بطريقة أو بأخرى ، وأن نسبة الأميين ظلت ثابتة ٩١٪عام ١٨٨٢ و ٩١٫٣٪عام ١٩١٨ بعد خمسة وثلاثين عاما من الاحتلال (٥٧) • ويصور على مبارك البؤس الكبير الذى كان عليه التعليم فى تلك الفترة : « ان التعليم فى مثل هذه الكتاتيب لم يكن على النهج القويم اذ أن أمر التعليم فيها موكول الى اناس بدلا من أن يكونوا سببا فى اتساع مدارك الأطفال وتهـذيبهم كما هو الغرض ، فانهم الواسطة الوحيدة فى طمس العقول ورداءة التربية لجهلهم بأحوالهم ، فيخرج التلاميذ من تلك الكتاتيب مجردين من الفوائد المادية والأدبية بعد أن يصرفوا فيهـا سنين العمر • فالواجب اذاً جعـل هذه الكتاتيب على اسلوب المكاتب الابتدائية [•••] (٥٨) • »

ثم هناك مستوى أمر المدارس الابتدائية بعد ذلك • فقد صدرت لائحتان (٨٨٧ و ١٨٩١) بانشاء شهادتى الدراسة الثانوية والابتدائية • وهما ، مفتاح الوصول الى الوظائف الحكومية • وكان تدفق التلاميذ من الأوساط المتواضعة والمستعدين لكل التضـحيات للحصـول على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية ذريعة لكرومر لأن يجعل المرتب الشهرى لحامل هذه الشهادة عشرة جنيهات مصرية (٥٩) • وتحول عدد المدارس الابتدائية من ٦٤ (ر • وفيق) أو ٢٨ (أمين سامى) فى لحظة الاحتلال الى ٣٢ فى

---

(٥٣) Annual Report for 1902, 97-8, 151.

(٥٤) جرجس سلامة : **أثار الاحتلال** ، ١٦٥ ـ ٦

(٥٥) Rifaat Wafik : L'in'struction en Egypte = Congrès National Egyptien : Oeuvres du Congrès National Egyptien (Bruxelles, 22, 23, 24 Septembre (1910), Bruxelles, s.d. (c. 1910), 144.

(٥٦) أمين سامى : **التعليم فى مصر** ، ٦٩ •

(٥٧) I. al-QabbAni : A hundred years of educ. in Eg., 15 ;

(٥٨) مذكرة ايضاحية عن التعليم فى مصر فى ١٥ يناير ، ١٨٠٩ لرياسة مجلس النظار ، فى جرجس سلامة : **آثر الاحتلال** ••• ، ١٧٠

(٥٩) ج • سلامة : **نفس المرجع** ، ١٩٩

عام ١٩١٠ (٦٠) وهبط عدد المدارس الثانوية من ٢٢ علم ١٨٨٢ الى ثلاث فقط عام ١٩٠٧ (٦١) • « ان الدولة فى مصر لا تهتم بالتعليم العالى ، انها تكتفى بنشر التعليم الفنى (٦٢) » وبدأ كرومر فى عام ١٨٨٧ نظـــام التعليم بالمصروفات • وأصبحت مدرسة المهندسخانة ، التى أغلقت عام ١٨٨٧ وأعيد فتحها بعد عامين تمنح دبلومها بقدر الاماكن المتوفرة : ٨ عام ١٨٨٧ ، ٩ عام ١٨٩٩ ، ٢٠ فقط عام١٩٠٠ (٦٣) ؛ وقد شهدت مدرسة الطب نفس المصير المحزن • فقبل عام ١٨٨٢ كانت تضم ٢٩٠ طالبا ، وفى عام ١٨٩٧ ، كان عدد أساتذتها ، وهم نحو عشرة كلهم من الانجليز ، بادارة الدكتور الأخرق « كيتنجز » Keatings يفوق عدد الطلاب (٦٤) • أما محنة مدرسة الحقوق فقد كانت عام ١٩٠٦ أيام المواجهة مع مديرها الفرنسى « لامبير » الذى اتهم بتشكيل جماعة الشبان الوطنين الملتفين حول مصطفى كامل • واصطدم تكوين المدرسين بنوايا الاستعمار الخبيثة : فانهارت دار العلوم ، فى حين أن مدرسة التوفيقية التى أنشئت عام ١٨٨١ تم اغلاقها فى عام ١٩٠٣ بحجة أنها لا تضم فى ذلك الوقت سوى طالب واحد (٦٥)؛ أما المرتبات [للمدرسين المصريين : حد سنوى أقصى ٢٤ ج • لتعليـــم القرآن ، ٧٢ ج • م للانجليزية و٢٤ للمعلمين ؛ أما بالنسبة للمدرســـين الانجليز : ٣٨٤ ج • م لتدريس القانون] (٦٦) فقد كانت تثبط همم العزائم الصادقة • وأخيرا ، ففى الازهر « لم تسفر اصلاحات الشيخين المهـــدى والامبابى الا عن اخفاء العيوب دون علاجها بدواء ناجح • كانت لوائح هذا الاصلاح [الأول] تتعلق بقيد الطلبة ، وتوزيع الاعلانات ، وتصـــنيف العلماء لكنها لم تأت بجديد لاصلاح التعليم ذاته (٦٧) • » أما التعليم الفنى فقد كانت تتحكم فيه النظرية الكلاسيكية للامبريالية التى حددها كرومر

---

(٦٠) ر • وفيق : **المرجع السابق** ، ١٤٤ ، ١ • سامى : **التعليم فى مصر** ، ١٢٤ وكذا رقم ١١ •

(٦١) R. Wafik : L'Instruction en Eg., 145.

(٦٢) Sir Auckland Colvin : The making of modern Egypt, Seeley and Co., London, 1906, 291.

(٦٣) R. Wafik : Instr, e nEg., 152; • جرجس سلامة : **آثار الاحتلال** ٢٢١ • وحول الشرخ راجع :
Vidal bey : «De l'enseignement des sciencis».
Bull. Inst. Eg., 2e série, iv (1883-4), 43-63.

(٦٤) R. Wafik : Instr. en Eg. 160.

(٦٥) R. Wafik : Ibid., 153.

(٦٦) جرجس سلامة • **آثار الاحتلال** ، ١٥٠ ، الذى يقوم بتحليل منتظم لأرشيف وزارة التربية والمعارف •

(٦٧) Ibrahim Salama : L'enseignement islamique en Egypte, th. Paris, Le Caire, 1939, 283.

فى تقريره عن الكتاتيب • ويرى أن العقبة تكمن فى عقلية المصريين : « كان المصريون حتى وقت قريب يحتقرون من يعملون فى الصناعة (٦٨) • » ويعترف « دنلوب » بالطابع الايجابى لسياسته كما يلى : « الحقيقة هى أن مصر بلد زراعى ، ولكنه فى الحدود التى تفرضها الطبيعة توجد حاجة متزايدة للمهارة الفنية فى المجالات المختلفة واحتمال تطور العديد من المهن الصناعية المفيدة (٦٩) • » صحيح أننا فى عام ١٩٠٤ فى أواخر عهد « كرومر » فى مواجهة معارضة الحزب الليبرالى • وقد انشئت مدرستان الاولى هى « مدرسة الفنون والصنائع » وكانت تواصل الدور الذى كانت تقوم به « مدرسة التطبيقات والصناعات » منذ ١٨٨٥ ، ومهمتها تكوين عدد ضئيل من العمال ذوى الكفاءة العالية ـ ٣٣ فى عام ١٩٠٥ ؛ وقد أنشئت مدرسة تجارية صغيرة فى المنصورة عـام ١٨٨٩ • ولا شىء غير ذلك (٧٠) وفى دراسة حديثة حاول بعضهم الدفاع عن « كرومر » باعتباره مجندا لتطوير الصناعة المصرية (٧١) •

وخير اجابة على ذلك هى اجابة « كرومر » نفسه فى تقريره السنوى لعام ١٩٠٥ وهو آخر تقرير قبل استدعائه ، وقد سبق ذكره وهو يعرض صورة مفزعة لمدينة القاهرة وقد خربتها وعصفت بها خمسة وعشرون عاما من اللاتثقيف • ولن نعود الى ذلك التقرير مرة أخرى •

وقد فرض « كرومر » سياسة أكثر قسوة تجاه البعثات الدراسية : ففى ٢٣ أكتوبر ١٨٨٨ قرر رياض ، وكان حينئذ رئيسا لمجلس الوزراء، أن يختصر عدد الطلبة المبعوثين الى الخارج على طالب واحد وكان قد قبل طالب آخر على نفقة أسرته بالتضامن مع الحـكومة (٧٢) • « لقد ألغينا البعثة الفرنسية ، دون أن نستبدل بها شيئا ، اللهم الا مبلغا يسيرا لاعالة بعض الشبان فى مدرسة انجليزية غير ثانوية • وهكذا تفاقمت حالةالوصاية العمومية بسبب سياسة رجعية للتعليم العام (٧٣) » •

---

(٦٨) Annual Report for 1903, 96.

(٦٩) Douglas Dunlop : Note on the progress and condition of Public Instruction in Egypt = Cromer : Annual Report for 1904, in G. Salâmah : Athâr al-thtilâl, 305.

(٧٠) R. Wafik : Instr en Eg. 154; • جرجس سلامة : آثار الاحتلال ٣٠٩ •

(٧١) E.R.J. Owen : Lord Cromer and the development of Egyptian industry, 1883-1907, Middle Eastern Studies, ii (1966), no. 4; 282-301; E.R.J. Owen : The attitude of the British officials to the development of the Egyptian iconomy 1882-1922 = Conference on the Economic History of the Middle East, School of Oriental and African Studies. Univ. of London, 4-6 July, 1967, pp. 16.

(٧٢) • سلامة : آثار الاحتلال ، ١٣٦ ـ ٧٠ •

(٧٣) Robertson, art. in North Mail (3 mars 1907), in R. Wafik : Instr. en Eg., 156.

ودراسة توزيع مواد التخصص للبلدان التى أرسل اليها الطلبة والتى قام بها م . م مشرفة (٧٤) توضح المعنى والهدف من النهضة الوطنية التى بدأها محمد على واسماعيل ، ثم معنى وهدف ضربة التعجيز التى وجهها الاستعمار البريطانى :

المواد	١٨١٣ – ١٨٨٢	١٨٨٣ – ١٩١٩
الصناعة والميكانيكا	٤٥٩	٤٥
الطب	١٣٦	٢٥
الزراعة	٢	٢
المواد العلمية	٥٩٧	٧٤
الآداب	٢١	٢١٥
مجموع الطلبة	٦١٨	٢٨٩
التوزيع على البلاد		
فرنسا	٤١٠	٥٧
انجلترا	١٠٤	٥٧
بلاد أخرى	١٠٨	١

ورغم كثرة الشواهد وتعارضها ، فانها لا تبلغ دقة الجدول الذى وضعه م.م. مشرفه . يقول هـ.ن « بريسلفورد » Brailsford :

« حينما دخلنا الى المسرح كان يوجد نظام للبعثات الدراسية يختار أعضاؤها للسفر من أجل تكملة دراساتهم فى أوروبا ، وقد الغيت هذه البعثات ، ثم أعيدت جزئيا منذ عام فقط [١٩٠٦] (٧٥) » . وتقول « جولييت آدم » : البعثة الدراسية « أوقفها الانجليز من عام ١٨٩٥ حتى عام ١٩٠٧ (٧٦) » . وأخيرا ، تعرضت المدارس العسكرية ، المستنبت الحقيقى للكوادر ، لشتى صنوف العنف من الاحتلال : « فقد ظلت مدرسة عسكرية واحدة مفتوحة الأبواب . كانت تضم مائة طالب ، فى حين كان عدد هذه المدارس فى عهد اسماعيل تسع [...] تضم ١٫٠٩٠ طالبا [...] وفى عهد الاحتلال ، كان يقبل بها التلاميذ الذين رسبوا فى شهادة

(٧٤) M.M Mosharrafa : Cultural survey of modern Egypt, Longmans, Green and Co. London 1947, ii : 54.

(٧٥) «Education in Egypt», Daily News (9 sept. 1907), in Juliette Adam : L'Angleterre en Egypte, Paris, 1922, 110.

(٧٦) J. Adam : Ibid., 100.

الدراسة الابتدائية ، أو المسجلين فى الصف الثالث الابتدائى ، بالاضافة الى عدد قليل جدا من الذين يحملون شهادة اتمام الدراسة الابتدائية (٧٧)» • وكان المنهج ، طبقا لما أوردته لجنة ضباط الحزب الوطنى ، « فى جملته أوليا ، يشمل مبادىء التاريخ والرسم والكتابة والعربية والانجليزية والجغرافيا ، وبعض المعلومات عن المشاة واللوائح العسكرية والفروسية بالاضافة الى أسماء قطع المدفع المختلفة (٧٨) » •

واذا كان يلفت انتباهنا الهبوط المذهل فى الرقم الاجمالى للبعثات الدراسية المصرية فى أوروبا ، الذى تساوى مع مثيله فى التعليم الابتدائى والثانوى والعالى ، فان أكثر ما يسترعى انتباهنا هو توجيه التخصصات : فقد كانت مصر فى عهود الخديوى تعطى الأولوية للعلم والدراسات التقنية الحديثة ؛ أما وقد حكمها « كرومر » ، فقد أجبرت على العدول عن جهازها الحديث مادامت قد اجبرت على العدول عن المضى فى طريق القوة العسكرية الصناعية ، واقتصرت على تكوين الموظفين ــ مدرسى اللغات ورجال القانون ــ القادرين على تنفيذ تعليمات السلطات المحتلة ، لا أكثر •

لقد عرضنا حتى الآن صورة مجملة للأساس الهيكلى المادى (البناء التحتى) الذى قام عليه التعليم خلال السنوات العشر الأولى من الاحتلال البريطانى • وكان جوهر السياسة البريطانية فى مجال الثقافة ينصب على مضمون التعليم نفسه • وسار الجهد فى اتجاهين : القضاء على الطابع الوطنى فى الثقافة المصرية من جهة ؛ وتحويلها فى اتجاه الارتداد الى الوراء والنزوع الى السلفية من جهة أخرى •

وهذ الهدف المزدوج ، كما يتبادر الى الذهن ، لا يحتمل كثيرا أن يتحقق بايقاع موحد • وقد اجتهد كل من « كرومر » و « دنلوب » ، فى مدى قصير ، فى جعل اللغة العربية لغة أجنبية فى ميدان الثقافة الحديثة • وقد كثر الحديث منذ تقرير « دوفرين » عن نظرية عدم فاعلية الثقافة العربية ، وكان ذلك ــ طبعا ــ يختص باللغة الكلاسيكية (٧٩) • وكتب « ميلنر » يقول : « اللغة العربية لغة عظيمة ، لكن أدبها لا يحتوى على عناصر المعرفة الحديثة • بل ان مصطلحات علم الطبيعةتنقصها • وبذلك

---

(٧٧) عبد الرحمان الرفاعى : مصر والسودان ص ١٤ ــ ٥

(٧٨) A. Review of the condition of th eEgvptian army under the British occupation. by a group of Egyptian officers = Oeuvres du Congrès National Egyptien, 240.

(٧٩) Y. Artin : Considérations sur l'instruction publique en en Egypte, Le Caire 1894. 123; Milner : England in Egypt, 296-308; Cromer : Annual Report for 1907, 175 : etc.

فان الشاب المصرى الذى يتعلم الانجليزية أو الفرنسية لا يحقق ممارسة عملية مفيدة فقط ، ولا يكون بدأ عملية التدريب العظيم الذى يكمن فى التعبير عن أفكاره فى شكل جديد فحسب ، وانما هو يحصل بذلك على الوسيلة التى تمكنه من دراسة التاريخ والجغرافيا والعلوم التى لا يمكن أن تدرس حاليا باللغة العربية (٨٠) ٠ » ويرى « كرومر » أن ذلك يمثل ثورة حقيقية فى ميدان الفلسفة : « ان مجرد اكتساب بعض الشـــبان المصريين معرفة لغوية تتيح لهم دراسة الأدب والعلوم الأوروبية ، قد أسهم بكل تأكيد ، الى حد ما ، فى خلق عادة التفكير على نحو دقيق وهى طابع العقلية الغربية بالمقارنة مع العقلية الشرقية » ٠ صدى « كيبلنج » Kipling

تعارضه ، على الفور ، القائمة التى يقدمها المؤلف نفسه للعوامل التى لعبت دورا حاسما فى تطور العقلية المصرية فى ظل الاحتلال : « الاحتكاك الدائم بالأوروبيين ذوى المثل الرفيعة ، المســـتوى الراقى الذى بلغته القضايا الاجتماعية والادارية خلال السنوات الأخيرة ، الغاء أنواع العقاب البربرية ، الغاء السخرة والتعذيب ، دخول الأفكار الجديدة التى أصبح بمقتضاها حق الملكية مقدســا ، وأصبح الناس جميعا متســـاويين أمام القانون ، الغاء العبودية فى الأعمال ، والحد من المحسوبية ، واستهجان أسوأ الرذائل جميعا ، وبصفة عامة طبع الجو الاجتماعى والسياسى المصرى ، منذ سنوات، بالأفكار التى تحول دون الانحلال الخلقى (٨١) ٠ » ان المسألة لا تتعلق بلغات أوروبية وبنماذج للعقليـات ، وانمـا هى تتعلق بادماج مصر فى السوق الاقتصادية العالمية وفرض بعض العناصر الاجتماعية ـ الاقتصادية والأيديولوجية فى المجتمعات البورجوازية الأوروبية من زاوية الاحتـــلال البريطانى ٠ ومن جهة أخرى لا يتردد « دنلوب » فى أن يفسر رفضـه أن يســتخدم أى موظف انجليزى يعرف اللغة العربية ، فيقول : « ان من شأن ذلك ألا يعطيهم عن أهل البلاد الا الأفكار الرومانسية ، كذلك سوف

---

(٨٠) Milner : England in Egypt, 302, وأيضا رأى الطبيب الشهير « رودلف فير شو » Rudolph Virchon بعد زيارته لمدرسة الطب فى سنوات ١٨٨٠ : « كل آداب الأمم المتحضرة لا تصل اليهم (٠٠٠) ولم أجـــد أحدا أعتمد عليه ليسهم اسـهاما فى علم الطب وفنه » ٠
British Medical Journal, 1885,
Robert L. Tignor : Modernization and British colonial rule, 322):
ورأى م ٠ « هاريس » الذى يعتمد على تعاليم المستشرق « براون Browne من كمبريدج» وعلى اقامته فى مصر :
(Egypt under the Egyptians, Chapman and Hall, London, s.d.

(٨١) Mod. Egypt, ii : 537.

يضيعون وقتهم فى شرح ما يجب أن يعلموه لأهل البلاد بالعربية ، بدلا من دفعهم الى تعلم الانجليزية (٨٢) » ٠

لقد أفضنا فى تحليل الوقائع التى تفند هذه النظريات (وبوجه خاص فى الفصل الثالث والرابع والتاسع) ٠ وهناك العديد من الكتاب الذين يضيفون معلومات غاية فى الأهمية ٠ يقول أ٠ سلامه : « ان الأسباب التى أعادت استخدام اللغة العربية فى الادارة هى أيضا تلك التى استبدلت بالثقافة التركية ـ الفارسية الثقافة العربية (فى عهد محمد على) ٠ وحينما عاد أعضاء البعثات الى مصر حوالى عام ١٨٣٤ كانوا يحملون بلا ريب أفكارا وطنية ٠ فهل كان ذلك بتأثير الحرية التى تذوقوها وسط الاضطرابات السياسية الفرنسية ؟ ان ذلك قليل الأهمية : فالأمر الجوهرى هو أن الاتجاه نحو تعريب التعليم ، وبالتالى نحو التعليم الوطنى الممثل فى الأزهر ، ظهر بوضوح (٨٣) » ٠ ويقول يعقوب ارتين : « بين عامى ١٨٦٤ و ١٨٨٦ ، أى خلال ٢٢ عاما ، نشرت المطبعة الوطنية ٤٥٠ كتابا بمتوسط قدره ٢٠ كتابا سنويا (٨٤) » ٠ وفى عام ١٨٨٦ ، أى بعد أربع سنوات من الاحتلال ، نشر ٢٥ كتابا علميا تم تاليفها بصفة خاصة خلال العام لطلبة مدرسة المهندسخانة ومدرسة الطب ومدرسة الفنون والصنائع (٨٥) ٠

وفى العام التالى اعترف ناظر المعارف العمومية بأن « مديرى المدارس العليا ومدرسيها يتنافسون فى اعداد الكتب التى تتفق والمناهج الجديدة ؛ وقد تم بالفعل طبع الكثير من الكتب والباقى تحت الطبع أو الدراسة (٨٦) » ٠ وفى عام ١٨٨٨ ، وهو نفس العام الذى شهد طبع التعليم بالطابع

---

(٨٢) Wilfrid Scaven Blunt : My Diaries, New Yo:k, 1921, ii : 39.

(٨٣) I. Salama : Enseignement islamique Eg., 200.

(٨٤) Yacoub Artin : L'instruction publique en Egypte, Paris, 1890.

(٨٥) وزارة المعارف العامة : التقرير الثانى لسمو الخديوى حول التعليم العام ، سنة ١٨٨٦ ، القاهرة ١٨٨٧
Diuxième rapport à Son Altesse le Khédive sur l'enseignement public, ص ١٣٦ ـ ٨ ٠

(٨٦) وزارة المعارف العامة : التقرير الثالث لسمو الخديوى حول التعليم العام فى مصر ، سنة ١٨٨٧ ، القاهرة ١٨٨٨
Troisième rapport a son Altesse le Khédive sur l'ensiqnement public, année 1887. ص ٥٤ ـ ٥ ٠

الأوروبى ، أشار على مبارك الى نشر أربعة مؤلفات علمية (٨٧) • وفى دار العلوم كانت جميع المواد تدرس باللغة العربية ، بمساعدة كتب دراسية كاملة (٨٨) • وقد كتب عثمان غالب يقول : « وتدريجيا ، انشىء التعليم الفنى والعلمى ودعم (على عهد محمد على) • كان العلماء المصريون ، الذين اختفى معظمهم ، هم الذين بعثوا المفردات العلمية التى استخدمها العلماء العرب فى أسبانيا وبغداد ثم اكملوها بتعريب المصطلحات الخاصة بالاكتشافات الحديثة • وبفضلهم وجد العلماء الأتراك والفرس مفردات جاهزة استخدموها حينما تقرر فى تركيا أن يكون التعليم بالكامل باللغة القومية (٨٩) • » أما المفكر الاشتراكى هـ•ن «برايلسفورد» ، الذى يحمل على سياسة بلاده ، فانما يفعل ذلك باسم النقود البريطانى : « اذا صدقنا ما يقوله لنا « دنلوب » ، [•••] (٩٠) ، فهو يزعم أن العلوم لا يمكن أن تدرس باللغة العربية • لقد أخذنا أرقامنا من العرب ـ وبالاضافة الى ذلك فهى تسمى بالارقام العربية ـ ويحاول بعضهم أن يقنعنا بأن العربية لغة فقيرة بحيث لا يستطيع الانسان أن يتعلم الرياضيات بهذه اللغة • وأنا شخصيا لا أعرف العربية أكثر من دنلوب ، ولكننى أعرف قليلا من التاريخ ، وأعتقد أن أوروبا فى العصر الوسيط عثرت على أرسطو عن

---

(٨٧) وزارة المعارف العامة : **التقرير الرابع لسمو الخديوى حول التعليم العام** ، سنة ١٨٨٨ ، القاهرة ، ١٨٨٩ :
Quartrième rapport à son Altesse le Khédive sur l'enseignement public.
ص ٢٢ • وقد وقع هذا التقرير : « على باشا مبارك »

(٨٨) راجع خاصة قائمة الكتب المدرسية المستخدمة بعد ذلك فى ١٩٠١ ـ ١٩٠٣ فى :
I. Salama : Enseignement islamique Eg., 248-51.

(٨٩) الدكتور عثمان غالب :
«Le mouvement national et la question de l'Instruction», L'Etendard Egyptien, 13 août 1907, in J. Adam : Angl. en Eg., 104-5.

(٩٠) يعنى « دوغلاس دنلوب » الذى جاء بعد حصوله على الدكتوراة فى الآداب من جامعة جلاسكو بوصفه استاذا فى مدرسة ارسالية اسكوتلاندية • وعينه كرومر « على التوالى مفتشا فى الوزارة واستاذا فى المدرسة الخديوية (١٨٩٠/١/٢٧) ، ثم امينا عاما للوزارة ومدير ادارة التفتيش فى الوزارة (١٨٩٧/٣/٨) ، وأخيرا مستشارا للوزارة (١٩٠٦/٣/٢٤) ، وهو منصب لم يتركه الا فى عام ١٩١٩ • راجع
J.A. Williams : A historical survey of education in Egypt (1882-1922), th. M.A., London, 1955-56, 62-84).

هناك وثيقتان تلخصان فكرة :
Report on the teaching of English in Egypt — Egypt no 2 (1890), Further correspondence respecting the finances and coditioп of Egypt, 164-5; Note With reference to the linguistic basis of instruction in the Egyptian Government schools — Egypt, no. 1 (1907), Rapport de Lord Cromer pour 1906, 108-15.

طريق الترجمة العربية ٠ كذلك فأنا أعرف قليلا من اللغة التركية ، والغريب أن اللغة التركية أخذت عن العربية كل مصطلحاتها التجريديـة والعلمية [٠٠٠] ٠ وقد قال « بيبل » Bebel ذات يوم ان اللغة الأم هى أساس كل حضارة ، وأعلنت الصحافة الامبريالية كلها انه ان لم يكن قد أصبح امبرياليا ، فقد أصبح على الأقل وطنيا ٠ ان واجبنا أن نكون وطنيين لمصر ٠ وبدلا من ذلك فقد رحنا نحتقر لغتها الوطنية ونهمل تربيتها ونحاول ـ وبشح غريب ـ أن نؤقلم فيها ثقافة أجنبية غريبة تعمل على استئصال الوطنين [٠٠٠] ٠ وكانت نتيجة هذا الأسـلوب أن أدخل فى صف المعارضة للانجليز نخبة المثقفين الذين كانت تربيتهم المهنية تعدهم ليكونوا عامل ودعاية لأوروبا (٩١) ٠ »

وقد انضم العديد من المسئولين المصريين بالتدريج الى الرأى القائل بالتعليم باللغات الأجنبية ، وبوجه خاص يعقوب ارتين وعلى مبارك ، الذى قرر عندما كان وزيرا للمعارف العمومية عام ١٨٨٨ أن « عدة مواد تدرس حاليا باللغة العربية سيتم تدريسها باللغة الفرنسية أو الانجليزية بواسطة مدرسى اللغات الأجنبية أنفسهم ٠ وبذلك ، وبضم دروس التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية الى تعليم اللغات ، فان هذه الدروس تكمل تعليم اللغات بتقديمها تمارين ممتازة مختلفة (٩٢) ٠» ويبدو أن ذلك جاء نتيجة للقرارات التي اتخذتها « لجنه المدارس » التى اجتمعت عـام ١٨٨٠ ، برياسـة على مبارك ، والتى اعترفت رسـميا بالاختلافات بين « اللغة التى تدرس واللغة الجارية ، وكذلك الاختلاف بين اللهجة ، أى لغة الأم ، وبين اللغة المكتوبة (٩٣) ٠ » وفي عام ١٨٩١ ، قرر على مبارك ، وكان رئيسا لمدرسة المهندسخانة ، ان تدرس العلوم الرياضية فقط باللغة العربية ، بسبب العدد الكبير من المؤلفات فى هذه العلوم المطبوعة فى مصر منذ خمسين عاما والمصطلحات الغزيرة الموضوعة منذ ذلك الحين والتى تسمح بمتابعة تقدم العلوم الرياضـية فى أوروبا ٠ ولكن فى عـام ١٨٩١ ، بلغ الضـغط البريطانى حدا أجبر الوزارة على أن تعهد بتدريس الرياضيات والرسم الى مدرسين انجليز ، بحجة عدم وجود العدد الكافى من المدرسين المصريين (٩٤)

---

(٩١) "Education in Egypt». Daily News, London (9-9-1907), in J. Adam : Angl, en Eg., 110-4.

(٩٢) Ministère de l'Instruction Publique : Quartrième rapport, 22.

(٩٣) J. Hevworth-Dunne : Hist, educ.. 434.

(٩٤) جرجس سلامه : آثار الاحتلال ٢٤٣

والحقيقة أن نوبار ورياض قد دبرا هذا الأمر خفيـــة كما صرح بذلــك « كرومر » ل « سالزبورى » : « لا يوجد تعليم ، جدير بهذه التسمية ، وخصوصا فى مجال العلوم الحديثة يمكن أن يحصل عليه المصريون الا عن طريق احدى اللغــات الأوروبية (٩٥) ٠ » وفى ٢٧ يناير ١٨٩٠ ، عين « كرومر » ، وكان يكره النفوذ الفرنسى ، « دوجلاس دنلوب » مفتشـــا بوزارة المعارف العمومية ومدرسا بالمدرســـة الخديوية (٩٦) ٠ وبذلت فرنسا مجهودا ضخما يفوق كثيرا ما بذلته انجلترا فى مجال المؤسسات التعليمية وخاصة الدينية منها ٠ وقد ظل النفوذ الفرنسى الواضـــح منـــذ النصف الثانى من عهد محمد على محتفظا بتفوقه فى ظل الاحتلال : فمع أن الجالية الفرنسية كانت تقل عن الانجليزية بثلاثين الف شخص ، الا أن مدارسها كانت تضم ٢٤٫٠٠٠ تلميذ مقابل ٣٫٣٠٠ تلميذ فى المدارس الانجليزية (٩٧) ٠ وقد بدأت البعثات التبشيرية الدينية الفرنسية عملها على نطاق واسع فى أواخر القرن التاســع عشر ، فى الوقت الذى كانت البعثات الانجليزية فى طريقهـا الى غلق أبوابهـــا ، وقد لعبت « جمعية الياسوعيين » بصفة خاصة دورا هاما فى ذلك الوقت (٩٨) ٠ وشـــهدت الفترة بين ١٨٨٩ و ١٨٩٩ انتصار اللغة الانجليزية على الفرنســـية فى المدارس الحكومية : ففى عام ١٨٨٩ اختار ١٫٠٦٣ تلميذ اللغة الانجليزية فى مقابل ٢٫٩٩٤ تلميذ اختاروا الفرنسية أى بنسبة ٢٦٪ و ٧٤٪ على التوالى ؛ وفى عام ١٨٩٩ أصبح الرقمان ٤٫٤٠١ و ١٫٢١٠ أى بنسبة ٧٨٪ و ٢٢٪ (٩٩) ٠ ومن الغريب ان الاهداءات الخارجية الى المكتبة الخديوية بالقاهرة فى ١٨٨٩ بينت « ان الاهداءات التى قدمتها وزارة التعليم العام الفرنسية فاقت بكثير مثيلاتها من قبل الوزارات الأخرى المماثلة ٠ أما انجلترا فقد قدمت كتابا واحدا لا غير (١٠٠) ٠ »

---

(٩٥) Cromer to Salisbury, F.O. Confidential, 5756, no 342, Cairo, 4-11-1888, in J. Williams : Survey iduc., 52-3.

(٩٦) تفاصيل اضافية حول الحياة حياة دنلوب المهنية فى هذه الحقبة فى جرجس سلامة **آثار الاحتلال** ٣٥٥ ـ ٩ ٠

(٩٧) R Galt : The conflict of French and English educational policies in Egypt American University, Cairo, 1933, 6-8; M. Travers Symons : Britain and Egypt.

(٩٨) H. Amadou : l'enseignement français en Egypte Impr. Barbier. Le Caire. 259-9 1897, 57-84; J. Sislian : British Frensh mission activities, 206-14.

(٩٩) J. Williams : Survey educ., 76.

(١٠٠) E. Plauchut : L'Egypte et l'occupation anglaise, Plon, Paris,

ان عملية تغليب الجوانب السلبية ـ الشكلية والمتعلقة بالماضى ـ للثقافة ، ابتداء من التعليم ، تدخل فى اطار تقليد قديم للغاية ، بل تقليد ألفى ، جاء ليدعم التعليم المستوحى من التراث السلفى · وسنعود الى ذلك (فى الباب السـادس) · وابتداء من « الكاتب الفرعونى » حتى موظف الخديوى ، كان الهدف دائما هو تكوين طبقة من الموظفين للسلطة ، قادرين على فهم وترجمة رغبات الحاكم الى وقائع ، الحاكم بوصفه سـيد المياه ، وقائد الحرب ، والزعيم الروحى · ان الصفة الأساسية هى اخضاع الفكر الفردى للمعيار الاجتماعى ، هى المهـارة فى النقل والاحتفاظ والتقليد · والوسيلة المميزة فى ذلك هى الذاكرة ، على حساب روح التحليل · وان كل هذا يسجل على خلفية الاقطاع الشرقى حتى بداية القرن التاسع عشر ، وان الطابع العملى للتعليم فى مصر يفهم فى اطار هذا الاقطاع الشرقى · ان الرجل المميز ، نموذج المثقف ، سـيكون هو المترجم ، والمهندس ، والضابط ، وحاكم الاقليم ؛ والمصلح الدينى · ولن يكون أبدا فيلسوف المدينة والمجتمع المدنى على غرار الطهطاوى ·

كان جوهر التعليم على عهد الاحتلال ، يتم فى اطار الشبكة الواسعة التى حافظت ، ابتداء من الكتاب حتى الأزهر ، على التراث الاسلامى · أما شبكة التعليم الحديث ، التى ركزنا عليها (الفصل الثالث والرابع) ، فقد كانت موجهة الى الصفوة الجديدة · وتتفق الآراء حول التعليم الاسلامى فى ذلك العصر · يقول « بليسييه » عام ١٨٤٩ : « ان التعليم فى الكتاب يؤدى منذ وقت مبكر الى الانحطاط العقلى لدى الشعب ، فبمجرد دخولهم المدرسة يفقد جميع التلاميـذ تقريبـا حيويتهم الطبيعية وذكاءهم الفطرى ويعلم الجميع أنهم يتكدسون فى حجرة ضيقة للغاية ، جالسين القرفصاء طوال النهار تقريبا ، ويظلون يرددون معـا وبصـوت مرتفع الآيات التى يعلمهم اياها المعلم · ان الضوضاء الرتيبة الناتجة عن هذا الصياح الدائم ، وحركات التمايل التى يحدثونهـا باجسـامهم أثنـاء دندنتهم بالفاظ لا يفهمونها ، تخلق نوعا من النشوة تشبه تلك التى تصـيب الدراويش فى بعض الاحتفالات الدينية (١٠١) · » ويقول يعقوب ارتين عام ١٨٩٠ : « كان الأسلوب التربوى المتبع فى الأزهر ، وبالتالى فى مصر كلها ، ومازال حتى أيامنا ، وفى خطوطه العـامة ، يتلخص فى الآتى : يفرض على الطفل الجاهل ، أولا ، القراءة والكتابة فى كتاب مبادىء القراءة والكتابة العربية · وفى ذات الوقت يسـتظهر جزءا محدودا من القرآن ، وما أن يتمكن من

(١٠١) Pellisseier : Rapport adressé à M. le Ministre de l'Instruction publique et des Cultes ... sur l'état de l'instruction publique en Egypte, Paris, 1849, 14-4.

معرفة الحروف وقراءة المقاطع ، حتى يفرض عليه قراءة وكتابة جزء القرآن الذى استظهره ؛ وأخيرا ، وحينما ينتهى من هذا الجزء من الكتاب المقدس ، يستمر فى قراءته ونسخه حتى يأتى عليه كله · حينئذ يصبح الطفل خاتما للقرآن · كان ذلك أولى درجات التعليم · وبهذا يعتبر الطفل عارفا بالقراءة والكتابة [···] وبالاضافة الى الفائدة التى يقدمها هـــذا المنهج التربوى للطفل باستظهاره لأجزاء الكتاب المقدس التى يســتخدمها يوميــا فى صلواته ، وتدريب ذاكرته وتوقيتها ، وفى نفس الوقت ؛ توســيع أفق معارفه ، يقدم هذا المنهج فائدة أخرى عظيمة ، الا وهى تعليــم اللغة من خلال الكتاب الوحيـــد الذى لا يختلف فيه النـطق أيا كانت القراءات المختلفة · ان الاستعمال اليومى لهذا الكتاب ، فى الصغر يعود ذاكرة العرب والسنتهم على حفظ الدروس التى يتعلمونها بالممارسة ونطقهــا وكتابتها بطريقة صــحيحة ، وبذلك يتعلمون ويطبقون بطريقة صــحيحة قواعد اللغة حتى قبل دراستها · حينئذ تبدأ بالنسبة للشاب دراسة علم الصرف والنحو بمعنى الكلمة والذى يستظهره بكامله · فقد نظمت جميع القواعد شعرا لتسهيل عملية استظهارها بالمحاكاة الصــوتية · وخلال دراسة هذه الأبيات ، يقوم الطالب بتحليلها وتطبيق القواعد التى تعلمها فى النحو والصرف [···] · اما دراســة علم النحو والصرف نفســـه ، والتعليقات عليه ، ومصطلحاته ودرجاته المختلفة ، والمنطق والبلاغة والجدل وفن الشعر ، الخ · ، فانها تستغرق فى المتوسط سنتين أو ثلاث سنوات أخرى · وفى ذات الوقت يشرع طالب العلم فى الدراســـات العليا التى تتمثل فى شروح الأحاديث النبوية والقرآن ودراسة ذلك الجزء من القانون الذى يسمى · التطبع ، ان العادات والتقاليد ، والسنة ، الخ · وتستغرق هذه الدراسات العليا فى المتوسط ما بين ثمانية أعوام الى عشرة أعوام · (وينتهى الطالب ، من دراسته) فى سن العشرين أو الثانية والعشرين تقريبا · حينئذ ، وقد بلغ هذه الدرجة ، يعتبر مدرسا أو شيخا [···] · ان التعليم ، على مختلف درجاته ، يعتمد على ذاكرة التلميذ ، منذ مبادىء القراءة والكتابة حتى أعلى درجات الدراسة ، كله يتم عن طريق الاستظهار · ولكن بقدر مابدا لنا هذا الأسلوب التعليمى ، القائم على ذاكرة الطفل ، متجاوبا مع هدف كل تربية ، بقدر ما أذهلنا اتبــاعه فى مراحل العمر التالية وحتى آخر درجة السلم التعليمى ، على حساب تنمية العقل والابداع الفكرى [···] ·

لقد أدركنا أن هذا الأسلوب ، الذى تمت دراسته بصورة كاملة ، اجمالا وتفصيلا ، قد وضع بهدف اعطاء أشكال جامدة للغة العربية والدين

الذى يعلم القانون بصفة عامة [··· وبهدف] وضع العلوم الانسانية والالهية فى قوالب جامدة (١٠٢) » · هنا اذن حكم رجل من رجال من البلاط : يمكن أن يعطينا فكرة عن العيوب القائمة ·كتب ف· « ادوارد دور » عام ١٨٧٢ يقول: « ومع مرور الوقت، لا يجد الطفل في التعليم سوى كلمات جوفاء خالية من المعنى · ان أول ما يجب أن يبدأ به اصلاح التعليم الابتدائى هو الأعراض عن الدراسة الكاملة للقرآن لاعطاء وقت أطول لدراسة جوهر العقيدة ، وزيادة التأثير على عقل الطفل (···) · ان تنمية الذاكرة [···] على حساب الذكاء أشبه برأس مال مدفون لا يجلب ربحا · فليتعلم الطفل أقل ، اذا شئنا ، لكن فليفهم ، وليكن تكوينه من الكفاية بحيث يستطيع أن يستمر فى تعليم نفسه بنفسه ، بقدر ما تتطلب احتياجات الحياة (١٠٣) · وكتب أ· سلامة عام ١٩٣٩ عن المحاضرات التى يتلقاها العلماء فى القرن التاسع عشر : « يبدأ بحديث البدعة الذى يشير الى ان البدعة هى أسوأ الأمور وكل بدعة ضلالة ومكانتها فى الجحيم (١٠٤) · »

وتصطدم عملية العرقلة البريطانية بتيار التجديد التربوى السائد · وتظل الروح التى حددها ف· « ادوارد دور » ومجهودات على مبارك تجد صداها فى التوجيهات الحكومية حتى عام ١٨٨٦ : « ان علم الفلسفة وعلم المناهج العقلية فى الآداب والعلوم يفرضان نفسيهما اليوم على كل الذين تخصصوا فى الدراسات النحوية والتربوية (١٠٥) ·» واذا كان «كرومر» قد ظهر كأكبر نصير للكتاتيب ، فقد كان هدفه هو العمل فى سبيل « الابقاء المحافظ على التأثير الاسلامى فى مجال التربية » (١٠٦) ، وأن الغرض الجوهرى لانجلترا » ـ كما يشير الى ذلك أحمد شفيق ، أحد الأنصار المتحمسين للتقارب بين القصر والقوات المحتلة ـ « كان اعداد صغار الموظفين الذين يفتقرون الى روح المبادرة والشخصية ، والهمة ، وليس تعليم الشعب تعليما جادا (١٠٧) ·» والحقيقة أن «أسلوب الكتاتيب كان نوعا من التربية لا يكلف كثيرا ولا يحتاج من الحكومة الا الى قدر ضئيل

---

(١٠٢) Y. Artin : L'instr publ. en Eg., 46-53.

(١٠٣) V. Edouard Dor : L'instr. publ. en Eg., 336-8.

(١٠٤) I. Salama : Enseignement islamique Eg., 273. no 3.

(١٠٥) Ministère de l'Instruction Publique : Deuxième Rapport, 41.

(١٠٦) George Young : Egypt, Benn, London 1927, 165-6.

(١٠٧) Ahmed Chafik pacha; L'Egypte moderne it les influences étrangères, Impr. Misr, Le Caire, 1951, 197.

من المساعدة ، ويشجع على النظرة المحافظة للحياة ويعمل على استمرارها ، وبذلك لا يشجع على تقبل تأثيرات أوروبية أخرى من شـــأنها أن تقلق البريطانيين (١٠٨) » .

ان « كرومر » « ودنلوب » ، باعمالهمـا معاول الهـدم فى القطاع الحديث ــ أى المدارس الابتدائية والثانوية والعليا ــ قد حالا دون استمرار الفكر القومى والطابع العقلى والعلمى . ومن شأن هذين العاملين ، على الرغم من الخمول الظاهر خلال السنوات الأولى من الاحتلال ، تخرج صفوات جديـدة جديرة بتولى أمور الحركة الوطنية ، وتزويـد الدولة الوطنية المستقلة بكوادرها الحديثة ، كما كانت الحال فى عهد محمد على واسماعيل وقد أجاد يعقوب ارتين وصف الوضع قائلا : « فلنتصور قطرا مسيحيا فى أوروبا تفرض عليه ، منذ العصر الوسيط ، عزلة كاملة عن بقية العالم ، وتظل عاداته وتقاليده ومعتقداته سارية حتى اليوم ، كما كانت فى القرن الثانى عشر . وجامعة جامدة منذ نشأتها ، يرجع تاريخها الى عصر الحروب الصليبية تتركز فيها الحيـاة الفكريـة بأسرها ، وتملك وحدهـا امتياز تعليمه ، جيلا بعد جيل ، نوعـا من العـلم المتحجر فى قوالب جامدة ، لم تؤثر فيها نهضة الفنون والآداب ، ولا روح البحث والتقصى ، ولا العلم الحديث » ، الأمر الذى جعل « كرومر » يبدأ من « الفكرة التى اعتنقهـــا بلا تحقق والتى تقضى بـأن المصريين لا يســـتحقون أكثر من التعليـم الابتدائى (١٠٩) » . وبأمر من «كرومر» ، لم يعد يدرس التاريخ الوطنى ، الوحيد القـادر على التوعية بالأزمة . وأصبح مقرر التـاريخ فى الصف الرابع الثانوى وهو الصف النهائى ، خاليا تماما من تاريخ مصر وتاريخ العالم الشرقى والاسلامى :

١ ــ موجز التاريخ الرومانى ، حكومته وتنظيماته .

٢ ــ مبادىء علم السياسة والتاريخ الدستورى :

(أ) الدولة :

١ ــ الأفكار القديمة والحديثة لمفهوم الدولة ؛

٢ ــ نمط الحكومات : الملكية ، الارستقراطية ، الديمقراطية .

٣ ــ وظائف الحكومة : التنفيذية ، التشريعية ، القضائية .

(١٠٨) S.I. Hammad : The Impact of Europe on Islam viewed in education 385.

(١٠٩) Y. Artin : L'instr. pub. en Eg., 140-1; D. Sladen : Egypt and the English. London, 1908, 135-8.

(ب) التاريخ الدستورى

١ - الاقطاع فى انجلترا وفرنسا والمانيا ؛
٢ - تطور الدستور البريطانى ؛
٣ - تطور السلطة الملكية فى فرنسا ؛
٤ - الثورة الفرنسية ؛
٥ - مبادىء الحكومة الدستورية ؛
٦ - موجز للدساتير البريطانية والفرنسية والألمانة والتركية والروسية والأمريكية (١١٠) ٠ »

كذلك كانت الحال بالنسبة للأدب العربى الذى لم يدرج فى المقررات (١١١) ٠ وأفضل تحليل لهذا الوضع هو ما قام به « لامبير » فى أواخر عهد « كرومر » : « كان على الطلبة طوال فترة اقامتهم فى المدرسة الثانوية تركيز انتباههم بصورة شبه مطلقة على دراسة اللغات الأجنبية ، لا باعتبارها وسيلة للثقافة ، وانما باعتبارها وسيلة لتوسيع دائرة العلاقات التجارية ، التى تناسب فيما بعد احتياجات سائقى الحمير ، أو خدم الفنادق ، لا احتياجات أطباء أو محامى المستقبل ٠ ونظرا لأنهم لم يتدربوا مرة واحدة على التأليف باللغة الوحيدة التى يستطيعون التفكير بها ، لغة الأم فانهم يجهلون تسلسل الجمل وترتيب الأفكار ٠ ان القيمة التربوية لتعليمنا الثانوى تعادل بالكاد ، فى الوقت الحالى ، القيمة التربوية للتعليم الابتدائى فى فرنسا ٠ لقد أقصى من هذه المقررات المواد التى من شأنها أن تكون ملكة الحكم على الأشياء ، وتوقظ الفضول الفكرى ، لكى يحل محلها فى المقام الأول المواد التى تعتمد بصفة أساسية على الذاكرة (١١٢) (٠٠٠) ٠» « فهل الطلبة المصريون مصابون بضعف فى الذكاء ؟ كلا طبعا ٠ فلنطبق نفس النظام على بعض الطلبة الفرنسيين ، ولنقصر فترة دراستهم الثانوية على أربع سنوات بدلا من سبع ؛ ولنلغ من مقرراتهم الفلسفة والتاريخ الطبيعى ودراسة الآثار والأدب الوطنى ؛ ولنقدم لهم كغذاء فكرى الجغرافيا ، وقليلا من التاريخ يدرس من الزاوية القصصية وبطريقة القدماء ، كنوع من الأخلاق العملية ؛ ولنضف ،

---

(١١٠) H. Hamilton Fyfe : The new, spirit in Egypt, Blackwoods, 1911, 108-9, in S. Zulficar : Imp. brit, en Eg., 311-2.
(١١١) Rifaat Wafik : L'Angleterre et l'instruction en Egypte — Oeuvres du Congr. Nat. Eg., 386-468 (394-5).
(١١٢) R. Wafik : L'Angl. et l'instr. en Eg., 394.

كتوابل ، بعض المعلومات السطحية عن العلوم الحديثة ، ولنحتم أن يدرس ذلك كله بلغة أجنبية ولنحظر عليهم فوق ذلك أن يستخدموا لغة الأم فى كتابة موضوعات التعبير ، حينئذ سنحصل بكل تأكيد على نفس النتائج (١١٣) ٠

وقد كان « دوجلاس دنلوب » فى قلب الجهاز ٠ « لقد اختار أن يركز على اقامة نظام بيروقراطى تكون رقابته فى المركز بين يديه [٠٠٠] ٠ كان المستر دنلوب يفتخر بأن أحدا لا يترقى بلا امتحان ، فى حين لم توجد امتحانات الا بما تقضى به السلطة المركزية ٠ ان منظر مصر اليوم وهى تستعد للامتحانات السنوية فى يونيو ، يذكرنى بمشهد بلد يستعد للحرب (١١٤)» ٠ « كان هدفه يتلخص فى أن يخلق فى المدارس الحكومية فاعلية تقوم على تشابه صارم ونظام حديدى (٠٠٠) ؛ لم تكن هناك أية مرونة فى النظام ٠ ولم تكن الجدة [وروح] المبادرة من جانب هيئة التدريس البريطانية تلقى أى تشجيع ؛ واذا فكر مصرى أن يجر بها ، فلا يلقى الا الاستهجان ٠ كان للنظار والمدرسون يخضعون لمجموعة لوائح صارمة وضعها دنلوب نفسه ، وأى مساس بها كان يواجه بالعقاب الصارم (١١٥) وفشل هذا النظام واضح جلى ومعترف به من الجميع ٠ فمن جانب الرسميين البريطانيين ، يقول ف٠ « شيرول » : « لم تفشل الوصاية البريطانية فشلا ذريعا ، فى أى مجال ، كما فشلت فى مجال التربية (١١٦) » ٠ ويقول « ميلنر » : لقد تجلى فشل سياستنا التربوية فى اخراج اعداد هائلة وفى تزايد دائم من المرشحين للوظائف العامة الذين يحملون الشهادات ، ولكنهم محرومون من أية ثقافة حقيقية [٠٠٠] ٠ ان عامة الشعب ليسوا أميين فحسب انما يفتقرون الى التكوين الاجتماعى والخلقى (١١٧) » ٠ أما ج٠م٠ « فورنيس » Furness ، مدير المدرسة الخديوية بالقاهرة فيقول : « كانت السيطرة الطويلة الثقيلة التى مارسها المستشار السابق للمعارف العمومية [دنلوب] كارثة كبرى لمصر فلم يكن يخفى كراهيته للمصريين على المستوى الفردى والجماعى ، وفى

---

(١١٣) R. Wafik : ibid. 146.

(١١٤) « وفيه نص دنلوب » (٦٥ – ٦٩) : J. Williams : Survey educ. 74. 70. Code of regulations relating to School organization and discipline (1890).

(١١٥) Humphrey Bowman : Middle East window, London, 1942, 42.

(١١٦) The Egyptian problem, Macmillan, London, 1920, 77.

(١١٧) British White Paper Cmd. 1131 vol. vii : Educational confidential Egypt — Milner Mission 1919-20 637-8.

ظل سلطانه كان الموظفون المصريون والانجليز يشعرون بالمرارة كلها التى يشعر بها من هو موضع لعدم الثقة والتجسس ، والخداع والاضطهاد من جانب طاغية سفيه حقود » ؛ ويتحدث ر٠س « باترسون » الذى أصبح فيما بعد المدير العام لادارة الحسابات بالمالية عن « الاعتقاد الذى جعله (دنلوب) يمارس السياسة المكيافيلية التى تتمثل فى انضاب نموهم الفكرى بهدف تأخير وصلهم الى حكم أنفسهم بأنفسهم » ؛ ويذكر «آشبى» C.R. Ashbee « الأساليب البيروقراطبة البروسية [٠٠٠] المستحيلة التنفيذ فى مجال التربية السليمة » (١١٨) ؛ الخ ٠ ويفيض المراقبون الانجليز فى نفس المعنى ٠ والاتهام الذى وجهه « روزشتين » (١١٩) ، والانتقادات الدقيقة التى نذكر منها ما أورده ف « هلبرين » : « يجب أن نعترف بأن بريطانيا العظمى لم تقم الا بالحد الأدنى فى مجال التعليم (١٢٠) » ٠ ويقول م٠ « ترافرس سيمونس » Travers Symons « كان تعليم الشعب مهملا من جانب الاحتلال حتى عام ١٨٩٠ (١٢١) ، » ويسجل ج ٠ « يونج » : « كانت أول نتيجة للتدخل البريطانى هى الاختفاء الكامل لما تبقى من تنظيمات تربوية من عهد محمد على [٠٠٠] ٠ ان الابقاء المحافظ (من جانب البريطانيين) للتأثير الاسلامى على التعليم ، واقتناعهم بأن وجود فئة مثقفة مصرية من شأنها أن تقلقهم ، كذلك احتقارهم لكل لون من التربية مغاير لما تقوم به « المدارس العمومية الخاصة » Public School. البريطانية ، وهو نظام لا يمكن تطبيقه على الشرقيين ، كل ذلك أدى الى عدم ادراكهم لما كان يجب أن يتحقق على أيديهم باعتبار أنه يمثل مسئوليتهم الأساسية (١٢٢) » ؛ ويقوح ج٠ «مارلو» : « كانوا ، من جهة ، يعترفون على الرغم منهم ، أنه من المفضل استخدام التربية كوسيلة للتقدم الخلقى والفنى ٠ ومن جهة أخرى ، كان هناك نفور سواء من صرف المال أو من تقديم الوسائل التى تؤدى الى ذلك ٠ وكانت النتيجة أن نظام التعليم القائم ترك كما هو ، وحينما بدأ يتوفر المال ، تطور التعليم بشكل لا يتفق بأى حال واحتياجات البلاد المعنوية والمادية (١٢٣) » ؛ كذلك هناك الانتقادات التى وجهها هـ٠ن٠ « بريلسفورد » ، والتى اقتبسنا

---

(١١٨) J. Williams : Survey educ. 404-9.

(١١٩) Egypt's ruin, trad, ar., 316-25.

(١٢٠) Vladimir Halperin : Lord Milner and the Empire, London, 1952,, 300.

(٢٢١) Ibid., 291.

(١٢٢) Ibid., 165-6.

(١٢٣) Frank Cass, London 1965, 188.

منها طويلا فيما سبق ؛ وتلك التى وجهها « تيجنور » Tignor (١٢٤) ٠ أما الانتقادات الفرنسية فخير من عبر عنها « جولييت آدم » والعميد « لامبير » ، وقد احتج المجلس التشريعى عام ١٨٩٥ رغم أن « كرومر » نفسه هو الذى أقامه : « من المؤسف أننا نلاحظ أن التعليم قد تدهور ، ويمكننا أن نقول ان من يتولون ادارة نظارة المعارف العمومية قد عمدوا الى تضييق نطاق التعليم وعمدوا ، لأسباب معينة ؛ الى اغلاق الأبواب فى وجه تلاميذ الأمة (٠٠٠) (١٢٥) » ــ هذا الاحتجاج يعبر ، بأكثر الألفاظ اعتدالا ، عن أفكار المصريين ــ باحثين أو مثقفين أو هيئات ــ من مختلف الاتجاهات الذين يدرسون هذه المشكلات من عهد « كرومر » حتى اليوم ٠

فمن الليبراليين الكلاسيكيين ــ اليمين المتحالف مع القوة المحتلة ــ وأنصار الأصولية الاسلامية الى الماركسيين والشيوعيين ، مرورا بالتكوينات القومية الراديكالية ، كلهم يجمعون على ادانة المضمون : تقليل الذكاء ، انضاب الفكر الابداعى والتفكير النقدى وملكة الخلق ، وغربة المحكومين ٠ ان الأبحاث والدراسات المصرية فى هذا المجال تمثل اتهاما قاسيا صريحا وقع عليه كل من رفعت وفيق ، طه حسين ، سلامة موسى ، أمين سامى ، ابراهيم القبانى ، حافظ عفيفى ، نجيب الهلالى ، شهدى عطية الشافعى ، جرجس سلامة ، أولئك الذين أجلوا ــ ضمن كثيرين غيرهم ــ تلك المرحلة الأولى من تاريخ الاحتلال البريطانى ، وهى المرحلة الأكثر اظلاما (١٢٦) ٠

محام واحد أوحد يقدم مرافعة الدفاع ضد هذا الاتهام : الا وهو « كرومر » ٠

---

(١٢٤) Modernization and British rule, 319-48.

(١٢٥) In R. Wafik : Instr. en Eg., 145.

(١٢٦) راجع تحليل آثار هذه السياسة على الثقافة فى مصر المعاصرة فى أنور عبد الملك : **دراسات فى الثقافة الوطنية** ، دار الطليعة ،بيروت ١٩٦٧ ٠ وأفضل عمل جامع حتى هذا اليوم على صعيد جمع المعلومات هو عمل ابو الفتوح أحمد رضوان Old and new forces in Egyptian education, Columbia, Univ. Press, New York, 1951, p. 184-192. والنسم البيليوغرافى الهام

● الفصل الحادى عشر

نشوء الأصولية الاسلامية

القسم الأول ـ الفكر الدينى

يجب علينا الآن أن نستأنف تحليلنا لتطور الفكر المصرى فى تلك الفترة الحاسمة التى تجمع ، فى ذات الوقت ؛ بين الراديكالية المتقدمة فى الفكر القومى السياسى والاجتماعى أثناء الحركة العسكرية والشعبية التى قادها عرابى ، ثم ضرب الثورة الوطنية عن طريق الاحتلال ، وكذا تلك المسيرة الطويلة أثناء الليل التى يمكن أن نعرف بهـا المرحلة الأولى من الاحتلال البريطانى لمصر والتى تمتد من ١٨٨٢ حتى ١٨٩٢ ـ ١٨٩٤ (١) ٠

وسيكون من الممكن ، منهجيا ، تنفيذ هذا العمل ، اما بمتابعة دراسة الراديكالية فى الفـكر الاجتماعى المسـتوحى من التحديث الليبرالى لنستخلص بعد ذلك تكوين الاتجاه الثانى الكبير ، الاسلامى ، فى الفكر المصرى الحديث والمعاصر ؛ واما بمحاولة استخلاص اللحظة التاريخية التى حدث فيها التمايز بين هذين الاتجاهين الرئيسيين ، وبالتالى ، تحليل نشوء وتكون الأصـولية الاسـلامية ٠ ان مقابلة هذين الاتجاهين والتحامهما ،

---

(١) يمكن أن يعتبر عبد الرحمن الرافعى مسئولا عن هذا التقييم السلبى بسبب روابطه مع مؤسس الحزب الوطنى ٠ وقد اقترح جاك بيرك ، فى تلخيصه الشـامل لنتاج التاريخ الحديث ، الانتهاء من هذه الخرافة الثابتة : ان « ثورة الضعفاء » و « مسـعود الشخصيات الوطنية » يبدوا له مميزين لفترة الحبل هذه .(L'Egypte, 101-44) ٠ والحق أن تاريخ « الفترات المظلمة » لتاريخنا المصرى ـ وخاصة منذ الفتح العثمانى والقرنين السابع والثامن عشر ، ثم عصر عباس الأول ـ يحتاج الى اعادة نظر شاملة ، جذرية ، انطلاقا من دراسة الجدلية الاجتماعية المصرية فى اطار خصوصيتها وكذا الدوائر والأوضاع الجيوسياسية المحيطة : أى قلب الطروح المتغربة رأسا على عقب مسيرة طويلة بدأتها كتابات المفكرين الوطنيين منذ مرحلة التحول القومية فى ١٩٤٥ ـ ١٩٧٣ ٠

وارتباط كل منهما بالاخر ، يوضح دراسه الراديكالية فى الفكر السياسى والاجتماعى خلال هذه الفترة نفسها • وقد اخترنا هذا التناول الثانى لأسباب تاريخية ، وفى نفس الوقت ، لتسهيل الدراسة ، والتحليل المترابط لهذه الدراسة نفسها ، وكذلك الاستفادة منها •

وعلينا ، منذ البداية ، أن نلاحظ مدى ما تعرضت له المشكلات التى تناولها تجديد الفكر الاسلامى فى أواخر القرن الماضى من سوء فهم مزدوج ، أو سوء تقدير : ففى حين أن الاهتمام بهذه المشكلات ، بصفة عامة ، قليل نسبيا (٢) ، فان المهتمين بها يتناولونها فى اطار الاسلاميات ، فى اطار الدراسة المقارنة للأديان ، دون أن يضعوا هذه الحركة فى السياق الوطنى ـ الثقافى الخاص بها ، مهملين الابعاد الاجتماعية والسياسية والايديولوجية ، وبذلك لا يتوصلون الى ادراك عمق هذا الاتجاه واصالته الشديدة ؛ وتأثيره على الحياة المصرية فى مجملها حتى اليوم •

---

(٢) هـ٠أ٠ر٠ « جيب » يقدم الحالة التالية فى نوفمبر ١٩٤٦ : المجلات :
Muslim World (depuis 1910), Revue du Monde Musulman (1906-26),
Muslim World (منذ 1910), Revue du Monde Musulman (1906-26),
Revue des Etudes Islamiques (1926-).

عدة دراسات اقليمية كتبها مؤلفون فرنسيون حول أفريقيا الشمالية وأفريقيا الغربية ، ودراسات هولندية حول أندونيسيا : منشور أو منشورين عامين باللغة الفرنسية والألمانية• ومن بين الكتب الذى صدر تحت اشرافه فى ١٩٣٢ ، يذكر :

The vital forces of Christianity and Islam (1915), The world of today (1925). Whither Islam ? Islam and mode.nism in Egypt (C.C. Adams, 1933), Modern Islam in India (W.C. Smith, 1943).

ويقول : « لا شىء آت من المؤلفين المسلمين » •
(Modern trends in Islam, Chicago, Oxford, 1946, viii-ix).

ان نضال التحرير الوطنى والثورات الوطنية والاجتماعية التى انطلقت منذ ١٩٤٥ فى العالم العربى والاسلامى والشرقى سوف تغير هذه اللوحة جذريا « وكذا ذلك الذى لا يزال « استشراقيا » • ولكننا نلاحظ أن معظم الأعمال المنشورة تتلافى الاهتمام على وجه التحديد بالمشكلات الخاصة بالجدلية الداخلية والخصوصية لتجديد الاسلام ، وهى مشكلات شائكة غالبا • حول نقد الشرح التقليدى راجع أنور عبد الملك و الاستشراق فى أزمة ، « **ديوجين** » العدد ٤٤ ، (١٩٦٣) ١٠٩ ـ ٤٢ ، بما فى ذلك قائمة الكتب الملحقة بالدراسة • وسوف نشار الى الأعمال والمجلات الأخيرة ذات العلاقة بالاصولية الاسلامية فى هذا الفصل •

كان بحث ١٩٦٢ (المنشور فى ١٩٦٣) فتحا لمركة متصلة ضارية ضد سياسة وفلسفة الاستشراق والمستشرقين ، وغالبيـهم العظمى من الصهيونيين ورجالات الاستعمار الجديد الذين يعملون على تحريف مسار نهضة شعوب الشرق ، وكسر شوكة القوة الشرقية المتصاعدة منذ باندونج ، واستنزاف فئة المثقفين المتغربين ، مستعملين فى ذلك امكانيات مادية هائلة ، وكافة وسائل الضغط والترغيب وخاصة بواسطة سيطرتهم على معظم النشر والصحافة والاذاعة والتلفزيون فى العالم العربى ، كما بين ذلك زميلنا ادوارد سعيد فى كتابه الجامع « الاستشراق » (الطبعة الأمريكية الأولى ١٩٨٠ ، ثم العربية ١٩٨٢) ، وغيره •

وقد اعتاد المتخصصون أن يتناولوا فكر محمد عبده انطلاقا من فكر أستاذه جمال الدين الأفغانى ٠ ان دراسة فكر الأستاذ الأفغانى لا تدخل فى اطار عملنا (٣) : فالواقع أن جميع زياراته لمصر تمت كلها قبل عام ١٨٨٢ (١٨٧١ ــ ٣٠ أغسطس ١٨٨٢) ٠ ومع ذلك فان مصر كانت أكثر ترحيبا بأفكاره من أى بلد آخر ، مصر الأرض التى قصدها كما رأينا والتى تلاقى فيها صفوة المفكرين فى العالم العربى والاسلامى الذين قاسوا من الاضطهاد العثمانى ٠ وفى مصر امتزجت أفكار الافغانى ، فى البداية ، بأفكار محمد عبده ، وكان حينئذ تلميذه : وعلى ذلك فمن خلال المرحلة الأولى من فكر محمد عبده ، نعثر على جمال الدين الأفغانى (٤) ٠

وقد كثرت الدراسات التى وضعت عن حياة ومؤلفات الشيخ محمد عبده (٥) ٠ غير أن الدارسين بدءوا ، منذ فترة قصيرة ، على ما يبدو ، يدركون الروح العصرية فى هذه المؤلفات ، باعتبارها أحد المصادر الأصلية لنظام الحكم القائم حاليا فى مصر (٦) ٠ لقد انصب الاهتمام بصفة خاصة

(٣) A. Albert Kudzi-Zadeh : «Jamal al-Din al-Argani : a Select List of articles», Middle Eastern Studies, ii (1965), no. I, 66-72, Homa Pakdaman : Djamal ed Din Assad Abadî dit Afghani, Paris, 1967, وعلى الصفة الأخرى Nikki R. Keddlie : An Islamic response to imperialism political and religious writings of Sayyid JamXl-Ad-Din «al-Afganî», Univ. of California Press, Berkeley, 1968.

(٤) لم يسمح أى بحث دقيق حتى الآن من تمييز الاسهام الشخصى لكل من الرجلين فى المقالات غير الموقعة المنشورة فى « العروة الوثقى » ٠ والتاويل المقبول هو أن المقالات المتطرفة هى للافغانى ، والمقالات الأخرى لعبده ٠

(٥) راجع البيلبوغرافيا المختارة فى :
Malcom H. Kerr : Islamic reform : the political and legal theories of Muhammad 'Abduh and Rashid Ridâ Univ. of California Press, Los Angeles, 1966, 227-37.

(٦) بدءا من جمال محمد أحمد ٠
The intellectual origins of Egyptian nationalism Oxford U.P.. London xi, 135.

وقد عممنا هذا التحليل ، وحددنا مفاهيمه ، وكذا تطوره المعاصر فى **المجتمع المصرى والجيش** ، أولا ثم فى « المدخل الى الفكر العربى المعاصر »
«Introduction à la pensée Arabe Contemporaine» — Anthologie de la Littérature Arabe Contemporaine, vol. 2 : les Essais, Paris, Le Seuil, 1965, 10-32; وكذلك فى
La Pensée Politique Arabe Contemporaine, Le Seuil 1972, 7-42.

وقد ورد النص العربى تحت عنوان « مدخل الى الفكر العربى المعاصر » فى «**دراسات فى الثقافة الوطنية** » ، ٤١١ ــ ٤٤٩ ، ثم **الفكر العربى فى معركة النهضة** ، دار الآداب ، بيرات ، ١٩ ــ ٥٩ ٠ كان هذا التحليل ــ عام ١٩٦٣ ــ هو الأساس النظرى الدقيق لسيل من البحوث والكتابات بدأت ، منذ وقت قريب نسبيا ، ان تميز بين اتجاهى الفكر المصرى والعربى المعاصر : « التحديث الليبرالى » و « الاصولية الاسلامية » ٠

على محمد عبده المفكر الاجتماعى ، مفكر المجتمع المصرى الاسلامى المتأزم ، تحت تأثير الحضارة الأوروبية . والحقيقة أنه ليس فى فكر محمد عبده أية منازع تأملية نظرية محضة ، اللهم الا فى البحث الذى كتبه فى شبابه بعنوان **«رسالة الواردات»** . ان ما أثار شعوره حدا به الى اعادة التفكير فى وسائل تكييف الاسلام مع العصر الحديث هو الحالة التى كان قد وصل اليها المجتمع المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر . نشأ محمد عبده فى أسرة من صغار الملاك العقاريين فى قلب الريف المصرى فى « محلة نصر » ، وتحول عن التعليم الذى كان سائدا فى الكتاتيب ، ليكتشف الصوفية بفضل أحد اقربائه ، الشيخ درويش خضر (٧) الذى الحقه بالطريقة السنوسية ، وفجأة اكتشف انحطاط الواقع الاسلامى والوضع السياسى ؛ فى مواجهة الاستعمار . وكانت مصر من حوله تعمل جاهدة للبحث عن طريقها . فقد كان الفكر الدستورى يحقق تقدما ملحوظا كما عرفنا (الفصل السابع ، القسم الثانى) ؛ وقد تمثلت قمة ذلك فى الثورة العسكرية بقيادة عرابى ورفاقه ، ثم فى الثورة الوطنية عام ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ وكانت السنوات الأولى من الاحتلال البريطانى هى سنوات العودة الى الذات ، بمجرد انقضاء حالة الذهول الأولى . وكان السؤال الأساسى الذى طرحه التاريخ الواقعى على المجتمع المصرى وعلى المفكرين المصريين بعد ١٨٨٢ ، هو : ما هو سبب انحطاط مصر والاسلام ؟

ولكى يجيب على هذا السؤال ، كان محمد عبده يملك ناصية ثقافة تتألف من عناصر مختلفة ، وهو ما يعتبر استثناء بين شباب الأزهر فى ذلك العصر . كانت لديه معرفة نظرية بالاسلام ، وكذلك ممارسة الحياة الصوفية على يد الشيخ درويش ، ودراسات مختارة فى الأزهر الذى التحق به عام ١٨٦٦ حيث درس فلسفة ابن سينا ومنطق أرسطو على الشيخ حسن الطويل ، والأدب العربى على الشيخ محمد البسيونى . واطلع منذ عام ١٨٧١ ، بتوجيه من الأستاذ الأفغانى ، على تاريخ الاسلام والمسألة الشرقية ومشكلات الحياة الدولية والأوضاع السياسية والفكر الأوروبى . كذلك فان اللغة الفرنسية التى درسها أثناء ذلك اتاحت له الفرصة لدراسة « ديكارت » و « ليبنتز » و « ماكس نوردو » و « رينان » و « تين » و « جيبون » و « فريزر » و « ويستر مارك » وغيرهم (٨) .

---

(٧) راجع حول هذا المعلم فى الصوفية ، عمر الدسوقى : **فى الأدب الحديث** ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٤ ، ٢٤٠ ـ ٢ .

(٨) راجع حول الدراسات فى الأزهر ، والمؤثرات التى خضع لها : محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده** ، مطبعة المنار ، القاهرة ١٩٣١ ، الفصل ١٠٢ ـ ٣٠ محمد البهى =

وفى الأوساط الاسلامية انحصر تأثير الأفغانى ، كما أشار « شارل آدامر » ، الذى يستشهد برشيد رضا ، على « نفر قليل « ولذلك فان التجديد الأدبى ظهر بين طبقة الأفندية أو المتفرنجين (٩) » ٠ أى بين البورجوازية الناشئة التى سميت بعد ذلك « وطنية » أى النابعة من الوطن بالفعل (١٠) ٠ وافكار الأفغانى التى نقصدها هنا هى تلك التى تناولها مع تلميذه المفضل فى اعداد مجلة « **العروة الوثقى** » التى نشرت فى باريس فى المنفى ، بين ١٣ مارس حتى ٢٦ أكتوبر ١٨٨٤ ٠ كان الهدف من تطهير الاسلام التقليدى هو اعادة القوة والفاعلية للدول الاسلامية المعاصرة فى مواجهة أوروبا ٠ ويعبر جمال الدين الأفغانى عن ذلك فى مقال يعرض فيه منهج المجلة ٠وهويرىأربعة شروط لاحياء الدولة الاسلامية : « الأول : صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام [٠٠٠] ، الامر الثانى أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف ، طامحة الى بلوغ الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الانسانى ، ماعدا رتبة النبوة [٠٠٠] ، الأمر الثالث أن تكون عقائد الأمة ، وهى أول رقم ينقش فى ألواح نفوسها ، مبنية على البراهين القوية والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها (٠٠٠) ، والأمر الرابع أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة [٠٠٠] ، ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس ، تتولى تهذيبها وتثقيف أودها (٠٠٠) (١١) ٠ »

Muhammed 'Abduh : eine Untersuchung seiner Erzeihungsmethode zum Nazionalbewusstsein und zur Nationalen Erhebung in Agypten, Hamburg, 1936.

عثمان أمين :
Muhammad 'Abduh, essai sur ses idées philosophiques et religieuses, Impr. Misr, Le Cairi, 1944. 28-39.

فى هذه الأطروحة نجد بوجه خاص قائمة المؤلفات العربية والأوروبية الموجودة فى مكتبة محمد عبده ، وخاصة مؤلفات الرازى ، القزوينى ، الدوانى ، الفارابى ، اخوان الصفا ، الغزالى ، ابن رشد ، ومعظم تفاسير القرآن ، الخ ؛ لكننا لا نجد ابن تيمية ؛ أما المؤلفات الأجنبية فهى المذكورة فى النص ٠

(٩) Charles C. Adams : Islam and modernism in Egypt, a study of the modern reform movement inaugurated by Mohammad Abduh, Oxford U.P., London, 1933, 15.

(١٠) حول التحليل النقدى ل « البورجوازية الوطنية » بوصفها « مفهوما حركيا عمليا ، لا علمى ، راجع أنور عبد الملك :
«Sociologie du développement national problèmes de conceptualisation», Revue de l'Institut de Sociologie, no 2-3, 1967, 249-54.

(١١) « دين الاسلام ، الأمور التى تتم بها سعادة الأمم » = **الاسلام والرد على منتقديه** ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤ ، ٨٨ ــ ٩٤ ٠

ثم ، كذلك ، فى «**المنهج**» ؛ وهو الميثاق البرنامجى للمجلة ؛ هذه السطور التى تبين الحركة المزدوجة لتفكيرهما : «ان الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين واسلافهم [···] ولا ملجىء للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوروبي فى نهايته (١٢) · » وان أوروبا قد بلغت « مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء (١٣)» ، فلابد من تجميع القلوب ؛ وتوحيد المسلمين ؛ وقطع الطريق على الأنحطاط ، وخلق منطلق جديد ·

وقد حان الوقت للانتقال الى دراسة مؤلفات الشـيخ محمد عبده نفسه · وهى تنقسم الى مرحلتين · أولا من شبابه فى الأزهر حتى عودته من المنفى عام ١٨٨٨ ــ وكان عمره عندئـذ ٣٩ عاما ــ بما فى ذلك فترة « العروة الوثقى » ، ثم من ١٨٨٨ حتى ١٩٠٥ حيث أصبح مفتى مصر ، والأستاذ الامام ، وباعث الأصولية الاسلامية · ويجمع محمد عبده فى كل مراحل حياته بين الالهيات والفكر الاجتماعى ·

ان العرض السريع لحياته ، بقلمه ، يلقى الضوء على أفكاره :

« وجدت اننى نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون ، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن ان سئمت الاسـتمرار على ما يألفون ، واندفعت الى طلب شىء مما لا يعرفون ، **فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه ، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت اليه ؛ وارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين** الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سـلف الأمة **قبل ظهور الخلاف والمرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى واعتباره** من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى وانه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا الى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس واصلاح العمل ، كل هذا أعده أمرا واحدا وقد خالفت فى الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة ــ طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم ·

أما الأمر الثانى فهو اصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء

---

(١٣) « الجريـدة ومنهجها » = « **العروة الوثقى** » ، محمد جمال ، القـاهرة ١٩٢٧ ــ ١٩٣٦ ·

(١٣) المقصود أول افتتاحية ــ برنامج للجريدة : « فاتحة الجريدة » ، **العروة الوثقى** ٢٣ ــ ٣ ــ ١٨٨٤ فى م· جمال ، **المرجع السابق** ٢٨ ·

كان فى المخاطبات الرسميه بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجما من لغات أخرى أو فى المراسلات بين الناس • وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجد الذوق وتنكره لغة العرب : الأول ما كان مستعملا فى مصـالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب من ضروب التاليف بيْن الكلمات رث خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لا فى صورته ولا فى مادته ولا يزال شىء من بقاياه الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم غير انه والحمد لله قليل • والنوع الثانى ما كان يسـتعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر وهو ما كان يراعى فيه السجع وان كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وان كان رديئا فى الذوق ، بعيدا عن الفهم ثقيلا على السمع غير مؤد للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللغة العربية • وهو وان كان يمكن رده الى أصول اللغة العربية فى صورته لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها ، ولا يزال هذا النوع موجودا فى عبارات المشايخ خاصة • ثم ورد علينا فى أخريات الأيام ضرب آخر من التعبير كان غريبا فى بابه وهو ما جاءنا من الأقطار السورية فى جريدتى «الجنة» و «الجنان» المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستانى وهذا الضرب كان يعد من غرائب الأساليب وبه أنشئت جريدة «الاهرام» فى مصر وقد محى أثره والحمد لله •

وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعا فى عمى عنه ، وبعد عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضـعف والذل الا بخلو مجتمعهم منه وذلك هـو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشـعب من حق العدالة على الحكومة • نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها وهى هذه الأمة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا • دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وانه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول وبالفعل •

جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه
والظلم قابض على صولجانه • ويد الظالم من
حديد • والناس كلهم عبيد له اى عبيد •

نعم اننى فى كل ذلك لم أكن الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير انى كنت روح الدعوة . (١٤) »

وكما نرى فان الدين هو المحور الذى تدور حوله المؤلفات والأعمال . فالتفكير الدينى هو الموجه ، خصوصا وأن الحياة الدينية والحياة الاجتماعية فى الاسلام ترتبطان ارتباطا وثيقا به . ان أول مؤلفات محمد عبده - « **رسالة الواردات** » عام ١٨٧٤ - تؤكد ان الوجود الوحيد الحقيقى هو وجود الله : « لا وجود الا وجوده ، ولا صفات الا صفاته . فهو الموجود ، وكل غيره لا موجود » . (١٥) ؛ و « أن المجرد ليس خاضعا للتغيير والتبديل والكون والفساد لتنزهه عن الحركة الحية المقتضية لذلك (١٦) .

أننا أمام مذهب «وحدة الوجود» للمفكر الصوفى الكبير «ابن عربى» (المتوفى ١٢٤٠) ، ذلك المذهب الذى يؤدى مباشرة الى التعارض بين الخالق والمخلوقات ، الى مذهب ألوهية الكون (١٧) ؛ ولكن ينبغى أن نرى فى ذلك أيضا أثر الصوفى الهائم الشيخ درويش الذى خلف أثرا عميقا فى روح محمد عبده أثناء صباه (١٨) ، وكذلك التأثير الذى مارسه جمال الدين الأفغانى ، الأستاذ الذى لا قرين له والذى « كانت فلسفته مزيجا من التصوف والفلسفة القديمة والحديثة (...)، ومذهب فلاسفة الافرنج فى الوجود قريب جدا من مذهب الصوفية القائلين بالوحدة وكان السيد يميل الى هذا المذهب (١٩) » .

---

(١٤) « سيرة الامام كما كتبها هو » = محمد رشيد رضا : **تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده** ، ثلاثة أجزاء ، مطبعة المنار ، القاهرة ١٩٣١ ، الجزء الأول ، ١١ - ١٢ .

(١٥) محمد رشيد رضا : **المرجع السابق** ، ج ٢ ، ١٣ .

(١٦) **رسالة الواردات فى نظريات المتكلمين والصوفية فى الفلسفة الالهية** ، مطبعة المنار ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٢٥ ، ١٩ .

(١٧) الشيخ محمد عبده : **رسالة التوحيد** ، **رسالة فى الدين الاسلامى** ، وهى الرسالة التى أملاها على طلبته (للمدرسة السلطانية) فى بيروت أثناء منفاه هناك عام ١٣٠٣ هـ ، الموافق ١٨٨٥م . ونشرت فى ١٨٨٧ . وهناك ترجمة عن العربية مع مقدمة حول حياة وأفكار الشيخ محمد عبده ، من قبل ب. ميشيل والشيخ مصطفى عبد الرازق ،
Libr. Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1925, xx.
ان رجوعنا الى هذا المؤلف ستتم حسب هذه الترجمة نظرا لتعدد الطبعات العربية ، وآخرها الطبعة التى قام بها طاهر الطناحى فى السلسلة الشعبية الشهرية « كتاب الهلال » رقم ١٤٣ ، فى فبراير ١٩٦٣ ، القاهرة .

(١٨) راجع تحليل هذا التأثير فى
B. Michēl et M. Abdel Razik : Ibid., xiii-xv.
الذى يتمم بالنسبة للقارىء الأوربى التحليل المشار اليه سابقا والذى قام بها عمر الدسوقى .

(١٩) محمد رشيد رضا ، **تاريخ الأستاذ الامام** ج ١ ، ٧٩ .

وكان محمد عبده قد تعرف على الأفغاني قبل ذلك بعامين أى عــام ١٨٧٢ ــ « الحكيم الكامل ، الحقيقة المتجسدة ؛ الأستاذ المحترم المقدس» الذى أطلع التلميذ على العلم الحديث والحضـــارة فى أوروبا · وفى عــام ١٨٧٦ نشر محمد عبده كتابه الثانى ، وهو مجموعة شروع حول تعليق جمال الدين الدوانى (١٤٠٧) على « **العقائد العضدية** » وهو شرح للعقيدة من وضع عضد (المتوفى عام ١٣٥٥) وهو من أنصار الأشعرى ونوع من العقلانية المتزنة بعيد كل البعد عن مذهب المعتزلة · وفى هذا الكتاب نجد جوهر منهجه فى التفسير : فعلى النقيض من عضد الدين الذى يؤيد الأشعرية وحدها من بين ٧٣ طائفة ، يرفض محمد عبده التحيز · فهـو يقول فى هذا الصدد : « انه ما من فرقة الا ويجدها الناظر فيها معضدة بكتاب ، وسنة ، واجماع ، وما يشبه ذلك (كالقياس) ، والنصوص فيها متعارضة » · اذن فكلها مشروعة ، مادامت موجودة · اذن ، فان « الوقوف على حقيقة الحق فى ذلك يكون من فضل الله وتوفيقه » ، ولا بقرار من أنصار هذه الفرقة أو تلك ، ممن يبثون الخلاف · يجب العود الى المتبع ، الى القرآن صانع الوحدة : « اثبات الصانع ، واجب الوجود ، ثم منه الى اثبات النبوات ، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم ، بدون فحص فيما تكنه الألفـاظ ، الا فيما يتعلق بالأعمال ، على قـــدر الطاقة [···] » (٢٠) ·

وفى نفس العـــام بدأ محمد عبده يكتب فى « **الأهرام** » ، ثم نظم محاضرات خاصة فى بيته كان يعلق فيها على مؤلفات ابن مسكويه (القرن الحادى عشر) حول تكوين الخلق · وعين فى عام ١٨٧٩ أســتاذا بدار العلوم · وقد شهدت الفترة التالية حتى عام ١٨٩٧ ، وهو تاريخ صدور بحثه الكبير فى العلوم الدينية ، « **رسالة التوحيد** » ، اهتماما زائدا بالعمل الاجتماعى والسياسى سنتناوله بالدراسة فيما بعد ·

ظهرت « **رسالة التوحيد** » قبل عامين من تعيين محمد عبده فى منصب مفتى الديار المصرية · وهذا البحث حول الوحدة الالهية والذى اختمر فى عقل الاستاذ أثناء المنفى فى بيروت بين عامى ١٨٨٥ و ١٨٨٩ ، يمثل الانتاج الفكرى الرئيسى فى تجديد اللاهوت الاسلامى · ولكى نكمل قائمة المؤلفات اللاهوتية التى وضعها فى النضج ، يجب أن نذكر كتابين : « **الاســـلام والنصرانية مع العلم والمدينة** » (١٩٠٥) ، والتعليق على القرآن الذى يعود

(٢٠) فى محمد البهى : **الفكر الاسلامى الحديث وصلاته بالاستعمار الغربى** ، مطبعة محمد على مخيمر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ١٣٢ ــ ٤ ·

جزء منه فقط ، وبالذات « جزء عم » وسورة العصر » الى محمد عبـــده ، وقد صدر التفسير كله فى « **تفسير المنار** » للشيخ رشيد رضا ••

وبين دائرتى الفكر الدينى بمعنى الكلمة والفكر السياسى والاجتماعى تمثل الاخلاق ، الاخلاق الفردية وأخلاق المجتمع ، حلقة الاتصال• ان المشكلة الرئيسية هنا هى مشكلة القدرية وحرية الارادة •

وقد كان هذا الوضع فعلا فى أواخر القرن التاسع عشر • وقد برع « مالكولم هـ • كير » فى وصف ذلك : « أولا ، فقدت الهوة بين المذهب السنى والمذهب الشيعى فى مجال الوضع السياسى ، أهميتها العلمية بحيث أن مسألة الاجماع لم تعد تمثل مشكلة حادة بينهما • ثانيا ، كان الوضع الاجتماعى والسياسى لجماعة المسلمين فى حالة انهيار واضح بحيث لم يعد من المحتمل افتراض أن الجماعة تستفيد من المزايا المادية لاستقامتها • فاما أن نكف عن الاعتقاد بان العقيدة والسلوك الصحيحين يكافـآن فى التاريخ واما يجب علينا أن نغير مفهومنا عند الاجماع الذى بموجبه تكون الجماعة ككل معصومة من الخطأ • ومن الواضح ، بين هذين الاختيارين ، أن الغاء أو اعادة النظر فى مبدأ الاجماع ، بصورة غير ملموسة على الأقل أخف وطأة وجذرية طالما أن ذلك لم يضرب في الصميم مفهوم العدالة الالهية كما هو حال الاختيار الاول • » والواقع أن محمد عبده تناول مشكلة حرية الارادة على المستوى « النفسى » وهو المستوى الذى يمثله مجال قـدرة الانسان في التعرف لا على مستوى «فلسفة كاملة ومنهجية للسببية»(٢١)• وقد سـبق أن تناول محمد عبده ، في مقاله الشهير في «**العروة الوثقى**» ، الفكرة التى تقول بأن القدرية تعطى الانسان شعورا عميقا بالاطمئنـان والشجاعة : « والذى يعتقد بأن الاجل محدود ، والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفهـا كمـا يشاء كيف يرهبه الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته أو ملته ؟ (٢٢) • » وقد عاد الى نفس الأفكار فى سلسلة المقالات التى كتبها فيما بعد ، ردا على جابرييل هانوتو : « والعاقل يرى الفرق الجلى بين مسألة اختيار العبد فى أفعاله وبين أثر القدرة الالهية فى أخلاق الأمم أو فى تغريز الغرائز مثـــلا « ويعترف » خطأ المسلم فى فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل وقعد عن العمل (٢٣) •» ولكن موقف محمد عبده يتحدد بوضوح فى « **الرسالة** » وهى تقع فى مركز متوســط بين

---

(٢١) M.H. Kerr : Islamic reform, 111-4.

(٢٢) م• جمال : **العروة الوثقى** ، ١٠٩

(٢٣) المقال الثانى والخامس جوابا على غابرييل هانوتو ، فى محمد رشـيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ ، ٤٢٢ ، ٤٥٧ ـ ٤٥٨ •

النظريات العقلانية عند المعتزلة وبين الاتجاه التقليدى عند الاشاعرة (٢٤) وأيا كانت المحاور الاتجاهية والفوارق النوعية الدقيقة فان محمد عبده يظل دوما وأساسيا فى الاتجاه التقليدى ، المحافظ بل والاصلى الخاص بالاشاعرة : وعلى أية حال فليس هناك أى شيء يجعل الله يتخلى عن جوهره السامى ودوره الفريد بين الجميع كخالق لكل شيء ؛ وعليه وحده تنطبق صفة الخالق — الخالق وليس المخترع كما يقول المعتزلة · ان لفظة «كسب» لم تعد ، في عصر محمد عبده ، سوى غموض يخلو من المعنى · ولا يذكر محمد عبده فى هذا اسم المعتزلة ، ولا يشير الى ما قد يجمع بينه وبين كبار الأساتذة التقليديين وبخاصة الى أبى موسى الاشعرى والامام الغزالى·

حقا ان مشكلة السببية هى المحور · ويقدم محمد عبده تفسيرا لها على المستوى المادى — مستوى أفعال البشر — متجنبا بذلك المشكلة الفلسفية· ذلك أن مناقشة مشكلة حرية الارادة قد أضرت بالمسيحية والاسلام على حد سواء ، كذلك فان الآراء المتعارضة فى الحالة الأخيرة لم تؤد الا الى تدمير الشريعة ، والقضاء على الالتزامات والغاء مشروعية الحكم العقلى غير المدبر الذى يراه محمد عبده أساسيا وتكوينيا للعقيدة الدينية (٢٥) · ويمضى الى أن الاسلام يبرهن على أن ظواهر العالم الكبرى انما تسير وفق تقليد وضعه الله فى علمه الكامل الازلى الأبدى بحيث لا يمكن لاى حدث أن يغيره (٢٦) · غير أن الله حكيم لا حدود لحكمته ، عادل لا حدود لعدله · وبالتالى ، فتصرفه الربانى العليم بكل شيء يتسم بهاتين الصفتين كنتيجة ضرورية، ولكن ليس بهدف ضمان المصلحة العامة للناس· ان مجال الاختيار ينحصر حصرا دقيقا داخل اطار الارادة الالهية ، وهذا ما يؤكده محمد عبده في آخر كتاباته التى أسهم بها في «تفسير المنار» : فعنده أن واجب كل مسلم ان يؤمن أن الله خالق جميع الأشياء ، وأن يعترف بان ينسب جميع أعماله اليه تعالى حسبما يستشعره ، وكذا عليه ان يعمل وفق الأوامر الآلهية وان

---

(٢٤) بالنسبة لـ C. C. Adams ، فان عبده « يتابع الفارابى والمعتزلة »
(Islam and modernism, 166, n. 1.)

لنذكر بايجاز الرسالتين : فبالنسبة للمعتزلة (القرن الثامن) الشىء ليس صالحا لأن الله يريده ، وانما يريده الله لأنه صالح · أما فى نظر أبى موسى الأشعرى (٨٧٣ — ٩٣٥م) فليس على الأرض من خير أو شر الا بمشيئة الله ، كل شيء بارادته ، ولا يستطيع احد أن يفعل شيئا الا أن شاء الله ·

راجع العرض التاريخى مثلا فى :
Louis Gardet and M.M. Anawati : Introduction à la théologie musulmane, essai de théologie comparée, Vrn, Paris, 1948, 39-66.

(٢٥) **رسالة التوحيد** ، ٤٣ ·

(٢٦) Cf J. Jomier : Le commentaire coranique du Mandâ ' tendances modernes de l'exégèse coranique, Maisonneuve, Paris, 1954, 135, n. 2. نفس المرجع ، ١١٨

يتفـــادى ما هو ممنوع ، وذلك باســـتعمال القدرة على الاختيار التى يستشعرها فى نفسه ، اذ أنه بعد كل هذا ، غير مطالب بأن ينظر الى ما يتجاوز كل هذا (٢٧) ٠ وبالأمس كان المعتزلة ومعهم فئة من الحنفيين يرون ان العقل يستطيع أن يهتدى بنفسه الى فكرة الواجب وكذا الشر المنكر الى جانب العقائد الصحيحة والعقائد الخاطئة ٠ أما الأشاعرة فى مجموعهم فقد كانوا يرون أن الدعوة وحدها هى القادرة على تلقين هذه الأشياء الى البشر وهو لا يدين الفريق الأول بشكل صريح ، ولكنه يرى أن هؤلاء العقليين يفتقدون وجهة الدين وأنهم ان لم يتخبطوا فى أمور هذه الدنيا ، فانهم ولا شك يتخبطون فى الأمور المتعلقة (٢٨) بخلاص النفوس وسعادتهـــا فى الحياة الأخرى ، ولعل الله يسامحهم (٢٩) ٠ وكما نرى ، فان محمد عبده يميل ناحية موقف الأشاعرة التقليدية التى تخفف من غلوائهـــا البصيرة الراشدة ٠ ان الله هو الذى يبين للناس عن طريق الوحى والالهام الطريق المستقيم ٠

ان ما أمرهم به أساسا هو الايمان بالله والاخلاص فى القيام بواجباتهم الدينية ؛ وكذا التعاون المتبادل بين جميع البشر لفعل الخير وتفادى الشر كلما أمكن ذلك (٢٩) ٠ ويظل محمد عبده يركز دائما على الاخلاص والحياة الداخلية ؛ والايمان الصادق الذى يقوم كما رأينا على العاطفية والعقل فى ذات الوقت (٣٠) ٠ وهنا يكمن جانب من أهم جوانب تفكيره الذى نرى فيه تأثير الأفعال المباشر ٠ الاخلاص حيال الأخلاق التى تنبع نفسها من الدين الاصـــح، الأكمل؛ الذى يعـــرض له مفتى الديار المصرية صـــورة مثالية (٣١) ٠ ان كل شىء يسهم فى تحقيق العمل الالهى ما دام الله قد غرس الميل الى الخير فى طبيعة الانسان (٣٢) ، ومادام الانسان يتمتع

---

(٢٧) محمد عبده ومحمد رشيد رضا : **تفسير القرآن الكريم** ، مكتبة المنار ، القاهرة ، ١٣٤٦ ــ ١٣٥٤هـ (١٩٢٦ ــ ٣٥) الجزء السادس ٥٨٩ ــ ٩٠ ٠

(٢٨) **المرجع السابق** ، جـ ١ ، ٦٩ ، ٣٣٧ ٠

(٢٦) **الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية** ، مطبعة المنار ، القـــاهرة ١٣٤١ هـ ٠ ١٩٢٢ ، ٤٧ ٠

(٣٠) C.C, Adams : Islam and modernism, 109,

(٣١) «فالذى يوحيه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدى حى عالم مريد قادر ، متفرد فى وجوب وجوده ، وفى كمال صفاته ، وفى صـــنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه » ، **رسالة التوحيد** ، تقديم طاهر الطناحى ، ص ٧٨ ٠

(٣٢) تفسير ، الفصل الثالث ، ١٤٦ ٠

باستعداد طبيعي لتلقى النعم من خالقه (٣٣) ، ومادام دور الاسلام هو الوصول بما هو ناقص بطبيعته الى مرحلة الكمال (٣٤) ٠

غير أن المجهود الذى يطلب من الانسان من حيث الطاعة الخالصة للعقيدة والايمان ، لن يغير من طبيعته الانسانية ولا ظروف وجوده : فالانسان حتى ، وهو فى الجنة ، لن يصبح ملاكا (٣٥) ٠ »

ان محمد عبده ينطلق من تحليل جمالى ينتمى الى نشأته الأزهرية ٠ تحليل جمالى لجوهر الأشياء المادية أولا ، حيث انه «لو تباينت الأذواق فرغم ذلك فان الأشياء جميله أو رديئة فى حد ذاتها (٣٦) ٠ » ثم تحليل جمالى لذاتية الأفكار » كتلك التى تحدد نوعية ما ، بما في ذلك تصورات التناهى والكمال وعفة النفس والقوة الخلفية : ان الفارق الوحيد هنا يكمن فى طريقة ادراكنا لهذه التصورات وهى طريقة عقلية أكثر منها شعورية (٣٧) ٠» وكذلك أيضا بالنسبة للانشطة البشرية مثل « الجرى الرياضى والبراعة الموسيقية (٣٨) ٠» فهذه الأشياء التى يقال عنها انها «جيدة فى حد ذاتها» لا يجوز فصلها عند فائدتها ، ولتوضيح ذلك فان العلاقة بين الجودة والفائدة توازى العلاقة المتواجدة بين الوحى والجبر فذلك الذى أصبح جبرا بالوحى الالهى هو نفسه الذى «يكون جيدا في حد ذاته» ٠ وينتمى هذا التفكير الى سلالة المعتزلة تماما بل وبشكل أدق الى سلالة الماتريدية (٣٩) ٠ اذن فلماذا الجبر الدينى الصريح ، اذا كان كل شيء خيرا فى ذاته أو لذاته؟ ذلك لأن الدوافع النفسية غير أكيدة ، ولا تفصل فى نهاية الأمر (٤٠)

ان هذا الايمان هو الايمان الدينى وليس الايمان بالطبيعة ، أى بنوع من الحتمية الموضوعية : «ان محمد عبده يصف الراحة المادية كأنها مهمة لذاتها ، بل وكأنها أهم من حركات وتعبيرات التعبد ٠ وان ما يسعى الى بيانه هو أن الدين لا يمثل عقبة فى طريق الرخاء فى هذا العالم (٤١) ٠ »

---

(٣٣) J. Jomier : Commentaire, 138, n. 1.

(٣٤) تفسير ، الجزء الثانى عشر : ٢٩٨ ، الفقرة الاولى ، الجزء التاسع : ٣ ٠

(٣٥) J. Jomiir : Commentaire, 97.

(٣٦) رسالة التوحيد ، ٤٧ ٠

(٣٧) M.H. Kerr : Islamic reform, 123-4.

(٣٨) رسالة التوحيد ، ٤٨ ٠

(٣٩) الماتريدى (توفى ٩٤٤م) ينشر تعليما موازيا ، مع بعض الاختلاف العائد للمذهب ، لتعليم الأشعرى فى البلاد ذات المذهب الحنفى (، تركيا Transoxiane الخ) ٠ وهذا رأى يؤكده D. B. Macdonald وخاصة J.N.D. Anderson راجع حول هذه المسألة : M.H. Kerr : Islamic reform, 127.

(٤٠) رسالة التوحيد ، ٨٥ ، ١٢٥ ؛ M.H. Kerr; Islamic reform 127-8.

(٤١) M.H. Kerr : Ibid, 118.

ولكننا لا نجد ، فى أى جانب من جوانب تفكيره ، النزوع الصوفى الذى نجده عند الغزالى ٠

تلك هى أفكار محمد عبده الرئيسية فى العقيدة الدينية ٠ والأسلوب مستمد من نفس الروح ، ان الأساس ؛ قاعدة كل تفكير دينى كما رأينا ؛ هو القرآن٠ وتفسير النص المقدس يتم عن طريق الحس السليم والبصيرة الراشدة بعد أن يتم تسليك وتهذيب غابة التقليد ٠ ان محمد عبده لا يعود الى نقد سابق أو أبحاث قديمة، وانما يعتمد على خبرته الشخصية المباشرة٠ وهو بذلك لا يرفض أن يتخذ كنقطة انطلاق أو اختلاف أصحاب علم الكلام التقليدى والمدرسة الفلسفية الاسلامية فحسب ، بل يرفض كذلك وقبل كل شىء كل ما حققته العلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر ، وهو ما يكاد يجهله تماما (٤٢) ٠ والنتيجة : فكر دينى تقليدى أرثوذكسى فى جوهره ، خصوصا فيما يتعلق بالله والرسول ، معتدل فى المسائل الثانوية ، ينبع عن بصيرة راشدة ؛ صـــائبة متسامحة تنشـد التوازن وتحفظ بدورها أسلوب أخلاق عملية مقبولة مفيدة (٤٣) ٠

ان الكفاح ضد اسلوب « التقليد » ينبع من اعتبارات فلسفية مشوبة بالنزعة العملية (البراجماتية) : فمادام العقل الانسانى واحدا عبر الأزمان وما دام البشر جميعا يتمتعون بنفس الادراك السليم فان من حق كل انسان أن يكتشف الحقيقة التى يتضمنها القرآن مباشرة ودون وساطة الشارحين والمعلقين احياء لروحه ٠ وبهذا المجهود ، بهذا الاجتهاد من جانب كل انسان يحصر نطاق غاية « الكلام » ، وتصبح الكلمة للقرآن وادراك المؤمنين السليم

---

(٤٢) اضطر C. C. Adams وهو أكثر المؤلفين الأوربيين جميعا قربا من الشيخ عبده ، أن يعترف بذلك : [٠٠٠] أما بالنسبة للعلم ، فانه يبدو شديد التأخر بصورة مدهشة ، كما بين « هورتين » Horten ، مؤكدا على سبيل المثال أن الجبال تجمد القشرة الأرضية باعتبارها تشكل قاعدتها وتحول بذلك وبين المواد المضغوطة الموجودة داخلها من الانفلات ؛ وأن البحر يغطى الجحيم ، كما يبين البحث العلمى وكما تؤكد ذلك الانفجارات البركانية ، الخ » ٠

(Islam and modernism, 136-7). Max Horten : «Muhammad Abduh, sein Leben und seine theologischphilosophie Gedankenwelt», Beitrage sur Kenntnis des Orients, xiii (1916), 84-114; xiv (1917), 74-128.

(٤٣) راجع فكر الشيخ محمد عبده السنى أساسا :

C.C. Adams : Islam and modernism. 115 : L. Gardet et M.-M. Anawati : **Théologie musulmane, 171-3; M.H. Kerr : Islamic reform, 103-52;**

وخاصة عبد الله محمود شحاته : **منهج الامام محمد عبده فى تفسير القرآن** ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٦٣ ، الذى قدم له الشيخ محمد أبو زهرة ، الأمر الذى يشير الى رد فعل واضح ضد العداء التقليدى لشيوخ الأزهر ، باستثناء الشيخين مصطفى عبد الرازق ومصطفى المراغى ، ازاء فكر الشيخ محمد عبده ٠

(٤٤) • كذلك ولكى يتم فهم هذه الدعوة الموجهة الى جمهور المؤمنين ، بعيدا عن سلطة الشيوخ والطوائف الدينية والتقليد المتمثل فى الازهر الشريف، يجب أن يملك المسلمون وسيلة لغوية واضحة ، خليقة بأن توصلهم الى مكتب الفكر القرآنى • لذلك ، فإن « اصلاح أساليب كتابة اللغة العربية » يمثل بالنسبة لمحمد عبده هدفه الثانى فى الحياة • ان احياء وتجديد أمهات الكتب الكلاسيكية فى اللغة العربية والأدب العربى ، تلك الحركة التى كان محمد عبده رائدها فى مصر (٤٥) ، تقدم الى المثقفين المسلمين الوسيلة لتملك ناصية اللغة الكلاسيكية ، فى حين أن تبسيط واثراء أساليب الكتابة الصحفية ، تلك الحركة التى بدأها بوجه خاص أثناء تحريره للطبعة العربية من « الوقائع المصرية » (١٨٨٠/١٠/٩ ــ ١٨٨٢/٥/٢٩) ، تساعد جمهور القراء على الرجوع الى القرآن ؛ من زاوية الحياة اليومية (٤٦) •

أما النتائج التى توصل اليها محمد عبده فى مجال النقد والتاريخ فقد كانت أكثر خطورة • فمادام القرآن هو المصدر الوحيد للحقيقة فلا

---

(٤٤) « ١ ــ اخضاع حوادث الحياة القائمة فى وقته لنصوص القرآن الكريم ، اما بالتوسع في المعنى ، أو بحمل الشبيه على الشبيه •

٢ ــ اعتبار القرآن جمعية وحدة واحدة متماسكة ، لا يصح الايمان ببعضه ، وترك بعض آخر منه ، ثم فهم بعضه متوقف على فهمه جميعه •

٣ ــ اعتبار السورة كلها أساسا فى فهم آياتها ، واعتبار الموضوع فيها أساسا فى فهم النصوص جميعها التى وردت فيه •

٤ ــ ابعاد الصنعة اللغوية عن مجال تفسير القرآن ، وابعاد تفسيره عن أن يجعل مجالا لتدريب الملكة اللغوية •

٥ ــ عدم اغفال الوقائع التاريخية ــ فى سير الدعوة الى الاسلام ــ فى تفسير الآيات التى نزلت فيها •

والشيخ عبده بهذا المنهج فى تفسير القرآن الكريم ، لم يعد للقرآن حرمته واعتباره فقط ، بل رسم منه دائرة تستطيع أن تحيط بالحياة الانسانية ، فى حاضر الانسان المسلم ، كما أحاطت ، فى الماضى البعيد ، بحياة المسلم على عهد الدعوة ، وفى العهد القريب منها بعد ذلك » •

(د• محمد البهى : **الفكر الاسلامى** ••• ، ١٤٣) •

(٤٥) خاصة ، طبعاته من « **شرح كتاب نهج البلاغة** » (بيروت ١٨٨٥) ؛ « **شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى** » (بيروت ١٨٨٩) ، « **المخصص** » لابن سيده ، بالتعاون مع الشنقيطى (١٨ جزءا ، القاهرة ١٨٩٨) ؛ « **أسرار البلاغة** » لعبد القادر الجرجانى (القاهرة ١٩٠٢) ، ولنفس المؤلف : « **دلائل الاعجاز** » ، بالتعاون مع الشنقيطى (القاهرة ١٩٠٣) ، الخ •

(٤٦) بالاضافة لكتب عامة عن الصحافة العربية ، أشير اليها مرارا ، راجع ابراهيم عبده : **تاريخ «الوقائع المصرية»** ، ٨١ ــ ١٠٠ ، وعبد اللطيف حمزة : **أدب المقالة الصحفية فى مصر** ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ، الجزء الثانى : ٥٧ ١٠٣ •

ينبغى البحث عن أى مطابقة أو موازنة مع نصوص التوراة أو تلك التى ترجع الى مصادر جاهلية سابقة على الاسلام (٤٧) • ومحمد عبده يرى « ان تاريخ مرحلة ما قبل الاسلام مغلوط فى الأساس ، نظرا لانعدام الضامنين ، ومن ثم لاستحالة أية استمرارية فى نقل الروايات • » ومن ثم يصبح لزاما على العالم أجمع أن يعتبر القرآن وكأنه « بداية تاريخ جديد للانسانية • (٤٨)»

هناك منجزات العلوم التاريخية والاساليب الجديدة فى النقـد ، وتاريخ النصوص ، والتاريخ المقارن للأديان الى جانب كثير من العناصر التى استغنى عنها محمد عبده أو تجاهلها • أن تفسير النهضة الأوروبية بالتأثير الاسلامى فقط — « شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام » (٤٩) — يثير الدهشة • ليس الهدف هو استخدام النقد التاريخى لاعادة صياغة التاريخ الحقيقى والعودة من جديد ، على أرض صلبة ؛ الى بناء تاريخ جديد واقعى خصيب ، وانما الهدف ؛ بعد تنقية الاسلام؛ هو البحث فى الاسلام عن وسائل اقامة صرح أخلاقى للمسلمين اليوم ، أى فى كلمة : أحياء وتقوية الشعوب والدول الاسلامية المعاصرة •

---

(٤٧) **التفسير** ، الجزء الثانى ٤٧١ •

(٤٨) **المرجع السابق** : الجزء الأول ٣٤٧ ؛ الجزء الثانى ٤٧١ — ٢ ؛
J. Jomier : Commentaire, 117-8.

(٤٩) **الرسالة** ، تقديم طاهر الطناحى ، ص ٢١٣ •

من بين الأهداف الثلاثة التي كان يسعى اليها محمد عبده ، كان الهدف الثالث وحده يندرج مباشرة في المجالين الاجتماعي والسياسي • ان فكر مفتي الديار في هـذا المجـال ليس ثانويا ، لكنه بالأحرى مسـاعد بالنسبة للدين •

ذلك ان الدين ، وحده ، هو القادر على توحيد الأمة ، وتجسيد الوعي الوطني ، ودعم التضـامن بين مختلف عناصر المجتمع • والاصلاحات العقائدية ينبغي أن تتيح للدين أن يلعب دور الأيديولوجية الوطنيـة • وهو يقول في تعليقه على القرآن ما معناه ان اتباع الرسل وهدى الدين هما أساس كل حضارة ، مادام ان تقدم أمور الفكر هو الذي يحفز التقدم المادي (١) •

وهو فكر يلتقي بالفكر الذي كان محور مرحلة الجهاد في « **العروة الوثقى** » :

« ان الاصول الدينية الحقة المبرأة من محدثات البدع تنشيء للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشـمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضـائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي الى أقصى غاية في المدنية (٢) » •

وذلك لان « جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفي زواياها نور خفي من محبة ، فلا يحتاج القائم باحياء الامة الى نغمة واحدة يسرى نفسها في جميع الارواح (٤) • »

ومرة أخرى يعلن محمد عبده عن اتجاهه العملي البراجماتي • غير أن آراءه الاجتماعية تظل في جملتها ، وبصـفة أساسية ؛ دينيـة

---

(١) « تفسير للآية ٤ : ١٤ » في
C. C. Adams : Islam and modernism, 167.

(٢) « ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها » : م جمال : العروة الوثقى

(٣) « النصرانية والاسلام واهلها » : المرجع السابق ص ٦٥ •

اسلامية (٥) · اننا فى عام ١٨٨٤ ، فى فترة المنفى بباريس ، ولم يحاول رئيس تحرير « **العروة الوثقى** » أن يجد فى الراديكـــالية الليبراليـــة والجمهورية ، ولا نقول فى الاشتراكية ، العنصر المحرك للنهضة المصرية والاسلامية ·

ان موقفه تجاه السياسة ، وأفكاره السياسية نفسها ، تنم عن محافظ متبصر ، بل ومرتاب فى المثالية القومية والثورية المتمثلة فى حركة أحمد عرابى ، ثم مصطفى كامل · ان الحزب العسكرى الذى أخذ على عاتقه فى فى عام ١٨٨١ — ١٨٨٢ المطالب الديمقراطية للحركة الوطنية قد اصطدم بمعارضة محمد عبده : «ان أول ما يجب أن نبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيمة [···] · وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له· ان الامة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة فى ادارة شؤونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما تطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لانه ليس تصويرا لاستعداد الأمة ومطلبها ، ويخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالا أجنبيا (٦) » ·

وفى السنوات التى سبقت ثورة ١٨٨٢ مباشرة ، وكان محمد عبده قد عين عام ١٨٧٧ أستاذا بالأزهر ، ثم بدار العلوم عام ١٨٧٩ ، حيث

---

(٥) وهذا هو طريق كل المصـــلحين · راجع أحمد أمين : **زعماء الاصلاح فى العصر الحديث** ، القاهرة ١٩٤٩ ، ٣٣١ ·

(٦) محمد رشـيد رضا : **تاريخ الأســـتاذ الامام** ، الجزء الأول : ١٤٨ — · يذكر المؤلف النص التالى للخطاب الذى ألقاه محمدعبده لدى الاجتماع المنعقد مع قادة الثورة :

« ان المعهود فى سير الأمم وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية ، وتقييد سلطتها والزامها الشورى والمساواة بين الرعية ، انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشى فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأى عام ، وانه لم يعهد فى أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وازالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك · فكيف حصل فى هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ فهل تغيرت سنة الله فى الخلق وانقلب سير العالم الانسانى ، أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن رؤية وصيرة ان تشاركوا سائر أمتكم فى جاهكم ومجدكم ، وتساوا الصعاليك حبا بالعدالة الانسانية ؟ أم تسيرون الى حيث لا تدرون ، وتعملون مالا تعلمون ؟ » وكذا فان شهادة عاصم باشا فى رثائه ، استشهد بها محمد رشيد رضا : **المرجع السابق** ، الجزء الأولى ، ٤٨ ، وتبين تماما الفجوة التى تفصل بين أب « الجيروندين » (أى الساســة المعتدلين)المصريين والجناح القومى الجذرى الذى يمثله عرابى وصحبه ·

أدخل من جديد «مقدمة ابن خلدون» امتدادا لما بدأه الطهطاوى (٧) ، واستخدم « **تاريخ الحضارة فى أوروبا وفرنسا** » لجيزو ، وكان قد ترجم حديثا الى العربية ، ككتاب أساسى فى محاضراته السياسية فى الأزهر (٨) ، والتحق بصفوف محفل الماسونيين «كوكب الشرق» المنضمة للماسونية البريطانية ، وذلك فى مطلع حكم الخديوى توفيق (٩) ٠

وفى الوقت الذى التف فيه زعماء الحركة الوطنية حول شريف باشا ، انضم محمد عبده الى الجناح المحافظ الذى يقوده رئيس مجلس الوزراء رياض باشا الذى عينه رئيسا لتحرير « **الوقائع المصرية** » عام ١٨٨٠ (١٠) ٠ ومع زملائه ، سعد زغلول ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم الهلباوى ، والشيخ محمد خليل ، والسيد وفا ، دعا محمد عبده ، وكان يكتب فى الموضوعات الاجتماعية ، الى التدرجية ، وبتقديم التعليم والتربية على العمل السياسى والمطالب البرلمانية : « فلابد من قرون تبث فيها العلوم ، وتهذب العقول ، وتذلل الشهوات الخصوصية ، وتوسع الأفكار الكلية ، حتى ينشأ فى البلاد ما يسمى بالرأى العمومى » ٠

بعد ذلك يمكن التفكير فى تقليد أوروبا أو الولايات المتحدة ٠ واذا أصر أنصار الحياة البرلمانية على تعجيل الأمور وتكليفها مالا تطيق فان الناس « يمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى الى ما هو أتعس منها بحكم

---

(٧) لم يسجل المعجبون بالشيخ محمد عبده اسبقية الطهطاوى فى هذا المجال ، كقدرى قلعجى مثلا : **محمد عبده ، بطل الثورة الفكرية فى الاسلام** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ، ٢٨ ، ومصطفى عبد الرازق : **محمد عبده** ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ٨ ، الخ ٠ يشير « آدامس » ان عبده كان يجمع نصوص محاضراته فى عام ١٨٧٨ عن ابن خلدون ليؤلف منها كتاب : «**فلسفة الاجتماع والتاريخ**» الذى لم ير النور أبدا ٠
(Islam and modernism, 41, 121).
ومنذ البرت حورانى ثم لحسن الحظ ترتيب الوقائع ٠
(Arabic thought, 72-9, 132).

(٨) **C.C. Adams : Islam and modernism, 44.** ٠ ان تأثير « جيزو » يبدو فى الحذر ازاء النزعة البرلمانية ٠

(٩) يميل عدة مؤلفين للاعتقاد بأن هذا المحفل يرتبط بالأحرى بالماسونية الفرنسية نظرا لعلاقات الكراهية بين الأفغانى وبريطانيا العظمى ، راجع سيرة الأفغانى لأديب اسحاق ، فى محمد رشيد رضا ، **تاريخ الأستاذ الامام** الجزء الأول : ٤٠ ـ ١ ، عثمان أمين : **محمد عبده** ، الجزء الثامن ، حيث يستعيد «**المنار**» ، المجلد الثامن ٤٠١ ـ ٣
M. Sabry : Ismail et ingérence, 349.
« ان جماعة اتباع جمال الدين (شريف باشا ، بطرس باشا ، محمد عبده) دخلت فيه لعمل لخير الأمة الاسلامية وبلد نها ٠ »

(١٠) حول الطرفين راجع أحمد أمين : **زعماء الاصلاح** ، ٢٩٧ ـ ٣٠٥ ، وجاك برك
(L'Egypte, 101-224).

الاستعداد القاضي عنيهم بذلك (١١) » • فعن طريق التربية ، والاسلام المجدد ، لا بالعمل السياسي ؛ تبعث الامة • وقد اصـــطدم الصراع في ذلك الوقت ، بين الحركة الوطنية والقوى الاوروبية التي كانت تعضـــد الخديوى ورياض • ولم يعد بوسع محمد عبده تجنب السياسة ، على الأقل على المستوى الفكرى • ولما كان محمد عبده ضد تولى الأمة الجاهلية تصريف شئونها وتحديد مصيرها ، كان من الطبيعي أن يدعو الى الديكتاتورية المستنيرة • ومن هنا صحته ، فطالب بالمستبد العدل :

« مستبد يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجىء الأهل الى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، ان لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة الا ونظرته الأولى الى شعبه الذى يحكمه ، فان عرض حظ لنفسه فليقع دائما تحت النظرية الثانية ، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه •

يكفى لابلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة ، وهى سن مولود يبلغ الحلم ، يولد فيها الفكر الصـــالح ، وينمو تحت رعاية الولى الصالح ، ويشتد حتى يصرع من يصارعه • خمس عشرة سنة يثنى فيها أعناق الكبار الى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج ، ومنها البتر والكى اذا اقتضت الحال ، وينشىء فيها نفوس الصغار على ما وجه العزيمة نحوه ويسدد نياتهم بالتثقيف ، يتعهدها كما يتعهد الغارس شجره بضم أعواد مستقيمة الى سوقهـــا لتنمو على الاستقامة ، خمس عشرة سنة تحشد له جمهورا عظيما من أعوان الاصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه ، وناشئين شبوا وهم ينتظرونه ، وآخرين وهبوه فاتبعوه ، وغيرهم رغبوا في فضله فجاروه •

حتى اذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف ، وانصرفت الى ما أعدت له بالتصريف ، وصح الشعور بالتعليل ، واستقامت الأهواء بالتعديل ، أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمه ، والناقه من المرض هضمه ، وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ، ثم بعد سنين تأتى مجالس الادارة لا على أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار • ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية ، نعم ربما يتيسر لرجل واحد أن يشهد هذا الأمر من بدايته الى نهايته ، ولكن الخطوة الأولى

---

(١١) راجع بوجه خاص المقالات الثلاث : « خطأ العقلاء » ، « كلام في خطأ العقلاء » رقم ١٠٥٦ ، ١٠٨٢ ، ١٥٩٢ من **الوقائع** (ابريل ١٨٨١) في محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الثانى : ١١٣ ــ ٣٢ •

هى التى لها ما بعدها ، ويكفى لمدها خمس عشرة سنة ، وما هى بكثير فى تربية أمة فضلا عن أمة ·

هل يعدم الشرق كله مستبدا من أهله ، عادلا فى قومه ، يتمكن به العدل أن يصنع فى خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرنا ؟! (١٢) »

ثم كان يوم ٧ سبتمبر · حاصر الجيش قصر عابدين ، وطـــالب بالنظام الدستورى · وفى العاشر منه استقال رياض ، وتظاهر الخديوى بالخضوع والاستسلام ليمهد للاحتلال البريطانى (١٣) · وكتب محمد عبده فى « **الوقائع المصرية** » سلسلة من المقالات الفلسفية البعيدة عن السياسة حول الموضوع التالى : « العلم وأثره فى الارادة والاختيار » (١٤) · وفى آخر سبتمبر ، دعا مع ذلك الى وحدة المصريين ، وفى نوفمبر تناول بعض الموضوعات السياسية ، وفى ديسمبر نشر ثلاث مقالات حول النظـــام الدستورى (الشـــورى) ، وهو كما قال فى أول مقاله ، ان الشورى « واجبة وطريقها مناط بما يكون أقرب الى غايات الصواب [···] وعند مسيس الحاجة اليها (تصبح) واجبة وجوبا شرعيا » · كانت تلك اشارة الى التصالح الكبير بين الحزب المحافظ الذى كان يتألف أساسا من تلاميــذ جمال الدين الافغانى ، وبين الحزب الوطنى بزعامة أحمد عرابى (١٥) · غير أن رأيه الحقيقى كان شيئا آخر ، فعنده أن التمثيل البرلمانى خرافة مادامت الأمة متمزقة ، وتتحكم النزوات فى احزابهـــا السياسية وتفتقر مختلف فئاتها الى الوعى المشترك (١٦) · لقد ظل محمد عبده متحفظا طوال المرحلة الأولى من الثورة · ولم ينضم علنا الى

---

(١٢) « انما ينهض بالشرق مستبد عادل » ، **الجامعة الاسلامية** (الاسـكندرية) ، السنة الأولى ، فى محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الامام** ، ج ٢ ، ٣٩٠ – ٣٩١

(١٣) راجع عبد الرحمن الرافعى : **الثـورة العرابية والاحتـلال البريطانى** ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٩ ، وللاطلاع على لوحة جامعة ·

(١٤) حول دور الثلاثى : الدين – التربية – الاستبداد فى النهضة ، راجع محمد عبده: « العلم وتأثيره فى الارادة والاختيار » ، « الملكة والعادات » ، فى محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الأول ٣٢٨ – ٣٠ ، الجزء الثانى ١٧٦ – ٩٣ ، وراجع مقالا غريبا لمصطفى عبد الرازق : « آثار المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده » ، **الهلال** ، السـنة ٧٥ ، (١٩٦٧) العدد ١٢ ، ٣٢٠ – ٥ ·

(١٥) مصطفى عبد الرازق : **محمد عبده** ، ١١٤ – ٢٨ ·

(١٦) M. al-Bahey : Muhammed 'Abduh, 68-9; O. Amîn : Mohamed Abdou (Thèse, fr.), 116-7.

حزب الجيش وحكومة البارودى الا خلال المرحلة الثانية ، بعد تقديم المذكرة الانجلو ــ فرنسية فى ٨ يناير ١٨٨٢ (١٧) ٠

ومازال الدارسون يتساءلون عن أسباب هذا التقلب ٠ ويرى البعض (١٨) أن الاختلافات التى قامت فى البداية ترجع الى اختلاف اتجاه التيارين القوميين ، « الدينى » و « السياسى » ٠ وكان التيار الأول ينطبق بلا تمييز على كل من الافغانى وعرابى ومصطفى كامل ٠ وذهب آخرون الى حد قولهم أن محمد عبده « سرعان ما تخلى عن طريق الثوريين السياسيين (١٩) ٠ » وأثبت بعضهم حديثا أن « ارادة الأمة ، بالنسبة لمحمد عبده ، ليست هى جوهر المشكلة ، وانما معرفة من يستثير ارادة الأمة ٠ وتلك هى وظيفة العلماء ، لا العسكريين (٢٠) ٠ » وهو رأى أصبح ، بعد نصف قرن ، المبدأ الأساسى لانصار غلبة الدين على الدولة فى صراعهم ضد النظام العسكرى ٠

---

(١٧) راجع عبد الرحمن الرافعى : **الثورة العرابية** ، ٢٢٥ ــ ٧ ، ٥٢٠ ــ ٦ ، W.S. Blunt, Secret history, 145 i. ، عمر الدسوقى : **فى الأدب الحديث** ، ج ١ ، ٢٤٨ ــ ٥٠ ، شهادة سليم النقاش المباشرة فى « **مصر للمصريين** » ، الاسكندرية ، ١٨٨٤ ، مذكورة فى م٠ عبد الرازق : **محمد عبده** ، ١٤٨ ، أحمد أمين : **زعماء الاصلاح** ، ٢٩٨ ــ ٣٠٥ ، الخ ٠ وقد ثبت محمد عبده بنفسه تفسيره الخاص للثورة فى بحثه : « أسباب الثورة العرابية » ، الذى أمكن العثور على جزء منه ونشره محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الأول : ١٥٨ ــ ٢٢٤ ٠ ان مجموع هذه الشهادات لا تسمح بالذهاب فى اتجاه أولئك الذين يودون أن يجعلوا ، كعثمان أمين (خاصة فى مؤلفه الجديد ، **رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ١٨٨ ــ ٩٧) ، من المفتى الأكبر أحد ورثة الحركة الوطنية ٠ ومع ذلك فان طاهر الطناحى على حق فى أن يشجب منهج رشيد رضا ــ « الذى يكتب تاريخ محمد عبده وأعماله كما لو كان يكتب تاريخه الخاص بالمناسبة نفسها » ــ الذى يزعم بين ما يزعمه أن اشتراك محمد عبده فى ثورة ١٨٨١ كان بدافع اخلاصه للأسرة الحاكمة ، وهو ما يرفضه طاهر الطناحى ، جو ثورة مصر الوطنية فى ١٩٥٢ وما بعدها ازاء أعمال أسرة محمد على المالكة (**مذكرات الامام محمد عبده** ، كتاب الهلال ، رقم ١٢١ ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٦١ ، ١٠ ــ ٢١ ، وفيه نص عبده عن عرابى ١١٩ ــ ٢١٥ ، بما فى ذلك مراسلات من المنفى) ٠

(١٨) هذا بوجه خاص تفسير P. J. Vatikiotis «Muhammad 'Abduh and the quest for a Muslim humanism», Islamic Culture, xxi (1957), no 2, 109-26.

(١٩) R. Caspar : «Le renuviau du Mo'tazilism», D.I.D.E.O., no· 4. (1957), 141-201 (160).

(٢٠) Léon Zolondek : "The language of the Muslim reformes of the late 19th century», Islamic Culture, xxxvii (1963), no. 3. 155-62.

وقد تم حديثا توضيح الدور الحاسم الذى لعبته « **جماعة حلوان** » فى التحول الجذرى الذى مرت به الحركة الوطنية فى ذلك العصر ٠ وقد عبر محمد عبده للأفغانى عن شكواه فى عام ١٨٨٣ فقال : « ولكن غلبنا على الأمر قطاع طريق الخير ، اللابسين ثياب الأنبياء ، إلسالكين مذاهب الجبارين ، انتحلوا طريقنا فى الدعوة الى الحرية ، وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من اقناع العامة بكونهم دعاة الحق وحماة القانون ٠ وكانوا فى بداية أمرهم أشد الناس تعصبا عليك وعلى تلامذتك ، واشتد معهم دى التعصب أولئك الاشرار الذين قدمنا ذكرهم [٠٠٠] ٠ ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ، ولغاية ما نحب بقدر الامكان والاستطاعة الى أن غلبت عناصر الفساد ، وعم الاختلال [٠٠٠] وكدنا ندرك به خلاصا حسنا ، وانتصارا شريفا ، لكن لسوء البخت كان أحمد عرابى على ما وصف الصابى ابا تغلب بن حمدان حيث قال فيه : « انه جمع بين نقيصة شقاقه وغدره وفضيحة جبنه وخوره ، قد ذهب عنه الرشاد ، وضربت بينه وبين الاسداد » (٢١) ٠ ومن الممكن الآن أن نستخلص من الأبحاث الحديثة ما يلى : انضم محمد عبده الى رياض الذى سقط فى سبتمبر ١٨٨١ ، ثم قام الحزب الوطنى ، الذى أسسته « جماعة حلوان » برئاسة شريف باشا ، بتوجيه الحركة الوطنية ٠ أصبح الضباط بقيادة عرابى ؛ والمثقفون الملتفون حول النديم وأذيب اسحاق يمثلون جهاز الحزب الوطنى ، أصبح محمد عبده رئيس تحرير « **الوقائع المصرية** » فى ٩ أكتوبر ١٨٨٠ ، وبذلك أصبح فيما بعد داعية للتعليمات التى يتلقاها من رؤسائه (٢٢) ٠ ومع ذلك فان « بلنت » يصوره فى صورة الوسيط الذى كان من الممكن أن يتبنى « عقيدة سياسية تشابه النزعة الجمهورية الكاملة (٢٣) » ٠ وأثناء محاكمة محمد عبده ، أتهم بأنه يقبل قسم يمين الولاء غير المشروع للوزراء الرئيسيين والضباط العظام أنصار عرابى ، وهو يمين ولاء يقال انه من أصل ماسونى ، غير أن محمد عبده نفسه يحدد تفاصيله التى تندرج فى اطار تعليمات جيش اثناء معركة :

---

(٢١) « رسالة الى جمال الدين الأفغانى » ، **الأعمال الكاملة للامام محمد عبده** ، جـ١ ، الكتابات السياسية ، اعداد الدكتور محمد عماره ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ١٩٧٢ ، ٥٧٥ ــ ٥٧٨ والأصل فى محمد رشيد رضا ، **تاريخ الأستاذ الامام** ، جـ ١

(٢٢) A.M. Broadly : How we defended Arabi and his friends, Chapman and Hall, London 1844, 229.

(٢٣) Id. : Ibid., 227.

« وكان يرى ، حسب روايته ، ان الاخلال بهذا القسم معناه ببتر الرأس • (٢٤) »

وفى الحقيقة فانه من الأوفق أن نمضى قدما فى تحليلنا ، أى أن نستوضح آراء محمد عبده فى المجالين الاجتماعى والسياسى • وهناك آية تتكرر باستمرار كاللازمة : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » • ومع ذلك فهو لا يكملها : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »مضيفا« فأذاقهم اللهالخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » • فهل هى الجبرية ترى ،أم حرية الحكم الاجتماعية ؟ « ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر ، واشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة ، والتدبر فى أحوال الذين جاروا عن صراطالله فهلكوا وحل بهم الدمار(٢٥) •

هل يعنى ذلك أن محمد عبده يريد أن يستخلص الدروس من التاريخ ، أو بالاحرى من علم الاجتماع ؟ يرى م • هـ « كير » أن الهدف بشكل محدد هو ؛ فى نفس الوقت ؛ « عرض لأساليب السلوك عند الجماعة ، والتحقق من العوامل التى تؤثر فى نجاح الجماعة أو فشلها ، وفى المجال الأخير يعتبر الدين أهم هذه العوامل (٢٦) • »

وهذا يعنى أنه من الأوفق أولا تعديل نظرة الجماعة وتصورها قبل الشروع فى اصلاحات رئيسية • ومع ذلك يبدو ان محمد عبده كان يعارض بشدة التحول السياسى الكثير من كتاباته • فالاستبداد أو الظلم يؤديان الى ارادة « حركة » تستهدف « المعاضدة على حفظ الهيئة الاجتماعية » (٢٧) ؛ ومن هنا ينشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأى العام وهو الأساس الذى بدونه لا يمكن أن تتوحد الكلمة فى أمر ما يرادالتداول فيه ، ونقطة التلاقى التى تجتمع بها أطراف الافكار المتشعبة ، وتنمحى فيها الأغراض المتعددة ، اذ انها ليست فى الحقيقة أغراضا ذاتية وأن تلبست

---

(٢٤) فى سليم النقاش ، **مصر للمصريين** جـ ٧ ، ١٦٤ ــ ٥ •

ويدهش E. Keddourie بحق من صمت محمد رشيد رضا حول هذا الموضوع ، Afghani and Abouh, 94.

(٢٥) « سنة الله فى الأمم » « **العروة الوثقى** ، محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الامام** جـ ٢ ، ٣٢٥ ــ ٣٣١ •

(٢٦) Islamic reform, 132.

(٢٧) « الاصلاحية » ، مقالات « **الوقائع المصرية** » فى **تاريخ الأستاذ الامام** ، جزء ٢ - ٢١٣ ــ ٢١٨ •

بصورها ، وانما هى طرق متخالفة تؤدى الى مقصد لا يخرج عن الرأى العام ، وسالكوها بلغوا درجة الاجتهاد ، وكل عامل سلامة مستمر لانتقاء أقرب الطرق [٠٠٠] (٢٨) » ٠ وبذلك ينتفى الصراع بين الأفـــراد والمجتمع ، بين الرعية والحكام ، بصرف النظر عن الطبقات الاجتماعية المختلفة : وبذلك يمكن الدفاع عن قضية الحكومة النيابية ٠

تعبير « نيـــابى » لا يعنى بأية حال حكومة ديمقراطية (٢٩) ، وانما مجرد الحكومة التى تمثل « بطبيعة الحال » أفضل شكل للسلطة بعد أن يستنير الناس ٠ ومن الممكن اعتبار مبدأ الشورى اداة لكبح جماح السلطة الحاكمة (٣٠) ، لأنه يحول فى نفس الوقت دون الحكم المنفرد ، والحكم من جانب واحد ٠ ويركز محمد عبده على حاجة الشرق الى سلطة قوية الى ؛ « مستبد عادل » (٣١) ، كذلك فهو لا يكف عن الاشارة الى ضرورة توحيد الروح الاجتماعية والرؤية المشتركة للجماعة ، والتعاون : وهنا ينجلى أثر ابن خلدون بشكل حاسم ، مع بعض الاختلافات (٣٢) ٠

فالتطور الاجتماعى عنده يقوم على أسس نفسية ذات طابع سلوكى ، على الأقل أثناء اقامته فى باريس (٣٣) ٠

ان الطابع العام لموقف محمد عبده والافغانى من المسألة الوطنية خلال فترة « **العروة الوثقى** » ، كان انتقاديا صريحا ٠ كانت الجنســـية « العصبية » فى رأيهما عامل تقسيم بينما الاسلام يدعو الى الجنســـية لا نذهب الى أنه « العصبية للجنس »، طبيعى ، ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على الواحها الضرورات (٠٠٠) ٠ فلو زالت

---

(٢٨) « الشورى والقانون » ، **تاريخ الأستاذ الامام** ، جـ٢ ، ٢٠٠ ـ ٢٠٥ ٠

(٢٩) راجع خاصة المقالات الثلاث : « الحياة السياسية » ، « الشورى » ، « الشورى والقانون » ، فى **تاريخ الأستاذ الامام** ، ج ٢ ، ١٩٤ ـ ٢٠٤ : وفيها ذهب الى أنه لا بأس من أن يظل جزء من الشعب ، وخاصة الطبقة الدنيا والعمال ، بعيدا عن الاعلام ، حتى ولو ارتفع عدده ، فكان أفراد هذه المجموعة أدوات صماء منصرفة الى النشاط الجسمانى فقط ٠

(٣٠) « الشورى والقانون » ، **نفس المرجع** ، ٢٠٠ ـ ٢٠٤ ٠

(٣١) تلخيص ممتاز فى M. H. Kirr : Islamic reform, 134-5. ٠

(٣٢) بالاضافة الى المقالات المذكورة آنفا : لمحمد عبده ، راجع : « انحطاط المسلمين وسكونهم وأسباب ذلك » ، «ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها» ، «أسباب حفظ الملك» ، «الوحدة والسيادة» ، «الوحدة الاسلامية» ، «التعصب» ، فى محمد جمال : **العروة الوثقى** ، ٧٤ ـ ٩ ، ٤٦ ، ٢٠٠ ـ ٣ ، ٢٠٥ ـ ٨ ، ١٤٢ ـ ٣ ، ١٣٤ ـ ٥ ، ٨٩ ـ ٩٦ ٠ وحول الفرق بين العصبية عند ابن خلدون والأفكار الموازية عند محمد عبده راجع :
M. H. Kerr : Islamic reform, 137-8.

(٣٢) « انحطاط المسلمين » ، م٠ جمال : **العروة الوثقى** ، ٧٤ ـ ٧٥ ٠

الضرورة لهذا النوع من العصبية تبعه الضرورة فى الزوال كما تبعها فى الحدوث بلا ريب [...] . واستيقنت من عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها فمحى أثرها من النفوس » . والحكومة العادلة يمكنها أن « تستغنى عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الأولى من الديانة الاسلامية القويمة (٣٤) » .

وماذا عن تعاليم وتحديدات هذا الاسلام الأصلى ؟ اننا نجد عند الاستاذ الامام صيغ عديدة نستخلص منها بعض الملامح المشتركة : توازن الحقوق الفردية وحمايتها ، الحد من السلطة المستبدة ، انكار كل امتياز : الا يقوم الرسل بالنسبة للشعب بنفس الدور الذى يقوم به الذكاء بالنسبة للأفراد ؟ (٣٥) .

تطور ، وتنمية ، وتغير اجتماعى ، هذا صحيح ، ولكن دائما على المستوى النفسى الاخلاقى لا على مستوى المفهوم التطورى الحقيقى للمسيرة التاريخية (٣٦) . ويظل كل هذا ناقصا ، غامضا ، مبهما ؛ يقف في منتصف الطريق تقريبا بين موقف الأفغانى القائم على غلبة الدين على الدولة وبين أفكار « هربرت سبنسر » ، رغم ما يراه ويؤكده اللاحقون من أمثال عثمان أمين ، وبالذات الأوساط الازهرية من القاهرة الى الرباط. (٣٧) . مرورا بالعديد من المستشرقين (٣٨) . كان المفتى الأكبر مرنا حريصا ، وقد برهن على ذلك ، فيما بعد ، وبوجه خاص فى الفتوى الشهيرة المعروفة باسم « ترانسفال » (٣٩) التى أثارت الكثير من التعليقات .

---

(٣٤) «الجيش والديانة الاسلامية» : **نفس المرجع** ، ٣٨ ـ ٤٣ .

(٣٥) **رسالة** ، ص ٨١

(٣٦) كما يؤكد :

P. J. Vatikiotis : Abduh and Muslim humanism. 125.

(٣٧) يطور عثمان أمين هذه الفكرة بقوة فى كتابه الأخير عن عبده المشار اليه آنفا . راجع علال الفاسى : « الشيخ محمد عبده مؤاقفه من الشبه والمتشابه » **دعوة الحق** ، (الرباط) ، (١) ١٩٥٨ ، العدد ٩ ، ١ ـ ٩ ، العدد ١٠ ، ١ ـ ٨ ، على مراد :

«L'enseignement politique de Mohammad 'Abduh aux Algériens (1903)». Orient no 28 (1963), 75-123.

(٣٨) وخاصة هنرى لاووست :

Henri Laoust : «Le réformisme orthodoxe des Salafiyya', et les caractère généraux de son organisation actuelle». Revue des Etudes Islamiques, vi (1932), 175-224; R. Caspar : Renouveau du Mo'tazilisme. etc.

(٣٩) **C. C. Adams : «Muhammad 'Abduh and the Transvaal fatwâ» = The Macdonald Presentation Volume, London, 1933, 17-20;** وكذا محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الامام** ، ج ١ ، ٦٨١ ـ ٦٨٩ .

وبعد فشل الثورة حكم على محمد عبده بالنفى ثلاث سنوات · فاختار بيروت ، ثم لحق بالأفغانى فى باريس حيث أسسا جمعية وصحيفة « **العروة الوثقى** » (٤٠) ·

وقد بذل محمد عبده ، بتوجيه من الأفغانى ، مجهودا هائلا فى التحرير السياسى (٤١) · وقد ظهرت عشرة اعداد بين ١٣ مارس و ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٨٤ ، وهو التاريخ الذى اضطرت فيه الصحيفة الى التوقف بسبب ضغوط بريطانيا العظمى التى خشيت على ممتلكاتها الاسلامية فى آسيا وأفريقيا · كانت هناك نظرة سياسية رئيسية وراء الهجوم السياسى الموجه ضد الاستعمار البريطانى : يجب على المسلمين أن يرفضوا كل ولاء وطنى ، وكل انتماء ، وكل اخلاص للوطن الأصلى ، لينطووا تحت لواء الدين الاسلامى بوصفه المصدر الوحيد للقوة والوحدة « وهذا هو السر فى أعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم اى نوع من أنواع العصبيات ما عدا عصبيتهم الاسلامية · فان المتدين بالدين الاسلامى متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت الرابطة الخاصة الى العلاقة العامة وهى علاقة المعتقد » ، ومع ذلك « ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بالفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلهما [···] ووسموا أنفسهم زعماء الحرية (٤٢) » ·

وتبدو الجامعة الاسلامية هنا كموقف دفاعى ضد : « مجاوزة الحد فى تصميم الاعتداء » ؛ كما ورد فى المقال الافتتـــاحى فى ١٣ مارس ١٨٨٤ (٤٣) · ان الاتجاه نحو اعادة تأسيس امبراطورية اسلامية ، بزعامة

---

(٤٠) حول تاريخ هذه الجريدة ، راجع فيليب دوطرزى : **تاريخ الصحافة العرابية** ، الجزء الثانى : ٢٦١ ـ ٢ ، ٢٧٥ ـ ٩٦ ، ا· عبده : **تطور الصحافة المصرية** ٢٤٩ ـ ٥٥ ، عبد اللطيف حمزه : **ادب المقالة الصحفية** ، (٢) : ٨١ ـ ٩٣ ، الخ ·

(٤١) حول أصول الطريقة المبســتخدمة من أجل تمييز كتابات الرجلين : « وانبأنى الأمير شكيب ارسلان انه سمع الأستاذ يقول ان الأفكار فى « العروة الوثقى » كلها للسيد ليس لى منها فكرة ، والعبارة كلها لى ليس للسيد منها كلمة واحدة » (محمد رشيد رضا : **تاريخ الاســتاذ الامام** ، الجزء الأول ، ٢٨٩) · ان هــذا الحماس المحمود يجعل النقد غامضا ، ويقتضى غربلة هذه النصوص على مناخل الألســنيات وعلم المعانى الدقيقة لتمييز الصحيح وما يعود لكل من الرجلين · ان الغموض مستمر كما لو أنه لا وجود للمشكلة ، فى الطبعة الأخيرة ل « الأعمال الكاملة » للأفغانى التى قام بها د· محمد عمارة : « **الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى** » ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ·

(٤٢) راجع مقالى : « الجنسيه » ، « وماضى الأمة » ، فى م· جمال : **العروة الوثقى** ، ٣٩ ـ ٤٠ ، ٥٤ ·

(٤٣) **المرجع السابق** ، ص ٢٨ ·

تركيا ، ظاهر واضح · ولكن يبدو أن الهدف الأساسى ، حتى بالنسبة للأفغانى ، حتى لا نقول بالنسبة لمحمد عبده ؛ العملى « البراجمانى » الحذر ؛ كان تخليص البلاد الاسلامية من سيطرة الاستعمار الأوروبى ·

كان ذلك هو آخر تدخل من محمد عبده فى مجال الفكر والعمل السياسى · واذا بالفشل المزدوج الذى منى به المرة تلو الأخرى ينتهى به الى العودة الى مجاله الحقيقى كمرب اسلامى ، وذلك فى بيروت أولا ثم فى القاهرة التى عاد اليها عام ١٨٨٨ (٤٤) · ان المجادلة ، التى بدأت بشكل لبق مهذب ، مع استاذه الأفغانى ، حول مناهج العمل ؛ تعكس سذاجة زائفة :

« ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لافاد الاسلام أكبر فائدة · وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا (···) فلا تمضى عشر سنين الا ويكون كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب (٤٥) » ·

وكانت القطيعة من صنع محمد عبده الحريص على استعادة الحظوة لدى السلطة · وقد رأى فيه « كرومر » وفى مدرسته « جيروند » (بمعنى : أهل الوسط المعتدلين) الحركة الوطنية المصرية » الذين يقومون بدور الجسر بين المحافظين المسلمين ومقلدى أوروبا ، وعلى ذلك فهم « الحلفاء

---

(٤٤) نشر محمد عبده فى بيروت «**شرح نهج البلاغة**» (١٨٨٥) و « **شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى** » (١٨٨٩) · وأعطى دروسا فى علوم الدين فى المدرسة السلطانية التى مهدت ل « **رسالة التوحيد** » ، ودرس « **البصائر الناصرية** » للصاوى التى سينشرها فيما بعد (١٨٩٨) ، وتعاون مع « **ثمرة الفنون** » ، واعد مشروعين لاصلاح التعليم (« **اللائحة الأولى ، فى اصلاح القطر السورى** » ، فى **تاريخ الأستاذ الامام** : الجزء الثانى ، ٥٠٥ — ٣٣) · راجع حول هذه الاقامة الأمير شكيب ارسلان فى **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الأول ، ٣٩٩ — ٤١٢ ·

وقد تم التفاوض مع « كرومر » حول عودته الى مصر بواسطة الأميرة نازلى ، راجع W. S. Blunt, My Diaries, 26-72. ؛ عبد الوهاب النجار : «صفحة مجهولة من حياة **مجلة دار العلوم** ، نوفمبر ١٩٣٥ ، **المنار** ، الجزء الثانى : ٤٦٥ — ٧ ، محمد أمين : **زعماء الاصلاح** ٣١٠ — ١ ·

(٤٥) **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الأول ٨٩٤ · ستستعاد الفكرة من قبل رشيد رضا وجماعة « المنار » ، « **الشبان المسلمين** » و « **الاخوان المسلمين** » بوجه خاص ·

الطبيعيون للمصلح الأوروبي » · وهذا المصلح هو المحتل (٤٦) · وها هو ذا محمد عبده ، الصديق والحليف الضمني لكرومر ، والذي شغل بفضله مركز المفتي الأكبر عام ١٨٩٩ ، ليفضل عن مصطفى كامل ، زعيم الحزب الوطني ، الوريث الروحي لعرابي وصديق فرنسا (٤٧) · ومع ذلك نجد في كتابات محمد عبده صدى للأفكار السياسية الوطنية التي تحل تدريجيا محل أفكار الجامعة الاسلامية :

« وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدودا : (الأول) أنه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد (والثاني) أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية ، وهما حسيان ظاهريان (والثالث) أنه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز ، أو يسفل ويذل وهو معنوي محضا · » ·

وقد بلغ به الأمر الى تأكيد : « أبت الحوادث الا أن تثبت لنا وجودا وطنيا ورأيا عموميا (٤٨) · »

ونستطيع أن نحدد أنه كلما ابتعد محمد عبده عن الأفغاني ، كلما عثر على مصريته كاملة ، وكلما استوعب انحطاط مصر وآثار التدخل الاستعماري ، كما غدت نظرته مصرية صميمة على المستوى السياسي · ومن ذلك ، أنه فيما بعد ، وبالتحديد عام ١٨٩٦ ، انكر على السلطان عبد الحميد ادعاءه الخلافة ، معارضا في ذات الوقت « ان كثيرا من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها (وان كان أكثرهم يحبها) (···) · لكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءا فانها سياج في المحبة واذا سقطت نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود ، فان اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم وهو المال ، ونحن لم يبق عندنا شيء · فقدنا كل شيء » (٤٩) ·

---

(٤٦) Cromer : Modern Egypt, ii : 180-1. نص رسالة الأفغاني التي يؤنب صاحبه القديم الذي يخشى أن يكتب له في **تاريخ الأستاذ الامام** : الجزء الأول : ٨٩٧ · وراجع حول علاقاته مع الحزب الوطني مسلسلة المقالات بقلم مصطفى كامل تحت عنوان : « انها مجموعة نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف » في م· الدسوقي : **في الادب الحديث** ، الجزء الأول ، ٢٥٧ ـ ٨ ·

(٤٧) لدى وفاته ، رثته « **اللواء** » صحيفة الحزب الوطني رثاء حارا نجد نصه في **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الثالث ، ٣٢ ـ ٣٦ ·

(٤٨) « الحياة السياسية » · في **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الثاني ص ١٩٤ ـ ١٩٦

(٤٩) **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الأول ، ص ٩١ ـ ٩١٥

وفى محاذاة ذلك وعلى مستوى التطور الاجتماعى ، يعاود محمد عبده تأكيده المتواصل على أولوية التربية والتعليم ، الخليقين وحدهما بتكوين وعى وطنى يقوم على الدين ٠

ومع ذلك فهو يرى أن القوانين هى التى تأخذ على عاتقها ضمان انتصار الأخلاق التى يدعو اليها (٥٠) ٠ ثم ان موقفه من التشريع ، وبالذات خلال الفترة التى مارس فيها مهام القضاء ١٨٨٨ ـ ١٩٠٥ وفى ١٨٩٩ عين فى منصب المفتى الاكبر لمصر ، يقدم دليلا جديدا على تفكيره التقليدى العملى « البراجماتى » : صحيح ان القانون الاسلامى ، الشريعة؛ أساس القانون الحديث ، غير أن ذلك كان كمصدر الهام عام فقط ؛ فطبيعة القاضى التى يتسم بها ترفض الاقتصار على حرفية القوانين ، فالمهم هو ضمان العدالة الأدبية ، والتربية ، واصلاح العادات (٥١) ، والسلطة السياسية اليوم هى وحدها القادرة على تكييف التشريع مع حاجات العصردون الاضطرار الى الاقتصار على تفسير المدرسة الحنفية (٥٢) ٠

أما فى المجال الاقتصادى والاجتماعى ، فقد كان محمد عبده يدعو الى الواقعية المعتدلة فى اطار التقاليد ٠ ومن الملائم معالجة آفات المجتمع المصرى وهى عدم الجدية ، والخلق غير القويم (٥٣) ، وتعدد الزوجات (٥٤)؛

---

(٥٠) م٠ عبد الرازق : **محمد عبده** ، ص ١١٧

(٥١) ا٠ أمين : **زعماء الاصلاح** ص ٣١٥ ـ ٣١٦ ٠ **تاريخ الأستاذ الامام** الجزء الأول ، ٤٢٠ ـ ٤٢٤

(٥٢) هذا هو أصل قوانين ١٩٢٠ و ١٩٢٩ حول الزواج والطلاق ، الخ ، و ١٩٤٣ حول الميراث ، و ١٩٤٦ حول الأوقاف والموصيات ، الخ ٠

راجع : J. N. Anderson : «Recint developments in sharia law». Muslim World. xi (1950), 244-56; xli (1951), 34-48, 113-26. 186-98, 271-88 ; xlii (1952), 33-40, 190-206, 261-76;

عمر ميدوح مصطفى : **اصول تاريخ القانون** ، القاهرة ١٩٦١ ، ٥٣٨ ـ ٩

N.J. Coulson : A history of Islamic law, Edinburgh 1964, 149-225; Joseph Schacht : An introduction to Islamic law, Oxford I. P., 1964 86-111; A. H. El-Khatifi : Quelques aspects du modernisme juridique en Orient arabe — J. Berqu eet J.P. Charnav : Normes et valeurs dans l'Islam contemporain, Payot. Paris, 1966. 301-12; J.-P., Charnay, Berque Y. Linant de Bellefonds, Ch. Chehata in J. Berque it J.-P. Charnay : L'ambiyalence dans la culture arabe Anthropos Paris 1967, 191-266 : :etc

(٥٣) « منتدياتنا العمومية وأحاديثها » « **الوقائع المصرية** » (١٨٨١/٢/٩) فى **تاريخ الاستاذ الامام** ، الجزء الثانى : ١٠٣ ـ ١٠٨ ٠

(٥٤) « حكم الشريعة فى تعدد الزوجات » ، « **الوقائع المصرية** » ٨ ربيع الثانى ١٢٩٨ هـ/١٨٨٠ فى **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الثانى ١١٣ ـ ١١٨ ٠ ان قاسم أمين ، فى رسالته الحماسية من أجل حرية المرأة الحقوقية ومساواتها ، ينطلق من هنا ، حوالى نهاية القرن ٠

والشعائر الدينية البالية (٥٥) ، وانعدام الروح العامة (٥٦) ، ونسيان القيم القديمة وتفشى روح الانتقام (٥٧) ، ورشوة الموظفين (٥٨) ، الخ ٠ كما حمل على « الرأسمالية الشرقية الاسلامية » ، المتهمة عنها « تحصر الثروة فى دوائر مخصوصة عند أشخاص قليلين ٠٠٠ فتكسد أسواق الصناعة والتجارة لقلة الراغبين فى الصنائع والبضائع ، أى لعلة القادرين على اقتنائها ؛ وتقل الرغبة فى الأعمال الزراعية ، اذ يكون الجميع كأجراء لا يهتمون اهتمام الملاك « ٠ ويعتقد أن « أغنى البلاد وأسعدها هى البلاد التى توزعت ثروتها على غالب أهاليها » ٠ أما صدى المطالب الاقتصـــادية للبرجوازية الوطنية فنجده فى الخاتمة : « ويزداد الضرر اذا وقعت الأملاك والمبيعات فى أيدى الغرباء والأجانب (٥٩) » ٠

واذا كان محمد عبده يطلق على هربرت « سبنسر » (أعظم فلاسفة أوربا الاجتماعيين » ، فانه لم يأخذ منه الا أهمية الدور الذى يلعبه الدين فى الحياة الاجتماعية (٦٠) ، وقد اكتفت فتواه عام ١٩٠٤ حول « **مسألة» العمال واصحاب العمل** » بالاشارة الى أن واجب الدولة أن تحقق التوازن بين الطرفين ، وتتدخل ، سواء لحمل الرأسماليين على أداء أجور أعدل ،

(٥٥) « أبطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية » ، **الوقائع المصرية** » (٤ ذى الحجة ١٢٩٧هـ/١٨٧٩) ، « ما هو الفقر الحقيقى فى البـلاد » « **الوقائع المصرية** » ١٨٨١/٣/٢٨ **فى تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الثانى ١٣٣ ـ ١٣٦ ، ١٤٣ ـ ١٥٠ ، الخ ٠

(٥٦) « حب الفقر أو سفه الفلاح » ، **الوقائع المصرية** (١٨٨١/١/٢٩) ، **فى تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الثانى ٦٣ ـ ٦٨ ٠

(٥٧) « الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها » الذى يشــكل جزء أمن الجواب على ج٠ هانوتو **G. Hanotaux** ، **فى تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الثانى ٤٩٨ ـ ٥٠٢ ٠

(٥٨) « وخامة الرشوة » ، **الوقائع المصرية** (١٨٨٠/١٢/١٣) فى **تاريخ الأستاذ الامام** الجزء الثانى ٨٤ ـ ٦ ٠

(٥٩) « عدنا والعود أحمد الى موضـــوع الفقر وصفح الفلاح » ، « **الوقائع المصرية** (١٩٨٣/١٢/١٩) فى **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الثانى : ٥٩ ـ ٦٣

(٦٠) راجع مختلف الروايات عن هـــذا اللقاء المهم فى **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الأول ، ٨٦٨ ـ ٩ ،

W. S. Blunt : My Diaries, ii : 69-70. xii : 805; O. Amin ; Mohammed

W. S. Blunt : My Diaries, ii : 69-70. المنـــار **xii : 805; O. Amin; Abdou texte fr.) 261-2.**

ويلاحظ البرت حورانى انه اذا كان عبده يقبل آراء « سبينسر » » رينان » حول عدم التلاؤم بين المسيحية (وبالتالى ، الاسلام) والعلم الحديث ، فانه يرفض مصـــادرته حول القوة المجهولة التى هى « الحقيقة الأصولية وراء كل أشكال الدين » ٠ انه يتخذ موقفا وسطا : فالاسلام يبدو له يتوسط اذا جاز القول بين الدين والعلم ، وعلى المســيحية أن تنتبه لذلك يوما ما وأن تستسلم له » .(Arabic Thought, 143-4) ٠ وأيضا حول هذا اللقاء : الرجلان فى الصباح فى السياســة الأوربية ، وبعد الظهر عن تطور الفـكر الشرقى ، وعن الرب ، وعن الله ٠ »

أو اجبار العمال المضربين على العودة الى العمل ، وهى أمور بها « يدخل الحاكم فى شئون الخاصة وأعمالهم ، اذا خشى الضرر العام فى شىء من تصرفهم (٦١) • »

ان محمد عبده يعتبر مربيا قبل أى شىء آخر ، فاذا كانت حالة التعليم على عهد « دنلوب » لا ترضيه كثيرا (٦٢) ، فانه يتمسك باحياء التعليم الدينى الاسلامى ، وبوجه أخص يتمسك باصلاح الأزهر (٦٣) فى نفس الوقت الذى يحاول فيه قادة الحركة الوطنية أن يدخلوا فى مصر اسلوبا للتربية الوطنية مستمدا من النظام الفرنسى ويخوضون معركة من أجل انشاء جامعة •

ان آخر أفكار محمد عبده السياسية نجدها فى وصيته السياسية التى لم تتم ، وفى رسالتيه الى و • س «بلنت» • ويشكو فى الوثيقة الأولى من سياسة « التجهيل » التى يمارسها الانجليز ، ويدعو الى سياسة عامة فى

---

(٦١) النص فى عثمان أمين : **رائد الفكر** ، الملحق ، ٢٤٨ ـ ٥٠ •

راجع أيضا فتواه فى ٤ صفر ١٣٢١ (١٩٠٠) ، المؤيدة لتأسيس صناديق التوفير البريدى
J. Jomier : Commentaire Manâr, 223.

(٦٢) « ان التعليم الذى تقوم به الحكومة المصرية (•••) لا يكاد يكون انسانا قادرا على ممارسة مهنة لكسب معيشته • ومن المستحيل أن يتمكن من تكوين ، لا أقول عبقرية ، وانما عالم ، أو كاتب أو فيلسوف (•••) والنتيجة هى أن لدينا قضاة ومحامين وأطباء ومهندسين قادرين الى حد ما على ممارسة مهنهم ، لكننا لا نرى فى الطبقة المتعلمة باحثا أو مفكرا أو فيلسوفا أو عالما ، أو انسانا ذا عقل واسع ، وقلب رفيع ومشاعر كريمة يكرس حياته لمثل أعلى (••) فى « **الوصية السياسية** » مذكورة فى :
A. B. de Guerville : La nouvelle Egypte, Paris, 1905, 201-8.
لكننا لا نجد هذا النص مع ذلك فى طبعة « **المذكرات** » المشار اليها آنفا التى نشرها طاهر الطناحى ، والتى تتوقف على كل حال فى عام ١٨٨١ •

(٦٣) ان المقصود هو الخلاص من الأزهر « المخروب » ، « المارستان » ، « الاصطبل » (**تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الأول : ٤٩٤ ـ ٥) ، لجعله مركز اشعاع التجديد الاسلامى • وسيفشل عبده بسبب المعارضة الشرسة لكبار المشايخ المحافظين وصحافتهم • راجع عثمان أمين : **محمد عبده** (الرسالة الفرنسية) ٢٠٠ ـ ٩ ، محمد البهى : **الفكر الاسلامى** ، ١٤٤ ـ ٧ • عبد الكريم سلمان : **أعمال مجلس ادارة الأزهر** ، القاهرة ١٩٠٥ • أحمد حسن الزيات : «الشيخ محمد عبده بمناسبة ذكراه الثلاثين» • **الرسالة** ، العدد ١٠٥ ، ١٩٣٥/٧/٨ ، ١٠٨ ـ ٢ ، عبد المتعال الصعيدى : **تاريخ الاصلاح فى الأزهر وصفحات من الجهاد فى الاصلاح** ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، الفصل ٤٤ ـ ٦٥
Bayard Dodge : Al-Azhar, a millenium of Muslim learning, The Middle East Institute, Washington, 1961, 129-43.
عبد المنعم حمادة « محمد عبده وشهادة العالمية » ، **الكتاب** ، (١٩٤٦) العدد ٤ ، ٥٢٩ ـ ٣٢ ، أحمد الشرباصى • الامام محمد عبده والأزهر » ، **مجلة الأزهر** ، المجلد ٢٧ (١٩٥٦) ، العدد ٧ ، ٧٤٦ ـ ٩ ، الخ •

مجال التعليم تحقيقا لرخاء البلدين : « وان كان ثمت مجال يمكن ان يتفق الجميع عليه ، فهو ولا شك التعليم العام ٠ ذلك انه لا يمكن أن يكون فيه تناقضا بين مصلحة الانجليز ومصلحة المصريين ٠ فمن أجل استغلال مصر ، يجب تذكية كافة طاقاتها ؛ وفى المقام الاول الانسان ؛ الانسان بأكمله ٠ لابد من العمل المشترك للأوروبيين وأهل البلاد ٠ فاذا أضعف الانجليز سكان البلاد وضغطوا عليهم وقللوا من شأنهم فانهم سوف يعملون عندئذ ضد أنفسهم ٠ ان مصلحتهم تقضى بأن يكون المصريون أقوياً ، وأحرار ، وأثرياء ، اذ أن رغدهم وثرائهم مشروطا برغدنا وثرائنا ٠ (٦٤) » ٠

وقبل ذلك ، وفى رسالته الأولى الى « بلنت » ، يدعو محمد عبده الى اقامة حكومة ملكية دستورية على النظام الانجليزى ، والفصل بين السلطات والحد من سلطة المستشارين البريطانيين (٦٥) ٠ وحينما دعاه صديقه الى وضع مشروع دستور لمصر ، تحدث محمد عبده باسم أصدقائه المحافظين معبرا عما سيكون عليه البرنامج السياسى لاحزاب الأقلية اليمينية : « قيام الحكومة الانجليزية بضمان النظام فى البلاد وكفالته ، والمحافظة على الدستور وأن لا تدع ذلك الدستور عرضة لتدخل الخديويين [٠٠٠] وان تعيين أمير أوربى لا يصادف قبولا من الأهالى ولا يساعدهم على تحسين حالتهم » ؛ سلطتان ـ تشريعية وتنفيذية ـ تتقاسمان السلطة ، دون أى ذكر لأى نوع من الانتخاب ، واعتبار مجلس النواب مجلسا استشاريا أوسع وأكثر فاعلية ؛ أما الوزراء فسيكونون انجليز ومصريين ، غير أن كبار الموظفين لابد ان يكونوا مصريين ، كذلك رئيس الوزراء الذى يجب أن يكون مسلما ؛ أما سردار الجيش بالاضافة الى عدد كبير من القـــواد (الباشوات) فمن الممكن أن يكونوا انجليز (٦٦) ٠ ان هذه الوثائق فيها أكثر من وصية سياسية ، أنها تعبير عن فلسفة سياسة الممكن فى اطار الاحتلال البريطانى كما يشير الى ذلك رشيد رضا (٦٧) ، وهو الموقف الذى سيجد امتداده فى المرحلة الأولى للحزب الوطنى وحزب الأمة فى ذات الوقت ، وهو ما لا يدخل فى نطاق دراستنا ٠

ولكن هناك أكثر من ذلك ٠ فاذا كانت الروح العامة هى روح الرضا

---

(٦٤) A. B. de Guerville : La nouvelle Egypte 201-8.

(٦٥) O. Amin : M. 'Abdou (thèse fr.), 252-3.

(٦٦) W. S. Bunt : S]cret history, (éd. 1907), app. 624-8.
حول الفصل بين السلطات ، راجع **تفسير المنار** ، ج ٤ ، ١٨٥ ـ ١٩٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦٥ ـ ٤٦٦

(٦٧) **تاريخ الأستاذ الامام** ، جزء أول ، ٩٠٣ ـ ٩٠٧

بما هو ممكن ، فان آراء محمد عبده فيما يتعلق بالخلافة ــ من خلال مقالاته وأبحاثه اللاهوتية وفتاويه ومراسلاته ــ لا تعبر عن أى حكومة دينية ففى الاسلام يرى انه « لا طاعة فى المعصية » ان الأمة أو نوابهـــا هم الذين يقيمون الحكومة فى مكانها ، وكذا فان الأمة هى التى تملك حق مراقبتها الى حد الاطاحة بها لو رأت أن فى ذلك صالح الأمة ٠ نحن اذن بصدد « حكومة مدنية من جميع النواحى » (٦٨) ٠ وهذا يعنى انه لا يوجد فى الاسلام سلطة دينية ، وأن نظرية الخلافة التقليدية هى بالضبط من نمط النظم الدستورية والعلمانية الغربية ، وبالتالى فهى تخضع لنفس النقد ونفس احتمالات التطور ٠

وقد تناول على عبد الرازق هذه النظرية فيما بعد بكل براعة فى كتابه الاسلام وأصول الحكم (١٩٢٥) ٠ ويمكن أن نقول ، بلا تناقض ؛ بأن محصلة آراء محمد عبده تجبذ الغاء جميع السلطات الدينية وهو ما يتمناه الاسلام الاصلى (٦٩) ٠ غير ان الحاج محمد عبده على الدور الرئيسى ، الا وهو تغيير الاسلام بعودته الى أصوله ، قد هيأ لجميع من خلفوه بالمطالبة بمدينة تقدم بالتحديد على هذه المبادىء الاسلامية : ان آراء محمد عبده التى جالت بين « الجيروندية الوطنية المعتدلة » التى كشفها « كرومر » ؛ وبين غلبة الدين على الدولة التى دعا اليها « الاخوان المسلمون » ، لم تلبث ان تخرج من الاطار الذى أراده لها المفكر الانسانى واللاهوتى التحررى الذى عرفناه (٧٠) ٠

---

(٦٨) **الاسلام والنصرانية** ص ٦٤ ــ ٦٥

(٦٩) **M. H. Kerr : Islamic reform, 151.**

(٧٠) بين البرت حورانى بطريقة حاســمة ان فكر عبده قد ســمح بتأسـيس عمل « الجيروندين » المصرين ، مثلمـا ســمح بتأســيس عمـل الوطنيين الراديكـاليين **(Arabic Thought, 58-221).** ان التمييز بين مصدرى الهام ، وبالتالى اتجاهى الفكر الرئيسين ، الذى وضعناه فى عام ١٩٦٢ ــ ١٩٦٤ ، لم يكن ملحاظا بعد ٠ وكذا التحليل جاك بيرك النفاذ : « كان جهد ادراك العالم الذى يقوم به أنذاك عدد من الشباب المجتمعين حول جمال الدين الأفغانى هائل بقدر ما كانت الصـدمة مروعة ٠ لكن عبده كان يفعل أفضل من مجرد التلقى ٠ انه يجسد التماس الجديد من قبل هذه المصرية ، وخلالها ، والذى لم يكن أى تعليم أو سفر يجعله يجيد عنه ٠ ان هذا الرجل ، على الدوام ، ابن هذا البلد (٠٠٠) فى عصر عبده لم يكن النضال ضد الامبريالية بالغياب ، لأن اللاجىء السياسى أو المقاوم من الخارج لم يكن يجد فى البلدان الأجنبية أى عون حاسم لا فى القسطنطينية ولا فى باريس ٠ لكن هذه المحصلة ، التى يمكن أن تستخرج من الحساب السياسى ، كان عبده يقوم بها بوصفه عالم دين (٠٠٠) ولكن بربطه تجديد الاســلام بسياسة مدنية لم يكن يرى أن اقتصاد الوسائل الميتافيزيقية هذا كان يوضح مســاجلة ما تزال مرعبة : مساجلة عواطف الشخصى والشكوك حول طبيعته الانسانى (٠٠٠) واذا كان فكر عبده يقترح حلا معقولا ل (مشكلة) الاسلام الزمنى فانه كان يترك مشكلة الاســلام

تلك هى خلاصة أفكار محمد عبده • واذا كنا قد عمدنا الى استخلاص طبيعتها ومحصلتها ، عبر مستوياتها المختلفة ، على الرغم مما يميزها من افتقاد ناحية الابداع ، ونقص العمق النظرى ، كما تدل على ذلك النصوص، فذلك لأننا نعتبرها المصدر الرئيسى لأحد الاتجاهين الرئيسيين فى الفكر المصرى المعاصر •

وقد حاول بعض المفسرين أن يجعلوا من محمد عبده فيلسوفا عقلانيا (٧١) • وقد سبق أن أوضحنا الدور الذى أعطاه محمد عبده للعقل، وأشرنا الى أسبقية الدين على المستوى النظرى والعملى فى ذات الوقت • حقا ، وهنا يكمن جوهر رسالته الايجابية ، أنه نادى باستخدام العقل والبصيرة لتلخيص الدين من الأدران التى علقت به وشوهته فى صورة التقاليد والخرافات • الا أن الايمان عنده هو مصدر كل حقيقة ، وليس العلم أو العقل باعتبارهما نشاطين تأمليين مستقلين عن كلم الله •

وأولى نتائج فكر محمد عبده هى حظر ، أو اعاقة ، ممارسة أى فلسفة وأى فكر يريد أن يستقل عن اطار الدين • والواقع أن تاريخ الفكر المصرى المعاصر هو تاريخ محاولات عقلانية ، من كل نوع تواجه دوما بالدعوة الى الدين • ومحمد عبده ، بتحديثه للدين التقليدى ، هو الذى رد له فاعليته وجعل منه ما أراد له أن يكون : أى الرابطة الوحيدة التى توحد الأمة بعروة وثقى لا تنفصم ، الفلسفة الوحيدة المقبولة ؛ لأنها فلسفة وطنية ومتفقة مع الاصول والمصادر •

أما الجانب الثانى من فكر محمد عبده ، فقد كان أثره أقل وضوحا، ولكنه كان أكثر ضررا على الفكر المصرى • حقا أ. النزعة العملية البراجماتية « التى حمل لواءها أتاحت لعلماء الدين المستنيرين تقديم

الروحى على ما هى عليه (•••) كل تأمل يجب أن يمر اذن بالعودة الى الهوية • وكان التبسيط الشديد مع ذلك أن نقدر مع محمد عبده ، أن بوسع عمل القضاة أو التفسير أو التربية أن ينظم هذه العلاقات (بين الشخص ، والمجتمع ، والهوية العميقة) طبقا للفكرة التى تصنعها حضارة عن نفسها • ذلك أنه سيتوجب تجديد هذه الفكرة بالذات » •
(L'Egypte, 218-24)

(٧١) وقد عبر مؤخرا مفسرون أكثر دقة عن آرائهم بهذا الصدد، وخاصة سليمان دنيا: **الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين** ، القاهرة ، احياء المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ ، جزءان ؛ محمد شلتوت : « **الشيخ محمد عبده وطريقته فى التفسير** » ، **الرسالة** ، العدد ٥٧٦ ، (١٩٤٤/٧/١٧) ، ٥٨٩ ــ ٩٣ ؛ وهناك مؤلف غربى خصص مقطعين ليس الا لمحمد عبده فى دراسة أراد لها أن تكون « شاملة » حول الاجتهاد •
(J. M.S. Baljon : Modern Muslim Koran interpretation 1880-1960 Brill Lyden, 1961, 4-5).

تفسيرا مقبولا للدين (٧٢) ؛ وبذلك أتاح للدولة أن تشرع القوانين وتتقدم فى طريق الحياة العصرية • غير أنها عملت على تشجيع ظهور اتجاه راسخ فى مصر ، ذلك الاتجاه الذى يقضى بتكييف المفكر ــ الكاتب مع احتياجات السلطة ، والتردد أمام أى مجهود للتنظير ، يغامر ، بتحركه خارج اطار الايديولوجية الرسمية ، بأن يخلق فلاسفة يصبحون منبوذين ، وكأنهم غرباء عن جسم الأمة •

أما الجانب الثالث من فكر محمد عبده ، فهو أن كتاب الله ومصلحة الأمة يأمران بمحاربة عوامل الفرقة ، سواء أكانت كفاحا أيديولوجيا من شأنه أن يتجاوز حدود الدين أو كفاحا سياسيا بين الأحزاب ، أو كفاحا وطنيا ضد المحتل • وبذلك تستبعد أية جدلية منذ البداية ، ويكون للتربية والتعليم عن طريق الدين الأسبقية على السياسة • وعلى ذلك ، فان محمد عبده لا يهدف الى اقامة دولة ذات سيادة ، مستقلة ، ديمقراطية وحديثة ، وانما يسعى الى بعث جماعة وطنية عن طريق الدين ، الدين المتكيف مع الحياة الجديدة ، لا عن طريق النقد التاريخى العلمى ، وانما بالرجوع الى اصول الاسلام ومصادره •

وأخيرا ، فان الجانب الرابع هو رفض التاريخية (التاريخانية)، والنقد العلمى ؛ والعودة الى الماضى • والحقيقة أن محمد عبده يبدأ بهذه النقطة الأخيرة • فمنهج التجديد ، كما رأينا ، يعتمد على الرجوع الى

---

(٧٢) هـ• لاوست يشير بالضبط أن « وسيلته المعتادة فى التفسير (•••) تقوم على تأويل المذهب الاسلامي وفق تطلعات اليوم »

H. Laoust : Essai sur les doctrine sociales et politiques de Takî-d-Dîn Ahmad b. Taimiya, Inst. Fr. L'Archéol. Orientale, Le Caire, 1939, 552.

وقد رأى ج• « جوميه » تماما الجانب الدينى ــ غير الاجتماعى ــ لفكرة عبده : « ان صفة الحداثة التى لقب بها عدد من هؤلاء المؤلفين تحجب فى الواقع موقفا شديد المحافظة : ففى نظرهم أن التقدم يقوم أولا على عودة الى الماضى المثالى ، مصحوبا بتكيف مع ضرورات الزمن الحاضر » •

(Commentaire Manâr, ix) • وحول النزعة العملية ، راجع الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى ، اذ يستوحى ذكرياته ، يضع على لسان المفتى الأكبر هذه الكلمات : « العلم هو ما يفيد الناس » • (« الشيخ محمد عبده بمناسبة ذكراه السادسة والثلاثين » ، **الرسالة** ، العدد ٤٢٠ ، ١٩٤١/٧/٢١ ؛ ١٩١٣ ــ ١٩١٥) • ان الأعمال الأدق ، والتى أفادت من التحول الثورى العميق لمصر منذ ١٩٥٢ ، خاصة أعمال والكتاب الأخير لعثمان أمين ، والبرت حورانى وجاك بيرك ، الخ ، تتجاوز مستوى العموميات وتسمح بتبيان الازدواجية والغموض التكوينيين لفكر محمد عبده ، بوصفه هكذا فى اطاره التاريخى •

المصادر ، على نحو ما تميزت به جميع المذاهب الرومانسية ، الا أن الرجوع الذى نحن بصدده يبغى الأصالة والادراك السليم • وعلى ذلك فان التطور التاريخى القادم يعتبر انعكاسا ، الى الأمام ، لتركيبات العهود الماضية وعقليتها ، وبالتالى ، لمجد هذه العهود •

وبذلك يختط محمد عبده مفهوما ثيوقراطيا (أى مفهوم الحكم الالهى الدينى) للمجتمع المصرى ، ولمستقبل مصر • أولوية الدين ، **الأيديولوجية الوطنية** ؛ **النزعة العملية** « البراجماتية » ؛ رفض كل جدلية ؛ الرجوع الى الماضى ــ يخفف فيه ويلطفه الادراك السليم : تلك هى الفلسفة التى انتهت ، من خلال مدرسة « **المنار** » « **والأخوان المسلمين** » ، بالانتصار على أيدى هيئة «**الضباط الأحرار**» بقيادة جمال عبد الناصر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (٧٣) •

لقد بدأ تأثير المفتى الكبير يظهر فى حياته وقبيل وفاته على الأوساط المحافظة المستنيرة وبوجه خاص بين الفئات الوسطى وأعيان الريف المتعلمين (٧٤) • أما المثقفون وسكان المدن ، فقد كانوا يتطلعون،

---

(٧٣) راجع : أنور عبد الملك : **المجتمع المصرى والجيش** ؛ وكذا :
Anthologie Litt Arabe. Cont. : ii) les Essais : 9-32, 145-71.

وعند **(Islam in the Modern National State, Cambridge U.P., Cambridge, Mass., 1965).** ، فان هذا الاتجله يبدأ برشيد رضا ، على وجه التخصيص

أما فايز صايغ فى
"The theoretical structure of Nasser's Arab socialism», St. Antony'e Papers, no 17, Middle Eastern Affairs, no. 4, Ed. Albert Hourani, Oxford U.P., London, 1965, 9-55.

فانه يحتفظ بهذه الفرضية ، رغم انه يصر فى عام ١٩٦٥ على الحديث عن اشتراكية « عربية » رغم النص نفسه **لميثاق العمل الوطنى** الذى يخصص التسمية « الاشتراكية العلمية » • ان الفكرة التركيبية السريعة لليانارد بيندر **Leonard Binder** تشير مع ذلك الى أن افكار عبده تجد نفسها فى « جذر الرومانتيكية والحيوية الوطنية العربية » دون ان يذكر بشكل خاص جمال عبد الناصر
(The ideological revolution in the Middle East, John Wiley, New York, 1964, 105, 199-224).

(٧٤) هـ٠ا٠ر٠ « جيب » يتحدث عن « طبقات متعلمة على الطريقة الأوربية »
(Studies in contemporary Arabic literature», B.S.O.A.S., iv, 1928 no. 4, 757-8).

فى حين يجب اقامة التمييز الذى أعطيناه بين الجماعات الاجتماعية التى خضعت لتأثير أوربا الى درجة الجثث فى الثورات الأوربية عن مفاتيح النهضة الوطنية لمصر ، وبين الذين ، بالمقابل ، على الأقل فى المرحلة التى ندرسها ، التفتوا نحو الاسلام الأصولى • نفس الرأى عند **C.C. Adams (Islam and modernism, 206-7).** • لكن التلاميذ الذين يتحدث ــ « المختارين من الدرجات العليا فى المهن الشرعية وأساتذة المدارس العليا الحكومية ، =

من جانبهم ، الى الجماعات القيادية من البورجوازية الناشئة : الجماعة الوطنية بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد من جهة ، وجماعة المحدثين بزعامة أحمد لطفى السيد · وبالنسبة لهؤلاء ، كان محمد عبده هو المفكر الرائد فى اتجاه التطوير المعتدل وفى اطار الدين التقليدى ، عن طريق تغيير الصفوة بفضل التربية والتعليم ؛ مع صرف النظر تماما عن أى التجاء الى الشعب الذى يعتبر جهله وانقساماته من مصادر الخطر ·

= ورؤساء الادارات الحكومية » ـ الذين يمثلون فى رأينا العنصر البيروقراطى ، المستقيم الرأى ، « الجيرونديين » على وجه التدقيق ، من الطبقات المتوسطة الجديدة اما فئة المثقفين الجديدة ، والشباب فسيتبعون طرق عرابى ، والصحافة الوطنية الراديكالية والحزب الوطنى» ويطلق رشيد رضا نفسه على تلاميذ عبده « الحزب المعتدل » **المنار** ، ج ٢٩ ، ١٩٢٨ ، ١٩٦٦) · ويجب أن نرى أن ذلك هو بداية تطوير الدراسات المصرية ـ من الاستشراق الى العلوم الاجتماعية ـ غداة الحرب العالمية الثانية التى تشهد ظهور تفكير علمى نقدى حقيقى حول التجديد الاسلامى ·

● الفصل الثانى عشر :

التحول الجذرى فى الأيديولوجية الوطنية والفكر الاجتماعى

القسم الأول : آخر مراحل فكر الطهطاوى : من الوطنية الى الاشتراكية

لقد اخترنا ، عامدين ، أن يأتى تحليلنا لآخر مراحل فكر الطهطاوى فى هذه المرحلة بالذات من دراستنا ٠ فالواقع أنه ، من خلال « **مناهج الألباب المصرية** » (١٨٦٩) فى أواخر حكم اسماعيل ، بدأ يتحقق التحالف التدريجى بين مختلف الفئات والقوى فى الحركة الوطنية والتى لم تكن ، حتى ذلك الحين ، قد تلاقت واتفقت ، والتى كانت تملك مضمونا اجتماعيا ذا طابع جذرى (راديكالى) واضح ، واتجاه اشتراكى ، فى الوقت الذى لم تكن فيه أفكار الطهطاوى قد غيرت اتجاه الحـركة الوطنية ، ذلك الاتجاه الذى كان فى جوهره قوميا تقليديا (كلاسيكيا) ، والذى سنتعرض له فى الأقسام التالية ٠

منذ عهد قريب ، بدأ اعتبار الطهطاوى الرائد الحقيقى للاشتراكية المصرية ، وهو الدور الذى كان ينسب الى سلامة موسى حتى حوالى ١٩٦٠، ونادرا ما كان ينسب الى فرح انطون أو شبلى شميل (١) ٠ والواقع أن اعادة اكتشـاف التراث التاريخى الراديكالى للحـركة الوطنية المصرية والبحث المنهجى عن أوليات الاشتراكية فى مصر ، يندرجان كمشكلات فى البحث التاريخى والأيديولوجى من جهة ، والتحليل النظرى من جهة

(١) ان مناقشة هذه المشكلة بدأت مؤخرا ، والابحاث حولها ، وقد عالجناها عدة مرات فى أعمالنا ، بين ١٩٦٢ و ١٩٦٩ ، خاصة : **المجتمع المصرى والجيش** ، جـ ٢
Anthologie Litt. Ar. Cont. : ii; Pensée Politique Arabe Cont.; «Problématique du socialisme dans le monde arabe», L'Homme et la Société, no 2 (1966), 125-48; etc.
وينتبه البرت حورانى الى الطابع الرائد للطهطاوى (Arabic thought, 67-83). الفضل للويس عوض فى تحقيق منعطف حاسم : **مؤثرات** ، الجزء الثانى ، المشـار اليه مرارا ٠ وكذا دراسة جديدة لرفعت السيد : « رفاعة الطهطاوى وبداية الفكر الاشتراكى فى مصر » **الكاتب** ، السنة الثانية (١٩٦٨) العدد ٨٣ ، لا تشير أبدا الى الأعمال السابقة ٠

أخرى ، غداة حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ العالمية ، وبتحديد أكثر : حوالى سنة ١٩٤٦ التى مهدت بشكل حاسم ، بتكوين « اللجنة الوطنية للعمال والطلبة » ، للثورة الوطنية التى قامت عام ١٩٥٢ (٢) ٠ ومع ذلك فاذا كان الفن والثقافة الشعبيين والتطور السياسى ، وكذا التاريخ الاقتصادى ، والتطور الاجتماعى للبلاد ، اذا كان ذلك يمثل مادة لدراسات هامة ، فان من الملاحظ أن البحث فى الأصول الفكرية والايديولوجية الوطنية جاء ، فى مرحلة متأخرة نسبيا ، وبخاصة فى ظل ثورة ١٩٥٢ ، فى قلب الاطار المركب للحركة الوطنية المصرية ٠ حينئذ بدأ الاهتمام باعادة النظر فى انتاج المفكرين والقادة السياسيين المصريين فى القرن الماضى ـ موضوع بحثنا ٠ بدأ الدارسون يبحثون فى هذا الانتاج ، بطبيعة الحال ، عن أسباب لما لاح ، ابتداء من ١٩٤٥ ، وكأنه تناقضات محيرة ، تناقضات بلا علة ظاهرة ، لما لاح وكأنه حالة لا ضرورة لها ، ولم تصدر عن أية ضرورة تاريخية ، لما لاح وكأنه معركة فى الظلام ضد طرف آخر ، هو الذات نفسها أيضا ٠ وقد كان البحث عن الأصول ، فى بعض الأحيان ، لأسبات دفاعية (٣) ، ولكنه فى أغلب الأحيان كان لأسباب وطنية (٤) ، وقد اتجه البحث المستمد من الماركسية أو البحث الوطنى ـ الراديكالى وجهة المحاولة فى تنقيب بعد الثقافة ، وفلسفة الثقافة ، والنهضة الوطنية الثقافية ، أى باختصار فى طريق الدراسة الاجتماعية ـ السوسيولوجية للنهضات الوطنية فى اطار حضاراتها (٥) ٠

كان الطهطاوى بطبيعة الحال على رأس القائمة ٠ والجدير بالذكر ان العديد من الدراسات لم تجد فيه سوى باعث النهضة الثقافية فى البلاد٠ وقيمة هذه الدراسات لا يمكن أن تعوض ضعف التفسير ـ الأمر الذى يتطلب اعادة الاطلاع على تطور المجتمع المصرى ، وفى ذات الوقت فى الفكر المصرى وأيديولوجية الحركة الوطنية ٠ حينئذ يتبدى لنا كتاب « **مناهج الألباب** » فى صورة مختلفة ٠ ان رسالة محمد صبرى عن « **نشوء**

---

(٢) راجع أنور عبد الملك **المجتمع المصرى والجيش** ؛ عبد المنعم الغزالى : « موقع ٢١ فبراير ١٩٤٦ من التاريخ » ، **الطليعة** ، السنة الثانية (١٩٦٦) العدد ٢ ، ٥١ ـ ٦٠ ٠

(٣) هذا امر مؤلفات أنور الجندى الغزيرة ، ومعظمها تلقائى ينقصها التمحيص ٠

(٤) تلك هى دوافع أعمال عبد اللطيف حمزة ، شوقى ضيف ، محمد حسين ، عمر الدسوقى ، لويس عوض ، محمد مندور ، صبحى وحيدة ، جمال حمدان ، طارق البشرى ، الخ ، حول الأدب والفكر المصرى الحديث ٠

(٥) ومن مقدمات هذه الرسالة ، وابعادها ، كتاباتنا المجمعة فى : **دراسات فى الثقافة الوطنية** ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ثم **الفكر العربى فى معركة النهضة** ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٤ ، الخ ٠

الروح الوطنية المصرية » (١٨٦٣ – ١٨٨٢) » التى تعود الى عام ١٩٢٤، تضع العوامل الثقافية بل والاقتصادية فى مكانها الصحيح : البعثات الدراسية ، التعليم ، الصناعة ؛ الزراعة ، السياسة المالية (٦) ؛ غير أنه لا وجود للبعد الفكرى الأيديولوجى ، ولا للتناول السوسيولوجى : فنحن فى عصر التأريخ القائم على سرد الحوادث المنتشر فى تلك الفترة · وفى عام ١٩٦٢ ، بدأ التساؤل حول « **مناهج الألباب** » ومغزاه · وقد قدم البير حورانى تلخيصا لأفكار الطهطاوى الاقتصادية والاجتماعية (٧) فى ذلك العصر · وفى العام التالى ، قدم لويس عوض الدراسة الحاسمة فى هذا الصدد (٨) · وبذلك يمكن أن تتم اعادة النظر بصورة مثمرة ومفيدة (٩) ·

ان نقطة الانطلاق فى «**المناهج**» هى اعتبار أن أساس « اتقان الحضارة والرخاء » هما أساسان خلقى – دينى واقتصادى فى ذات الوقت· وقد افتقر الكتاب ، فى جوهره ، على هذا العامل الثانى ، أى دراسة « المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى وتنعيم البال على عموم الجمعية وتبعدها عن الحالة الأولية الطبيعية (١٠) » هذا ، وان الحديث عن الاقتصاد فى مصر التى أمام عينيه ، يعنى ، بالنسبة للطهطاوى ، الاهتمام بالرخاء الزراعى فى البلاد ، وبالتالى ، بطبيعة السلطة الحكومية، ووضع الدولة · وان ثناءه ، فى هذا الكتاب ، كما فى غيره ، على محمد على ، والمقارنة التى يعقدها بينه ، «ثانى فحول أمراء مقدونيا» (١١) – وبين الاسكندر الأكبر يتناقض مع ادانته الدائمة للمماليك الذين يتهمهم ، كما رأينا بالقصور ، وفى مجالنا هذا ، بعدم الجدارة فى ادارة السلطة المركزية الموحدة التى تتطلبها ادارة الهندسة المائية المصرية فى جميع العصور · فليس ممارسة الفضائل وحدها اذن يمكن أن تكفى لتحقيق رخاء مصر ونهضتها · ان الدعوة الى الفضيلة تأتى مقرونة بالتحذير من اهمال البعد الاجتماعى : « فكيف يؤثر العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلى وتعاطى ما يرى الفضيلة فى غيره فاذن القوم الذين رأوا الفضيلة فى الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم اما بملازمة المغارات فى الجبال واما ببناء الصوامع فى المفاوز واما بالسياحة فى البلدان للدروشة

---

(٦) النص الفرنسى ، ١٣ ، ٣٩ ·

(٧) Arabic thought, 67-83.

(٨) **المؤثرات** ، جزء ثانى ، ١٢٢ – ١٩٤

(٩) راجع : أنور عبد الملك
Anthologie litt. ar. cont. : ii, Les Essais, 41-44.

(١٠) **مناهج الألباب المصرية** · ٧ – ٨

(١١) **المرجع السابق** ، ص ٢٠٦ ؛ محمد على هو من مواليد « قولة » فى مقدونيا ·

لا يحصل لهم شيء من الفضائل الانسانية المدنية المعهودة التى عددناها (١٢) » . فلابد من مواجهة العالم ، العالم المعاصر ، فى تصميم وارادة . لقد اهتم الطهطاوى برد الاعتبار الخاص بالاهتمام الطبيعى عند الناس بالمال ونعيم هذه الدنيا ، الى درجة أنه ساوى بين فكرتى « الخير » و « المال » (١٣) ويفسر ذلك بقوله :

« المنافع ، جمع منفعة ، وهى فى اللغة : ضد المضرة ؛ ومنه قوله :

اذا انت لم تنفع فضر فانما   يرجى الفتى كيما يضر وينفع

وقد تطلق على الدواء ، كقوله :

هم الناس فالزم ان عرفت طريقهم   ففيهم لضر العالمين منافع

وتطلق على المنفعة الشرعية ، فتكون عبارة عن جميع ما شرع من أنواع البر المتعاون عليه ، كالقرض ، والعارية ، والهبة ، والصدقة ، والوقف ، وما أشبه ذلك مما يقتضى الالفة واتفاق الآراء فى تدبير المعاش والمعاد . وتطلق فى عرف تدبير المنزل على ما يفعل لمصلحة تخص بلدة أو مدينة أو مملكة ، لراحة أهلها وتنظيم أحوالها ، من كل ما يعود عليهم بفائدة لها وقع فى المملكة ، وبها يترقى الوطن ، وتشترك فى ثمرتها أربابه ، فلهذا تقيد بالعمومية ، فهى بالمعنى العرفى تخص السياسة حيث أنه قد لا تقتضى الأوضاع الشرعية المتادب بها فى المملكة عين المنفعة السياسية الا بتأويلات للتطبيق على الشريعة ، ومع ذلك فمبنى المنفعة فى السياسة الشرعية على طريق اكتساب المال من غير مهانة ولا عسف ، وانفاقه فى المصارف الحميدة العاقبة ، الجميلة الذكر ، ومبنى المنفعة أيضا على صرف الهمة الى ازالة المكروه عن الناس بقدر ما تسعه القدرة البشرية ، من اسعافهم واعانتهم . وسيأتى فى الفصل الأول من الباب الثانى تعريفها فى اصطلاح الادارة الاوروبية ، وانها مجمع الفضائل . وقد ذكرنا فى المقدمة انقسام أسباب المعايش الى أربعة أقسام وهى : زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، ونتاج الحيوانات . ونقول هنا أن هذه المنافع اذا وجدت فى مملكة دامت ، متى روعى فيها العدل والانصاف ، فتكون مقابلة للاستثمار ، والتمول ، وتحصيل النقود والمتاع والعقارات ، وجميع الاملاك الاحتياطية ؛ فبواسطة اكتساب الاهالى هذه المكاسب يصح لهم الانفاق المنزلى مع السعة والثروة ، وبفضول أموالهم يؤدون حقوق المملكة القائمة بحفظهم وصيانتهم ، مما يوجب ثروتها واقتدارها ، وينفقون فى

---

(١٢) المرجع السابق ، ٢٢ ـ ٢٦ .

(١٣) المرجع السابق ، ٢٧ .

سبيل الله ما شاء أن ينفقوا ، رحمة بذوى الحاجات ؛ فبهذا يتم النظام المنزلى والنظام المدنى ، وقوام كل من النظامين على الاقتصاد فى الانفاق، وترك الحرص والطمع ، والاسراف والتبذير (٠٠٠) (١٤) » ٠

ثم يتناول الطهطاوى مباشرة مشكلتين أساسيتين أوحت بهما اليه دراسة الاقتصاد الزراعى ، فى ذلك العصر ، هما استغلال الفلاحين بواسطة ارستقراطية الأرض ، أرباب الأعمال وأرباب الأملاك ، العمال والملاك :

« ثم أن المقتطف لثمار هـذه التحسينات الزراعية المجتنى لفوائد هذه الاصلاحات الفلاحية الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية والمحتكر لمحصولاتها الايرادية انما هو طائفة الملاك فهم من دون أهل الحرفة الزراعية متمتعون بأعظم مزية فأرباب الأراضى والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية والمتحصـلون على فوائدها حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولاتها له وقع فلا يعطون للأهالى الا بقدر الخدمة والعمل وعلى حسب ما تسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة يعنى أن الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ولا تدفع فى نظير العمل الجسـيم الا المقدار اليسير الذى لا يكافىء العمل فما يصل الى العمال فى نظير عملهم فى المزارع أو الى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها هو شيء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد الى الملاك (٠٠٠) ٠

فيترتب على هذا أن كل من يريد من الأهالى أن يتعيش من الخدمة التى هى العمل يصير مضطرا لأن يخدم بالقدر الذى يتيسر له أخـذه من الملاك بحسب رضائهم ولو كان هذا القدر يسيرا جدا لا يساوى العمل لا سيما اذا وجد بالجهة كثير من الشغالين فانهم يتناقصون فى الأجرة ويتنافسون فى ذلك لمصلحة صاحب الأرض مع أن الأرض انما يتحسن محصولاتها بالعمل فلا يمكن أن يكون ذلك التحسن والزيادة والخصب الا بالعمليات الفلاحية الصادرة من هؤلاء الأجرية الذين تناقصت أجرتهم وكما أن أرباب الأملاك يحتكرون جميع الصنائع لأن الصنائع كلها من تسعى وتنهض فى الأشغال والعمليـات التى تسـتدعيها حاجة الزراعة كالحدادة والنجـارة وجميـع صـنائع أهل الحرف المتعلقـة بأمـور الفلاحة (٠٠٠) ٠ » (١٥) ٠

كيف يمكن تفسير هذا المزج بين ملاك الأرض وقطاع الصناعات ؟ ذلك اننا فى ظل عهد ثان ولاة مصر الذى اهتم باحياء الدولة الحديثة

(١٤) المرجع السابق ، ٢٣ ـ ٢٤ ٠
(١٥) المرجع السابق ، ٩٣ ـ ٩٤ ٠

الصناعية ، بعد الاضمحلال الذى مرت به على عهد عباس الأول وسعيد — وبالذات سعيد ، الذى سن نظام ملكية الأرض الخاصة عام ١٨٥٦ · ومن الواضح أن أرستقراطية الأرض الجديدة ، وقد اطمأنت الى سلطانها لا يمكن ، فى نظر الطهطاوى ، أن تحقق الرخاء الزراعى للبلاد ، وأمله فيها أضعف بالنسبة لتحقيق التقدم الصناعى · ان احتكار الدولة ، على عهد محمد على ، والذى استأنفه اسماعيل فى المجال االصناعى والمواصلات ، يمثل القاعدة الوحيدة لأى تقدم فعلى · بل أن عقلية الملاك الذين كان الطهطاوى يلاحظ تصاعدهم ، فى قلق ، تدفعهم فى طريق استغلال العمال ، وباختصار ، فى طريق اقتصاد يقوم على الاستثمار والفائدة ، وفائض القيمة ·

ومن ثم فان فكرة « القيمة » تصبح موضوعا لتحليل نقدى يكمل ادانة النظام :

« فللأمور المعاشية فى الظاهر جهتان جهة فاعلية وجهة انفعالية أى محلية والاول هو الأشغال والثانى هو الاراضى الزراعية ·

ثم اختلف هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الأرض ، وانما الشغل مجرد آلة وواسطة لا قيمة له الا بتطبيقه على الفلاحة ، أو أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الاموال المستفادة ، وأنه هو الاصل الاولى للملة والامة ، يعنى أن الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج ما يحتاجون اليه لمنفعتهم من الأرض أو لراحة المعيشة ، فالفضل للعمل ، وأما فضل الأرض فهو قانون تبعى ؟ وهذا هو الذى يعتمده أهل الفلاحة ، ويستدلون على ذلك بأنه لا يمكن ايجاد الخصب فى الارض الا بدوام الشد ل واستمرار العمل ، والا لبقيت مجدبة اذا انقطع الشغل عنها ، فان الشغل يعطى قيمة لجميع الاشياء التى ليست متقومة بدونه ، كالاشياء المباحة التى لا تباع ولا تشترى مما لو خليت ونفسها لا تساوى شيئا ، مثلا الماء والهواء أصلان لمنافع حياة الانسان ، ولا يدخلان فى الثروة والسعادة ، ولا فى الملكية المعدة ، لأن هذين العنصرين اقتضت الحكمة الالهية الاكثار منهما فى جميع المحال ، وأبيح لكل انسان التمتع بهما ، فهما فى حد ذاتهما ، على العموم ، ليسا من الاملاك المتقومة ، وان عظمت فائدتهما ، ولا يزيد فى منفعتهما النسبية الا العمل والشغل ، يعنى أن جلبهما اذا احتاج للعمل كان له قيمة بقدر العمل فقط ، لأن الظمآن اذا احتاج الى من يجلب له الماء فى اناء كان الماء المجاوب لسد خلة العطش مقوما عند جلبه اليه دون قيمته فى النهر ، فان « كوز » الماء قد يعطى لمن يطلبه مجانا بدون مقابل ، وقد يعطى بثمن على قدر العمل ؛ وقد يبلغ عند الضرورة والاحتياج ثمنا جسيما كما

وقع فى غزوة الفرنساوية بمصر أن أحد رؤساء العسكر الفرنساوية دفع فى « كوز » الماء مائة فرنك ، يعنى أربعمائة قرش ! واذا كان الانسان فى بيته واحتاج الى استنشاق الهواء فالعمل الذى يكون به فتح المنافذ كالابواب والطاقات والشبابيك تجعل له قيمة لم تكن له قبل ذلك ، وكذلك عند الضرورة ، كالهواء للمسجون ، فانه يتغالى فى تحصيله بدفعه للسجان قدرا جسيما • فما يصرفه الانسان لتحصيل المباح من الماء والهواء انما هو قيمة العامل وأجرة الخدمة ، وفى مقابلة الامر والنهى والسلب والايجاب بحسب منافع هذه الاشياء ومضارها ، فهذا هو الذى يعد ملكا للانسان وثروة له باستحواذه على الماء والهواء ، وفيه ترويج للعقارات المشتملة على منافع هذين العنصرين ، ومثلهما النار والكلأ المباح ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ ، والنار » فلا يجوز لأحد تحجرها ولا للامام اقطاعها •

فالمدار على العمل فى الرواج ، اذ به يستحوذ الانسان على منافع الحيوانات وصناعتها الالهامية ، فيؤلفها لهذه المنافع لينتفع بها أهل وطنه، ويؤنس المتوحش منها لذلك ، فيتملك الانسان صناعة النحل وصناعة دود القز بتربيتهما ، وبجودة العمل يتوصل الانسان الى اغتنام العون بحركة الهواء والماء ، وبصلابة الأجسام ولينهـــا ، وبتصعد الأبخرة ، وبالسيارات ، وبكل ما فيه قوة معنوية واسرار منتشرة فى أجزائه الكونية وخواص تجريبية ليست من دائرة تصرف القوة البشرية ، وانما حدثت للانسان من جودة الصناعة وتقدم المهارة والبراعة ومعرفة الانتفاع بتلك القوى الطبيعية التى بثها فى الكون الحكمة الالهية ، فالمولى سبحانه وتعالى خلق لنا هذه الاسرار والخواص ، وخلق فينـا العقل لنقدر على الاستعانة بها لتكميل ضعفنا ، والاستفادة منها فيما نحتاج اليه ، فان الآلات والدواليب البخارية ، مثلا ، والسفن المنشورة القلاع فى البحار العظيمة ؛ نستفيد منها الفوائد الجمة لقوة العمل الذى يعسر أن يكون مثله بالايدى منتجا مقدار انتاجه بالآلات •

وفى الحقيقة جميع هذه الاعمال لا يتمكن الانسان من الانتفاع بها حق الانتفاع الابوجود الارض المخصبة أو القابلة للخصوبة بالصناعة التى هى محل العمل • (١٦) »

هل كان الطهطاوى على علم بكتابات «ماركس» و «انجلز» ؟ ان لويس عوض ينفى ذلك انطلاقا من ملاحظة : أن الطهطاوى يتابع عن كثب انتاج أهم أعمال علماء الاقتصاد فى ذلك العصر ، وبالتحديد « برودون »

---

(١٦) المرجع السابق ، ٨٤ ـ ٨٦ •

و «ستيوارت ميل» ٠ ولعله وجد عند «برودون» آراءه حول ميكنة الزراعة وحول زيادة الكفاءة التكتيكية بهدف زيادة الانتاج (١٧) ٠ ولا شك أن الطهطاوى كان يهتم بكل جديد فى مجال التكنولوجيا ٠ فقد جذب انتباهه الانقلاب الذى حدث فى وسائل المواصلات ، بل لقد نظم قصيدة يثنى فيها على السفينة البخارية (١٨) ٠ لقد كان يرى فى ذلك تجربة ستؤدى ، على المدى الطويل ، الى أن تعيش الشعوب المختلفة فى سلام جنبا الى جنب ، وعلى مصر أن تأخذ بالعلوم الحديثة وكل ما يترتب عليها من تجديد ٠ ومن ثم ، كان الاهتمام الواجب بملاحظات وتحليلات الاجانب. وعلى سبيل المثال ؛ ذلك الكاتب الأوروبى الذى أوضح أن مصر تملك ثروات اقتصادية هائلة من الممكن استغلالها فى وقت قصير (١٩) ٠ وعلى أية حال أليست العلوم الأوروبية من أصل اسلامى ؟ ان ما أعطاه العرب لأوروبا فى العصور الوسطى يجب الآن أن يعود الى مصر — والطهطاوى هنا ، لا يفرق بأية حال بين هذين الكيانين — وذلك عن طريق حسن الضيافة الممنوحة للأجانب والعلاقات الطيبة التى اقامتها معهم والتى يمكن أن تصل الى درجة دعوتهم للاقامة فى مصر للتدريس فيها ، كما فعل بسماتيك الأول فى عصره مع الاغريق (٢٠) ٠ يلفت الانتباه هنا ، كيف أن الطهطاوى ، المصرى ، ظل مشدودا بعمق الى مصر الفرعونية ٠

هل سيثار موضوع الدين ليقف حائلا فى سبيل هذا الانفتاح على المعاصرة ؟ ان الطهطاوى ، يعودمرة أخرى ، ويصوغ دعوته من أجل مفهوم الوطن فى عبارات محددة واضحة : « فجميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها ما يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية ، فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناه وثروته لأن الغنى انما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهى تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بمزية النخوة الوطنية فمتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض واحتقار لثبتت لهم المكارم والمآثر ودخلت فيما بينهم السعادة ٠ » ٠ (٢١) بل أكثر من ذلك ، أننا نجد أنفسنا أمام دعوة حقيقية للعمل تحقيقا للعدالة

---

(١٧) ل٠ عوض : المؤثرات ، جـ ٢ ، ١٩٠ — ١٩١ ٠

(١٨) مناهج ، ١٢٦ ٠

(١٩) المرجع السابق ، ٢٢٥ — ٢٨٥ ٠

(٢٠) المرجع السابق ، ١٨٨

(٢١) المرجع السابق ، ٩٩ ٠

الاجتماعية ، ثم تغيير طبيعة العلاقات بين الملاك والفلاحين : « القاعدة المشهورة من يزرع يحصد (...) قال صلى الله عليه وسلم الزرع للزارع مع أن المعنى فيه أن الزرع لمن بذر والثمرة له وعليه أجرة مثل الأرض لا أن العامل يأخذ أجره قليلة على عمله » (...) .

« فحديث الزرع للزارع لا يدل على شيء من جواز استحواذ المالك على المحصولات وعدم مكافأة العامل ولا يستند في غبن الأجير الى أن المالك دفع رأس ماله في مصرف الزراعة والتزم الانفاق عليها فهو الأحق بالاستحواذ على المحصولات الجسيمة وأنه الأولى بربح أمواله العظيمة فهو الأصل في التربيح وأن عملية الفلاح انما هي فرعية انتجها وحسنها رأس المال فان هذه التعليلات محض مغالطة اذ فرض الكلام في العامل جر لعمل منتج لولاه لما ربحت الأرض ربحا عظيما فمواكسة المالك له في تقليل أجرته محض اجحاف به ووصف استملاك الأراضي والصرف على الزراعة من رأس مال المالك لا يقتضي كونه يستوعب جل المحصولات ويجحف بالأجير نظرا الى ازدحام أهل الفلاحة وتنقيصهم للأجر وسومهم على بعضهم بالمزايدات التنقيصية وهذا لا يثمر محبة الأجير للمالك (من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا) فان هذا فيه ايذاء بعضهم لبعض وهو ممنوع شرعا) (٢٢) . »

هل كان الطهطاوى فريد عصره ؟ ذلك هو السؤال الذى يجب أن نحاول الاجابة عليه والذى تجنبنا التعرض له حتى الآن ، ربما لأن « مناهج الألباب » لم يظهر فى حقل البحث الجامعى أو فى الوعى القومى المصرى نفسه ، الا منذ عهد قريب . ومع ذلك فيجب أن ندرك أن آخر أفكار الطهطاوى كانت صادرة عن رائد بكل أصالة ، أى عن شخص متفرد . وبعد ذلك بعشر سنوات ، أى فى عام ١٨٧٩ ، نشر استاذ بالأزهر ، العالم النحوى حسين المرصفى (١٨٩٠) ، بحثا فى علم الدلالة السياسى ، يعتبر الأول من نوعه فى مصر ، وهو « رسالة الكلم الثمان » : حاول فيه أن يضع تعريفا دقيقا للكلمات الثمان الرئيسية التى تتصدر المصطلحات السياسية فى عصره وهى : « الأمة » ، « الوطن » ، « الحكومة » ، « العدل » ، « الظلم » ، « السياسة » ، « الحرية » ، « التربية » . ويخاطب الكاتب الجيل الجديد فى مقدمة ؛ فيقول : (بهذه الكلمات الثمان)

« أهديتها لأولى النهى فتيان أبناء الزمان (...)

---

(٢٢) المرجع السابق ، ٩٥ – ٩٦ .

شرحت فيها كلمات جارية على ألسنة الناس لهجوا بذكرها فى هذه الأوقات (٢٣) ٠ »

وتشغل « الأمة » خمس عشرة صفحة ٠ وهى تتجاوز بشكل واضح اطار الدين الاسلامى ، ويرى المرصفى أن وحدة اللغة تمثل أفضل أساس للأمة ، فهى وحدها تتجاوب تجاوبا كاملا مع حاجات المجتمع ٠ وانعدام وحدة اللغة يفضى الى « اختلاف الأفهام وتفاوت الآراء الى عداوة تؤثر فى مصالح دنياهم وتبعثهم على القتال وازهاق النفوس وتسالب الاموال فاذا كانوا كذلك لم يكونوا أمة دين وكان الدين بينهم اسما ليس له مسمى (٢٤) ٠ » « على الامة أن يتشاوروا ويتناصحوا ونسمع كل رأى ولا يحتقر أحد أحد ، فان الاحتقار سبب النفار (٠٠٠) ٠ وعلى الامة أيضا أن تكون أرضهم بالنسبة اليهم كالدار بالنسبة للشخص· (٢٥) »

ثم يأتى دور «الوطن» الذى يشغل تسع صفحات ــ ويحدده المرصفى فى مصطلحات معنوية نفسانية بأنه المكان المخصص لوجود الجماعة ، (الامة) الاسلامية (٢٦) ٠ ويخصص الكاتب « للحكومة » أربع عشرة صفحة ، متبوعة بطريقة متعارضة ، بـ ١٤ سطرا خصصها بصفة عامة « للعدالة » ، « الظلم » ، « السياسة » : نحن فى الفترة الحاسمة ؛ فترة عزل اسماعيل ٠ لذلك ، فاذا كان قد خصص « للحرية » صفحتين رغم كل شىء ، فقد استطاعت « التربية » أن تستأثر بثلاثين صفحة(٢٧)٠

واذا ما اقتربنا كثيرا من النصوص (٢٨) ، من أول وهله ، لاحظنا أثرا واضحا لافكار الطهطاوى ٠ فالنقد الضمنى لمفهوم الأمة صيغ بعبارات الطهطاوى ؛ غير أن الاسلوب يتميز بالحشو والاطناب ٠ وقد حاول المرصفى فى مواضع كثيرة ، أن يقوم بدور الناقد الاجتماعى والمصلح ؛ بل أن ناقدا حديثا رأى فيه بطلا من أبطال «الديمقراطية» ، « ينادى بمحو الطبقات ، والمساواة بين طوائف الأمة لا فرق بين عظيم

---

(٢٣) حسين المرصفى : **وسالة الكليم الثمان** ، المطبعة الشرفية بالقاهرة ١٢٩٨ هو ، وحول كتاباته اللغوية ، راجع **الوسيلة الأدبية** ، وكذا الفصل التاسع من هذا الكتاب ،

(٢٤) **نفس المرجع** ، ٢ ــ Anthologie litt. ar. cont. : ii, les Essais, 414.

(٢٥) نفس المرجع ، ٢ ــ ٤ ؛ A. Hourani : Arabic thought, 194.

(٢٦) **رسالة الكليم الثمان** ، ١٥ ــ ٢٥ ٠

(٢٧) **المرجع السابق** ، ٣٧ ــ ٦٧ ٠

(٢٨) محمد عبد الجواد ، **الشيخ الحسن بن احمد المرصافى** : دار المعرفة القاهرة (١٩٢٢) يؤلف عملا جديا لكنه لا يقيم العلاقة مع الطهطاوى ، راجع أيضا : محمد عبد الغنى حسن : « **اعلام من الشرق والغرب** » ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٩ ، ٦٧ ــ ١٢٦ ؛ عبد المجيد محمد فهمى : « الشيخ حسين المرصفى » ، **مجلة الأزهر** ، المجلد الواحد والعشرون (١٩٥٠) العدد ٦ ، ٥٤٢ ــ ٦ ٠

وحقير ؛ ولا بين موظف كبير وكناس (٢٩) » ، غير أن الحقيقة أهون من ذلك : فهو يركز على أهمية التعاون بين الجميع للدفاع عن الوطن (ص ٥) ؛ وضرورة الخلق الاجتماعى (ص ٩) ؛ وضرورة اعداد الوعاظ الدينيين والخطباء والكتاب ، الخ (ص ٨ ــ ١٢) ؛ وهو يعلى من دور الصحافة الاجتماعى ، مع أنه يقول : « ان الصحائف لم يجيء وقتها بعد » (ص ١٥) ؛ وهو يحمل على الخرافات الدينية ، وسوء تغذية العمال والموظفين (ص ١٧ و ٢٠) ؛ وعدم وجود برنامج متدرج ومتناسق للتعليم (ص ٥١) ؛ ويشير الى أن « سعادة الأمة وراحة الحكومة مرتبطان بالتربية من الصغر » (ص ٢٠) ؛ وأن اختيار التلاميذ يجب أن يقوم على التكوين الجسمانى وكذلك على « علم » تخطيط الكائن الانسانى (ص ٤٨) ؛ ويدعو الى ثقافة عامة تكون أساسا لكل تخصص قادم ، مستشهدا صراحة بابن خلدون (ص ٥٢) ؛ كما أنه يبدى اهتماما كبيرا بالزراعة ، وبصفة خاصة المحاصيل الجديدة القطن والكتان (ص ٢٠ و ٢٢) ؛ ويهاجم وينهى عن التعطل (ص ٥١) ؛ ويحمل على طبقة الملاك وثرواتهم والعادات الاقطاعية التى ما تزال سائدة فى الريف وتجعل من العمد الفاسقين طغاة (ص ٢١ ــ ٢٦) ؛ كما أنه يرد الاعتبار للمهن الحرفية (الطوائف) (ص ١٩) ؛ ويدعو الى حفظ التوازن بين مختلف الأحزاب السياسية (ص ٤١) ؛ وكذلك تنظيم المسائل الدولية فيكون « اختلاط الأمم بعضهم ببعض ، لتوسيع المنافع الانسانية وتنظيم الأحوال البشرية » (ص ٢٨) ، ولقد سار كثير من التلاميذ على نهجه فى المجال الاجتماعى (٣٠) ·

وسنرى فى القسم التالى موقف على مبارك من الحركة الوطنية الصاعدة · ولنكتف الآن بالاشارة الى تأثيره الأكيد ، المماثل على الأقل لتأثير الطهطاوى ، والذى ظهر فيما جاء فى فكر المرصفى الاجتماعى من أهمية التعليم ·

ومع ذلك فان مقارنة آراء الطهطاوى بتلك الآراء التى بدأت تتبلور حول الحركة الوطنية فى ذلك العصر ، وحدها ، يمكن أن تجعلنا ندرك التفرد ــ الذى يمكن وصفه بالنبوة ــ للأستاذ الرائد والمؤسس الحقيقى للاشتراكية المصرية ، وبهذه المقابلة وحدها يمكن أن ندرك الفارق الكبير الذى يدهش المراقب الحصيف ·

---

(٢٩) أ· عبد الجواد : **المرصفى** ، ٩٥ ·

(٣٠) وخاصة محمد دياب ، حفنى ناصف ، الشيخ مفتاح ، الشيخ زيد ، سلطان محمد ، حسن توفيق العدل ، ويشمل تلامذته البارودى ، شاعر الثورة ، عبد الله فكرى ، احمد شوقى ، حمزه فتح الله (م· عبد الجواد ، **المرجع السابق** ، ١٠٠) ·

القسم الثاني – الاتجاه الواقعي « الامكاني » للحركة الوطنية

ان أظهر جانب م . الدراسات العديدة الصادرة فى أيامنا هذه عن الفترة بين عامى ١٨٧٩ . ١٨٨٢ ، أى بين عزل اسماعيل والاحتلال ، هو بطبيعة الحال جانب ال ريخ السياسى • وسنحاول هنا أن نقدم تحليلا للتطور الخاص بتكوين الفكر المصرى وأيديولوجية الحركة الوطنية خلال تلك الفترة ، وهو تحليل يعيد الى الحركة بعدها الاجتماعى السوسيولوجى ويستخلص مغزاها •

والمشكلة الرئيسية هنا ، ادراك ذلك التراجع الذى سجلته الايديولوجية الوطنية بالنسبة لآخر أفكار الطهطاوى ، قبل الانكسار العسكرى والاحتلال السياسى ، أى شرح البواعث والدوافع الاجتماعية والايديولوجية التى كانت وراء بلورة الايديولوجية الوطنية المعتدلة ، بل المحافظة ؛ والتى غلبت على الحزب الوطنى على الرغم من ثورة ١٨٨١ – ١٨٨٢ •

ما هو وضع الصفوة المصرية ، أى الفئات الاجتماعية التى كانت تشكل هذه الصفوة فى ذلك العصر ؟ ان ما وصلنا من أوصاف عنها يفتقر الى الدقة ويتميز بالتباين والاختلاف ؛ تماما كالأوصاف المختلفة التى خلعت على تمرد عرابى ورفاقه ، ثم على الثورة المصرية كما سنرى فيما بعد • وقد حاولت رسالة حديثة أن تميز ثلاث مجموعات : « الدستوريون المحتملون ، الضمنيون » ؛ وكانوا فى معظمهم أما من أعيان الفلاحين ، وأما من الارستقراطية التركية ، الشركسية (شريف باشا ؛ سلطان باشا ؛ عمر لطفى باشا ؛ اسماعيل راغب باشا) ؛ ثم « المصلحون ، وخاصة من الفلاحين المثقفين » (الأفغانى ، محمد عبده) ؛ وأخيرا « ضباط الجيش من الفلاحين » بقيادة عرابى ورفاقه (١) •

---

(١) عفاف لطفى السيد .Egypt and Cromer, 1-37 • دكان الاطار العام للتحليل تقديمه من قبل محمد صبرى فى رسالته عن «**تكوين الروح الوطنية المصرية ١٨٦٣ – ١٨٨٢**» فى عام ١٩٢٤ • أو السوسيولوجية المزيفة التى تسود بحث ل ى• كوهين :

Y. Cohen : The rebellion of Urabi pasha in Egypt in 1881-2, B. Litt., Oxford, 1958.

وحول التاريخ السياسى والدبلوماسى لهذه السنوات راجع الرسالة الممتازة لأحمد عبد الرحيم مصطفى :

The domestic and foreign affairs of Egypt from 1876 to 1882, Ph. London, 1955-56.

التى تعتمد على تحليل دقيق للأرشيف المصرى والفرنسى والانكليزى ، والمنشورة بالعربية تحت عنوان : **مصر والمسألة المصرية** ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٥ •

أما التلاحم الذى حدث بين الجماعة الأولى فلم يصمد للمحنة أو التجربة ٠ فقد انفصلت الارستقراطية التركية – الشركسية عن الثورة فيما عدا حالات استثنائية نادرة ؛ وليس من الصواب أن نعتبر « الافغانى » فلاحا مثقفا ، وهى صفة قد يكون هو أول من يندهش لاطلاقها عليه ؛ أما الفئة الثالثة فلا يمكن عزلها عن الأعيان المصريين الذين ينحدرون من أصل ريفى ويشكلون هنا العنصر الأول فى الجماعة الثالثة ، نظرا للتشابك المتزايد لمختلف العناصر المكونة للبورجوازية الوطنيـــة التى كانت فى دور التكوين منذ أواخر عهد اسماعيل حتى الثورة ٠ وفى دراسة أدق يقدم ابراهيم أبو لغد هذا التمييز : ظل المجتمع المصرى قبل القرن التاسع عشر يوصف على أساس « مبدأ التمايز فى التكوين العرقى » ؛ وقد جرى العرف على التمييز فيه بين طبقتين : صفوة ، هى فئة العسكريين المميزة ، وهى تكاد تكون من أصل تركى شركسى محض ، فى مواجهة « جماهير أهل البلاد » ويحكمهم زعماؤهم من الاتراك والمماليك ٠ غير أن هذه الفرضـــية عن « مجتمع منقســم » لا يمكن أن تفسر مصر فى العهــود الخديوية ٠ ان الظاهرة المميزة لتطور الصفوة فى البــلاد طوال القــرن التاسع عشر فى رأى هذا الكاتب هى « اســـتيعاب الجماعة التركيـــة الشركسية فى قلب المجتمع المصرى » ٠ وقد ساعد على ذلك عناصر كثيرة: سياسة الدولة التى أنشاها محمد على والتى بمقتضاها قام الوالى ، من أجل ابعاد غرمائه السياسيين عن القاهرة ، باجبار المماليك على الاقامة بصفة دائمة فى داخل البلاد ؛ ثم التوسع فى نظام الانتفاع بالاراضى حتى ظهور الملكية الخاصة للارض على عهد سعيد ، ذلك النظام الذى أسهم فى اذابة المماليك مع الجماعات الاخرى من الصفوة التركية الشركسية فى طبقة جديدة هى ارستقراطية كبار ملاك الأرض القائمة على معيار اقتصادى لا معيار عرقى ؛ وأخيرا « نظام معدل للادارة » ٠ فالملاحظ فى العقـــد الثامن من القرن التاسع عشر أن التمييز بين الاتراك والمصريين فقـد معناه ، نظرا للتصاعد الذى حققته طبقة جديدة أصلية أقوى وأرفــع ، من جهة ، وقيام ثورة لغوية جعلت اللغة العربية تحتل مكان التركية « كلغة رسمية ووظيفية للصفوة (٢) » وذلك من جهة أخرى ٠

ولنحاول أن ننظر عن كثب ٠ ان الواقع هو أنه ، اذا كان جميــع المؤرخين التقليديين على اختلاف منازعهم (٣) يتفقون على توسيع الهوة

---

(٢) Ibrahim Abu Lughod : "The transformation of the Egyptian elite : préludi to the Arabi revolt». The Middle East Journal, xxi (1967), no. 3, 325-44.

(٣) وخاصة أحمد شفيق ، عبد الرحمن الرافعى ، محمد صبرى ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الخ ٠

بين الصفوة من الاتراك والمصريين ؛ فذلك لأن عملية « الترشيد التدريجى للنظام الادارى فى مصر » كما يقول ابراهيم أبو لغد ، قد جرت على مستويين ، تجمع بينهما مجموعات عديدة من العلاقات المتبادلة · أولا ، مستوى صراع الفئات الاجتماعية القائدة من المصريين والاتراك المرتبطين بالاقتصاد الوطنى الذى تهيمن عليه الدولة وبالقطاعات المتأثرة بالاقتصاد الحديث ليضمنوا لأنفسهم الأولوية ، فى مجال الحكم الداخلى لمصر ؛ بالنسبة للطوائف الأجنبية وللتدخل المباشر للمصالح الاقتصادية والمالية من جانب الدول الأوروبية · وسرعان ما يقترن هذا البعد الأول ، الذى شجعه محمد على ، بمستوى ثان ، ألا الصراع الداخلى بين مختلف العناصر البشرية (العرقية) المؤلفه لهذه المجموعات الاجتماعية القائدة ، حيث أن الصراع ضد الدول الأوروبية لابد أن يؤدى الى عمل وطنى مصرى · وهذه العملية الثانية هى التى بدأت مع ابراهيم وسياسته العسكرية والعربية ، وكذلك ، وبصورة أضعف ، على عهد سعيد ؛ لتبلغ ذروتها على يد اسماعيل · ان « الترشيد » لم يبلغ مستوى الادارة فقط ، فقد ظهرت ، كما أوضحنا ، وكذلك حسام عيسى (٤) ، كتعبير قاطع صريح عن حاجة اجتماعية عامة ، ألا وهى الحاجة الى اعادة تراكيب القوالب السابقة على القوالب الرأسمالية فى الاقتصاد والحياة الاجتماعية المصرية ؛ وعملية اعادة التركيب هذه نفسها هى أساس الحركة الوطنية المصرية · وعلى ذلك فان المستوى القومى هو الذى سمح حتما بتناول أدخال مفهوم « فيبر » Max weber عن الترشيد أو التعقيل ، بالنقد والتوسيع ، ذلك المفهوم الذى وفق فى تناوله من جديد ابراهيم أبو لغد (٥) ·

ان تحليل مواد السير الكثيرة التى وصلتنا تدل على هذا الاتجاه نحو تكوين برجوازية وطنية بالمعنى الاقتصادى والادارى ، أى برجوازية مصرية ؛ انها مسيرة كل من موسوعة على مبارك التى لا نظير لها (٦) ؛

---

(٤) Hossam Issa : L'évolution du régime juridique des sociétés anonymes et sa correspondance aux réalités sociales en en Egypte.

(٥) على العكس من البحث الوصفى لـ Morroe Berger فى Bureacracy and society in Modern Egypt, Princeton, 1957.

(٦) **خطط التوفيقية** ، التاسع : ص ٧ ــ ١٤ ، ٦٥ ، ٧٨ ــ ٩٩ الجزء العاشر ص الجزء الحادى عشر · ٦٨ ، ٨٥ ــ ٨٨ الجزء الثانى عشر · ص ١٤٣ الخ ·

والتنقيب عن المصادر التى تولاها أمين سامى (٧) ؛ ثم تراجم عبد الرحمن الرافعى (٨) ؛ وشخصيات الياس زاخورة (٩) • غير أن هناك مصادر أخرى تدعم نظريتنا وخاصة فيما يتعلق بمختلف فئات وشخصيات المجلس الملى لأقباط مصر (١٠) ؛ والسوريين والفلسطينيين فى مصر (١١)، الدكتور محمد على الحكيم باشا (١٢) ؛ الدكتور محمد درى باشا (١٨٤١ـ ١٩٠٠) أكبر أطباء مصر فى عصره (١٣) ، عبد الله فكرى باشا (١٨٣٤ ـ ١٨٩٠) المربى ، المستشرق ، الشاعر والمصلح (١٤) ؛ محمود حمدى الفلكى العالم الرياضى ، الطبيعى ، الفلكى ؛ وواحد من أكبر المهندسين الفنيين فى العالم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (١٨١٥/١٨٨٥) (١٥) ، أستاذ هذين الرجلين ؛ وأستاذ محمد عبده ؛ وهذا

---

(٧) **تقويم النيل** • الجزء الثالث : القسم الأول :١٣٤ ـ ١٣٥ ـ ، ١٦٢ ـ ١٦٣، ٢٧٢ ، ٢٠٣ ، ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ، ٣٥٩ ـ ٣٦٣ ، القسم الثانى : ٤٦٦ ، ٤٨٢ ، ٤٩٠ ـ ٤٩ ، ٤٩٦ ـ ٥٠٠ ، ٥٠٢ ـ ٥٠٥ ، ٥١٣ ـ ٥١٦ ، ٥١٨ ـ ٥٢١ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣١ ـ ٥٣٢ ، ٥٣٧ ـ ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٩٥ ، ٦٠٥ ـ ٦٠٧ : الجزء الثالث ٧٨٧ ـ ٧٧٩ ، ٨٨٩ ـ ٨٩٧ ، ٩٤٣ ـ ٩٥٠ ، ٩٦٤ ، ٩٧٢ ـ ٩٧٨ الخ •

(٨) أ•ر• الرافعى : **عصر الاسلام** • جزء أول ، الطبعة الثانية مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٩٧ ـ ٢٨٩ •

(٩) ايلياس زخورة **كتاب مرآة العصر فى تاريخ ورسوم اكابر رجال مصر** ، القاهرة ، ١٨٩٧ ، ٣٢ ـ ٣ ، ٧٤ ـ ٧ ، ٨٦ ـ ٩ ، ٨٩ ـ ٩٣ ، ٩٩ ـ ١٢٤ ، ١٥٠ ـ ـ ٣ ، ١٩٠ ـ ٣ ، ١٤٩ ـ ٦ ، ٢٤١ ـ ٥ ، ٢٥٧ ـ ٦٥ ، ٢٧٥ ـ ٨ ، ٢٨٦ـ ٩ ، ٤١٤ ـ ٧ ، ٤١٧ ـ ٣٣ ، ٤٥٧ ـ ٦٥ ، ٤٩٧ ـ ٩ ، ٥٢١ ـ ٥ ، ٥٣٧ ـ ٤٤ •

(١٠) « المجلس الملى القبطى » ، **الهلال** ، المجلد الرابع عشر ، (١٩٠٦) ، العدد (٢) ٢٤٥ ـ ٢٥٠ •

(١١) F. M. Goadby : «Syrians and Palestinians in Egypt», Journal of the Society of comparative Legislation and International Law (London), 3rd ser. vii (1962). no. 1, 144-5.

وخاصة محمد يوسف نجم : « الصلات الثقافية بين مصر ولبنان فى النهضة الحديثة » **الآداب** ، السنة العاشرة ، (١٩٦٢) العدد ٦ ، ١ ـ ٣ ، ٦٦ ـ ٧٤ •

(١٢) « محمد على باشا الحكيم رئيس المدرسة الطبية المصرية وكبير جراحيها » ، الهلال ، السنة الثالثة (١٨٩٥) ، العدد ٣ ، ٦٠٢ ـ ٦٠٤ •

(١٣) « الدكتور محمد درى باشا » ، **الهلال** ، السنة الثامنة (١٩٠٠) ، العدد ٢٣ ـ ٤ ، ٧٠٦ ـ ٧١١ •

(١٤) « عبد الله فكرى باشا ناظر المعارف العمومية سابقا » ، **الهلال** ، السنة الثالثة (١٨٩٥) العدد ١٨ ، ٦٨١ ـ ٦٨٧ ، محمد عبد الغنى حسن : **عبد الله فكرى** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ •

(١٥) « محمود باشا الفلكى العالم الرياضى الفلكى بمصر » ، **الهلال** ، الجزء الخامس (١٨٩٦) رقم ٨ ، ٢٨٢ ـ ٢٨٥ • أحمد سعيد الدمرداش : **محمود حمدى الفلكى** ، الدار المصرية للتاليف والترجمة • القاهرة ، (١٩٦٦) •

الجيل كله ، الشيخ حسن العطار (١٦) ؛ محمـــد مختار المصرى باشا (١٨٣٥ ـ ١٨٩٧) الضابط والعالم الرياضى (١٧) ؛ واسماعيل صديق المفتش باشا (١٨) ؛ وشاعر الثورة الكبير محمود سامى البارودى باشا (١٨٣٨ ـ ١٩٠٤) (١٩) ؛ محمد المويلحى بك وابنه ابراهيم ، مؤسسا احدى العائلات الكبرى فى الحركة الوطنية المصرية (٢٠) ، الأوســاط الأدبية السكندرية (٢١) ؛ ومثلاتها الأعمق فى الأزهر (٢٢) ، الخ ٠ انه تركيب معقد ولا شك ، ولكنه لا يساعد كثيرا على التلاحم كما أشار الى ذلك محمد صبرى (٢٣) وتراجم الرجال المختلفين التى قدمها على مبارك الحذر (٢٤) ، وكذلك العقداء : أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ومحمد عبيد وطلبه عصمت وســليمان سامى ، وترجمة عبد الله النديم (٢٥) ٠ وعلى ذلك كان جاك بيرك على حق حينما تحدث عن «صعود

---

(١٦) ع٠ر٠ الرافعى : **عصر محمد على** ، ص ٤٩٩ ـ ٥٠ ٠

(١٧) « محمد مختار باشا المصرى » ، **الهلال** الجزء الثامن (١٩٠٠) رقم ١٣ ـ ص ٣٨٦ ـ ٣٦٨ ٠

(١٨) عديد من الدراسات ، خاصة دراسة الياس الأيوبى : **تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا من ١٦٨٣ الى ١٨٧٩** ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٣ ، الجزء الثانى ٣٥٨ ـ ٤٠٨ ٠

(١٩) عديد من قوائم الكتب فى يوسف أسعد داغر : ـ **مصادر الدراسة الأدبية** ، الجزء الثانى ١٦٠ ـ ٢ ٠

(٢٠) عديد من قوائم الكتب ولاسيما قائمة عبد اللطيف حمزة : **ادب المقالة الصحفية** ، ج ٣ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٢ ؛ ابراهيم المويلحى : « **آل المويلحى فى مصر : محمد المويلحى بيك** » Cahiers hist ég., (1954), no. .3-4, 168-79.

الذى يذكر هذه الرسالة المؤثرة لمحمد المويلحى فى المنفى بنابولى مع اسماعيل ، الى ابنة ابراهيم الذى بقى فى القاهرة ، والمؤرخة فى ١٨٨١/٩/٩ : « قل لعرابى اننى أتابع حركاته عن كثب وانه ، اذا كان جسدى فى نابولى ، فان قلبى وقلمى معه فى مصر » ٠

(٢١) عبد المحسن عاطف سلام : « الحركة الأدبية فى الاسكندرية الحديثة » ، **مجلة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية** ، ١٣ (١٩٥٩) ، ٥١ ـ ٥٠ ٠

(٢٢) أحمـد عز الدين عبد الله خلف الله : « الأزهر والقضـية الوطنية من الحملة الفرنسية الى الثورة العرابية » **مجلة الأزهر** ، ٢٥ ، (١٩٥٣) العدد ٣ ، ٣١١ ـ ٣١٥

(٢٣) Genèse Esprit National Egyptien, 110-146.

(٥٤) عن مبارك ، راجع حسين فوزى النجار : « **على مبارك ابو التعليم** » ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ،

Lorne M. Kenny : «Alî Mubârak : Ninetienth century Egyptian educator and administratos». The Middle East Journal, xxi (1967), no 1, 35-51; J. Berque : L'Egypte 42, 50. 33. 57. 65-7, 103, 125, 168, etc.

(٢٥) حول هذه الجماعة التى تستحق أن تكون موضوع بحث دقيق ، راجع المواد فى عبد الرحمن الرافعى : **الثورة العرابية** ، ٤٩٧ ـ ٥٣٤ ؛ وكذلك المحاضر الكاملة لقضية القادة الثوريين فى « **الطليعة** » ، (١٩٦٦) العدد ١٢ ، ٣ (١٩٦٧) العدد ١ ـ ٦ ٠

الفئات الوطنية ، الداخل فى صميم « تمرد البسطاء » (٢٦) •

بعد ذلك يصبح من الطبيعى أن تستفيد الصفوة الجديدة الى حد كبير من عملية التعقيل والترشيد الادارية والاقتصادية : تدعيم أشكال الملكية الخاصة للأرض ؛ تخصيص مرتبات منتظمة للضباط وللموظفين المدنيين والعمل بنظام المعاشات ؛ وظهور فئة البرجوازية التجارية كممثلة لسكان المدن فى المجالس التى أنشأها اسماعيل ؛ ونشاط هذه الفئة التى تطالب بفرض الضرائب على التجار الأوروبيين داخل مصر وأصبحت الدعامة الرئيسية لثورة الجيش ؛ اعادة تشكيل الجهاز الحكومى والادارى على يد اسماعيل ، طبقا للمقاييس الحديثة ؛ وهى العملية التى استأنفت وبنفس الروح الانجاز الكبير الذى قام به محمد على •

اذن ، كيف يمكن تفسير الاتجاه المعتدل ؟

لا شك أن تناول الموضوع تناولا أخلاقيا نفسانيا يوصل الى الكثير من المعلومات المثيرة • غير أن هذه اللوحات ، لكى تصبح ذات معنى ، يجب أن تكون قابلة للتحول الى تصنيفات اجتماعية وأيديولوجية • وقد سبق أن أشرنا الى وجود مستويين فى تحليل عملية التحول نحو التعقل والترشيد ، كما أشرنا الى تلاحمهما •

ومن الواجب أن نضيف أن الصراع على جبهتين ، لو صح هذا التعبير ، الذى تخوضه البرجوازية المصريةالصاعدة فى نفس الوقت ضد التدخل الأوروبى والهيمنة التركية فى البلاد ، يقترن بالضرورة ولزمن طويل بمصيرة مشتركة مع هذا العامل الثانى الذى كان يتزعمه نوبار باشا (٢٧) •

وقد ظهر عامل أثبت أنه حاسم ، ألا وهو الثقافة الوطنية • فحينما

---

(٢٦) L'Egypte, 109-23.

(٢٧) حول نوبار هناك عدد من الغير له غزيرة وغالبا منحازة ، لا سيما :

Alexander Holynski : Nubar pacha devant l'histoire, A. Deuter, Paris, s.d. (c. 1885); J. Tagher : «Nubar pacha et la réforme judiciaire», Cahiers d'Histoire Egyptienne, i (1948), no5-6, 373-412; Victoria Archarouni : Nubar pacha, un grand serviteur de l'Egypte (1825-1899), Le Caire (?), s.d.;

نجيب مخلوف : نوبار باشا ، دار المعارف ، (د٠ت ٠)

Auguste Benoît : Etude sur les capitulations entre l'Empire ottoman et la France et sur la réforme judicaire en Egypte, Libr. nouv. Dr. et Jurispr. A. Rousseau, Paris, 1890 : Cromer, W.S. Blunt,

عبد الرحمن الرافعى ، أ٠ شفيق ، أ٠ع٠ر٠مصطفى ، A. Sammarco، جاك بيرك ، الخ •

أقام الطهطاوى فى البلاد قاعدة مادية تربوية ولغوية وثقافية ونظرية وطنية ، فانه قد حقق فى ذات الوقت انتصارا للغة العربية ، كلغة وطنية ، على كل من اللغة التركية واللغات الأوروبية • ثم جاءت مجهودات على مبارك وكانت أكثر اعتدالا ولكنها أكثر عنادا وتصميما ، لتسير فى نفس الطريق مع افتقارها الى الرؤية الواضحة (٢٨) • ومنذ ذلك الحين لم تكن البرجوازية المصرية الناشئة تتمتع فقط بتكوين فنى وادارى أوروبى على الطراز الحديث ، بفضل البعثات الخارجية والتعليم العالى فى مصر نفسها ، ولكنها كانت تتمتع أيضا بوسيلة تعبير مهذبة تتمثل فى الصحافة والدولة ، تلك الدولة التى حاولت مرتين ، خلال نصف قرن أن تقيم امبراطورية ، وبعناصر ايديولوجية وطنية واجتماعية تحدثنا عنها فيما سبق ـ وكلها عوامل لها دورها الايجابى فى التاريخ ، تفتقر اليها الفئات الاجتماعية غير المصرية من بين الصفوة « المصرية » • ثم أن هذه المزايا أخذت تزداد عمقا فى المدن والقرى وفى حياة الشعب بأسره ، وكذا فى فكره وآماله (٢٩) •

ثم جاء ظهور عامل آخر ترك أثرا كبيرا فى مجرى الأحداث • فقد سبق أن بينا كيف تعرضت مصر للتدخل الاوروبى الاستعمارى ثم الأمبريالى • وكانت الدوافع متممة لبعضها • كانت الجغرافيا هى الاطار ، وكانت الجغرافيا السياسية ، الجيوسياسة ؛ هى الذريعة (٣٠) • وبطبيعة الحال لعبت العوامل الاقتصادية والمالية ذات الطابع الرأسمالى التقليدى دورها فى هذا الصدد (٣١) • ودخلت الدول الكبرى حلبة

---

(٢٨) ومع ذلك ، فهناك نص غير معروف تماما يقدم مسيرة تفكيره الصوفى كملحق لكتاب سعيد زايد : **على مبارك واعماله** ، ١١٥ ـ ٥٢ •

(٢٩) لقد عالجنا اشكالية تكون الثقافة الوطنية المصرية من زوايا شديدة التنوع فى كتابنا : **دراسات فى الثقافة الوطنية** ، الذى يضم معظم الكتابات المنشورة بين ١٩٥٦ و ١٩٦٥ • والدراسات التالية ـ بين ١٩٦٦ و ١٩٨٣ ـ تحت الطبع •

(٣٠) لقد الححنا بطريقة مركزية على هذا العامل الذى يبدو لنا موجها للاشكالية العامة لمصر الحديثة • ثم جاء العمل العملاق الرائد للمفكر العلم جمال حمدان فى نفس هذا الاتجاه : **شخصية مصر ، دراسة فى عبقريه المكان** ، دار الهلال القاهرة ١٩٦٧ ، ومن بعده العمل الموسوعى الذى ذكرناه مرارا •

(٣١) راجع الأعمال التى أشرنا اليها مرارا فى الجزء الأول (الفصل ١ و ٢) ، والتى يمكننا أن نضيف اليها خاصة :

James H. Neck : Egypt as a field for British enterprise, London, s.d. (c. 1882); C.W. Vyse : Egypt, political, financial and strategical, W.H. Allen, London, 1882; Halford Lancaster Hoskins : British routes to India, New-York and London, 1928; Vernon John Puryear : International economics and diplomacy in the Near East, Stanford U.P., Stanford, 1935; Lois A. Raphael : The Cope-to-Cape dream : a study in British imperialism, Ph. D., Columbia, 1936, ex. polyc. : Morton B. Stratton : British communications

الصراع ، وأصبحت من زاوية التاريخ السياسى والدبلوماسى ســـاحة تتصارع فيها بريطانيا العظمى وفرنسا (٣٢) ، وتدلى بدلوها كل من الولايات المتحدة وبلجيكا وايطاليا وألمانيا وحتى الدول السلافية ، بالاضافة الى بيوت المال العالمية والدولية (٣٣) ٠

ان صعود البرجوازية المصرية التى ظهرت بشكل واضح ، بعـد ضربة التعجيز الاستراتيجية عام ١٨٤٠ ، جـاء فى جو عصـيب ، جو الامبرياليات الصاعدة ؛ كذلك كانت الحركة نفسها مشلولة من الداخل٠ ان حاجـات ومتطلبـات الأمة المصرية ، وبالأخص حاجـات ومتطلبـات البرجوازية الناشئة وجماهير الفلاحين ، وكذا نظريات ونظرات الطهطاوى

= In the Middle East, 1885-1939 : the development of imperial rail ways, motor-roads and air lines, Ph. D, Pensylvania, 1942; Robert B. Killingsworth : Egyptian financial difficulties and British intervintion 1879-1885. Ph. D., D., Wisconsin, 1951; Jean Bouvier : «Les intérêts financiers et la question d'Egypte (1875-1876)», Revue Historique no. 224, 1960, 75 104;

(٣٢) الكتابات الرئيسية من تاليف A. Sammarco, W. S. Blunt. وخاصة ، من الزاوية المصرية ، أعمال محمد صبرى ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، عفاف لطفى السيد ، م٠م٠ زايد ، سعيد ذو الفقار ، محمد مصطفى زايد ، الخ ٠ ٠ ، ثم ، فى الحقبة الأخيرة ، J. Berque راجع كذلك :

Etienne Velay : Les rivalités franco-anglaises en Egypte (1876-1904) A. Chastanier, Nîmes, 1904; Lucien B Roberts : The Egyptian question in European diplomacy 1875-1887, Ph. D., Duke, 1942 A. A. H. Knightsbridge : Gladstone and the invasion of Egypt in 1882, B Litt., Oxford, 1960-1, polyc.; C.J. Lowe : The reluctant imperialists, 2 vol., Routledge and Kegan Paul, London, 1967; P. Thibault : «La question d'Egypt et la presse française en 1882», Cahiers d'Histoire Egyptienne, iv (1951), no 1, 1-78; G. Pémeant : L'Egypte et la politique français, Paris, 1909; etc.

(٣٣) المعلومات هنا نادرة ، راجع

G. Jesman : «American officers of Khedive Ismail», «African Affairs, no 57 (1958), 302-7; L.B. Roberts : «Italy and the Egyptian question 1878-1882», Journal of Modern History xvii (1946), 314-32; David R. Serpell : "American consular activities in Egypt 1849-63», Ibid., x (1938), noo 3, 344-63; Fernand Justice : «Les premières relations entre la Belgique indépendante et l'Egypte 1837-1838», Revue Belge de Philosophie et d'Histoire, vii (1982),no 3-4, 1453—66; W.O. Henderson : «German economic penetration in the Middle East, 1870-1941», The Economic History Review, xviii (1948-50), no 1-2, 54—64; Zakaariyya Masr : «La social—démocratie alaemande et le probleme de l' impérialism», L'Egypte contemporaine, liv (1963), no 313 45-92; Prosser Gifford and W. Roger Louis eds. : Britain and Germany in Africa, Yale U.P., New Haven and London 1967 7-50, 73-9, 93 119—52; etc.

ومدرسته ، هذه الحاجات والمتطلبات كان لابد لها ، لكى تتجسد وتتلاءم مع الظروف وتسلك طريقا سياسيا ممكنا ، من أن تتحول تحولا عظيما نحو الواقعيـة · وكل عمل فى مثل هذا الاطار لابد له من دفـع هـذا الثمن ·

وبدأت صفحة جديدة مع على مبارك ومعاصريه ، الذين سـنحاول هنا أن نتتبع بداياتهم · فنحن هذه المرة أمام نمـط جديد من الرجال يشتغلون بالتاريخ طبقا لمناهج واهتمامات تختلف كثيرا عن مدرسـة الطهطاوى · ويبدو على مبارك الآن كرجل تنظيم وادارة ــ رجل جهاز ــ أكثر من كونه مفكرا : ان النهضة المصرية ، على عهد اسماعيل ، تمضى بأسلوب أكثر تنوعا (التعليم ؛ الثقافة ؛ الفنون ؛ العمران ؛ المواصلات ؛ الخ ···) مما كانت عليه فى عهد محمد على ، وفى ذات الوقت بقدر أقل من الحرية بسبب التوغل الأجنبى · والرجل الذى يمثل محور هذه النهضة ينتمى الى تراث تكوينه الوطنى الأساسى ــ مصر والاسلام ــ هو نفسه تكوين مدرسة الطهطاوى ، غير أن عنصره الوافد من الخـارج يختلف اختلافا جوهريا ؛ فبدلا من الثقافة الأدبية والتاريخية والفلسفية ، نجد الرياضيات والعلوم الطبيعية والكيماوية والعـلوم والفنون الخاصـة بالهندسة ، باختصار ، علوم وفنون طاقم المهندسين · لذلك فان على مبارك لم ينشىء مدرسة بالمعنى الصريح ، ولكنه كون مجموعة من الطلبة تولوا بمجرد تخرجهـم المراكز الرئيسـية فى أجهزة الدولة ، بدلا من التفافهم حول الاستاذ فى معهد علمى يكون الى جانب انصرافه الأكيد الى الشئون العامة ، نواة مشتركة للتفكير والعمل الثقافى · ولذلك أيضا ، فان الكتابات التاريخية لهذه الفئة كانت تتناول جوانب خاصة من الحياة الاجتماعية ، وبالذات الجوانب العلمية منها · ولذلك ، وبصورة خاصة ، فان الانجاز الذى تحقق ، على الرغم من تطابق الشكل ، كان ذا مضمون يختلف كل الاختلاف : فقـد كان لابد وأن يتأثر خريجـو المهندسخانة المصريون بوضعية « أوجست كونت » ؛ فجاء تصورهم للعمل التاريخى وصفيا ودقيقا يقوم على الكشوف المحددة والحسابات المفصلة ، دون اهمال الالهام الوطنى مع ذلك ·

ان كتاب على مبارك الرئيسى « **الخطط التوفيقية الجديدة** » ــ وضعه عام ١٨٧٤ ــ ١٨٧٦ ، ونشره عام ١٨٨٨ ــ يدخل فى اطار هذا الاسلوب المصرى الخصوصى فى كتابة التاريخ ، والذى يقوم على الوصف الجغرافى والتاريخى للاقليم ــ « الخطط » ــ ذلك الاسـلوب الذى ترجـع آخر انجازاته الكبيرة الى المقريزى فى القرن الخامس عشر · ويتألف الكتاب من عشرين جزءا : الأجزاء الستة الأولى تختص بالقاهرة ؛ والجزء السابع

يختص بالاسكندرية ؛ والجزء الثامن حتى السابع عشر يصف فيه المؤلف المدن والمراكز المصرية الأخرى ؛ والجزء الثامن عشر يتناول النيل منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث ؛ والجزء التاسع عشر يتناول الأنهار والقنوات ؛ أما الجزء العشرون فيتناول تاريخ العملات خلال العصر الاسلامى • وفى سبيل تحقيق ذلك ، لجأ على مبارك الى « وثائق الأوقاف والممتلكات والأوصاف الموجودة على الحجارة والجدران » ؛ واقترنت دراسة المصادر العربية والمصرية والاسلامية بدراسة الأعمال الأوروبية ، التى وضعها العلماء والمستشرقون وعلماء الآثار المصرية ، وقال ، حسب بعض الروايات : « لقد فرضت على نفسى أن أقرأ كل ما كتب فيما يختص بالآثار ، وان الخص كل ما رأيته مفيدا دون تطويل أو اضافة » •

وقد خصص جزءا كبيرا – يبلغ فى الغالب نصف المجلدات – للترجمة الدقيقة لحياة مشاهير الرجال والأعيان ، وبالذات أولئك الذين أثروا فى النهضة العربية فى القرن التاسع عشر • وبذلك فان الكتاب يعتبر بحق المصدر الأساسى لتاريخ مصر الاجتماعى فى القرن الماضى ، وقد نقل عنه ، واستعمله ، عدد متزايد من المستشرقين •

ذلك هو الاطار الذى سوف تتحرك فيه فيما بعد « جماعة حلوان » : شريف باشا ، اسماعيل راغب باشا ، عمر لطفى باشا ، سلطان باشا ، والقائمقامات (العقداء) أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ، ومحمود سامى البارودى باشا وسليمان أباظة باشا وحسين الشريعى باشا ومحمود فهمى باشا ، الخ ••• ويبدو من المحقق أن الاجتماعات السرية لضباط الجيش المصرى قد بدأت عام ١٨٧٦ ، فى نفس الوقت الذى تصاعدت فيه الحركة الدستورية ، كما رأينا ، تذكيها المجموعة القوية لارستقراطية الأرض وكذا جماعة البرجوازية الجديدة ، من التجار وسكان المدن ، كما يوضح ذلك تحليل الأسماء السابقة ؛ وفيما بعد ؛ تحليل أول بيان أصدرته هذه الجماعة • وقد حاول بعضهم حديثا أن يقصر دوافع النواة الرئيسية لهذه الجماعة – أى جمعية الضباط السرية ، التى رأسها فى البداية على الروبى ثم عرابى – على المستوى الوظيفى ، بل والمهنى (شروط الترقيات ؛ راتب الجنود والضباط وصف الضباط ؛ هزيمة الجيش المصرى فى الحبشة ١٨٧٦ ؛ ضعف جهاز الضباط ؛ الخ •••) ، رافضين الاعتراف بأية علاقة عضوية بالحركة الوطنية والدستورية (٣٤) •

---

(٣٤) Jacob N. Landau : «Prolegomena to the study of secret societies in modern Egypt), Middle 8astern Affairs, i (1965), no. 2, 135-86, (144-5).

مرة أخرى ، نرى بوضوح تركيز الدارسين الصهاينة على تزييف واقع التحرك السياسى والفكرى المصرى •

وفى حوالى ١٨٧٩ ، لم تعد هذه الجماعة وحدها : فقد ظهرت جمعية سرية جديدة باسم « **مصر الفتاة** » تتألف من طائفة من المثقفين ، وتسير فى نفس الخط (أنظر القسم التالى) (٣٥) • ويبدو أن اسماعيل قد علم بذلك عن طريق على مبارك ، وبصفة خاصـــة عن طريق مطالب **الحزب الوطنى** فى المجلس ، واطلع على « **البرنامج الوطنى** » الذى وضعه فى ٢ أبريل ١٨٧٩ ستون عضوا من مجلس شورى النواب ، المعادى لحكومة رياض ، والذى ضم بين المدافعين عنه الخديوى توفيق فيما بعد ، وقد انضم اليهم ستون ممثلا من العلماء ومختلف الهيئات الدينية بقيادة شيخ الأزهر وبطريرك الأقباط والحاخام الاسرائيلى ، بالاضافة الى ٤٢ من الأعيان والتجار و٧٢ من الموظفين العاملين أو المحالين الى المعاش و٩٣ ضابطا • وقد سلمت هذه الوثيقة للخديوى الذى أرسل نسخا منها الى قناصل الدول الكبرى بتوقيع راغب باشا عن الأعيان ، وحماد راشد باشا عن النواب ، والسيد على البكرى عن العلماء والتجار ، وراتب باشا عن الضباط • وقد نشرت « **الوقائع المصرية** » فى ١٣ ابريل ١٨٧٩ بلاغا تتحدث فيه صراحة عن « برنامج وطنى » بسبب ســـوء تصرف مجلس الوزراء ، وضرورة « اصلاح الأمور المادية والمعنوية المحتاج اليها الوطن اجراؤها على المحور الموافق لعزم الأهالى » و « قد صـمم عموم أهالى الوطن العزيز تصميما جازه على تبديل هذه الهيئة بغيرها » ، وكذلك ضرورة « اصلاح أحوال المالية ، والأمور الداخلية (٣٦) » • ولكن مسألة الحزب الوطنى لم تطرح بعد (٣٧) •

وفى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ ظهر أول بيـــان يحمــل توقيــع « **الحــزب**

---

(٣٥) J.M. Landau : Parliaments and parties, 101-3. • لا تزال الدقيقة بين المنظمة والحزب الوطنى هى سيئة التحديد فى الوضع الراهن للبحث •

(٣٦) عبد الرحمن الرافعى : **عصر اسماعيل** ، الجزء الثانى : ١٨٥ ــ ١٨٧ •

(٣٧) على العكس من ج•م• لاندو الذى يتلاعب هنا حرفيا بالوقائع : فحسب رأيه أن « الجازيت الرسمى » « **الوقائع** » قد أعلنت بتاريخ ١٨٧٩/٤/١٣ عن تاسيس (هذه الجمعية) كحزب وطنى (أو بالأحرى تاسيس « حزب وطنى ») Secret societies 146-61». هذه الدراسة الحافلة الشديدة بالألوان تبدو من نوع المسلسل السياسى البارع اذا جاز القول •

الوطنى » (٣٨) • وها هو ذا نص هذه الوثيقة التى نشرتها الصحافة الفرنسية فى ذلك الوقت (٣٩) :

« بيان الحزب الوطنى المصرى »

« فى ساعة غاية فى الدقة ، بل وفى أدق الساعات ومن أجل سلطته الخاصة ، طلب الخديوى السابق اسماعيل باشا تدخل الحزب الوطنى المصرى • كانت هذه أولى مرة شهدنا فيها الأمير الذى لم يكن يتحمل أى رأى الا رأيه يتفوه ، وكلماته دوما الأدوات الطيعة التفكير بهذه الكلمات الساحرة المحملة بالكهرباء فى أوروبا ؛ وهى كلمات لو صح معناها لرفعت النفس وأنقذت الأمم بصياغتها للرجال •

وقد أراد اسماعيل بهذا النداء الى الحزب الوطنى الذى كان يعلم بوجوده كما كان يخشى توسعه ، أراد أن ينقذ نفسه وأسرته والاستمرار في الحكم دون تقديم أية تنالازت كان من شأنها أن تصد هبوب العواصف التى كان قد أثارها • وقد صدر هذا النداء مؤخرا للغاية • فلم يرد عليه أحد •

واليوم ، يريد الحزب الوطنى المصرى أن يؤكد وجوده • انه يريد باعادة تكوين نفسه ، وباقامة كيانه أمام العالم السياسى ، أن يحيا الحياة الخاصة به وذلك لانتزاع البلاد بيديه من الهوة الساحقة التى دفعها الى الاستبداد والربا • وهو يقدر ، على أساس معطيات حقيقية ، أن مبلغا يزيد على ستين مليون جنيه استرلينى وقع بين أيدى الوسطاء الماليين والصناعيين للعهد السابق ، الذى ورثت عنه مصر تركة على صورة الدين العام تصل الى نحو مائة مليون جنيه استرلينى !

« ان مبادرة الحزب الوطنى هى بمثابة واجب مقدس ينجم عن حق مسلم به ، عن الحق الذى تتمتع به أمة حرة ، متجانسة يقطنها خمسة ملايين

---

(٣٨) ان التسمية الدقيقة لهذا الحزب هى « الحزب الوطنى » أى ، حرفيا ، « حزب الوطن » • حول مشكلة الأصول ، راجع :

John Ninit : Arabi pacha, Berne, 1884 : Osman Ghaleb : «Les origines du parti National égyptien», Correspondance d'Orient, iv : 15-7-1910, 60—2; W.S. Blunt : Secret history, 173—5, 181—569.

أحمد عرابى : **مذكرات عرابى** ، مجلدان ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٥٣ ؛ عبد الرحمن الرافعى : **الثورة العرابية** ، ٧٠ ـ ٣

M. Sabry : Esprit national égyptien; D. Mackenzie Wallace : Egypt the Egyptian question, 62-107; etc. الخ •

(٣٩) تلك هى رواية عرابى نفسه الذى لا يذكر فى ذلك اسم الصحف المشار اليها (**كشف الستار** ، ١٤٩) •

نسمة من السكان عاكفة على الزراعة كادحة فى عملها ، وتخضع لذات القوانين المدنية والشرائع الدينيـــة · تلك الأمة هى الأمة المصرية التى تصدت للاستبداد عبر آلاف القرون وبدون العمل الذى اضطلعت بـه ما أثمرت خصوبة الأرض شيئا · وهذا الشعب الكادح لا يريد عبودية بعد تحرره اليوم · والحزب الوطنى يريد ويبغى انهاض الجماهير بالتدرج فى تعليمها الأولى والثانوى بما يتوافق مع عادات السكان واهتماماتهم · ويتعين ان يعرف الشعب واجباته وحقوقه وأن يتم تهذيبه بأيدى أبنائه قدر المستطاع ·

والحزب الوطنى الذى يعادى التطرف شهد بأسف الاحداث السياسية التى عجلت بسقوط النظام السابق ، وهو ما كان يستحقه ·

غير أنه ، اذا كان هذا الحزب يسلم بالأمر بالواقع،فانه لا يستطيع أن يعد الحكومة التى كونها النفوذ الأجنبى معبرة عن رغبات البلاد واحتياجاتها التى لم يتكرم أحد بأخذ مشورتها · والحكومة بهذا الشكل منبتة الصلة بكل ما هو مصرى حقا وتنهض على أساس مفتعل · ولقد تضافرت الدول الأجنبية وحدها على تكوينهـــا · ولم يكن للأمة دخل فى ذلك · ويتبوأ الخديوى سدة الحكم فى القاهرة ، لكن توجيه الشئون العليا لا يصدر عنه ولا عن وزارته · وفى ظل نظام كهذا فان مصر ، التى تتحمل دوما أغلاط الغير التى تنهك قواها تسير فى طريق الضياع · كما كانت فى ظل النظام المخلوع · ان أمة وادى النيل لا يمكنها قبول أوضاع تقودها حتمـــا الى وصاية خطرة على استقلالها وتسليم استغلال ثرواتها الى عناصر أجنبية غير مسئولة تتمتع بحصانات وامتيازات لا يد لها فيها ·

وتستشعر ان ما بها من فتوة وقوة يكفى لتجديد قواها · وهى تبغى ذلك ومن أجل هذا ترفع الصوت عاليا مطالبة بممارسة حقوقها عن طريق ائتمان الحزب الوطنى على مصالحها · وقد تكون هذا الحزب من أفراد قادرين حنكتهم التجارب التزموا الصمت حتى الأمس ، وهم اليوم من الوطنيين ، وعددهم فى ازدياد ·

وتعلن مصر ، بادىء ذى بدء ، عن رغبتها فى التخلص من دين لم تشارك فى وضعه لأنها لم تدع الى ابداء رأيها · ويصر الحزب الوطنى على اثبات هذه الحالة الشاذة الغريبة · وان مصر التى أنهكت قواها وأثقل كاهلها بالديون دون أن ينالها خزى أو عار قادرة على الوفاء · وهى على أهبة الاستعداد للاضطلاع بهذا العبء الباهظ شريطة أن تترك لها الدولة حرية تدبير السبل التى تملكها من بلوغ حل منصف عادل دون أن يفرض على البلاد تطبيق اصلاحات عاجلة بالضرورة ·

ومن أجل ذلك لابد أن يقود زمامها مصريون تختارهم بملء حريتها ، يكونون أهلا لكامل ثقتها ٠

والحزب الوطني لا ينكر المنافع التى يمكن أن ينتظرها أهالى البلاد مما يحتمل أن يقدمه بعض الاجانب من مؤازرة سديدة فى بعض الدوائر الأدبية ٠ وعلى العكس من ذلك تماما فانه سوف يسعى دوما عند الاقتضاء الى الاستعانة بخدمات أهل الاستنارة الذين يعرضونها عن طواعية على رؤساء المصالح المكونة لحكومة البلاد ٠

وكما أن الحزب الوطنى لا يريد وزراء يمثلون أى نفوذ أوروبى مهما كان ، وهو ما لا يتعين أن يوجد في مصر التى شعارها : **عمل دون سياسة** — فانه يرفض قطعيا كل تدخل أجنبى يتخذ مظهر رؤساء المصالح الكبرى الذين امتصت رواتبهم الجسيمة أكبر قسط من الايراد العام ، وهو تدخل فرض فى ظل النظام السابق الذى غض الطرف عنه وأسهمت نتائجه كثيرا فى خراب مصر ٠

ان الحزب الوطنى يمثل بجميع اتجاهاته وقدراته وطموحاته سكان مصر الذين جاء منهم والخاضعين لقوانين وشرائع البلاد دون أدنى تمييز أو قيود ٠

ولم تنكر أبدا الشخصيات العديدة التى تتولى قيادته الآثار الحميدة للمشورات الأبوية والودية التى قدمتها الدول الأجنبية للشعوب الخاضعة التى تسعى الى التمتع بحرية صادقة ٠ وتكون مصر أول من يتنكر بلا مبرر لما هو ساطع كالشمس ٠ لكن اذا كانت مصر تسلم بحقيقة النفوذ الأجنبى من مآثر جليلة ومتنوعة للغاية ، فانه تحدوها الرغبة فى أن تنال منه بقدر يتناسب مع قدراتها على الاستيعاب ، وعندما تطلب ذلك ٠

ولتقديم أدلة عملية على أن الحزب الوطنى المصرى ، ساعيا الى تأكيد وجوده ويعتزم الاستعانة بأصدقاء البلاد الصادقين فى ظل هذه الظروف العصيبة أو الشاقة ٠ فانه يتقـــدم باخلاص لعرض موقفه على المجالس الأوروبية ٠

وقد لا يكون أيسر لسكان وادى النيل من تقويم ما يحقق بهم من مظالم الا باتباع المراحل التاريخية فى حياة الأمم الاوروبية التى تنعم اليوم بحريات تطمح اليها مصر ٠ ومن ثم تستطيع رفض دفع الضرائب والمقاومة الصريحة والشرعية لشتى السلطات التى تسىء كثيرا الى حكمها ٠

ولا يوجد شعب أحق من الشعب المصرى باتباع هذا النهج ٠

ولكن سبل العنف ينفر منها الحزب الوطنى الذى يبذل قصارى جهده فى عدم استخدامها الا فى اللحظة الاخيرة ٠ فمصر بلد زراعى تماما وبالعمل

والسلام تستطيع أن تنهض من كبوتها بنفسها ، وبالنظر الى هذا الوضع فان الحزب الوطنى عقد العزم على أن يخاطب بهذا البيان الدول والرأى العام ٠

وهذا البيان الذى يصدره الحزب الوطنى وان كان يوافق عليه كافة أعضائه بلا استثناء ، فان أحدا منهم لشديد الأسف لا يستطيع التوقيع عليه فى الوقت الحالى على الأقل ٠ فلماذا ؟ لأن شكل الحكومة الذى منحته الدول لمصر دون مشاركة من الاهالى والذى تعرض له البيان الحالى يمكنها بجرة قلم ودون محاكمة وفى صمت تام أن تنفى الوطنيين وتمحو وجودهم وتشتت شمل عائلاتهم ، أولئك الوطنيين الذين وحدهم الحزب الوطنى تحت راية واحدة ٠

فهل هؤلاء المواطنون يعوزهم الاقدام الوطنى ويمنعهم الخوف من الاضطهاد من القيام بواجباتهم ؟ كلا بكل تأكيد ٠ فقد بذل جميعهم الدماء من أجل قضية عادلة تماما وهم على استعداد لبذلها دون تبرم عند الاقتضاء ٠ ولكن المنفى المجهول والموت بلا فخار ولا نفع يضعفان صفوف حزب يحتاج لجميع قواته لحسن أداء المهمة الملقاة على عاتقه ٠

كما أن مصر مقتنعة بأن أوربا تريد خيرها واستقلالها الادارى ٠ وهى على يقين من أن أحدا لا يرتاب فى قدرتها على الوفاء وحسن استعداد أبنائها ٠ وان الحزب الوطنى الذى يفكر بطريقة مماثلة ولا يبغى أن يتوقف فى منتصف الطريق بسبب تخلف وعى من لهم كامل المصلحة فى أن يشاهدوا الحزب عاملا على أن يطور على ضفاف النيل المبادىء التى تدين لها أوربا بعظمتها ، يتوجه بنداء الى مجالس العالم الحر المتمدن نداء سام سيلقى آذانا صاغية لأن الشعوب ستدرك مرماه ٠

وعسى أن تتمكن هذه المجالس من أن تضع تحت حمايتها أى أن توفر الضمان الدبلوماسى لاعضاء الحزب الوطنى المصرى أى للحزب نفسه ، فى مواجهة أى عسف كان أو الاضرار بحياتهم وحريتهم وحقوقهم من قبل الحكومة المصرية الحالية والمقبلة أو من قبل غيرها حتى ، يتسنى لكل مصرى التفانى فى خدمة بلاده دون خشية من عنف فى المعاملة أو اعاقة عن ذلك بأى شكل كان ٠

ومن ثم يستطيع رجال الحزب الوطنى بهذا الضمان ، الذى يمنح باخلاص كما طلب باخلاص ، الانضمام جهرا الى نداء الأمة ، بقبولهم تحمل مسئولية أعمالهم ٠

ويلتمس الحزب الوطنى على الأخص عون الامير المستشار فون بسمارك

الذى أقر المبدأ العظيم لاستقلال القوميات والذى ينوى أن يدافع عنه أمام محكمة الأمم (٤٠) ·

وستقوم اللجنة بتقديم نفسها الى الأمير فى الوقت والمكان المناسبين· ويتوسل الحزب الوطنى ، حتى ذلك الحين الى الدول عدم اتخاذ أى تدبير نهائى يتعارض مع مضمون هذا البيان دون الرجوع اليه · والحزب على أهبة الاستعداد للتصرف وفقا للشروط سالفة الذكر ·

واذا كانت أوروبا ترغب حقا فى أن تتسق أفعالها مع دبلوماسيتها ، فانها ستعمل على حماية الحزب الوطنى وانصافه فى طلبه المشروع ·

وان مصر على نحو ما سبق قوله تقبل جميع الديون التى تعاقد عليها ولاتها وتدفعها بكاملها ·

ولكن الأمة التى دفعت دوما ، أيا كان مقابل التضحية ، وتتعهد بأن تدفع بالكامل ، يحق لها أن تطالب بالانتفاع العام بجميع فروع ايرادها العام أو تلك التى أعيدت اليها من هذه الفروع بحكم حقها فى استردادها والتى تشكل موارد البلاد الطبيعية ، ولا يمكن لأحد مهما كان يستغل هذه الموارد التى غدت وطنية منذ الآن وصاعدا ولا أن تقدم على سبيل أى نوع من أنواع الضمان · وبناء عليه فان السكك الحديدية المصرية لا يمكن أن تستمر رهنا بمقتضى الاتفاقية المسماة « جرش – جوبير » ، مما يشكل امتيازا جائرا ما كان يحق للخديوى اسماعيل أن يمنحه ولا سيما عندما كانت الدولة المصرية التى أرهقتها الديون ، رغم ضروب التحايل القانونية التى حدثت فى تلك الفترة ، فى حالة توقف نسبى عن تسديد ما عليها ·

فضلا عن أن هذه الاتفاقية الجائرة كانت بحكم طبيعتها ضارة بمصالح كل من أقرض مالا واثقا من قدرة مصر على الوفاء وهى مدينهم الوحيد · ولم يكن لاسماعيل الحق ولا السلطة بما يخوله من تلقاء نفسه طوائف من الدائنين ، كما لم يكن له الحق أو السلطة فى خلق الامتيازات ، بأن يستقطع بعض فروع الايراد العام من الموارد المصرية ، وهو الذى اختص نفسه طوال خمسة عشر عاما تحت رداء من التباس اتسم بالدهاء بجميع موارد الدولة العادية وغير العادية وهو الذى ابتلع جميع القروض ، ومن ثم تقع عليه تبعة جميع المسئوليات التى تلقى اليوم على كاهل مصر ·

---

(٤٠) وفيما يتعلق باصرار اسماعيل يسرى باشا انظر بصدد هذا الانفتاح الأعمال التالية :

F. Charles-Roux : «Allemagne, Angleterre et Egypte in 1877-1878», Renseignements Coloniaux, 1928, 175-80;
M. Sabry : Ismail et Ingérence;
W.O. Henderson : German economic penetration; etc.

كما أنه لم يكن من حق اسماعيل أن يخصص أية أملاك ، تسمى خاصة لتسديد أى دين ، فهذه الأملاك بعيدا عن ممتلكات الأمير الموروثة ، استقطعت من الخزانة المصرية ٠

ولا يخفى على أحد ، كان يمتلك اسماعيل من ثروة موروثة طالما تبوأ السلطة ويعلم ذلك السيد « رفيرز ويلسون » بوصفه نائب رئيس لجنة التحقيق ٠ وأن جميع الأملاك الخديوية ، التى امتلكت بأى طريقة وبأى صفة منذ ارتقاء الخديوى السابق للسلطة الى حين عزله تخص الأمة ويجب أن تعود اليها ٠

وهذا المبدأ العادل قد نص عليه تماما الفرمان التحفظى الاجتماعى المؤرخ ٢٥ أبريل ١٨٧٠ الذى أبلغه الباب العالى للدول وقبله اللورد « كالديرون » بقضه وقضيضه ٠

ان الاتفاقية المسماة حكومية ــ اتفاقية «روتشيلد» ــ التى تعود الى البادرة المؤسفة التى قدمها السير «رفيرز ويلسون» الخاصة بقرض يبلغ ٨ ملايين جنيه سترلينى مقابل رهن أملاك خديوية مزعومة باطلة لنفس الأسباب والأغراض التى سبق تقديمها بصدد اتفاقية « جرشن ــ جوبير » وسيدرك كل شخص الأجحاف المطلق من الرغبة فى الاصرار على تدابير مالية من هذا النوع ، تنافى العقل وتتعارض مع الضمير والانصاف ٠ ولا يمكن للحزب الوطنى المصرى أن يستكمل بيانه على خير وجه الا بأن يقدم للعامة برنامجا مدينا نزيها مضحى به حل محل صاحب ديون لا طائل منها للأمة ، وهو برنامج لمصر فى خاتمة المطاف التى ظلت أمينة دوما وينصب على اجراء تسوية باتة للمسألة المصرية المالية العامة ٠ وها هو ذا :

(أ) ان تعاد الى الحكومة المصرية جميع الأملاك المسماة بالخديوية ، باستثناء الاملاك الموروثة ٠

(ب) أن يلغى النص القاضى بتخصيص ايراد سكة الحديد للقرض الممتاز فى قانون التصفية ٠

ومن المعلوم أنه اذا ما تمسك الدائنون من الانجليز باتفاقية جائرة ضمنت لاسماعيل مبالغ ضخمة استقطعت من الخزانة لحفظ كفالة ايراد السكة الحديد تعين عليهم قبول الدخل كما هو من غير أن تؤخذ بقية الفائدة المخصصة لهم من الدخل العام ٠

ولا يجوز ولا يتعين تقبل أى أمتياز يكبل ارادة الشعب وكده ٠

(ح) أن تكون الديون الممتازة والسائرة والمنظمة دينا واحدا مضمونا بمال الأمة والبلاد وبفائدة مقدارها ٤٪ فى العام ويجرى تبادله مقابل

الصكوك القديمة أو مقابل الديون المؤكدة بسعر عادل ، مع الاستبعاد العام لجميع مطالب ومزاعم أصحابها تجاه مصر وحكومتها ٠

وفى هذا الصدد فان الديون العامة والسائرة وما يسمى خطا خاصة تتجمع معا وتكون مبلغا اجماليا يضاف اليه المبلغ الذى يقدر ضروريا لتعويض الفروق العادلة التى نتجت عن الاستبدال ٠ وتستبعد من هذا الترتيب قروض ١٨٦٤ و ١٨٦٦ و ١٨٦٧ التى سدد القسط الاكبر منها ولا يتبقى غير ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه والتى يسير انقضاؤها فى طريقه المعتاد مع تخفيض الفائدة الى ٥٪ ٠

وبما أن ايرادات مصر ، فى ظل الأوضاع الاقتصادية المخيمة على الزراعة بعد كثير من ضروب الابتزاز ، لا يمكن أن تتجاوز عادة ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه (وهو حد أدنى مرتفع بالفعل) ، فانه يتعين تحديد ميزانية النفقات الحكومية مع مراعاة التوفير المعقول دون تقيد ٠ ومع ذلك تظل امكانية لتكوين مبالغ هامة لاستهلاك الدين المصرى وانقضاء أجله فى عدد معين من السنوات ٠

(د) ان تقام ادارة مراقبة مؤقتة تتكون من ثلاثة من الأجانب* ، تعينهم الدول وتقرهم الحكومة المصرية للاشراف على خدمة فوائد الدين دون أن يكون لهم حق التدخل ولا تمنح لهم اختصاصات أخرى ٠ ويكون المراقبون على اتصال مباشر بالوزارة المصرية ، وتحدد مسئوليتهم مثل مسئولية الحكومة تماما فى اتفاقية دولية تراعى شروطها بمنتهى الدقة بغية تفادى أى ذريعة لاحتمال التدخل الأجنبى ٠

وقد يكون من غير اللائق الاعتقاد بأن أكثر الدول اهتماما ، فرنسا ، بالمصاعب المالية التى تواجه مصر بحكم مشاركة رعاياها تحت مسئوليتهم فى عمليات تشوبها المجازفة كما هو الحال بالنسبة لفرنسا ؛ سوف تسعى الى التأثير على الدول الأخرى الاقل اهتماما لكى تقتص من بلاد وادى النيل أن تدفع ما فوق طاقتها عندما تشرع فى اصلاح نفسها ٠

ويعلن الحزب الوطنى المصرى أن سكان البلاد فى غير مستطاعهم كذلك تحمل الوعاء الضريبى الحالى ويتعين اصلاح هذا النظام فى نفس الوقت الذى تخفض فيه الضرائب ٠ وخلافا لذلك فان الحالة الاقتصادية سوف تزداد سوءا على سوء وستظل مساحة كبيرة من الأرض بورا ٠

ان سلام الشعب ورفاهيته يمكن ارتهانهما بتسديد قيمة كوبون

---

* ذكر الرافعى النص التالى : « ان تقام ادارة مراقبة وطنية مؤقتة يكون فيها ثلاثة من الاجانب » الثورة العرابية ص ٧٣ ٠

لسعر وهمى محض عندما تعارض ذلك القوى المنتجة فى البلاد وعندما يتخلص المحرض على الشر من كل مسئولية بابتعاده عن البلاد بموافقة الدول .

وهل يمكن لمصر أن تكون مجرد دلالة جغرافية وهل يتعين تشبيه سكانها البالغ عددهم خمسة ملايين بالدواب التى يفرض عليها رعاة ذوو أهواء ونزوات ؟

ان الشعب الذى أثمر بكده وجلده فى الابداع الكثير مما أنفق طول ستة عشر عاما من أقسى عهود الاستبداد ، ألا يكتسب الحق فى أن ينتظر من العالم المتمدن قسطا من العدالة والانصاف ؟

ان ما يطلبه هو أن يعامل على غرار ما يريده زملاؤه فى أوربا اذا ما وضعوا فى وضع مماثل لما فرض عليه . وبهذا التوحيد العام بالشروط الموضحة فان مصر ، بتخلصها مما يربكها ومن الأعباء التى تثقل عليها وتعمل على خرابها وبعودتها الى ممارسة حقوقها على جميع فروع الايراد العام ، ستقدم الى دائنيها الذين يجمعهم دين موحد ضمانات ايجابية للغاية بحيث يصبح الحائزون سواسية أمام سجل الدين دون استثناء ولا تمييز .

وهذه المزايا الضخمة التى لا تخفى على أحد سوف يترتب عليها تعزيز العائد المصرى (من الديون) وتحول الى الابد دون ما يحدث من تذبذبات جسيمة فى السوق المالى بوضع حد لمناورات المضاربة » (٤١)

وكان جون نينيه أكثر وضوحا بالنسبة للتكوين والتنظيم : فالمفروض أن النواة القائدة كانت تتألف من سلطان أباظة باشا والشريعى باشا وفخرى باشا وواصف باشا وبطريرك الأقباط الأرثوذكس ، وأخيرا عرابى معتمدا على مسقط رأسه مديرية الشرقية . ثم أن مهمة هذه الجماعة وضعت بأنها « الطريقة التى يعلن بها الحزب الوطنى عن نفسه » ؛ ويقترح اسماعيل من جانبه أن يعترف بأعضائه « كحزب ، حزب الوطنية » ، الحزب الوطنى الذى ينبغى أن يرأسه » (خريف ١٨٧٨) ؛ وكان من المفروض أن ينشر « **البيان الوطنى لعام ١٨٧٩** » فى التاسع من نوفمبر من ٦٠٠٠ر نسخة بمبادرة مشتركة من مجموعتين من الشخصيات ، المصرية والتركية من

---

(٤١) « **بيان الحزب الوطنى المصرى** » ، وهو ترجمة الى العربية من الترجمة الفرنسية للأصل العربى ، القاهرة ، نوفمبر ١٨٧٩ . ويقول جون نينية : « ان نشر الطبعة باللغة العربية ستتأخر بضعة أيام ، لأسباب قهرية » . وقد وقع على البيان باللغة الفرنسية : « سكرتير اللجنة : A. Ali . وقد أشار الرافعى الى هذا البيان ولم ينشر منه سوى المطالب التى وردت فى اطار النقاط أ ، ب ، ج ، د ، ووصفها تحت أولا وثانيا وثالثا ورابعا ، وهى تختلف اختلافات طفيفة عن النص الفرنسى ، انظر ، **الثورة العرابية** ص ٧٢

بينهم عدد كبير من مديرى الأقاليم الذين دعوا الى بث مطالب الحركة الوطنية فى الريف والمشاركة فى مسئوليتها ٠

وفى التاسع من سبتمبر ١٨٨١ ، قامت جميع وحدات (كتائب ، أرط ، آلايات) المشاه والفرسان والمدفعية بالقاهرة بالتوجه الى قصر عابدين بقيادة القواد العسكريين الثلاثة وكانت مطالبهم ، طبقا للرأى السائد المعمول به ، ثلاثة : عزل رياض باشا ؛ تشكيل مجلس النواب ؛ زيادة عدد الجيش العامل الى الحد الأقصى المنصوص عليــــه فى فرمانات السلطان (٤٢) وكانت تلك الخطوات بداية الثورة التى خضع لها توفيق حتى وقع الاحتلال البريطانى ٠

وحينئذ اشترك فى وضع أول برنامج للحزب الوطنى كل من محمد عبده « وويلفريد سكافين بلنت » فى حضور القادة الرئيسيين للحركة الوطنية وذلك فى ١٨ ديسمبر ١٨٨١ ٠ وفى هذه الوثيقة التى تتألف من ست نقاط يحدد الحزب الوطنى المصرى موقفه وأفكاره كما يلى :

« ١ ــ يرى الحزب الوطنى المحافظة على الروابط الودية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى ، واتخاذ هذه الروابط ركنا يستند عليه فى عمله ، ويعترف بالسلطان عبد الحميد كمتبوع وخليفة وامام المسلمين ، ولا يريد تبديل هذه الصلات والروابط ما دامت الدولة العليا فى الوجود ، ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من الخراج بمقتضى القوانين وبما يلزمه من المساعدة العسكرية اذا طرأت عليه حرب أجنبية ، كما يحافظ الحزب على حقوقه وامتيازاته الوطنية بكل ما فى وسعه ، ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية ، وله ثقة بدول أوروبا لاسيما انجلترا فى متابعة ضمان استقلال مصر الداخلى ٠

٢ ــ يخضع الحزب للجانب الخديوى الحالى ، وهو مصمم على تأييد سلطته مادامت أحكامه جارية وفقا للعدل والقانون حســــب ما وعد به المصريين فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وقد قرن رجاله هذا الخضوع بالعزم الأكيد على عدم عودة الاستبداد والأحكام الظالمة التى أورثت مصر الذل وبالالحاح على الحضرة الخديوية بتنفيذ ما وعدت به من الحكم النيابى ،

---

(٤٢) حسب الأخبار المتتابعة التى اعطاها عنها عرابى ل : W. Scavin Blunt ثم أحمد شفيق باشا : **مذكراتى فى نصف قرن** ، ١٢٠ ، وعبد الرحمن الرافعى : **الثورة العرابية** ١٢٧ ــ ١٢٨ ، ويضيف اليها محمد عبده مطلبا رابعا ــ اعفاء شيخ الاســــلام ، محمد العباسى المهدى (محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الامام** ، الجزء الأول : ٢٢٢) ــ لم يخذ به عرابى فى الرواية الاولى لمذكراته ، ثم أنكره فى مذكراته المخطوطة (عبد الرحمن الرافعى : **الثورة العرابية** ، ١٢٧ ، هامش ١) ٠

واطلاق عنان الحرية للمصريين · ويطلبون من سموه التعاون معهم بأمانة في تحقيق هذه الأغراض ، ويعدونه بمساعدته في ذلك قلبا وقالبا كما أنهم يحذرونه من الاصغاء الى الذين يحسنون اليه الاستبداد والاجحاف بحقوق الأمة أو نكث المواعيد التي وعد بانجازها ·

٣ — رجال الحزب يعترفون تماما بفضل فرنسا وانجلترا اللتين خدمتا مصر خدمة صادقة ، ويعترفون باستمرار المراقبة الاوروبية كضرورة اقتضتها الحالة المالية وضمانة لتقدم البلاد ، ويعرفون صراحة بالديون الأجنبية حرصا على شرف الأمة ، وان كانت تلك الأموال لم تقترض لمصلحة مصر ، بل أنفقت في مصلحة حاكم ظالم كان لا يسأل عما يفعل ، ومعلوم لهم أن ما حصلوا عليه من الحرية والعدل كان بمساعدة هاتين الدولتين ، فهم يشكرونهما ويثنون عليهما ·

ثم انهم يرون أن النظام الحالي لم يكن الا وقتيا ، والا فانهم يؤملون أن يستخلصوا ماليتهم من أيدي أرباب الديون شيئا فشيئا حتى يأتي يوم تكون مصر فيه بيد المصريين ، وهم لا يخفى عليهم شيء من الخلل الحاصل في المراقبة ومستعدون لاذاعته فانهم يعلمون أن كثيرا من المستخدمين في قلم المراقبة لا يقدرون على القيام بوظائفهم ولا يراعون حق الشرف والاستقامة ، وبعضهم يأخذ الرواتب الجسيمة بلا استحقاق مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على أحسن أسلوب براتب لا يوازي خمس راتب الأجنبي ، وبهذا يحكمون بوجود الظلم وخلل الادارة مادام هذا الاسراف خارجا عن الحد ·

وهم يتعجبون من اعفاء الاجانب من الضرائب ، وعدم خضوعهم لقانون البلاد مع تمتعهم بخيرها واقامتهم فيها ، ولكنهم لا يريدون مداركة هذا الاصلاح بقوة أو جفوة ، بل يقتصرون على اقامة الحجة ويطلبون من فرنسا وانجلترا التبصر في هذا الأمر ، فانهما أخذتا على نفسيهما مراقبة المالية ، فهما مطالبتان بنجاحها وباستخدام أهل الأمانة والاستقامة فيها ؛ لأنهما مسئولتان عن رفاهية مصر بعد أن نزعتا ادارة ماليتها من أهلها وتكفلتا بنجاحها ·

٤ — رجال الحزب الوطني يبتعدون عن الأخلاط الذين شأنهم احداث القلاقل في البلاد أما لمصلحة شخصية أو خدمة للأجانب الذين يسوؤهم استقلال مصر ، وهؤلاء الأخلاط كثيرون في البلاد والمصريون يعلمون أن الصمت على حقوقهم لايخولهم الحرية في بلاد ألف حكامها الاستبداد وكرهوا الحرية · فان اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم والاستبداد الا سكوت المصريين · وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية في هذه السنين الأخيرة فعقدوا العزم على استكمال تربيتهم القومية ، وهم يرجون أن يكون ذلك

بواسطة مجلس النواب (الذى انعقد الآن) وبواسطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة وبتعميم التعليم ونمو المعارف بين أفراد الأمة ، وهذا كله لا يحصل الا بثبات هذا الحزب ، وحزم رجاله .

ويرى الحزب أن أعضاء مجلس النواب ربما أكرهوا على الصمت كما حصل لمجلس الاستانة ، وقد يستعان عليهم بالصحافة بجعلها آلة تفوق نحوهم السهام فيتكدر صفو الراحة ويحرم أبناء البلاد من الوقوف على الحقائق ؛ ولهذا فوض الوطنيون أمرهم الى أمراء الجهادية وطلبوا منهم أن يصمموا على طلبهم لعلمهم أن رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو وليس فى عزمهم ابقاء الحال على ما هى عليه ، بل متى تحصلت الأمة على حقوقها عدلوا عن السياسة الحاضرة ، فان أمراء الجهادية عازمون على ترك التدخل فى السياسة متى فتح المجلس ، فهم الآن بصفة حراس على الأمة التى لا سلاح لها ولهذا يطلبون زيادة الجند الى ١٨٠٠٠ عسكرى ويرجون التفات قلم المراقبة لهذه الزيادة عند تقرير الميزانية .

٥ ـ الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى ، فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب وأغلبيته مسلمون ؛ لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم اليه ، لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع اخوان وأن حقوقهم السياسة والشرائع متساوية ، وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أن الشريعة المحمدية الحقة تنهى عن البغضاء وتعتبر الناس فى المعاملة سواء . والمصريون لا يكرهون الأوروبيين المقيمين بمصر من حيث كونهم أجانب أو نصارى ، واذا عاشروهم على أنهم مثلهم يخضعون لقوانين البلاد ويدفعون الضرائب ، كانوا من أحب الناس اليهم .

٦ ـ آمال الحزب معقودة على اصلاح البلاد ماديا وأدبيا ؛ ولا يكون ذلك الا بحفظ الشرائع والقوانين ، وتوسيع نطاق المعارف واطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للأمة وللمصريين اعتقاد فى دول أوروبا التى تمتعت ببركة الحرية والاستقلال أن تمتعهم بهذه البركة فى دول أوروبا أنه لم تنل أمة من الأمم حريتها الا بالجد والكد ، فهم ثابتون على عزمهم آملون فى تقدمهم واثقون بجانب الله تعالى اذا تخلى عنهم من يساعدهم ـ ١٨ ديسمبر سنة١٨٨١ . (٤٣) » .

(٤٣) W. Scaven Blunt : Secret history, 556-9, sub. «Programme of the National Party of Egypt, forWarded by M. Blunt to M. Gladstone, 20th 1881».

نشر هذا البرنامج فيما بعد فى « التايمز » (١٨٨٢/١/١) باشراف السير=

ان الاختلاف بين الوثيقتين ليس اختلافا فى اللهجة فحسب · فقد تحول الحزب الوطنى من مجرد قائمة بالمطالب الاقتصادية الى برنامج للاستقلال السياسى يركز على تقدم فكرة الحرية لدى الرأى العام المصرى والروح العامة هنا هى نفسها روح « اعلان حقوق الانسان » · كذلك فان العلاقة الواردة بين تقدم التربية واتجاه المصريين الى استرداد مصر يشير الى مفهوم جديد لدور الثقافة والفكر ، باعتبارهما عاملين حاسمين وسابقين للعمل السياسى · كما أن فكرة العمل الشعبى ظلت فى المقام الثانى نظرا لأن الموقعين على البرنامج من الأعيان أنصار التدرج ، ومن ثم كان دعم الجيش ، أداة العمل السياسى · والمعبر عن القوة الوطنية التى تنقص الشعب ؛ وأخيرا الطابع الدينى الاسلامى للحزب الوطنى ، وهو حزب سياسى بالتأكيد الا أنه أيضا حزب اجتماعى ، يتصرف فى اطار ومفهوم دينيين (٤٤) · هذه المعطيات الثلاثة ـ التدرج من أعلى ، دور الجيش فى الثورة الوطنية ، الطابع الدينى للعمل السياسى ـ تؤكد اتجاها ألفيا ثابتا فى تاريخ جميع محاولات التجديد الوطنى فى مصر ·

فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٢ ، وبعد فشل الثورة قدم عرابى الى اللورد « دوفرين » المكلف باعادة تنظيم مصر ، وتلبية لطلب هذا الأخير ، مشروعا « **الاصلاحات الضرورية لحسن سير الحكومة المصرية** » جاء فى ١٩ نقطة · وهذه هى نقاطه الرئيسية :

« وليام جريجورى » · وهناك روايتان حول كتابة النص نفسه : « ثم اقترحت وضع برنامج بما أخبرنى عرابى به (···) ومن ثم وضعت أنا والشيخ محمد عبده وآخرون وصابونجى منشورا يتضمن آراء الحزب الوطنى بكل دقة ، وقد أخذ الشيخ محمد عبده هذا المنشور الى محمود سامى ، والذى كان وزير الحرب ، وضمن موافقته عليه ، وكذلك أطلع عرابى على المنشور ووافق عليه » ·

ورواية عبد الرحمن الرافعى : « وقد تلقاه المستر بلنت من جماعة من الزعماء ، منهم الشيخ محمد عبده ، وكان وقتئذ رئيسا لتحرير « الوقائع المصرية » ، ومحمود باشا سامى البارودى ، وعرابى باشا · » « **الثورة العرابية** ، ١٤٤) · ويؤكد ويليام بلونت « لأصدقائه المصريين انه تصرف بموافقة القنصل البريطانى السير « ادوار مايت » الذى كان يتمنى المحافظة على رابطة مقبولة مع القادة الثوريين

(Achille Biovès : Français et Anglais en Egypte 1881-1882, Roger et Charnovitz, Paris, 1910, 42-3).

(٤٤) كان الأقباط والبطريرك على رأسهم يقدمون كما رأينا عدة مرات دعما كاملا وغزيرا لثورة الجيش والحزب الوطنى · ويذكر « بلونت » W. S. Blunt عدة وقائع ولا سيما رسالة البطريرك القبطى الى « هنرى ميدلتون H. Middleton أثناء الحرب « مبينا الى أى درجة من الاجماع بدعم الأقباط معها عرابى فى تلك الأونة » (Secret history, 164, 203, 358, 383).

(٣) يجب انتخاب مجلس النواب من أبناء الأمة المصرية اختيارا حرا كما هى الحال فى الممالك المتمدنة (٠٠٠) ويجب أن تصبح قرارات مجلس النواب نهائية ٠ ويصبح الوزراء مسئولين أمام المجلس (٠٠٠) ٠

(٤) لابد من وضع قاعدة تسرى على مجموع السكان حتى لا يظل الأجنبى مميزا بالنسبة للمصرى فى جميع المجالات وفى فرض الضرائب والحقوق ، الخ [٠٠٠] ٠

(٨) يجب ابطال طريقة السخرة [٠] ٠

(١٠) يجب توحيد القوانين المعمول بها فى جميع المحاكم المصرية وضمان تطبيقها بأكبر قدر ممكن من الدقة ٠

(١١) يجب الغاء المحاكم المختلفة التى أضرت بالمواطنين [٠٠٠] ٠

(١٣) يجب أن تكون قناة السويس حرة بضمان من الدول الكبرى الموقعة على معاهدة برلين [٠٠٠] ٠

(١٤) [٠٠٠] يجب تعديل نظام الضرائب وجعلها تتناسب مع حالة الأرض ٠

وأيضا (٦) يجب تسوية دين المزارعين وتحديده وانقاصه عن طريق قيام الحكومة بدفع مبالغ معقولة للدائنين [٠٠٠] (٤٥) ٠ »

والجدير بالملاحظة أن موضوع الاستقلال لم يرد فى المشروع صرامة ، ليس نظرا لموقف عرابى سجين الانجليز فحسب على ما يبدو لنا وانما أيضا بسبب تصور الأزمة الوطنية على نحو معين ، ألا وهو أن الاستبداد والتحكم من جانب الحكومات المصرية هما آفه كل شىء ، وعلى ذلك فلا بد أكثر من أى وقت آخر جعل مطلب الديمقراطية البرلمانية أساس كل اصلاح

---

(٤٥) حسب الرواية الثانية لمذكرات أحمد عرابى : مذكرات عرابى ، الجزء الثانى : ١٦٥ ـ ١٦٨ ٠

(٤٦) حول تكوين الأفكار السياسية لعرابى ، هذه الشهادة : « كان عرابى يقص يوم ١٦ مارس ١٩٠٣ على السيد « بلونت » أن أول كتاب أوحى له بأفكاره السياسية كان ترجمة عربية « لحيــاة بونابرت » للكولونيل ســانت لويس » ٠ (محمد صبرى : (M. Sabry : Genèse esprit national, 98, n. 3).
) ٠ ثم التقت عدة مؤثرات فيما بعد سنشير الهيا فى النص ٠ ويشهد « فرديناند دىليسبس » لصالح ليبرالية عرابى الذى توصل لحماية حياة خمسة عشر الف أوربى فى غمرة الحرب ثم لتأمين رحيلهم الى بلادهم ٠
(«F. de Lesseps telegram to the president of the court-martial that is to try Arabi», The Times, 6-10-1882, 5).

وقد تدخلت عوامل كثيرة فى مجرى الأحداث خلال تلك السنوات المضطربة كان لها أثرها فى تعديل وتحويل الايديولوجية الوطنية واثرائها . وكان أسرع هذه العوامل وأشهرها يتمثل فى الصحافة غير الحكومية (أنظر الفصل الرابع – القسم الثانى) . ومن بين الصحفيين فى السنوات التى سبقت الثورة مباشرة يجب أن تخصص مكانا لأديب اسحاق [١٨٥٦ – ١٨٨٥] (٤٧) . وهو يلفت النظر فى كتاباته التى كانت تصدر فى شكل مقالات وأبحاث جمعت فى «**الدرر**» (٤٨) تأثره العميق بفلاسـفة الثورة الفرنسية وساستها وخاصة « اليعقوبيين » (٤٩) . وفى الوقت الذى كان فيه معظم الصحفيين لا يتجاوزون مستوى الصحافة العامة ، كان أديب اسحق يرتفع الى مستوى الفكر السياسى متناولا بالتحليل المفاهيم السياسية والأوضاع فى الشرق باذلا فى ذلك جهدا نقديا حقيقيا يعتبر الأول من نوعه فى الشرق العربى ، منذ الطهطاوى . وكانت مشكلة الثورة تشكل محور اهتمامه . فلا ثورة حقيقية وبالتالى ظافرة بدون وعى سياسى ودون تعبئة الارادة الوطنية الخاصة للشعب . يقول فى وصفه لفشل الجماهير الشرقية فى صراعها :

« أما حدود المداجين وتعاريف المنافقين للحرية فلا محل لايرادها ولا موضع لانتقادها فى مثل هذا المقام . فغاية القول فيها أن أهل السلطة الاستبدادية حيث كانوا ، من حيث كانوا ، لا يفترون على الحرية كذبا فى تعريفها بالطاعة العمياء ، والتسليم المطلق لمقال زيد مرويا عن حكاية عمرو ، مستندا الى رواية بكر مؤيد بمنام خالد ، فهى بموجب هذا الحد فناء الذهن وموت القوة الحاكمة وخروج الانسان عن مقام الانسان » (٥٠) .

فما هى هذه الأهداف ؟ وباسم أى شىء يصبح الانسان ثوريا ؟ يجيب أديب اسحاق قائلا : باسم الحرية ، «مصدر كل ما هو عظيم على سـطح

---

(٤٧) راجع سيرته فى يوسف أسعد داغر : **مصادر** الدراسة الأدبية ، الجزء الثانى ، ١١١ – ١١٤ .

(٤٨) والمقصود هنا كتابات منشورة على التوالى فى « **التقدم** » (**بيروت**) و « **مصر الفتاة** » (الاسكندرية) فى عام ١٨٧٩ ؛ « **مصر** » (القاهرة ثم الاسكندرية) فى ١٨٧٧ ، « **التجارة** » (الاسكندرية) و « **مصر القاهرة** » (باريس) فى ١٨٨٠ .

(٤٩) راجع خاصة مقالاته : « نفحة مصدور ، الكتاب الرابع » ، « عيد ١٤ تموز فى **باريس** » ، وسلسلة من أربعة مقالات حول « جامبيتا » فى **الدرر** ، ١٦٣ – ٦ ، ٣٦٢– ٣ ، ٢٩٤ – ٥ ، ٣٩٨ – ٤١٢ .

(٥٠) انه ينقد التعليم التقليدى القائم على الحفظ واحترام السلطة اللذين يزيفان كلاهما تربية الروح وملكة الحكم ، فى خطابه عن « الحرية » ، **الدرر** ، ٤٢ – ٤٩ .

الارض» • ثم يقدم تحليلا لمفاهيم ۱۷۸۹ يراعى فيه واقع العرب فى أواخر القرن التاسع عشر ، فالوطن الذى يعتبر « أفضل وحدة » لا يمكن تصوره الا فى اطار المساواة بين المواطنين :

« ولا ريب فى أن امتياز بعض الناس عن بعض فى وطن واحد يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حسا ومعنى • ووجه الضرر الأول ان معاملة سفلة الافرنج بما لا يعامل به وجوه الوطنيين من الاكرام لغير علة ، والعفو عن الذنب الواضح قد بعثتهم على التمرد ، فاعتسفوا وأفسدوا ما شاءوا بحيث لم يمض علينا يوم ولم نسمع فيه بأن فلانا الايطالى أو المالطى ضرب وطنيا بخنجر فحمل الجريح الى المستشفى والجارح الى دار قنصله فأودع فيها غرفة رفيعة يأكل بها عيشه رغدا هنيئا • ثم لم يلبث فيها أن أطلق ، فازداد بما أكل شرها ونهما وعاد الى مثل حاله السابقة فكانت الثانية شرا من الأولى • فاذا تكرر صدور ذلك عنه قذف به الى أطراف بلاده ، فسار اليها ثم عاد مبدلا أسمه مغيرا شـارته ورسـمه ؛ كأن يكون بلحية ثم يخفيها ، ويختار له شكلا هندسيا لها ، ولا يخفى ما ترتب وما يترتب على ذلك من الاضرار بهذه الاقطار •

واما وجه الضرر المعنوى فهو ان انحطاط منزلة الوطنيين وانخفاض جناح ذلهم بالنسبة الى الأجانب يولد فيهم الحسد والكسل ويشرب قلوبهم التهيب والخوف ، فلا يحتملون الرعائب فى طلب الرغائب ، بل ربما كان الرجل منهم ذا مروءة تبعثه على التماس الرفعة والمجد ثم لا يجد من يشد أزره فيبقى خافض الذكر خامل المنزلة • ولو رأى من الدهر انصافا لركب العظيم وطلب الجسيم ومات موت الكريم » • (٥١)

والانتقال من الوطن « بمفهومه الأوروبى » الى الأمة الاسلامية يتم بصورة طبيعية :

« رأى الانسان من نفسه عجزا عن القيام بجميع حاجاته الطبيعية ، ودفع أذى سائر الحيوان ، تألف جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات ، فصار هذا زارعا وهذا حاصدا وذاك طاحنا وذاك عاجنا والآخر خابزا وهلم جرا ، وكل منهم فى شأنه ساع • فلما كبرت هذه الجماعة عن أن يسعها قسم واحد من الأرض تفرقت فيها ، فصارت جماعات منفصل بعضها عن بعض حسبا مع تواصلها بالنوعية • وأقبلت كل جماعة منها على العمل فى الأرض التى اختارتها مقاما ، استحصالا لحاجتها ، وأخذ كل من أهلها يعمل فى ما ارتضاه لنفسه من الصناعات ليعين بمصنوعه رفيقه مستعينا بما يصنعه

(٥١) « الأمانى » ، الدور ، ١٢٢

ذلك الرفيق ولو حاول الانسان الاهتمام فى جميع الأرضين ، بجميع المهن والمشاغل ، لفنى عمره ولم يأت بفائدة تامة بخلاف ما اذا اقتصر على العمل بمهنته فى جماعته ، اذا تيسر له أسباب الاعانة والاستعانة فتحصل الفائدة التامة فى الجماعة ، وينتهى ذلك الى حصولها فى النوع لما بين الجماعات من علاقات الانسانية • وهذا وجه الفضيلة فى حب الامة وحب الوطن ، فليرسمن اسمهما على صفحات كل قلب ، وليلهجن بذكرهما لسان كل انسان ، فانما المرء بأصغرية القلب واللسان • » (٥٢)

الحديث هنا عن مجتمع شبيه بالامبراطورية العثمانية من كافة الوجوه : ان مفهوم الأمة هنا ينطبق على المفهوم الحديث للأمة لا على مفهوم الجماعة الدينية الاسلامية بالمعنى الذى ساد فى العصر الوسيط • وفى اطار هذا الوطن يجتهد أديب اسحاق فى دفع الروح المدنية وفى توفير نصيب عادل من الحرية للفرد المواطن •

« بالغ (جان جاك روسو) فى مقاومة الاستبداد ، وتأييد حرية الأفراد ولكنه قيد هذه الحرية بارادة الجمع فوقع فيما حاذرا من العبودية • وظن غيره من الباحثين أن الوطنى يبادل ما يفقد من حريته الذاتية بما يحصل له من الأمن بالأحكام المدنية ، وهى نزعة مستنكفة تنحصر بها القوة فى الحكم فيملك ما يريد أخذه من الحرية وما يروم اعطاءه من الأمن ، فيفضى به الأمر الى ترك الحرية بلا ضمانة ، والوطنى بلا استقلال ، لا يصح بالنظر الى الحق أن يخرج الوطنى عن أن يكون حرا ، فانه لا يعد الهيئة بوثيقة الاجتماع الا باعانة مماثليه ، وحفظ الوطن الذى نبذ أحكامه فيه ، فهو فى جمعية ضمانة متساوية فى الجانبين فاذا ساعد فيها الكل لم يخسر من استقلاله شيئا الا عوض عنه ولم يحصل له من الكسب شيء الا كان مضمونا •

وكما أن الحكام يريدون تأييد الحرية بما يتصورون من الأحكام • كذلك حاول بعض الناس اعداد الحكم والحكومة بما يتخيلون من الأوهام • فالسلطة والحرية متماثلتان فى الحدة يفضى بهما الخلاف الى الغضب وتؤدى فيهما الصعوبة الى العداوة ومن أجل ذلك رأينا ذوى الأمر ميالين الى الاستبداد والشعوب الى الاطلاق • ومن أجله كان أرباب الخطط الذين هم مظاهر السلطة بغضاء عند سائر القوم ، ومن أجله كانت الرعية بمنزلة الأعداء عند المستبدين •

ومن المقرر المتفق عليه بين النقدة الأحرار أن الحرية والمساواة متلازمتان ، فلا حرية مع الامتياز ، ولكن هنالك درجات عبودية من الأمير

---

(٥٢) « الأمة والوطن » **المرجع السابق** ، ١٠٠ ــ ٣ ؛ وسيعود مرة ثانية الى مفهوم **الوطن فى** « لا وطن الا مع الحرية » ، **المرجع** السابق ، ٤٥٣ ــ ٤ •

الى أحقر الرعية تتصل دنياها بالرق ولا تصل عليها الى الحرية . ولا خفاء في ذلك فحد الامتياز أن يعمل أحد الناس ما لا يجوز لسائرهم وأن يحظر على الجميع ما يجوز لبعض .

فمما تقدم يعلم أن الحرية السياسية بعيدة المنال عسيرة الكمال ، بل يكاد يمتنع تكاملها فى فريق من الناس بما يؤثر فيها من عوامل العادات والقوانين والأحوال والأخلاق الاجتماعية ، وانما تحصل منها ضروب متنوعة تشبه أن تكون ضروبا من الامتياز ، ثم تكثر وتمتد حتى يحصل منها لكل واحد من القوم نصيب ، فتعمهم أنواع الامتياز كأنهم نبلاء ، ولو حصلت لهم الحرية الحقيقية لكانوا جميعا متساوين .

أقول هذا ولست أجهل أن الشرط أو القليل أو التمنى لا يفيد شيئا فقد مرت ألوف الأعوام على جماهير الأنام والحرية عند أكثرهم مجهولة المكان فما أبعدك من الكمال ايها الانسان . » (٥٣)

ويعرف مفهوم الوحدة الوطنية :

« فاذا كان الوطن هو الوحدة التى تجمع كلمة الأمة ، عظم بذلك شأنه المعنوى وتعلقت به المنافع الكلية وصار المحور الذى تدور عليه المقاصد والمساعى ، فيرتفع قدره ويعلو مكانه . واذا ارتفع قدر الوطن فذلك يعود بالشرف والعز على ساكنيه ، لأنه لا حقيقة له الا بهم وفيهم ، ولا رفعة فيه الا منهم ولهم ؛ فهم اياه وهو لفظ وجودهم معناه (...) .

تقرر فيما سلف أن لابد لذوى الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا ، وأن الوطن انما هو خير وجوه الوحدة لامتناع الخلاف والنزاع فيه ، ونحن الآن مبينون بعون الله ماهية هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه . » (٥٤)

الوحدة الوطنية ، وفى قلبها الحرية :

« ان الحرية التى هى غاية الحياة السياسية ؛ والكمال المدنى لا تكمل ولا تحصل الا بالفضيلة . فان المملكة الحرة ان هى الا بلاد تجوز فيها أمور كثيرة محظورة على الناس فى بلد غير حر من مثل الاجتماع والخطابة والكتابة ، والغدو ؛ والرواح ؛ والادلاج ؛ واطلاق الارادة فى أهواء الأنفس المتعلقة بها بالذات وهلم جرا . (...)

---

(٥٣) أيضا فى خطابه عن الحرية ، المستوحى مباشرة من جان جاك روسو ، (**المرجع السابق** : ٤٦ ـ ٤٩)

(٥٤) « الحياة السياسية » ، **المرجع السابق** ، ٤٤٥ ـ ٤٥٥ .

تبيّن بالحجة النظرية والشاهد العلمى ان علم السياسة متصل بعلم الأخلاق ، غير أنه لا يلزم من ذلك الاتصال كون الفضيلة هى الغاية المقصودة بالذات من الحكومات • فالحكم لم يكن الا لحفظ الحق ، أما الفضيلة فهى واجبة على الأفراد • وغاية الدول العدل ولا عدل الا مع حرية الأمة • ولكن استعمال الحرية لا يخلو عن الضرر الا اذا اهتدى الوطـــنى فيه سبيلا مستقيما فعرف شأن أخيه واعترف بحى دولته ومواطنيه ولم ينس واجبات الوطن • فالسياسة من هذا الوجه محتاجة الى علم الأخلاق وان لم تكن مبنية على الفضيلة • (٥٥) » ان حبه المطلق للحرية يجعله يثنى فى تحفظ لا يكاد يبين على العدمية (٥٦) ويبدى اعجابه بالوضعية (٥٧) • أما موقفه من الحرية العملية فى مصر فيختلف عن ذلك • فقبل الثورة ، كان يحمل على زعيم الحزب المحافظ رياض باشا الذى منع صحف أديب اسحاق من الصدور (٥٨) ؛ ثم جعل من نفسه المتحدث بلسان الحزب الوطنى فى مواجهة « حزب أنصار التـــدخل (الأجنبى) » • ثم استجاب لتعويض من جمعية « **مصر الفتاة** » السرية وكان أحد قادتهـا مع النديم لوضـــع مبادىء الحزب الوطنى فى شكل برنامج على النحو التـــالى : « يريد أن يكون المصرى بحقـوقه ، ناهضا بواجباته ، وتريدونه بمنزلة الحيـــوان يساق للحدث ، وان عجز فللسلخ ، ويطلب أن يكون المواطن آمنـا فى داره ، مساويا لجاره يستغل زرعه ، ويستدر ضرعه ، وتلتمسون أن يكون غريبا فى آله ، مصادرا بماله ، يطعم من يحرمه ، ويؤمن من يروعه ، ويحفظ من يضيعه [•••] وكيف لا ! وهو حاجة النفس وأمنية القلب منذ

---

(٥٥) « السياسة والأخلاق » ، **المرجع السابق** ، ٤٥٦ ــ ٤٦٢ •

(٥٦) « فى العدمية » ، « الروســية والعدمية » ، **المرجع السابق** ، ١٥٩ ، ٣٤٨ ــ ٣٥٢ •

(٥٧) راجع دراسته عن اميل ليتريه **«Emil Littre»** ، **المرجع السابق** ، ٣١٧ ــ ٣٢٦ ودراسته عن الحاجة للموضوعية • « مجانية التعليم » ، **المرجع السابق** ٢٥٧ ــ ٢٦٠ • البرت حورانى ، الذى يمنح أديب اسحق مكانة ثانوية نسبيا ، يلخص اسهامه الفكرى على النحو التالى : « ان (فكرة) الأمة الشرقية التى استمرت على ما هى عليه بسبب الاحتقار الأوربى ومعارضة القوة الاوربية ، وفكرة الأمة العربية القائمة على الوحدة والشعور وفكرة الأمة العثمانية التى يوحدها قانون وسلطة مشتركة والارادة فى العيش معا ، والوطن . الوحدة الأرضية التى ينتمى اليها كل الذين يعيشون ضمن حدودة والذى ينظرون اليه نظرة الحب » **(Arabic Thought, 195-6).**

(٥٨) راجع خاصة « مجلس النواب المصرى » **الدرر** ، ١٥١ ــ ١٥٥ • وحول علاقاته مع السلطات المصرية أنذاك ، راجع حسنين مروة : « أديب اسحق » « **الثقافة الوطنية** » ، اكتوبر ــ نوفمبر ١٩٥٩ ، ٢ ــ ٤ ، ٥٩ ــ ٦٢ •

توجه الخاطر الى السياسة الوطنية وانصرف العزم الى احياء الهمم وانعقدت النية على حفظ الحقوق واتحدت الوجهة فى القيام بالواجبات · وهو النشأة التى كست الوطن رداء الفتوة قشيبا ، وهو البغية التى غرست للأمة غصن الأمل رطيبا ، وهو ما رجوناه زمانا ، ودافعنا الزمن فيه ، وتمنيناه أعواما ، وغالبنا الحدثان عليه · فياحسنه من يوم رد فائت البهاء ، واحيا فائت الرجاء ، وأعاد شباب الأمة وسدل ستور النعمة ، وأظهر مقاصد الأمير ، وأيد مساعى الوزير ، وقضى لبانات النبهاء ، وحقق أمانى النزهاء » (٥٩) ·

ولكن ما أن بدأت الثورة ، حتى انفصل عنها · وبعد الاحتلال وطد علاقته بمجد سلطان باشا السند الرئيسى ، مع الخديوى ، لقوات الاحتلال (٦٠) ·

واذا بالرجل الذى كان يشهر ب « البربرية الأوروبية » متهما اياها « بمنازعتنا الأرض المخضبة بدماء آبائنا وتنصيب نفسها حاكمة على بلادنا » ، رسول « **جماعة حلوان** » رئيس تحرير « **مصر** » ثم « **التجارة** » اللتين توقفنا عام ١٨٧٩ ، الرجل الذى جاهر بوطنيته في آخر مقال افتتاحى فى ١٣ فبراير ١٨٧٩ ـ كتب يقول « والتجارة تحسب حب الوطن دينا ، والمدافعة عنه جهادا · فان عاشت فيه فهى سعيدة ، وان ماتت فهى شهيدة، ولقد أتاها الله النعمتين وأتاح لها الحسنين فعاشت به وماتب عليه » ورئيس تحرير صحيفة « **القاهرة** » التى كانت بمثابة لسان الحزب الوطنى فى الخارج أثناء منفى باريس [١٨٨٠] ، هذا الرجل ضل طريقه في هذه الحركة الوطنية التى فرضت نفسها كحركة مصرية واتجهت الى الفلاحين الى الحد الذى جعله يلهب أنصار عرابى بقصائد أشبه بالسياط : « فهم اللصوص ، وان هم قد أوهموا أن ليس مما ارتكبوه غير جهاد مقدس » ·

لقد كان عبد اللطيف حمزة على حق اذن حين وصف هذا القول بأنه رأى رجل سورى عن ثورة عرابى (٦١) »

ونبلغ هنا مظهرا آخر أقل شهرة من مظاهر هذه التأثيرات التى تحدثنا عنها ، ألا وهو تطور نظرة الدولة الى الطابع الوطنى لمصر · الدولة ، أى الخديوى السابق اسماعيل والنواة القيادية للجيش · فبالنسبة لاسماعيل ، لم يكن منفاه فى نابولى نهاية المطاف ، فنحن نعلم أنه كان

---

(٥٩) « الحزب الوطنى بمصر » **الدور** ، ١٦٨ ـ ١٧١ ·

(٦٠) راجع رسالته الى محمد سلطان باشا ، بعد النفى فى عام ١٨٨٢ ، والقصيدة التى اهداها اليه بمناسبة العيد ومنحه وساما انكليزيا ، **المرجع السابق** ، ٨٠ ـ ٢ ·

(٦١) **ادب المقالة الصحفية** ، جـ ٢ ـ ١٢ ـ ٢ ،

يمول كثيرا من الصحف العربية وبخاصة « **النحلة** » التى كان يديرها لويس صابونجى [١٨٧٧] « **والخلافة** » التى صدرت فى نابولى عام ١٨٧٩ (٦٢) • صحيح أن الهدف كان مخادعة السلطان ؛ غير أن المشروع هذه المرة ، رغم خطته المصرية ، كان يمتزج بمفاهيم عربية : كان التصور أن امبراطورية محمد على ، التى كان ابراهيم يرجو أن يضفى عليها طابعا عربيا ، من الممكن أن تمتد الى امبراطورية جديدة يصبح خديوى مصر زعيمها الدنيوى وشريف مكة زعيمها الروحى بوصفه خليفة بالذات ـ الأمر الذى يقلص من نفوذ السلطان بصورة حاسمة •

ويبدو من المحقق رغم ما قاله عرابى بعد ذلك ان الخديوى السابق قد لعب دورا ايجابيا فى الاعداد للثورة عن طريق الصحافة فى الخارج كما رأينا ، وفي مصر نفسها أيضا حيث كان اسماعيل يمول «**فنار الاسكندرية**» وغيرها من الصحف (٦٣) • وأكثر ما يهمنا فى هذا الصدد هو التطور الفكرى عندالزعماء العسكريين • فعلى الرغم مما قام به أنيس صايغ من غربلة للتاريخ المصرى على ضوء العروبة ، الا أنه لم يستطع أن يغفل الطابع المصرى العميق للثورة • ان عبارة « الله ينصرك يا عرابى »! كانت تجرى على لسان الشعب ، وهى نفس العبارة التى توج بها « براودلى » كتابه الذى يدافع فيه عن عرابى • وبعد الهزيمة ، ارتفع الزعيم التعيس بين جنده الفلاحين الى أرقى مرتبة فى الامبراطورية العثمانية حيث أصبح يسمى « أفندينا عرابى » (٦٤) • ويشهد محمد عبده من سجنه فى رسالة الى براودلى يقول فيها :

---

(٦٢) حسب **W. S. Blunt** ، فان السفير الايرانى ، مالكوم خان ، ولويس صابونجى كانا وراء الافكار عن الخليفة كما عبر عنها The future of Islam وحول العلاقات بين اسماعيل ومختلف الأعمال تم القيام بها ضد الباب العالى ، راجع : **W. S. Blunt : Secret history, 66; A. Hourani** : Arabic thought, 269-70. وهذا الأخير ، حسب **A. Freemantle; Loyal enemy, London**, 1938, **47.** أن « مرما دوك بيكتال » ، اذ طاف نحو عام ١٨٩٠ فلسطين ، التقى فيها بمبعوث الخديوى عباس الثانى الذى مدح اقامة اخلافة عربية فى اطار تقليد الامبراطورية التى كان محمد على وابراهيم يحلمان بها ، وهو تقليد مستمر على امتداد تاريخ مصر الحديثة والمعاصرة • راجع حول هذه المسلة التى لم تدرس الا قليلا Ernest C. DaWn : «From Ottomanisme ; to Arabism ; the Origin of an ideology ; The Review of politics, **xxiii (1961)** No. 3, 378-400; وعنده ان الطهطاوى هو بادىء المنعطف ، كما ان « **تخليص الابريز** » **قد نشر فى ترجمة** تركية منذ عام ١٨٤٠ بسبب « اهتمامه بالجنسية بوصفها مبدأ سياسيا » •

(٦٣) **Cf. J. Ninet ; Arabi 25.**

(٦٤) المقصود بلقب السلطان نفسه •

« هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنيا صرفا ، بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ، فكان يتالق المسلمون والأقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانجليز ؟

(...) وحينئذ أصبحت وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرابى (...)

اننى لم أعلم أنه قيل : أن الخديو كان يحارب جيشه بل المعروف عند النـاس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره ، وقد رسخ هـذا الاعتقاد عندما علم الناس أنه أقال عرابى من منصبه لأنه لم يتمثل أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز اتقاء لنزول غزاة من البحر .

وفى أثناء ذلك طفق العلماء يقرأون البخارى فى الأزهر ومسجد سيدنا الحسين ويدعون بالنصر لعساكر عرابى والهزيمة للانجليز . وكان امام الخديو الشيخ الصالح العالم الابيارى فى طليعة الملتهبين غيرة ووطنية فنشر قصيدة ابراهيم دريد فى غارة التتار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى المعتصم ، وهى عبارة عن دعاء وابتهال ، وقد أضاف اليها أبياتا من نظمه ؛ فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة البخارى ، وقد طلب الى أن أنشرها فى الجريدة حتى يطلع عليها الجيش أيضا . وقد كان عمله هذا مشروعا ، اذ أن المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب اسلامية ضد الكفار . وعند رجوع الخديو الى مصر بعد انتهاء الحرب ، خطب هذا الشيخ حاثا الناس على طاعته ؟!

وقد تبرع الأمراء والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية - حتى النساء - بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحمية فى جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعة للجيش ولسائر الأشغال العسكرية .

وقد ارسل عثمان باشا غالب ؛ مدير أسيوط فى ذلك الزمن ورئيس شرطة العاصمة الآن بضعة ألوف من أرادب الحبوب من مديريته ما عدا الخيول وغيرها من الحيوانات ، وقام بأمر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء وزارة الحربية ، وها هو ذا كما قلنا آنفا « رئيس بوليس العاصمة » بأمر الخديو ؟!

وهذا شأن خليل بك عفت الذى تعين مديرا بأمر وزير الحربية ، فاظهر غيرة ونشاطا استحق عليهما الشكر الجزيل فى الجريدة الرسمية ، وها هو ذا نراه الآن مدير المنيا بأمر الخديو ؟!

وقد بذل من أذكر أسماءهم فيما يلى أموالهم بسخاء فى سبيل الحرب أما مباشرة واما بواسطة دوائرهم ، وهم :

البرنس جميلة ... أخت الخديو وحرم المرحوم سعيد باشا .

خيرى باشا ... الامين الاول .

على باشا مبارك ... وزير الاشغال العمومية الآن .

يوسف باشا جددى .... أحد أعضاء لجنة التموين .

محمود بك ... كاتب (أو أمين) أسرار الخديو .

على حيدر باشا ... وزير المالية (الفعلى) .

وأسماء هؤلاء وردت فى أعداد الجريدة الرسمية . واذا كانت سجلات المديريات لا تزال موجودة فيمكن استقراء ما تبرع به كل واحد منهم بالتحديد .

وقد رأيت النـــاس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضـاهم واختيارهم ، متشوقين لمقاتلة الانكليز ، وقد شمل هذا الحماس الأقباط ، وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم . وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابى ، وفى أى اجتماع فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا . (٦٥) »

وينتهى أنيس صايغ الى النتيجة التالية : « كل ذلك يعنى أن العروبة لم تحتل أى موقع فى ثورة عرابى باشا . ان عرابى يردد عبارات « الأمة المصرية » و « الوطن المصرى » و « القومية المصرية » عشرات المرات فى مذكراته المنشورة دون أدنى ذكر للعروبة ؛ والمرة الوحيدة التى يذكر فيها عرابى العروبة ترد عندما يستخدم صفة « العروبة » للدلالة على تأجج المشاعر ، وذلك فى قوله « لقد تحركنا بدافع من الثورة الوطنية والحماس العربى المتقد لصيانة البلد وتحريره » (٦٦) » .

ومن الواضح أن هذه الصفة تعنى العادات العربية المعروفة عنـد الفلاحين . كان عرابى يوقع باسم « عرابى المصرى » (٦٧) . وكان يفخر كل

(٦٥) محمود الخفيف : **احمد عرابى الزعيم المفترى عليه** ، القاهرة ١٩٤٧، ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

(٦٦) فى **كشف الستار** ، الجزء الأول : ٢٦٢ .

(٦٧) « عرابى المصرى » ، راجع مقال التشهير غير الموقع « أحمد عرابى المصرى » ، **الهلال** ، ١٧ (١٩٠١) العدد ٩ ، ٩٨٢ ـ ٤٩٢ ، وهو نموذج عن موقف الصحافة السورية اللبنانية ذات النزعة البريطانية فى تلك الحقبة .

الفخر بمصريته كما يشير الى ذلك فى كتاباته · وكان يصف مصر بأنها « جنة الدنيا » (٦٨) ·

ويبدو أن عرابى تأثر تأثرا عميقا واضحا بالأفكار الثورية الشعبية (كوميونة باريس Commune de Paris) · وتشير الى ذلك صحيفة Le Temps فى عددها الصادر فى أول أغسطس ١٨٨٢ فتقول : « فى اجتماع اشتراكى عقد فى باريس فى ٣٠ يوليو ١٩٨٢ تحدث « كلوفيس هوج » عن اثنين من أنصار الكومونة » فى باريس قاما بتلقين عرابى مبادىء ثورة ١٨٧٩ · » ومن جهة أخرى كتب « جبريل شارل » فى «La Revue des Deux Mondes» ١٥ أغسطس ١٨٨٣ يقول : « كان من حوله (عرابى) أوروبيون ، وأخجل أن أقول فرنسيون فى خدمته من الدعائم القديمة للكوميونة ، مرتكبين خيانة فى حق بلادهم ، يؤكدون له أن فرنسا قد قررت من أجله ألا ترسل الى مصر الا مجرد السفن (٦٩) · » ونعلم من مصادر وثيقة أنه اذا كانت الجالية الفرنسية في مصر عام ١٨٧٢ تزيد بمقدار ٣٫٠٠٠ نسمة على الجالية الايطالية فان ذلك يرجع الى « هجرة عدد كبير من الفرنسيين على أثر اقامة قناة السويس وقيام الحرب الفرنسية الالمانية والكوميونة (٧٠) · وعلى ذلك فهناك تأثير فرنسى أكيد من نوع ثورى موضوعى أثر الى حد ما فى قلب ثورة مصر عام ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ · وهذه الحقيقة التى اعتاد الدارسون أن يلزموا الصمت حيالها تستحق الاهتمام ·

ان الصراع بين الدول الكبرى ، الذى أحسن تحليله عبد الرحيم مصطفى فى رسالته (٧١) ، كان له بالتأكيد دور حاسم يتجاوز حدود دراستنا · ولكن من الأوفق أن نشير الى تطور الماسونية وكذلك المحافل الأوروبية والمصرية ، طوال عهد اسماعيل وخلال الثورة أيضا ، وقد أضفت احدى الدراسات الحديثة على هذه الجمعيات أهمية زائدة حتى جعلت منها

---

(٦٨) أ· صايغ : **الفكرة العربية فى مصر** ، ٤٠ ــ ٤٢ ·

(٦٩) A. Bioves : Français et Anglais, 134-5.

(٧٠) P. Van Bemmelen : L'Egypt et l'Europe, i; ان الرؤية المفصلة عن الثورة ثم عن الاحتلال (الجزء الثانى : ٢٢٤ ــ ٣٩٣) لها قيمة شهادة تاريخية ربما كانت أشد قيمة من وجهة نظر تحليلية من رواية W. S. Blunt.

(٧١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، The domestic and foreign affairs of Egypt from 1876 to 1882; المنشور مع بعض التعديلات الطفيفة تحت عنوان **مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ الى ١٨٨٢** ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٢ ، راجع أيضا لمحمد مصطفى صفوت : **الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاؤه** ، الاسكندرية ١٩٥٢ ·

المحرك الرئيسى للثورة . ان الكاتب ، وهو ج. م لاندو ، يسلط الضوء مع ذلك على دور الأمير حليم باشا فى صراع السلطة ضد ابن أخيه اسماعيل وبعض المثقفين ، وبالذات الذين درسوا فى فرنسا ، فى كلية « سان سير » الحرب وفى المدرسة الفنية الهندسية والعائلات التركية الكبرى وبعض أوساط الازهر وبصفة أخص المحافل الماسونية . ومن الغريب أن نلاحظ أن قيادة الجيش ، رغم عدائها لاسماعيل ، تؤكد بلسان عرابى أن الجيش سيظل فى خدمة البلاد . وقد عبر عرابى فى مناسبات ثلاث بمجرد نفى اسماعيل عن رغبته فى تولية حليم باشا العرش الخديوى . أن عدم وجود أى تحليل للحركة الوطنية حتى وقت قريب ولمختلف القوى الاجتماعية ومختلف الايديولوجيات داخل هذه الحركة جعلت ج . م . لاندو يزعم أن « الاختيار الوحيد للفرق المنظمة فى مصر على عهد الخديو اسماعيل كان بين الماسونية والقوات المسلحة وكلتيهما تحت التأثير الأوروبى (٧٢) . » وهذا معناه النزول بالتاريخ الاجتماعى للفكر والأيديولوجية والحركات الاجتماعية الى مستوى قصص المغامرات والملاحم ..

أما تحليلات المدرسة الاشتراكية والماركسية المصرية خلال هذه الفترة الحديثة ، فانها تختلف من حيث القيمة (٧٣) . فالدور الأساسى الذى قام به الطهطاوى يتكرر ذكره كثيرا حتى أصبح كاللازمة الموسيقية (٧٤) ، كما أن ظهور الصيغ الجديدة جدد من فروض البحث . فسعد زهران ، الذى يعتبر الطهطاوى المنطق الأساسى نحو تكوين الأيديولوجية الوطنية وثورة ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ ، يقول بحق :

« ان الثورة الديمقراطية فى مصر ، على الرغم من أن أهدافها كانت ليبرالية أصيلة ، الا أنها غالبا ما عبرت عن نفسها فى صيغ وأشكال شرقية وغيبية ودينية . وأسباب ذلك تكمن فى سيادة الاقتصاد الزراعى مع تخلف الصناعة وضعف المدينة ازاء الريف ، وامتزاج حركة جانب هام من بقايا الاقطاع وكبار الملاك بحركة التجار والبرجوازية عموما مع

---

(٧٢) J.M. Landau : Secret societies, 161. ان العلاقات بين مختلف المحافل الماسونية والحركة الوطنية من « بونابرت » حتى سعد زغلول مدروسة جيدا فى أحمد زكى ابو شادى : **روح الماسونية واعمال الانسانية** ، القاهرة ١٩٢٦ .

(٧٣) والمقارنة مثلا بالتحليلات الاستشراقية الجديدة ل : Z. M. Quraishi التى لا تخلو من أهمية «Heritage of Egyptian nationalism 1798-1914», Islamic Culture, xl (1966), no 2, 57-77.

(٧٤) مثلا لدى حسين عبد العزيز : « حركة الفكر القومى فى مصر من حكم محمد على الى الحرب العالمية الثانية » ، **الطليعة** ، ٣ (١٩٦٧) العدد ١ ، ٩٦ ــ ١١١ ، الذى يلخص أفكار لويس عوض .

ضعف البرجوازية الناشئة وقصورها فى ميادين الاقتصاد والفكر ، الذى يلجئها - تاريخيا - الى تلمس أشكال وصيغ يقرها النظام الاجتماعى السائد من أجل هدم هذا النظام نفسه .

نضيف الى ذلك أن مصر الثائرة ، وهى تبحث عن حليف لها خارج الحدود ، لم تستطع أن تتبين آنذاك الا حركة شعوب الشرق المغلوب على أمره فى مواجهة الغرب المعتدى . ومن ثم نشأت فكرة الجامعة الاسلامية وكانت ذات مضـــمون تحريرى متقـدم ومبرأة من شـــبهة الطائفية أو مزالق التعصب (٧٥) » .

ويركز محمد أنيس على تحليل العناصر الأساسية المكونة للحركة الثورية : « وهذه القوة الجديدة تتألف من جناحين : جناح اقتصـادى يتمثل فى طبقة الملاك الزراعيين التى أصبحت فى أواخر القرن التاسع عشر طبقة واضحة المعالم وذات مصلحة رئيسية فى تثبيت الملكية الفردية والمشاركة فى الحكم - ثم هناك جناح فكرى أو جناح المثقفين (الجدد) الذى تحالف مع هذه الطبقة وباكتمال هذا التحالف بين الملاك الزراعيين المصريين والمثقفين الجدد يدخل المجتمع المصرى فى مرحلة الثورة العرابية » .

وهناك أربع مراحل فى هذه الثورة : الالتحام بين « مصر الفتاة » و « الحزب الوطنى » ؛ تحول الحركة السرية الى حركة سياسية وطنية ؛ تولى الحزب العسكرى القيادة ؛ وأخيرا انسحاب كبار ملاك الزراعيين من معسكر الثورة (٧٦) . ومضى التحليل قدما وبخطى أسرع تحت صدمة السويس فى ١٩٥٦ كما فى ١٩٦٧ : ولاح وكان زمن الصنياغات البراقة الخلابة فى داخل الأرض الوطنية كما فى خارجها قد ذهب الى غير رجعة ...

وظلت المؤامرة ماثلة فى كل مكان ، عام ١٨٨٢ ، وزادت وطأتهـــا تحت تأثير الاحتلال العسكرى ، ذلك الاحتلال الذى أظهر بصورة لا يمكن

---

(٧٥) سعد زهران : « التعاليم الليبرالية فى الثورة العربية » ، **المجلة** . جزء ٤ ، ١٩٦٥ العدد ١٠٨ ، ٧٩ - ٨٥ .

(٧٦) محمد أنيس : «الحركة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الأوربى - الثورة العرابية»، **الكاتب** ، (١٩٦٦) العدد ٦٠ ، ١٣ - ٢٥ . ودراسة مهمة لفتحى خليل : « الرافعى وثورة مصر الثالثة » ، **الطليعة** ، ٣ (١٩٦٩) العدد ٢ ، ٦٦ - ٧١ ، وهو تحليل منهج الرافعى ، المؤرخ الليبرالى ، الذى نقد القيادة العسكرية لثورة ١٨٨١ - ١٨٨٢ من قبل عرابى . اما البحث الأخير لرفعت السعيد : **الأساس الاجتماعى للثورة العرابية** ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٨ ، رغم عنوانه الطموح ، فانه يقتصر على وصف الوجه العاطفى لعرابى ، الضابط والفلاح .

تجنبها الكثير من مواقف التنكر والجفاء والتحول : سلطان باشا الذى مات خجلا بعد ذلك ، على مبارك ، أديب اسحاق ، عرابى نفسه ، ومحمد عبـــده ٠

ومن الجدير بالتأكيد أن الخيانة لم تجد أبدا أنصارا بين صـفوف البورجوازية القبطية الكبيرة ٠ فالدراسة الدقيقة للقوائم التى نشرت فى تلك الفترة تؤيد ذلك : ففى الوقت الذى كانت فيه الأمة تواجه خطر الموت ، كان أقباط مصر ــ وهم أقلية دينية وليست أقليــة وطنيـــة ــ يساندون الحركة الوطنية والثورة التى كانت تعبر عنها ، وقيادتها ٠ وفجأة وعلى الرغم من محاولات المحتل التى كانت تثمر فى بعض الأحيان ، ظهر الاجتماع الوطنى فى ثورة ١٩١٩ وتبلور بقوة فى مسيرة الأفكار المحركة الكبرى الخاصة بالاستقلال الوطنى والحرية ٠ نهض جيل جديد ، هو جيل الوطنيين الأشداء الذين يمثلهم أمير الآلاى محمد عبيد الذى استشهد فى ساحة الشرف بمعركة التل الكبير ، وعلى الروبى باشا الذى تولى قيادة الجيش بعد تخلى الخونة ، الوحيـــد الذى رفض أن يتفاهم مع السـلطات والمحامين البريطانيين ، ومن حولهم العديد من الأنصار ، وأخيرا وبالأخص النـــديم ، طوال الثورة ثم خلال العقـــد الذى غفت فيه مصر فى ظـل « كرومر » ٠

القسم الثالث : ظهور الحركة الفكرية الشعبية الثورية

جرت العادة على وصف السنوات العشر الأولى من الاحتلال البريطانى بأنها سنوات الأرهاق • فقد بدأ الارهاق عميقا وشاملا ، وتوالت مواقف التنكر ، وتجلت فى الخيانة التى تعرضت لها ثورة عرابى من قبل الكثيرين من الزعماء المدنيين — محمد سلطان ، عمر لطفى ؛ السيد الفقى ، ابراهيم أدهم — والعسكريين — على يوسف ، أحمد عبد الغفار ، عبد الرحمن حسن ، عبد الرازق نظمى (١) • غير أن بعض الدراسات الحديثة ، التى تتناول فى ذات الوقت التاريخ السياسى والدبلوماسى ، والتاريخ الاجتماعى ، وتطور الحركة الوطنية والدستورية ، والتاريخ الفكرى ، تسمح باستخلاص حقيقة هذه السنوات العسيرة التى انطوت فيها الحركة الوطنية ، المطعونة ، وعكفت على نفسها وكأنها تستجمع قواها • فقد كانت تلك هى الحقيقة فعلا : فالتاريخ التسجيلى التقليدى يحدد استئناف الحركة الوطنية بالفترة الواقعة بين سنوات ١٨٩٢ و ١٨٩٤ • وهذا يعنى أن فترة الانكسار لم تكن فترة موت وفناء •

ووسط الظروف العصبية ، وفى ليل الاحتلال الحالك ، الذى كان ، فى تلك المرحلة الأولى ، يطبق على البلاد بشكل خانق ، كان عبد الله النديم (١٨٤٣ — ١٨٩٦) يلوح كأسطورة (٢) • لقد تجمعت فى شخصه

---

(١) رسالة لعلى الحديدى :
Abd Allah Nadim, journalist, orator, and his contribution to the first national Egyptian movement (a literary and historical study), th. Ph. D., Univ. of London, 1959,
والمنشورة بالعربية بعد تعديلها تحت عنوان **عبد الله النديم ، كاتب الوطنية** المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٢ ، وهى أفضل عمل اجمالى عن النديم حتى هذا اليوم • قائمة بالشخصيات التى خانت ص ٣٠٦ وما بعدها ، وكذلك عرض أكثر تفصيلا فى أحمد شفيق : **مذكراتى فى نصف قرن** ، الجزء الأول (١٨٧٣ — ١٨٩٢) ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٣٤ • ان نظرية الانحطاط هى نظرية أحمد شفيق وعبد الرحمن الرافعى خاصة • وقد أنكرتها المدرسة الاشتراكية المصرية وعدد من المفكرين الغربيين حديثا •

(٢) بالنسبة للمسيرة ، راجع السيرة التى كتبها أحمد سمير كمدخل لعبد الفتاح النديم وامين هنديه : **سلافة النديم** ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية القاهرة ، ١٩١٤ ، ٣ — ٢٣ ، محمد عبد الوهاب صقر وفوزى سعيد شاهين : **عبد الله النديم** ، مكتبة الآداب ، القاهرة دون تاريخ ، محمد خلف الله : **عبد الله النديم ومذكراته السياسية** ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ١ — ٤٧ ، ع• الحديدى : **النديم** •

جميع الروافد : الفكر والعمل ، البلاغة والفاعلية ، الأصالة والعصرية ٠ أما اسهامه الرئيسى فى تكوين الايديولوجية الوطنية فى مصر ، فقد تمثل بصورة أساسية فى غرس النظريات والأفكار القومية ، التى كانت حتى ذلك الحين قاصرة على الصفوة ، كما رأينا ، بين جماهير الشعب العريضة فى المدن والقرى ؛ وقد جعلته عملية الغرس هذه يضفى على هذه النظريات وهذه الأفكار مضمونا شعبيا ، مشوبا بطابع مزدوج من الجذرية الراديكالية والرومانسية الثوريتين ٠ وفى سبيل تحقيق ذلك ، قام النديم بتحويل التركة الفكرية التى خلفتها الحركة الوطنية الى ما يمكن أن يصبح أيديولوجية وطنية حقيقية ، أى الى مجموعة من المفاهيم والأفكار والنظريات والرسائل والآراء ، الى طريقة معينة فى تصور العالم والأشياء والكائنات ، تتفق والنفسية الجماعية للجماهير العريضة لشعب بأسره ، فيتبناها بالتالى ، مما يعطى هذه المفاهيم ، وهذه الأيديولوجية ، الامكانية لأن تصبح وتعتبر وتعامل على أنها المرجع العام لكل المستويات وفى كل مجالات الحياة ، من الفردى الى الجماعى ، ومن الشخصى الى القومى (٣) ٠ وسنحاول أن نقوم بتحليل لمختلف عناصر هذه العملية من خلال ما حفلت به حياة النديم نفسها من ظروف متقلبة ٠

كان والده نجارا ثم خبازا فى الشرقية ، وقضى طفولته فى الاسكندرية على مقاعد أحد الكتاتيب ؛ ثم بجامع ابراهيم باشا حيث درس اللاهوت والفقه والمنطق ؛ وكان يتردد على الأوساط الأدبية ، الا أن اختلاطه كان أكثر بالأوساط المهنية فى أحياء الفقراء ٠ ثم عمل موظفا بالتليفونات بالقاهرة ، وبدأ يتردد على منتدى محمود سامى البارودى باشا ، أول شعراء عصره والقريب من عرابى ، حيث قابل نخبة من الأدباء (عبد الله فكرى باشا والسيد على أبو النصر ومحمود صفوت الساعاتى والشيخ أحمد الزرقانى ومحمد سعيد بك وعبد العزيز حافظ بك ، الخ ٠) ؛ ثم تتلمذ على العلامة الشيخ حمزة فتح الله فى الأزهر ؛ وبعد فصله من الادارة على أثر بعض مؤامرات القصر ، عمل معلما ثم تاجرا بالمنصورة حيث كان حانوته ملتقى للأدباء (٤) ؛ ثم عاد مرة أخرى الى الاسكندرية التى كانت عام ١٨٧٩ مسرحا لكثير من الأنشطة السياسية ٠

---

(٣) سنعالج مشكلة الأيديولوجية القومية فى الجزء السادس ٠

(٤) كما كانت أيضا منتديات حسن عبد الباسط ، تاجر الطيور ، والشيخ أحمد وهبى، صانع الطرابيش ، الخ ٠ راجع عبد اللطيف حمزة : **أدب المقالة الصحافية** ، الجزء الثانى :

وكما رأينا ، حمل معه الى الاسكندرية خبرة حياة متنوعة حافلة بالتجارب بالنسبة لذلك العصر · وبصفة خاصة ، معرفة مباشرة بالظروف الشعبية أتاحت له تأليف كتاب عن تاريخ مصر ، « **تاريخ مصر فى هذا العصر** » ، لم ينشر الا عام ١٩٥٦ وقد نشره محمد خلف الله (٥) ؛ وقد ظلت هذه الخبرة فيما بعد تغذي كتاباته وخطبه · لقد أثار انتباه النديم ما كانت تحويه صحافة الاسكندرية من أفكار ؛ حيث كانت المقارنة بين انحطاط مصر وقوة أوربا تشير باصبع الاتهام الى اسماعيل ، والفساد المالى والاستبداد ، بالاضافة الى أطمـــاع المستعمرين الأوروبيين · وقد اتجه النديم بطريقة غريزية ، توضح هذا التغيير ، وحرية تكوين الجمعيات؛ وهى الوجهة التى ظل ينادى بها دوما فيما بعد · وقد تولى صديقان له هما محمد أمين ومحمود واصف رئيس تحرير صحيفة « **العدل** » الحاقه بجمعية « مصر الفتاة » السرية التى تكونت لمحاربة اسماعيل على طريقة الجمعية التركية التى كانت تحمل نفس الاســم والتى أنشـأها مدحت باشا (٦) · ويشـــير محمد عبده الى أن أغلبية أعضائهـــا ينتمون الى الشعبية الاسرائيلية (٧) ؛ وكانت الجمعية تضم ، بصفة خاصة ، جميع الأسماء المعروفة التى كانت تحيط بالأفغانى (٨) · وفى أواخر عام ١٨٧٩ صدرت فى الاسكندرية صحيفة فرنسية أولا ، ثم عربية تحمل هذا الاسم ويرأســـها أديب اســـحاق ، وفى نفس الوقت تقريبـــا ، فى ســبتمبر عام ١٨٧٩ ، أصدرت هذه الجمعية السرية « **مشروع اصلاحات قام بتقديمه اتحاد الشباب المصرى الى صاحب السمو خديوى مصر توفيق الأول** » ؛ وأهم ما جاء فيه :

« (···) وفقا لرأى شاهد معاصر فان الاتحاد يرى أن ما تعانيه البلاد يرجع الى أربعة أسباب رئيسية (···) :

١ ــ تركز جميع السلطات فى يد شخص واحد ؛

---

(٥) المقصود على وجه الدقة الشديدة ، الجزء الثالث من ــ **كان ويكون** ــ ، (فالجزء الأول مؤلف من ٢٥٦ صفحة فقط ، والجزء الثانى كان قد ضاع) المنشور تحت عنوان : **عبد الله النديم ومذكراته السياسية** ·

(٦) حسب ع · حديدى : **النديم** ، ٨١ ؛ ويتحدث ج·م· « لاندو » عن وحى ايطالى (Secret Societies, 100).

(٧) محمد رشيد رضا : **تاريخ** ، الأستاذ الامام ، الجزء الأول ، ٧٥ ·

(٨) وخاصة أديب اسحق ، بســـليم النقاش ، نقولا توما ، النديم ، الخ ، راجع ، **المرجع السابق** ، الجزء الأول ، ٧٥ ·

٢ — عدم وجود قانون يحدد حقوق وواجبات الحاكمين والمحكومين ؛

٣ — افتقاد وجود العدالة الراسخة المنصفة ؛

٤ — قصور التعليم العام (٠٠٠) ٠

ومن المؤكد أن السبب الأول هو الذى يؤثر أكثر من غيره على مصير مصر » ٠ ويقول المشروع : « ما الذى يرجى من اصلاح حكومة يمنع رعاياها من المشاركة فى الأمور التى تهمهم ، حتى لو كانت وثيقة الارتبـــاط بهم ؟ (٠٠٠) ٠

ولهذا ، أخمد حب البلاد وأطفئت أنوار العدالة وقتلت كل بادرة فردية وتم تضييق الخناق على تفتح الأذهان ، ولم يتجرأ صوت على الجهر بتقديم المفاسد والمظـــالم التى ترتكب فى وضـح النهار (٠٠٠) ٠ ان الاتحاد وقد استعرض ما تكابده وتعانيه بلاده ، يشير الى الاصلاحات التى تبدو له كفيلة أكثر من غيرها بعلاجها ٠ ويرى أن أكثرها تأكيدا سيكون الفصل بين السلطات ٠ وهذا النظام يضمن الحصانة للحاكم ومشاركة الأمة بنشاط فى الشئون العـامة (٠٠٠) ٠ وينبغى الآن أن تقر القوانين النظامية المبادىء التالية : حصانة رئيس الدولة وتحديد واجباته ، تقسيم السلطات الى سلطة تنفيذية وسلطة نيابية وســلطة قضائية : مسئولية الوزراء أمام الخديوى والسلطة التشريعية ؛ مساواة جميع المصريين أمام القانون ؛ وأهليتهم لتولى جميع الوظائف والمهام العامة دون تمييز بسبب الأصل أو الدين ؛ المســاواة فى توزيع نفقات الدولة حســب القدرات المالية لكل شخص ؛ حصانة الحرية بمعنى أنه لا يجوز مقاضاة شــخص أو توقيفه أو اعتقاله أو نفيه الا فى الأحوال التى يحددها القانون وبالشكل الذى ينص عليه ؛ حرمة المســكن ، ما عدا فى الأحوال التى يحــددها القانون ؛ حرمة الملكية ، الا عند نزع الملكية للنفع العام المؤكد قانونا ، مع دفع تعويض ؛ حرية اقامة الشعائر وتوفير حماية عادلة لها ؛ حرية الصحافة والاجتماعات ؛ عدم جواز عزل قضاة المحاكم بصفة مؤقتة ؛ تكوين الجيش عن طريق التجنيد ؛ ضمان الديون وعدم الاخلال بالتزامات الدولة ازاء الدائنين ؛ لا تجنى أية ضريبة الا بمقتضى قانون ، ما عدا فى حالة رفض السلطة النيابية لما يلزم من أموال لخدمة الديون ؛ استقلال السلطة النيابية وتحديد اختصاصاتها ؛ حق رئيس الدولة فى حل مجلس النواب ، وأخيرا حرية الانتخابات (٠٠٠) ٠ »

ولما كان النديم ، فى ذلك الوقت ، لا يميل الى النشاط السرى ،

فقد ترك الجمعية وقام بتأسيس « **الجمعيـــة الخيرية الاسـلامية** » فى الاسكندرية (١٨ أبريل ١٨٧٩) (٩) ٠

وكان يهدف من وراء ذلك الى ايقاظ الرأى العام ، فان مهمة هذا النوع من الجمعيات أنه يوقظ روح الحرية فى ســائر البـلاد وبكافة الوسائل ٠ ومن واجب هذه الجمعيات أن تكون « مصبوغة بدم الغيرة الوطنية ، تمحو فتور الانسانية (٠٠٠) كالسيف يقلد للسطوة » ٠

وفى كلمته التى افتتح بها أول مدرسة لهذه الجمعية ، أعلن النديم « ان المدرسة تعلم الأطفال الأخوة فى الوطن وتبعدهم عن التعصب للدين أو العنصر وتنشئهم على الوطنية وحب الانسانية (٠٠٠) هذا الاحتفال سيكون تاريخا لبعث الأرواح العربية ونشأة الغيرة الشرقية (١٠) » ٠

كلام خطير يثير الشقاق بين المعتدلين والراديكاليين ٠ ثم عمل النديم مؤلفا مسرحيا : كتب مسرحيتين ـ « **الوطن** » و « **طالع التوفيق** » ـ ثم ـ « **العرب** » تخاطبان الخديوى الجديد ، وتخاطبان الشعب بالذات من خلال محاكمة ؛ والمسرحيتان تتضمنان نقدا عنيفا للآفات السياسية والاجتماعية ، والسيطرة الأجنبية على الحـكومة عن طريق الرقابة المـالية المسئولة عن تدهور الأوضاع فى مصر (١١) ـ مما أثار حنق رياض باشا ٠

وبتأسيس صحيفة « **التنكيت والتبكيت** » (٦ يونيو ١٨٨١) ، يفتتح النديم أهم مرحلة من مراحل عمله الصحفى بانشاء صحافة وطنية وثورية تتعارض مع طابع اللين والحلم الذى كان سائدا فى ذلك العصر ، وتدخل فى صراع مباشر مع الصحافة المعتدلة ، المتحالفة مع المحتل خلال الثورة وطوال الفترة الأخيرة من حياة النديم ٠

---

(٩) نص البرنامج فى
Edmond Plauchut : L'Egypte et l'occupation anglaise, Plon, Paris, 1889, 110-21.
وفيه حديث عن برنامج « الحزب الوطنى » الذى قدمه « اتحاد الشباب المصرى » ٠ ومع ذلك يؤكد ج٠م٠ « لاندو » قاطعا أن المقصود هو برنامج متميز للجمعية السرية « مصر الفتاة » (Parlements and Parties, 102). ، وهو خلط مألوف لدى هذا المؤلف ٠ ومن بين مؤسسى جمعية الاسكندرية نذكر : محمدأمين ، دكتور حسن سرى ، محمد شكرى ، الحاج محمد الكيال ، شيخ محى الدين النبهان ، محمود واصف ، شـيخ على ضيف ، حسين المصرى ، عبد المجيد عمر شـويط (« **التجارة** » ، ١٨٧٩/٤/١٩) ، مذكور فى ع٠ حديدى ، **نديم** ، ٨٥ رقم ١) ٠

(١٠) فى ع٠ حديدى ، **المرجع السابق** ، ٨٧ ٠

(١١) جرجى زيدان : تاريخ **آداب اللغة العربية** ، الجزء الرابع : ٨٠ ـ ٨٧ ٠

١

وكما هو واضح من العنوان ، كان أسلوب التناول شعبيا ، بل فكاهيا ٠ كانت المقالات والقصائد المكتوبة باللهجة العامية تؤثر على جمهور عريض ومع ذلك وفى ذات الوقت شن النديم هجوما عنيفا على مجموعة من المهاجرين السوريين اللبنانيين بزعامة أمين شميل ، الذى كان يقول بقصور اللغة العربية عن مواجهة متطلبات الحضارة الحديثة ، ويدعو الى استخدام وتبنى اللغات الأوروبية (١٢) ٠ وقد نشر النديم فى العدد الثانى أول مقال كبير له حول هذا الموضوع : «أيها الناطق بالضاد (٠٠٠) بم تستبدل لغتك وما لها مثيل ؟ والى من تتركها وأنت لها كفيل ؟ ٠٠٠ لبيك أيها الأخ الشقيق وان لم تحمل فى بطن واحد ، اللغة سر الحياة والحد الفاصل بين الانسان والبهيم ٠٠ فهى أنت ان كنت لا تدرى من أنت وهى وطنك ان لم تعرف ما الوطن (٠٠٠) أسمعك تقول اذا فقدت لغتى ، اعتضت عنها بأخرى ٠ أجل انك اعتضت عنها ، ولكن بما أضاع منك والوطنية والمعتقدات الدينية ؛ فانك لا تخاطب الا أجنبيا من البلاد مغايرا فى الجنسية وانت تعلم أن لمعانى الألفاظ تصورا لا يقوم بها مقابلها فى غيرها ٠٠٠ ومن أضاع وطنيته ومعتقداته وأفكاره فقد أضاع نفسه فاضاعة اللغة تسليم للذات (١٣) ٠ »

لقد كانت المعركة اللغوية ، فى ذلك العصر ، تجرى على جبهتين : الأولى بين العربية الفصحى واللغات الأجنبية (١٤) ؛ والثانية ، وبعد عدة سنوات بين الفصحى واللهجة الدارجة ٠

فى هذه المعركة الأولى ، كان النديم يكثر من استخدام اللهجة الدارجة ، يدافع عن اللغة العربية ضد المحقرين من شأنها ٠ ولم يكن ذلك الا بداية : فقد كان العرض الأساسى هو أثارة الفلاحين ودفعهم الى الثورة ٠ وتوالت المقالات والمحاضرات — فى دمياط والرحمانية ودسوق وزفتى والمنصورة وميت غمر بالذات — تهاجم بذخ الأغنياء والحكام واحتقارهم للفلاح ، « وهو صاحب الفضل عليك (الغنى) ؛ وانت لا تنظره

---

(١٢) حول أمين شميل ، راجع يوسف أسعد داغر : **مصادر الدراسة الأدبية** ، الجزء الثانى ٤٩٤ — ٦ ؛ ومع ذلك فشميل سينشر « **الحقوق** » ، أول مجلة حقوقية باللغة العربية فى عام ١٨٨٦ ٠

(١٣) « اضاعة اللغة تسليم للذات » ، **التنكيت والتبكيت** ، ١٩ — ٢١ ٠

(١٤) راجع الرسالة المفيدة لنفوسه زكريا : **عبد الله النديم بين الفصحى والعامية** ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ، ١٩٦٦ ، ١٣٢ — ١٦٥ ٠

الا بعين المقت ولا تعامله الا بيد الاهانة ولسان السب مستقبحا صورة عنونت بفلاح (١٥) » ٠

وكان النديم أول مدني ينضم الى الجمعية السرية للضباط ؛ واشترك في المظاهرة العسكرية التي جرت في ميدان عابدين بقيادة عرابي في التاسع من سبتمبر ١٨٨١ ، وألقى فيها خطبة شهيرة نادت بشرعية الثورة العسكرية في القرآن (١٦) ؛ وقد أعلن بنفسه : « واعلنت حب العسكر والتعويل عليهم ، وناديت بانضمام الجموع اليهم ٠٠٠ (١٧) » ويتطرف في مناسبات عديدة الى فكرة الحرية : « وليست الحرية تنبع من الشهوات البهيمية والأغراض الذاتية وانما هي معرفة الحقوق والواجبات والسير تحت لواء الانسانية بالتؤدة والسكينة (١٨) » ثم يربط بين هذه الحرية بوصفها مسؤولية اجتماعية وبين ضرورة قيام النظم النيابية في البلاد : «الشورى (١٩) هي غرس الأفكار في أرض التبادل ، وسقيها بماء الحرية وخدمتها بيد الاعتدال لتثبت العدل وتزهر الحق وتثمر العمران ٠٠٠

« التلميذ : وهل يحتمل الشعب اطلاق حرية الأفكار قبل أن يتدربوا على أعمال المجلس واستخدام هذه الحرية ؟

« النديم : نعم ٠٠٠ ولكن بعدم تسلط الطبقية على المجلس بل تشكيله من جميع الطبقات : نبهاء ومثقفين وأتراك وأغنياء وعلماء وعمال وأعيان (٢٠) ٠»

وبذل النديم نشاطا متواصلا في الخطابة ، وكان يجوب البلاد بصحبة عرابي : « أنا أخطب باسم الوطنية (٠٠٠) لقد مات زمن تحرير

---

(١٥) **التنكيت والتبكيت** ، ١٥٧ ، ١٥٩ ٢٠٢ ، ٢٠٨ ٠ وحول الخطيب ، راجع عبد الصبور مرزوق : **الخطابة السياسية في مصر من الاحتلال البريطاني الى اعلان الحماية** ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ٥٣ - ٧٢ ٠

(١٦) النص في الطبعة الأصلية لمذكرات أحمد عرابي : **كشف الستار** ، ٢٦٦ - ٢٦٧ ، ع٠ الحديدي : **نديم** ، ١٣١ - ١٤٦ ٠

(١٧) **تاريخ مصر** في م٠١٠ خلف الله : **مذكرات سياسية** ، ٥٦ ٠

(١٨) « الأعيان » « **التنكيت والتبكيت** » ١٩٨١/١٠/٩ ص ع٠ الحديدي : **النديم** ١٥٢ - ١٥٣ ٠

(١٩) الشورى : النظام التمثيلي ٠

(٢٠) « التنكيت والتبكيت » ١٨٨١/٩/١٨ في ع٠ الحديدي : **نديم** ، ١٥٧ - ١٥٨ ٠

التذاكر السرية لابعاد زيد ونفى عمرو وجاء زمن القوانين والأحكام الحقة ··· (٢١) » ·

وكانت المطالبة بالنظام الدستورى فى البلاد على أشدها على الرغم من عزل اسماعيل · وقد رأينا كيف أن عريضة ١٨٨١ ، التى وقع عليها ستة عشر الف من الأعيان ، تطالب الخديوى توفيق بتكوين مجلس للنواب ، فى عبارات تتجلى فيها الرغبة فى دفع عجلة المعقولية فى المجتمع المصرى ، فى الوقت الذى كانت البرجوازية المصرية الجديدة تثبت أقدامها : « ولما كان لا ينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية الا بالعدل والحرية حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله ، حرا فى أفكاره وأعماله ، مما فيه سعادته وحسن حاله ، وهذا لا يتأتى الابايجاد حكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ولا تتطرق اليها طوارق الفساد (···) (٢٢) » ·

وافتتحت الدورة الجديدة للمجلس فى ٢٦ ديسمبر · وكان خطاب توفيق يتسم بالحذر الشديد : « يجب على مجلس النواب أن يتفانى فى عمل الخير ويكرس نفسه تماما لدراسة المصالح العامة للبلاد ؛ وعليه أن يأخذ فىالاعتبار الالتزامات المترتبة على قانون التصفية والارتباطات الدولية الأخرى ، وألا يحيد أبدا عن أسلوب الاعتدال الحكيم بوجه خاص أثناء فترة التحول الحضارى والتقدم (···) » ·

قد تمثل أهم أعمال المجلس بلا نزاع فى مشروع الدستور ـ أو اللائحة الأساسية ـ التىوضعها شريف باشا تحت تأثير عرابى وزملائه وتم عرضها على المجلس فى الثانى من يناير ١٨٨٢ وهذه هى أهم بنودها ، وهى بنود « البرلمانيةبالمعنى الواسع » كما أورد « فان بيملين » Van Bemmelen : « طبقا لهذا المشروع تكون فترة المجلس أربع سنوات ويستمر أجتماعه بانتظام ثلاثة أشهر من ١٥ نوفمبر الى ١٥ فبراير · ويتمتع أعضاؤه بالحصانة ولا يمكن القبض عليهم الا بتصريح من المجلس ويتقاضون مكافأة سنوية تبلغ مئة جنيه مصرى أو ٢٫٦٠٠ فرنك · ويكون للنواب حق استجواب الحكومة ولفت نظرها بواسطة رئيسهم الى تصرفات الموظفين العموميين · كذلك فقد سن المشروع حق تقديم العرائض للمجلس وعهد اليه بوضع لائحة داخلية له · وفى مقابل

---

(٢١) فى **المرجع السابق** ، ١٦٠ ـ ١ · ان هذا المقطع يتنبأ بأحد الشعارات الأساسية للحركة الوطنية والديمقراطية المصرية حتى أيامنا ·

(٢٢) تلك رواية عرابى التى ذكرها عبد الرحمن الرافعى : **الثورة العرابية** ١٦٩ ـ ٦٧٠

ذلك لم يسمح له بحق الاقتراح البرلمانى • ويستطيع المجلس ، عن طريق لجنته التشريعية ، اقتراح التعديلات ولكن بصفة استشارية فقط• ولا يمكن تحصيل أية ضريبة جديدة قبل أن يتم التصويت عليها بواسطة المجلس ، ولكنه لا يستطيع المساس بالضرائب القائمة اذا أرادت الحكومة استيفاءها • والوزراء لا يكونون مسئولين فى البرلمان الا عن التصرفات التى تنال من حقوق المجلس • وأى قرار يتعلق بالمسئولية الوزارية يتم بأغلبية ثلاثة أرباع أعضاء البرلمان وبطريقة مناداة الأسماء وفى حالة قيام خلاف مستحكم بين الوزير والمجلس ، يمكن للخديوى أن يحل المجلس؛ ولكن يجب أن تجرى انتخابات جديدة خلال أربعة أشهر • واذا جاء رأى المجلس الجديد مؤيدا للقديم ، يتم الفصل فى الموضوع لصالح البرلمان •

ويقوم المجلس بمناقشة جميع القوانين التى تعرضها عليه الحكومة كما يقوم بالتصويت عليها ، ولكنه لا يبدى الا رأيه فى الميزانية ؛ أما جزية السلطان والدين العمومى (الأجنبى) وكذلك أية التزامات تترتب على قانون التصفية أو الاتفاقات الدولية فلا تدخل فى نطاق المناقشة البرلمانية »•

ولم يقتصر الأمر على ذلك : « فلم يوافق الأعيان على هذا المشروع أولا ، فلم يريدوا التخلى عن حق التصويت على الميزانية ؛ وزيادة على ذلك كانوا يريدون امتيازات أوسع ، كانوا يريدون دستورا على الطريقة الغربية ، برلمانا أوروبيا صحيحا • وفى ١٥ يناير قدم سلطان باشا رسميا الى شريف مشروعا مضادا من المجلس ، يتضمن الكثير من التعديلات الكبيرة للمشروع الوزارى • وهذه هى أهم هذه التعديلات : لا تكون مدة المجلس أربع سنوات بل خمس • واذا لم تكف دورة الثلاثة أشهر العادية لانهاء جميع الأعمال المعلقة ، يطلب المجلس ويحصل على تجديد من ١٥ الى ٣٠ يوما • واذا سجن النائب أو تعرض للملاحقة يمكن للمجلس أن يطلب (ويحصل على) اطلاق سراحه أو ايقاف الملاحقات خلال انعقاد الدورة • ولا يعين الخديوى رئيس المجلس الا من بين ثلاثة أعضاء يقترحهم المجلس وذلك لمدة المجلس الخمسية والوزير الذى يتم استجوابه يجب أن يمثل أمام المجلس ويجيب على الأسئلة أما شخصيا واما عن طريق موظف من وزارته • وتشمل المسئولية الوزارية كل تصرف فردى وكل قرار جماعى للوزراء وللمجلس حق الاقتراح ولكن لابداء الرأى فقط ؛ ويجب على مجلس الوزراء أن يأخذ فى الاعتبار الاقتراح الخاص بوضع قانون يعده له مجلس النواب • وحق التعديل ممنوح ولكنه لا يتجاوز مجرد ابداء الرأى ؛ وعلى الحكومة أن تقدم للمجلس مشروعها

والتعديلات المقترحة بواسطة اللجنة ٠ ولا يلتزم المجلس بتبنى أو رفض كل مشروع قانون بكامله ؛ بل يصوت عليه مادة مادة ٠ أما فيما يتعلق بالميزانية ، فيقوم المجلس بدراستها ومناقشتها ولا تعتبر سارية الا بعد تصويته عليها » ٠ ويضيف المشروع المضاد : «أن اللائحة التنظيمية يتولى المجلس تعديلها بالاتفاق مع مجلس الوزراء وأن تفسير أى غموض فى أى مادة أو جملة من اختصاص المجلس » ٠ وأخيرا قرر أن « كل اتفاقية أو عقد أو التزام تريد الحكومة ابرامه مع طرف ثالث لا يأخذ الصفة القانونية الا بتصويت المجلس عليه » ٠ وقد كان هذا الشرط الأخير ذا أهمية بالغة لمنع الحكومة من افلاس البلاد ، كما كان يحدث فى الماضى حينما كانت ترتبط بالالتزامات نحو تركيا (الجزية) ودول أوروبا ، ونحو رجال البنوك وغيرهم من الدائنين ، ونحو الموظفين أو الموردين الأجانب ٠ أما السخط الذى أبداه « م ٠ كولفان » على دستور مصرى يتجاوز الدستور الانجليزى والذى وصفه بأنه « ليس عمل برلمان وانما هو بمثابة « اتفاقية » ، هذا السخط كان فى غير موضعه ٠ فاذا كانت سلطات الحكومة الانجليزية أوسع فيما يتعلق بالشئون الخارجية والادارة المالية ، فلا يجب أن ننسى أن هذه السلطات لا تمثل خطرا بوجودها فى أيدى حكومة مثل حكومة لندن ؛ وأن الوزارة الانجليزية ليست أكثر من لجنة منبثقة من الأغلبية البرلمانية التى خولتها سلطة كاملة محددة ويمكنها لفت نظرها حينما تريد ٠ ومن جهة أخرى ، فان المشروع المضاد ظل دون الدساتير الأوروبية فيما يتعلق بالاقتراح والمسئولية المادية (التصويت بمناداة الأسماء وبأغلبية ثلاثة أرباع الاعضاء) ، والتعديل (القاصر على لجنة ما) والتحفظات المتعلقة بميزانية المصروفات الاجنبية والضرائب القائمة ٠ ولاح أن المشروع المضاد غير مقبول تماما فى نظر المراقبين والقناصل (٢٣) ٠ »

ذلك أن الحاجة الى التعقيل الاجتماعى كانت تفرض نفسها على البلاد ، خصوصا وأن السيطرة الأجنبية كانت تضيق الخناق من حولها بلا شفقة أو رحمة ٠ تشهد على ذلك جريدة «التايمس» بتاريخ ١٨٧٨/١٢/٥ حيث تقول « شىء لا يكاد يصدقه العقل ، ومع ذلك فهو حقيقة واقعة ٠ فمع وجود كل مراقبينا الأجانب ، وفى الوقت الذى كانت صحف لندن تحتفل فيه بنجاة مصر (تشكيل وزارة نوبار – « ويلسون ») فان

(٢٣) نص المشروع الدستورى والمشروع المضاد فى :
P. Van Bemmelen : L'Europe et l'Egypte, ii : 263-7.

نص خطاب توفيق فى :
Joseph Achkar : Le Khédivat d'Egypte, Impr. Firmin et Montours, Montpellier, 1912, 143-4.

فلاحيها الذين أخرجوا من ديارهم بسبب الفيضانات الأخيرة ، وجرفت المياه حيواناتهم ومنازلهم ، هؤلاء الفلاحين كان المسئولون الذين يلاحقونهم بسبب المتأخر عليهم من الضرائب (٢٤) • »

لقد أجمع غالبية المراقبين على الموقف الجاد الذى اتخذه المجلس (٢٥) ؛ ويلخص « فان بيملين » رأيهم فيقول : « أشاع بعض أعداء الحركة الوطنية أن الأعيان طالبوا رغما عنهم بما لا ترضاه مصر والخديوى وشريف ، وأنهم لم يتصرفوا على هذا النحو الا تحت تهديد عرابى • وهو ادعاء يثير السخرية حقا • فالسياسة الوطنية التى كانوا يستوحونها من (الحركة الوطنية) كانت حبيبة اليهم ولا يمكن أن تكون غير ذلك : ولم يكن فى وسعهم أن يرغبوا فى فعل ما يروق لأوروبا والخديوى وشريف • لقد كان عرابى والجيش سندهم وقد منحاهم الشجاعة التى كانت تنقصهم • وربما أجبرهم عرابى على فعل ما كانوا يتمنون فعله وما كانوا لا يتجرأون على فعله بعد • لكن هذا الافتراض تنفيه كل التقارير المعاصرة التى وضعت حول الحالة الفكرية العامة • كان هناك أقدام مرجعه الاعتقاد فى حسن طالع عرابى ، ولأن الملاحظ فى ذلك الوقت أن فرنسا وانجلترا اقتصرتا على الأقوال التى لا تعقبها الأفعال • لقد اتخذت كل من هاتين الدولتين موقفا محايدا من الاخرى ، بالاضافة الى أن احداهما كانت مشغولة فى تونس والأخرى فى أيرلندا ، لدرجة لا تستطيعان معها التفكير فى غزو مصر • كانت الصحف العربية تنشر وجهات النظر هذه فى جميع أنحاء البلاد (•••) • وكان عمل مجلس الأعيان المنتظم الهادىء احدى سمات فترة الهدوء التى سبقته المؤامرة الشركسية • وقد برهن هذا المجلس على جديته بعد حصوله على الدستور • ولم يكن أعضاؤه يتمتعون بأية ثقافة برلمانية ؛ غير أنهم كانوا يهتمون اهتماما جادا بمصالح البلاد • وقد حاولوا أن يعرفوا ويكافحوا الآفات والمساوىء والمظالم التى كانت تعانى منها الأمة (•••) •

ان البرلمان الأول لمصر والشرق ، البرلمان الوطنى لأمة تلقى غاية الهوان والاضطهاد على أيدى الأجنبى ، هذا البرلمان كان خطوة بالغة الأهمية فى التاريخ البرلمانى • وليس من المنطق أن نتصور أن هذا النظام البرلمانى قد استمر يحقق أفضل النتائج لشعب محروم منذ ألفى عام من

---

(٢٤) The Iimes, 5-12-1878.

(٢٥) The Times, 16-4-1879 . هذا هو رأى عدة مراقبين انجليز وأوروبيين خاصة :

Dicey, Colvin Malet Scotidis, Van Bemmelen, Râfé'î, Landau, etc.

استقلاله الوطنى وظل الاستبداد يحكمه طوال الحقبة المعروفة من تاريخه (٢٦) • »

كانت جماهير الفلاحين فى أسفل السلم الاجتماعى – الأعماق التى كان يحدثها عبد الله النديم • ولكى نستطيع أن نتصور الوضع يجب أن نقرأ المذكرات التى نشرت بعد أربعة وثمانين عاما ، أى فى عام ١٩٦٦ ، لواحد من القلائل الباقين على قيد الحياة ، من الفلاحين الثائرين فى ذلك العصر ؛ وهو الحاج عثمان شعيب : « البلاد لم تسكت: حدثت عدة حركات تمرد ، لكن السلاطين ، والملوك والانجليز قتلوهم • كم من الشباب ذهب بلا نتيجة (•••) • ثم جاء جمال • انتقم لعرابى ، وأخذ ثار الفلاحين ؛ وطرد السلطان والانجليز (•••) • شىء لا يعجبنى : صورة عرابى (•••) • أين يديه وطول قامته ؟ أين سيفه ؟ (٢٧) »

ان العبارات نفسها ، بغموضها وقوتها الصارخة تحيى أسلوب النديم المثير ، وهو يتجاوز كثيرا الاشارة السطحية لكاتب حديث استطاع مع ذلك أن يقول : « برلمان مصرى منبثق عن الحركة الوطنية وينجح فى توحيد عناصر متفرقة بل متعارضة الى هذا الحد ، كالشعب والخديوى والعسكريين والدستوريين والمثقفين والسياسيين ، كان هذا البرلمان يمثل حدثا من نوع جديد لا يمكن أن تخفى أهميته على الدول الكبرى صاحبة السيطرة المشتركة • » ثم يضيف بعد ذلك بقليل : « ان الدعم الذى قدمه الشعب نفسه لانقاذ مصر من الانجليز كان فى رأى العديد من المصادر المصرية والانجليزية ذا أهمية قصوى : فقد أضفى على الحرب طابع الدفاع الوطنى • وبينما كان شيوخ الأزهر والمفتى وشيخ الاسلام وبطريرك الأقباط وأعيان القاهرة منصرفين الى ادارة البلاد المدنية كان شيوخ البلاد والفلاحون يرسلون الى الجيش بالرجال ويمدونه بالمؤونة والجياد وغير ذلك من المدد الضرورى (٢٨) • »

وصدرت لائحة المجلس (٧ فبراير ١٨٨٢) ثم قانون الانتخاب (مارس ١٨٨٢) يتضمنان خلاصة مشروع شريف باشا (٢٩) ؛ وحق

---

(٢٦) P. Van Bemmelen : Eur. et Eg., ii : 282-7.

(٢٧) راجع « **الأهرام** » ، ص ١٩٦٦/٧ •

(٢٨) Aida Greiss : «La crise de 1882 et le mouvement Orâbi». Cahiers hist. ég., v (1953), no. 1, 47-74 (67-74),

(٢٩) يمكن متابعة التطور الدستورى بالتفصيل فى عبد الرحمن الرافعى : **الثورة العرابية** ١٦٩ – ٢٥٦ ، وقد نقل عنه Landau : Parliaments and parties, 28-40.
يجب أن تتم القراءة ضمن اطار الكتاب الجوهرى لأحمد عبد الرحيم مصطفى **مصر والمسألة المصرية** •

«التايمس» أن تكتب هذه السطور التى تمثل خير تكريم للثورة المصرية الوطنية : « ان التقدم الذى أحرزه عرابى (٠٠٠) من الاستبداد الى الحكومة البرلمانية يمكن أن يعتبر ثورة سلمية (٣٠) ٠ » ولقهر الرأى العام – وبالذات النديم وأقرانه – صدر قانون خاص للصحافة فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ يقضى « باخضاع صدور أى صحيفة بالحصول على اذن مسبق من الحكومة والكفالة (وبذلك يتضمن) خاصتين من نظام المنع الاحتياطى (٣١) ٠ »

ومع اقتراب الثورة ، غير النديم اسم صحيفته أخذا بنصيحة عرابى (٣٢) ؛ فصدر أول عدد من « الطائف » فى عشرين نوفمبر ١٨٨١ : « حيث أن الأمة صار لها مجلس نواب تعرف بها حقوقها ، كذلك صار لها جريدة تنشر فصائلها وتدفع ألسنة الأعداء عنها » (٣٣) ٠ وكانت الموضوعات الرئيسية لنشاط النديم الجديد ، قبيل الثورة ، هى الاستقلال والحرية والعدالة وذلك سواء فى مقالاته أو فى خطبه ٠ وقد توالت هذه الأخيرة فى جو ملتهب متأجج (٣٤) ٠ وظهرت تدريجيا شخصية النديم الذى خلع عليه تارة لقب « خطيب الثورة » ، وتارة أخرى «خطيب ثورة الشرق» . وفي ١٣ فبراير ١٨٨٢ ، دار نقاش حاد في أحد الاجتماعات التى نظمها الحزب الوطنى فى مقر « جمعية المقاصد الخيرية » بين النديم ومحمد عبده : ففى حين كان محمد عبده يهاجم الثورة والعنف ، وقد أدهشه أن يمجدها صفوة الأغنياء (٣٥) ، شن النديم حملة شعواء ضد قصر التصويت على المواطنين المتعلمين وحدهم ، كما كان يريد محمد عبده ، نظرا لأن الفلاحين هم أصحاب المصالح الحقيقية » ويمثلون الغالبية العظمى من الشعب (٣٦) ٠ ان المطالب

---

(٣٠) The Times, 3-3-1882.

(٣١) Mahmoud Fouad : Le régime de la presse en Egypt, Paris, 1912, 13-4 ، وخاصة Abdel-Meguid Sadek Ramadan : Evolution de la législation sur la presse en Egypte, Pairs, 38-50.

(٣٢) حسب ع٠ الحديدى : النديم ، ١٦٣ – ٤ ٠ لنذكر أن عباس العقاد منح النديم لقب « أمير المانشتات (عناوين الصحف) » ، آخر ساعة ، ١٩٥٧/٨/٢١ ٠

(٣٣) آخر مقال ، التنكيت والتبكيت ، ٣٠٦ ٠

(٣٤) « ان سكان القاهرة والاسكندرية المعروفين عادة بعدم اهتمامهم بالأحداث يدعمون عمل الجيش ٠ ويبرهنون الآن عن جرأة أكبر فى التعبير عن آرائهم » (« التايمس » ، ١٨٨١/٩/٢٧) ٠

(٣٥) نص فى محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ، الجزء الأول : ١٤٨ ٠

(٣٦) نصوص متعددة ولا سيما فى « الوقائع المصرية » ، ١٥ و ١٨٨٢/٢/٢٠ ، أ٠ عرابى : كشف الستار ، الجزء الأول : ١٢٣ ، سليم خليل النقاش مصر للمصريين القاهرة ، ١٨٨٤ ، الجزء الرابع : ٢٣٢ – ٢٣٣ ٠

الدستورية مغروسة فى قلب المطالب الشعبية ولا توجد فقط على مستوى الارستقراطية والأعيان (٣٧) ٠ وقد كتب مراسل « **التايمس** » فى القاهرة يقول : « أخبرنى صديق يجيد العربية أنه أحصى خلال صباح يوم واحد ، سبعا وعشرين مجموعة من الأشخاص يتناقشون فى السوق حول الميزانية أو الحكومة أو التدخل الأجنبى (٣٨) » ٠ كانت « **الطائف** » تتحدث باسم هذه الجماعات وتعتبر نفسها لسان حالها (٣٩) ٠ وفى ٥ مارس ١٨٨٢ ، طلب المجلس ، عن طريق رئيسه سلطان باشا ، من الحكومة اعتبار « **الطائف** » المتحدث الرسمى باسم المجلس ، وكانت « **الطائف** » كذلك فعلا قبيل الثورة (٤٠) ٠

وبقيت الموضوعات الرئيسية كما هى ، وأضيفت اليها موضوعات أخرى عديدة تتعلق باصلاح المجتمع : تنظيم مهنة المحاماة (٤١) ؛ البغاء ؛ المشروعات الكحولية والميسر (٤٢) ؛ ضرورة تشجيع الصناعات الوطنية باقامة الشركات الصناعية بالأسهم وانتقاد الأغنياء الذين يشجعون الصناعات الأجنبية (٤٣) ؛ تحسين حالة الموظفين والضباط (٤٤) ؛ تشجيع الفن المسرحى (٤٥) ؛ الدعوة الى انشاء الاتحادات التى تعمل على اقامة الجمعيات مثل «**جمعية التوفيق الخيرية القبطية**» (٤٦) ؛ محاربة الاستعباد (٤٧) ؛ نقد الموظفين الأوربيين الذين يحتكرون الوظائف الحكومية الكبرى (٤٨) ؛ الخ ٠ وقد شن النديم حملة بالغة القسوة ضد الخديوى السابق اسماعيل متهما اياه باستغلال الفلاحين بصورة مخجلة ، ثم بضرب الحركة الوطنية واتهام الفلاحين بالجهل وذلك فى صحيفة « **الفيجارو** » (٤٩) ٠ وكان المتظاهرون فى الاسكندرية يرفعون

---

(٣٧) سليم النقاش ، **المرجع السابق** ، ج ٤ ، ٢٣٢ ـ٢٣٣ ٠

(٣٨) The Times, 10-3-1882.

(٣٩) The Times, 1, 5, 18, 24-4-1882, 5-9-1882, etc.

(٤٠) سليم خليل النقاش : **مصر للمصريين** ، الجزء الرابع ، ٢٤٨ الذى يذكر «**الطائف**» بتاريخ ١٨٨٢/٤/٢٩ ٠

(٤١) « **الوقائع المصرية** » ، ١٨٨٢/١/٢٥ ٠

(٤٢) W.S. Blunt : Secret history, 164.

(٤٣) أ٠ الحديدى : **نديم** ، ١٨٢ ـ ١٨٣ ٠

(٤٤) س٠ك النقاش ٠ **مصر للمصريين** ١٨٠ ـ ٢١١ ٠

(٤٥) الحديدى : **نديم** ١٨٣ ـ ١٨٤ ٠

(٤٦) « **الوقائع المصرية** » ، ١٨٨٢/١/١١ ٠

(٤٧) The Times,5-4-1882.

(٤٨) The Times, 14-2-1882.

(٤٩) « مصر واسماعيل باشا » ، « **الطائف** » ٤/٢٩ و ١٩٨٢/٥/٥ ٠

شعارات النديم : «اللائحة مرفوضة !» «ردوا الأسطول !» (٥٠). وظهرت المقالات الافتتاحية الكثيرة متناولة موضوعات من الحياة الوطنية وتفند الاتهامات الخاصة بالتعصب الدينى (٥١) ٠ وأصبح اقامة نظام جمهورى فكرة شائعة فى الأوساط القيادية للحركة الوطنية (٥٢) ٠

وفى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ ، وفى الوقت الذى أعلن فيه الخديوى عصيان عرابى ، ثار النديم :

« يا أهل مصر ٠٠ ان الانجليز يقولون مصر هى حصن البلاد العربية ، من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين ، فهبوا للدفاع عن وطنكم ؛ وتقووا واحفظوا حصن البلاد الاسلامية ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ؛ لتحفظوا هذا الدين العظيم وتدفعوا عدوا يريد أن يدخل بالخيل والرجل فى بلد الله يريد أن يدخل الكعبة المشرفة ، عن طريق بلادكم ، وقد استعان على أغراضه بخديويكم الذى باع الأمة ارضاء للانجليز وجعل بلاد الاسلام مقابل حماية الانجليز له ٠٠٠ » ٠ (٥٣)

وبدلا من أن تؤدى دعوة النديم الى بث الفرقة بين الأقباط والمسلمين فقد أكدت وحدتهم ، وذلك بفضل وطنية بطريرك الأقباط وحفاوة شيوخ الأزهر (٥٤) ٠ واذا بتوفيق ، الخديوى الجديد ، يصبح مادة لحرب أعصاب من جانب « **الطائف** » ، التى أصدرت نشرة خاصة **باتهامه (٥٥) ٠ وفى ذات الوقت كان النديم يجتهد فى تدعيم ثقة الشعب فى الجيش الوطنى (٥٦) ، تدعيما لجبهة المعارك ٠ وفى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ ، نشرت صحافة استامبول بيان السلطان الذى يعلن فيه عصيان عرابى ٠ فأخذ النديم يشجع الزعيم المغلوب على أمره على المضى فى طريق المقاومة : « كيف تكون عاصيا وقد قدت الأمة تطلب الحرية ، ولم تكن وسيلتك فى ذلك حتى النهاية الا ما يقره القانون الانسانى والشرف العسكرى ، احترمت القانون ولم تفكر فى نفسك بل فى مصر ومستقبلها ؟**

---

(٥٠) W.S. Blunt Secret history, 344, 347.

(٥١) وخاصة مقال ١٨٨٢/٦/٢٩ فى « **الطائف** » ٠

(٥٢) ع٠ الحديدى : **النديم** ، ٢٠٣ ـ ٢٠٥ ٠

(٥٣) فى ع٠ الحديدى ، **المرجع السابق** ، ٢١١ ـ ٢١٣ ٠

(٥٤) A.M. Broadley : How we defendid Arabi and his friends, 232-3.

(٥٥) « فعل الخديوى » ، فى سليم خليل النقاش : **مصر للمصريين** : ١٧١ ـ ١٧٢ ؛ ع٠ الحديدى **نديم** ٢٢١ ؛ « **الطائف** » ، ١٤ و ١٨٨٢/٨/١٦ ٠

(٥٦) فى العديد من افتتاحيات « **الطائف** » ذكرها ع٠ الحديدى : **المرجع السابق** ، ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ٠ بعد التل الكبير صاح الشعب : الولس هزم عرابى ! ـ « الولس » ، أى الخيانة ٠

لقد عينتك الأمة قائدا لجيوشها لتدافع عنها من خطر المحتل ، وكان تعيينك شرعيا من السلطان والخديو ومجلس النواب واجماع الامة ، فكيف تكون عاصيا ؟ » (٥٧)

وباحتلال القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ تعرضت الحركة الوطنية لعمليات القمع ـ حوالى ٣٠ ألف سجين سياسى (٥٨) ـ التى استهلت ليل الاحتلال الطويل • أما النديم، الذى وضعت جائزة لمن يرشد عنه(٥٩) ، فقد بدأ يهيم في قرىمصر زمنا طويلا أمدنا عنه التاريخ ومازال بمادةللعديد من القصص التى تتأرجح بين الدقة العلمية والروايات المسلسلة (٦٠) • وما يطالعنا من خلال تلك السنوات التسع ومن خلال شخصية النديم هو نمط جديد من الرجال فى قلب الحركة الوطنية المصرية ، التى كانت قائمة حتى ذلك الحين كما رأينا على نفر من المثقفين والأعيان وموظفى الدولة وعلى الكوادر العسكرية وارستقراطية الأرض التى انصهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر داخل برجوازية الأرض الجديدة ـ الطبقة السياسية ـ التى تحتل مقدمة المسرح • اننا الآن أمام مثقف ـ صحفى يرفض الاعتراف بخطئه كما يرفض المنفى ، بل يختار أن يبحث بين جماهير الشعب نفسها التى لم يتوقف عن تحريضها ضد الاستبداد والاحتلال عن الحماية التى لم يقدمها له وطنه السليب ؛ وكذا فى الوقت نفسه عن مصادر واحتمالات تفكير جديدة • اننا اذن أمام اتجاه جديد داخل الجناح الثورى النضالى للحركة الوطنية المصرية وأيديولوجيتها ، ألا وهو اتجاه الشعبية الرومانسية الثورية ـ ذلك الاتجاه الذى ظل حتى أيامنا هذه يدفع أجيالا بأسرها من المناضلين الذين ينهضون لاسترداد كرامة وهوية الشعب والأمة فى ليالى السرية بين المطاردة والاشراق •

لقد بدأ البحث عنه فى كل مكان : فى ايطاليا بين بدو الصحراء ؛ وفى حماية الدول الكبرى ؛ وفى تركيا التى تقول الأسطورة الشعبية أن السلطان استقبله فيها وأراد أن يكرمه فصاح قائلا : « أنا أحب أن السلطان يبعث معى عساكر لمصر ومراكب ليخلص لنا البلاد من أيدى الانجليزى » (٦١) •

---

(٥٧) النص فى ع• الحديدى : **نديم** ، ٢٤١ •

(٥٨) وهو رقم ذكره وعرابى نفسه فى مذكراته الاصلية المخطوطة ، وذكره عبد الرحمن الرافعى : **الثورة العرابية** ، ٤٦٢ •

(٥٩) خمسة آلاف جنيه مصرى لمن يرشد عنه . وألف جنيه مصرى لمن يرشد عن خادمه (عبد الله النديم : **سلافة النديم** ، ج ١ : ١٣) •

(٦٠) ملخص براق فى ع• الحديدى : **النديم** ، ٢٤٣ ـ ٣١٤ •

(٦١) عبد الله النديم : **كان ويكون** ، جزء أول ، ٥٦ ـ ٥٧

وقيل حتى فى باريس (٦٢) • والواقع أن النديم وهو فى مخبأه الريفى قد أخذ على عاتقه مواصلة العمل وبدأ في تحرير كتابه «**كان ويكون**» فى ٨ مارس ١٨٨٣ (٦٣) حيث أراد أن يكتب تاريخ الحركة الوطنية منذ سعيد حتى محاكمة زعماء الثورة وهو مضمون الجزء الذى جاء فى الكتاب المعنون « **تاريخ مصر هذا العصر** » ذلك الجزء الذى تم العثور عليه ونشره فقط عام ١٩٥٦ (٦٤) • فيه نجد بعض الموضوعات المألوفة والكثير من الاشارات الهامة : « لا تقولوا هذا عربى وهذا تركى وهذا جركسى فكلمة الوطنية تجمعنا ووحدة الدين تنادى بيننا بالاتحاد ومنع التخاذل المضر بنـــا (٦٥) • »

كان انتاج سنوات الاختفاء [١٨٨٢ ـ ١٨٩٢] غزيرا : عدد كبير من الرسائل الأدبية المطولة لاصدقائه ، سلسلة من الرسائل الى عرابى المنفى فى سيلان وكتابه « **كان ويكون** » ؛ نحـو عشرين كتابا وكتيبا فى موضوعات مختلفة ، فقدت كلها ؛ كتاب عن احدى الطوائف الدينية فقد أيضا (٦٦) • وأسلمته الوحدة الى الزواج • وظل فكره مشدودا نحـو حرية مصر التى تغنى بها فى قصائد عديدة :

« أأنسى يوم مصر والبلايا •• تطاردنى ولا ألقى معينا ؟ (٦٧) »
وناشد زعماء الثورة لوضع حد لخلافاتهم خوفا من رجوعهم الى مصر منقسمين على هذا النحو : « ساءت بكم الظنون ومالت عنكم القلوب والعيون وصرتم عرضة للدسائس ومرجعا لأهل الخسائس ؛ وذكركم المؤرخون بالنقائص وجردوكم من الفضل والخصائص وأنكرت أوروبا دعوتكم الوطنية وتبجح عدوكم بنسبة الهمجية وأعيذكم وكل آية من وصـــولكم لهذه الغاية ؛ فائتلفوا قبل الاياب واقتلوا الضغائن بالعتاب • (٦٨) » •

---

(٦٢) سليم النقاش فى أحمد أمين : **زعماء الاصلاح** ، ٢٣٢ •

(٦٣) هو كتاب بثلاثة مجلدات لم يعثر الا على جزء من المجلد الأول (٢٥٦ صفحة) طبع فى القاهرة فى المطبعة المحروسة فى عام ١٨٩٢ •

(٦٤) من المؤسف أن جهد محمد أحمد خلف الله مازال شـــبه مجهول • والواقع ان شخصية النديم الكبرى لم تظهر بشكل جماهيرى ورسمى واضح الا منذ ١٩٥٦ ، بفضل الثورة •

(٦٥) م•أ• خلف الله : **النديم ومذكراته** ، ١٩ : ١٢٤

(٦٦) راجع قوائم كتب المراجع فى أعمال تلك الحقبة فى ع• الحديـــدى : **نديم** ، ٣٩٧ ـ ٣٩٨ •

(٦٧) فى **المرجع السابق** ، ٢٨٢ ـ ٢٨٤ •

(٦٨) نص هذه الرسالة الهامة موجود فى **المرجع السابق** : ٣٠٩ ـ ٣١١ •

وتم القبض على النديم ونفى الى يافا [١٥ أكتوبر ١٨٩١] • وصدر عنه العفو فى ٣ فبراير ١٨٩٢ ، وعاد الى مصر فى ٩ مايو •

كانت مصر التى عاد اليها هى مصر الخاضعة المستسلمه لقبضة « كرومر » الحديدية • وأخذ النديم يهيم فى المدن والقرى بحثا عن الوطن الملتهب الذى سبق أن عرفه : « ودينى الذى عليه فطرت ومذهبى الذى أميل اليه هو تحرير العباد واصلاح البلاد (٦٩) »

وجمع فى منزل لطيف سليم باشا مجموعة من الشباب الوطنى المثقف من بينهم مصطفى كامل وزملائه فى مدرسة الحقوق مؤسس **الحزب الوطنى** فى المستقبل (٧٠) • ولقى النديم ترحيبا لدى الخديوى الجديد عباس الثانى ، الذى كان يحاول جمع الحزب الوطنى من حوله لمناهضة الانجليز (٧١) ، ومن الطبيعى أن هذه المحاولة لم تستمر طويلا الا أن علاقات الصداقة بين الرجلين كانت وطيدة (٧٢) •

واعتماده على قوة تصميمه وعلى هذه الدعائم ، قرر النديم استئناف المعركة ؛ فأصدر صحيفة جديدة هى « **الأستاذ** » فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ وقد استخدم فيها ثلاثة مستويات من الكتابة : العربية الفصحى للمقالات العلمية والوطنية ذات المستوى الرفيع التى تخاطب خاصة المثقفين (٧٣) ؛ ثم اللهجة الدارجة التى كان يستعملها فى كتابة بعض المقالات وبخاصة المحاورات مع أفراد الشعب ، وكان هذا النوع من الكتابة يمثل مدرسة شعبية حقيقية تتناول بالنقد والتحليل الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية فى ذلك العصر تحت السيطرة الامبريالية ؛ وأخيرا كان يستخدم لغة عربية مبسطة ، قريبة من العامية ؛ يسوغ فيها الدروس والمقالات والمحاورات المخصصة للتلاميذ من الجنسين :

---

(٦٩) **تاريخ** مصر ، ٩٤ ، فى الحديدى : **المرجع السابق** : ٣١٧ •

(٧٠) عبد الرحمن الرافعى : **مصطفى كامل : بعث الحركة الوطنية** ، مكتبة النهضة المصرية ، **الطبعة الثالثة** ــ القاهرة ، ١٩٥٠ ص ٢٧ ــ ٣٥ : جمال الدين الشيال : « عبد الله النديم » ، **الكاتب** ، الجزء الرابع ، سنة (١٩٤٩) رقم ١ • ٧٨ ــ ٩١ •

(٧١) ان أعمال وكتابات « بلانت » ، وعبد الرحمن الرافعى ، وأحمد شفيق « وكرومر » ومصطفى كامل ، الخ تؤكد ذلك • وقد تحدثت مذكرات عباس الثانى ، المنشورة جزئيا منذ عهد قريب فى «**المصرى**» (ابريل ــ مايو ١٩٥١) مأساة تمزق هذا الملك الشاب الذى كان يريد آنئذ ان يواصل عهد محمد على واسماعيل •

(٧٢) كما يشهد على ذلك ولى الدين يكن : **المعلوم والمجهول** ، الجزء الأول ، مطبعة الشعب ، القاهرة ١٩٠٩ ، ١٨ ــ ٢٠ •

(٧٣) والذى تمنى حب رشيد رضا ، متابعة عمل «**العروة الوثقى**» (المنار ، ج ٢ : ٣٣٩ ــ ٤٠) •

« وانما التزمنا هذه الطريقة لميل النفوس اليها وليرى كل قسم من العلماء والأدباء والعقلاء والعوام ما يحبه ويرضاه ، فما القصد الا أن تكون الخدمة عامة ينتفع بها الخاص والعام ، ومن تأمل هذا المشرب وجده دقيقا مفيدا (٧٤) · »

كان الهدف بالتحديد هو تجميع الأمة بأسرها فى جبهة واحدة : الجبهة الوطنية فيما بعد ضد الامبريالية · وهنا أيضا يعتبر النديم مجددا تجديدا عميقا ؛ الا أن عمله كان امتدادا أصيلا لرسالة الطهطاوى وعمله·

ومما يدعو الى الدهشة فعلا أن نجد الكثير من أفكار الطهطاوى عند النديم · ففى سلسلة من المقالات عن « الاقتصاد الشرقى » يعرض النديم المشكلة بطريقة نقدية :

« أن المحسنات المعيشية تالفها النفس ولكن الاسراف فيها والتهالك عليها يقتل الصناعة المحلية ويزيد فى نفقات الحياة فتضيع الثروة القومية وتذهب الى يد الأجنبى وتموت الصناعات الوطنية ويكثر المتطلعون (٧٥)·»

فالتعليم والمصانع فى نظره هى عماد الحياة الوطنية ، لأن « التهور والثورة مع الجهل والفراغ من المعدات لا يفيدان الا الخذلان (٧٦) (···) لأنا اذا أقللنا من المدارس أو قصرنا التعليم على أفراد معلومة أو طبقة دون أخرى فقد رجعنا بالمدنية القهقرى (٧٧) » ·

وكانت مشكلة « الحياة الوطنية » والاستعمار والثورة شغله الشاغل منذ العهد الرومانى حتى العصر الذى كان يكتب فيه ؛ وقد توصل الى قراره النهائى ، ألا وهو أنه لا توجد ثورة مظفرة ما لم يكن أساسها التعليم والتصنيع وغرس الروح الوطنية فى قلب الشعب :

« وما نجحت ثورة تجردت جماهيرها من المعارف وبعدت عن المصانع والتفنن فى الآلات واندفعت خلف الأهواء (٧٨) · » كان النديم يطالب من المصريين بالاختلاط بالأجانب ، « حتى ولو كانوا قاهرين فان المصرى سيتعلم من هذا القهر تكوين العصبية واحياء الوطنية (٧٩) · »

---

(٧٤) « الأستاذ » ، ٥٠ ·

(٧٥) المرجع السابق ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٨١ ، ٨٢ ·

(٧٦) المرجع السابق ، ٢٨ ، ٣٢

(٧٧) المرجع السابق ، ٤٠ ·

(٧٨) مذكور فى ع· الحديدى نديم ، ٣٣٦ — ٣٣٧ ·

(٧٩) « الأستاذ » ، ٤٠·

الاحياء ـ لأن النديم كان واعيا تماما بنهضة مصر العلمية والصناعية والثقافية فى أوائل القرن التاسع عشر (٨٠) ٠ وفي ذلك الوقت شن النديم معركته القوية الثانية وكانت تلك المرة بين الفصحى والعامية ٠ وكان هدفه فى ذات الوقت أن يوصل صوته لجميع القطاعات فى البلاد ودعم أولوية اللغة العربية ، أى الفصحى ، ضد محاولات بعض المهاجرين السوريين اللبنانيين المتحمسين لآراء « وليام ويلكوكس » حول ضرورة تعميم اللغة العامية (٨١) ٠ وقد أيدته أبحاث كثيرة فكرته عن الضرورة الحيوية لدعم اللغة الفصحى كلغة قومية مصرية ، مع استخدام العامية فى ذات الوقت كأداة للثقافة الشعبية والتحريك السياسى للجماهير (٨٢) ٠ وتحقيقا لهذا الهدف أطلق النديم نداءه لانشاء « **معهد للغة العربية** » (١١ أكتوبر ١٨٩٢ (٨٣) ٠

واذا بهذه الدعوة التى أضيفت الى دعوات أخرى سابقة من كل من أحمد فارس الشدياق (١٨٦٠) والطهطاوى وعبد الله فكرى (١٨٧٦) تسفر عن انشاء اللبنة الأولى للمعهد بواسطة محمد توفيق البكرى(١٨٩٢ـ١٨٩٣) (٨٤) ٠ « واذا حولنا طريقة التعليم باللغة الوطنية الى التدريس باللغات الأجنبية أمتنا قوميتنا وجنسيتنا ودينننا وأصبحنا أجانب بين قومنا (٨٥) ٠ »

---

(٨٠) « **الأستاذ** » ، ٣٤ ـ ٤٠

(٨١) راجع ن٠ زكريا : **النديم بين الفصحى والعامية** ، ١٦٥ ـ ٢٢١٠٠ ويستلم **W. Willcoks** ادارة « **مجلة الأزهر** » فى يناير ١٨٩٣ ويجعل منها صحيفة أفكاره عن اللهجة العامية (راجع الخطاب البرنامجى فى « **مجلة الأزهر** » ، ٦ ، العدد ١ ، ١٨٩٣/١/١ ، ١ ـ ١٠) ووجدت أفكار النديم صدى واسعا حتى فى الصحافة السورية واللبنانية فى مصر (راجع « اللغة العربية الفصحى واللغة العامية » ، **الهلال** ، ١ ، ١٨٩٣ ، العدد ٦ ، ٢٥٦ ـ ٢٦٠ ، بين مراجع أخرى) ٠

(٨٢) حول مجمل هذه المسألة راجع ن٠ زكريا : **النديم بين الفصحى والعامية** ، ١٦٥ ـ ٢٢١ ٠

(٨٣) « اللغة والانشاء » ، « **الأستاذ** » ص ١٨٠ ، أيضا : «مجمع اللغة العربية بمصر» « **الأستاذ** » ، ٢٧٤ ٠

(٨٤) وأعضاؤهم بالشيخ الشنقيطى الكبير ، الشيخ محمد عبده ، الشيخ حمزة فتح الله ، الشيخ حسن الطويل ، حفنى ناصف ، محمد بيرم ، محمد المويلحى ، محمد عثمان جلال ، محمد كمال (ن٠ زكريا : **النديم بين الفصحى والعامية** ، ١٩١) ٠

(٨٥) « **الأستاذ** » ، ١٤ ٠

وكانت مهمة المثقفين والوطنيين المصريين هى احياء اللغة العربية :

« التى لفت الدينا ودخلت كل دولة بعلومها وفنونها (٨٦) » ٠

ولتحريك العقول كان لابد أيضا من تخليص الدين الاسلامى من أساليب المشعوذين الذين يتسترون وراء الصوفية (٨٧) ٠ ولكن وحدة الأمة مهددة بسبب أعمال البعثات التبشيرية الأجنبية التى تشجع الفرقة بين المصريين (٨٨) وتتهم فى ذات الوقت زورا وبهتانا بالتعصب الدينى (٨٩) ٠

وتبقى مصر ، وطن المصريين تابعة للامبراطورية العثمانية ٠ وهى اسلامية على وجه الخصوص : الا أن النديم لا يثير كثيرا هذا الجانب من الوجود الوطنى :

« هذه يدى فى يد من أضعها ؟

ضعها فى يد وطنك ، واعقدا خنصريكما على محبة أمير البلاد (٩٠) »

لكنه سرعان ما يعود الى الفكرة الأساسية فكرة « مصر المصرية » ، فيدعو الأقباط والمسلمين الى أن يقوموا معا بانشاء رابطة مصرية لدراسة فكرة الوطن وخصائصه والسلطات التى يتضمنها (٩١) ٠ وفى تعليله لأخوة الاقباط والمسلمين ، يضع فى المقام الأول الاعتبارات التاريخية والاجتماعية واضعا الدين فى المقام الثانى :

« وأقرب الأماكن الينا مصر التى نحن فيها ، فانها بلاد اسلامية مختلطة بقليل من الأقباط الذين تجذبهم الجنسية الى كثير ممن تولدوا ممن أسلم من سابقيهم وتدفعهم الوطنية الى التلاصق بالمجموع بجاذبية الوطنية والألفة وطول المعاشرة (٩٢)٠ »

---

(٨٦) « **الأستاذ** » ، ١٩ ٠

(٨٧) « الطرق وما فيها من البدع » ، « الطرق واصلاحها » **الأستاذ** : ١١ و ١٨٩٣/٤/٢٥ ٠ واللهجة هى على كل حال أقل سخرية مما هى عند عبده ٠

(٨٨) « فنرى المصرى والسورى والتركى والعراقى الذين تعلموا من بادىء أمرهم على أساتذة الفرير والبروتستانت والجزويت صاروا قسما ثالثا بين الشرقيين والغربيين ، اللهجة شرقية والمساعى غربية » ٠

(هذا المقال هو من مرحلة « **التنكيت والتبكيت** » ، **فى سلافة النديم** ، جـ ١ : ١٠٨) ٠

(٨٩) « هذا عندكم فما مقابله عندنا ؟ » « **الأستاذ** » ، عبد اللطيف حمزة ٠ **أدب المقالة الصحفية** ، الجزء الثانى ، ١٦٦ ــ ١٦٨ ٠

(٩٠) عمر الدسوقى : **فى الأدب الحديث** ، جزء أول ، ٢٨٣ ٠

(٩١) « المسلمون والأقباط » ، « **الأستاذ** » ، ١٨٩٣/٣/٢١ ٠

(٩٢) مذكور فى : عمر الدسوقى : **فى الأدب الحديث** ، جـ ١ : ٢٨٣ ــ ٤ الذى يثنى على وطنية النديم ، وهو من رواد الاسلام السياسى ٠

ثم هناك المقال أو بالأحرى البحث الشهير «**لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا**»، يتضمن أفكار النديم فى مجموعها حول المسألة الوطنية . يبدأ البحث انطلاقا من بعض الاتهامات وحملات التوقيع من جانب أوروبا الاستعمارية. الا أن النديم سرعان ما يوضح أن الشقاق فى الشرق والعالم العربى يصيب الأمة المصرية فى الأعماق . الشقاق فى قلب الوطن – بين المسلمين والأقباط – وبين المصريين والسوريين فى مصر .

« (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا)

هى كلمة أوروبا التى ترددها على أسماع الشرقيين كلما فعلت فعلا يحملها عليه الاستعمار الملكى أو الانتشار الدينى وقد أحكمت التأليف بين القوتين الدينية والملكية فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد وقد أضاف كل ملك أوروبى الى عنوان الملك حماية الدين فيقول فى مخاطباته ملك أو امبراطور كذا وحامى الدين المسيحى أو عبارة أشد وقعا فى النفوس من هذه ليعلم الامم انه القابض على زمامى السياسة والدين فيؤيد رجال السياسة بتنفيذ ما يرونه من لوازم تأييد الملك وأتباعه ويساعد رجال الدين بما يبعث فيهم الغيرة على بثه والدعوة اليه فنرى رجال القوة ماشين على نسق واحد كل فيما فوض اليه لا تفتر لهم همة ولا ترقد لهم عين عن وظائفهم التى فيها حياة الدين والملك وزيادة شرف الامم . والامم لكونهم أدركوا ما قصده الملوك ورجال السياسة وخدمة الدين اندفعوا معهم اندفاع السيل فى المنحدرات فعقدوا الجمعيات الدينية والعلمية والصناعيةوالتجارية والزراعية والسياسية وأخذ كل فريق في احسان ما كلف به نفسه واوجبه عليه مجاراة جاره في الملك ومباراة نظيره فى العلم أو العمل ومسابقة غيره ممن قصدوا قصده فاشتغلوا بما اشتغل به . وقد بلغوا القصد فى بلادهم وخرجوا من بلادهم محمولين على قوتى الدين والملك سائرين على نور العلم والصناعة فدخلوا الاقطار الشرقية سائحين ومتجرين واستوطنوها مراقبين ومتغلبين وجرائدهم الكثيرة العدد برزت تتسابق فى ميادين الانشاء بمواضيع مبتكرة ومقالات مطولة وعبارات مزينة فاصبحت ناقلة للأخبار ناشرة للآداب معلمة للعلوم مؤيدة للمبادىء حاثة على المقاصد منشطة للهمم ومرشدة للأمم منبهة على الأغاليط محذرة من التقاعد والتكاسل والغفلة عن وثبة الجار أو معاكسة المتاخم ناشرة للفضائل مؤرخة لرجال الفضل والعمل حافظة لسير الملوك داعية أفراد الأمم الى ما فيه خير البلاد وتأييد الدين خادعة للشرقيين لاعبة بأفكار رجالهم خاتلة لعظمائهم مقبحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل لا حياة للأمم الا بما تأخذه عنه ولا مجد لمن لم ينم اليه ولا فضل لمن يتعلم فيه ولا شرف

لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته ويتقيد بعادته · هذه كليات تحتاج لبيان جزئياتها التى لا تحتاج لبرهان بعد ظهورها للعيان · قالت أوروبا أنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس وانكم فى حاجة الى مصنوعنا ولا تصلون اليه الا بعقد المعاهدات التجارية وبذا تمكنت من ادخال مصنوعها فى الشرق لتحول الثروة اليها فاماتت ما كان يصنعه الشرقيون وحجرت على ما لابد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها فما يصنع فى الهند والصين والعجم والاناطول وغيره انما ينفق ويباع على يد الاوروبى كما يباع وينفق مصنوع بلاده فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوروبا ويعظموا ثروتها ويؤيدوا قوتها الملكية بالايرادات المالية فلاحظ لهم فى الوجود ولا رغبة لهم فى الملك كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم عن مجاراة أهلها ومما زادهم بعدا عن الصناعة وثمراتها وجود دخلاء أجراء يزعمون أنهم نصحاء يثبطون الهمم ويرمونهم بالضعف ويوهمونهم عدم صلاح بلادهم للصناعة ويغرونهم بتعذر ذلك لتعذر المعدات والآلات وهم يعلمون أن كثيرا من الممالك التى لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير واحيت صناعتها الوطنية وحتمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها ومنعت دخول مصنوع الغير حفظا لثروة أهلها فهم بصرفهم الهمم بهذه الترهات يريدون بقاء الشرقى فى قبضة الغربى احتياجا اليه وترك الشرق ميدانا لمسابقة رجال أوربا فلا يجدون مصنوعا يعطل عليهم ولا معرضا عن صناعتهم فتبور · وضعفاء العقول يغترون بخداع هذا الدخيل ويظنون أنه من المخلصين فلا يتحركون لعمل من الأعمال لوقوعهم فى اليأس والقنوط بالمفتريات ورجال أوروبا تتعجب من تقاعدهم وتقول : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ·

قالت أوروبا ان وقوفكم عند عاداتكم الشرقية وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش فلابد من مجاراتنا فى حركتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة وفتحت لنا البير والخمارات والمقامر وأباحت الزنا والربا ووسعت دائرة اللهو والخسران فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف وانكب الاغبياء والمغفلون على الخمور فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم وفسدت عقائدهم وتحولوا الى المومسات فارتكبوا الاثم بارتكاب المحرم والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش وجعلها عرضة للأجنبى بعدم غيرتهم عليها فهم في رتبة القواد بل هم هم ومال فريق الى القمار فباع الغيط والدار واضطر لبيع حلى زوجته برضاها أو بسرقته منها والكل عطف على المرابين يقترض ويصرف فى الملاهى ومتلفات العقل والجسم والملك حتى أسكن الاوروبى مكانه وصار له خادما بعد أن كان عظيما محترما وكلما تهالك الشرقيون على الخمور والملاهى واصلت أوروبا رسائل الخمر وارتحل اليهم المومسات وأرباب الملاهى تحويلا للثروة وازهاقا

لروح الدين حتى أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها الى مقاصدها من الشرق وهى تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية وماهى الا التوحش والرجوع الى الحيوانية المحضة اذ لو كان الانغماس فى الملاهى ومفسدات العقل والدين من المدنية لما تحاشته أوروبا وعدت مرتكبه همجيا جاهلا مجنونا ولما وضعت القوانين الشديدة للمسكرات ومنع التلامذة منها ولما كتبت الرسائل العديدة فى ذم الخمر والفسوق وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين عن العبادة وحضور الكنائس وانما هذه اشراك وفخاخ تنصب فى طريق الشرقى حتى لا يخطو خطوة الا وقد وقع فى حبالة أوروبا . ولما رأت أوروبا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم ولا يعقلون مقاصد الدول ولا يدركون مكايد الملوك ولا يسعون فى صالح بلادهم ولا يحافظون على دينهم ولا يعرفون شرف لغاتهم ولا يحفظون كراسى ملوكهم ولا يهمهم ضياع أوطانهم اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء وهى تقول لهم : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا .

قالت أوروبا أن الشرق فى حاجة لتداخل أوروبا لاصلاح ادارته وماليته وتجارته وتهذيب أممه بالتعاليم الأوروبية وأجمع رجال أوربا على جعله قسما مقابلا لها وربطوا عزمهم على ضمه اليهم الجزء بعد الجزء والقطعة بعد القطعة على اتفاق معقود بين الدول هذا لى وهذا لك ثم تلووا فى الدخول فيه تلوى الأفعى وملكوا بعضه بالتجارة والبدل وبعضه بدعوى من حق دولة أو اهانة بواب قنصل أو حفظا لطريق مملكة . والداهية الدهياء أن ملوك الشرق وعظماءه ملأوا قلوب أممهم بالاوهام وخوفوهم من الأوروبى وأرهبوهم باسم اللورد والبارون والكونت والمركيز والجنرال والاميرال والسير والماجور حتى خيلوا لهم أن الاوروبى ملك يمكنه قلب المملكة أو جنى يقدر على حرقها فامتلأوا رعبا وخوفا ولبسوا ثوب ذل وهوان وذلك بسبب المعاملة التى يعاملونهم بها فى وقائعهم مع الأوروبين وقد اضطروا كثيرا من الوجهاء والنبهاء الذين ينتفع بهم الوطن والملك الى الاحتماء بالغير تفاديا من تلك المعاملة فكانوا أقوى يد للأوروبى فى تداخله واستيلائه على ممالكهم . فلو ربوا رجالهم على الحماسة ومرنوهم على الأعمال وبعثوا فيهم روح الحمية بالمحافظة على حقوقهم وترقيهم بحسب استعدادهم وساعدوهم على انتشار الصناعة والتجارة وهذبوهم بالادبيات وصانوهم من المفاسد العقلية وعلموهم العقائد الدينية وعودوهم على الشعائر الملية ونبهوهم بجرائد وطنية صادقة اللهجة صافية النية عارفة بما يقدمهم وينفعهم واوقفوهم على تواريخ آبائهم ومسابقات الدول فى بلادهم ودسائس أوروبا وحذروهم من رجال الفتن والاجراء الذين يخدمون أوروبا باسم المصلحة الشرقية لوجدوا أمامهم رجالا واى رجال ولكنهم أهملوا ممالكهم

وأهدروا حقوق رعاياهم فأصبح ملوك أوروبا يفخرون عليهم ويعيرونهم بما صاروا اليه من الضعف والاضمحلال ويقولون لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ٠

ولا لوم على الأوروبيين فى ذلك فانهم انما يسعون فى مصالحهم واتساع ممالكهم وتجارتهم والشرقيون يرونهم يعملون الأعمال العظيمة فى بلادهم وهم ينظرون اليهم نظر المغشى عليه من الموت ولا يتحركون لمجاراتهم أو لايقاف تيار تداخلهم ويرونهم يسلبون أعمال امرائهم وولاتهم عملا فعملا وهم ناكسو الرؤس ومنكمشون فى ثيابهم تسمع منهم أصوات عالية فى خلواتهم يظنها السامع أصوات أناس حريصين على المجد والشرف فاذا خرجوا الى الطرقات ساقهم أضعف أوروبى بعصاه وهم بين يديه كأنهم قطعان الأغنام تساق الى الحظائر ٠ بمن نقيس الجزائرى اذا شاركه التونسى والهندى والمصرى والقبرسى والعدنى والمسقطى والزنجبارى والبرنوى والبخارى والمروى والطاغستانى والتركمانى والسرخسى وقابله المراكشى والافغانى برعدة الخائف الوجل ونظر اليه العجمى والعراقى واليمنى والحجازى والنجدى والسورى والطرابلسى والاناطولى نظر المتوجس الحذر الذى تبعثه الهمة وتقعده القلة كلما شموا رائحة السلم من دولة جاءهم انذار الحرب من أخرى سعيا خلف الدين لا طلبا لسعة الملك فانه لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة ولكن المغايرة الدينية وسعى أوروبا فى تلاشى الدين الاسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيرا من ممالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع ٠ واننا نرى كثيرا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الادارة وقسوة الحكام ولو أنصفوها لقالوا انها أعظم الدول ثباتا وأحسنها تبصرا وأقواها عزيمة فانها فى نقطة ينصب اليها تيار أوروبا العدوانى لأنها دولة واحدة اسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والاديان وكثير من اللغات والفتن متواصلة من رجال أوروبا الى من يمثلهم مذهبا أو يقرب منهم جنسا وكل دولة طامعة فى قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها مع اتساع أراضيها وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للنقل والتحول وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان فى غالب أراضيها ووجودها تحت رحمة الله تعالى أن شاء أمطرها فأخصبت أو منعها فأجدبت وهذه أمور لو ابتليت بها أعظم دولة أوروبية ما قاومت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى ٠ ولكنها تلام على اعطاء السكك الحديدية التزاما للأوروبيين بواسطة اناس يزعمون أنهم من رعيتها ظاهرا وهم فرنساويون أو انكليز باطنا فان السكك الحديدية بالنسبة الى المملكة كالشرايين بالنسبة الى الجسم فهى من أعظم العلل التى ستتخذها أوروبا

وسيلة للتداخل باسم وقاية أملاك أتباعها ومن لنا بكف يد الوزراء عن مثل هذا التهاون ويكفى ما جرى وما ذهب منا سدى فان ارتكنا على الشروط فقد ارتكنا على أوهن من العنكبوت فاننا لم نقدر على تنفيذ عهدة برلين فيما يختص بنـا وقد وقـع عليها الدول فكيف ننفذ شروطا بيننا وبين رجال جعلتم الدول ذرائع للتداخل ووسائل لأسوأ المقاصـد • ولقد أذهلتنـا أعمال أوروبا التى لم تسمح لشرقى بامتلاك شبر فى أرضها وهى تخرجنا من مساكننا وتقيم فيها بلا شروط معقودة ولا حجة مسجلة ولكنها معذورة فانها لم تجد من يعارضها أو يجاريها فهى لا تعترف اننا معها فى ثوب الانسانية بل تقول : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا •

ان دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدا شرقيا باسم الاستيلاء وانما تدخل باسم الاصلاح وبث المدنيـة وتنادى أول دخولها انها لا تتعرض للدين ولا للعوائد ثم تأخذ فى تغيير الاثنين شيئا فشيئا فلا تقدم على العمل بل تفعل الشيء على قبل التجربة فان نفذ فقد مضى وان عورضت فيه التزمت التأويل كما تفعل فرنسـا فى الجزائر وتونس حيث سنت لهم قانونا فيه بعض مواد تخالف الشرع الاسلامى بل تنسـخ مقابلها من أحكامه ونشرته فى البلاد واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم ولما لم تجد معارضا أخذت تحول كثيرا من مواده الى مواد ينكرها الاسلام توسـيعا لنطاق النسخ الدينى ولم نلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبه ان لم يكن هو هو ولم ينتطح فى اصلاح مواده المخالفة عنزان ثم تداخلت فى الأوقاف واستولت على غلها ومنعت المستحقين وطردت كثيرا من خـدمة المساجد اقتصادا ماليا وتخفيفا دينيا ثم رفضت ضباط العساكر الوطنيين الكبار واستبدلتهم برجالها خوفا من ثورة يدفعونها بها عن بلادهم أو يحمون بها دينهم ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية والزمتهم بتعليم لغتها والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لا يشم الابناء رائحة الدين لئلا يعلموا أنهم يغايرونهم دينا فيثورون عليهم أو يلتجئون الى دولة أخرى وهذه عواقب الالتجاء الى دول أوروبا والاغترار بوعودها الخلبيـة وشروطها المكتوبة بالماء على صفحة الهواء • وهذه دولة الروسيا دخلت مرو وهراة وبخارى باسم حمايتها من أعدائها وبعثت اليها بتجارتها فنفذت ثم برجال يساكنون أهلها فمضوا ثم بعساكر فى الحدود فأقاموا ثم بشروط تربطها بها فأمضيت ثم هى آخذة فى تقدم لغتها هناك توصـلا لاعدام اللغات الوطنية التى يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية وهذه انكلترة دخلت مصر باستدعاء أهلها وأخذهم بناصرها بعلة تأييد المركز الخديوى الشريف ثم زيد على تلك العلة علة بث النظام ووضع حكومة ثابتة تشابه حكومات أوروبا وقد بذلت ما فى وسعها فى التحسين والتنظيم بما يتراءى لها ولم تجد غير آذان سامعة وأيد عاملة ولكننا مع كثرة سماعنا

وتعليمها لنا لم نقلدها فى شىء مما دخلت لبثه فينا بل تركناها تفعل أفعالها ونحن نتفرج عليها كأننا فى ساحة سيمـــاوى يرينا من أعماله العجائب ونحن فى حيرة من العابه المدهشة ٠ ومن جهل أعمال انكلترة فى مصر بيناها له ليرى أنه حقيق بما يوجهه اليها من النكير ٠ أولا أطلقت حرية المطبوعات والأفكار فرأينا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد وتتصرف فى أفكارها كيف تشاء ٠ هذه تقول أنا وطنية أنادى خير البلاد وصلاحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين تحوطهم عناية الحضرة الخديوية تحت مراقبة بريطانيا العظمى حتى اذ رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ وفت وعدها واجلت جندها وتركتهم يتمتعون بحريتهم فى بلادهم كما تتمتع البلغار والجبل الاسود والسرب وغيره مما هو أقل من مصر بكثير والامة مرتاحة لها ٠ وهذه تقول مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الانكليز ووضع الادارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء حتى يتهيأ المصريون لاستلام أعمالهم لا تبالى رضى عنها المصريون آو غضبوا منها٠ وهذه تقول أن فرنسا هى الدولة الوحيدة فى المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها وتأييدالخديوى ولا يضرها الا وجود الانكليز فيها٠ وهذهمذبذبة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء وهذه عملية تهذب النفوس وهذه تورد لهم من مصادرات الاديان ما يوقعهم فى الشك والتردد وهذه دينية وهذه حقوقية وهذه طبية ٠ ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون لا رقيب عليهم ولا جاسوس ولما رأت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبههم على طلب حقوقهم وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية استدلالا على استعدادهم للقيام بأعمـــال بلادهم تركت الجرائد تخوض فى المواضيع المتضادة وتلعب بالأفكار الجامدة ونحن فى بحار اللهو غارقون ثانيا انها كفت يدها عن الاعمال عند دخولها مصر وسلمتها الى المصريين ظاهرا لتقيم الادلة لاوروبا انها ما دخلت الا لتراقب المصريين وتشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطنا بحصر السلطة فى الذات الخديوية الفخيمة والادارات فى الوطنيين أخذت تقول وهم يفعلون حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون وكانت تتقى باسمهم المطاعن الاوروبية حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع فى الخداع وهم غير محقين فانها ما دخلت الا لتعمل عملا أمام أوروبا فلما فوضوا اليها الأعمال استلمتها بهمة ونشاط ٠ ومثلها ومثلهم كمثل لص دخل دار قوم وقال لهم حملونى ما عندكم من أثاث وحلى وآنية فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة فهل اذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص كلا بل يقول انه صاحب الدار وهؤلاء خدمه أيرون أن الانكليز هم الذين نشرا منشور المومسات ورخصوا للنســـاء

أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون • أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا واعطاءهن شهادات بانهن صالحات للزنا فهتكوا حرمة القرآن والانجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى فى كل كتاب • أم هل قالوا للمصريين ستنفق ملايين فى المقاولات والاعمال الهندسية من غير أن نسأل عما نفعل فيها فاياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيدا مكلفين بسدادها الى روتشلد وغيره • أم هم الذين أعطوا الالتزامات الوابورية والأرضية ووسعوا نطاق المعاهدات الى أن ضيقوا كل عمل مصرى • أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء • أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن وربما أعطوا من أخذها شيئا يستعين به على نقلها حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو بالنبوت • أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء فى المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلا • أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين فى مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها وتدرجوا لاماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ فى الانكليزية لتنسى لغة القرآن فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا كما يصرحون بذلك فى مجالسهم وأندية شوراهم • لا والله ما نالوا أملا ولا قارفوا عملا ولا أذلوا رجلا ولا خربوا بيتا ولا هتكوا حرمة الا بالمصريين • ماذا على الانكليز اذ سمعوا فى ربح تجارتهم واستخدام أبنائهم ولم يجدوا عائقا أيرجعون وهم لهذا مرتحلون أيتركونه وهم فى جميع بلاد الدنيا طامعون • كانوا يرون أن المصريين اذا رأوا دولة حرة دخلت بلادهم لتأييد خديويهم واصلاح بلادهم وتعريفهم حقوقهم بين الأمم تجمعوا حول أميرهم حاملين كرسى فخامته على رءوسهم منادين باسمه قائمين بتنفيذ أوامره محافظين على حقوقه مستميتين فى اختصاصهم بأعمالهم والقيام بشعائر دينهم مجتهدين فى حفظ الأمن وخدمة البلاد حافظين لحقوق الاجانب والغرباء النزلاء والمجتازين جاعلين محافلهم التى استخدمتها أوروبا فى مصالحها محافل وطنية تستخدم أوروبا فى مصلحتهم فكانت تساعدهم على هذه الأمور التى تعهدت لاوروبا ان تعلمها للمصريين وتؤهلهم اليها ولكنها رأت غير ما ظنت فلا لوم عليها اذا وضعت قدمها على عمائمنا لتعلو جواد الفخر والخيلاء •

لماذا نتألم من أعمالها وامراؤنا اقتصروا على القعــود فى القصور وركوب العربات للتفسح فى المنتزهات وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت استصراخ وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون ونبهاؤها فى المحافل يتحاورون ويتناظرون بما لا يفيد الوطن والملك شيئا متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين فاذا انصرف النبهاء

عن وجهتى السياسة والدين فبمن تقوم الأعمال ويتقوم أود الحكومة ويبقى عمود الدين قائما كبقية الأديان ٠ أبالاخاء الذى ربطناه بين الأجنبى نتخلى له عن مرجع المجد واصل الشرف ٠ وهل تريد أوروبا أن تنتصر علينا فى حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن النظر فى الملك والدين ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء مع أن النبهاء يمكنهم أن يستخدموا محافلهم فى مصالح بلادهم فيتمكنوا بقواهم العقلية مما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع من غير اثارة فتنة أو اراقة قطرة دم ويصلحون ما أفسده الاغترار والانخداع ويحدثون فى البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن مشربها المصرى وسعيها المؤيد بربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة٠
وما الذى استفاده النبهاء المصريون من الاخلاط والامشاج غير تقدم الغير وتاخرهم واتخاذنا بيت مال لفقرائهم وعجائزهم ٠ دعونا من المجاملة فى الكلام والتستر بما استهجنه العقلاء ٠ ما ابتدعت المحافل الا لتصير الممالك دستورية وقد نجحت فى ذلك وقلبت كثيرا من ممالك أوروبا ٠ وحيث أننا بين يدى حكومة دستورية فلم لم نؤيدها بعصبية وطنية ونظهر من أعمالنا ما تفتخر به انكلترة أمام أوروبا والا فان بقى الأمــراء فى البيوت والنبهاء فى المحافل على ما هم عليه والعقلاء صامتين والضعفاء طائرين حول أوهام الأجنبى وارهابه والخديوى الأعظم ينظر الى هذه الجموع نظر الأب الرحيم الى الأبناء العاقين فلا نعترض على بربر أفريقية فضلا على الانكليز اذ جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا وتمتعوا بما نخلفه لهم من عرض ومال ومتاع وعقار ٠ مضت والله أيام التقاعد والاغترار بالترهات وصرنا بين يدى خديوى يريد أن نجارى الانكليز فى الأعمال الاصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية ونحن عن ارادته السنية ساهون ٠
ويجب أن نتقدم فى التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ونقبض على أزمة أمورنا ونحفظ عرشه المصرى بالمصريين ولكننا عن نظره العالى عمون ٠ يتألم من ضياع المصرى والاستخفاف به وتركه فى زوال الاهمال أكثر من تألم المبعدين ولو أحسنا بما عنده من الآلام لبتنا لمضاجعنا جافين ٠ ان أوروبا تنظرنا من بعيد لترى أعمالنا وما نتقلب فيه من الأحوال وما تهدينا اليه الكثرة مما نؤيد به الخديوى الافخم كمنشورها التداخلى ونحن عن هذا كله لاهون ٠ كفوا ايها المصريون عن القيل والقال فقد عيرتنا الامم باننا نقول ولا نفعل واظهروا بين يدى انكلترة برجال يسرها تجمعهم حول اميرهم الذى جاءت تؤيده واطلبوا منه حقوقكم المقدسة وأشكروا انكلترة على ما أوصلتكم اليه من الحرية التى تركتكم تتظاهرون تظاهرا أدبيا طلبا للحقوق وسعيا خلف الحقائق والامتيازات الوطنية فان كل انكليزى يراكم فى هــذا التقاعد وهو يدأب فى عمله الليل والنهار يقول : لو كنتم مثلنــــا لفعلتم فعلنا ٠

كلكم قائل « بيدى لا بيد عمرو » مضت السنين العشر التى قابلتم غرتها بالافراح والزين وطرتم فيها حول الاوهام طربا وسرورا وعميتم عن سوء العاقبة فأنشد شعراؤكم القصائد الطنانة الرنانة مدحا وثناء وشربتم الخمور جهارا باسم من استعديتموه على بلادكم ونصرتموه بتثبيط اخوانكم وبذلتم أموالكم وأرواحكم فى دخولهم البلاد والتخلى لهم عما بايديكم من الأعمـــال • ولطالما طأطأتم الرءوس وحنيتم الظهور وركعتم أمامهم تعظيما وتسليما وبصقتم على وجوه اخوانكم ولبستم أجمل ثيابكم تنتظرون يوما يقتل فيه مائة ألف مصرى • فهذه الايام تريكم كيف تدور الدوائر وكيف تنقلب الأحوال بالاهوال على من لم يقرأ العواقب ومن يلقى نفسه بين نيوب الصل خائفا من العظاية (السحلية) فقد أبدلت المصائب الولائم الاجنبية بالمآتم الفقرية ودعتكم لتكسير أعواد الطرب والسرور وضرب دف الندب والرثاء • وهل تجزون الا ما كنتم تعملون • مضى أمس بخيره وشره وجاء اليوم بتحذيره وانذاره وقد سار المرحوم أفندينا توفيق باشا الى جنة ربه وزين عرش الحكومة المصرية الملحوظ بعناية الله أفندينا عباس باشا الثانى ولا عسكرية تطلب منه حقوقا وطنية فيقال انها تريد أن تستبد عليه أو تضعف سلطته فأولى أن يستعين بدولة كذا • ولا خوف عنده من أجنبى يهدده بمنشور ينشره ليجعله وسيلة للتداخل العدوانى • ولا أحزاب بين يديه فرقتهم الضغائن الباطلة فشقوا عصا الجامعة الوطنية والوحدة الدينية بوسوسة جاهل ونزع محتال • بل هو الهمام الصادق الوطنية المحب لجميع أجناس رعيته على اختلاف أديانهم الساعى في منح الوطنيين حقوقهم وتمتعهم بخصائصهم الادارية وما يحتاج فى تنفيذ ارادته الا الى رجال نبهتهم صدمة أوروبا الى الرجوع عما هم فيه من الاغترار والاستغفال فحاطوا أميرهم مخلصين فى انقيادهم اليه لينادى بهم رجال انكلترة قائلا هؤلاء رجالى الذين تريدون أن تؤيدوا بهم حكومتى النظامية فضعوا الاعمال فى أيديهـــم واختبروهم فيما يقومون به من الأعمال • هؤلاء الذين ربتهم مصر وشهدت لهم أوروبا ووقفوا مع سابقيهم تسعين سنة يديرون الأعمال بأنفســهم ويصلحون البلاد حتى حاكوا بها مدن أوروبا الشهيرة بل ربما وجد الاجنبى فيها من الراحة ما لا يجده فى أعظم مدن أوروبا هؤلاء الذين قلتم لاوروبا اذا وجدنا قوما لهم قدرة على الأعمال وفيهم استعداد لحفظ الأمن ونشر المدنية سلمناهم وودعناهم بسلام فهلا جربتموهم فى عمل • هؤلاء الذين لا يحتاجون لمجاراة غلادستون فى سياسته ولا بسمارك فى خداعه ولا القيصر فى شدته فانهم يديرون أعمالا بسيطة مكفولة بالقوانين والنظامات ليس فيها سعى خلف استعمار ولا اجتهاد فى نشر دين ولا تحايل على توسيع حدود فأية صعوبة فى مثل هذه الأعمال • هؤلاء الذين جئتم لتأييدهم فى مراكزهم ودفع يد العدوان الوهمى عنهم وقلتم فى مصر من الرجال فلان

وفلان فلايحتاجون الا الى مراقبتهم مدة قصيرة في ادارتهم الجديدة . هؤلاء الذين درسوا أعمالكم وحفظوا نظامكم ووقفوا منتظرين تحقيق الآمال وصدق الوعود فعلام تتعبون فى تهذيبهم ان كانوا لا يصلحون ٠ وماذا ترجون منهم بعد تعليمهم أصولكم العسكرية والادارية والمالية والقضائية ان كانوا لا يفلحون ٠ هؤلاء الذين هم أحق وأولى من غريب تستخدمونه بأموالهم المتحصلة منهم وتنفقون عليه من ذهب ما دفعه أوروبى ولا حصله غير مصرى فاى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية ٠ أصرنا أقل درجة من فعله الانكليز والغزالية الذين تعصبوا لحقوقهم وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم التى ما دخلها شغب ولا تخللها خلل ٠ وكانى بدخيل يوسوس للأجانب قائلا ان الأستاذ يدعو الى ثورة مصرية بهذه العبارة فقد تعودنا سماع الاراجيف من الدخلاء وتسليط الأوروبيين على كل بلد نودى فيه بالمحافظة على وطنيته ونحن نضع حجرا فى فم هـذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة اغراء ٠ ان المصريين قد جربوا أنفسهم فى التظاهر بالقوة فوقف شقاقهم بينهم وبين الظفر بالمقصود وهم شاكو السلاح كثيرو العدد والعدد الآن لا قوة بايديهم ولا سلاح وقادة الجند من الأجانب ولا يحمل العسكرى الا بندقية فارغة حكمها حكم عصا الراعى ولا موجب لحركة الأهالى حركة عدوانية بعد خضوعهم لأميرهم وانقيادهم اليه فى السر والعلن ٠ وقد تأدبوا وعلموا دسائس أوروبا وتنبهوا لمقاصد الدول وسعيهم فى اتخاذهم آلة لبلوغ مآربهم لا لمصلحة المصريين معاذ الله ولا لمنفعة المسلمين استغفر الله فما من مصرى الا وهو يعلم الآن ان أوروبا لا تصدق فى قول ولا تفى بوعد ولا تحب شرقيا ولا تسعى فى خير مصرى وانما هى ملاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجهلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش ٠ ومن انتهى بهم الامر الى الوقوف على الغايات والمقاصد السيئة مع فراغهم من المعدات الآلية وعدم حاجتهم اليها يستحيل عليهم أن يكدروا صفو الراحة بشغب أصوات فضلا عن قعقعة سلاح ٠ وما يدعوهم الأستاذ الا الى مجاورة الاوروباويين فيما هم فيه من معرفة قدر نفوسهم والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم والدأب خلف الاستقلال بأعمال بلادهم فانهم لا يجهلون أن كلا من السرب والبلغار والجبل الاسود ورومانيا أقام تحت تصرف الدولة العلية أكثر من خمسمائة سنة وفى هذه المدة ما استطاعت الدولة أن تغير دينهم أو لغتهم أو عادتهم بل حافظوا على الأصلين العظيمين اللغة والدين وزاحموا ولاة الترك فى الأعمال والادارات وأكثروا من الصياح والاستنجاد حتى وقعت الحرب الاخيرة واستقلوا فلم يحتاجوا لتجديد لغة أو عهد دين أو اعادة معبد ووجدوا أنفسهم هم الذين كانوا قبل ذلـك بخمسمائة عام وقد قوبلوا على ذلـك بمدح جميع أوروبا وثنائها عليم وكان

من أعظم المساعدين لهم بل المحركين لهم نفس انكلتــــرة التى نريد أن نجاريها فى أعمالها أو نجارى من أنجدتهم من بعيد ونحن أقرب اليها من حبل الوريد ٠ والأستاذ يعرض مقالته على كل عاقل منصف مصريا كان أو غير مصرى وأظنه لا يسمع الا قول المخلصين انها أخبار بحقائق وطلب بحقوق لا تمس شرف رجل ولا تتعرض لامة ولا تطعن فى سياسة وانما هى محض درس تهذيبى لمن يسوؤهم قول الأوروبيين : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ٠

قضى المسلمون مع الأقباط ثلاثة عشر قرنا وهم فى اختلاط أهل بيت ومعاملة عشيرة واتحاد عائلة ما جرى بينهم يوما واقعة عدوانية مسببة عن اختلاف الدين كما نشاهد ونسمع من طرد اليهود من بلادهم وسلب أملاكهم وحليهم واستحلال تعذيبهم وسوقهم الى سبيريا حفاة فيهم القيود والاغلال وتخييرهم بين الانتقال من دينهم أو الرضا بالأشغال الشاقة فى سبيريا التى هى جهنم العــذاب أو جهنم شـــبيهة بها ٠ ولا فعـــل معهم المســـلمون مثل ما فعلته فرنســـا مع الجزويت وهم اخوانهـــا فى الدين وان اختلفـــوا فى المذهب ولا مثـــل ما فعله البلغـــار مع المسلمين من هـــدم مســـاجدهم وقتلهم وهم فى الجمعـــة يصـــلون ولا مثل ما فعله الروس فى الشركس الذين اضطروا لترك أوطانهم وأثاثهم وماشيتهم وهاجروا الى بلاد الدولة مشاة لا يحملون الا أجسادهم ٠ بل بقينا معهم كل هـــذه المدة نتبادل الوظائف والزيارات وامتـــلاك الطين والعقـــار فلم نسع فى شق عصا اجتماعهم وتفريق كلمتهم لنتخذ ذلك ذريعة الى أمر مطوى فى باطن المستقبل ولهذا لم تجد دولة من الدول العدوانية علة دينية تتداخل بها فى شأن مصر باسم راحة المسيحى والمحافظة على المعابد المقدسة واعطاء الأقبـــاط حريتهم فى عوائدهم الدينية بل كان ائتـــلاف المسلمين بهم حجابا بين مصر وبين تلك الدعوة التى تعودتهـــا أوروبا تغريرا وتضليلا وفتحا لبـــاب الحروب بعلل وهميـــة لا وجـــود لهـــا فى الخارج ٠ ولهذا نرى المســـلمين متألمين من انشـــقاق اخوان الوطنية وحل رابطتهم التى مضـــت عليهـــا القرون الكثيرة وهى أوثق رابطة عقـــدت عليها القـــلوب لا الخناصر والكل يهجس ويخمن فى البـــاعث والعاقبة فقد أدبتهم مساعى أوروبا الخيرية ووجدوا تحت كل نصيحة من نصائحها أســـاليب شتى للاذلال والاستعباد على أن الامر لو كان متمحض القبطية لساء المسلمين تنافرهم وهجرهم كنائسهم ومقابلة بعضهم بعضا بصدور ممتلئة بغضا وحقدا بعد أن كانت وعاء ألفة ومحبة وهذه ثمرة المخالطة الاجنبية وحسنة من حسنات أوروبا التى تتصدق بها علينا ٠ ولسنا نتكلم فى الشقاق من حيث داعية وانما نتألم منه من حيث هو شقاق بين طائفة صغيرة يكفى فى فصل القضاء بينها أحد العقلاء حرصـــا على

الجنسية والجامعة الوطنية وجبرا لصدع قلوب كلها فروع أصل واحد ولا نتكلم عن الباعث الدينى بأكثر من أملنا فى التوفيق بين الفريقين وسد الاذن عن سماع الأصوات الأجنبية التى تحرك النفوس وتظلم القلوب وتدخل المجموع تحت كلية اتفقنا واختلفتم : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ٠

فيا بنى مصر لم تبق قطعة فى الأرض الا والجرائد تنقل لكم أخبارها وتريكم أعمالها فاذا لم تكونوا أهلا للاختراع كما قال لكم أحد الانكليز فقلدوا عقلاء أوروبا فى أفعالهم وكفاكم الاغترار بترهات المضلين واللياذ بالأجنبى الذى سلبكم ثوب المجد ولم يبق الا أن يأكل لحمكم ويشرب دمكم غيظا على أمة تدفعها الطوارىء الى وحدة المصائب وهى قادرة على دفعها ولا تتحرك ولا حركة مذبوح ٠ ليعد المسلم منكم الى أخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية وليرجع الاثنان الى القبطى والاسرائيلى تأييدا للجامعة الوطنية وليكن المجموع رجلا واحدا يسعى خلف شىء واحد هو حفظ مصر للمصريين ٠ ايكفينا من الثروة أن نرى أكبر تاجر منا لا تزيد ماليته عن عشرين ألف جنيه واذا عددنا هذا القسم قلنا واحد اثنان فاذا انتهينا الى التاسع وقفت بنا الاعداد أما تتحرك الهمم الخامدة لفتح محال التجارة شركات وطنية تجمع من سهام قليلة فتربح كثيرا وتفتح بيوتا أغلقت أبوابها أو كادت أعجزنا عن مجاراة الأمم حتى فى هذا العمل الذى يقوم به الاميون والجهلاء الذين تبعثهم ضرورة المعاش الى اتخاذ طرق الاتجار بالاتحاد ٠ ألا تقدرون على عقد شركات تشترى أجزاء من أطيان الدومين أو الدائرة لتربحوا منها وتستخدموا فيها أخاكم الفلاح وتعوضوا بعض ما أضاعه الاسراف فى الملاهى والخروج عن الحد وصيره فى يد الأجنبى ٠ أفلا يحسن فى أعينكم أن تفتحوا مدارس لأبنائكم تهذبونهم فيها وتعلمونهم وتحولون بينهم وبين الوجهة الاوروبية التى تغرسها ببلادنا مدارس أوروبا فى أذهانهم ٠ تداركوهم قبل أن تفقدوهم ٠ عرفوهم انكم آباؤهم قبل أن ينكرونكم ٠ لقنوهم ما أنتم عليه من الدين قبل أن يخالفوكم ٠ حفظوهم تاريخ بلادكم وأجدادكم قبل أن يجهلوكم ٠ ردوهم الى الوطنية قبل أن يحملوا سلاح العداوة ليتقربوا بدمائكم الى من ربوهم وتبنوهم « جاوز الحزام الطبيين » ومرق السهم من الرمية وأصبح لفيفهم ينادى غافلكم

فان كنت ماكولا فكن خير آكلى　　والا فادركنى ولـــا أمــزق

وارحمتاه لصبية وضعهم الله تعالى فى أيدينا فخناه فيهم وأسلمناهم الى أجنبى يسقيهم شرابا ما شربه الآباء ويسوقهم فى طريق ما سلكه الاجداد وكلنا يعلم ذلك علم اليقين وفيه القدرة على حفظ ابنه من هــذه النزعات السيئة ولا ندرى ما يمنعنا من ذلك أأخذت أبناؤنا فى الحديد وسيقت الى هذه الساحات الأجنبية لا والله ٠ أم أكرم هنا الحاكم على ارسال

أبنائنا الى الفرير والامريكان وغيرهم لا والله · أم جهلنا ما يتعلمونه من مغاير الدين واللغة والعادات لا والله · نحن سلمناهم بأيدينا وصرفنا على اخراجهم عنا من مالنا ورضينا بما هم فيه من النقل وسوء التعليم فنحن عنهم بين يدى الله مسئولون · نعلم ان أوروبا لا تعطى شهادة لتلميذ الا اذا أحسن لغته كل الاحسان ولا تدخل تلميذا يغاير التلامذة مذهبا الا اذا صلى على مذهبهم أو يبعدونه عنهم وتنقل لنا الجرائد أخبارهم وسعيهم خلف تعليمهم الوطنية وحقـــوق الجنسية فهذه انكلترة الحريصة على جنسيتها المتعصبة لدينها أشد التعصب تطالب الأمة بتعليم أبنائها حقوق الوطن والجنس مع انه ليس وراء ما هى فيه من ذلك مطلب لطالب · وهذه فرنسا تصدر المناشير الى الكنائس تلزم الأمة جميعها بالصلوات لله تعالى رجاء أن يخلصها من العراقيل التى هى فيها وهاتان هما الدولتان اللتان تدعيان انحصار المدنية فيهما فلم لا نقلدهما فى المحافظة على الوطنية والجنسية والدين وننادى بذلك فى القرى والمدن وحجتنا حجتهم وحاجتنا حاجتهم·
نرى كثيرا من الشرقيين بل المصريين يحومون حول حمى الأجنبى لياذا به وطلبا لمعروفه فهل تناول منه الا لقمة لو لم يجده لطرحها للكلب لكونها فضلة طعامه وفتات خوانه وهل جلس فى حضرته الا مهينا مزدرى منظورا اليه بعين الاحتقار بل الاستعباد وهل مكنه من أضعف الأعمال الا ليستعمله آلة فى تنفيذ آماله وتحقيق أمانيه وهل بش فى وجهه مرة الا ليدخل عليه غفلة الرحمة والحنان ليصرف أنظاره عما يراه من سلب الحقوق · آن والله أن يتبصر المصرى ويشابه رجال أوروبا فى الأخذ بالحزم والاعتماد على صدق العزم حرصا على ما بقى وطمعا فى فرض المستقبل وتحقيقا لآمال الانكليز فى صلاحنا على أيديهم حتى لا يبكتونا بقولهم : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا·
طول العمر يبلغ الأمل وبالرفق يستخرج الانسان الحية من وكرها فلا يحملن الطيش الأحمق منا على التهور والتخلق بأخلاق البهيم فاننا نعلم أن صيانة بلادنا موقوفة على حفظ الراحة ومعاشرة الأجانب والنزلاء بالمعروف وبقائنا على الهدوء والسكون وبعدنا عن الفتن التى يحركها الدخيل والأجنبى لمصلحة دولته فيجنى ثمارها ويلحقنا عارها وناهيكم مذبحة الاسكندرية التى تعيرنا بها أوروبا الى الآن وهى تعـــلم من أحدثهـــا من رجالها بحيث تسميهم رجلا رجلا وتقدر ما صرف للاجراء جنيها جنيها وقد نجحت من نسبتها اليها وجعلتها قوباء فى غرة مصر ومصر بريئة منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ولا ننسى العار الذى ألحقه بنا بعض المأمورين فى فتنة طنطا التى دفعته اليها اليد الأجنبية أيضا فباء بخزى الدنيا وعذاب الآخرة ولحق بيته غير مأجور على سعيه ولا مشكور على فعله وهذا جزاء ضعفاء العقول الذين يتجرأون على ضرر عباد الله واهلاكهم فى مصلحة من يرضيهم بما لا يساوى قلامة ظفر انسان تالله انه لو جاز لمصرى أن يصرح بكل ما يعلم لذكرنا

من الحقائق العدوانية ما يكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون · وفي الاشارة ما يغنى عن الخبر · فاعتبروا ياأولى الألباب · ومن لم يقرأ العواقب وقع فى المعاطب · والعاقل من أعتبر بغيره · فالله الله أيها المصريون فى أنفسكم وأميركم وأعراضكم وأموالكم وبلادكم · جاهدوا أنفسكم فى توحيد كلمتكم وارجعــوا بمحافلكم عن أبواب أوربا وفتنهــا واخــدموا بلادكــم بظهــوركم أمة واحــدة واقفة على قدم الخــدمة لأميرها والمحافظة على حقوقها والمطالبة بخصائصها ولا تشغلكم المظاهر الأجنبيــة عن تصحيح أغاليطكم وتطهير بواطنكم ولا تظنوا انكم عاجزون عن استرجاع مجدكم والقيام باعمالكم فانما أنتم بشر مثل رجال أوروبا ولكنهم تجمعوا وافترقنا وعرفوا حقوقهم وجهلنا ورفضوا نصائح الغير وقبلناها وحفظوا دينهم ولغتهم وجنسيتهم وتهاونا فى البعض وتركنا البعض فاذا جاريناهم فى طرقهم الوطنية ساويناهم فى الخصائص والمزايا ودونا لنا تاريخا جليلا يفتخر به الأبناء وترحم بسببه الآباء · عما قريب تنبش قبور آبائكم وأضرحة عبادكم وسادتكم لتؤخذ تلك العظام النخرة الى معامل سكر أوروبا حتى لا يبقى هناك أثر لذى مجد من الشرقيين فان خفتم من ذلك فاتخذوا أعظم الوسائل لبقاء موتاكم متوسدى تراب قبورهم فاننا نرى الاوروبيين ينقلون عظام موتاهم من بلاد حاربوا فيها ليحفظوها فى أوطانهم حتى يزورها الآتى ويقرأ تاريخها العجيب · لا تظنوا أن هذا لسان التخريف أو التزييف فانكم ان استبعدتم الامر وأنتم على ما أنتم فيه من التهاون والاهمال فكل ما هو آت آت وان تنبهتم لذلك وحافظتم على أوطانكم بالمحافظة على امتيازاتكم المكفولة ببقاء الخديوى الاعظم فى منصة حكمه مؤيدا بخضوعكم اليه وتأييدكم مبادئه الوطنية وأعماله الاصلاحية رضى الله عنــكم وأرضاكم وحفظت أضرحــة سادتكم وقبور موتاكم · وما ذلك بعزيز على أمة خالطت كل الأمم وقرأت تواريخ الممالك وتعلمت كل ما يلزم للوطن وحكومته وساح منها فريق بلاد أوروبا وعرفوا طرق التقدم والاصلاح · أفيليق بمن هذه صفتهم أن يكون غاية تهذيبهم قعودهم على القهاوى وفى الخمــارات واجتماعهم للتشــاتم والتقاذف بالمذام والسعى فى المضار · لا والله ان هذا لمن أكبر العيوب وأعظم المصائب ومن لم تنبهه الحوادث فهو الغافل ومن لم يؤدبه الماضى اضر به الآتى أفلا يحركنا قول أوروبا : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ·

« أنا أخوكم فلم أنكرتنى » ما الشام ومصر الا توأمان أبوهما واحد يسوء الاثنين ما ساء أحدهما فلم تنافر أبنائهما وانحــاز السوريون فى جانب بعيد عن المصريين وان ساكنوهم فى مصر ألم يكن الاجدر بنا أن نصرف علومنا ومعارفنا وقوانا العقلية فى صلاح بلادنا وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها · ابرأتب قدره عشرون جنيها يبيع المرء منا أخاه ووطنه بل وجنسه ودينه أم بكلمة تغرير نصرف حياتنا فى خدمة الاجنبى

لنعينه على اخواننا لينتقم منهم بغير ذنب ويجنى على غير جان • بئس والله ما وصلتنا اليه هذه الخزعبلات التى نسميها معارف وآدابا • زرعنا الاحقاد فى قلوبنا بغيا وعدوانا • أهلكنا أنفسنا بالعداوة فى غير مصلحة جهلا وحماقة • فضحنا أنفسنا بنقل عوراتنا للغير سفاهة وجنونا • بعنا هيئتنا للأجنبى بلا ثمن خبلا وبلاهة • ولو اجتمعت كلمتنا وائتلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم فى حفظ الوطنيين واعلاء كلمة الجنسين لحسدتنا المعالى ووقفت أوروبا تنظرنا بعين الاعظام والاجلال ولكن قضت شقوة الشرقيين أن يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضا لينتفع الغير بنارهم اصطلاء وطنجا واستعمالا فيما يشاء والعهد قريب والعود غير عسير فما نتكلف فى جمع الكلمتين وتوحيدهما أكثر من الانصراف عن شياطيننا الذين قاموا فينا خطباء ووعاظا بدروس يتلقونها اليوم بعد الآخر عن الأجنبى وتبادل الزيارات والمسامرة فى المجامع واخلاص السير وما ذلك على الله بعزيز • والا اذا بقينا على هذا التنافر والتضاد اتخذنا الأجنبى آلات لتنفيذ أوامره فيوقع بيننا العداوة والبغضاء وربما انتهى الأمر الى ما لا تحمـــد عقباه بجهالتنا واعتمادنا على العضد الاجنبى وفى ذلك من الخزى والعار ما لا تمحوه أكبر الحسنات • واأسفاه على رجال قضى أباؤهم الدهور الطويلة يتبادلون العمران والاستيطان لا يفرق بينهم دخيل ولا يقطعهم عن بعضهم أجنبى فجاؤا من بعدهم وخالفوا سيرهم وحالفوا غيرهم وخدموا الأجنبى بمساعدته على التداخل فى بلادهم بل على الاستيلاء عليها لا لعداوة بين الأمتين ولا لحرب جرت فى الوطنيين بل برغيف يحصله الزبال وخرقة يملكها الشحاذ وان قيل أن جامعة الدين اضطرتهم قلنا أن عز الاستقلال بالوطنية خير من الاذلال بجامعة الدين فان الأجنبى يغر الرجـل منا حتى يوصـله الى غرضه ثم يلحقه بغيره عند تمام الاستيلاء ولا يعرف له حقا غير خدمته ولا يفرق بينه وبين من غايره دينا فى الاستخدام والاستعباد • أنقول هـذا وقتنا فنحصل فيه لذاتنا البدنية البهيمية ولا نبالى جاء المستقبل على أهلنا وأخواننا بالعز أو بالهوان • بئس ما يختاره الرجل لنفسه من أن يطعم لقمته مغموسة فى دماء جنسه واخوانه • ان البهيم ليدافع عن جاره فضلا عن نوعه فكيف يرضى العاقل أن يكون أقل فضيلة من البهيم ان كان هناك اعتقادية بجنة ونار فتقربوا الى الله بما يدخلكم به جنته وليس ذلك الا البعد عن مساعدة الاجنبى على اخوانكم وان كان الاعتقاد وجود الله وخلود النفس فقط أو لا رب ولا اله كما يقول الفريق المدنى الاحمق فبيضـــوا صحائف التاريخ بمجد خالد وذكر جميل وان كان لا اعتقاد رأسا ولا مجد ولا شرف وانما هى بهيمية محضة تبعثنا الطبيعيات فيها الى مالا تعلق للعقل فيه فياسوء ما وصلنا اليه • وبالجملة فان آخر الدواء الكى وقد بلغ السيل الزبى فان رفأنا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا وجمعنا الكلمة

الشرقية مصرية وشامية وعربية وتركية أمكننا أن نقول لأوروبا : نحن نحن وأنتم أنتم ٠ وان بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب فريقا بعد فريق حق لأوروبا أن تطردنا من بلادنا الى رؤوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشى وتصدق فى قولها : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا (٩٣) ٠ »

كان النديم طوال نشاطه وفى معرض تأملاته يهتم بتحليل الأسباب التى أدت الى تأخر مصر ؛ ومن ثم بشروط النهضة ٠ وجاء التحليل على مستويين مختلفين بين عامى ١٨٨١ و ١٨٩٣ ٠ كان أولها والحق يقال موجزا بشكل يثير الدهشة ٠ ومع ذلك فان الاجابة التى كان يقدمها كانت دائما تاريخية اجتماعية وليست دينية كما هى الحال بالنسبة لمحمد عبده ٠ وها هى خلاصة تأملاته التى صاغها عام ١٨٨١ والتى يميز فيها أربعة أسباب رئيسية وستة ثانوية لتأخر مصر ٠ الأسباب الرئيسية أولا :

« ١ ـ حكمت اللغات على الأجناس التى أخذت بها وصيرتهم كأهلها فى الأخلاق والعادات [٠٠٠] ؛

٢ ـ عندما تم لكل عائلة أوروبية الاستيلاء على قطعة مخصوصة وحدت السلطة فى الجنس المتغلب ؛ فلم تمكن أى أنسان من المتغلب عليهم من أى ادارة فرارا من توزيع السلطة وضياع القانون بالأهواء والأميال الجنسية وخوفا من اتساع سلطة المقهورين بما يحركهم للاستقلال٠

٣ ـ اعتنت أوروبا بالدين اعتناء غريبا ٠

٤ ـ اجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الأوروبية من مس الشرق لها [٠٠٠] والى توجيه الهمم الى الشرق فتحا واستعمارا ٠ »

بعد ذلك يأتى دور الأسباب الثانوية وهى كما يلى :

« ١ ـ اطلاق حرية الكتاب فى نشر أفكارهم بين الأمم لاحياء أفكار العامة باحتكاكها ٠

٢ ـ تجمع أرباب الأموال منهم لفتح صناديق الأعمال المالية [٠٠٠] وتحصلوا (٠٠٠) على نقود كثيرة واستعملوها فى المعامل والتجارة وساعدتهم الدول فجارت على مصنوع الغير وتجارته لتروج البضاعة الأهلية وتحفظ الثروة فى داخلية البلاد ٠

٣ ـ سنت قانون الامتياز والمكافاة والشهادات العلمية والعملية ونياشين الشرف لتبعث فى الناس غيرة المجاراة والمباراة فى التفنن والاختراع ٠

٤ ـ عممت التعليم وجعلته اجباريا ٠

---

(٩٣) سلافة النديم ، جـ ٢ ، ٦٤ ـ ٨٣ ٠

٥ ــ خطأ الرأى بالانفرادية فأحدثوا مجالس الوزراء والشورى ٠

٦ ــ [٠٠٠] احداث أندية السمر والتجارة (٩٤) » ٠

وفى عام ١٨٩٣ تابع النديم فيما يعتبر وصيته من الناحية العملية أيضاحاته التى سبق ذكرها حول الوحدة الاستعمارية والنهضة الوطنية :
ان تركيا هى « دولة واحدة اسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا » ، تتعرض من ناحية لموجة ظهور القوميات داخل الامبراطورية ومن ناحية أخرى لشتى أنواع الاعتداءات والفتن التى توجه اليها من الخارج ٠ وانجلترا « أطلقت حرية الأفكار والمطبوعات » وأدى ذلك الى نوع من الفوضى وشقاق عميق فى الرأى العام كما أعطت مقاليد الحكم الرسمية للخديوى والحكومة المصرية ، محتفظة لنفسها بحقيقة السلطة ٠ « أخذت تقول وهم يفعلون حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون ٠ » ولكن المسئولين الحقيقيين هم الأعيان المصريون : « وأمراؤنا اقتصروا على القعود فى القصور وركوب العربات للتفسح فى المتنزهات وعقلاؤنا صامتون [٠٠٠] ونبهاؤنا فى المحافل يتحاورون ويتناظرون [٠٠٠] متعللين بأن محافلهم ٠ لا تتعرض للسياسة ولا للدين ٠ »

وطالما أن الخديوى الجديد عباس الثانى قد قرر اتباع سياسة من أجل التقدم يجب الانطلاق « فى التجارة والصــناعة والزراعة والمعــارف ونقبض على أزمة أمورنا ونحفظ عرشه المصرى بالمصريين ٠ (٩٥) » ٠

---

(٩٤) « بما تقدموا وتاخرنا والخلق واحــد ؟ » فى **ســلافة النــديم** ٠ جزء أول ، ١٠٩ ــ ١٢٠ ٠

(٩٥) **لو كنتم مثلنا** ٠٠ وكذلك ، نراه يؤكد العلاقات العضوية التى قامت دوما بين الدين والسياسة فى الاسلام ، وفى الغرب أيضا :

« ومن هذا الا نموذج ان رجال الدين فى أوروبا هم أساتذة السياسة ورجال السياسة هم حفظة الدين فاتحد المبدأ والغاية وهذا عكس ما نراه فى جميع أهل الشرق فان العلماء مبتعدون عن السياسة مقتصرون على العلوم الدينية فاذا عرض عليهم أمر سياسى احجموا عن الخوض فيه لجهل طرقه وان تكلموا فيه بالجراءة كان الخطأ أكثر من الصواب لعدم اشتغالهم بمثله ولهذا اهملهم الأمراء فى المجامع السياسية وأخذوا بآراء من هم دونهم فى الرتبة العلمية اذا كان من المشتغلين بالسياسة المدربين على أعمالها مع ان فريق العلماء أحق الناس بالاشتغال بها والتفنن فيها وغوص بحارها فان نوازل الملوك تقضى عليهم فى الغالب باستشارة العلماء فاذا جهلوا ما استشيروا فيه ربما أشاروا بما فيه ضرر الأمة وهم يظنون انهم محسنون صنعا بخلاف ما اذا اشتغلوا بالأمور السياسية فانهم بما عندهم من تربية الملكة واقتدارهم على فهم عويص المعانى يمهرون فى السياسة ويتقدمون على المشتغلين بهــا عمرا طويلا اذا اشتغلوا بها زمنا قصيرا وليس فى النصوص مايمنع من الاشتغال بها حتى نعده معصية بل =

ولم يكن النديم ، الثورى الأصيل ، يسمح بالمزج بين الخصوصية الوطنية وما ينتج عنها من مساوىء وبالذات الاستبداد الشرقى ؛ ومن ثم كانت دعوته الى اقامة الأحزاب السياسية التى تعتبر الضمان الوحيد للديمقراطية :

« فعلينا معشر المصريين خصوصا والشرقيين عموما أن نبحث فى طرق أحزاب أوربا وروابطهم وكيفية سيرهم وموجب استمرارهم على ما هم فيه ، ونقلدهم بسير لطيف مع التزام الهدوء والمحافظة على حقوق الأجانب والنزلاء والانتباه لدسائس الدخلاء وفتن الاجراء ولتكن لكل فريق جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله وتنبه على ما يجب اتخاذه مما تراه صالحا آخذة أفكاره عن مجموع أعمال الحزب أو آراء عقلائه · (٩٦) » ·

ومن جهة أخرى كانت تلك هى المرحلة التى عرفت فيها الصحافة العربية والأجنبية فترة من الازدهار الكمى (٩٧) · وكان النديم يشن حملة عنيفة ضد المثقفين والأعيان متهما اياهم بالجمود : « فما ابتدعت المحافل الا لتصير الممالك دستورية وقد نجحت فى ذلك وقلبت كثيرا من ممالك أوروبا · » ولذلك يجب على المثقفين أن يخرجوا الى الشعب « ليحدثوا فى البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن مشربها المصرى » ، والا فلا يعترضوا » على بربر أفريقيا ـ فضلا عن الانجليز ـ اذا جاءوا واستعمرونا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا (٩٨) »

ولا نعرف بالضبط عن أى « بربر » يتحدث : ولكن من الممكن أن نتصور أن النديم كان يقصد الجاليات الأجنبية الشرقية الأصل التى كانت

= كل العلوم الشرعية من قواعد السياسة فانأبواب البيوعوالزروع والوقف والحرب والسلم والجنايات والشهادات والحقوق والعتق والقسمة وغيرها كلها من أصول السياسة ومن درس العلوم الكثيرة لا يعز عليه دراسة القوانين والمعاهدات الدولية والأخبار اليومية بعد ان تمت له المعدات ومواد التحصيل · فما لنا نتقاعد عن طرق أوروبا النافعة ونسعى فى طرق تفقدنا معاشر الشرقيين روابط الجنس واللغة والوطن والدين وما لنا غفلنا عن مبادىء الجمعيات الاوروباوية وسلمنا أولادنا الى أساتذتها فاعادوهم الينا متجنسين بجنسياتهم حقيقة وان شابهونا صورة فترى المصرى والسورى والتركى والعراقى الذين تعلموا من بادىء أمرهم على أساتذة الفرير والبروتستانت والجزويت صاروا قسما ثالثا بين الشرقيين والغربيين اللهجة شرقية والمساعى غربية · فماذا على أغنياء الشرق لو عقدوا الجمعيات الخيرية تحت حماية دولتهم وفتحوا بها المدارس الوطنية وعلموا فيها هذه المبادىء تقليدا لاوروبا وساعدتهم الحكومة ؟ » ·

(« تربية الأبناء » ، **سلافة النديم** ، ج ۲ ، ١٠٨) ·

(٩٦) « اشتات الشرق وعصبيات أوربا » ، « **الأستاذ** » ، ٤٥٧ ـ ٤٦٧ ·

(٩٧) ٤٦ جريدة يومية واسبوعية فى ١٨٨٢ ، حسب
Frager Rae : «The Egyptian Newspaper Press», Nineteenth century, xxxii (1892), 213-23.

(٩٨) « **الأستاذ** » ، ٥١٩ ـ ٥٢٠

تتكاثر وتزدهر في ظل الاحتلال البريطاني ـ أى عملاء وسماسرة أوروبا « الكومبرادور » · أما المعركة الحامية التى كانت دائرة بين « **الاستاذ** و « **المقتطف** » ، وهى الصحيفة السورية ـ اللبنانية المتحالفة مع الانجليز والتى كانت تصدر فى مصر ، فسرعان ما تجاوزت حدود المعركة اللغوية · فالواقع أن « **المقتطف** » لم تكف عن اتهام صحيفة النديم بـ « **التعصب** » الدينى أو الوطنى · وكان رد النديم يعتمد على التسامح التقليدى فى التاريخ المصرى القديم ؛ ولكنه كان أيضا يشير الى العنف السائد فى أوروبا فى ذلك العصر ـ العدميون ، الاشتراكيون ، «الكوميونة» ، الأحزاب السياسية ، اضرابات مصانع الغزل والفحم وتفجير الديناميت ، العمل المسلح الذى قام به الايرلنديون ضد الشرطة ـ « وتعد زيارة الأمة لأميرها تشويشا للأفكار وسلبا للأمن العام موجبا لزيادة الحامية [الاحتلال] · (٩٩) »

وبدأت مرحلة العنف بين « كرومر » والخديوى · واذا بالخديوى بعد فترة من المقاومة يتخلى عن النديم الذى منعت صحيفته من الصدور وحكم عليه مرة أخرى بالنفى · ونشر النديم فى ٢٣ مايو دفاعا فى ست وعشرين صفحة ضد الحملة المسعورة التى ضيقت الخناق من حوله خاصة على أيدى الانجليز والجاليات الأجنبية المرتزقة والصحافة المخافظة « **المقطم** » ، « **الاجبشيان جازيت** و « **البروجريه اجيبسيان** » ، الخ · وصدر العدد « الأخير فى ١٣ يناير ١٨٩٣ ، وفيه يحيى النديم قراءه ويودعهم الوداع الأخير :

« (···) ولا يظن شرقى أن ما ألاقيه من المشاق والمتاعب فى خدمته يكدرنى أو يؤلمنى ···

« ·· وما خلقت الرجال الا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب · والعاقل يتلذذ بما يراه من فصول تاريخية من العظم والجلالة وان كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر ؛ وعلى هذا فانى أودع اخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى   أحب لقاكم والخلود اليكم
وما عن قلبى كان الرحيل وانما   دواع تعدت فالسلام عليكم (١٠٠)·»

ولجأ مرة أخرى الى استانبول ، وهناك لحق بالأفغانى واصطدم مثله ، ولكن على نحو أكثر ضراوة بمستشاره السلطان الأول ، أبو الهدى الصيادى مهيب الجانب الذى يبدو أنه كان وراء موت النديم (١٠١) · وتجمع غالبية

---

(٩٩) « **الأستاذ** » ، ٥٥٥ ـ ٥٦٣ ·

(١٠٠) فى أ· الحديدى :نديم ، ٣٨٠ ـ ٣٨١

(١٠١) راجع حول هذه الفترة الأخيرة أ· الحديدى · **المرجع السابق** ، ٣٨١ ـ ٣٩٩ ·

الدراسات على تعريف دور عبد الله النديم بنفس العبارات التى استخدمتها « **التايمس** » فى ذلك الوقت وهو أنه كون المقــاومة الشعبية ضــد الاحتلال (١٠٢) ٠ « كان النديم خطيبا وأديبا فى مرحلة الفجر الزائف كانت تلك السنوات التسع من الانزواء والصــمت رمزا لما حل بالوعى الوطنى المصرى بعد الاحتلال البريطــانى » (١٠٣) ٠ الا أن « الثــورة الكلامية » والسعى المتواصل والهيام الوطنى كانت تغذيها جميعا « روافد المصادر الشعبية » (١٠٤) تلك التى قمنا بتحليل مكوناتها وموضوعاتها ونظرياتها ٠ ومع النديم ادن تصــبح أيديولوجية الحركة الوطنية تلك الأيديولوجية الناشئة من صميم شئون الشعب والجماهير الشعبية المضطهدة المبعدة عن السلطة ، عن الثروة ، عن الثقافة ٠ ان صعود هذه الجماهير الى الحرية والكرامة كان لابد وأن يلجأ الى طريق العنف الثورى ٠ ولكن ، وبالاضافة الى المبالغات اللفظية ، كانت الثورة عملية جدلية حضارية ٠ ولم يكن الصراع ضد الغير نفيا له ٠ وأخيرا ، كما يرى عبد الله النديم ، اذ كان الغير « غير » يسيطر على ال « أنا » ، على الذات الوطنية ، فذلك لأنه عرف كيف يتسلــح بوســائل للتحليل والهيئة التى لابد منها لهذا التأثير ٠ اذن فلابد لتحطيم هذه الهيمنة من أن نتصور ذاتنا ونصوغها انطلاقا من الخصوصية الوطنية ، وفى مواجهة محتوى الهيمنة الأجنبيــة وما تحمله بالضرورة من عدد من الاسهامات الايجابية (١٠٥) ٠ وهكذا بلغت آراء رفاعة الطهطاوى الكبرى الخاصة بالنهضة الوطنية أعمق أعماق الشعب ؛ واذا بالوطن الذى كان يتمنى تشييده بالحرية والفكر والمصنع يجد فى عبد الله النديم أيديولوجيته والرجل الذى جعل من هذه الأفكار الكبرى نسيجا للوجود الجماعى الوطنى لشعب مصر العظيم ٠

---

(١٠٢) The Times ١٨٩٣/١/٢٥ ؛ وقد استعادها بوجه خاص أ٠ الحديدى : **المرجع السابق** ٣٦٦ وما بعدها ٠

(١٠٣) A. Hourani : Arabic thought, 196-7.

(١٠٤) J. Berque : L'Egypte, 115.

(١٠٥) ما يزال التأثير الفرنسى يحتفظ بثقل حاســم لن يتدهور بشكل مفاجىء حقا الا لحظة التفاهم الودى (١٩٠٤) ويعطى Edward st John Fairman نص اغنية « **المارسيليز المصرى** (لندن ، ١٨٩٣ ، ص ٤) يبدو أنه لقى بعض النجاح فى الاسكندريه

الخاتمة

كانت الفترة الواقعة بين عزل اسماعيل (١٨٧٩) والاحتلال العسكرى البريطانى (١٨٨٢) يغلب عليها التحول الراديكالى العميق والسريع داخل الحركة الوطنية المصرية وأيديولوجيتها الناشئة · وكانت مشكلة النهضة يتم تصورها ، وفى بعض الأحيان ، عرضـــها فى عبارات صريحـة · وكانت مقاومة التدخل الاقتصادى والسـياسى للدول الكبرى تطغى على الضمير الوطنى وتحدد اهتماماته وأساليب تعبيره · ومع الاحتلال العسكرى بدأت مرحلة جديدة انتهت رسميا بالجلاء فى عام ١٩٥٤ وفعليا عام ١٩٥٦ باسترداد السويس · وقد أوضحنا فى المقدمة الأسباب التى دعتنا الى هذا التقسيم المرحلى · فهل كانت المرحلة الأولى التى تلت الاحتلال العسكرى ـ حوالى عشر سنوات ـ هى الليل الذى تحدثوا عنه بما فيه الكفاية ؟ ومنذ هزيمة عرابى حتى ظهور الحركة الوطنية ، فى صور أكثر حماسا ثم فى صور ثورية ما هو التغير وما هى مسالك الايديولوجية الوطنية والفكر الاجتماعى ـ ما هى الملحمة الفكرية لمشروع النهضة الوطنية التى ظلت تلهب مصر خلال القرن الماضى ؟

ان نقطة الانطلاق ـ على المستوى الفكرى والثقافى ـ لا يمكن أن تكون سوى النقطة التى راحت عندها قوة القرارات الاستعمارية الحاكمة بأمرها فى مصر للمرة الثانية تتهيأ لفرض مشروعها المضاد على الحركـة القوية التى نعرف تركيباتها وبواعثها ونظرياتها ومراميها التاريخية · أما السياسة الثقافية البريطانية فى مصر ، التى يزعم المدافعـون عنها على ندرتهم ، أنها وضعت لضرورات الاصلاح المالى فقط أو أساسا ، هذه السياسة كانت تسعى الى أهداف سياسية محددة : تكوين جهاز من صغار الموظفين المحليين ؛ السماح بتشكيل أدنى حد ممكن من الصفوة الجديدة ؛ تخطيط التعليم المصرى على نمط مثيله فى المستعمرات الكبرى البريطانية والهند بصفة خاصة · وكان الباعث وراء هذه الأهداف السياسية هو مشروع ثقافى أيديولوجى ، مشروع مضاد للنهضة الوطنية الثقـافية : تعميق الخصائص الرجعية فى التعليم التقليدى وبخاصة الاستظهار بدلا من العقلية النقدية ؛ محاولة استئصال اللغة الوطنية وهى فى غمرة تحولها العصرى ؛ الطابع المتخلف للمضمون الفكرى فى التعليم المستمد من المفاهيم العنصرية الشائعة فى عصر الامبراطورية « الفيكتورى » ـ وقد تعرض هذا

الهدف الذى كان يسعى اليه ويحافظ عليه كل من « كرومر » ومساعده « دنلوب » الى أعنف الانتقادات داخل البلاد وفى العالم أيضا · غير أن المشروع المضاد كان بالغ الخطورة : فبتعقيمه للعقول كان يضرب فى الصميم ولأمد طويل الاحتمالات الكبيرة الواقعية لنهضة وطنيـة ثقافية مصرية ـ فى عصر كانت فيه مصر هى الدولة الأساسية مع الهند واليابان ـ التى تكون « الشرق » الحضارى · وهنا يكمن فى رأينا مصدر التحفظات العميقة الدائمة التى لا تفتأ تبديها مصر ، والمثقفون وبالذات ، نحـــو بريطانيا العظمى بعد تلك المرحلة المفجعة بزمن طويل ·

ان الليل يحيط بمصر ويزداد حلكة · ومع ذلك يدخل الفكر المصرى مرحلة جديدة من سيرته ، مرحلة تتميز فى نفس الوقت بالتعميق النظرى وتوسيع مجال التأثير ، وبصفة خاصة التمايز الايديولوجى الذى أصبح منذ ذلك الحين يحدد الاتجاه العام للفكر والايديولوجية والثقافة فى مصر حتى يومنا هذا ·

أولا وقبل كل شيء تجديد الفكر الاسلامى · ان التصدع الذى حدث عام ١٨٤٠ ، ثم الاحتلال الذى كان يتهيأ منذ عام ١٨٧٩ ، كان لابد أن يصدم الجماهير العريضة الحساسة بالنسبة للاسلام · فأين تكمن أسباب التأخر وعوامل الانحطاط وبتبريرات التصدع ؟ لقد أدركت جماعة من المفكرين ، المتداخلين فى الطبقات الاجتماعية المرتبطة بالقطاعات التقليدية للاقتصاد والمؤسسات ، أدركت هذه الجماعة خطورة هـذا الغبن التاريخى الفظيع أكثر مما أدركته قطاعات أنصار التحديث فى مجال الاقتصـــاد فى ذلك العصر · لذلك دأب منظرو هذه الجماعة وبصفة خاصة محمد عبده على البحث فى أعمق أعماق التراث الوطنى ـ الثقافى ؛ وأعمقها تأثيرا ـ تراث الاسلام ـ عن الأسباب والوسائل · فلم يعد الدين والايديولوجية فى القرن التاسع عشر هما الدين والايديولوجية اللذين شرعهما محمد الرسول النبى العربى صلى الله عليه وسلم · بل تقاليد زائفة فى معظمها خزعبلات ، تركة هائلة من قرون الانحطاط والتبعية : لم يعد الاسلام اسلاما أصوليا ؛ وعلى ذلك فمن المعقول أن يكون هذا التشويه هو مصدر الانحطاط ؛ وان الرجوع الى الأصول هو الطريق لأى مستقبل ممكن لأى بلد اسلامى · الرجوع الى الأصول الأساسية ؛ استعمال العقل أو فى الحقيقة الحاسمة الصادقة ؛ ولكن فى اطار الدين وحده · الوجهة العملية التى تتيح الانفتاح على العصرية ولكنها تنكر مسبقا عمليـــة التنظير ؛ ورفض كل جدليـة اجتماعية باسم وحدة الأمة ؛ ورفض موقف التاريخية نظرا لتفوق الماضى كمبدأ ـ كان ذلك على ما يبدو يكون المصدر العميق للفكر الدينى من جهة ، وكذا ومن جهة أخرى الملامح الرئيسية لتطبيق هـــذا الفكر فى

المجالات السياسية والاجتماعية لهذا التجديد · ان هذا التجديد يعتبر « أصوليا » بصفة خصوصية : ومن ثم كانت التسمية التى اقترحناها منذ ١٩٦٢ وهى « **الأصولية الاسلامية** » ، بدلا من مجرد « التجديد » دون تحديد لطبيعة مضمونة ·

وفى غمرة البداية الهادرة التى استهلت العنف الثورى ، تميز قادة الأصولية الاسلامية وزعيمهم بالاعتدالية التى شارفت الجمود : ومن ثم كان وصف أنصار الوسط « الجيزونديين » الذى أطلق عليهم فيما بعد ·

أما الراديكاليون ، فكانوا شيئا آخر · ومع ذلك فقد كانوا يتشبثون بنفس الأرضية ، ولكن بصورة جزئية فقط . كان الاسلام يغذى الاتجاهين. وكان الأزهر يستقبل ويشكل · ولكن فى المرحلة الأولى فقط · ويسمح التحليل الاجتماعى بتقسيم الطبقات والفئات الاجتماعية طبقا لعاملين الأول يقوم على أساس الهيكل والبنيان التحتى ويمثل فى قطاع الاقتصاد والحديث المتأثر بالصناعة والمالية الأوروبية ؛ والثانى يتعلق بالبناء الفوقى ويتمثل فى النظام التربوى الحديث الذى وضعه الخديوى ، وهو نفس النظام الذى عمل من أجله ــ ولكن بأهداف مختلفة على الأقل بالنسبة لما هو فورى ومباشر وفيما يتعلق بالأسلوب السياسى ــ كل من الطهطاوى وعلى مبارك فى شجاعة واقدام · والطهطاوى هنا ليس زعيما ورائدا فحسب : وانما **هو خالق مبدع ومنظر أصـيل** · فبمجرد الانتهـاء من عمليات التمهيد السياسية والتاريخية ، نراه يتصدى فى آخر مراحل تفكيره بصورة مباشرة للمجالين الاقتصادى والاجتماعى ليتجه نحو الاشــتراكية التى تشابه أساليبها أساليب ماركس أيام نشأتها وخاصة فيما يتعلق بنظرية القيمة والتصورات الخيالية اذا شئنا المحركة الى درجة أكبر ل «فورييه» Fowier آنذاك ·

كان الطهطاوى هذه المرة يعلن ويصرح ، أكثر مما يقول ويوجه · أن قيادة الحركة الوطنية ــ « **جماعة حلوان** » التى أسلمت زعامتها لعرابى ــ تطورت انطلاقا من نظريات ليبرالية استقلالية ودستورية مقبولة الى حد كبير بالنسبة للعصر ، بفضل النزعة العملية « البرجماتية » الحذرة التى لم ينكرها التفجير الثورى الا لفترة من الوقت · واذا بجبهـة الطبقات الصاعدة فى ذلك العصر ، والتى لم يحسن تركيبها ، تتسلح بطبيعة الحال بجهاز أيديولوجى انتقائى · انتقائية اذن ــ وليست تاليفية أو تركيبية · ان القوى الصاعدة فى ذلك العصر ، والتى سقطت عام ١٩٥٢ ، لم تكن قد توصلت بعد الى اجراء عملية الانتقاء النقدى التى تسبق كل عملية تأليف أو تركيب ؛ لقد فضلت التلاحم الجبهوى على التحليل ؛ الاجماعية الثورية على تحديد المبادىء والطبقات · حينئذ وعلى ما يبدو لنا دخلت

أيديولوجية « **التحديث الليبرالية** » مرحلة اهتزاز الرؤية والابهام ــ رغم الطهطاوى • واذا بالتحديث يضم تحت راياته جوانب كاملة من العتيق المقدس بسبب انتمائه الى جسم الأمة ، فريسة التدخل والاحتلاف من جانب أوروبا الاستعمارية بأسرها • وفى هذا الاتجاه ، كان للثورة الوطنية الأولى فى مصر الحديثة آثار خطيرة ضارة بالنسبة للمستقبل : فمن الاجماعية التى هى فى الواقع تلاحم ، الى الاضطراب ؛ ثم من الاضطراب الى العجز والوهن ــ فى الحق كان التحول سريعا بين ١٨٨٢ و ١٩٥٢ • لكننا هنا بصدد تاريخ آخر رأينا أنه من الضرورى الاشارة الى نقطة بدايته هنا بقدر ما تؤثر هذه الاشكالية على المستقبل •

ولكن كل شىء لا يجرى فى سماء الدولة وبرجها العاجى ، ومن حولها القهر والارغام • **فلابد أن نأخذ فى الاعتبار الرحيق الشعبى الذى يغذى** ويروى فى قوة وتدفق أدب الحياة اليومية وفنونها ، والذى يستخدم أساسا وقاعدة في ساعات الخطر ضد الضياع الوطنى ، في مواجهة الغزو . ولم يكن عام ١٨٨٢ كعام ١٨٤٠ : فقد تحول التسرب ثم التدخل الى احتلال • صحيح أن « **جماعة حلوان** » والجيش كانا يتصدران مسرح الأحداث • لكن الجيش كان جيش فلاحين وكان عصيان القرى يفوق بكثير التمرد العسكرى وخصوصا بعد الهزيمة • وفى غمرة هذا التفجر ينبغى التركيز على ظاهرة جديدة وهى تبلور الشعبية الثورية كاتجاه ، حول شخصية عبد الله النديم الاسطورية • واذا بأفكار ونظريات الطهطاوى تبلغ تمامها وكمالها حتى غايتها الاشتراكية ، يتلقاها ويواصلها صحفى وخطيب موهوب كلف بتمهيد طرق الحساسية والتفكير عند الجماهير الشعبية ، عليم بنقاط الانفعال وعوامل الارتباط والتوحيد بأوسع احتمالاتها ، وفوق كل شىء ، عليم بالفاعلية التاريخية للظاهرة الثورية • وعلى ذلك فالثورة فى رأى النديم ليست عصيانا وانما هى مراس عملى نقدى • ومن العدو لابد من استيعاب معانى تسلحه ومغزى اسهامه ؛ ومن الأنا التاريخى العميق ـ من الذات الوطنية ــ لابد من معرفة خصوصيتها وطرقها بل أصواتها أيضا • ان الدولة كعامل رئيسى فى العمل والأيديولوجية ، لابد من حفزها بل ودفعها الى الأمام بواسطة الشعب • فانطلاقا من الشعب ومن أجل الشعب ، ونحو الشعب ، يمكن ويجب أن تجد النظريات القومية والراديكالية فاعليتها ــ أى خصوبتها الثورية •

وفى الليل ، ليل كل احتلال ، وفى غمرة الكدر والكآبة والتخلى والتخاذل والتواطؤ ، وأمام الفزع الذى أصاب البلاد اليائسة القانطة ينطلق صوت عبد الله النديم مناديا بتولى الشعب قيادة دفة الثورة ، بشيرا للمستقبل •

الباب السادس

نهضة مصر الحضارية
التحديات والرؤية

ها نحن اذن فى مقام استخلاص كشف الحساب النظرى بعد أن فرغنا من المسح التحليلى . فمن الممكن ، بل ومن الواجب أن نطرح سؤال امكان الانتقال من ذلك الذى يمثل على أية حال ، دراسة لحالة محددة ، الى مستوى الصياغة النظرية من ناحية أخرى ، وهى التى تتخذ صورا مختلفة من فروض واشكالية ابتداء من حالة متخصصة محددة — مسيرة مصر الناهضة فى القرن التاسع عشر . أو فى كلمة : هل من الممكن ايجاد النقلة من الخصوصية الى العالمية ، من المتخصص الى العالمى ، ولو كانت هذه النقلة على صورة مجرد فروض ؟

وعندنا أن الاجابة انما تكون بالايجاب . لا شك أن صياغة نظرية متكاملة تقتضى استعمالا أوسع بكثير لمنهج المقارنة ، خاصة فى مجال الامتداد الجغرافى ، وذلك ابتداء من مفهوم **الخصوصية التاريخية** يتخذ فاعليته بواسطة مخيلة اجتماعية بجرأة ؛ ويقف دون أن يكون نظرة طوباوية بالمعنى السلبى الذى تتخذه هذه الكلمة للأسف فى عصرنا . لكن هناك حالات ممتازة — والحق هنا أن مسألة اختيار الحالة المدروسة مسألة ثانوية فى الظاهر فقط . وعندنا أنه اذا أردنا لدراسة حالة ما أن تكون دراسة ذات مغزى ودلالة ، أى أن تضىء ما يتعدى حدود انطلاقها ، وهى الحدود التى لا تستطيع أن تتفاداها من الناحية المنهجية ، فانه يتعين أن يتبصر الباحث معدل الكثافة الخاصة بالحالة المدروسة أى : معدل التواجد الفعال ، وكذا الاتجاهية الحركية للعامل الذى أطلقنا عليه « **عمق المجال التاريخى** » . ونذكر هنا أن العناصر الرئيسية — التى قدمنا لها تحليلا فى مجال آخر — هى كما يلى :

أقدمية التكوين القومى المتجانس تجانس الكل القومى من وجهات نظر الانصهار الاجتماعى وسلطة القرار السياسى والتكوينات التى تنبع عن هذين العاملين؛ الارادة الصريحة والضمنية معا لاستمرارية المجتمع القومى كما تعبر عنها الثقافة والعمل الحضارى ؛ اتصال تواجد التكوين القومى من خلال الصور المتنوعة الشكلية والمؤسسية ؛ العلاقات العضوية مع ، وكذا التأثير الموضوعى على ، دول أخرى محددة بل ودوائر ثقافية وحضارية أخرى ؛ مدى تمثيل المجتمع القومى المدروس بالنسبة للوحدات المماثلة الموازية فى اطار نفس الحضارة ، ثم وابتداء منها ، بالنسبة للحضارات الأخرى .

ان درجة تواجد هذه العناصر والعوامل والقطاعات المختلفة ، وكذا

درجة تفاعلها المتبادل فى قلب حالة محددة ، وفي قلب بلد محدد هي التي تحدد معدل الدلالة من حيث المغزى ، وبالتالى الطاقة النظرية الممكنة لهذه الحالة المحددة · هناك أمثله شهيرة تنير أمامنا الطريق ومن بينهـا مثال الاقتصاد البريطانى فى أعقاب الثورة الصناعية والذى على أساسه أقام ماركس مؤلفه الكبير عن « **رأس المال** » · ان مصر ، وكذلك الصين فى الاطار الحضارى الآسيوى التى تمثل مركزه ، لا يمكن حصرها ومقارنتها بمجموعة تائهة من الجزر الضئيلة ، أو شبه جزيرة هامشية أو مجال جغرافي داخلى مقطوع من العالم ـ وكلها أمور تستعمل اليوم من قبـــل الاتجاه المعادى للتاريخية ، ألا وهو الاتجاه البنيوى ، قاعدة لانطـلاق مشروعها التعميمى العالمى من الناحيتين المنهجية والتفسيرية · لا داعى لنا هنا الى المبالغة : اننا بصدد أحد المحاور الحاسمة وقد تحددت فيه وحوله عملية تاريخ الحضارة واتصلت ، كى تثب من جديد منذ سبعة آلاف عام ·

ومن هنا نتبين السبب الذى من أجله نرى أن دراسة انبثاق المعاصرة فى هذا العالم ، وهو عالم يكاد يكون عالم الأزلية التاريخية وهى الدراسة التى حاولناها في كتابنا هذا ، في مستوى البناء العلوى بشكل أساسى ، يمكن أن تؤدى الى مجموعة من الفروض النظرية المنفتحة على المستقبل أكثر مما تؤدى الى رسائل كاملة التركيب ، صالحة لأن تكون قوالب للتركيب ، ان عمل التجديد النظرى الذى قمنا به بشكل مواز منذ عدة سنين والذى بدأ أن يطرح أمامنا أول تكويناته ابتداء من اشكالية أكثر اتساعا (١) ؛ نقول أن هذا العمل يفرض علينا التدقيق والحرص من الناحيتين العلمية والنظرية · لكن هناك أنواعا مختلفة من الظواهر والحالات موضع الدرس : ان كل دراسة لحالة محددة ليس لها نفس المغزى ؛ ومن ثم فلا يمكن أن تعامل معاملة هامشية منذ البداية · وبعد هذه الملاحظات أصبح لزاما علينا أن نحدد قائمة لنتائج البحث ـ على مستوى الوقائع وكذا على مستوى التصورات والمفاهيم ـ وهى قائمة الحساب التى سوف تمكننا من تقديم الاشكالية الخصوصية والعامة فى آن واحد ، التى يمكن ان نقدمها أمام البحوث المستقبلية ·

---

(١) المقصود هنا ، من الأساس ، عملنا لاعادة صياغة الفكر الاجتماعى والفلســفة الحضارية والسياسية الذى بدأناه بنشر الميلدين الأول والثانى ـ فى كتاب واحد ـ عن « الجدلية الاجتماعية » فى طبعته الأولى ، باللغة الفرنسية عام ١٩٧٢ ،،

وقد صدر بعد ذلك فى اللغات اليابانية ، والإســبانية ، والبرتغالية ، والايطالية ، والانجليزية ، كما أنه الآن يعد للنشر بلغتنا العربية القومية ·

والمشروع يتكون من أربعة مجلدات ، بقى منها مجلدان ان شاء الله· ومن حول هذا **المحور** الفكرى **النظرى** بدأ نشر عـــدد من الكتابات المواكبة لاثراء الرؤيا أولهـا كتـاب « **ريح الشرق** » ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ·

ان دراسة تكون الفكر والايديولوجية فى نهضة مصر الوطنية بين ١٨٠٥ ـ ١٨٩٠ سمحت لنا باستخلاص العناصر التالية :

١ ـ استطاعت مصر ، بفضل محمد على ، أن تقيم على أرضها اقتصادا وطنيا ، وليس فقط محليا ، وهو اقتصاد وطنى يتسم بسيادة الدولة من ناحية وبالانغلاق من ناحية أخرى · ان الأعمال الانشائية الكبيرة التى تحققت فى عصر اسماعيل هى التى كونت السوق الداخلية · ثم جاءت القروض · ثم زراعة المحصـــول الواحد ، القطن ، على أيـدى الغزوة الاستعمارية والاحتلال الامبريالى الذى أدى الى تعميقها ؛ وهى الظواهر التى تؤكد ادماج مصر بشكل نهائى فى السوق الاقتصادية العالمية خلال الثلث الأخير للقرن التاسع عشر ·

٢ ـ وقد نتج عن ذلك ادخال أعوجاجات عميقة ذات نتائج بعيدة المدى على الاقتصاد المصرى : الادماج فى السوق الاقتصادية العالمية فى ظل الهيمنة الأوروبية وعلى أساس الشروط التى فرضها الاستعمار ، وخاصة تفكيك احتكار الدولة للصناعة ؛ ثم الربط الجبرى بالجنية الاسترلينى ؛ ثم تقسيم البلاد أفقيا بين الوجه البحرى ، حيث التكنيك الحديث والصعيد، الذى يظل معزولا الى حد ما ؛ بينما تهدف المواصلات الى تحقيق هـدف واحد ، ألا وهو التعجيل من سحب المحاصيل نحو موانى البحر الأبيض المتوسط · هناك قسمة مميزة ثالثة ، ألا وهى الجدلية بين رأس المـــال المصرى والامبريالى وهى جدلية تندرج على مستويين : المجابهة المباشرة بين الدولة وبين أوربا بعد هذه المرحلة ؛ وكذا المجـــابهة بين الرأسماليين الأجانب أو من أصل أجنبى من ناحية والرأسماليين الوطنيين من ناحية أخرى ، وذلك حول نهاية المرحلة المدروسة فى هذا الكتاب · ان الطبقة الرأسمالية المحلية الوطنية ـ أى كبار الملاك الزراعيين ـ تقف فى ملتقى الطريق بين المدن والريف من ناحية وكذا بين الوطن والعالم الأجنبى من ناحية أخرى ·

٣ ـ ان تحديدهذا التكوين الاجتماعى ـ الاقتصادى ـ والذى أطلقنا عليه تسمية « الرأسمالية المتخلفة من النمط الاستعمارى ذات هيمنة زراعية » ـ وكذا القضايا النظرية التى تطرحها سوف تعرض فى القسم الثانى ·

٤ ـ ان الدولة تقيم البناء الاقتصادى تعمل كذلك على طول مساحة المجال الثقافى · ان البعثات العلمية الموفدة الى أوروبا وخاصة الى فرنسا تكون عنصر الطليعة · انها تهدف الى توفير الكوادر العسكرية والادارية والعلمية والثقافية للوطن المصرى وكذا الى العمل كى يكون هؤلاء الوسطاء

فى خدمة الدولة الوطنية دون سواها • هكذا تتجه المعارف العلميـــة والتكنيكية ، وكذا الأفكار الجديدة بل والنظريات الثورية ، الى أرض مصر من خلال حركة واسعة للترجمة سوف تسمح بظهور انتاج ثقافى يتكون من أعمال ابداعية فيما يقرب من جميع المجـــالات ، بما فى ذلك البحث والنظريات العلمية ؛ فى مرحلة تالية •

٥ ــ ان اقامة نظام تربوى حديث ، نظام الهرم المعكوس ــ أى ذلك النظام الذى يحدد فيه التعليم المتخصص والعالى نوعية المســـتويات المتوسطة والابتدائية ، وذلك دوما على أساس احتياجات الدولة ــ يتحقق بشكل واع على هامش التعليم الاسلامى التقليدى فى عصر محمد على • وبعد هذا النظام التربوى الحديث ، نشهد اقامة نظام تربية وطنية بمعنى الكلمة من حيث المؤسسات ومن حيث الفلسفة الموجهة فى عصر اسماعيل ، بعد مرحلة انتقالية قصيرة من الانفتاح على البعثات الأجنبية •

٦ ــ البعثات العلمية ؛ حركة الترجمة ؛ التعليم الحديث : الهدف هو تكوين الطلائع الجديدة دون هوادة • ومن هنا كانت انطلاقة حركة النشر الزاهية ، وكذا وثبة الصحافة ، الرسمية فى الأساس ، وان كانت تحوى قطاعا خاصا • ان رفاعة الطهطاوى هو الذى يدفع كل شىء فى مجالات اتخاذ القرارات ، وكذا التنظيم والتنفيذ ، ويشاركه على مبارك أيضا فيما يتعلق بتنظيم التعليم • ان رفاعة الطهطاوى وأتباعه هم الذين يصهرون نواة الأفكار التى تعمم هذا البناء الثقافى فى مجموعه والذى يمثل أكثر طلائع الشرق تقدما فى ذلك العصر •

٨ ــ كان لابد لهذه الانطلاقة الطليعية الثقافية المذهلة فى عصرها وفى ذلك القطاع من الحضارة الشرقية بالذات ، كان لابد لها من أرض تكون قاعدة محمية • كانت مصر فى القرن الماضى هذه الأرض بالذات ، ارض الحرية ، أرض النهضة الوطنية ــ الثقافية التى اتجه اليها المثقفون ورجال السياسة الذين اضطهدهم الاستبداد العثمانى وطاردتهم اجراءات الاضطهاد السياسية والعنصرية • وعلى أرض مصر عملت أنظمة دولة قوية ، دولة كانت دوما تسعى الى اقامة الامبراطورية ، وعلى احتضان وصهر وتحريك وتنظيم هؤلاء الوافدين • ولم ينجح الاحتلال فيما بعد أن يصفى هذا التقليد الكبير السخى •

هذه هى القوالب المؤسسية التى نريد أن نؤكد هنا دون أن تخشى التكرار طابعها الطليعى بالنسبة لهذه المرحلة التاريخية ، خارج أوروبا ، والتى سوف تشهد تحرك عدة عناصر فكرية فى اطارها •

٨ ــ يجد أنصار « سان سيمون » فى مصر ، وكذا فى مشروع شق قناة السويس ، مجال التجربة الذى كانوا يحلمون به • سوف يظهر

تأثيرهم فى مجال تقوية نشاط الدولة فيما يتعلق بالهيكل الاقتصادى القاعدى ؛ وأيضا بشكل ساطع فى مجال الخلط الذى يبدأ آنذاك بين اقتصاد الدولة والاشتراكية (راجع القسم الثانى فيما بعد) ٠

٩ ــ يعمل ظهور علم المصريات ، بوصفه مجالا علميا ، على الاهتمام بالتاريخ سوف يتجه نظر الطبقة السياسية المصرية الجديدة ، من الرواية التاريخية الى التاريخ العلمى بمعنى الكلمة ، الى الذات القوميــة ، الى الشخصية الوطنية والتاريخية أول الأمر ؛ وبعد ذلك وبسرعة الى العالم، وخاصة الى أوروبا مصدر التحديات ٠ انه عمل يحمل فى كل خطوة العلامة المميزة للطهطاوى وصحبه ٠

١٠ ــ ان التمييز النظرى بين « الأمة » و « الوطن » ــ وهو تمييز من صنع الطهطاوى ــ يبدو وكأنه النتيجة الطبيعية لواحد من بين العناصر التكوينية للخصوصية المصرية ، ألا وهى عنصر العمق الخارق للمجال التاريخى ٠ ان مفهوم الوطن يلعب دور نقطة الالتقاء وقاعدة الانطــلاق لارادة البلاد فى التباعد من التبعية العثمانية ٠

١١ ــ ان ارادة التباعد هذه تتطــور بشىء من الحرص من حيث وسائل التعبير عنها ٠ انها فى الاساس تنتمى الى الإستقلال الذاتى المنطوى على نفسه فى اطار امبراطورية تربطها روابط شكلية محضة ٠ سوف تظهر المطالبــة بالاســتقلال ، فى أواخر عصر اسماعيل ، كرد فعــل مباشر للاستراتيجية المهيمنة لاخضاع مصر سياسيا وعسكرية التى تندرج بين ١٨٧٠ و ١٨٨٢ ٠

١٢ ــ سوف يترتب على ذلك كنتيجة مباشرة تعميق للحركــة الدستورية على اعتبار انها مجال داخلى ذاتى حيث يمكن اطلاق يد نوع من الطرح الجذرى الراديكالى بحرية ؛ ويساعد على ذلك أيضا أن المؤسسات تبدو وكأنها تستطيع أن تسهم فى تعقيل الحياة الاجتماعية فى البلاد ٠

١٣ ــ سوف يظهر تأثير أوربا أيضا فى مجال الادب ، وكذا وبطريقة أنعم بكثير فى مجال تشعب الحساسية العميقة ٠ مستويان ، وبالتالى وجهان لهذا التأثير ٠ جماعات النخبة الجديدة تقلد ؛ وهى أيضا تعرف كيف تسلك طريق ايجاد أشكال حديثة ، ولو كان ذلك على درجات متفاوتة من التوفيق : المعمار ، الملبس ، وتنظيم المدن ، والمسرح ، بل وحتى الرواية التعليمية ٠ انها حركة تقليد ، وكذا أيضا حركة منازعة ٠ أما المستوى الثانى فنراه يغوص الى عمق الأعماق : يحافظ الأدب الشعبى على المواضيع الرئيسية التى تعنى بالشخصية ، وكذا بأسلوب المعايشة العاطفية للانسان على أرض مصر ٠ وهنــا نرى كيف أن الحرية ، والتحرير العاطفى الذى يواكبها ، تظل بعيدة بل وغير مدركة ٠ ورغم هذا فان عملية التحديث

تصل الى نقطة حساسة فى الحياة اليومية : ان تعليم النساء ــ رغم ضيق حدوده ــ يسعى الى أقلمة منازل الصفوة مع مقتضيات العصر الحديث • لم يتغير شىء جوهرى • ولكن الجوهرى ان شيئا ما يبدأ فى هذا المجال الجوهرى ، من الحياة اليومية •

١٤ ــ ان نشاط الاستعمار فى مجالى التعليم والثقافة يبدو بمثابة أخطر أعمال الاستعمار كلها • ان الضغوط الكمية الاجبــارية تتناقص وتصطدم تماما مع كل العمل الذى أنشىء بين ١٧٩٨ و ١٨٥٠ • والأخطر من ذلك هو أن روح هذه السياسة انما تهدف الى الحكم باعدام مستقبل البلاد : الهدف هو تحييد أعمال الفكر النقدى ، وذلك لصالح الاستذكار الحرفى ؛ ووضع اللغة العربية فى مكانة هامشية ، ومن ثم الثقافة الوطنية ؛ وتكوين دفعة من الموظفين فى المســتويات الدنيا للتنفيذ ، وهم يحيطون بارستقراطية من الملاك العقاريين أصحاب التكوين البريطانى • ان عمق واتســاع الاتهامات والنقمة التى وجهت ضــد هــذه الثقافة العنصرية والاستعمارية تتناسب حقيقة مع مدى المضار التى أصيبت بها البلاد من جراء تلك السياسة اننا هنا بصدد مشروع مضاد شامل هو فى الحقيقة « نهضة مضادة » ، هدفه القضاء على الشرق •

الشرق من ناحيتــه يبحث عن أســباب انحطاطه وكذا عن مفاتيح المستقبل • وهنا نجد أجابتين أو بالاحرى أسلوبين ، أو طريقتين ، لوضع المشاكل سوف تسهم فى بلورة الاتجاهين الرئيسيين للفكر وللايديولوجية فى مصر ، وكذا فى الأمة العربيــة ؛ اتجــاهان كانا حتى هذا الوقت فى مستوى الوجود الضمنى •

١٥ ــ جماعة أولى من المفكرين ، حول محمد عبده ، تتجه الى الاسلام بوصفه قمة ومفتاح التراث الوطنى ــ الثقافى منذ القرن السابع • وعند هذه الجماعة أن التعليم الاصولى للاسلام اصابه التحريف والعفن والفساد من جراء أجيال الانحطاط ، مما جعل الاســلام لا يفى بايمان المؤمنين ومقتضيات المرحلة التاريخية • ومن ثم ، أصبح لا مناص من العود الى الأصول الأولية للاسلام ، مع نبذ قشور التقاليد والتفسيرات المشكوك فيها ، وذلك كى يمكن مواجهة العالم الحديث • انها مواجهة تريد لنفسها الاتزان : فالعقل ، بوصفه اعمال الذوق السليم بطريقة تجريبية لابد له على أية حال أن يتأقلم فى اطار هيمنة الايمان • لابد للوحدة أن تسود دوما على التنوع والجدلية الاجتماعية فى قلب الأمة • وكذا يكون الموقف بالنسبة للمحتمل، أى أن المرونة والمعانى الرقيقة ــ التى تنطلق من فكرة العودة الى الأصول ــ سوف تمكن هذه الجماعة من اتخاذ موقف شريف ولا شك ، وان كان يندد بالعنف الشعبى الثورى أكثر من تنديده بعنف الاجنبى حتى لحظة الصدام الفعلى • هذا بايجاز شديد مضمون التجديد الذى رأينا أن نطلق عليــه

الأصولية الاسلامية فى عصر نشأته • ان أولئك الذين سوف يصبحون فيما بعد أنصار الوسط والاتزان فى قلب الحركة الوطنية يستندون الى مجموعتين : أولا القطاعات التقليدية للاقتصاد والمجتمع ، تلك التى لم يمسها أو يكاد التفاعل مع التدخل والسيطرة الاقتصادية الأوربية ؛ ثم ثانيا الفئات الاجتماعية التى لازالت تتكون فى اطار نظام التعليم الاسلامى التقليدى من الكتاب الى الأزهر — والمجموعتان تلتئمان أفقيا ورأسيا •

١٦ — ان البطء الظاهرى لعمليـة استرداد الميـــراث الفكرى والايديولوجى التقليدى ، بعد تنقيته وتحديثه ، يجب ألا تخدعنا • انها بداية عملية بعيدة المدى سوف تمكن رجالها من تحقيق انتصار ذلك الذى منه تتكون ما اتفق على أنه ذات مصر الجوهرية ، على كافة العطاءات التى تشوه ومعها الايديولوجيات المريبة — أى على غزوات « الغير » ، على كافة الامكانات الأخرى • ان السلفية والاستبداد متضمنان ، بشكل صريح ومنذ بداية الأمر ، فى قلب هذا الاتجاه •

وفى مقابل هذا الاتجاه نرى أن الافكار والرسائل الخاصة بما اقترحنا أن نطلق عليه **التحـــديث الليبرالى** — تتجمع وان كانت تقف دون حد الاندماج • عناصر ثلاثة يتكون منها التركيب الفكرى لهذا الاتجاه آنذاك •

١٧ — المرحلة الأخيرة من فكر الطهطاوى — أولا وقبل كل شيء • فقد اتجه الى النقد الاقتصادى والاجتماعى وقدم رسائل اشتراكية محددة قريبة من الاشتراكية الأوروبية شـــكلا ، ان لم يكن الهاما • ان هذه الرسائل تتقدم الحركة وتبشر بالمستقبل ، وكأنها تفقد كل نفوذ مباشر وواقعى بفضل طابعها المتقدم أكثر من اللازم بالنسبة للمرحلة التاريخية • لكنها رسائل سوف تؤسس حركة اتساع مجال الاشتراكية العلمية نحو أوسع الأوساط الوطنية خلال السنوات القليلة الماضية التى نحياها • هذه هى حقيقة آخر تركة أورثها رفاعة الطهطاوى الى نهضة مصر الوطنية ، وهى النهضة التى هو ولا شك أستاذها الفـــكرى دون جدال وأرفع ممثليها مقـاما •

١٨ — ان المجموعات السياسية التى تلهم وتساند العمل المباشر للحركة الوطنيـــة — أى ، على التوالى **الحزب الوطنى الأول** ، ثم ثورة ١٨٨٠ — ١٨٨١ — تقف كلها فى مستوى أقل فكريا وأيديولوجيا من موقف الطهطاوى • ان الأفكار التى تحرك تلك المجموعات تبـــدو على صورة خليط غير متجانس من عناصر ذات طبيعة متباينة جوهرية ، لعلها أقرب الى خليط من التقليدية والليبرالية منها الى مزيج آخر بين الجمود السلفى والعصرية • ومنذ هذه اللحظة نشهد انعدام التحليل والدقة الصارمة الذى يبشر بالعفن البطيء والفشل التاريخى لليسارية فى مصر القرن العشرين •

والمهم هنا أن ندرك ذلك الالتقاء بين شعب المدن وشعب الريف خاصة مع الجيش الوطنى ، ضباطه وجنوده ، وقد وقفت الصفوة البرجوازية المحلية وخاصة المثقفون ، فى مكان الوساطة والقيادة ٠

١٩ ـ الالتحام بين الجماهير الشعبية وفئة المثقفين الثوريين يتحقق على وجه التحديد بين ١٨٧٩ و ١٨٩٢ ، في لحظة الثورة والهزيمة والاحتلال. ان هذا الالتحام من صنع نخبة من الكتاب ، وعلى رأسهم وفي طليعتهم عبد الله النديم ، البطل تلميذ ومكمل رفاعة الطهطاوى ٠ ان جوهر كتاباته يهدف الى ادماج رسائل استاذه دمجا عضويا في الجسم الحي للوطن العميق دون الاكتفاء باقناع الطلائع الجديدة وحدها بهذه الأفكار ؛ ثم فى طبع هـذه الرسائل بطابع ثورى حركى واضح ، وليس فقط راديكالى جـذرى على المستوى النظرى ٠ وهو ، اذ يفعل ذلك يتحول الى الأداة الفعالة لبلورة أيديولوجية وطنية وفكرية ثورية حقيقية ، ذات طابع عصرى وشعبى معا ابتداء من الفكر الثقافى فى مصر الناهضة ، من رصيد الأفكار والتحليلات والرسائل الذى صهر المثقفين والساسة ، وعلى رأسهم وبشكل رئيسى رفاعة الطهطاوى ٠

هكذا تدخل المرحلة التكوينية للفكر المصرى وأيديولوجية النهضة الوطنية لمصر الحديثة فترتها الختامية مع عبد الله النديم ، ابتداء من رسالة الطهطاوى ٠ ان التمايز الذى عرضنا له فى النقاط من ١٥ الى ١٨ من هذا القسم الأول يمثل الانتقال نحو المرحلة الثانية ، مرحلة اصطدام الوطن مع المحتل ولا شك ، ولكن أكثر من ذلك مرحلة تأصيل الجدلية الاجتماعية والأيديولوجية فى أعماق مصر ذاتها ـ وهى العملية التى درسنا الجزء الثانى منها فى عام ١٩٦٢ عندما صعدت طلائع ثورة مصر الوطنية الى الحكم بقيادة « **الضباط الأحرار** » ابتداء من الوجهة الجذرية لاتجاه الأصولية الاسلامية ٠

ـ ٢ ـ

أما وقد اتضحت المراحل الرئيسية على هذا النحو ، فقد أصبح من الممكن أن نحدد عددا من النتائج التى توصلنا اليها على المستوى النظرى ، وبوجه التحديد ، على مستوى صياغة المفاهيم النظرية ٠ وسوف نتناول عددا من هذه النقاط ، فى القسم الثالث ، من حيث علاقاتها بالقضايا التى تثيرها هذه النقاط ، وكذا من زاوية الاشكالية الاجمالية التى سوف تتشكل على أساسها ٠

هناك فى المقـــام الأول ، ثلاثة تجمعات كبيرة على مستوى صياغة التصورات النظرية كما يلى :

٢٠ ـ تصور التكوين التجميعي للدولة ، في المقام الأول : وقد استطعنا ـ في العديد من الأعمال السابقة ـ أن نوضح الطابع النادر التكرار ، الى حد التفرد ، في الحقيقة والتاريخ ، لهذا التكوين التجميعي في مصر ، كما أوضحنا النتائج التي تترتب على ذلك بالنسبة لطبيعة الدولة المصرية · والبحث القائم في هذا العمل يعمق الأعمال السابقة عليه من حيث انه يحلل في العمق مرحلة محددة تكشف بجلاء عن نوعية تاريخ مصر الاجتماعي والفكري · أي هذا البحث ، لو أتيح له أن يحقق ذلك ، سوف يجعل من الممكن أن نخلص الى اعادة تركيب جزئية لتصور الدولة ذاته ·

التكوين التجميعي للدولة · انه ينبع في الأساس ، ولكن ليس بشكل كلي مطلق ، من تركة المجتمع « المائي » ، ومصرنا أشد هذه المجتمعات كثافة في الحقيقة · ان وجود سلطة مركزية لأمر ضروري دائما وموضوعيا من أجل ضمان الري والأشغال العمومية التي تواكبه ، والتي تبلغ في الكثير من الأحيان درجة عظيمة من الاهمية · ان مركزة المفاتيح نفسها لعملية الربط بين الاسهام الحيوي بمعنى الكلمة للطبيعة ـ للماء ، رمز الخصوبة ، والأمن ، والاستمرارية ـ بين أيدي سلطة الدولة ـ وهي المركزة التي سيقال عنها بشيء من المبالغة انه لا مفر منها ـ تحمل الدولة ذاتها أن تفكر في مصير الأرض التي تتحمل الدولة تحقيق احتياجاتها على هذا النحو الشامل · ستكون الأرض اذن ، من عصر الفراعنة الى سعيد ، ملكية أو امتيازا أو مجال تحكم مطلق للسلطة المركزية ، التي سوف تمنح أحيانا الى كبار رجالها ومحظوظيها حق استعمال الأرض · وسوف تصدر المطالبة بالملكية الخاصة بالأرض من هذه الزاوية الأخيرة ـ لا من زاوية الانتفاضات الفلاحية · ان الدولة ، مالكة المياه والأرض ، تمارس سلطة قرارها بواسطة أداتين : جهاز الدولة بمعنى الكلمة ؛ ثم الأيديولوجية · وقد سبق أن ذكرنا أن مقتضيات المجتمع المائي لا تعمل بمفردها · ذلك أن البلد الذي يرضخ لتلك الضغوط المائية ، الصادرة من وضعه الذاتي ، هو أيضا بلد تحاصره جغرافيا لا ترحم : انه بلد قائم في ملتقى ثلاث قارات كانت هي بالذات التي تملك مصائر العالم حتى القرن الماضي ؛ بلد قائم في قلب تلك الدائرة المتحركة ، وعنوانها البحر الأبيض المتوسط ، غرب آسيا أو الشرق الاوسط ، منبع الأديان والفلسفات ؛ ورافد الحضارات الغربية الكبير (بالمعنى الجغرافي لكلمة الغرب) ؛ بلد يقدم أيضا ، من حيث هو ، على النحو الذي هو عليه ، ساحة تكاد تكون مسطحة تماما ، قابلة لجميع الغزوات التوغلية · الجغرافيا هنا تفرض ـ ابتداء وقبل كل شيء ـ الجيوسياسة (جيوبوليتيكا) ، أي الطرح السياسي لكافة

القضايا الممكنة : ان تاريخ مصر ليشهد على ذلك بشكل ملحمى ؛ بما يشهدنا عليه من حروب ، وغزوات ، واحتلالات أجنبية ، وهيمنات مرفوضة ، وحركات تحررية مظفرة — واستمرار حضارى لحضارات متعاقبة — فى مأساة تفاؤلية لا مثيل لها فى تاريخ الانسانية ٠

ان مصر تستمر فى الداخل ، وكذا فى مواجهة الخارج ، بواسطة الدولة ، أى بواسطة الجهاز الادارى ، البيروقراطية القائمة منذ آلاف السنين ؛ وذلك من حيث التحليل المسطح بطبيعة الأمر ٠ وانما مصر تستمر أيضا بواسطة جهاز الاجبار والعنف العقلانى المنهجى الذى تتكون منه النواة العميقة لكل دولة ممكنة : وهنا سوف يتجه التركيز الى الجيش ، من حيث أن المخاطر تكمن فى مجال الغزو أكثر منها فى مجال الانقلاب ٠ ومن هنا يمكن أن ندرك السبب الذى يجعل جهاز الدولة يستشعر ، فى أعماقه ، تلك الضغوط بمثل هذه الحساسية العنيفة المرهفة ، وكذا ندرك أن الخطر الرئيسى يتخذ مظهر التفتيت والتفرقة ، أى مظهر ما أطلقنا عليه تسمية « **الجدلية الاجتماعية** » ٠ ان المركزية تقود مباشرة الى الحكم المطلق ، وهذا الحكم المطلق يتحول ، فى العديد من الأحيان ، الى الاستبداد ٠

ان الأيديولوجية هى بمثابة سقف مجموعة هذه العناصر والعوامل، وان كانت هذه الظاهرة أقل وضوحا من حيث استمراريتها التاريخية ٠ سوف تتبدى هذه الايديولوجية ، فى معظم الأحيان ، على صورة علوم الدين ، أو الدين بالمعنى الضيق ، وتتخذ هذه الايديولوجية الدينية آنذاك صورة أحادية ، وحدانية ، توحيدية من آمون — رع حتى الاسلام السنى ، عبر المسيحية المصرية الشرقية ٠ الغاية هنا انما هى : تقديم اطار فكرى ، ثم اطار تصورى نظرى فيما بعد ، الى التفكير والحساسية ؛ يكون فى آن واحد اطارا يملك معانى الثبات الكافية لتمكين التكوين البنيوى الموحد للمجتمع الشامل من الاستمرار ، وكذا يكون مرنا الى حد كاف كى يستوعب عمليات التأقلم الضرورية ، والتعديلات والتجديدات العصرانية٠ فاذا كان ادراك الايديولوجية على هذا النحو ، أى بوصفها من شأن الحكم وكذا عنصر صهر الوحدة الوطنية ، فهل يصبح من الضرورى الاشارة الى أن الدولة نفسها هى التى ستقوم بتشكيل تلك الايديولوجية الى درجة معينة ، وانها هى التى سوف تنظم أمورها على كل حال ، أى هى التى ستحقق عملية ادارتها الفعلية والفعالة ؟

سبق أن ذكرنا أن التحليل المقدم هنا سوف يمكننا من أن نخلص الى اعادة تشكيل جزئى لتصور الدولة ذاته ٠ ان العنصر المركزى لذلك

التصور ـ أى مركزية جهاز الاجبار ـ يستمر كما هو ، بل ويزداد عمقا وتوكيدا بواسطة مسيرة ذلك التطور الطويل • انما الامر ليس كذلك بالنسبة للعنصرين الآخرين : أى البنية التحتية للقاعدة الاقتصادية ، والبنية الفوقية الايديولوجية • ان العنصر الاقتصادى ، فى حالة مصر ، يجنح الى فكرة أن الدولة ليست فقط ممثل ، أو أداة ، الطبقة ، أو الطبقات المالكة المهيمنة ، من أجل ممارسة سلطة الاقرار والرقابة فى الحياة الاجتماعية بكافة أبعادها ؛ وانما أن الدولة أيضا يمكن فهمها ، فى بعض حالات ، على أنها البناء التكوينى المتخصص للطبقة أو للفئات الاجتماعية المهيمنة ، وليست فقط ممثلها أو أداتها • ذلك أنه منذ عصر الامبراطوريات القديمة فى مصر الفرعونية ، وكذا فى دراستنا الحالية عبر نهضة مصر الوطنية فى القرن التاسع عشر ـ وبشكل أوضح فى نظام الحكم السياسى النابع من استيلاء « الضباط الأحرار » على السلطة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ نتبين أن الدولة هى الطبقة الحاكمة والمالكة فى آن واحد ، وليست جهاز ادارة وتمثيل يمارس سلطات غير مباشرة بالتوكيل أو الانتداب • ومن هنا ، على وجه التحديد ، نتبين أسباب العديد من المظاهر : الكثافة العضوية العالية جدا لتكوين الدولة ذاتها ؛ التناسق الاجتماعى بالغ الأهمية بين المصدر الاقتصادى للسلطة من ناحية والجهاز الذى يمكن هذه السلطة من الاستمرار من ناحية أخرى ؛ وأيضا تلك المقاومات التى تبلغ أقصى درجة من العمق فى مواجهة أى تنديد جذرى لتلك الهيمنة التى ينظر اليها وكأنها راسخة وقائمة فى الحقائق الواقعية ، أى فى عملية استمرار الحياة اليومية ذاتها ، وليس فى اتفاق ، أو تعاهد ، أو انتداب ـ وهى كلها عمليات تمت الى نوعية ادخال معقولية لاحقة ، تبدو وكأنها دخيلة على خصوصية مصر وتراث الدولة فيها •

وكذا نرى أن عنصر البناء الفوقى ، الذى يمكن أن نطلق عليه تسمية الاكتفاء الذاتى الايديولوجى بمعنى الكلمة ، يتجه بشكل مواز فى نفس الاتجاه • ان الدولة ، كل دولة ، يمكن تفسيرها ، وكذا ، فان الدولة تعقلن سلطتها ، وتتباهى فى مرآة الدائرة الايديولوجية • ومن ناحية أخرى ، فمن الحق أيضا أن نقرر أن اللقاء يتم ، أثناء ساعات الخطر ، بين ارادة الدولة الوطنية من ناحية ، وبين الايديولوجية ، أو ، بوجه أدق ، بين الموافقة الأيديولوجية الضمنية أكثر منها الأيديولوجية المعلنة للشعب ، من ناحية أخرى • والحق أن مصر تقدم مثل دولة تستشعر أكبر المصاعب فى الاكتفاء بمثل هذه اللقاءات بين الحين والآخر — بين ارادة الدولة وأيديولوجية الشعب ـ ، فهى دولة تقوم نفسها ابتداء من تعريفها الذاتى لخصوصيتها التاريخية ، فى قلب البعد الفكرى الايديولوجى نفسه •

وهذا ، فى رأينا ، هو الذى يفسر أسباب عدم وجود تراث فلسفى متصل فى الحضارة المصرية ، منذ القدم حتى عصرنا هذا ، بينما نشهد كيف أن اقامة أشكال وعناصر الحضارة المادية والفكرية ــ الثقافية تبلغ مستوى رائعا من القوة ، والاصرار الحيوى ، ومقاومة آثار التقهقر والاضمحلال ٠ ذلك أن الدولة ، مادامت تدخل الفكر والايديولوجية فى مشروعها الجوهرى ، يصبح لزاما عليها أن تحقق التحريك الديناميكى لتلك الايديولوجية ٠ لكن وجهة جهاز الادارة ، أى البيروقراطية ، وجهاز الاجبار هى الابقاء والاستمرارية ، لا الجدلية ــ النظام لا الحركة ٠ أن الدولة تصبح هكذا عاجزة عن صياغة وتطوير الفكر والأيديولوجية ، مادامت تقيم نفسها على هامش الموقف النقدى وفى موقف المواجهة له ؛ وأن كانت الدولة تستمر فى نفس الوقت فى اعتبار نفسها الولى على أمر الفكر والمنظمة له ٠ الفكر النقدى اذن سوف يميل اتجاهيا الى أن يضيق ، بينما تتجه منابع التجديد الى الاضمحلال ٠ ان الأيديولوجية المعبر عنها ــ الأيديولوجية المعلنة ، غير المعترف بها ــ سوف تواكبها ازدواجية مع نسيج عميق جدا من الايديولوجية الضمنية ، تجمع بين عناصر من كافة الطبائع والمصادر ، نسيج تندرج فيه الحياة الفكرية للوطن العميق ، تحت الضغط ، فى مواجهة الاختناق ، أو ، فى الكثير من الأحيان ، من خلال موجات السخرية والتنكيت ، نبرة ، مفاجئة ، لا تقاوم ٠

٢١ ــ تصور **التكون الاجتماعى ــ الاقتصادى الرأسمالى المتخلف من** الطراز الاستعمارى ذى الطابع الزراعى المميز ــ **وهو المفهوم الذى وضعناه ابتداء من نقد مفهوم الاقطاعية ، بما فى ذلك نوعيته المعروفة باسم** الاقطاعية الشرقية ، وكذا أيضا نقد الطرح البنيوى لمفهوم الرأسمالية ٠

ان جوهر العمل النظرى فى هذا المجال ــ وقد سبق أن تناولناه فى **مجموعة الاعمال السابقة ــ منذ ١٩٦٢ ــ هدف الى استخلاص مجموعتين** من الظواهر ٠ فهناك ، أولا ، الثنائية التى نراها تستمر فى المجتمع المصرى **فى القرن التاسع عشر ، كما أيضا فى العديد من التكونات الاجتماعية ــ الاقتصادية الاخرى من طراز مماثل ، بين طبيعة النظام الاقتصادى الاجتماعى المهيمن من ناحية ، وبين انماط العلاقات الاجتماعية ، وكذا العلاقات الانسانية التى تظل صاحبة الاغلبية بشكل واسع بين صفوف الشعب ، بما فى ذلك الطلائع الجديدة من ناحية أخرى ٠ ولايمكن أن نكتفى بتفسير موجة استحسان مفهوم الاقطاعية ابتداء من دوافع سياسية نابعة من مقتضيات العمل المباشر** ، كما بينا ذلك فى عام ١٩٦٢ ٠ بل هناك أيضا اهتزاز على مستوى التصور النظرى ذاته ٠ وهذا الاهتزاز ناتج

عن ادماج غير نقدى لمفهوم الرأسمالية ـ منظور اليه بطريقة بنيوية غير قابلة للصيرورة ـ الى تحليل بزوغ التكونات الاجتماعية ـ الاقتصادية الرأسمالية فى المجتمات اللا ـ غربية ، أى فى البلاد المستعمرة أو التابعة سابقا والمجتمعة اليوم جغرافيا داخل اطار القارات الثلاث ، وخاصة الشرق الحضارى فى آسيا وأفريقيا ، ومصر العربية فى قلبها . لقد صـدر هذا الاهتزاز فى التصور النظرى من التفكير الذاتى : لو كانت الرأسـمالية فى بلاد القارات الثلاث (آسيا ، أفريقيا ، أمريكا اللاتينية ليست عينها الرأسمالية فى أوربا وشمال أمريكا ، اذن فلا يمكن أن يطلق عليها تسمية الرأسمالية . أن هذا المنهج فى التفكير يذهب بعيدا كما نرى . أن موقف التمركز حول أوربا يبدو وكأنه يمنع التحليل الواقعى . والحق أن أخطر آثاره انما يكمن فى أنه كثيرا ما يصيب بالعقم الفـكر النقدى ، وكـذا التطوير النظرى الجرىء ، ابتداء من المعطيات الواقعية الجديدة ، المغايرة لواقع الغرب ، على أيدى المثقفين الوطنيين أنفسهم ، الذين يترددون فى التقدم عبر مسارات جديدة ، هكذا دون أساتذة ...

أن الموقف الذى نحـدده هنـا ـ الموقف التركيبى ـ التطـورى ، الجدلى ـ النقدى ، ليمكننا من استخلاص القسمات المميزة للتصور الذى نقدمه هنا ابتداء من الواقع الاجتماعى المصرى فى لحظة نهضته الوطنية الاولى . فاذا كان فى الاسـتطاعة تحديد بزوغ ، ثم هيمنة ، القسـمات المميزة التكوينية للرأسمالية ـ أى الانتاج من أجل السـوق ، ثم العمل المأجور ـ فى قلب تكون اجتماعى ـ اقتصادى ، كما هو الحال في مصر ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر والنصف الثانى من هذا القرن ، فعندئذ وجب الربط بين هذاالمجتمع وتصور الرأسـمالية . الا أن تركيب مثل ذلك التكون الاجتماعى ـ الاقتصادى نفسه لايمكن أن يبتدىء بنفس الصورة التى نراها فى حالة الرأسمالية « الكلاسيكية » ـ كما درسـها وعرفهـا آدم سميث وكارل ماركس ، فى المقام الأول ـ ، مادام ذلك البلد قد مر عبر تاريخ مغاير .

بل وعلينـا أن نمضى قدما الى الأمام : ليست المسألة مسـألة المظاهر المختلفة ، وكذا ليست القضية قضية شـكلية . أن مكانة مصر التاريخية والجيو ـ سياسية ، وكذا مكانة العلم المستعمر والتابع كله ، ليضعها فى مكانة هامشية بالاجبار بالنسبة للثورة الصناعية ، القائمة على السيطرة على العلم ومختلف التقنيـات الحديثـة . ويترتب على ذلك بالحتمية أن الرأسمالية فى مصر ـ ولنكرر هنا أن الأمر كذلك بالنسبة للرأسمالية لسائر البلدان المستعمرة والتابعة ـ لايمكن الا أن تـكون مغايِرة من حيث المضمون . والمسـألة عندئذ تصـبح ما اذا كانت تلك

المغايرة أو ذلك الاختلاف ، كميا ، أو كيفيا ، يمتد الى جوهر طبيعته الظاهرة فى الحالة الاولى ــ وهذا موقفنا ــ فاننا نقف أمام الرأسمالية . تمت صورتها وكذا بناؤها الداخلى ، أى اتزانها البنيوى التكوينى ؛ الى الرأسمالية ، وانما يتحدد ذلك على أنها رأسمالية يجب أن تحدد مكانها فى سلم نمطى لمختلف أنواع النظم الرأسمالية . ومن هنا كانت التسمية التى اقترحناها هنا ، وهى « التكون الاجتماعى الاقتصادى الرأسمالى المتخلف من الطراز الاستعمارى ذى الطابع المميز » . أما فى الحالة الثانية ، أى فى حالة الاختلاف الكيفى ، فلسوف يطلقون عبارات الـ « اقطاعية » وال « اقطاعية الشرقية » ، وهو الموقف الفكرى الذى فندناه هنا ، وكذا فى أعمال أخرى ، دون هوادة .

ان طرح القضية على هذا النحو يمكننا من أن نضع عملية التحليل الاجتماعى والايديولوجى فى موضع أفضل ، كما تمكننا من تأصيل العمل السياسى تأصيلا علميا ؛ وهى أيضا تمكننا ، وهذا ما نريد أن نؤكده هنا ، أن نثرى ونعيد تكوين تصور الرأسمالية (الغربية) ، ومن ثم أن ندقق فى حصرنا لتصور الاقطاعية .

من ناحية أخرى ، فان موقف التدقيق التصورى النظرى سوف يمكننا من ادراك أفضل للمستوى المزدوج الذى تندرج فيه حركة الأفكار والجدلية الاجتماعية بأكملها . ان المستوى الثانى ، المستوى التقليدى والضمنى ، سوف يضغط بثقل غير متسق على مستوى المعاصرة ، على أساس أن الايديولوجية لا تواكب تغير المجتمع الا بطريقة غير متسقة لا تكون أبدا بطريقة آلية مباشرة . ويزداد ذلك عندما يكون ذلك التغير نفسه مضطرا الى التكوين التجميعى الذى لا يتجه الى الانصهار فى تركيب متكامل . وهو موضوع سيكون لنا اليه عودة .

٢٢ ــ القضايا المتعلقة بصياغة تصورى **الوطن** و **الأمة** ، وذلك فى اطار أقدم التكونات الوطنية ــ القومية فى العالم قاطبة ، ألا وهى مصر .

ان الجدلية التى تندرج هنا بعيدة كل البعد عن تلك التى نشهدها فى النمط التقليدى ــ أى فى عملية بزوغ تصورى الوطن والأمة فى لحظة انشاء الدولة الوطنية المستقلة فى المرحلة المواكبة للتحول بين الاقطاعية والرأسمالية ــ وهى التى تكون الموضوع الرئيسى للدراسات المعنية بالقضية الوطنية ، بما أطلقنا عليه **الظاهرة القومية** the nationalitariam process. وهذه الجدلية أيضا مغايرة لتلك التى نراها تعمل فى مجال ما أطلق عليه بشكل تحكمى تسمية « الأمم الجديدة » ، أى تلك

التى تلحق بركب عمليات تطور الأمم النامية ، ولكن بشكل جزئى ، أى من حيث المرحلة الزمنية ، اذ نراها تحاول أن تلحق بمؤسسات وأشكالية المرحلة الزمنية الاخيرة ــ وكان الكثافة التاريخية ، وبوجه أهم ، الخصوصية التاريخية ، لكل مجتمع قومى لهى أمور ثانوية ٠ وعلى وجه التدقيق ، فان الاشكالية الخاصة لتشكيل تصورى الوطن والأمة ، وتحديد جدليتهما الواقعية ، تبدأ من أساس ثابت هو خصوصية مصر التاريخية ٠ وفى مرحلة أولى ، نرى أن هذه الصياغة هى بمثابة عملية استرداد ، أكثر منها عملية ابداع ؛ بل وأكثر من ذلك فهى بمثابة بعث صريح الى الحياة من جديد أكثر منها مجرد الاسترداد ٠ لقد بينا ، باستخلاص الاتفاق الشامل فى أعمال الاخصائيين ، مدى عمق الشعور الواعى للانتماء الى أرض مصر لدى المصريين فى مطلع نهضتهم الوطنية الاولى ٠ ان علم النفس الشعبى الجماعى ليشهد على الاستمرارية فى طريقة ادراك العالم والبشر ، عبر أربعة أجيال من التقهقر والاحتلال ، طريقة ادراك تمد جذورها الى مصر الفرعونية وتستمر كذلك حتى اليوم ، من خلال عبارات وظواهر ظلت كما هى فى الكثير من الأحيان ان هذه الاستمرارية العنيدة ، التى لا تقهر ، المضيافة أيضا ، تمت الى مجالات علم نفس الاعماق وعلم النفس الاجتماعى الشعبى ٠ وهذه الاستمرارية فى حقيقة الأمر انما هى شعور بالانتماء الى أرض وثقافة يضفى عليها شعور الانتماء الوطنى صفة الصدارة دوما ، دون أن يكون فى ذلك بالضرورة نبذ أو رفض ما ٠ وعلى هذا الانتماء الى الوطن المصرى أن يبحث عن مسارات استمراره على قيد الحياة ، أكثر من بحثه عن التعبير عن هـذا الانتماء ، عبر غزوات واحتلالات متكررة ، من الهكسوس الى البريطانيين والصهاينة ، وذلك خلال المراحل الثلاث للحضارة المصرية : الفرعونية ، القبطية ، الاسلامية ــ العربية ٠ سوف تعيش مصر وضعيتها القانونية بوصفها ولاية ، منذ الاحتلال التركى حتى محمد على وابراهيم على وجه التخصيص ، وهى تبعية بالنسبة لامبراطورية شديدة الحساسية ازاء كل استثنائية ــ ازاء كل اقليمية على حد تعبيرنا اليوم ٠

الهدف هو استخلاص الخصوصية المصرية ٠ وأيضا ، وفى الوقت ذاته ، طمأنة المجموعة الاسلامية الأكثر شمولا ، وهى التى تحتاج النهضة المصرية الى عطفها ، بل وموافقتها ٠ والهدف أيضا هو اقامة مصر كوحدة وطنية متميزة ٠ ولكن مجال التحرك لا يزال خاضعا للسلطات الاستعمارية فى أوربا الصناعية ٠ ومن هنا جاء الاهتزاز المتصل فى التحرك المصرى من ناحية ، والحرص ؛ وكذا البحث عن قنوات جديدة من ناحية أخرى ٠

ستتصف اذن عملية صياغة التصور النظرى بصفة الاهتزاز ٠

ذلك أن المجتمع القومى ، الأمة ، بالمعنى الحـــديث لهـــذا التعبير ، يشار اليها فى المصطلح التقليدى الكلاسيكى بنفس العبارة التى تستعمل فى الاشارة الى الرابطة الدينية ـ أى « الأمة » ٠ ومن ثم ، سوف يكون التركيز على كلمة « الوطن » ، وكأن ذلك يصدر من حيث الاضطرارية الاصطلاحية ، وسوف يؤول الوطن كما رأينا ، بمعنى الأمة ، أو القومية الحديثة ، وهى التى تتمتع فى حالة مصر بكل ما تقدمه كثافة عمق المجال التاريخى المتد عبر سبعة آلاف عام ٠ الا أن تسمية الوطن هذه لا يواكبها تمييز بين « الوطن » و « الأمة » ، ولا بين « الأمة » بالمعنى الدينى التقليدى والاسلامى من ناحية ، و « الأمة » بالمعنى السياسى الحديث العلمانى لهذه الكلمة من ناحية أخرى ٠ سوف يستغل الاتجاه السلفى فيما بعد هذا الخلط ، لا ســـيما وأنه خلط يغـــذيه أولئك الذين رأوا آنذاك التقدم الى أقصى مدى يحتـــاج الى العنـــاية كل العناية بعـــدم الانعزال عن الجماهير ، وأيضا عن الأحلاف التقليدية فى العالم الواقعى ٠ ومنذ ذلك الحين ، فاننا نجد أن العناصر قد توفرت ؛ وهى التى سوف تسمح للسلفيين والرجعية أن يلقبوا كل تأكيد للمصرية بأنه انقسامية أو اقليمية ، أن يرفضوا الاسهام فى الحركة الوطنية ، بل ويندوا بها ، ثم يناضلوا ضدها ، بمجرد أن هذه الحركة الوطنية تسلح نفسها بأدوات تحليل علمى ورسائل فكرية ونظريات ثورية ـ وكأن كل انفتاح فى اتجاه العالم الواقعى ، ابتداء من الارادة الوطنية المصرية ، يمكن أن ينعت بأنه رفض للأمة الاسلامية والدائرة القومية ـ الثقافية (« العالم ») العربية ٠

ان الحرص لا يقود فقط الى الاهتزاز فى صياغة التصورات النظرية فقط ، بكل النتائج التى سوف تترتب على ذلك ٠ بل انه سوف يثير حركة تراجع ؛ حركة بحث عن المسائر المكنة ـ أى فى حقيقة الأمر ، اعادة توجيه الثورة الى اتجاه امكانى سوف ينغرس فى الأفئدة ، وكذا فى المؤسسات ، ويصبح مزمنا ٠ اننا هنا بصدد مســـتوى رابع من عملية صياغة التصورات النظرية ، علينا أن نوضحها على النحو التالى بأنه :

٢٣ ـ **الفاعلية الانتقائية لمختلف عوامل النهضة الوطنية** ٠ لقد أكدنا بقوة دور الدولة ووظائفها ٠ وعلينا الآن أن نركز التحليل على الجدلية بين الاستقلال الوطنى من ناحية والحركة الدستورية من ناحية أخرى ، ابتداء من جو الاهتزاز الذى يواكب عملية صياغة تصورى القومية والوطن ٠

ولا نملك الا الدهشـــة اذ نلحظ الانقطاع الطـويل ـ ثلاثة أرباع القرن ـ الذى يفصل بين أول مطالبة بالاســـتقلال من ناحيـــة ، واعتناق الاستقلال بوصفه أحد شعارات ، لا بوصـــفه الشـــعار المركزى المفتاح ،

للحركة الوطنية فى القرن التاسع عشر · فهل يمكن أن يكون الاهتزاز فى عمليه صياغة التصور النظرى قد عاقت عملية التحرك السياسى ذاتها ؟ نعم ، ولا شك ــ وانما ذلك فى حدود معينة فقط · ان جوهر الموضوع هنا هو أن العمل السياسى نفسه ، ابتداء من ارادة الطلائع الجديدة التى أقامتها الدولة ، يدرك منذ الضربة القاصمة فى عام ١٨٤٠ أن الاستقلال ليس هدفا يمكن تحقيقه فى ظروف مصر القرن التاسع عشر · سوف تتجه المطالبة اذن نحو أوسع قدر ممكن من الاستقلال الذاتى ، وذلك دوما فى قلب ، وفى اطار ، وابتداء مما هو قائم فى الواقع الفعلى · وهذا الواقع الفعلى ، كما أوضحنا ، يتكون من الدائرة المحصورة للامبراطورية العثمانية ، ثم دائرة الانتماء الاسلامى ، ثم دائرة الهيمنة الأوربية ــ وهى دائرة التهديد والعدوان السياسى ــ الحضارى ·

ان الانطواء ــ من الاستقلال الى الاستقلال الذاتى ، وذلك حتى ثورة ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ ــ يطرح قضية استعمال الطاقة الوطنية للنهضة ، وكذا بطريقة موضوعية قضية الطاقة من أجل الثورة · ان الطلائع الجديدة تجد نفسها أمام اشكالية تركيب يجب تحقيقه ، أو بالأحرى أمام الانتقال من التكوين التجميعى Symbiosis الى التركيب Symbose وذلك على جميع المستويات وفى جميع القطاعات · فاذا أريد للدفعة الاستقلالية أن تحقق بعض معانى الثغرة الناجمة ، فيصبح لزاما أولا اعداد الأرضية من الداخل ، أى تسليح هذه الدفعة الذاتية بقاعدة مؤسسية متجانسة على مستوى الوجود السياسى الداخلى ، فى مواجهة سلطات الاقرار المختلفة وتصارع الدول المهيمنة · ومن ناحية أخرى ، فان مثل تلك القاعدة سوف تجعل تعقيل عملية التحديث ممكنا ، وكذا تمكن البرجوازية التى فى طور التكوين أن تجنى بعض الثمار · هذه اذن دوافع حركة التمثيل البرلمانى ، ثم الحركة الدستورية الجبارة التى تزداد قوة ودقة باضطراد ، وكأنها بذلك تعمل على التعويض عن النقص فى المطالبة بالاستقلال وفى ضعف الحركة السياسية بعد ١٨٤٠ ــ أى الانطواء على ممكن لا يمكن الا وأن يكون نابعا من الداخل ·

تلك هى ، فى الأساس ، عملية الفاعلية الانتقائية لمختلف عناصر النهضة الوطنية التى ذكرناها فيما سبق · والهدف هنا انما هو البحث عن نقطة أضعف مقاومة ممكنة أمام العبور الجذرى الراديكالى الذى تمثله، بالضرورة ، كل نهضة وطنية · وهنا يمكن التساؤل عما اذا كان التراجع السياسى ، المواكب للاهتزاز فى عملية صياغة التصورات النظرية يمكن أن يطلق عليه صفة الردة أو الارتداد · وعندنا أنه يمكن تقديم وصف أكثر ارهافا : لا شك أن المواجهة المباشرة ضد القمع الخارجى لهى أكثر حسما

فى ١٨٤٠ ، شأنها فى ذلك ما نشهده فى مختلف مراحل الهبات أو الثورات (١٧٩٨ ــ ١٨٠١ ، ١٨٠٧ ، ١٨٨١ ــ ١٨٨٢) ؛ ولكن ، اذا كانت العملية الثورية مخنوقة هكذا بواسطة العوامل الخارجية، أفلا يمكن أن تعتبر دعم المراكز الذاتية الداخلية فى العمق بأنها ايجابية موضوعيا ؟ ان الفاعلية الانتقائية هى هنا ، شأنها أيضا فى حالات أخرى ، محصلة اطار محدد للاجبار ــ أى أنها فهم الضرورة ، أو ، بتعبير أبسط ، الاحساس بالضرورة وادراكها • ان الفاعلية الانتقائية تشق بذلك المسار المتعرج الرفيع الذى سيكون مسار المسيرة الفكرية والايديولوجية • واذا كان علينا أن نذكر ، على مستوى صياغة التصورات النظرية ، مدى تعقيد مفهوم الفاعلية الانتقائية لمختلف عوامل النهضة الوطنية ، فان هذه الفاعلية الانتقائية ذاتها ، اذ تحدد القدرة على المرونة ، فانها لا تبرهن بذلك على الفاعلية التاريخية للعمل الذى تحدده ، وذلك على أساس اللا تكامل والاهتزاز التصورى والايديولوجى المذكور أعلاه •

لقد عرضنا هنا لمجهود صياغة التصورات النظرية فى شمولها بطريقة منظمة ، وذلك لأسباب منهجية • وقد رأينا أن هذا الجهد يثير قضايا ــ نظرية وتصورية ــ أكثر مما يقدم حلولا تركيبية بشكل متكامل • ومعنى ذلك أن رصد النتائج يقود مباشرة الى طرح الاشكالية •

ــ ٣ ــ

٢٤ ــ هكذا نرى كيف أن كلا من التحليلات التى قدمناها للقضايا المعروضة هنا ، وكذا الموضوع فى شموله ، تتسم بطابع غير متكامل ، غير متجانس ، نراه يتجلى فى عملية التغير نفسها ، وكذا فى نتائج ذلك التغير • انها قسمة مميزة عامة يمكن تعريفها بأنها **اشكالية الانتقال من التكوين التجميعى الى التركيب** •

ان التكوين التجميعى القائم بين الابعاد الثلاثة للحياة الاجتماعية ، التى وصفناها فيما سبق ، يعتبر معطى تاريخيا • انه تركيب تجميعى يعمل على التمكين من الاستمرارية • فهو يقدم السياج المنيع ، وكذا عادات وتقاليد الممارسة ، أثناء لحظات الاندفاع الى الأمام • ولكن قدراته للتعقيل والترشيد على مستوى المجتمع القومى كله ضعيفة ، فالدولة ، والدولة وحدها ، هى التى تفيد من هذه الظاهرة ، فى نهاية الأمر •

والحق أنه ، اذا أريد تحول جذرى بمعنى الكلمة على مستوى الأمة كلها وفى كافة مجالات الحياة الاجتماعية ، من الاقتصاد الى الفكر ، فانه

لابد من انجاز شيء آخر غير ذلك التأقلم الوفاقي مع المعطى التاريخي . اذا أريد مثل هذا التحول الجذري . فانه يصبح لزاما على الشعب وحركته الوطنية الانطلاق ابتداء من هذا المعطى التاريخي ، أى من ذلك التكوين التجميعي ، بغية مواجهة الجدلية المعقدة التي يثيرها اقتحام التحديث — بواسطة السلاح ، وأيضا الاقتصاد ، والمؤسسات ، والأفكار — لواقع اجمالي يتسم بالقدم والتأخر ، وان كان واقعا يستطيع أن يستمر ويحيا ، بفضل عمق مجال الخصوصية التاريخية ، متجها نحو مشروع استمرارية لا تنكسر . وعندئذ تصبح اللحظة الثالثة لهذه الجدلية هي عملية التركيب ، أى عملية حل التناقضات على مستوى أعلى من الانصهار الاجتماعي والصياغة الفكرية ، في أمة وقد أعيد تكوينها البنيوى ، ابتداء من خصوصيتها التاريخية ، في قلب المعاصرة .

ان عملية التركيب ، بهذا المعنى ، تفرض اختيارا : أى مفاضلة نقدية : وهيمنة حل معين — ألا وهو على وجه التحديد اختيار عملية التحديث النقدية ، وكل ما يلحق بها من نتائج بالضرورة ، وخاصة نبذ الاهتزاز الملازم بالضرورة لكل تكوين تجميعي ، وهو الذى به يتسم تكون الفكر والأيديولوجية في النهضة الوطنية لمصر الحديثة .

٢٥ — أول المشاكل والقضايا التي يثيرها الفكر والايديولوجية ، في هذا الصدد ، انما هو ذلك الذى يمت الى استمرارية الازدواجية . فقد رأينا كيف أن الأيديولوجية الضمنية العميقة تؤكد على الدوام ارادة الجماهير الشعبية في الوجود وفي الاستمرار ؛ كيف أنها تحكي أيضا المسيرة الملحمية لشعب مصر : كيف أنها تجعل من ذاتها أداة للنقد الاجتماعي ؛ وكذا أيضا لقبول حالة من الاضطهاد والظلم ، سوف يطلق عليها البعض أنها حالة مصيرية مكتوبة ؛ وكيف أنها ، اذ تتبدى متأصلة في أرض التوطن ، فانها كذلك تريد لنفسها أن تعبر على الانفتاح للغير — ولكن لا لغير متفرد ، وكأنه طرف آخر زائر لو صح هذا التعبير ، وليس بمثابة مجتمعات أو دوائر قومية — ثقافية متباينة متميزة . ليست اطلاقا في مجال الرؤية النفسية الجماعية الوطنية والشعبية المصرية . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، فان الفكر والأيديولوجية الصريحة يتبديان على نحو مختلف تماما . انه نتاج حديث جدا ؛ نتاج للموجة الغربية ، بشكل جوهرى . ان هذه الايديولوجية الصريحة تحاول أن تعبر عن رسالاتها وعن تحليلاتها حول القضية المزدوجة لانحدار الشرق الاسلامي من ناحية ، وحول شروط نهضته من ناحية أخرى ، بايقاع متعجل ؛ اذ أنها تستشعر أنه لزاما عليها أن تقدم الاطار الفكرى التصورى للعملية التي بها تتبدى

الحداثة فى مجالى الدولة والمجتمع ، وهى العملية التى أكدنا مرارا طبيعتها المتعجلة ، ومن هنا ، فان هذه الأيديولوجية ملك لحلقة محدودة من الطلائع الجديدة ؛ ثم تنتقل فى مرحلة ثورة ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ بين يدى البرجوازية المحلية ، وهى التى في طريق التكوين ؛ بحيث يصبح في امكانها أن تحظى بجمهور واسع ، بل وربما جمهور على المستوى الوطنى ، وخاصة فى المدن وفى منطقة الدلتا ٠

هذا ولم يتعرض الرجال الذين كانوا آنذاك بمثابة القائمين بصياغة الفكر والأيديولوجية الى تلك الازدواجية المستمرة بنقد جذرى ، ولا حتى بمحاولات للحصر وتعدى الازدواجية ٠ فالتدابير التى يراد لها أن تتحقق انما تندرج فى اطار تجديد التراث ، من أجل توكيده : كان هـذا هو الامر فى مجال الدين ، وكذا فى قضية المرأة ، بين القضايا الهامة آنذاك ٠ فالتجديد ــ فى مجال الفكر والأيديولوجية السياسية ــ يؤكد على علاقاته مع الميراث الثقافى والوطنى على الرحب والسعة ؛ ولكنه ، وفى الوقت ذاته ، يقيم عناصر الحداثة وكأنها عدد من العلامات على طريق مواز ، دون اعلان القطيعة ، بل وعلى العكس من ذلك تماما ٠ هكذا كان الأمر فى مجال التعليم ، وفى مجال الاستقلال الذاتى ، ثم الاستقلال ؛ وكذا فى الحركة الدستورية

نحن اذن أمام ظاهرة ازدواجية ، وليس ظاهرة نقد ٠ اذن سيظل التكوين التجميعى التاريخى هو المهيمن على أعماق الحياة الوطنية فى مجموعها ، وعلى وجه التحديد المهيمن على مستوى الايديولوجية الضمنية التى كانت آنذاك مبعدة رسميا عن الصف الاول من المسرح ٠ ذلك أن تجميع العناصر الشديدة التباين لايديولوجية التحديث الصريحة ، التى بدأت آنذاك أن تتبدى على صورة عناصر متفردة أو على شكل قطاعات كاملة من الايديولوجية ، تتحقق فى الواقع فى مجال آخر ٠ ازدواجية اذن ــ لكنها ليست تركيبا ٠٠فالتاريخ ثقيل طاغ ، يؤثر فى اتجاه ولصالح الأيديولوجية الضمنية ٠ والسؤال هنا ، على وجه التحديد ، هو : هل يمكن من الناحية النظرية أن يتحقق التحديث بشكل ظاهر وبطريقة ميكانيكية بحتة ، أى بمضاعفة الضغط والوثوب المؤسسى والايديولوجى ، بينما تترك الايديولوجية الضمنية الى أمرها ؟ أو ، بمعنى آخر : هل يمكن أن تتحقق الحداثة أو المعاصرة ، بتفادى تعقيد التركيب النقدى بين مختلف العناصر التكوينية التى منها يتكون الفكر والأيديولوجية الوطنية ، وذلك بشكل واقعى موضوعى ، أى بدون بتغيير جذرى للمجتمع والفكر ، بدون ثورة وطنية ؟ وجوابنا هنا بالنفى ٠

ولكنما يمكن اللجوء الى أمثلة ، وخاصة مثال اليابان ، لترجيح الرأى القائل بامكان استمرارية الازدواجية فى العالم الواقعى على أساس عميق جبار من التمسك بأركان الوحدة الوطنية التكوينية ـ « العروة الوثقى » ـ لم ، ولن ، تزلزلة موجات العدوان الحضارى المتغرب · هنا ، هنا اذن ، قضية هامة تستحق دراسات مستفيضة ·

٢٦ ـ ان استمرار الازدواجية فى مجال الايديولوجية يقودنا الى اثارة مشكلة القوى التى تسبب تلك الازدواجية · ومن الواضح ، على أساس التحليل الذى قدمناه ، ان العناصر السببية المباشرة ، على صورة الطبقات الاجتماعية ، غير كافية لتفسير هذه الظاهرة على اتساعها ، وفى أعماقها · والسبب الاول فى هذا الامر يكمن فى اننا نعالج هنا تكون الفكر والايديولوجية الوطنية ، على اختلاف اتجاهاتها الفرعية وبوجه شامل ، دون دراسة تكون مختلف الايديولوجيات المتناقضة فى قلب هذه المجموعة الايديولوجية ذات الوجهة الوحدوية بالضرورة خلال مرحلة تكونها · ومع ذلك ، فان التغير المتعجل للاقتصاد ، وكذا تغير التركيب الاجتماعى ، وهذا الاخير بشكل أكثر دقة بين ١٨٩٢ ـ ١٩٠٥ ، لهى ظواهر ذات أهمية · ذلك اننا نستطيع أن نتبين أن ايديولوجية التحديث ، من الناحية الطبقية ، انما هى أيديولوجية البرجوازية المحلية فى مرحلة تكونها ، من الدولة العسكرية لمحمد على الى الطبقة الجديدة التى تتصدر الصفوف وتحاول أن تؤكد ذاتها على يدى اسماعيل وثورة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ · وفى الوقت نفسه ، نرى أن فريقا من هذه الجماعات الاجتماعية يؤكد أنه يريد أن يتباعد عن ذلك التحديث ، وأن يتسلح بايديولوجياته الذاتية ، ابتداء من التراث على وجه التحديد · وكذا ، فى الجانب الآخر تماما من سلم المجتمع ، فاننا نرى أن هذه المحاولة الكبرى الأولى لغرس أفكار التحديث ، أو المعاصرة ، بين صفوف الشعب انما يقوم بها مثقفون ذوو وجهة شعبية يتمتعون بصلات لم تنقطع عن القطاعات الاجتماعية المسلوبة ، فى المدينة وكذا فى القرية ·

ومن هنا كان موقفنا فى توكيد التفسير لتلك الازدواجية الايديولوجية من ناحية ؛ وكذا لتمايز الاتجاهين الكبيرين التكوينيين للايديولوجية والفكر الاجتماعى من ناحية أخرى ، ابتداء من مجموعة من العناصر الاجتماعية الفعالة بالمعنى الواسع لهذا التعبير ، حيث تلعب المسببات والتكوينات العلوية الايديولوجية دورا من الطراز الاول ، بدلا من التفسير الاقتصادى الآلى ابتداء من مفاهيم طبقية بحتة · ولهذا الشأن نؤكد هنا أن هذا الموقف مختلف عن موقف توكيد مسألة الدور المستقل نسبيا لجدلية الافكار والابنية العلوية الاجتماعية ، وهو دور لم يعد ينكره

الكثيرون ؛ وانما الموضـــوع هنا يتعـلق بمنبع الاختلافات الفـــكرية والأيديولوجية ، بأسبابها العميقة فى المقال الأول ٠

ان أنصار الأيديولوجية الصريحة ، يبدون فى نهاية الأمر ، بمثابة رجال مرتبطين ، بمختلف الأشكال والصور ، الى قطاعات الاقتصاد التى أثرت عليها الغزوة الاستعمارية الامبريالية الأوربية ؛ بينما يظل مجال الايديولوجية الضمنية بين أيدى القطاعات المختلفة والتقليدية معا ٠ واذا كان الامر كذلك ، فكيف اذن نفسر أن منظرى واعلام الايديولوجية السائدة للتراثية ، أى الاصولية الاسلامية فى مرحلة تكونها ، يمتون الى نفس المجموعات الاجتماعية ، وخاصـــة مثقفى المدن وملاك الأرض ، على الأقل فى بداية الامر ؟

نقطة بدء مشتركة ، مشتركة جزئيا فى بداية الأمر ٠ لقد بينا ، فى أعمال أخرى ، أن التمايز انما جاء نتاجا لانقسام البرجوازية المصرية الى جناحين متميزين ، ابتداء من حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ٠ أما الآن ، فاننا لم نصل الى هذا الحد بعد ، ولا نزال أمام مجموعات اجتماعية ، المجموعات الاجتماعية المكونة لهذه البرجوازية وهى تتبدى على صـــورة التمازج النسبى ٠

ومن هنـا كان لزاما علينا أن نبحث عن مصـــدر آخر للدوافع المسببة لهذه الظاهرة ٠ ومن هنا بدأت مسيرتنا التحليلية التى من خلالها قدمنا الفرض القائل : أنه من الواجب علينا أن نبحث عن أسباب ذلك التمايز فى التكون الثقافى لفئة المثقفين الجديدة ، أكثر مما نبحث عنه فى انتمائها الطبقى ٠ ان جزءا من الطلائع المثقفة ، وهى أيضا متصـــلة بالقطاعات المتقدمة آنذاك مرحليا من الاقتصاد والحياة الاجتماعية ، وخاصة من قطاع الدولة ، يتوجه نحو الثورات الاوربية الكبرى باحثا فيها عن التفسير المعقول لمرحلة الانحدار ، وكذا عن مصادر التفكير ، عن مفتاح وأنماط المستقبل ، عن سر النهضة ٠ وهذه الطلائع فى الأساس هى تلك التى تكونت فى المدارس الحديثة فى مصر ، وكذا فى البعثات الأوربية الى اوربا ، أستاذها الفكرى وصاحب اليد العليا فى تحقيق رسالتها انما هو رفاعة رافع الطهطاوى ٠ وهناك جزء آخر من هذه الطلائع ، ذلك الذى تكون فى الاطار التقليدى للتعليم الاسلامى حول الازهر ، هؤلاء المثقفون سيتجهون بطبيعة الأمر نحو البحث فى أركان الذاتية ٠ وهذا البحث عن الذاتية ، وأركانها ، سوف يتجه الى ضرورة العود الى الجذور المبدئية للدين ، حيث توجد العناصر التى لابد منها للنهضة أمام الباحثين ؛ وذلك على أيدى الشيخ محمد عبده ٠

والمشكلة التى تتبدى هنـا هى كالآتى : هل يمكن لتمايز فكرى أيديولوجى ، يقوم هو نفسه على نظرة فكرية أيديولوجية مختلفة للعالم ، هل يمكن له أن يقوم وان يصبح فعالا ما لم يرتكن على تمايز بين الطبقات والمجموعات الاجتماعية المختلفة ، فى صراعها من أجل سلطة القرار فى قلب الدولة الوطنية ؟ وجوابنا هنا بالنفى : ان الفاعلية تفترض التمثيل، اذ أنه هو وحده الذى يدفع الى التأييد ، واقامة المؤسسات التمثيلية ، وهى عملية لا يمكن أن تقوم الا على أساس التأييد والاتفاق الاجتماعى فى مستوى متقدم ٠ لكن القضية لا تزال قائمة ، ألا وهى قياس قدرة التواجد ، والاستمرارية ، وامتداد المجال الأيديولوجى ، ابتداء من دوافع أيديولوجية بحتة ٠

٢٧ ــ ننتقل الى دراسة صياغة الايديولوجية الوطنية المصرية ، وكذا دراسة التمايز التدريجى فى قلبها الذى بدأ أثناء نهاية المرحلة المدروسة (١٨٠٥ ــ ١٨٩٢) ، وهى الدراسة التى تقودنا ، مرة أخرى ، الى تقرير الثنائية وانعدام التركيب ٠

ان اتجاه التحديث الليبرالى هو الذى يتولى تحديث رسـالة الفكر المصرى التاريخية ، فى قلب الطلائع الجديدة ذاتها ؛ وهو الاتجاه الذى تكون على أيدى مدرسة الطهطاوى ، والذى مازال منذ هذا العهد يؤكد انتماءه الى أستاذه الرائد ، بل ويذهب الى حد البحث فى مصادر شرعيته الوطنية فى انتمائه الى الشيخ رفاعة ، وذلك خاصة ابتداء من بوادر ظهور الاشتراكية على أرض مصر ٠ نلحظ بهذا الصدد أن الصياغة النظرية ، مهما ظلت حريصة ، فانها لا يمكن الا وأن تتقدم بشكل واضح وبمسافة كبيرة مجموع قوى الحـركة الوطنية ، ذلك من جراء التقـدم الواقعى للنشـاط الذى تحركه الدولة من ناحية ، وأيضـا من جراء الدوافع الايديولوجية البحتة ، ومعدل سرعتها المرتفع من ناحية أخرى ٠

واذا نظرنا الى عموم البلاد ، وخاصة فى الريف ، ولكن أيضا فى القطاعات التقليدية ذات الاهمية الكبرى فى المدن ، نرى ان هذا الاتجاه معدوم المفعول ٠ ففى هذه المجالات الكبرى ، نلحظ أن مخاطر الابداع ، وحاجة الشخصية الوطنية والدينية الى صيانة كيانها الاصولى ، والتربص أمام كل ما سوف يطلق عليه فيما بعد الافكار الدخيلة ، نرى ان هذه المعانى هى التى دوما تحظى بالتأييد المؤكد ٠ ان هذه النزعة الى المحافظة سوف تتطور فيما بعد فى اطار الاصولية الاسلامية على أيدى الشيخ محمد عبده ٠ ونلحظ أيضا أن الدولة كأنها لا تهتم بشكل خاص بهذا الاتجاه ، الا فى القليل النادر ، وذلك حتى عهد « كرومر » ، وهو الذى

بدأ يرى فيها الوسيلة المؤكدة لدعم الوسط الحذر في مصر ، وكذا للتقدم بحرص شديد وتربص نحو شكل من أشكال الحداثة والعصرية. الدولة الحديثة ، دولة مصر الحديثة ، لا تتعرف على ذاتها فى هذا الاتجاه الى التقدم بخطى عكسية ، لو صح التعبير ؛ بينمـا تعتبر غالبيـة البلاد ان هذا الاتجاه مرآة منظرة لحياتها وممارستها اليومية . وفى ذلك ، بالنسبة لانصار هذا الاتجاه وقياداته ، الركيزة المؤكدة لقواعد واسعة للغاية ، لجمهور من الرواد تتمثل قاعدته فى الايديولوجية الضـمنية العميقة ، ومن ثم يصبح بامكاننا أن نعتبر أن له دورا فى تحقيق التلاقى الممكن بين هذا المستوى ومستوى الصياغة الايديولوجية الصريحة ـ هذا ، بينما يعمـل انصـار الحداثة والعصرية ابتـداء من المعاصرة من الحيـاة المباشرة ابتـداء من العصرية ذاتها ، رغـم ما يقدمونه من شـواهد اثبـات تاريخية ورغم رغبتهم فى تحقيـق استمرارية الماضى عبر مسـتقبل بعنوان النهضـة . لكن الامـر لا يقف عند حد جمهور الرواد فى عموم الشعب . ذلك ان غالبية أولئك الذين يمكن اطلاق تسمية المثقفين عليهم ، من الناحية الفنية ، لم تتكون بعد على أيدى قطاع التعليم العصرى ، بل ولا تزال بعيدة عن ذلك تماما ، بينما يمارس أعضاء البعثات العلمية الى الخارج دور الطليعة المتقدمة التى عليها ان تواجه العداء الصريح للطلائع القديمة وأجهزة الادارات ورجالها، وكذا عدم ثقة ارسـتقراطية ملاك الارض ، فى الوقت الذى تظـل فيه معزولة عن الجمـاهير . ومن ثم نتبين فى رجالها وأفـكارها الحرص ؛ وفى الخلط التركيبى ، الاستمرار فى التكوين التجميعى ؛ وكذا انعدام التركيب النقدى . وهو جو تتعثر فيه الثغرة والفتح الامامى ، فيصبح ذلك الفتح عاجزا ان يهيىء جماهير الشعب ويعبئها حول نظرة جديدة للعالم والمصير الوطنى .

ان التفسـير التقليدى لهـذا التناقض يتلخص فى توكيد هذه الظاهرة الاخيرة المذكورة ،أى توكيد أسباب الفشل النسبى لاتجـاه التحديث اللبرالى . انه تفسير جزئى متحيز : اذ يجب أن نؤكد ، على الاقل فى نفس المستوى ، على المسئولية التاريخية لاتجاه الاصـولية الاسلامية ، التى لا تزال بعض فروعها السلفية تلعب دورا سلبيا عبر المحاولة الثانية لنهضة مصر الوطنية فى عصرنا .

ان المشكلة التى تقوم أمامنا بهذا الصدد ، هى كالآتى : هل من الضرورى أن تكون القيادة الايديولوجية والسياسية لعمليات التحديث والعصرانية بمثابتها عنصر من بين عناصر النهضـة الوطنية ـ الثقافية ؟ هل من الضرورى ان تكون ملكا لأصحاب التحديث والمعاصرة وحدهم ؟

وكيف اذن يمكن تفسير تلك الظاهرة التى نرى بمثابتها أولئك الذين ينتمون الى اتجاه استمرارية التراث هم الذين يتقدمون الصفوف فى العديد من المناسبات ، ليس فقط بمثابتهم الورثة ، ولكن أيضا بوصفهم المجددين الأصليين الأوحدين ؟ ثم ، لو برهنا على أن التحديث والمعاصرة لا يمكن وان تكون أمر الاصوليين المتجهين الى الانغلاق السلفى ، كيف اذن يمكن ادماج هذا الفرع الاتجاهى الايديولوجى الى عملية تقدم وطنى ممكنة الانجاز ؟ ٠

والحق انه لم يكن أمامنا ثمة أجوبة ممكنة على هذه التساؤلات فى مجموعها ، قبل عام ١٩٤٥ ٠ ومنذ ذلك التاريخ جاءت الانبثاقات والنهضات الوطنية ـ الثقافية عبر الثورات الشعبية والاشتراكية ، وخاصة فى آسيا ، تؤكد أنه من الممكن أن نتبين فى الاشتراكية بوصفها منهجا ، الأداة الناجحة لتحقيق عملية الادماج الجدلى هذه ؛ وهى العملية التى لا مفر لها بقدر ما هى منعشة ، مادام أن قضية قيادة العملية فى مجموعها تطرح ابتداء من متطلبات التقدم التاريخى ٠

٢٨ ـ لقد استعملنا حتى الآن تعبيرى «أيديولوجية» و «أيديولوجية وطنية » دون مقدمات ولا تفسيرات مسبقة ، بحيث يصبح لزاما علينا الآن أن ندقق النظر فى محاولتنا هذه للصياغة النظرية ٠ نقطة البدء فى هذا الصدد انما هى ما شاهدناه من فشل لانطلاقة التحديث العصرية بشكل فعال ، أو بعبارة أخرى للنهضة الوطنية ـ الثقافية ٠ ليست الغاية هنا هو التمييز بين « أيديولوجية » و « نظرية » ، وانما على وجه التحديد تدقيق النظر فى عملية الانتقال من مرحلة حركة افكار معينة الى مرحلة تكون فكرية أو أيديولوجية وطنية معينة ٠

وعندنا ان الانتقال من حركة فكرية من مجموع من الأفكار ، الى تكوين أيديولوجية يمر عبر المراحل التقنية : مرحلة فرز هذه الأفكار بين صفوف الجماهير ؛ مرحلة تبنى الجماهير لهذه الأفكار فى مجموعها بوصفها مرآة صالحا كان من الناحية الموضوعية أو محرفا بشكل ما ولكنه دوما معترف به على انه المرآة ؛ مرحلة مقدرة هذه الافكار على تحقيق الامكانات الكامنة فى الواقع وذلك ابتداء من الاحتياجات الحقيقية أو المتصورة لجمهرة القوم وعلى ارادة هؤلاء على تحقيق التصورات التى يكونونها عن امكانية اشباع هذه الاحتياجات ٠

نلحظ هنا أن هذه المراحل أو اللحظات فى مجموعها ، التى منها تتشكل عملية الانتقال من « الأفكار » الى الـ « الايديولوجية » ، تقتضى تواجد مؤسسات ـ طبقات ومنظمات وأحزاب ودول وقوميات الخ ـ ، وان

هذه المؤساسات بدورها وانتقال الأفكار الى أيديولوجية من خلالها لا يمكن أن تتحقق الا ابتداء من درجة متقدمة من الاندماج ، من المعقولية الداخلية الذاتية لنظام الأفكار ، أى من وجود التركيب · ولا شك أننا قد تعدينا خلال مرحلة سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ مستوى مجرد تواجد تجميع عفوى من الأفكار · ذلك أن التركيب البنيوى التحتى الثقافى — التعليم ، النشر ، الترجمة — بالاضافة الى التقدم السريع للصحافة ، التى رأيناها لا تقف عند مجرد حد الوقائع اليومية المباشرة ، وكذلك المسيرة المتموجة للحركة الوطنية واتجاهها نحو الجذرية بشكل متعجل · ان هذه العوامل كلها تتلاقى لكى تعطى الاتجاهات المختلفة لحركة الأفكار فى مصر آنذاك دويا واسعا ، بل ودويا وطنيا ·

ولكن ، هل نستطيع أن نطلق على هذه الحركة لقب الايديولوجية ؟ يبدو لنا بهذا الصدد أن التكوينات غير المهندمة تنحسر بسرعة لصالح تكوينات ذات مستوى متقدم من التركيب ، وذلك بطريقة أوضح فى اتجاه الأصولية الاسلامية منها فى اتجاه التحديث الليبرالى — لا شك لأن صعوبة مثل هذا التقدم أقل فى الحالة الأولى منه فى الحالة الثانية ، اذ أن الأصولية الاسلامية تقوم على ، وتستند الى ، محصلة التراث ، وأيضا نظرا لعمق الايديولوجية الضمنية وقدرتها على المقاومة · ومن هنا فان هذه الحركات الفكرية تمت الى المجال الخاص بالفكرية ، بالايديولوجية ، منذ الفترة التى تثير فيها حركات واقعية وتدفعها الى الأمام : وقد حدث ذلك فى نهاية عصر اسماعيل ، وكانت نقطة التحول هى الثورة ، ثم مرحلة التبلور التدريجى البطىء خلال الفترة الأولى من الاحتلال ·

أما والأمر كذلك ، فهل نحن أمام أيديولوجية وطنية أو اننا أمام أيديولوجيات وطنية ؟ وعندنا أن الاجابة تتجه الى النفى · فقد وصلنا الى الحد الذى عنده يمكننا ، بل يتعين علينا ، أن نقيس نتائج عدم تحقيق التركيب الفكرى فى اللحظة التى تتفتح فيها الحركة الوطنية على ثورة حقيقية وثورة تتسم بالخصوصية المصرية ؛ اذ أنها تستند فى آن واحد على الجناح الراديكالى لهذه الدولة ، أى الجيش ، وعلى ائتلاف بين الفلاحين والمثقفين والرأسمالية الناشئة ·

الشعارات الكبرى ترتفع شيئا فشيئا ، وهى التى تنشر رسائل رفاعة الطهطاوى على الصعيد الأوسع للشعب والأمة · وأمامها ، وفى مواجهتها ، ترتفع شعارات الأوساط التقليدية وحتى السلفية · وكلتا العمليتين لا تحقق نتائج قاطعة على وجه العموم · فهل علينا أن نبحث عن السبب فى الهوة التى تفصل غالبية الشعب من المزايا التى تقدمها اليه الطلائع الجديدة ؟ أو أنه من الممكن علينا أن نفكر ، بعد ادراك هذه

الهوة والتحقق من نتائجها ، انه لزاما علينـــا أن ندقق النظر فى المرآة ذاتهـا ، فى التركيب الداخلى ذاته للفـــكر ، للايديولوجية فى مرحلة تكونها ؟

٢٩ ـ ولنبدأ بتحليل قضايا ورسائل الايديولوجية الوطنية فى مرحلة تكونها • فنقول باديء ذى بدء اننا أمام نتيجة ســـلبية : فنحن لا نجد فى المقام الأول تعبيرا نظريا متناسقا يمكن بواسطته تحديد مكانة الانسان المصرى فى مطلع عصر نهضته الوطنية ، شخصيته الذاتية وارادته ، أو امكانية مثل هذه الارادة • وكذا فان انعدام هذا النمط ، تلك الصورة للانسان الذى يراد تحقيقه تتدرج من ناحية أخرى فى اطار نقص آخر أكثر شمولا ، ألا وهو انعدام فلسفة للثقافة الوطنية •

سوف يقول البعض أن هذا الاعتبار ، رغم أهميته ، لا يزال فى نهاية الأمر ثانويا • ولكن هذا القول فى رأينا يتناسى أن العجز على اقامة صورة تركيبية هى نتيجة لظروف تطور الخصوصية المصرية ، وخاصة فى مرحلة الانحدار ؛ وان هذا العجز نفسه يتحول بدوره الى العامل المسبب فى المجال الفكرى أساسا أى العامل المسبب لانعدام فلتسفة للثقافة الوطنية وخاصة انعدام تصور للانسان الذى يراد تحقيقه ، فى ذات الوقت الذى تتعمق فيه متطلبات واحتياجات النهضة والثورة التى تبدو فى الأفق •

ونضرب مثلا لتوضيح الامر • انه لامر مسلم به ان كل ثورة لابد وأن تسبقها مرحلة اعداد نظرى وتحرك أيديولوجى حميم • أما الثورات التى تستهدف النهضة ، وليس فقط تبديل النظام الاجتماعى ، فانها تهتم بالمستوى الفكرى بنوع خاص ، بالنظرة الى العالم ابتداء من دائرة وطنية ـ ثقافية • ان تســـاؤل مونتيسكيو ـ « كيف يمكن للمرء أن يـــكون فارسيا ؟ » ـ تكتسب معناها الحقيقى ، فى مســيرة معروفة ، من رجال التجميع « الانسيكلوبيديا » ، فى القرن الثـــامن عشر الى ثورة التحرر والاشـــــتراكية فى الصـــين ذلك الايديولوجيات الوطنيـــة ـ الثورية التى تحمى الثورات المســتهدفة للنهضـــة الفعالة ، وليس فقـط لمجــرد التغيرات السياسية ، ان هذه الايديولوجيات تندرج فى تاريخ البلد أو المنطقة القطرية التى تقوم فيها بقدر ما تستطيع أن تقدم اجابة ، صورة أو تصورا ، الى هذا البحث الدائم لمسالك المصير الانسانى • وهو البحث الذى لا يحدث فى نطاق الفكر المجرد المنعزل ، وانما يتحقق فى التاريخ الموضوعى المتعين ، تاريخ رجال ونساء يعملون فى اطار مجتمع معين ، فى اطار قومية معينة فكر ثورى ، فى اطار مجموعة اجتماعية معينة ، فى مرحلة معينة من تطورها التاريخى •

فاذا لا يمكن أن تقوم قائمة لعمل ثورى دون فكر ثورى يمكن أن نضيف هنا أنه لا يمكن أن تتحقق نهضة وطنية بدون فلسفة للثقافة الوطنية ، بدون صورة وتصور للانسان .

الأزمة هنا تتبدى وكأنها فى مستوى الايديولوجية الصريحة. ذلك أن اطار وجود الثقافة الوطنية وحياة الانسان ، الذى يكون النواة الفعالة لهذه الثقافة يبدو متناقضا : مصرى ، اسلامى ، عثمانى ، عربى ، شرقى ، ميديترانى (متوسطى) ، وابتداء من هذه النقطة الأخيرة ، أوروبى . لقد رأينا طبيعة المؤثرات الخارجية التى تعمل خلال هذه المرحلة للنفـــاذ الى مصر . فهى تفسر الى حد بعيد ذبذبة الأذهان ، وهى التى تعبر عن نفسها بواسطة ذلك الاهتزاز الجذرى فى عملية التنظير الذى شاهدناه . ولكن هل يمكن أن نقول أن هذه المؤثرات انما تفسر استمرار ذلك الاهتزاز ، رغم تقدم عمليات التركيب المتواليـــة باتجاهاتها المختلفـــة التى قامت ولا تزال خلال قرننا العشرين كله ؟ بل أن الواجب يقتضى علينا أن نقرر أن فئة المثقفين ، فى مواجهة هذه التأثيرات المعـــادية للتركيز ، لم تجد القوى الاجتماعية صاحبة الارادة الكافية من أجل تحقيق عمليـــة القطع والتباعد ، التى لولاها لا يمكن أن يقوم الوضوح النظرى الممكن ، وكذا لا يمكن أن تتحقق الثورة الناجعة .

الأسئلة ذاتها ، نفس التساؤلات — نفس الذبذبة — فى مستوى مختلف بطبيعة الأمر — نشهدها خلال المحاولتين لتحقيق النهضة الوطنية لمصر الحديثة . ان اتجاه التحديث الليبرالى — من الطهطاوى الى طه حسين والاشتراكيين — يواجه باستمرار معوقات تأثير الاصولية الاسلامية فى الأعماق — من محمد عبده الى الاخوان المسلمين و « الضباط الأحرار » . ان الاهتزاز النظرى يسبب التناقضات فى العمـــل السياسى ، ذلك فى مجال التقدم المبطىء من الاســـتقلال الذاتى الى الاســـتقلال ، وكذا أيضا التأرجح بين المصرية والعروبة .

القضية اذن تصبح ، ابتداء من هذا الأمر : كيف يمكن أن نعرف لو كان من الممكن حقيقة أن نفلت من هذه الدائرة المفرغة : ولو كان الجواب بالايجاب فبأية وسيلة ؟ ان هذه القضية لا تزال مدركة بطريقة غير واضحة خلال المرحلة تحت الدراسة ، فالعمل القائم يرتكز على تدخل الدولة فى الطليعة الفاتحة لعملية التحديث والمعاصرة الثقافية . ومنذ هذه المرحلة ، وان كانت الدولة لا تزال مركزية المفعول ، فان الايديولوجية ابتدأت تلعب دورا متزايدا : فى هذا الجو ، وابتداء منه ، نشأت دراستنا هذه ، حيث اتجه البحث فى التساؤلات والقضايا الذى اقضتها بين غيرها وجهة الساحة الفكرية — أكثر من اتجـــاهه نحو التحديث السياسى بمعنى الحصر .

فالمسالة التي تقوم أمامنا هي كالآتي : هل يمكن صياغة فلسفة للثقافة الوطنية ، وهل يمكن في اطارها رسم صورة وتصور الانسان الذي يراد تحقيقه ، ابتداء من الصياغة الفكرية الايديولوجية وحدها ، بعد ادراكنا لقصور المنهج السياسي البحت ؟

ليس هناك ، من الناحية النظرية ، ما يمنعنا من اختيار هذا المنهج ولكنما عامل الدور المتزايد للعامل السياسي ، وفي اطار هذا العامل ، للدولة المصرية المتميزة بالمركزية المبالغة والاتجاه الى المركزة ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يقلل من البعد السياسي ، فالسياسة ، البعد السياسي ، هنا لابد وأن نفهمها بالمعنى الأوسع والأرفع : أي بوصفها مجموع الممارسات الاجتماعية في خدمة نظرة ومفهوم للعالم · لكن نظرة العالم هذه المطلوبة ليست نتاجا للحركة الوطنية المصرية ، ومن ثم فانه لا يمكن صياغتها الا بطريقة موازية للحركة الوطنية ، تكون كذلك مواكبة ل ، ومتشابكة مع ، العمل في قلب هذه الحركة الوطنية · وعلى هذا الأساس فان **أولوية السياسي** يمكن أن تؤكد مجال فرص أكبر بكثير للتحليل النظري ، تطوره ؛ حقيقته الفعالة ، وانتشاره الى عموم الحقل الايديولوجي ·

٣٠ ــ ان هذه المسألة ــ وهي التي في رأينا تلعب الدور المركزي في قلب التحرك كله لعموم هذه الاشكالية ــ تمكننا من القاء الضوء على عناصر اشكالية التحديث والمعاصرة ، التي تعرضنا لها في العديد من المرات ·

ان أشكالية التحديث والمعاصرة يمكن في الواقع أن تفهم بطريقتين · فمن الممكن أولا أن تفهم من الخارج بمثابتها تلقيح ثقافي · وفي هذه النظرة يكفي أن تتم عملية تلقيح عدد من العناصر الثقافية التي تمت الى أكثر قطاعات العالم تقدما: المؤسسات واللغات، النظريات والايديولوجيات، العادات الثقافية ، بل وحتى الانماط والتقاليد · واذا كان لعملية التلقيح هذه أن تنجح ، فلابد لها أن تكون مهيمنة ، أي أن تقضى تماما على جميع العناصر التي منها يتركب التكوين العلوي ، وخاصة العناصر الثقافية والايديولوجية التي يصنعها القطاع الحديث المعاصر للدول التي تستهدف النهضة ، بحيث لا تحتفظ الا بالعناصر السلفية التي يطلق عليها لقب « التقليدية » ، وذلك لأسباب متعددة (الشعور بالغيرية ؛ النظرة الأبوية النظرة المحافظة ؛ الرغبة في عدم استثارة المشاعر الشعبية ، وأيضا في الكثير من الأحيان الشعور بالتفوق العنصري ، التي تقترب من العنصرية العرقية الثقافية) ·

وفي مقابل المنهج الأول ، منهج أو ظاهرة التلقيح الثقافي ، نجد عملية التحديث والمعاصرة التي يتحكم فيها العنصر الذاتي القومي · لقد حللنا

الطبيعة النقدية المزدوجة لهذه العملية فى مؤلفات سابقة : بالنسبة للذات فى المقام الاول ، من أجل استخلاص الخصوصية الوطنية لعناصر الايجابية والتقدم بالنسبة للغير ، بغية تبين ما يمكن ادماجه من اسهاماته ، أى ما يمكن أن يثرى التفكير النقدى الجارى فى قلب المجموعة الوطنية نفسها • فالقرار ، القرار من حيث الاختيار ، من شأن المجموعة الوطنية نفسها ، لا من شأن الروافد الخارجية الأصل وهى التى تصبح ممكنة الفاعلية من خلال الهيمنة السياسية الأجنبية •

ان الحداثة المعاصرة modernism ، على هذا النحو ، وفى مثل هذا التصور تختلف تماما عن التحديث والعصرية modernity التى يكون جوهر عملية التلقيح الثقافى ذاتها • الهدف هنا هو : الابقاء على الهوية الوطنية المتخصصة بلغة العصر ، بلغة المعاصرة •

المسالة هنا هى : تحديد أداة الوساطة ، بل وأداة التوسط ، بين هذين المستويين من الوجود الوطنى الثقافى ، انطلاقا من اختيار عملية التحديث والمعاصرة •

٣١ — سوف يبدأ السعى من ناحية الدولة بادىء ذى بدء • ان التركيب التكوينى الذى يمتد عشرات الاجيال بين الاقتصادى ، والسياسى والايديولوجى ، وكـــذا أيضـــا عنصر الفاعلية الايجابية لتعديل دفـة الأمور فى مجالات هامة عديدة ، تحت قيادة الدولة وبواسطة العمل النابع منه ، تشجع على هذا النهج • وقد أكدنا هذا الاتجاه بقوة فى هذا المؤلف ، وكذا لعلنا اتجهنا الى توكيد هذا الأمر فى كتابات أخرى ، أى الى تأكيد ايجابية هذا العمل وتلك المنجزات ؛ أكثر من ابراز الازمة المستمرة التى تنخر من الداخل عملية التجديد فى مواجهة الضغوط الخارجية الهائلة •

ولكننا فى دراستنا هذه أردنا أن نخطو خطوة الى الامام • وعندنا ان الجوهر المركزى العميق للأزمة المستمرة لنهضتنا الوطنية المصرية — سواء اعتبرناها ككل ، أو كمجموعة المحاولتين الكبيرتين التى اتسم بها القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين — انما يكمن كما أثبتناه فى الطابع الخبيث لهيمنة التكوين التركيبى المذكور ، وخاصة فى مجال الثقـافة والايديولوجية وكذا أيضا فى المجال السياسى • ان نتائج هـذا التركيب التكوينى اللاتركيبى عبر تاريخنا المصرى تتدرج أمامنا بدرجات متفاوتة من التأثير الفعال • أما فى المجال الاقتصادى ، فاننا نستطيع أن نقول أن هذه النتائج كانت فى الجوهر ايجابية بقدر الضـــغوط التى سيفرضها المجتمع المائى المركزى • ولكن الرد المستمر لكل جدلية اجتماعية وسياسية تضع وحدة سلطة القرار مكان التساؤل ، وهو الرد النابع من أسباب لها

وجاهتها ، تمت فى الأساس الى تأمين وجود الوطن نفســـه فى مواجهه الغزوات • ان هذا الرفض يكون طقوس حكم وادارة الشؤون العامة ، بل وأكثر من ذلك ، يصوغ أسلوبا لفهم الأمور العمومية ، والحياة العامة ، والمشاركة المباشرة أو غير المباشرة فى قضايا الحكم تضع دوما ، الوحدة فوق التنوع ، التجانس والاستقرار فوق المســاءلة ؛ بل وفوق البحث النقدى للممكنات •

المخيلة اذن ليست فى الحكم • فالحكم فى مواجهة المخيلة ، وبوجه عام فى مواجهة عالم الأفكار ، يجد فى التكوين المتخصص والجيو سياسى للبلاد ما يحتاج اليه من دوافع ومبررات موضوعية لكى يقيم من نفسه ، وبشكل مبدئى ، تجسيدا للنظام ، وليس فقط ضامنا أو أداة له • وهنا نريد أن نؤكد أننا لسنا أمام تعبير مرحلى ؛ وانما أمام خصوصية تكوينية تميز طبيعة سلطة الدولة فى مجالى الثقافة والأفكار • ولا شك أن المرحلة تؤثر ؛ ولكنها تؤثر ، باللغرابة بطريقة سلبية • ذلك فاننا نشهد أن مراحل الانطلاق السياسى والاقتصادى هى أيضا تلك التى سوف تؤكد فيها الدولة قبضتها على عالم الأفكار بينما تمنح الدولة هذا العالم فى الوقت نفسه بنية تحتية ثقافية أكثر استقرارا وتقــدما • وكان الدولة المصرية تتحرك ابتداء من تاريخها نفسه ، وكأنها بطريقة تتنكر لكل ما منه تتكون شروط كل تطور ثقافى وفكرى حقيقى ألا وهى : الجدلية المستمرة الموقف النقدى — فالتركيبات المركبة ليست ، فى نهاية الأمر الا فروض ، مستويات فى البحث اللانهائى لمعرفة حقيقة فعالة أكبر وأشمل •

ان سلاح النقد يصطدم دوما الى النقد بالسلاح — من قلب الارضية التى منها ينبع •

٣٢ — لكنما سلاح النقد يستمر ، مستمدا من المقتضيات الموضوعية للوطن المتغير ومن مطالب وأوامر الحكم ومن تحدى الاجنبى عوامل تشجعها على التحرك ، فى هذه المرحلة التى أرادت أن تكون مرحلة للنهضة الوطنية . ان الدولة فى مقدورها أن تضاعف من المؤسسات وتحدد الاطار وتراقب كافة أشكال التكوين • لكنها لا تستطيع أن تمنع أن أولئك الرجال الذين يتكونون فى قلبها على ممارسة الفكر ، لا تستطيع أن تمنعهم أن يكونوا مثقفين •

ان مثقفى مصر ، منذ البداية ، يقفون فى مهب الرياح ، فى نقطة التلاقى والتصارع بين العديد من المتناقضات : التراث والمعاصرة ؛ استرداد الذاتية الوطنية والثغرة الأجنبية ؛ وحل الريف وأضواء المدينة • انهم ابتداء من مكانتهم التاريخية يجدون أنفسهم بادىء ذى بدء فى نقطة الالتقاء والانكسار

بين نارين ، والاختيار على هذا النحو ، لا يرحم : أما الانضواء تحت لواء الممكن ؛ وأما الاصرار على غرس المستقبل فى ثنايا حاضر محاصر ومهدد . الاختيار الأول اختيار المثقفين ــ الكتبــة ، أى البيروقراطيين فى خدمة الدولة ، يؤكد أولوية الدولة فى مجالى الشرعية والقيم ، وليس فقط فى مجال الموضوعية التاريخية . أما الاختيار الثانى ، فهو اختيار المثقفين ــ الوسطاء ، على الدولة أن ترضى بهم لو أرادت نوعا من التجاوب والمقبولية ، حتى ولو تنازلت عن التأييد الواعى والارادى . ولكن الدولة ، وحتى فى هذه الحــالة تزيد من هؤلا المثقفين أن يكونوا وســطا متوسطين ، أى أن يكونوا همزة الوصل بين ارادة السلطة ووعى الشعب ، بين الايديولوجية الضمنية العريقة من ناحية ، ومقتضيات الصــياغة الايديولوجية التى تطرح نفسها من ناحية أخرى . من أجل هذا فان المثقفين ــ الوســطاء الذين يرفضون بيروقراطية جهاز الدولة يريدون أنفسهم أن يكونوا عناصر الوساطة ويعيشون على هذا النحو : فبدلا من أن يقفوا بين جناحى الوجود الوطنى ، نراهم يعملون بشكل ارادى كى يحققــوا للذكاء والمعقــولية مكانتها فى قلب الحياة الاجتماعية نفسها . وكأن همهم هو : ألا يتنازلوا عن مشروعية مستقبل ممكن مغاير ، يكون شيئا مختلفا عن مجرد تصحيح عسكرى وسياسى ، وانما يتسم بألوية النهضة الحقيقية .

من أجل هذا ، عليهم أن يعملوا ؛ لا أن يرتدوا . والعمل هنا ــ فى اطار الدولة أو فى خدمتها ــ يفرض عليهم ايقاعه واحتياجاته الاجبارية : ان العملية المتعجلة ، فى قلب الحصار ، تجعــل من الصــياغة النظرية والتركيبات المتكاملة أمرا صعبا . ولذا ، فان عملية التوسط ، كما يراها المراقب الخارجى تبدوا وكأنها عملية غير متكاملة ، محاولة هائلة منهكة تتسم بالفشل .

ولكن البعد التاريخى يدخل عددا من التعديلات النوعية على هــذا الانطباع .

فالعمــل المحقق يبدو هائلا مؤكدا ، ولو ظلت التركيبات والانظمة الفكرية المتكاملة غير متواجدة ؛ حتى لو لم تتمكن مصر ، خلال نهضتها الوطنية الأولى ، من فكرية أوبأيديولوجية وطنية بمعنى الكلمة ، من فلسفة للثقافة من صور وتصور للانسان الذى يراد تحقيقه . فالهدف ــ بيت القصيد ــ انما هو عكس الآية ، قلب حركة الدفع كلها ؛ وذلك لكسر سلم الانحدار ، بينما تقام فى الوقت ذاته الخطوات الأولى للصعود . فالوقت ينعدم ، ومجال العمل يضيق ــ ســنة بعد ســنة . ذلك أن أوروبا الاستعمارية ، فى أوج نموها آنذاك ، تمسك بمعانى الحصار والاخضاع ، لكسر ارادة النهضة هذه .

من أجل هذا يصبح لزاما عن المثقف ، أولا وقبل كل شيء ، أن يخوض المعركة ، أن يحارب فى سبيل أرض الوطن وشعبه . وابتداء من هذا الخيار ــ الذى سوف يقال عنه أنه سياسى او أيديولوجى ــ تندرج نتيجتان كبيرتان : فمن ناحية ، نجد أن صعوبات الصياغة النظرية ، وابداع الأعمال النقدية وابتكار أشكال التجديد الثقافى الخصوصى الخلاق تتضاعف ؛ ومن ناحية أخرى ، تتضاعف كذلك امكانية القيام بمسؤوليات قضايا القيادة السياسية والادارة الاجتماعية وادارة المجتمع والدولة ، وهى الامكانية القائمة على العلاقات العميقة مع مختلف طبقات وفئات الشعب الذى يتعرف فى مثقفيه بفخر وحرارة على ذاته ، وكذا التى تقوم على ادراك هذه الدولة عن وعى للدور الذى لا مفر للمثقفين بوصفهم سياسيين .

وكأنما تنعكس الآية ، ينعكس الاتجاه حقيقة : فالمثقف ليس عليه أن يلتزم ، ولكنه يتحدد تاريخيا واجتماعيا ، بوصفه ضمير الشعب المتحرك ، وهو الشعب الذى يحيا المثقف حياته اليومية ، كما أنه يمارس حدوده والتزاماته . ولا شك أن الطلائع الجديدة ترتفع فوق متوسط القوم . ولكن الاعتراف بهم بوصفهم طلائع مشروط بمدى التصاقهم بالشعب ، بحيث أن كل تباعد هنا معناه الرفض . ان قوة وفاعلية المشروع السياسى على المدى القريب تزداد ثراء من جراء هذا الموقف . ولكن الأمر ليس مؤكدا على المدى البعيد . فبين اجتماع الكلمة فى بداية الأمر وبين لحظة تحديد استراتيجية وطنية شعبية على المدى البعيد ، تكون لحظة صياغة الفكر والنظرية ــ وهى لحظة ضرورية لا عوض لها . وبمجرد أن يدرك المثقف هذه القضية فان اختياره الأول لابد وأن يجتمع مع اختيار ثان : فعنده ، فى هذه اللحظة أن الأولوية يجب أن تمنح ، أيا كانت الظروف ، الى البعد السياسى ، الى العمل ، الى الممارسة العملية ، مستندة الى صياغة نظرية بقدر الطاقة وخلال المسيرة ؛ وهى صياغة سوف تكون ، لهذا السبب وبالضرورة ، صياغة أيديولوجية ، لا تصل الى مستوى الصياغة النظرية الا بصعوبة . ذلك أنه من عبر هذه الممارسة العملية الفعالة ، وابتداء منها فى المقام الأول سوف تقوم الشروط الموضوعية لتحقيق الذكاء الخلاق فى الأعماق لشعبنا وأمتنا ــ فى مكانة الصدارة .

ان المثقف الذى يعيش ملحمة شعبه فى مرحلة تحريره ونهضته الوطنية ، اذ يحدد اختياراته وقراره المؤكد ، لا ضمان له . فلا شيء ، ولا أحد يستطيع أن يؤكد ويضمن له ، ابتداء ، صحة اختياره ، ولا نجاح مشروعه حقيقة حياته .

اتجاهات فى المراجع

١ ـ تم البحث الأساسى من أجل اعداد هذه الرسالة بين ١٩٥٦ بالقاهرة و ١٩٦٩ فى باريس ٠ ومن هنا كانت **المراجع المباشرة الرئيسية للبحث** هى التى دوناها فى الهوامش ٠

ومن ثم ، فقد اتجهنا الى موضوع تطوير هذا البحث الحيوى بالنسبة لمصر وأمتنا العربية فى قلب تحرك الشرق الحضارى فى مرحلة تغير العالم التى نحياها ، باعداد بعض الاتجاهات التى يمكن أن تكون ذات نفع بشكل فعال وقوى فى دعم بحوث تالية وفى مستوى أرفع ان شاء الله ، فى سبيل مصر ٠

ومن هنا كان ترتيب هذا القسم الخاص ـ « اتجاهات فى المراجع » ـ على النحو التالى :

١ ـ **مصادر المراجع** : ويتناول هذا القسم الأول المصادر البيبليوجرافية العامة والمصادر الدورية للمراجع والدوريات والمجلات المتخصصة التى تفرد فصولا لهذه المراجع الخ ٠٠

٢ ـ **رسائل البحث العلمى** (الماجستير والدكتوراه) : التى تمت بين ١٩٦٩ ، ١٩٨٠ ٠

٣ ـ **مراجع البحث التكميلية** : الصادرة بين ١٩٦٩ و ١٩٨٠ ، من كتب ومجلات متخصصة ، ومقالات ، الخ ٠٠

وبذا نكون قد أدينا الأمانة بالنسبة لمن سيواصلون مسيرة البحث والعمل فى هذا الاتجاه ، والحمد لله ٠

القسم الأول

مصادر المراجع

١ ــ باللغة العربية

ــ دار الكتب المصرية ، **دليل الكتاب المصرى** ١٩٧٢ ــ ١٩٧٣

ــ دار الكتب المصرية ، **التـــاريخ العربى ، قائمـة ببليوغرافية** ، القاهرة ١٩٦٨ .

ــ دار الكتب المصرية ــ قسم الارشاد ١٩٥٩ ، **قائمة ببليوغرافية عن القومية العربية** ، القاهرة ١٩٥٩

ــ مركز الوثائق التربوية للجمهورية العربية المتحدة ، **الفهرس العام للمادة التربوية والنفسية ١٩٦٣ القاهرة** .

ــ دار الكتب والوثائق القومية ، **المكتبة الاشتراكية** ، القاهرة ١٩٦٧

ــ سركيس ، يوسف الياس **معجم المطبوعات العربيـــة والمعربة** ، القاهرة ١٩٢٨ .

ــ دار الكتب المصرية ، **النشرة المصرية للمطبوعات** ــ القاهرة

ــ دار الكتب المصرية ، **دليل الكتاب المصرى** .

ــ بستانى، بطرس ، **دائرة المعارف المصرية** ، بيروت ١٨٧٦ ــ ١٩٠٠

ــ بستانى ، فؤاد أفرام ، **دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب** ١٩٥٦ بيروت

ــ **دائرة المعارف الاسلامية** فى ترجمة عربية ، ترجمة احمـد ثابت الفندى .

ــ زكى ، عبد الرحمن ، **موسوعة مدينـــة القاهرة فى ألف عام** ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

ــ عبد الرحمن ، عبد الجبار ، **دليل المراجع العربية والمعرفة**

ــ أمين ، عبد الكريم وابراهيم زاهده ، **دليـــل المراجع العربية** ، بغداد ، ١٩٧٠ .

ــ **تاريخ الادب العربى** ، ترجمة عبد الحليم النجار ، القاهرة ١٩٦٠

ــ حسين ، محمد أ. ؛ **الوثائق التاريخية** ، القاهرة ١٩٥٤ .

- **الدليل البيبليوغرافى للمراجع بالعالم العربى** ، القاهرة ١٩٦٥
- حميدة ، محمد ماهر ، **المصادر العربية والمعربة** ، بيروت ١٩٧٢
- صاوى ، عبد الله اسماعيل ، **المراجع العربية** ، القاهرة ١٩٥٦
- ابكاريوس ، اسكندر ، **المناقب الابراهيمية والمـآثر الخديوية** ، القاهرة ١٢٩٩/١٨٨٢
- ادفونى جعفر ب، تعالب (٧٤٨/١٣٧٦) **الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد** ، القاهرة ١٩١٤ ·
- نفس المؤلفة **الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد** ، محمد حسن وطه الهجيرى القاهرة ١٩٦٦ ·
- آصاف ، يوسف ، **أشهر رجال العصر** ، القاهرة ١٨٩٠
- **دليل الافراد العلميين بالوزارات والجمعيات بالجمهورية العربية المتحدة** (ــ : بالجمهورية المصرية) ، القاهرة ١٩٥٧
- فهمى ، زكى ، **صفوة العصر فى تاريخ ورسوم رجال مصر** ، القاهرة ١٩٢٦
- **فؤاد فرح سليمان** ، **الكنز الثمين لعظماء المصريين** ، القاهرة ١٩١٧
- هيكل ، محمد حسين ، **تراجم مصرية وغربية** ، القاهرة ١٩٢٩ ·
- ابن سيد ، على ب ، موهى (٦٨٥/١٢٨٦) ، **النجوم الظاهرة فى حلى حضرة القاهرة** ·
- الكندى ، محمد يوسف ، (٣٥٠/٩٦١) **ولاة مصر** ، منشورات حسين ناصر ، بيروت ١٩٥٩ ·

رشيد ، عزيزة ، **دليل المشتغلين بالعلوم الاجتماعية بالاقليم المصرى** ، القاهرة ١٩٦١

- شيال ، جمال الدين محمد ، **اعـلام الاسـكندرية فى العصر الاسماعيلى** ، القاهرة ، ١٩٦٥ ·
- زاخورة ، الياس ، **كتاب مرآة العصر فى تاريخ رسوم كبير الرجال بمصر القاهرة ١٨٩٧ ــ ١٩١٧** ·
- **السوريان فى مصر** ، القاهرة ١٩٢٧ ·
- زكى ، عبد الرحمن ·· **أعلام الجيش والبحرية فى مصر أثنـاء القرن التاسعشر** ، القاهرة ١٩٤٧ ·

– حسن ، محمد عبد الغانى « بين السطور (ابراهيم باشا) » ، **الكتاب** ٣ ، ١٩٤٨ – ٦١٧ – ٢٩ ٠

– **النشرة المصرية للمطبوعات ٠٠٠ فى دار الكتب من أغسطس** ١٩٥٥ ، القاهرة ١٩٥٦

– نصير ، عايدة ابراهيم ، **الكتب العربية التى نشرت فى الجمهورية العربية المتحدة بين عامى ١٩٢٨/١٩٤٠**

– أنصارى ، عبد الله ، **كتاب جامعى التصنيفات المصرية الحديثة من سنة ١٣٠١ الى سنة ١٣٤٠ هجرية** ، بولاق ١٨٩٣/١٣١٢ ٠

– **الدليل الببليوغرافى لمطبوعات وزارة التربيـــة والتعليم المركزية ووزارة التربية والتعليم التنفيذية بالاقليم الجنــــوبى ١٩٥٠ – ١٩٦٠** ، القاهرة ١٩٦١ (٥٠٦)

Abboud, P. F., «Spoken Arabic» (In T. A. Sebeok ed., **Current trends in Linguistics, v. 6 : Linguistics in South West Asia and North Africa,** The Hague, 1970, (pp. 439-66).

A cumulation of a selected and annotated bibliography of economic literature on the Arabic-speaking countries of the Middle East 1938-1960 Cumulated at the London University School of Oriental and African Studies from the AUB bibliography. Boston, G. K. Hall, 1967.

Afro-Asian Distribution Centre (Arabic Book Division), **Arabic publications; five years bibliography,** 1956-1960; **Al-nashra al-misriyya li-al-matbu'at ..** Cairo, 1962. (8048).

Cumulation of titles given in five years' issues of the four-monthly journal of the same title. Continued annually as :

Egyptian publications bulletin. 1955-56.

Since 1969 c the the added title : **The U.A.R. national bibliography. The Arab book annual, 1960-'.** «Alam al-maktabat» passim.

«**The Arab bibliography, I : Publications of U.A.R. (Egypt). 1962**». **Majallat al-maktabat al-'arabiyya 1, 1,** 1963-.

Ahmed, Munir D. **Suezcanal-bibliographie : Auswahl d. europ.-sprachiger Schriftums seit 1945.**

Al-Hajrasi, Sa'ad M. **Bibliographical guide to reference works in the Arab world.** Cairo, Issued in cooperation with UNESCO, 1965.

Al-Qazzaz, Ayad. **Women in the Middle East an annotated bibliography.** Detroit, Association of Arab-American University Graduates, 1975.

American University of Beirut. **A bibliography of A.U.B. faculty publications 1866-1966.** Compiled by Suha Tamim. Beirut, American University of Beirut, 1967.

Anawati. G. G., Index bibliographique des livres arabes publiés

en Egypte en 1954'. MIDEO 2, 1955, pp. 321-40. (319).
———, 1955. **Ibid,** 3, 1956, pp. 397-418. (341).

Also published in Revue du Cairo, vols. 35-6.

Anawati G. C., «Livres arabes parus récemment en Egypte». Mideo, 9, 1967, pp. 279-86 (150).

Titles listed in **Magallat al-kitab,** 1966-Aug. 1967.

Anawati, G. C., (Textes arabes anciens édités en Egypte au cours de l'année ...'

1953. MIDEO 1, 1954, pp. 103-40 (32)
1954. MIDEO 2, 1955, pp. 257-306. (60)
1955-56 MIDEO 3, 1956, pp. 259-348. (74)

1957. MIDEO 4, 1957, pp. 203--46. (30)
1958. MIDIO 5, 1958, pp. 387-416. (43)
1959-60. MIDEO 6, 1959-61, pp. 227-80. (33)
1961-62 MIDIO 7, 1962-63, pp. 141-86. (46)
1963-65. MIDEO 8, 1964-66, pp. 253-322. (66)
1966-67. MIDEO 9, 1967, pp. 271-8. (56)
1966-96. MIDEO 10, 1970, pp. 109-88. (72)
1969-71. MIDEO 11, 1972, pp. 275-89. (81)
1969-73. MIDEO 12, 1974, pp. 91-186. (77); sqq.

Anawati, G. C., and uuentz, Ch., **Bibliographie des ouvrages arabes imprimés en Egypte en 1942, 1943 et 1944.** Cairo, 1949. (854)

Anderson, M.S. **The Eastern question 1774-1923 : a study in international relations.** NY, St. Martin's Press, 1966.

Antoun, Richard T. «Three Approaches to the Cultural Anthropology of the Middle East,» in **Middle East Studies Association Bulletin** 5 (2) : 24-53 (1971).

Arab Information Center. **The Arab world : a select bibliography with special reference to the Arab-Israeli conflict.** NY. Arab Information Center, 1967.

Arab Islamic Bibliography The Middle East Library Committee Guide Edited by Diana Grimwood-Jones Derek Hopood and J.D. Person, Harvester Press, 1977.

Arberr, Arthur J. **Religion in the Middle East : three religions in**

concord and conflict. London, Cambridge University Press, 1969.
v. 1 : Judaism and Christianity. v. 2 : Islam.

Bibliography, pp 659-690.

Atiyah, G. N., **Egypt from the Arab conquest to the present; a basic bibliography.** N. pl., n.d. (493)

Atiyeh, George N. **The contemporary Middle East 1948-1973 : a selective and aunotated bibliography.** Boston, G.K. Hall 1975.

Azzam, Issam Abdel Rahman. **Bibliography on Near and Middle Eastern law.** N.Y. 1962.

Beirut, Université Saint-Joseph. Centre d'études pour le monde arabe moderne. **Arab culture and society in change : a partially annoted bibliography of books and articles in English, French, German, and Italian.** Beirut, Dar el-Mashreq Publishers for St. Joseph's University, 1973.

Bevis, Richard. **Bibliotheca Cisorientalia : an annotated cheklist of early English travel books on the Near and Middle East.** Boston G. K. Hall, 1973.

Bianchi, T. X., «Catalogue Général des livres arabes, persans et turcs, imprimés à Boulac en Egypte depuis l'introduction de l'imprimerie dans ce pays» **JA** 4e sér., 2, 1843, pp. 24-61 (243)

A caltalogue of Arabic and Turkish books printed at the Government Press, and sold at the Government Book Depot, Cairo.
Issued by the Imprimere Khédiviale at Bulaq in 1945, (-850 ?), (1972) A.H. 1295 (1886 ? (title varies) and 1890.

————. **Bibliographic lists of the Arab world.** Cairo, National Liberary Press, 1960-1965. 1-10.

BIRNBAUM, E., **Books on Asia from the Near East to the Far-East; a quide for the general reader** Toronto, The Islamic world (pp. 17-131).

Blake, G. H. **The Suez Canal : a commemorative bibliography, 1975.** Durham, England. University of Durham, Centre for Middle Eastern and Islamic Studies, 1975.

BLANC, H., «Semitic languages». (In T.A. Sebeok ed., **Current trends in linguistics, *v.* 1 : Soviet and East European linguistics,** The Hague, 1970.)

Bolton, A.R.C. **Soviet Middle East studies : an analysis and bibliography.** London, Oxford University Press for RIIA, 1959.

———. **Britain, India and the Arabs 1914-1921.** Berkeley, University of California Press, 1971.

BROCKELMANN, C., **Geschichte der arabischen Litteratur.** Zweite den Supplementbänden angepasste Auflage. 2 v. Leiden, 1943-49.

——— Supplementbande 1-111. Leiden, 1937-92.

Busche, Briton C. **Britain and the Persian Gulf 1894-1914.** Berkeley, University of California Press, 1967.

Cairo. Dar al-Kutub al-Misriyah. **Qism al-Irshad. A bibliography of works dealing with Arab struggle for freedom and unity.** Cairo, National Library Press, 1959.

Cairo. Dar al-Kutub al-Misriyah. **The Arab history : a bibliographical list.** Cairo, UAR National Library Press, 1966.

Cairo. National Research Centre, Classified of Egyptian scientific papers published in 1951-53. (500 in 1951).

Cambridge History of Arabic Literature. Cambridge (in preparation).

Cambridge History of Islam, ed. P.M. Holt, A.K.S. Lambton and B. Lewis, 2v Cambridge, 1970.

Clements, Frank. **The emergence of Arab nationalism from the 19th century to 1921. London, Diploma Press,** 1976.

Cohen, Hayyim J. **The Jews of the Middle East,** Hakib — butz Hameuchad Publishing House, Ltd., 1972.

CONOVER, H. F. **Egypt and the Anglo-Egyptian Sudan; a selective background reading.** Washington, D.C., 1952 (83).

CORM, Y., «L'edition égyptienne en 1976». **Travaux et jours** 2?, 1968, pp. 25-49. Statistical survey of 1988 titles published during January to June from a list in Majallat al-kitab al-'arabi no. 39.

Coult, Lyman and Karim Burzi. **An annotated research bibliography of studies in Arabic, English, and French of the fellah of the Egyptian Nile 1798-1955.** Coral Gables, University of Miami Press, 1958.

Cox, Edward G. **Reference guide to the literature of travel; include.**

ing voyages, geographical descriptions, adventures, shipwrecks and expeditions. Seattle, University of Washington, 1935-38. (reprinted NY, Greenwood Press, 1969) 3 vols.

Crecelius, D. «The organization of waqf documents in Cairo». IJMES 2, 1971, pp. 266-77.

Daghir, Yusuf A. **L'Orient dans la littérature française d'après guerre 1919-1933.** Beyrouth : Edouard Angélil, 1937.

De Bary, W. T. and Embree, A. T. eds., **A guide to Oriental** classics .. New York, and c., 1964.

Deny, J., **Sommaire des archives turques du Cairo,** 1930.

Durham Univesity Centure For Middle Eastern And Islamic Studies, **Register of Current British research in Middle Eastern and Islamic studies,** Durham, 1969; rev. edn. 1971.

EGYPT, **Documents diplomatiques concernant l'Egypte de Méhémet Ali jusqu'en 1920** réunis par L'Association Egyptienne de Paris. Paris, 1920.

Eléments de bibliographie sur la démographie égyptienne'. **Proche Orient, études économiques, (Ann. Fac. Droit Beyrouth)** 51, 1967, pp. 113-21. (150).

Ellul, J., Index des communications et mémoires publiés par l'Institut d'Egypte (1859-1952). Cairo, 1952. (2000)

«Table des matiéres des travaux imprimés de la Société d'Etudes Historiques et Géographiques de l'Islame de Suez (1947-1959)». **BSEHGIS** 6, 1955-56, pp. 217-27.

El-Mallakh, R. «Industrialization in the Middle East, Obstacles and Potential.» **Middle East Studies Association Bulletin** VII (3) (1973), 28-46.

ENCYCLOPEDIA OF ISLAM, 4v and Suppl. Leiden, and c., 1913-38.

———— New edn. Leiden, and c., 1954-.

EYCYLOPEDIE DE R'ISLAM. Nouvelle édn. Leiden, 1960-1979.

Ettinghausen, Richard. **A selected and annotated biliography of book and periodicals in Western languages dealing with the Near and Middle East with special emphasis on medieval and modern times.** Washington, DC, Middle East Institute, 1954. (reprinted NY, AMS Press, 1975).

Eweida, M., **Selected bibliography from foreign and Arabic periodicals dealing with agricultural development and related fields.** (Institute of National Planning Memo, 734.) Cairo, 1967.

——— **Classified index to articles of the periodicals for the years 1965 and 1966.** (Institute of National Planning Memo, 824). Cairo, 1968.

Finke, D. and others **Deutsche Hockschulscriften uber den modern** islamischen Orient; German these on the Islamic Middle East. (Deutsches Orient-Institut, Dokumentationsdienst Moderner Orient, Reihe A. I.) Hamburg, 1973.

Fontaine, A. L., **Monographie cartographique de l'Isthme de** Suez, de la péninsule du Sinai, du nord de la Chaîne arabique, suivie d'un catalogue raisonné sur les cartes de ces régions. (SEHGIS, Mémoires, 2.) Cairo 1955. (300).

Freeman-Grenville, G. S. P., **The Muslim and Christian calendars, being tables for the conversion of Muslim and Christian dates from the Hijra to the year A.D. 2000.** London, 1963.

Gabrieli, F., **Storia della letteratura araba.** Milan, 1951.

Gauthier, H., «Bibliographie des études de géographie historique égyptienne». **Bull. Soc. Géog. Egypte** 9, 1920, pp. 209-81. (1931)

Gauthier, H. (and Munier, H.), «Bulletin bibliographique from 1962 : Bibliographie géographique de l'Egypte», **Bull. Soc. Goég. Egypte** 14-21, 1926-43.

Geddes, C. L., **An analytical guide to the bibliographies on modern Egypt and the Sudan.** (American Inst. of Islamic St., Bibliographic ser. 2.) Denver, 1972. (135).

Gibb H., A. R. and Kramers, J. H., **Shorter encyclopedia of Islam,** ed. on behalf of the Royal Netherlands Academy ... Leiden, and c., 1953 (repr. 1969).

Gimwood-Jones, Diana, Hopwood, Derek; Pearson, J.O., Eds. : **Arab Islamic Bibliography — The Middle East Library Committee Guide,** The Harvester press, London and Humanities Press, Atlantic Highland, 1977.

Goby, J., «De l'établissement d'une bibliographie de l'histoire de l'Egypte» **Cahiers hist. ég.** 1, 1949, pp. 283-94.

Goby, J. E., «Bibliographie critique du Canal de Suez», BSEHGIS 5, 1953-54, pp. 237-56.

Goby, J. E., «Les bibliographies égyptiennes de l'Isthme de Suez'. les questions relatives à l'Egypte. Ismailia, 1950. (200)

Goby, J. E., «Les bibliographies égyptiennes de l'Isthme de Suez'. BSEHGIS 1, 1947, pp. 85-7.

——— «Matériaux pour servir à l'établissement d'une bibliographie de l'Isthme de Suez'. **SEHG Note d'information** 12, 1948. pp. 17-19; 13, 1948, pp. 17-19; 1948, pp. 26-34; 14, 1948, pp. 44-51.

——— **«Bibliographie méthodique de l'Islame de Suez et des régions voisines pour les années 1939 a 1950'. BSEHGIS** 4. 1951-52, pp. 191-219. (227).

Goitein, S. D., A Mediterranean society. 2v. Berkeley, and c. 1967, 71.

Guemard, G., «Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts et de l'Institut d'Egypte'. Cairo, 1936. He had earlier written «Essai de bibliographie critique... BIE 6, 1923-24, pp. 135-57. (50); Supplement». **BIE** 8, 1925-26, pp. 221-49. (50).

Guide to U.A.R. publications at the A.U.C. Library. (Z3655. A5)

Gulick, John **An annotated bibliography of sources concerned with women in the modern Middle East** Princeton : Program in Near Eastern Studies, Princeton University, 1974.

Haig Sir Wolseley, **Comparative tables of Muhammadan and Christian dates** ... London, 1932.

Halstead, John P. **Modern European imperialism : a bibliography of books and articles 1815-1972.** Boston, G.K. Hall, 1974. 2 vols.

Hamza, M. M. ed., **Theses on the Sudan and by Sudanese accepted for higher degrees.** Khartoum, 1966.

Hashad, Mahmoud A., **Subject guide to memos of the Institute of National Planning, Cairo, September 1960 .. December 1966.** Inst. of National Planning memo. no. 724). Cairo, 1967. (711)

Hashad, M. & Afifi, M., **Guide to selected references on education and manpower planning and related subjects.** (Institute of National Planning Memo, 709). Cairo, 1966.

Heravi, M. ed., **Concise encyclopedia of the Middle East.** Washington, D.C., 1973.

Hughes, T. P., **A dictionary of Islam, being a cyclopedia of the doctrines, rites ceremonies and customs ... of the Muhammadan** religion, London, 1896. (repr. Karachi, 1964).

Hunter, F. R., «The Cairo archives for the study of élites in modern Egypt'. **IJMES** 4, 1973, pp. 476-88.

Ibrahim-Hilmy, Prince. **The literature of Egypt and the Sudan, from the earliest times to the year 1885, inclusive.**
London, 1886-88. (Kraus Reprint, 1966) 2 vols.

ISLAM ANSIKLOPEDISI; ISLAM ALEMI TARIH, GOGRAFYA **ETNOGRAFY VE BIOGRAFYA LUGATI.** llv. in 12. **Istanbul,** 1943-70.

Issaci, Charles P. **Economic history of the Middle East 1800-1914 : a book of readings.** Chicago, University of Chicago Press, 1966.

————. «Economic History of the Middle East to 1914,» **Middle Esat Studies Association Bulletin,** II (2) (1968), 1-14.

Johnston, Scott D. «The Study of Parties in Political Development in the Middle East and North Africa, «**Middle East Studies Association Bulletin,** III (2) (1969), 1-13.

Kappert, P. and others comps., «Dissertationen zu Gesshichte und Kultur des Osmanischen Reiches, angenommen an deutschen, österreichischen und schweizerischen Universitäten seit 1945». Der Islam 49, 1972, pp. 110-19.

Keimer, L., «Les voyageurs de langue allemande en Egypte entre 1800 et 1850 ainsi que leurs relations de voyage. Essai bibliographique". Cahiers hist. eg. 5, 1953, pp. 1-28. (40)

Keldani, Elias Habbib, **A bibliography of geology related sciences concerning Egypt, up to the end of 1939.** Cairo, 1941, (2939).

Killean, C. G., «Classical Arabic». (In T. A. Sebeok ed., **Current trends in linguistics, v. 6 : Linguistics in South West Asia and North Africa.** The Hague, 1970, pp. 413-38).

Kohler,, J., **Deutsche Dissertationen über Afrika; ein Verzeichnis für die Jahre 1918-1959.** Bonn, 1962.

Kreiser, K. and others eds., **Lexikon der islamischen Welt,** 3v. Stuttgart, 1974.

Kuhnel, E., «Publicationen des Arabischen Museums in Cairo, 1929-1939.» (AI 6, 1939, p. 175 f.)

Leningrad, Akademiya Nauk S.S.S.R., **Spravochnaya literatura po stranom Azii i Afriki; svody katalog inostrannykh fondov bib-Eoteki Akademii Neu S.S.S.R. i Gosudarsvennoi Publichnoi Biblioteki, 1945-1968;** pod red. T. A. Varganovoi i S. S. Bulatova. Leningrad, 1972.

Lewis, B. and Holt, p. Meds., **Historians of the Middle East.** London, 1962.

Library Of Congress American LiBraries Procurement Center. **Accessions list, Middle East.** Cairo, 1962-.

Library Of Congress, **Select list of references on Egypt, 525 B.C. to the present time.** Washington, D.C., 1908 (36).

Lichtenberger, M., **Ecrivains francais en Egypte contemporaine (de 1870 à nos jours).** Paris, 1934.

LORIN, H., Bibliographie géographique de l'Égypte Publié sous la direction de H. Lorin. 2v. Cairo, 1938. (9049).

Lowenthal, Rudolf. «A Bibliography of Near and Middle Eastern Studies Published in the Soviet Union from 1937-1947.» **Oriens IV (1951), 328-344.**

MANSOOR, M., Poltical and diplomatic history of the Arab world, 1900—1967 : chronological study. 7v. Washington, D.C., 1972.

Maple, H. L., A bibliography of Egypt consisting of works printed before A.D. 1801. Pietermaritzburg, 1952. (750).

Maunier, René. **Bibliographie économique, juridique, et sociale de L'Egypte moderne (1798 - 1919).** Le Caire, Impr. de l'Inst. Français d'Archaéologie Orientale, 1918.

McClanahan, G. V., «Recent books on contemporary Egypt». **MEJ** 5, 1951, pp. 101-7. (31).

Middle East and North Africa : a bibliography for undergraduate : libraries by Harry N. Howard. Williamsport, Pa., Bro-Dart Publishing Co., 1971.

Middle East Journal, .. **biliographic section, quarterly, in progress;**

Middle East Libraries Committee, Middle East and Islam; a bibliographical introduction, ed. D. Hopwood and D. Grimwood-Jones. (Bibliotheca Asiatica, 9.) Zug, 1972.

Middle East Studies Association, «Directory of graduate and under-graduate programs and courses in Middle East studies in the United States, Canada and abroad». **MESA bull.** 6 (Special issue), 1972.

Minsitry of Finance, A list of publications. 1906 (400) and 1908. (500).

Ministry of Public Works, A list of publications, maps and plans. 1901 —. Various editions, that of 1952, on loose leaves, being entitled : **List of maps and publications for sale at the Survey of Egypt maprooms.** (1000).

Moscow. Inst. Vostokovedenya, **Doktorskie kandidatsieKie dissertatsii, zaschishchennye v Institute Vostovedeniya A.N.S.R. s 1950 po 1970.** Moscow, 1970.

Moyer, K. **From Iran to Morocco, from Turkey to Sudan : a selected and annotated bibliography of North Africa and the Near and Middle East.** NY, Missionary Research Library, 1957.

Munier, H., Tables de la Description de l'Eypte, suivies d'une bibliographie sur l'expédition française de Bonaparte. Cairo, 1943. (631)

Nahoum, H., Recueil de firmans impériaux adressés aux valis et aux khédives d'Egypte, 1006 H. .. 1322 H. (1597 JC-1904 JC). Cairo, 1934.

New York. Public Library. **Modern Egypt; a list of references to metarials in the New York Public Library. Columbia** NY, NYPn, 1929 (Kraus Reprint 1969.)

Nichloson, R.A., A literary history of the Arabs. London, 1927 (repr. Cambridge, 1953).

O'Leary, De Lacy, «Bibliography : Christian Egypt (1934-1935)» **Journal of Egyptian Archaeology.** . London, xxi (1935), 108-113.

Pareja Casanas, F. M., **Islamologie.** Par F. M. Pareja ... en, collaboration avec L. Hertling ... A. Bausani ... (et) Th. Bois ... Beirut, 1957-63.

Pearson, J.D. Comp., **Index Islamicus, 1906-1955; a catalogue of aritcles on Islamic subjects in periodicals and other collective publications** Heffer, Cambridge, 1958;

——— : **Supplement 1956-1960,** Heffer, Cambridge, 1962;

——— : **Second Supplement 1961-1965,** Heffer, Cambridge, 1967;

——— : **Third Supplement 1966-1970,** Heffer, Cambridge, 1972;

——— : **Fourth Supplement 1971-1975**, Heffer, Cambridge, 1977.

Pratt, I. M., **Modern Egypt; a list of references to material in the New York Public Library.** New York, 1929 (600).

«Littérature et colonialisme; l'Égypte dans la litérature française». «**Cahiers contre-enseignement français** 6:20, March 1936.

Prins, A.H.S. «The Maritime Middle East : A Century of Studies», **Middle East Journal,** XXVII (1973), 207-219.

Qubain, Fahim I. **Education and science in the Arab world.** Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1966.

Qubain, Fahim I. **Insfde the Arab mind : a bibliographic survey of literature in Arabic on Arabic nationalism and unity,with an annotated list of English-language books and articles.** Arlington, Va., Middle East Research Associates, 1960.

Rabat, Univ. Mohammed V. Centre Universitaire De La Recherche Scientifique, Thèses et mémoires de l'Université Mohammed V. **Bull. signalétique, 3 (Special** issue), 1970.

Richards, D. C., «Arabic documents from the Karaite community in Cairo'. **JESHO** 15, 1972, pp. 105-62.

RIVLIN, H. A., The Dar al-watha'iq in Abdin Palace of Cairo as a source for the study of the modernization of Egypt in the nineteenth century. Leiden, 1970.

RIZZITANO, U., «Recenti publicazioni edite dallIstituto di Studi Superiori Arabi del Cairo, dipendente dalla (Lega Araba». **OM** 36, 1956, pp. 204-16. (35)

Roemere H. R., «Arabische Herscherurkunden aus Agypten» OLZ 61, 1966, pp. 325-34.

Ronart, S. and N., **Lexikon der arabischen Welt ...** ed. by F Hofer. Zurich, 1972.

——— «Documents et archives de l'Egypt islamique». **MIDEO 5**, 1958, pp. 237-52.

———«Uber Urkunden zur Geschichte Agyptens ... in islamischer Zeit'. **ZDMG** 107 (N.F. 32). 1957, pp. 519-38.

Rustum, A., **A calendar of state papers from the Royal Archives of Egypt relating to the affairs of Syria.** 4 v and index. Beirut, 1940-43.

Salama, Ibrahim, **Bibliographie analytique et critique touchant la question de l'enseignement en Egypte depuis la période des Mameluks jusqu'à nos jours, Cairo,** 1938.

Sauvaget, J., **Introduction à l'histoire de l'Orient muslman : éléments de bibliographie.** Edn. refondue et complétée par C. Cahen. (Initiation à l'Islam, 1.) Paris, 1961.

Sauvaget Jean. **Introduction to the history of the Muslim east : a bibliographic guide.** Based on the 2nd ed. as recast by Claude Cahen. Berkeley, University of California Press, 1965.

Scholch, A., «Review of Rivlins «Dar al-Watha'iq» MES 8, 1972, p. 125.

Schwaarz, K., **Verzeichnis deutschsparchiger Hochschulschriften zum islamischen Orient (1885--1970). Deutschland-Osterreich- Schwiez.** (Islamkündliche Materialen, 2.) Freiburg im Breisgau, 1971.

Selim, G. D., **American doctoral dissertations on the Arab world, 1883-1968.** Washington, D.C., 1970.

Sezgin, F., **Geschichte des arabischen Schrifttums.** Vol. 1 — Leiden, 1967—.

Shaw, S. J., «Cairo's archives and the history of Ottoman Egypt'. **Report on Current Research»** (Middle East Institute, Washington). Spring 1956.

———«Dar al-Mahfuzat al-umumiyya' **in E12.**

Shayyal. Gamel el-Din, «The Fatimid documents as a source for the history of the Fatimids and their institutions'. **Bull. Fac.** Arts Alexandria 8, 1954, pp. 3-12.

Sheikh, M.S, **A dictionary of Muslim philosophy.** Lahore, 1970,

Sherbon, C. D., **Bibliography of scientific and technical literature relating to Egypt, 1800-1900.** Compiled for the Survey Dept. Prelim. edn. Cairo, 1910. (3500).

Shimoni, Y. and LEVINE, E. eds., **Political dictionary of the Middle East in the twentieth century.** London, 1972.

Shulman, F. J. **American and British doctoral dissertations on Israel and Palestine in modern times.** Ann Arbor, 1973.

Simon, Reeva S. : **The Modern Middle East : a Guide to Research Tools in the Social Sciences,** Westview Press, Boulder, 1978.

Société Sultanieh d'économie politique, de statistique et de legislation, Cairo, Bibliothèque. «Catalogue de la Société royale d'économie politique, de statistique et de legislation.» **Egypte Contemporaine,** année 23 (1932), 1-93.

Spuler, B. and Forrer, L., **Der vordere Orient in islamischer Zeit** (Wissenschaftliche Forschungsberichte; Geisteswissenschaftliche Reihe ... Bd. 21 ... Orientalistik, III. Teil.) Bern, 1954.

Standing Conference On Library Materials On Africa, **United Kingdom publications and theses on Africa, 1963 . . .** Cambridge 1966 —.

Stern S. M.., **Fatimid decrees; original documents from the Fatimid Chancery,** London, 1964.

Sweet, Louise E. **Circum-Mediterranean peasantry : introductory bibliographies.** New Haven, HRAF Press, 1969.

Tagher, J., «Bibliographic analytique et critique des publications françaises et anglaises relatives à l'histoire de la règne de Mohammad Ali. **Cahiers hist. ég.** 2, 1949, pp. 28-235. (850).

The Middle East : a selected bibliography of recent works 1960-1969. Compiled by Harry N. Howard. Washington D.C., The Middle Institute, 1972 + suppl.

UNESCO. Middle East Science Cooperation Office. **Middle East social science bibliography : Arab countries of the Middle East 1955-1960.** Cairo, UNESCO Middle East Science Cooperation Office, 1961.

United Nations. Food And Agriculture Organization, **Select bibliography on modern Egypt.** (FAO/52/4/1285) (Washington, D.C., 1285) (Washington, D.C., 1952 ?) (167)

Also issued as :

Heyworth-Dunne, G., **Select bibliography on modern Egypt,** (The Muslim world ser., 2.) Cairo, 1952. (167).

Tignor, R. L., (Some mateirals for a history of the 'Arabi revolution. A bibliographical survey'. MEJ 16, 1962, pp. 239-48. (125).

HOPWOOD, D., «Some Western views of the Egyptian revolution'. (In P. J. Vatikiotis ed., **Egypt since the revolution, London,** pp. 181-95.)

Geddes, C. L., An **analytical guide to the bibliographies on modern Egypt and the Sudan.** (American Inst. of Islamic St., Bibliografic ser., 2.) Denver, 1972. (135).

U. S. Department of the Army. **Middle East : the strategic hub : North Africa : a bibliographic survey of literature.** Washington: Headquarters of the Army, 1973. (AD Pamphlet 550-16).

U.S. Department of the Army. **Middle East tricontinental hub : a strategic survey.** Washington, U.S. Government Printing Office, 1965-1968. (Dept. of the Army Pamphlet 550-2, 550-2-1)

Topically arranged annotated
bibliography of books and
articles; appendices include
background notes on individual
countries, maps, lists of government

Officials, list of U.S. officials

in various countries and bibliography.

(0544. U56)

U.S. Department of State. Office of External Research. **Middle East : A list of current social science research by private scholars and academic centers.** Washington, 1952 —.

U.S. : Foreign Service Institute. Center for Area and Country Studies. **Near East and North Africa; a Selected Functional and Country Bibliography.** Washington, 1968.

United States. Library of Congress. European Affairs Division. **Egypt and the Anglo-Egyptian Sudan, a selective to back-**

ground reading. Washington, University Press of Washington, 1952.

Weber, Shirley H. **Voyages and travels in Greece, the Near East, and adjacent regions, made previous to the year 1861.** Princeton, American School of Classical Studies at Athens, 1953.

———. **Voyages and travels in the Near East made during the XIX century.** (3013. W4)

Wensinvz, A. J. and Kramers, J. H., **Handwöorterbuch des Islam ...** Leiden, 1941.

Wiet, G., «Petits papiers du consulat de France au Caire». **Orient** 8. 1958, pp. 79-108.

Williams, J. A., «Research facilities in the U.A.R.». **MESA** bull. 4, ii, 1970, pp. 47-54.

Zaki, Abdel Rahman, **A bibliography of the literature of the city of Cairo. Cairo,** 1964. (1000).

Zink, H., «Material for a comparative study of local government». Amer. pol. sci. rev. 50, 1956, pp. 1120-3. (40)

القسم الثانى

رسائل البحث الجامعى

١ ـ باللغة العربية

أ) مراجع الرسائل :

جامعة الأزهر : قائمة للرسائل الجامعية التى أجيزت لنيـــل الدراســـات العليا لكليات أصول الدين واللغة العربية القاهرة ١٩٦٨

ـ جامعة القاهرة : **الرسائل العلمية لدرجتى الماجستير والدكتوراة** القاهرة ١٩٥٨ .

جامعة القاهرة : **دليل عناوين رسائل الماجستير والدكتوراة بكليات جامعات القاهرة للعام ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠** ، القاهرة ١٩٧١

ـ جامعة عين شمس : **التقرير العلمى ١٩٥٦ ـ ١٩٦٠** ، ١٩٦١

ـ جامعة عين شمس : **دليل رسائل الماجستير والدكتوراة المتعلقة بالشرق الاوسط التى اجيزت بالجامعات المصرية** ١٩٧٧

ب) الرسائل :

الامام محمد محمود

« نهر النيل كنهر دولى ـ دراسة فى الجغرافيا السياسية »
كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٤ (ماجستير)

البارودى رضوان محمد رضوان

« الجيش فى عصر الدولة الفاطمية »

كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية ١٩٧٤ (ماجستير)

الخطيب زكريا عبد المنعم ابراهيم

« نظام الشورى فى الاسلام ونظم الديمقراطية المعاصرة »

كلية الحقوق ، جامعة عين شمس ١٩٧٠ (دكتوراة)

السيد حسن حبيب

رشيد رضا المفسر

كلية أصول الدين جامعة الازهر ١٩٧١ (دكتوراة)

السيد جودة عبد الله مصطفى

« التجديد ومظاهره في الشعر العربى الحديث بمصر منذ مطلع النهضة

كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٩٧٠ (دكتوراة)

حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ »

الشرباصى أحمد الشربينى جمعه

« رشيد رضا – عصره وحياته وجهوده الادبية واللغوية »

كلية اللغة العربية جامعة الازهر ١٩٦٧ (دكتوراة)

الكردى محمود السعيد

« المنهج التجريبى عند ابن خلدون »

كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٤ و (ماجستير)

« مناهج وطرق التعليم عند القابسى وابن خلدون »

كلية التربية ، جامعة الازهر ١٩٧٣ (ماجستير)

حركة أمل فضل

« البناء الاجتماعى عند الشيعة »

كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ١٩٧٤ (ماجستير)

حسن ابراهيم شحاته

« السياسة البريطانية فى السودان وأثرها فى العلاقات المصرية –

كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٦٨ (دكتوراة)

السودانية ١٨٩٩ – ١٩١٤ »

دوس عياد حسين

« نظم بلاط العباسيين ورسومه فى بغداد من ١٣٢ هـ الى ٦٥٦ هـ »

كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٣ (ماجستير)

رمضان محمد رفعت

« ثورة على بك الكبير »

كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٤٦ (ماجستير)

رمضان محمد رفعت

« العلاقات بين مصر والدولة العثمانية فى الفترة من ١٨٤٠ ـ ١٨٦٣»
كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٥٥ (دكتوراة)

سالم محمد بهى الدين

« مصر فى شعر العرب المعاصرين »
معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩ (ماجستير)

سعيد أحمد عبد المعطى محمد بيومى

« تجديد الفكر الاسلامى فى العصر الحديث »
كلية أصول الدين جامعة الأزهر ١٩٧٢ (دكتوراه)

سعيد عثمان بن الحاج خالد

« الاتجاه القومى فى الأدب العربى المعاصر فى مصر »
كلية اللغة العربية جامعة الازهر ١٩٦٧ (ماجستير)

سمارة شكرى محمد أحمد

« ولى الدين يكن حياته وآراءه الأدبية »
كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٣ (ماجستير)

سمارة محمد عبد الحليم حمدان

« الاحزاب السياسية فى الدولة الاسلامية والنظم المعاصرة »
كلية الشريعة والقانون جامعة الازهر ١٩٧٥ (دكتوراة)

سمايلوفينس أحمد

« فلسفة الاستشراق واثرها فى الادب العربى المعاصر »
كلية اللغة العربية جامعة الازهر ١٩٧٤ (دكتوراة)

صابات خليل

« تاريخ الطباعة فى الشرق الادنى »
معهد الدراسات الافريقية ١٩٧٤ (دكتوراة)

صالح محمد أمين

« التنظيمات الاقتصادية فى مصر والشام فى العصر الاموى »
كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٦٧ (ماجستير)

صالح محمد أمين
« التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عهد المماليك الجراكسة »
كلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٠ (دكتوراة)

عاشور فايد حماد محمد

« العلاقات السياسية المغولية فى الدولة المملوكية الأولى »

كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٦٩ (ماجستير)

عاشور فايد حماد محمد

« التنظيمات العسكرية المغولية والمملوكية – دراسة مقارنة »

كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٧٣ (دكتوراة)

عباس فضل حسن أحمد

« اتجاهات التفسير فى العصر الحديث فى مصر وسوريا

كلية أصول الدين جامعة الازهر ١٩٧٢ (دكتوراة)

عبد الباقى ضاحى

« المصطلحات العلمية والفنية وكيف واجهها العرب المحدثون »

معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٣ (ماجستير)

عبد الحميد ، محمد : **الصحافة العسكرية فى مصر** ، كلية الاعلام جامعة القاهرة ١٩٧٦ (ماجستير)

عبد الدايم يحيى ابراهيم على

الترجمة الذاتية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثامن عشر »

كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٦٥ (ماجستير)

عيد السيد أشرف سوريال

« جهود مصر الثقافية فى السودان (١٨٢٠ – ١٨٧٩) »

معهد البحوث والدراسات الافريقية – جامعة القاهرة ١٩٧٣

(ماجستير)

عبد الحميد محمد سعيد

« نابغة الشرق جمال الدين الافغانى »

كلية أصول الدين ، جامعة الازهر ، ١٩٦٧ (ماجستير)

عبده على ابراهيم

« المنافسة الدولية فى أعالى النيل »

كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٦ (دكتوراة)

عودة عبد الملك على أحمد

« الكتلة الاسلامية »

كلية التجارة ، جامعة القاهرة ١٩٥٦ (دكتوراة)

فرج فرج محمد

« العلاقات الخارجية لدولة المماليك فى العراق (١٧٤٩ – ١٨٣١)

كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٦٥ (ماجستير)

قاسمية خيرية محمد

« النشاط الصهيونى فى الشرق العربى وصداه ١٩٠٨ – ١٩١٨ »

كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٧٢ (دكتوراة)

كف الحسينى منسى على

« رفاعة رافع (١٨٠١ – ١٨٧٣م »

كلية الآداب – جامعة القاهرة (ماجستير)

مالك وداد فارس

« الحركة الصهيونية فى فلسطين من ١٩١٧ الى ١٩٢٩ »

كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٥ (ماجستير)

محمد نوال عبد العزيز مهدى

« الحركة العمالية وأثرها فى تطور التاريخ السياسى فى مصر ١٨٩٩ – ١٩٢٥ »

كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ (ماجستير)

مصطفى أحمد فريد على

توسع مصر فى الشام وأثرها فى الموقف الدولى من المسألة المصرية فى عهد محمد على .

كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٥٥ (ماجستير)

مصطفى على عبد القادر : الوزارة فى النظام الاسلامى والنظم المعاصره

كلية الشريعة والقانون جامعة الازهر ١٩٧٥ (دكتوراة)

معبدى محمد بدوى

« القومية العربية فى الشعر المصرى الحديث فى القرن العشرين »
كلية اللغة العربيةجامعة الازهر ١٩٧٣ (دكتوراة)

منصور عز الدين محمد عبد الحميد

« الأناشيد الوطنية فى الشعر العربى »

معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٥ (ماجستير)

نجم محمد يوسف

« الأدب المسرحى لمصر والشام فى العصر الحديث الى الحرب العالمية الاولى »

كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٥٤ (دكتوراة)

نشأت محمد على

« الفكر الاقتصادى فى مقدمة ابن خلدون »

كلية الحقوق ، جامعة القاهرة ، ١٩٤٤ (دكتوراة)

نصر يوسف

« جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر »

معهد البحوث والدراسات الافريقية ـ جامعة القاهرة ١٩٧٤ (ماجستير)

٢ ـ باللغات الاجنبية

١ ـ مراجع الرسائل

Aslib. Index to theses accepted for higher degrees in the universities of Great Britain and Ireland. v. 1. 1950/51, London ASLIB, 1953 —, annual.

American University Of Beirut Jafet Memorial Library.

Masters' theses 1909-1970; comp. by N. Mikdashi. Beirut, 1971.

Bloomfield, B.C. **Theses on Asia accepted by universities in the United Kingdom and Ireland 1877-1964. 1877-1964.** London, Frank Cass and Co., Ltd., 1967.

——— **Theses on Asia accepted by univrsities in the United Kingdom and Ireland, 1877-1964,** London, 1967.

Comprehensive dissertation index. 1861-1972. Ann Arbor, Xerox University Microfilm, monthly.

Eells, W.C. **American doctoral dissertations on education in countries of the Middle East.** Washington, Middle East Institute, 1955.

El-Erian, Tahany. **List of doctroal dissertations accepted by American universities between the years 1969-1966, and dealing with the Arab World, in the field of social sciences : political sciences, history, economics, anthropology, and sociology.** NY. Clumbia University Social of Library Service.

France. Ministere de L'Education Nationale. Direction des Bibliothèques de France. **Catalogue des thèses de doctorat soutenues devant les universités françaises, 1884/5.** Paris, 1885.

Jahresverzeichnis der deutschen Hochschulschulschiften, 1885-. Bearb. Von der Deutschen Bucherei. Leipzig, VEB Verlag fur Buch- und Bibliothekswesen, 1887-. Bd. 1—

Middle East Studies Association of North America. **Bulltin (MESA BULLETIN)** NY : MESA of North America, Inc., 1967—.

Reynolds, Michael N. **Guide to theses and dissertations : an international annotated bibliography of bibliographies.** Detroit, Gale Research Co., 1975.

Schwarz, Klaus. **Verzeichnis deutschsprachiger Hochschulschriften zum islamischen Orient (1885-1970).** Deutschland-Osterreich-Schweiz, Freiburg im Breisgau, 1971.

Selim, George O. **American doctoral dissertations on the Arab world, 1883-1974.** 2nd ed. Washington, OC, Library of Congress, 1976.

(ب) الرسائل ★

ABADI, Jacob. **The British Retreat from the Middle East : 1945-1957 .. The Role of Domestic Constraints in the Making of Defence Policy.** Ph. D., 1978, New York University ;

ABDEL-WAHAB, Youssef I. **Egypt : A Historical Analysis of Public Personnel Policies in Relation to the Social System (1883-1967).** Ph. D., The American University (Washington, D.C.) 1973;

ABRAHAM, Midhat David. **Mahmud Shaltut (1893-1963), a Muslim Reformist : Hist Life, Works and Religious Thought.** The Hartford Seminary Foundation (Connecticut), Ph. D., 1976,

ALAWADY, Saria M. **Bibliographic Controls and Services in Egypt: A Survey and Study with Emphasis on the Role of the Egyptian National Library.** Ph. D., Texas Woman's University (Texas), 1978;

ALLEN, Rodney F. **Population pressures in Egypt : A curriculum Uint for Students of World Cultures.** D.A., Carnegie-Mellon University (Pennsylvnia), 1973;

AL-SAYED, Abdul Malik Ahmed. **Classical Arabic-Islamic Political Theories of Administration, an Analysis and Evaluation tion of their Contemporary Signficance.** University of Colorado, Boulder (Colorado), Ph. D., 1974;

AROIAN, Lois Armine. **Education, Language, and Culture in Modern Egypt : Dar Ulum and its Graduates (1872-1923).** Ph. D., The University of Michigan (Michigan) 1978.

★ هذه القائمة تمثل جزءا فقط من القائمة العامة ـ وهذا الجزء الخاص بالرسائل فى الروايات المتحدة ـ ويمكن استخلاص الأجزاء الأخرى من المراجع الببليوغرافية للدول الأخرى ،تباعا.

ASADI, Fawsi Abdul-Majid. **Socio-Economic and Political Institutional Factors Influencing The Land Use Pattern in Egypt.** Ph.D. The University of Michigan (Michigan), 1970.

BAYYUMI, Muhammad Ahmad Muhammad. **The Islamic Ethic of Social Justiceand the Spirit of Modernization : An application of Weber'sThesis to the Relationship Between Religious Values and Social Change in Modern Egypt, Ph.D,. Temple** University (Pensylvania), 1976;

BELL, Lanny David. **Interpreters and Egyptianized Nubians in Ancient Egyptian Foreign Policy : Aspects of the History of Egypt and Nubia.** Ph.D., University of Pennsylvania (Pennsylvania), 1976;

BENDINER, Kenneth Paul. **The Portrayal of the Middle East in British Painting, 1835-1860.** Ph.D., 1979, 1979, Columbia University.

BARDEN, Jean Haythorne. **The Eagle and the Crescent :American Interests in the Ottoman Empire, 1861-1870.** The Ohio State University (Ohio), Ph. D., 1973;

BYBEE, Dorothy Ann. **Muslim Peasant Women of the Middle East: Their Sources and Uses of Power.** Ph. D., Indiana University (Indiana), 1978.

CANNON, Byron David. **The Politics of Juridical Reform : Egypt, 1876-1891.** Ph.D., Columbia University (New York), 1970;

Chafiq, Salama Francis : **Le réalisme et l'humour dans le Voyage en Orient,** Université d'Alexandrie, Alexandrie, 1958;

CAUZ-SAENZ, Michelle Frances Schiavone. **The Life of Saint Mary of Egypt : An Edition and Study of the Medieval French and Spanish Verse Redactions.** Ph.D., University of Pennsylvania (Pennsylvania), 1976;

DEBS, Richard Abraham. **The Law of Property in Egypt : Islamic Law and Civil Code.** Princeton University (New Jersey), Ph.D., 1963;

DEIRANIEH, Akram Raslan. **The Classical Concept of State in Islam.** Howard University (Washington, D. C.), Ph. D., 1975;

ELSLBBAGH, Zoheir Naim. **An Analysis of the Impact of the Political Changes on Labor Unions in Egypt.** Ph. D., North Texas State University (Texas), 1977;

ELSAYED, Mohamed Salah Eldin. **Worker Participation in Management in the Experience of the Arab Republic of Egypt.** D.B.A. The George Washington University (Washington, D.C.). 1972;

ELWAN, Shwikar Ibrahim. **Constitutional Democracy and Islam : A Comparative Study.** Emory University (Georgia), Ph.D., 1971;

FAKSH, Mahmud A. **Education and Political Modernization and Change in Egypt.** Ph.D., The University of Connecticut (Connecticut), 1973 ;

FARGHAL, Mahmoud Hassan. **The Theory of Modernization in the Qur'an and Some Implications for the Arab World.** Ph.D., 1978, New York University;

FITZGIBBON, Edward Michael, Jr. **Alexander I and the Near East: The Ottoman Empire in Russia's Foreign Relations, 1801-1807.** The Ohio State University (Ohio), Ph. D., 1974;

GOZE, Haluk Necdet. **Modernism and Traditionalism in the Ottoman Empire 1970-1922.** The American University (Washington, D.C.), Ph.D., 1964;

HACKLEY, Lloyd Vincent. **Soviet Behavior in the Middle East as a Function of Change in the Interactive Environment, 1950-1970.** Ph.D., The University of North Carolina at Chapel Hill (North Carolina), 1976;

HARRIS, Jonathan. **Communist Strategy Toward the «National Bourgeoisie», in Asia and the Middle East : 1945-1961.** Ph.D., Columbia University (New York), 1966;

Hassanein, Ahmed Taher : **The literary rôle of Syrians in Egypt 1798-1919,** American University, Cairo, 1968;

HAMDUN, Muhammad Ahmad. **Islamic Identity and the West in Contemporary Arabic Literature.** Temple University (Pennsylvania), Ph. D., 1976.

KALOTI, Sami Abdullah. **The Reformation of Islam and the Impact of Jamal Al-Din Al-Afghani and Muhammad Abduh on Islamic Education.** Marquette University (Wisconsin), Ph.D.;

KEARNEY, Helen McCready. **American Images of the Middle East 1824-1924 : A Century of Antipathy.** Ph.D., The University of Rochester (New York), 1976;

KHALIL, Houssam El-Dawla H. **The Soviet Foreign Policy toward Egypt 1955-1964**. Ph.D., Howard University (Washington D C), 1970;

KHOURY, Nabil Abdo. **Islam and Modernization in the Middle East : Muhammed Abduh, an Ideology of Development.** Ph.D., State University of New York at Albany (New York), 1976;

LEISER, Gary La Viere. **The Restoration of Sunnism in Egypt Madrasas and Mudarrisun 495-647/1101-1249.** Ph.D., University of Pennsylvania (Pennsylvania), 1976;

MALIK, Rab Nawaz. **The Development of Muslim Educational Thought (1700-1900),** University of Kansas (Kansas), Ph.D., 1968;

MAYER, Ann Elizabeth. **Abbas Hilmi II : The Khedive and Egypt's Struggle for Independence.** (Volumes I and II). Ph.D., The University of Michigan (Michigan), 1978;

MELKA, Robert Lewis. **The Axis and the Arab Middle East, 1930-1945**. Ph.D., University of Minnesota (Minnesota), 1966;

MELLINI, Peter John Dreyfus. **Sir Eldon Gorst and British Imperial Policy in Egypt, 1907-1911.** Ph. D., Stanford University (California), 1971 ;

MERRIAM, John Goodwin. **A Study of Political Modernization Process in the Liberal Constitutional Period : Egypt, 1923-1928.** Ph.D., Indiana University (Indiana), 1970;

MOHSEN, Safia K. **Quest for Order among Awlad Ali of the Western Desert of Egypt.** Ph.D., Michigan State University (Michigan), 1971;

OKADIGBO, Chuba. **On Hegel's Treatment of Egypt.** Ph.D., The Catholic University of America (Washington, D.C.), 1973;

PELLETIERE, Stephen Charles. **Press and the Politicization of Young Egypt : The Process of a Revolt.** Ph.D., University of California, Berkeley (California), 1978;

PHILIPP, Thomas. **The Role of Jurji Zaidan in the Intellectual Development of the Arab Nahda from the Beginning of the British Occupation of Egypt to the Outbreak of World War I.** Ph.D., University of California, Los Angelos (California), 1971;

QUINN, Charlotte Alison. **Traditionalism, Islam and European Expansion : 1850-1890.** University of California, Los Angelos (California), Ph.D., 1967;

RAFUSE, John Laurence. **Egypt and the British Parliament, 1882-1918.** Ph.D., University of Notre Dame (Indiana), 1972;

SAARI, Elanore Marie. **Non-Economic Factors and Systems of Cities, The Impact of Islamic Culture on Egypt's Urban Settlement Pattern.** University of Minnesota (Minnesota), Ph.D., 1971, 177 p;

SADAT, Deena Ruth. **Urban Notables in the Ottoman Empire : The Ayan.** Rutgers University, the State University of New Jersey, New Brunswick (New Jersey), Ph.D., 1969;

SHAKIR, Abdulmunim Ahmad. **Individual and Social Responsibility in Islamic Thought.** New York University (New York), Ph.D., 1966,

SPARHAWK, Franklin Jensen. **Al Haqq : The Decline of Empires-A Case Study of the Ottoman Empire.** Cornell University (New York), Ph.D., 1977;

TALHAMI, Ghada Hashem. **Egypt's «Civilising Mission» : Khedive Ismail's Red Sea Province, 1865-1885.** Ph.D., University of Illinois at Chicago Circle (Illinois), 1975;

WALZ, Terence. **The Trade Between Egypt and Bilad As-Sudan, 1700-1820.** Ph.D., Boston University Graduate School (Massachusetts), 1975, 483 pp;

YOUNG, Robert Lee. **Study Abroad and National Purpose in the Middle East.** Ph.D., Stanford University (California), 1965;

مراجع البحث التكميلية

أبو النجا ؛ أبو المعاطى : **العودة الى المنفى حياة عبد الله النديم** ؛ روايات الهلال ؛ دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٩

أحمد حسين الصاوى : **فجر الصحافة فى مصر – دراســـة فى أعلام الحملة الفرنسية** ، (الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة ١٩٧٥)

أحمد المقاذى : **الصحافة الفنية فى مصر ، نشاتها وتطورها من الحمـلة الفرنســـية ١٧٩٨ الى مصر الدســـتورية ١٩٢٤** ، (الهيئـــة المصرية للكتاب – القاهرة ١٩٧٨)

الجندى ، أنور : **عبد العزيز جاويش ، من رواد التربية والاجتماع** ، أعلام العرب ٤٤ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والابناء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٥ .

السعيد ، رفعت : **ثلاثة لبنانيين فى القاهرة ، شبلى شميل ، فرح انطون رفيق جبور** ؛ دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣

الشرقاوى ، رفعت محمد : **مكتبة سيد رافت** ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٢

الشرقاوى ، محمود : **الجبرتى وكفاح الشعب** كتاب الهـــلال رقم ١٨٤ القاهرة ١٩٦٦ .

الشناوى، عبد العزيز محمد : **عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية** أعلام العرب دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ، يوليو ١٩٦٧

المقاري ، أحمد : **الصحافة الفنية فى مصر ، نشاتها وتطورها من الحملة الفرنسية ١٧٨٩ الى مصر الثورية ١٨٢٤** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨

النجار فوزى : **رفاعة الطهطاوى** ، الدار المصرية للتاليف والترجمـــة ، القاهرة (د. ت)

الهراوى ، عبد السميع سالم : **لغة الادارة العـــامة فى مصر فى القرن عشر** ، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ؛ ١٩٦٣

حامد ، رؤوف عباس : **النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ١٨٣٧ ــ ١٩١٤** ، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٣

حجازى . محمود فهمى : **أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطـاوى** ، هيئة الكتاب ؛ القاهرة

خضر ، عباس : **القصة القصيرة فى مصر منذ نشأتها حتى عام ١٩٣٠** ، الدار القومية للطباعة والنشر ؛ القاهرة ١٩٦٦

رزق ، يونان لبيب : **تاريخ الوزارات المصرية**

رمضان ، عبد العظيم : **تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ ــ ١٩٣٦)** هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩٣٧ ــ ١٩٤٥) ، دار الوطن العربى ؛ بيروت

الجيش المصرى فى السياسة ، هيئة الكتاب القاهرة
صراع الطبقات فى مصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

رمضان ، صالح : **الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر اسماعيل من ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩** ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٧ .

سالم ، سعيد مصطفى : **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر** ، مركز الدراسات اليمنية ، القاهرة ، ١٩٤٧

سليمان ، وليم : **الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية** ، وزارة الثقافة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر (بدون تاريخ)

سيد أحمد ، أحمد أحمد : **رفاعة رافع الطهطاوى فى السودان** ، لجنـــة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٣ .

عباس ، رؤوف : **النظام الاجتماعى فى مصر فى ظـــل الملكيات الزراعية الكبيرة ١٨٣٧ ــ ١٩١٤** ، دار الفكر الحديث القاهرة .

عبد الصبور مرزوق : **الخطابة السياسية فى مصر من الاحتلال البريطانى الى اعلان الجمعية** ·

(دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٦٧)

عبد الله نبيه بيومى : **تطور فكرة العربية فى مصر** ، هيئة الكتاب القاهرة

عرابى ، أحمد : **مذكرات عرابى بقلم زعيم الثورة العرابية** ، الجزء الأول كتاب الهلال رقم ٢٣ ، القاهرة ١٩٥٣ ، الجزء الثانى كتاب الهلال رقم ٢٤ ، القاهرة ١٩٥٣ ·

عزيز سامى : **الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى** ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨

على ، سعيد اسماعيل : **الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دراسة فى تطور العلاقات بين التربية والسياسة** ؛ دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤

عيسى . : **الثورة العرابية** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ؛

غنيم ، محمود : حفنى ناصف ، **بطولة فى مختلف الميادين** ، أعلام العرب الدار المصرية للتأليف والترجمة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥

قرقوط . ذوقان : **تطـــور الفـــكر العربى فى مصر ١٨٠٥ ــ ١٩٣٦** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ·

متولى ، محمد : **الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها** ، هيئة الكتاب ، القاهرة ؛ ١٩٧٤

مرزوق ، عبد الصبور : **الخطابة السياسية فى مصر من الاحتلال البريطانى الى اعداد الحماية** ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧

هيكل ، أحمد : **تطور الأدب الحديث فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر الى قيام الحرب الكبرى الثانية** ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨

Gran, Peter : **Islamic doots of Capitalism : Egypt 1760-1840,** University of Texas Press, Austin and London, 1979;

——— : «Modern trends in Egyptian historiography : a review article», **Int. J. Middle East Stud.,** 9 (1978), 367-71;

Louca, Anouar : **John Ninet «Lettres d'Egypte 1879-1882»** C.N.R.S Paris. 1979;

urishi, Zaheer Maqsood : **Liberal Nationalism in Egypt,** Kitab Mahall, Allahabad, 1967;

Aaymond, A., **Artisans et commerçants au Caire au XVIII siècle.** 2v. Damascus, 1973.

Ziadeh, Farahat J. : **Lawyers, the Rule of Law and Liberalism in Modern Egypt,** Stanford University, Stanford 1968.

Peuples d'Afrique

Editions du Cap, Monte Carlo, 1971.

Egypte, socitté militaire

Le Seuil, Paris, 1962

Editions italienne (Einaudi, Turin, 1967); espagnole (Editorial Tecnos, Madrid, 1967); américaine (Random House-Vintage Books, 1971).

Anthologie de la littérature arabe contemporaine

II. *Les* essais

Le Seuil, Paris, 19656;

2ème édition revue et augmentée, 1970.

3éme ed., 1975.

Kültur Emperyalizmi

AtaÇ Kitabevi,Istanbul, 1967

Idéologie et renaissance nationale : *L'*Egypte moderne

Anthropos, Paris, 1969

La pensée politique arabe contemporaine

Le Seuil, Paris, 1970 : 2ème éd. 1975; 4éme éd. 1980.

Editions turque (Altan Kitaplar, Ankara, 1971); italienne

(Editori Riuniti, Rome, 1973

Sociologie de L'impérialisme

Sociologie de *L'*impérialisme

Anthropos, Paris, 1971.

La Dialectique Sociale

Le Seuil, Paris, 1972

trad. Japanese (Iwanami Shoten, Tokyo); Spalnish
(Siglo xxi, Mexico); Italian (Dedalo, Bari);
Portuguese (Paz e Terra, Rio-de-janeiro);

L'armée dans la nation (Asie, Afrique, Amérique latine)

SNED, Alger 1975

***La* Renaissance du monde arabe**

Avec Abdel-Aziz Belal et Hassan Hanafi

Duculot, Bruxelles. 1982

Specificité et théorie sociale

Anthropos, Paris 1977

The Project on «Socio-cultural Development Alternatives in a changing World (SCA) : Report on the Formative Stage UNU Press, Tokyo, 1980.

Vivilisations and Social Theory, Social Dialectics : 1 The Macmillan Press, London & S.U.N.Y. Press, Albany, N.y., 1981

Nations and Revolutions, Social Dialectus : 2 The Macmillan Press, London and S.U.N.Y. Press, Albany, NY, 1981.

Intellectual Creativity in Endogenous Culture (with A.N. Pandeya), UNU Press, Tokyo, 1982.

Science and Technology in the Transformation of the World (ed. with M. Pecujlic and G. Blue), UNU Press, Tokyo, 1982.

The Transformation of the World : 1) Science and Technology (ed. with M. Pecujlic and G. Bluer), The Macmilan Press, London, 1982.

Contemporary Arab Political Thought, Zed Press, London, 1983.

فهـــرس

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٨٦٣ / ٢٠٠١

I. S. B. N 977 - 01 - 7368 - 1